أحفاد إبراهيم

هجرة اليهود إلى الأرض المقدسة (فلسطين)

قضاء رباني

حدث مؤقت ويزول

للفلسطينيين حقوق حفظها كتاب الله وأنكرها الظالمون

قضية دينية سياسية عالمية

تأليف

جميل رشيد عبد الله الصالح

دار المأمون للنشر والتوزيع

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(٢٠٠٣/٤/٧٩٩)

٩٥٦،٤

صال الصالح، جميل رشيد عبد الله

أحفاد إبراهيم: هجرة اليهود إلى الأرض المقدسة (فلسطين)

قضاء رباني ، حدث مؤقت ويزول ، للفلسطينيين حقوق

حفظها القرآن وأنكرها الظالمون.

قضية دينية، سياسية، عالمية/ جميل رشيد عبد الله الصالح

عمان: المؤلف، ٢٠٠٣، (٥٢٦) ص.

ر.أ (٢٠٠٣/٤/٧٩٩)

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

* مجاز في دائرة المطبوعات والنشر تحت رقم ٢٠٠٣/٤/٧٨٤

إهداء

- إلى كل من اتبع الحق وشهد به وقاله ليبلغه الجاهلين ليعيدهم إلى طريق الحق.
- إلى الشعب الذي ثبت على الحق ويتحمل الصعاب في سبيل ذلك وشهد رسول الله ﷺ أنه في جهاد دائم إلى يوم القيامة.
- إلى الجاهلين ليثوبوا إلى رشدهم، الذين يعلمون أن عودة اليهود إلى فلسطين قضاء رباني وذكره الله في القرآن ويعلمون أن لا رادَّ لقضاء الله ومع ذلك يلومون الشعب الفلسطيني إتباعاً لوسائل إعلام مضلة.
- إلى الشعوب الأوروبية والأمريكية:
  - يا من تظنون أنكم تتبعون عيسى عليه السلام، اقرأوا كتابكم وافهموه.
  - من هو شعب الله المختار؟ أهو الذي آمن بعيسى أم الذي كفر به وحاول قتله؟
  - أفيقوا يا من تؤيدون الذين كفروا بعيسى ضد الذين آمنوا به كما آمنوا بمن بشر به من بعده.

المؤلف

جميل رشيد عبدالله

حياة المؤلف

(جميل رشيد عبدالله)

- من مواليد شويكة ـ قضاء طولكرم عام (١٩٤٥م).
- أنهى دراسته الثانوية العامة في طولكرم عام (١٩٦٤م).
- أنهى دراسته الجامعية من جامعة عين شمس ـ كلية الهندسة عام (١٩٦٩م).
- التحق بالقوات المسلحة الأردنية لأداء الواجب المناط على كل من لديه حس قومي بالقضية الفلسطينية.
- أحيل على التقاعد عام (١٩٩١م) برتبة عميد.
- عمل في جيش الإمارات العربية المتحدة لمدة ثمانِ سنوات، قام خلالها بدراسة مستفيضة لمختلف جوانب القضية الفلسطينية التاريخية والدينية والسياسية ودون قناعته في هذا الكتاب.

في الكتاب

- دعوة إبراهيم (عليه السلام) إلى الله وإرساله إسماعيل (عليه السلام) وأمه إلى أرض مكة ومعيشة إسحاق (عليه السلام) وذريته من بعده.
- معيشة بني إسرائيل في مصر منذ تسلم يوسف (عليه السلام) السلطة فيها حتى بعثة موسى (عليه السلام) وعبور بني إسرائيل البحر إلى الصحراء.
- دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة بقيادة طالوت وطرد الأسباط العشرة منها واستمرار معيشة السبطين فيها برعاية الله.
- عبارة (بني إسرائيل) في القرآن قد تعني سبطين أو عشرة أسباط أو اثني عشر سبطاً وذلك تبع موضعها والمخاطبون بها في الآية.
- كلمة إسرائيل في الكتاب المقدس قد تعني سبطين أو عشرة أسباط أو اثني عشر سبطاً أو كل مؤمن من بني إسرائيل أو كل فرد من بني إسرائيل وذلك تبع موضعها والمعني بخطابها في النص.
- توضح التوراة أن داود (عليه السلام) وأن تلاه من الأنبياء (سليمان/العزير/أيوب/يونس/ زكريا/يحيى/عيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام.... وغيرهم) أنهم أجداد الشعب الفلسطيني.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم- الحمد لله رب العالمين،،

الحمد لله الذي هدانا للاسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

نحمده تعالى على القرآن العظيم، فيه هدى للمتقين، وفيه خبر الأولين، وخبر الآخرين، ومن إعجازه أنه الصدق المطلق، وهذا يعني أن لا تناقض فيه بين آية وأخرى.

من خلال تدبري لآيات القرآن وجدت تناقضاً ظاهرياً بين آيات تتحدث بمدح دائم لبني إسرائيل وأخرى بذم دائم لبني إسرائيل، وهذا التناقض لا يزول إلا إذا كان المعنيون في آيات المدح غير أولئك المعنيون في آيات الذم.

عدت إلى أصول اللغة العربية فوجدت أنه يجوز نداء الجزء بلفظ العموم ما دام الجزء أكثر من اثنين (جمع)، وهذا ينسحب على نداء بني إسرائيل في القرآن.

بحثت في تقسيمة بني إسرائيل في كتاب الله فوجدتها واضحة في سورة يوسف، حيث أن هناك عشرة أغواهم الشيطان بقتل أخيهم يوسف عليه السلام حسداً من عند أنفسهم لأن أباهم يحبه أكثر منهم، واكتفوا بضغط من أحدهم برميه في بئر على طريق التجارة ويأخذه عبداً من ينتشله من المارة بالبئر، أو يموت جوعاً إذا لم يمر به أحد، وهناك يوسف وأخوه الصغير من أهل الخير، وهم في مجموعهم اثنا عشر معظمهم من أهل الشر وقليلهم أهل خير. أنجب كل من بني إسرائيل مع الزمن عائلة (سبط) والعائلتين يعتبروا بني إسرائيل، والعشرة عائلات هم أيضاً بنو إسرائيل، والإثنا عشر عائلة هم أيضاً بنو إسرائيل.

إن الكتب التي ذكرتها في المراجع وأكثر منها لم أذكرها، فإنها جميعاً لا تفرق بين نداء وآخر من النداءات التي تخص بني إسرائيل في كتاب الله، وكذلك فإنها لا تفرق في الزمن بين نداء وآخر وتعتبر أن جميع النداءات لنفس المخاطبين، لذا فإنها تهرب من بيان معظم النداءات أو أنها تخطئ في تفسير الحدث الملازم للنداء.

اطلعت على كتب التفسير وكتب التاريخ وتابعت أحفاد إبراهيم مع الزمن وقابلت ما جاء في كتب التاريخ بما جاء في كتاب الله ووصلت إلى استنتاجات كبيره أهمها:

١. أن الشعب شرقي نهر الأردن وغربه هم أحفاد يوسف عليه السلام، وهم شعب الله المختار.
٢. أن يوسف عليه السلام تسلم السلطة في مصر، وأن فترة حكمه وأخلافه من بعده هي العصر الذهبي للدولة المصرية.
٣. أنه يحكم القدس وفلسطين، أقوى دولة على وجه الأرض على مر الدهر.
٤. أن دولة الإسلام الأولى كانت في مصر لمدة تزيد عن خمسة قرون.

إن كتب التاريخ المذكورة في المراجع تنفي بالنص الصريح ما ذكرته من حقائق تاريخية حول دولة الإسلام في مصر وما حققه أنبياء الله فيها، ولكن هذه الكتب تذكر بالصفات والأحداث التي تتفق مع ما جاء في كتاب الله حول تسلم يوسف عليه السلام السلطة في مصر وفي ظهور دولة الإسلام فيها لخمسة قرون.

وإنني أظن أن التغيير/ التزوير الموجود في كتب التاريخ أنه متعمد لأنه كله يصب في اتجاه واحد هو طمس حقوق أحفاد يوسف عليه السلام.

ملاحظة: إن زمن يعقوب يسبق زمن موسى وهارون بثمانمائة وخمسين سنة، وأن زمن موسى يسبق زمن داود وسليمان بمائتين وخمسين سنة، وأن زمن داود يسبق زمن عيسى بألف سنة، وأن زمن عيسى يسبق زمن محمد بأكثر من ستمائة سنة. عليهم جميعا الصلاة والسلام .

خطر ببالي أن أطلع على الكتاب المقدس لعلي أجد فيه ما يعينني على توصيل رسالتي لمن لا يؤمن بالقرآن من أهل الكتاب، وحمدت الله أن هداني لقراءة الكتاب المقدس، حيث توصلت من قراءته إلى استنتاجات كبيرة أخرى.

من الاستنتاجات التي وصلت إليها أن القائمين على الكتاب المقدس والمؤمنين به، فإنهم لا يفرقون بين نداء كلمة إسرائيل وأخرى، حيث أن كلمة إسرائيل في الكتاب المقدس لها خمسة معانٍ، ويعرف المقصود بالنداء بربطه بزمن النداء.

ووجدت أمراً آخر كبيراً جداً في أهميته وهي ذكر كلمة (الفلسطيني)، أو (الفلسطينيين) بكثرة في الكتاب المقدس وبعداء للإيمان وللمؤمنين ولأنبياء الله، وعلى سبيل المثال فإن هذه الكلمة تكررت في "سفر القضاة" اثنا عشرة مرة، وفي سفر "صموئيل الأول" مائة وثمانية وأربعون مرة، وفي سفر "صموئيل الثاني" ست وعشرون مرة، إضافة لذكرها في مواضع أخرى متفرقة، وأن الله تعالى يحث أنبياءه في الكتاب المقدس، على طرد الفلسطينيين من أرض كنعان (الأرض المقدسة) وعدم الإبقاء على أحد منهم وذلك ليرث بنو إسرائيل هذه الأرض التي كتب الله لهم.

أثناء معيشة بني إسرائيل في الصحراء وجزء منها العقوبة الربانية لأربعين سنة، انتشرت ديانة الإسلام التي جاء بها موسى عليه السلام في مصر وأرض كنعان وهي الجزء الشرقي من دولة مصر، ثم ما لبث الكنعانيون أن ارتدوا عن الدين إلى الوثنية فسلط الله عليهم قبائل أوروبية اسمها قبائل (الفلسطين) واحتلت هذه القبائل تركيا وسوريا والأرض المقدسة وطردت الكنعانيين واستوطنت فلسطين لمدة تقارب مائة سنة، ونشرت فيها الوثنية، وبدأت عملية الاحتلال في زمن رمسيس الثالث وأكملت احتلال الأرض المقدسة في زمن رمسيس السادس.

وتنفيذاً لوعد الله لإبراهيم عليه السلام، فقد جاء بنو إسرائيل بقيادة طالوت وداود ودخلوا الأرض المقدسة وطهروها من المحتلين الوثنيين الفلسطينيين، واستقر الإسلام في الأرض المقدسة منذ ذلك التاريخ تنفيذاً لوعد الله بوراثة الأرض والذي جاء في قوله تعالى:**(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ)** [الأعراف: ١٣٧].

حملت أرض كنعان (الأرض المقدسة)، اسم المعتدين الأوروبيين بعد ذلك وصار اسمها فلسطين. بالجهاد الذي قدمه المؤمنون من أحفاد إبراهيم استحقوا أن يكونوا الوارثين لهذه الأرض التي حملت اسم المحتلين المعتدين، وحمل المؤمنون من أحفاد إبراهيم اسمها الجديد بعد ذلك وصار اسمهم الفلسطينيين وهم حسب خطاب الله لهم في مختلف مراحل التاريخ بنو إسرائيل من أحفاد يوسف.

إن الخطر الكبير يكمن في أن من يقرأ الكتاب المقدس في الزمن الحالي، ولم يطلع على أحداث التاريخ يظن أن أبناء فلسطين اليوم (وهم الوارثون الشرعيون لها)، هم المقصودون بالعداء للإيمان وبوجوب طردهم، ومن هذا الخلط الخاطئ فإنه يؤيد المعتدين اليهود على الوارثين الشرعيين للأرض المقدسة.

إن عدم معرفة المقصودين بلفظ الفلسطينيين في الكتاب المقدس من قبل من يقرأونه من أتباعه وعدم معرفتهم للتفريق بين أجزاء بني إسرائيل وارتباطهم بالزمن وبالأحداث أديا إلى ظهور من يسمون المتصهينون النصارى، ويناصرهم الشعوب البعيدة عن دينها، وقد ظنوا جميعاً أن اليهود هم شعب الله المختار، وأنه يجب إعادتهم إلى أرض الميعاد، وسوء الفهم هذا أدى إلى ارتكاب جريمة التاريخ، وهي جمع اليهود من شتات الأرض وإسكانهم في فلسطين بدلاً من أصحابها الشرعيين، وتشكيل دولة إسرائيل الثانية على الأرض المقدسة التي كتب الله لأحفاد يوسف وهم الشعب شرق وغرب نهر الأردن والذين يقال لهم الأردنيون والفلسطينيون بالمفهوم الحديث الذي زرعه أعوان اليهود الذين فرقوا الشعب الواحد إلى شعبين.

ومما ساعد على هذا الفهم الخاطئ عدم معرفة القائمين على الدين الإسلامي بالتمييز بين أجزاء بني إسرائيل وفق ما جاء في القرآن الكريم، وهذا ما جعل المؤامرة العالمية تكتمل حلقاتها، وتمت جريمة

التاريخ؛ وهي احتلال فلسطين من قبل اليهود، وهذا ما تم ذكره في كتاب الله بأنه قضاء الله وآن الأوان لتعريف الناس بالحقائق التاريخية وبالحقوق الشرعية وأصحابها.

إن بداية المؤامرة كانت من المستعمرين الأوروبيين وعلى رأسهم بريطانيا وفرنسا وروسيا وتبعتهم الولايات المتحدة في وقت لاحق.

لقد أدرك هؤلاء أن المنطقة العربية غنية بمواردها العديدة وبموقعها بين الأمم، لذلك يجب السيطرة عليها وجعلها سوقاً للصناعات الغربية، ومصدراً للمواد الخام، وعدم السماح لها بإحراز أي تقدم صناعي أو غيره، وهذا الأمر يتم بخلق جسم غريب في المنطقة العربية لا تقبله الشعوب العربية، وهذا الجسم يجب دعمه وتسليحه بقوة كبيرة كافية لتحطيم أي قوة تحاول الاقتراب منه، أو تحاول إحداث تقدم من أي نوع، والدول العربية ستبقى تشتري الأسلحة من الدول الاستعمارية التي تبيعها من الأسلحة ما لا يصمد أمام ما لدى هذا الجسم الغريب، وبذلك فإن هذه الدول العربية تعيد ما لديها من أموال للدول الاستعمارية، ويستمر الأمر على هذا المنوال بشكل دائم.

تم استغلال المفاهيم الدينية المخطوءة والتزوير في كتب التاريخ، وهذا ما أوجد عمىً لدى الشعوب الأوروبية والروسية والأمريكية، وأدى إلى زرع اليهود في فلسطين، حيث التقت مصلحة اليهود الحاقدين مع مصلحة المستعمرين ، وتم إنشاء دولة إسرائيل التي لديها من الأسلحة بفارق نوعي تجعلها متفوقة دائماً على الدول العربية، رغم أن أسلحة الطرفين من نفس المصدر. لم يكتف الأعداء بهذا القدر من الإجرام، بل إنهم يريدون تثبيت المعلومات الخاطئة لتصبح حقائق، حيث طلبوا تغيير المناهج المدرسية لدى الدول العربية لما يوافق هدفهم بطمس الحقائق والحقوق وذلك بحجة الديمقراطية وقبول الآخر ومتطلبات النظام العالمي الجديد.

يريدون تحويل مؤامرتهم إلى قناعة لدى الأجيال، وأخشى أن يتم تنفيذ مطالب الأعداء من قبل أعوانهم.

إذا تم تعديل المناهج المدرسية لآبنائنا في مراحل دراسية مبكرة، فإن هذا يشكل خطراً كبيراً، لأن طفل المدارس الابتدائية لا يستطيع أن يقوم تاريخاً مخطوئاً حيث أنه ليس من

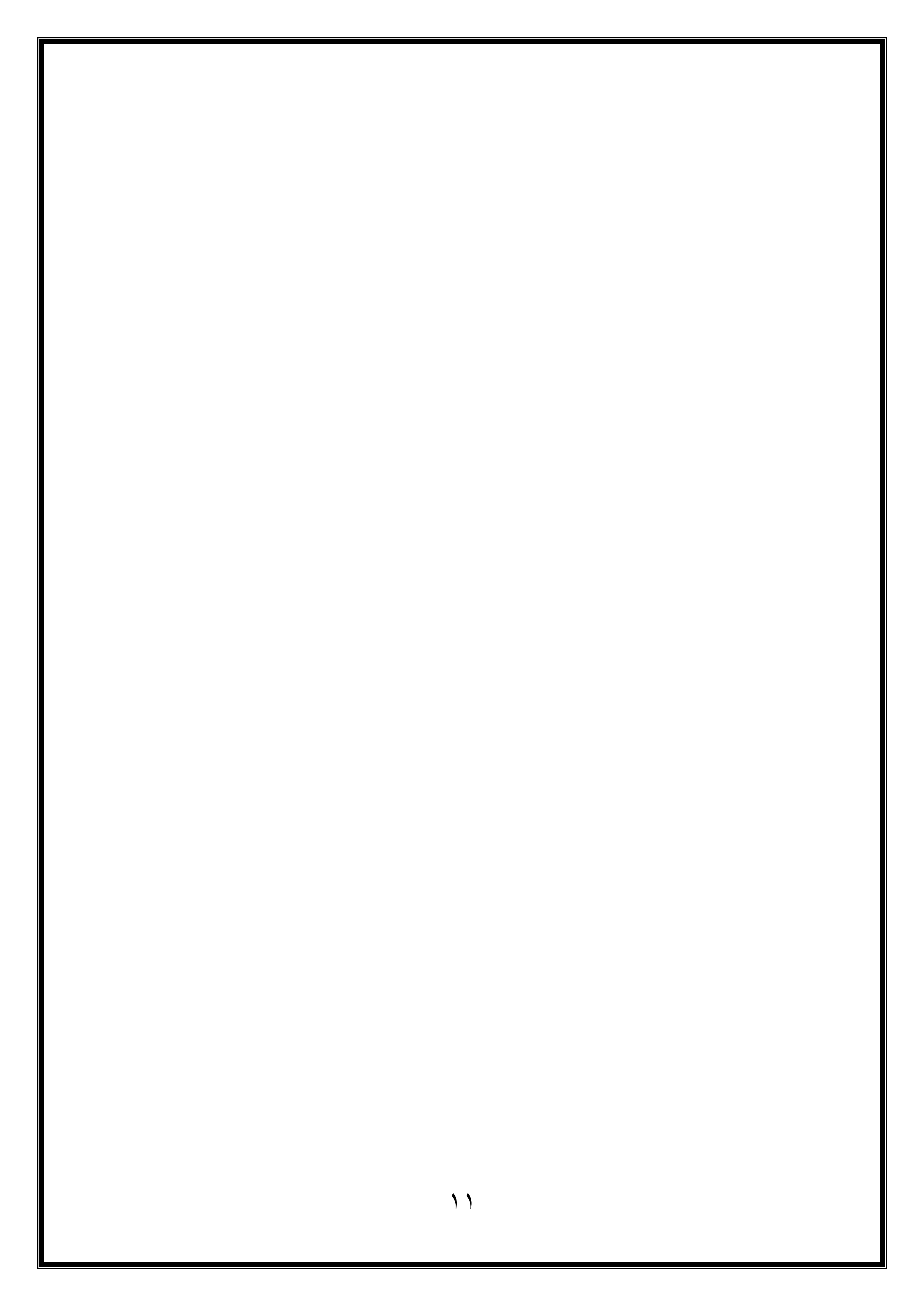
الاطلاع ولا من سعة الفكر ليستطيع تقويم منهاج مدرسي، ولكن المنهاج الخاطئ يستطيع طبع فكر الطفل ووضعه على الطريق الخاطئ، وسيصبح هذا الخطأ المتعمد فكر الجيل على اتجاه معين إذا ثبت هذا الفكر.

يا أيها الناس! إن الله تعالى طلب منا أن نفكر في كتابه الكريم وهو الصدق المطلق، وهذا يعني أنه يجب التفكير في كل شيء يدور حولنا سواء كان قولاً أو عملاً، واعلموا أن الأمر الخاطئ غير ملزم، وقال تعالى يبين ذلك:**(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ)** [القصص:٨]

إن ما يطمئننا أن الله تعالى ذكر عن قيام دولة إسرائيل الحالية، وأنها دولة فساد في كتبه السماوية، وذكر أيضاً عن إزالتها لأنها دولة فساد، وأشكر الله تعالى على ما هداني لفهمه، وأسأله تعالى أن يعجل فرجه الذي وعد بتحرير الأرض المقدسة من اليهود والقضاء على أعوانهم.

المؤلف

جميل رشيد عبدالله



الفصل الأول من يحكم القدس

الحمد لله الذي خلقنا وكرمنا وهدانا وجعلنا خلائف في الأرض مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠].

لقد بين الله تعالى في كتابه قصة نزول آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض ليعيشوا بعضاً لبعض عدوا ، وأن الله تعالى واصل رعايته وعنايته لآدم وذريته بإرسال الرسل والأنبياء تباعاً لتقويم البشرية كلما طرأ على مسيرتها بعض الانحراف عن الطريق القويم الذي اختطه الله تعالى وهو دين الله، دين التوحيد وهو الصراط المستقيم .

من كتاب الله المعجزة الأخيرة لخاتم الأنبياء والرسل نرى بأن الله اختار من البشر أفضلهم رسلاً لهداية البشرية ولحمل رسالات ربهم وإبلاغها لبني البشر.

كذلك فإن الله اختار من السنة أفضلها وهو شهر رمضان ومن شهر رمضان ليلة القدر وهي أفضل الزمان .

كذلك فإن الله تعالى اختار من الأماكن أفضلها فاختار الأرض عن بقية الكواكب والنجوم لإعمارها عما دونها من الكواكب والنجوم .

الأرض التي تبدو للناظر إليها من بعيد وكأنها الجوهرة تتلألأ وتزهو بألوانها المختلفة من بحار باللون الأزرق وسهول مزروعة وغابات باللون الأخضر وجبال حمر وجبال سود وصحاري باللون الأصفر وثلوج باللون الأبيض ، فسبحان من زينها وزخرفها. وسخر الله ما في جو السماء الدنيا من كواكب ونجوم لخدمة الحياة على هذه الأرض.

وقد بين الله تعالى تفاصيل خلق الأرض، وتسلسل مراحل خلقها والكثير عنها من الحياة عليها إلى فنائها.

وقد اختار الله تعالى من الأرض أفضل ما فيها من أماكن كما بين أن أفضل أماكنها هو بيت الله الحرام إذ قال في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٦]. وهو أول مسجد بني على الأرض وبنته الملائكة، وإذا اعتبرنا أن أول كائن بشري على هذه الأرض هو آدم، وأنه نبي فهذا يعني أن سيدنا آدم قد صلى فيه لأنه لابد من وجود مسجد لقوم فيهم نبي الله .

وتظهر أفضلية هذا المكان عند الله تعالى عما دونه من الأماكن على وجه الأرض أن جعله آمناً وذلك يتضح من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:٥٧].

وفضل الله تعالى المسجد النبوي في المدينة المنورة والمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وبارك في الأرض التي هو فيها والمسجد الأقصى هو موضع حديثنا في هذا الكتاب .

المسجد الأقصى هو ثاني مسجد أقيم في الأرض بعد البيت الحرام كما ورد في الأحاديث الشريفة، ويقع في مدينة القدس مركز الديانات الثلاث التي تسمى حالياً اليهودية والمسيحية والإسلام، وتتمتع القدس وما حولها بقدسية وبركة، وهذا ما يظهر من قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١].

وتظهر البركة جلية واضحة في إنتاجية أرض فلسطين التي تساوي أضعاف غيرها من الأرض من نفس المساحة، وهي الأرض الوحيدة في العالم التي تنتج كل أنواع الخضار والفواكه التي خلقت على وجه هذه الأرض إضافة إلى جودة ما تنتجه، وذلك والله أعلم من البركة الربانية التي ميزت هذه الأرض بوجود كثير من أنبياء الله تعالى فيها، وهذا ما يعطيها الشرف الكبير الذي لم تحظ به غيرها من بقاع الأرض ، كذلك فإن الله تعالى جعلها المحشر حيث تحشر البشرية إليها يوم القيامة من كل الاتجاهات وذلك للعروج إلى ربها ليوم الحساب . وهي معراج رسول الله ﷺ إلى السماوات العلا ليلة الإسراء والمعراج .

وقبل أن يعرج بالنبي ﷺ إلى السماوات العلا حضر الأنبياء جميعاً إلى المسجد الأقصى وصلى بهم إماماً وهذا يعني أن الأنبياء جميعاً بايعوا محمداً ﷺ على الإسلام كما بايعوا الله تعالى من قبل على هذا وأقروا بأنه نبي الله المرسل الخاتم وأنه إمام الأنبياء وأن الدين عند الله الإسلام وبأن الأقصى وما حوله أرض إسلامية، وقد تمت البيعة تنفيذاً لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١].

وهذا بيان من الله تعالى أن أرض الأقصى إسلامية وأن من يقول غير هذا يكون قد عارض إرادة الله تعالى ومآله إلى الخسران ويكون خارجاً عن نظام هذا الوجود كما أراده الله أن يكون: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران:٨٣].

كما أن من معاني إمامة رسولنا ﷺ بالأنبياء جميعاً، أن دين الله الذي جاء به الأنبياء جميعاً هو دين واحد وهو الإسلام، وأن رسالة محمد ﷺ مهيمنة على ما سبقها من رسالات.

ذكر الله تعالى لنا في كتابه الكريم تاريخ البشرية منذ نزول آدم إلى الأرض حتى نزول القرآن ذكراً صريحاً مختصراً صحيحاً كاملاً ، وما تم ذكره هو ما يهم البشرية ليكون مصداقاً لرسوله الكريم وتصحيحاً لما تم تحريفه من تاريخ هذه الأمم ورسالات أنبيائها التي تعرضت إلى إضافات وحذف مما أدى إلى تشويه مفاهيم منسوبة إلى الله تعالى فأنزل سبحانه ما يصحح تلك المفاهيم وما يدافع به عن رسله. وذكر الله تعالى عن بعض الأمم وما سيكون من أحداث بعد عهد النبي ﷺ، ليكون مصداقاً لرسالته وإثباتاً لإعجاز القرآن.

عودة إلى كتاب الله وفجر التاريخ ولنتتبع أهم الأمم الكبيرة ومناطق نفوذها ولنحاول أن نجد ربطاً من أي نوع بالأرض والمقدسات .

أول قائد لهذه البشرية هو آدم عليه السلام وهو النبي والقائد والأب والجد، ولم يكن له منازع على السيطرة على الأرض فالكل أبناؤه وأحفاده ﷺ .

ثم جاء من بعده نبي الله نوح عليه السلام الذي مكث نبياً يدعو إلى الله مدة (٩٥٠) تسعمائة وخمسين سنة ولم يؤمن معه إلا القليل وكذبه قومه واستهزأوا به: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر:١٠-١٤]، فأغرق الله الذين كفروا ونجى نوحاً ومن آمن معه، وما آمن معه إلاّ قليل .

وبذلك فإن قيادة البشرية عادت قليلة سهلة لا منازع فيها لنوح عليه السلام، وكانت منطقة نفوذه هي الأرض كلها .

يذكر الله تعالى في سورة الكهف أحد عباده الصالحين هو ذو القرنين وهو ليس بنبي، ولا يحدد كتاب الله إن كان قبل سيدنا نوح أم بعده ولكن من ذكر التعداد السكاني الكبير الذي نراه يستنتج أنه بعد سيدنا نوح وذلك لأنه وصل مشارق الأرض ومغاربها وأجزاء أخرى فيها .

قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٨٣-٩٧].

يظهر لنا من هذا العرض الجميل عدة أمور مهمة منها:

- انتشار مفاهيم دينية شاذة عن منهاج أنبياء الله، وذلك من قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ

﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف:٨٦-٨٨].

ـ انتشار لغات جديدة نتيجة لرحيل جماعات عن الأصل وملاقاتها لأمور أطلقت عليها مسميات لم تكن تعلمتها من أبيها آدم لعدم وجودها في بقعة معيشة آدم ﷺ ، والذي علم أبناءه وأحفاده أسماء ما هو موجود في بقعة معيشتهم معه، وذلك من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [الكهف:٩٣]. وهذا يعني أن الكلمات المضافة إلى اللغة الأصلية التي يتكلمونها كثيرة جداً بحيث يصعب التفاهم معهم .

ـ التنافس والسيطرة على مصادر الرزق وما يتبعه من فساد وقتال وحروب وذلك من قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف:٩٤].

ـ حدوث بعض التقدم العلمي من صهر الحديد بالنار ومزجه بالنحاس المصهور ليعطي سبيكة قوية ملساء لا يمكن اختراقها أو تسلقها، وذلك من قوله تعالى: ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف:٩٦-٩٧].

وتدل هذه القصة على بداية تكوين الشعوب والقبائل التي خلقها الله لتتعارف وتتعاون ولتكون على محور عبودية واحدة لا لتختلف وتتصارع كما يرى الآن في حياتنا.

وذو القرنين هو أول قائد على صراط مستقيم يهيمن على هذه الأرض وتكون له الغلبة والنصر من ربه .

إن أرض الإسراء هي التي تربط آسيا بإفريقيا وإن ذا القرنين كانت له السيطرة على الأرض بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف:٨٤]. وتدل باقي الآيات على حركته من مغرب الشمس إلى مشرقها وهذا يدل دلالة قوية على أن أرض الإسراء كانت تحت حكم أقوى حاكم على الأرض في ذلك الزمان .

إن الله تعالى كان يرسل الأنبياء والمرسلين كلما طرأ انحراف على نظام الحياة كما أراده الله وحده والأخذ بشرائعه في الحياة، ذلك الانحراف الذي يدعو إليه عدو الإنسان الأول: الشيطان الذي يحرك ما بداخل البشر من غرائز مما تؤدي إلى انحراف المسيرة الصحيحة.

يؤخذ من كتاب الله أن البشرية استقامت على دين الله من بعد نوح، وظهور قادة مستقيمين مثل ذي القرنين أدى إلى أن تطول فترة الاستقامة وإلى تكوين الشعوب واللغات، إلى أن تمكن الشيطان وأعوانه من الصعود إلى سدة القيادة لدى إحدى هذه الأمم وتسمى عاداً فأدى إلى انحرافها ، فأرسل الله نبيه (هوداً) ﷺ ، إذ قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا

تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٥-٦٩].

عجباً لأناس لا يقبلون أن يكون الرسول أحدهم وأفضلهم ويكون معروفاً من قبلهم بالصدق والأمانة وحسن الخلق حتى إذا اختاره الله دب في قلوبهم الحسد وكذبوه . ولكن الله غالب على أمره وينصر رسله وتعود الاستقامة إلى الحياة .

يذكر الله تعالى في موضع آخر قوم عاد بقوله : ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

يظهر لنا أن عاداً كانت أكبر قوة في الأرض واستكبروا بغير الحق وهذا ما لا يقبله الله وهو الاستكبار بغير الحق ، ومما يدل على أنهم كانوا أكبر قوة في هذه الأرض قول الله في الآية الكريمة : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت:١٥].

لقد بين الله تعالى أنه لا يوجد من هو أقوى منهم إلا الله تعالى وبذلك فهم أقوى من باقي أمم الأرض في ذلك الحين (تلك الفترة الزمينة). لم تحدد الآية الكريمة مكان وجودهم، وتقول بعض كتب التفاسير أنهم كانوا بين اليمن وحضرموت دون أي إسناد من أي نوع إلا كلمة أحقاف التي في قولـه تعالى : ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأحقاف:٢١].

والأحقاف : جمع حقف وتعني الكثيب المرتفع من الرمال وقد كانت منازلهم على المرتفعات المتفرقة ومثل هذه المرتفعات موجودة في حضرموت ، ونحن نقول هنا إن المرتفعات موجودة في كل مكان من العالم ، والسكن المرتفع أفضل من السكن في الوديان من كافة النواحي، وهذا ما يدركه الجاهل مع العالم .

لذا فإنني أرى أن كلمة أحقاف تدل على أية أماكن مرتفعة أينما وجدت سواءً في حضرموت أو في منطقة جرش من الأردن حيث يوجد قبر أثري كبير مدون عليه أنه قبر النبي هود عليه السلام وهذا ما نرجحه ولا نؤكده، وكذلك الزمان فلنتركهما لعلم الله، ودمر الله الذين كفروا من قومه ونصر رسوله والذين آمنوا معه : ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٨-٢١] .

عادت الحياة إلى استقامتها كما أراد الله فترة من الزمن ما شاء الله لها أن تكون إلى أن تمكن أعوان الشيطان من الارتفاع إلى إدارة شؤون أمتهم وكان ذلك في قوم ثمود. ويتبين ذلك من قول الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:٧٣-٧٤] .

بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات أن قوم ثمود جاءوا بعد قوم عاد، كما أن القوة انتقلت إليهم، وهذا يعني أن قوم ثمود أخذوا بالتقدم والتطور إلى أن أصبحوا أقوى من قوم عاد سواء ضعفت عاد أم لم تضعف وأنهم كانوا على استقامة وظلوا يتقدمون إلى أن أصبحوا القوة الأولى في هذه الأرض ، ويمكن أن نلمح من الآيات الحضارة العمرانية الكبيرة التي كانوا يعيشونها حيث يبنون في السهول قصوراً وينحتون في الجبال بيوتاً ما تزال ظاهرة المعالم حتى يومنا هذا .

تذكرهم الآيات باستخلاف الله لهم في الأرض من بعد قوم عاد وإن اختلف المكان ولكن القوة والراية الأولى على هذه الأرض انتقلت إليهم، وكان لهم السلطان الأكبر على الأرض، ويظهر أن سلطانهم امتد لمسافات ومساحات شاسعة وهذا ما نجده في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤] .

لا تذكر هذه الآيات أين كان موطن ثمود وقد ذكر الله ذلك في آيات أخرى في سورة الحجر أنهم في منطقة تدعى الحجر وهو مكان بين الحجاز والشام ، ويمكن أن يعلم ذلك من خلال هذه الآيات أنهم كانوا ينحتون الجبال بيوتاً وهذه لم تحصل إلا مرة واحدة في التاريخ وفي مكان واحد لا يزال قائماً حتى اليوم، وهو في الأردن في سلسلة الجبال التي تقع شرق نهر الأردن وتسمى مدينة البتراء، وهي من المعالم الرئيسة في الأردن التي يزورها السياح وهي المدينة الوردية التي تتكون من حجر واحد لونه كالورد لأنها كلها منحوتة في الجبال. قال تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤].

هذا مع وجود مدائن صالح في منطقة تبوك ، وأما البترا فهي العاصمة، ويجدر بنا أن نشير هنا لأول مرة أن المسافة الأفقية بين البترا عاصمة ثمود وبين القدس لا تزيد عن مائتي كيلو متراً، وأن مدينة البتراء على بعد أقل من خمسين كيلو متر عن حدود فلسطين الشرقية وهذا يعني أن موقع القدس كان أحد مواقع قوم ثمود أيام تسلمهم زمام السلطان في الأرض.

ولقد نصر الله رسوله ومن آمن معه واستقامت المسيرة على دين الله، دين التوحيد إلى ما شاء الله لها أن تكون ثم طرأ بعض الانحراف على مسيرة البشر، فبعث الله نبيه إبراهيم عليه السلام ، حيث كان من قوم يعبدون الأصنام جنوبي العراق ولاقى في دعوته إلى الحق الكثير من العنت والتعب، ويظهر ذلك من

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦]. وقال تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٥٧-٦٠].

وبالطبع فقد أمسكوا به وسألوه من الذي حطم آلهتنا فأجابهم بأنه كبيرهم أي الصنم الكبير ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٦٢] . فأجابهم مشيراً إلى الصنم الذي بقي دون تكسير ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣].

وانتهى الأمر بعد نقاش إلى أن يحضروه أمام المسؤول الأول وهو الملك ليقضي في أمره، ويبدأ الحوار بين إبراهيم عليه السلام وبين الملك في ذلك العهد وكان يسمى بالنمرود كما ورد ، حيث ادعى أنه يحيي ويميت وبذلك أشرك نفسه مع الله تعالى في ملكه بدلاً من أن يشكر الله أن أعطاه ملكاً كبيراً ولقد أظهرت الآيات ذلك حيث تشهد بأن الله أتاه الملك ولقد ظهر هذا من قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فكان قرار الملك أن يعملوا له بنياناً كبيراً ويوقدوا فيه ناراً عظيمة ويلقوا إبراهيم عليه السلام في النار وكان ما أمر الملك ولكن النار لم تمس إبراهيم بسوء . ولقد أظهر الله تعالى فعلتهم بإبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٨-٦٩]، ونصر الله نبيه وتدخل في الأمر مباشرة حيث ورد هذا في قول الله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٠] .

لم يذكر كتاب الله اسم ذلك الملك الذي أشرك نفسه في ملك الله حيث قال : (أنا أحيي وأميت) وكان أن دمر الله ملكه .

ولقد ورد ذكره في كتاب **"البداية والنهاية"** المجلد الأول الصفحة (١٤١) لابن كثير حيث جاء : (قال مجاهد وغيره وكان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيم ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان والكافران النمرود وبختنصر).

المطلع على التاريخ يعلم أن الدنيا الواردة في الحديث الشريف تعني الدول العربية فقط في ذلك الوقت .

ولقد ورد عنه في كتاب ((**تاريخ الشرق الأدنى القديم**)) للدكتور أحمد أمين سليم ما يلي:

نارام سن : خلف والده مانيشتوسو (٢٢٩١-٢٢٣٥) ق.م . ويتميز عهد (نارام سن) بظاهرة فريدة من نوعها في تاريخ العراق القديم هي حمله للصفات الإلهية في ألقابه حيث ذكر في نصوصه أنه نارام سن المقدس إله أكد ، بالإضافة إلى مده لحدود دولته أكد إلى مناطق جديدة لم تصلها فتوحات ملوك أكد السابقين ، إذ تشير هذه النصوص إلى مده لنفوذ أكد حتى ساحل البحر المتوسط حيث يسيطر على ميناء على الساحل اللبناني بالقرب من صور وكذلك على ميناء في الشمال السوري . ويذكر النص المعروف باسم (لعنة أكد) والذي يؤرخ ببداية الألف الثاني قبل الميلاد أن ذلك يرجع إلى غضب الإله على نارام سن فخرب ملكه (ص٢٧٦) .

هل يوجد في كتاب الله ما يؤيد ما جاء في كتاب التاريخ ؟

أما بخصوص خراب ملكه، فقد ورد بالنص الصريح بالآية التي قال الله فيها: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٠].

وأما سعة ملكه فقد ذكر الله تعالى : ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة:٢٥٨] . وما يهمنا الآن هو هل كانت فلسطين ضمن ملكه؟ يذكر كتاب ((تاريخ الشرق الأدنى القديم)) أنه كان له ميناء على الساحل اللبناني قرب صور.

لقد ورد في كتاب الله تعالى عن هجرة محمد ﷺ لينجو من أذى قريش ما قاله الله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] . وقال الله تعالى أيضاً: ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة:١].

فالله تعالى وصف هجرة النبي ﷺ لينجو من أذى قريش من أرض مكة التي لهم سلطان عليها إلى أرض المدينة المنورة التي لا سلطان لهم عليها مستعملاً كلمة (يخرج)، أي يخرج من الأرض التي لهم عليها سلطان إلى أرض لا سلطان لهم عليها .

كذلك فإن الله تعالى وصف هجرة موسى عليه السلام لينجو من أذى فرعون عندما قتل الكافر حيث انحاز لمن هو من شيعته بقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٢٠-٢١]. وهنا أيضاً كلمة خرج استخدمت لتدل على أن موسى عليه السلام خرج من ملك فرعون وكامل دولته إلى أرض مدين حيث لا سلطان له على أرض مدين .

أما عن سيدنا إبراهيم عليه السلام فقد ورد قول الله فيه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم:٤٨-٤٩].

وردت هنا كلمة اعتزال أي أنه سيقيم مستقلاً عنهم وهذا يعني أنه داخل دائرة الملك، فالله قد تكفل بالملك ودمر ملكه وماذا يفعل خليفته وقد رأى فعل الله المباشر مع النار ومع تدمير الملك، ولقد بين الله تعالى مكان الاعتزال وهو المكان الذي ارتحل إليه نبي الله إبراهيم عليه السلام تاركاً قومه وما يعبدون من دون الله إلى الأرض التي بارك الله فيها والتي وردت في قول الله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:٧١]. وهذه الأرض التي تسمى في عهدنا فلسطين، وهذا يدل على أن فلسطين كانت تحت حكم النمرود في تلك الفترة من الزمان وكان أقوى رجال عصره على الأرض.

وفي فلسطين بدأ إبراهيم عليه السلام يدعو إلى التوحيد وهناك طلب من ربه الذرية الصالحة كما ورد في قوله الله تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠٠-١٠١]. وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٧].

تبين الآيات أن إبراهيم عليه السلام لم يلاق أي عنت في نشر ديانة التوحيد في موطنه الجديد، في المدينة التي حملت اسمه (مدينة الخليل) في فلسطين وفي مصر وفي الحجاز وانتشرت ديانة التوحيد وكانت أشد قوة في مصر في عهد الأسرة الحادية عشرة.

ومن خلال البحث في كتب التاريخ ؛ وبالتحديد في كتاب ((**مصر القديمة**)) للدكتور سليم حسن (المجلد الثالث ـ الصفحة الثانية) نجد ما يلي : ((غير أن الإنسان كان لا يعدم ذكر اسم الإله (أوزير) في هذه الأماكن وكذلك الإله (مين) ، ولم نسمع قط بذكر الإله (آمون) ، حتى عام (٢١٤٠ ق.م) ، ومع ذلك فإنه كان لا يذكر إلا نادراً جداً)) .

كان هذا الأمر في زمن الأسرة الحادية عشرة وبالتحديد في زمن (سهر تاوي) (انتف) وهو أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة .

والإله آمون هو ترجمة أو تسمية قديمة لإسم الرحمن الذي سيتبين معنا لاحقاً، وهذه هي ديانة التوحيد التي بدأت تنتشر في مصر وقد أرسى قواعدها إبراهيم عليه السلام الذي غادر العراق إلى فلسطين كما يتضح عام (٢٢٣٥ ق.م) أو حولها، وكان فتياً بنص آيات الله وبعد إقامته في فلسطين فترة من الزمن أتاه الله ولده إسماعيل وهو شيخ كبير وهو من زوجة مصرية وهي (هاجر) رضي الله عنها، وهذا يعني أن الزمن أصبح قريب من (٢١٧٠) قبل الميلاد وأخذ الأمر بعض الوقت لانتشار هذه الديانة فظهرت في النقوش الأثرية عام ٢١٤٠ ق.م.

ويبين كتاب **"مصر القديمة"** الصلة بين مصر وفلسطين من خلال لوحة عملها عزيز مصر في زمن الفرعون (نب حبت رع) منتوحتب الثانـي (٢٠٧٠-٢٠١٩) ق.م، الذي قام برحلة حربية إلى سيناء وجاء في تخليد عمله في تلك اللوحة ما يلي: (ولقد عاقبت الأسيويين في بلادهم، ولقد كان الخوف منه هو الذي نشر هيبتي، ونفوذه هو الذي بث الرعب مني، حتى أن البلاد التي وصلت إليها صاحت قائلة:مرحى مرحى بقوته ، إن حبه هو الذي جعل الأرضين تتحدان له، والآلهة تسعد زمنه) (المجلد الثالث صفحة٨١) .

ويستدل من هذه الجملة أن هذه الحملة ضمت فلسطين للحكم المصري منذ ذلك الزمان ، ولما لم تكن هناك بعد كتب سماوية ولضرورة المحافظـة على استمراريـة دين التوحيد ؛ فقد عزز الله هذه المناطق برسل أحدهم هو نبي الله إسماعيل عليه السلام في منطقة الحجاز ونبي الله إسحاق عليه السلام لفلسطين ورزق الله إسحاق يعقوب نبياً من الصالحين ليكمل عهد النبوة والدعوة إلى الله . ورزق الله يعقوب اثني عشر ولداً أحدهم سيدنا يوسف عليه السلام الذي اختاره الله لتصحيح ما طرأ على دعوة التوحيد في مصر .

مصر التي استقرت فيها ديانة التوحيد وأصبحت هي القوة الكبرى في الأرض كما تظهر آيات الكتاب المبين . قام يوسف ﷺ بتصحيح ما طرأ فيها من خلل على ديانة التوحيد التي نشرها إبراهيم ﷺ وأعادها إلى جادة الصواب .

إن ما طرأ على هذه الديانة ليس بالكثير إذ أن الفترة الزمنية بين يوسف ﷺ وبين جده إبراهيم تقارب المئتي عام، إضافة إلى أنه يظهر واضحاً من قول الله تعالى عندما جهزت زوجة العزيز للنساء وأخرجت عليهن يوسف: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف:٣١].

فقولهنّ : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف:٣١] ، يدل على أن هناك إيماناً بالله تعالى وملائكته ، وهذا من قبل أسوأ القوم ، فما بال أفضلهم. إن دل هذا فإنما يدل على أن هناك بقية من إيمان هي التي دعا إليها ورسخها برعاية ربه سيدنا إبراهيم ﷺ .

كان يوسف ﷺ والذي أخذ اسماً ملكياً هو (امنمحات ٢٠٠٠-١٩٧٠ق.م) هو مؤسس الأسرة الثانية عشرة كما سيتبين معنا ، واستمر حكم هذه الأسرة بالديانة الإسلامية التي بعث بها وآباؤه أنبياء الله يعقوب وإسحاق وإبراهيم واستمرت راية الإسلام عالية خفاقة زهاء أربعة قرون وذلك حتى سنة (١٧٨١ق.م) ، حيث قام انقلاب ديني أو علماني ضد الإسلام وتمكن الإنقلابيون من الانفصال بجنوب مصر ، واستمر الشمال مع فلسطين وجزء من ليبيا دولة واحدة تحكم بالإسلام ، وكان القائمون على هذه الدولة مهاجرين من سكان فلسطين وكما سيتبين معنا وتسمى هذه الحقبة في كتب التاريخ بأنها مرحلة حكم الهكسوس وأنه احتلال لمصر والمتتبع لما جاء في كتب التاريخ لو توخى الدقة فإنه سيصل إلى الحقائق التي يحاول الكتَّاب طمسها.

استمر حكم الهكسوس بديانة الإسلام لغاية سنة (١٥٨٠ ق.م) حيث قام هناك تمرد بقيادة (أحمس الأول ١٥٨٠-١٥٥٧ ق.م) الذي تمكن بعد معارك ومفاوضات من إخراج الهكسوس من مصر وعادوا إلى موطنهم بعد مفاوضات وقاموا ببناء مدينة القدس .

ومنذ عهد أحمس بدأ الانحراف عن دين الله وأخذ هذا الانحراف يشتد إلى أن ادعت حتشبسوت أنها ابنة الله وأنها أنجبت من زواج إلهي بوالدتها ، ثم استمر الانحراف يزداد إلى عهد رمسيس الثاني الذي ادعى لنفسه الألوهية وقال ما بينه الله تعالى بقوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤].

نحن هنا بصدد الكلام عن أن مصر كانت هي القوة الأولى في الأرض في تلك الفترة الزمنية، وهذا ما تثبته كتب التاريخ كما أن كتاب الله تعالى قد تحدث عن ارتفاع فرعون في الأرض والذي هو رمسيس الثاني.

وقد ظهر الانحراف الشديد عن دين الله ، وبدأ ملك مصر يتجبر ويسن القوانين والشرائع مما يجعله شريكاً لله في ملكه وكأنه إله الأرض وهناك إله آخر للسماء مصداقاً لقولـه تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس:٨٣].

تظهر الآية الكريمة أن الله تعالى نادى ذلك الملك بالفرعون لظلمه وجبروته، وكان للظلم الذي مارسه فرعون على بني إسرائيل ؛ أن بعث الله إليهم نبيه موسى ﷺ ليدعوه إلى الله وليرسل معه بني إسرائيل إلى الأرض المباركة التي هي أصلهم؛ وهي فلسطين ولكن دعواه ومحاولاته ذهبت دون جدوى : ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

وهكذا انتهت عظمة فرعون في مصر وكان عالياً في الأرض وانتهى عهد الظلم وخرج موسى ﷺ ببني إسرائيل وجاوز بهم البحر إلى اليابسة.

ومما جاء في كتب التاريخ ، وكما هو مبين لاحقاً أن موسى ﷺ وقومه عبروا البحر سنة (١٢٣٤ ق.م) ، وهو تاريخ نهاية حكم فرعون لمصر .

وطلب نبي الله موسى ﷺ من بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة فأبوا إلا أن يقدم الله لهم كل شيء ولا يقدمون له شيئاً حتى بعض الطاعة وبعض الجهد كما سنورده لاحقاً بالتفصيل وخذلوا الله ورسوله، فغضب الله عليهم لهذا الموقف المتخاذل وقال فيهم: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة:٢٦]. فتاهوا في الأرض عقوبة إلهية لهم.

وعلى أثر غرق فرعون ومن معه أجمعين دخلت مصر في مرحلة فوضى استمرت حوالي الثلاثين عاماً، وذلك بين مؤيد لفرعون ومؤيد لنبي الله موسى ﷺ ولدين الله الذي كان فيهم أصلاً. ولكن الله ينصر دينه وجنده دائماً.

وأخيراً تمكن (ستنخت) من الانتصار بدين الله ووحد مصر مرة أخرى وسيطر على الأمور كافة، وتمكن من بعده ابنه (رمسيس الثالث) من أن يستعيد أملاك مصر كلها في فلسطين وسوريا حتى نهر الفرات وأعاد لمصر أمجادها وعظمتها كأقوى قوة في الأرض وبدين الله.

انتشرت ديانة الإسلام التي جاء بها موسى في مصر وفلسطين التي يسكنها الكنعانيون ولم يطل الأمر معهم حتى ارتدوا عن الإسلام واتبعوا الوثنية، فجاءت قبائل الفلسطين الأوروبية واحتلت تركيا وسورية والأرض المقدسة ونشروا فيها الوثنية اثناء وجود بني إسرائيل في الصحراء الذي دام قرابة مائتي سنة، وسيكون على أيدي المؤمنين منهم تطهير الأرض المقدسة من الوثنيين الأوروبيين.

إن الله تعالى أراد أن يمن على بني إسرائيل ويستخلفهم في الأرض ويجعلهم القوة الأولى فيها وذلك بعد أن يدخلوا الأرض المقدسة .

ولقد قال الله تعالى مبشراً بني إسرائيل بما وعدهم: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾ [القصص:٤-٦].

وفي هذه الآيات تأكيد آخر على أن فرعون كان أكبر قوة في الأرض ويريد الله تعالى نقل هذه القوة من فئة فاسدة وكافرة إلى فئة صالحة وعلى أرض أخرى ثبت أنها أرض الأقصى وذلك من قوله تعالى : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٢١].

بعد أن انتقل موسى عليه السلام إلى جوار ربه بفترة من الزمن طلبوا من نبي لهم أن يعين لهم ملكاً ليأخذهم إلى الأرض المقدسة وذلك بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٦].

وأخيراً وبعد هذا الزمن تشجعوا بقيادة طالوت وعبروا نهر الأردن إلى فلسطين ونصرهم الله على جالوت الذي قتله داود حيث كان في الجيش الذي دخل ومن الفئة المؤمنة ، وهذا يظهر من قول الله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥١] .

وكان دخول بني إسرائيل عام (١٠١٥ ق.م) تقريباً ، وتسلم داود عليه السلام الملك بعد طالوت، وكان ذلك سنة (١٠٠٠ق.م) وفق ما تذكره كتب التاريخ ، وهكذا تمت كلمة ربك للذين استضعفوا في الأرض وجعلهم الوارثين بعاصمتهم القدس على أرض فلسطين وصارت دولتهم أقوى دولة في العالم ، وذلك من قول الله تعالى في سورة (ص): ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص:١٧-٢٠].

ويظهر جلياً أن الله تعالى شد ملكه فأي ملك يكون اكبر من هذا الملك وأي قوة أكبر من هذه القوة. إضافة إلى أن الله ألان له الحديد وعلمه صنعة الدروع لتقي من الحروب إضافة إلى تأييد الله لأنبيائه وجنده جند الحق وخلافته في الأرض التي قال الله فيها: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦].

واستمر حكم العدل لأقوى دولة عاصمتها القدس يحكمها نبي الله داود عليه السلام الذي استمر وسلم الأمر لابنه سليمان عليه السلام ليبقى على سبيل الحق وأكثر قوة حيث ورث الصلاح والنبوة والقوة وبينه الله تعالى في سورة (ص) بقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٣٠].

هذه شهادة من ربه وخالقه فإنه نعم العبد فهل هناك من شهادة أفضل من هذه الشهادة . وقال تعالى في سورة النمل : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل:١٥-١٦].

وسخر أيضاً لسليمان الريح والجن تعمل بأمره فهل بعد هذه القوة من قوة؟ وهكذا استقامت العدالة على الأرض المقدسة ومشارقها ومغاربها تُحكم بشرع الله إلى أن انتقل سليمان ﷺ إلى جوار ربه وكان ذلك عام (٩٣٤ ق.م) .

وانقسم بنو إسرائيل بعده إلى قسمين: القسم الأول وهم الأسباط العشرة الذين كانوا يسكنون شمالي فلسطين وأعلنوا أنفسهم دولة وسموها دولة إسرائيل وعاصمتها نابلس وهذا ما اضطر سبطي الخير في منطقة القدس أن يشكلوا قوة أخرى.

ووقع عدوان كبير من دويلة نابلس على دويلة القدس حسداً من عند أنفسهم، فلقد آن الأوان لينفسوا عن أنفسهم وعن غلهم الذي كتموه أكثر من ثمانين عاماً أي منذ دخولهم الأرض المقدسة وهم يعيشون منافقين يكتمون غيظهم ضد سبطي الخير الذين كانت فيهم النبوة والملك، وكانوا مطيعين لأنبياء الله الأقوياء الذين لا يستطيع أحد معارضتهم لقوتهم فكانوا يكتمون غيظ المنافق.

ووقعت في الوقت نفسه حركة عسكرية في مصر بقيادة ضابط من أصل ليبي اسمه شَشنق تمكن من الاستيلاء على الحكم ، حيث تغلب على حكام المقاطعات الذين كانوا يحكمون في زمن سليمان ﷺ وكان هو أحد كبار ضباط الجيش فسيطر عل الحكم في الدلتا ونظم الأمور.

وهجم على فلسطين وداهم القدس (عاصمة الإسلام) ونهب كنوز سليمان من المسجد الكبير (الهيكل كما يسمونه)، وكان هذا بالتعاون مع أسباط السوء وبهذه الطريقة عادت فلسطين جزء من الحكم المصري وشكل ششنق الأسرة الثانية والعشرين وبكل البعد عن دين الله الحق كان هجومه على القدس عام (٩٢٩ ق.م) .

استمر حكم مصر في فلسطين كما تشير الآثار وكتب التاريخ كما استمر العدوان من أسباط الشر أو ما يسمى دويلة إسرائيل على دويلة يهوداً وعلى مسمع ومرآى من الحاكم المصري خلال فترة تبعية فلسطين لمصر واستمر هذا الأمر لغاية حكم (تاكيلوت/٨٩٣-٨٧٠ ق.م) ، وهذا ما أطلق عليه الله تعالى فساد بني إسرائيل وذكر هذه العدوانية في كتابه العزيز.

خلال تلك الفترة كانت هناك إمبراطورية في طور النمو وتستعيد أنفاسها وتنمو من جديد وهي الإمبراطورية الآشورية التي بدأت تصحو وتغير على تخوم بني إسرائيل من الشرق ، بدأت غارات انتقامية على شمالي فلسطين في أعمال كر وقتل وكان ذلك انتقاماً ربانياً من أهل السوء لعدوانهم على سبطي الخير ، واستمر هذا الأمر إلى أن تمكن تجلات بلاسر من احتلال دمشق عام (٧٣٢ ق.م) ، ونفى من كان فيها من بني إسرائيل إلى خارج دولة آشور من الشرق .

لم تحدد كتب التاريخ متى كان انتقال سلطة الحكم في فلسطين من مصر إلى آشور ولكن هذه الكتب تذكر أن (تجلات بلاسر) عيَّن حاكماً لنابلس وأن هذا الحاكم نقض عهداً مما دعا شمـلنصر الخامس من حصار نابلس (سامرة) مدة ثلاث سنوات وتوفي في نهاية مدة الحصار وتسلم الأمور من بعده أخوه سرجون الثاني .

تمكن سرجون الثاني في السنة الأولى من حكمه من فتح السامرة وتقتيل من فيها وحمل معظم أهلها وسبيهم ونقلهم خارج الدولة الآشورية، وبذلك اندثرت دويلة إسرائيل من الوجود وكان هذا عام (٧٢٢

ق.م)، وهؤلاء القوم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء:٥]. وعاشت فلسطين ومن ورائها مصر في ظل الدولة الآشورية .

استمر الأمر كذلك إلى زوال الإمبراطورية الآشورية والتي تمكن نبوخذ نصر من السيطرة عليها وكانت دولته هي الدولة البابلية في طور النمو واستطاع أن يبني امبراطوريته الواسعة على أنقاض الإمبراطورية الآشورية كما استطاع أن يستولي على كل أملاك آشور ومن ضمنها فلسطين ومصر.

ومع الزمن وطرد الأسباط العشرة بقي في فلسطين سبطا الخير حيث انتشروا فيها، وبدأ الفساد يظهر على بعض حكامها نتيجة مصاهرتهم لأهل الكفر ، فأعلنوا التمرد على بابل فسلط الله عليهم نبوخذ نصر ، فحاصر القدس ودمرها وسبى الآلاف من سكانها ونفاهم إلى بابل وأبقى أهل الخير فيها فقط ، وكان هذا الأمر عام (٥٩٧ ق.م) للمرة الأولى ودخلها للمرة الثانية أيضاً عام (٥٨٦ ق.م) ودمر الهيكل. خلال تلك الفترة كانت هناك إمبراطورية جديدة فارسية في طور النمو تمكن أحد ملوكها وهو كوروش من الاستيلاء على بابل وعلى كافة أملاك الإمبراطورية البابلية ومن ضمنها فلسطين ومصر وكان ذلك عام (٥٣٩ ق.م) .

وبذلك انتقل حكم فلسطين إلى الدولة الفارسية واستمر هذا الأمر حتى سنة (٣٣١ق.م) ، حيث انتهت الدولة الفارسية.

بدأت الدولة المقدونية في اليونان في النمو وتسلم الأمور من أبيه الإسكندر المقدوني الذي استطاع أن يهزم الفرس وخلال ثلاث سنوات استولى على أملاك الدولة الفارسية، وكان ذلك عام (٣٣١ ق.م) ، ووصلت فتوحاته إلى سهول الهند ، وكان من ضمن هذه الفتوحات أيضاً فلسطين التي اعتبرها ممراً إلى مصر حيث فتح مصر ورحب به الشعب فيها لأنه خلصهم من الحكم الفارسي. ولم يمهله الزمن طويلاً حيث توفي في بابل عام (٣٢٣ق.م).

اجتمع مساعدوه وقرروا تقسيم ملكه إلى ثلاث دول بينهم وذلك بدلاً من أن يختصموا وكانت أقواها دولة البطالمة (نسبة إلى بطليموس اليوناني) وكانت فلسطين ومصر من ضمن أملاك دولة البطالمة وهي أقوى الدول الثلاث واستمر حكمهم حتى سنة (٢٠٠ ق.م)، حيث قويت الدولة السلوقية ، وهي الدولة الشرقية من الثلاث التي تجزأ إليها ملك الإسكندر المقدوني وتمكنت من احتلال كامل دولة البطالمة وصارت دولة السلوقيين مترامية الأطراف وأقوى دولة على الأرض وصارت فلسطين ومصر من ضمن أملاكها وتتمتعان بنوع من الحكم الذاتي الموسع وذلك لتسهيل إدارة الدولة المترامية الأطراف.

استمر الأمر كذلك حتى سنة (٦٣ ق.م)، حيث تمكنت الإمبراطورية الرومانية التي نشأت حديثاً وقويت وصارت أقوى قوة ؛ تمكنت من السيطرة على المنطقة ، حيث احتلت فلسطين عام (٦٣ق.م)، وكذلك احتلت مصر وصارتا ضمن أملاك الدولة الرومانية .

استمر حكم الدولة الرومانية حتى سنة (٣٩٥م)، حيث انقسمت الدولة الرومانية إلى دولتين: الدولة الشرقية منها هي الكبرى وهي الأقوى وسميت الدولة البيزنطية وعاصمتها بيزنطة وكانت فلسطين ومصر من ضمن أملاكها .

لم يأت في كتاب الله تعالى ذكر الآشوريين والبابليين نصاً وذكر أنهم: ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [الإسراء:٥]، وهذا يستدل منه على أنهم أشد من غيرهم وأقوى من غيرهم وأن لديهم غلظة وقسوة

في الحروب ولكن ورد ذكر (نبوخذ نصر) في كتب التفسير . وكذلك الأمر فإن السلوقيين والبطالمة والبيزنطيين لم يرد ذكرهم في كتاب الله بالنص الصريح .

وأما البيزنطيون فقد ورد ذكرهم في سورة الروم في كتاب الله وإذا كان معنى كلمة الروم يشمل كافة سكان أوروبا فهذا يعني أن كلمة الروم تشمل كل من السلوقيين والبطالمة اليونان والبيزنطيين وهذا هو الصحيح ، ومما يؤكد هذا الأمر أمران : أولهما أن فترة حكمهم لفلسطين كانت متلاحقة لا يتوسطها أحد من غيرهم .

والأمر الآخر أنه عندما نزلت آيات الله وذكرت الروم في سورة الروم كان حكام فلسطين في تلك الحقبة من الزمن هم البيزنطيون وهذا يعني أن الآية الكريمة سمتهم الروم و هذا يعني أنهم جميعاً مشمولون بكلمة الروم .

مما سلف نرى أن الله تعالى قد حفظ فلسطين والأقصى عبر التاريخ تحت سلطة أكبر قوة في الأرض، وقد تكون الحكمة من ذلك ما يلي:

ـ إذا كان المسلمون هم حكام الأقصى فهذا يعني أنهم أقوى قوة في الأرض وأن الله تعالى يكون بذلك قد استخلفهم في الأرض تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

ـ إذا انحرف المسلمون عن رضوان الله والصراط المستقيم فإن الله تعالى سيرسل عليهم من يهزمهم وستكون القدس هي عنوان هزيمتهم وبعدهم عن طريق الصواب . وبذلك فإن الله تعالى يطلب منهم أن يثوبوا لرشدهم ويعدوا القوة التي يرهبون بها عدو الله ويحررون القدس.

بقيت فلسطين تحت حكم الروم إلى بداية الإسلام . ولقد أنزل الله تعالى في ذلك آيات في سورة الروم ، وكان الفرس والروم أقوى دولتين في العالم والمنافسة بينهما شديدة .

وحصل مع بداية البعثة الإسلامية ولا يزال الإسلام في مراحله الأولى أن ازدادت قوة فارس على الروم فدارت بينهم معركة انتصر فيها الفرس فأنزل الله بذلك قرآناً يشهد ، وقال: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم:١-٥].

وفرح مشركو مكة نكاية بالمسلمين لأن مشركي فارس (عبدة النار) انتصروا على الروم الذين هم أهل دين ، وشعر المسلمون بالغيظ فعلاً لهزيمة أهل الدين ولكن الله تعالى طمأنهم بأنهم سيغلبون في بضع سنين .

ولهذا دلالة موجودة في كتب التفاسير وهو أن أهل الشرك على طريقة واحدة وأن أهل الديانات أقرب إلى بعضهم من قُرب أيٍّ منهم لأهل الشرك وللآيات مدلول آخر هو الذي نحن بصدده الآن .

يشهد الله تعالى بأن فارس صارت أقوى من الروم فهزموهم في معركة ، والسؤال الذي يطرح نفسه أين هذه المعركة ؟ وماذا احتلوا من أراضيهم؟ هل احتلوا بيزنطة أو أي جزء من أوروبا؟.

الجواب : لا بل هزموهم على أرض الأقصى واحتلوا منهم القدس وفلسطين . بعد بضع سنوات قويت الروم وهزمت فارس واستعادت أرض الأقصى والقدس .

وهذه شهادة من رب العزة أنه نقل عهدة القدس من الروم إلى فارس عندما صارت الأقوى وأنه أعادها إلى الروم عندما قويت على فارس .

وهكذا بقيت القدس حتى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعد أن انتصر المسلمون في معركة القادسية على فارس وبدأ المسلمون يتقدمون لنشر دعوة الإسلام شرقاً وانتهت دولة الفرس إلى الأبد . وبعد أربع سنوات فقط من معركة القادسية انتصر المسلمون على جحافل الروم في معركة اليرموك.

بعد معركة اليرموك صارت الدولة الإسلامية بمثل أولئك السلف الصالح الذين هم كما وصفهم الله، أقوى قوة في الأرض فنفذ الله وعده واستخلفهم في الأرض فاستسلم صفرونيوس حاكم القدس وطلب أن يسلم مفاتيح القدس لخليفة المسلمين الذي جاء مع خادمه ميسرة ووصل أسوار القدس ماشياً وخادمه راكباً الناقة حيث كانوا يتبادلون الركوب والمشي لطول السفر. أي عدالة هذه؟ وأي قرب من الله أكثر من هذا؟ وأي عطاء من الله أكثر من هذا التواضع مع القوة؟ مما لا يوجد إلا في عباد الرحمن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان:٦٣] .

وهكذا نقل الله مسئولية القدس إلى أقوى الدول التي قويت حديثاً وهذه المرة هي دولة الحق والعدل ؛ دولة الإسلام .

وهذا يثبت أن حكم فلسطين والقدس هو لأقوى قوة على الأرض وذلك لما يلي :

إن أحب خلق الله إلى الله هو رسوله وحبيبه محمد ﷺ وقد أسرى به ليلاً إلى القدس وعرج به إلى السماء دون أن يحس به حكامها ولم يعطه حكم القدس في حياته لأن دولته لم تكن أقوى قوة على الأرض .

وعندما قويت دولة الإسلام وهزمت أكبر قوتين في الأرض وصارت القوة الأولى مكن الله تعالى للمسلمين في الأرض ومكنهم من حكم فلسطين والأقصى.

ماذا نقول للذين يحاولون استجداء عطف أعدائهم ليعطوهم القدس في محادثات، هل أنتم أحب إلى الله من حبيبه محمد ﷺ ؟ .

إن الله تعالى لم يعطها لجيش محمد ﷺ إلا بالجهاد الذي شرفهم وارتفعوا به ليكونوا أقوى الأمم وأحق الأمم بالقدس .

أليس في الجهاد تشريف ورفعة من الله لكم يا أصحاب الحقوق؟ فهل تتوقعون أن يعطيكم الله إياها بالاستجداء والمفاوضات ؟. فهل أنتم مقتدون بدولة الإسلام ؟ هذه الدولة التي شيدت مسجد قبة الصخرة المشرفة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وشيدت المسجد الأقصى في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك وارتفع صوت الحق في مساجد فلسطين التي تقام تحت ظل الراية الإسلامية إلى أن دب الوهن في جسم الأمة والدولة الإسلامية بعد أن بدأت تدريجياً تنحرف عن منهاج الله تعالى .

وبدأت الدولة الإسلامية في التفتت وبدأ الضعف يظهر جلياً عليها فطمع بها الأعداء وقامت الحروب الصليبية المتتالية بحجة إنقاذ الصليب من أيدي المسلمين واستطاع الصليبيون احتلال القدس عام ٤٩٢ هجرية الموافق عام ١٠٩٩ ميلادية وقتلوا في شوارع القدس سبعين ألفاً من المسلمين بكل وحشية .

إن احتلال الصليبيين بقيادة فرنسا للقدس يثبت أيضاً أن الله تعالى قدّر حكمها للأقوى لأنه لو كان الأمر تحرير أوطان وإبعاد خطر العرب المسلمين لكان الأولى بهم تحرير إسبانيا الملاصقة لفرنسا والتي كانت تحت حكم المسلمين في ذلك الوقت .

بقيت القدس تحت ظل الاحتلال الهمجي العنصري لمدة (٩١) عاماً.

ظل المسلمون في تفتت وضعف إلى أن يسر الله من يفكر في حال هذه الأمة وهما: عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي اللذان كرسا حياتهما وإمكانياتهما لمحاربة الصليبيين والجهاد في سبيل الله وتطهير البلاد المسلمة من رجسهم ، فأنجزا إنجازات عظيمة وألقيا الروع في نفوس الأعداء واستطاعا تحرير العديد من المدن المحتلة ووحداها تحت إمرتهما مع حلب والشام، وحاربا ومضيا مجاهدين.

وتسلم القيادة من بعدهما صلاح الدين الأيوبي الذي أكمل مشوار الجهاد فوحد مصر مع الشام وحاصر الأعداء وانقض عليهم في معركة حطين عام ٥٨٣ هجرية الموافق ١١٨٧ ميلادية، وقد دخل صلاح الدين القدس ليلة ٢٧ رجب، وهي ليلة الإسراء والمعراج لعام ٥٨٣ هجرية. وهذا التاريخ يوافق ١٢/١٠/١١٨٧م.

وعادت الحياة والنور إلى الأرض المقدسة كما يجب لها أن تكون ، وبعد فترة وجيزة انقلب الأيوبيون على أنفسهم وبدأ الضعف يدب فيهم واستطاع الصليبيون احتلال القدس مرة أخرى عام ٦٢٦ هجرية، إلا أن بذرة الخير بقيت موجودة، واستطاع حاكم الكرك وهو أحد ملوك الأيوبيين تحريرها عام ٦٤٢ هجرية، ومنذ ذلك التاريخ ظلت فلسطين والقدس تعيش تحت الراية الإسلامية حتى احتلها اليهود عام ١٩٦٧م.

يا من تستجدون الأعداء هل عرفتم كيف حرر صلاح الدين أرض الإسراء؟

لقد ظلت الراية الإسلامية أقوى راية على هذه الأرض والحكم ينتقل من فئة إلى فئة، وهذا لا يتعارض مع كتاب الله حيث انتقل الحكم وأدار الدفة الأيوبيون ثم المماليك ثم العثمانيون، وبقيت راية الإسلام هي الراية الأولى إلى أن بدأ الوهن يدب في جسم الأمة الإسلامية واختلفت على نفسها وبدأ الانحراف واضحاً جلياً عن صراط الله المستقيم في حين بدأ في دول أوروبا التقدم الصناعي وبناء القوى الذاتية، وصارت بريطانيا هي أقوى الدول وصار يقال عنها بريطانيا العظمى الدولة التي لا تغيب عنها الشمس لكثرة مستعمراتها واستطاعت بريطانيا احتلال فلسطين ١٩١٧م. كما احتلت العديد من الدول العربية الأخرى التي هي أجزاء من جسم الأمة الإسلامية .

وهذا يثبت أن الله قدّر حكم القدس للأقوى وذلك لأن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا اقتسمت الدول العربية فيما بينها فاختارت إيطاليا ليبيا لقربها ، وكذلك فعلت فرنسا فاختارت المغرب العربي، وكان الأجدى أن تفعل بريطانيا ذلك ولكن هذا لم يحصل فاختارت بريطانيا أبعد المناطق ومن ضمنها فلسطين والقدس .

خلال نهضة الدولة البريطانية وبناء قوتها وحروبها استطاع اليهود أن يتسلقوا بعض المواقع التجارية والعسكرية والعلمية في الحياة البريطانية وصار لهم نفوذ لدى بريطانيا مما مكنهم من الحصول على وعد من حكومة بريطانيا بإقامة وطن قومي لهم على أرض فلسطين وصدر بذلك ما يسمى وعد بلفور عام ١٩١٧م .

وبدأت موجات من الهجرة اليهودية إلى فلسطين والاستيطان فيها بمساعدة الجيش البريطاني الذي يحتل المنطقة كلها ويجرد أهلها من السلاح وهكذا بدأت عملية بناء ما سمي دولة إسرائيل على أرض فلسطين واقتلاع سكانها الأصليين المسلمين .

واستمرت العملية ولم تنجح مقاومة الفلسطينيين وثوراتهم ضد المستعمر وضد عمليات الاستيطان لأن القوى المحاصرة لهذه الثورات هي أضعاف أضعافها، واستمر عدد اليهود في تزايد وبدأوا يشكلون جيشاً نظامياً مسلحاً إلى أن اكتملت مقومات الدولة حيث حصلوا على قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين

إلى دولتين: إحداها تسمى دولة إسرائيل ، وهي دولة يهودية وكان ذلك في عام ١٩٤٨، وأعلن قيام دولة إسرائيل، وأما القدس فقسمت قسمين : القدس الشرقية مع المسلمين والقدس الغربية مع اليهود، وهي أول مرة في التاريخ تقسم فيها مدينة القدس، وبقيت على هذا الوضع الشاذ حتى ١٩٦٧/٦/٥م حيث استطاعت دولة الفساد الثانية ؛ دولة إسرائيل احتلال ما بقي من فلسطين إضافة لصحراء سيناء وهضبة الجولان وبذلك أكملت احتلال فلسطين ومدينة القدس وصارت كلها تحت سلطة دولة إسرائيل . وهكذا بقيت القدس تحت سلطة الراية الأولى في الأرض رغم أنها دولة كفر من عام ١٩١٧ حتى ١٩٤٨، ثم أخذت وضعها الشاذ ثم تبعت دولة الفساد .

قامت الحرب العالمية الثانية في أوروبا مع بداية العقد الخامس من القرن العشرين بين ألمانيا وإيطاليا وكل من بريطانيا وفرنسا روسيا والولايات المتحدة ودول أخرى صغيرة. وكانت من نتائج هذه الحرب هزيمة الطرف الأول ألمانيا وإيطاليا وكان من أهم ثمراتها تراجع قوة بريطانيا وبروز الولايات المتحدة كأقوى قوة على هذه الأرض .

لم تعد بريطانيا الدولة الأكثر قوة فانسحبت من فلسطين وأنهت الانتداب دون ضعف منها، فهي أقوى بكثير ممن يعيشون على أرض الأقصى وأقوى من كل العرب لو اجتمعوا ، فما الذي أدى إلى انسحابها كلياً وخروجها من فلسطين .

الحجة أنها تركت أمر القتال لأصحابه وهم اليهود والفلسطينيون وقد جهزت جيش إسرائيل في حين جردت الفلسطينيين من كل قطعة سلاح كما حيل بينهم وبين أعدائهم .

فما الذي دفعها لتترك المنطقة وهي القادرة على أن تحتفظ بها لنفسها مستعمرة لها وهي أهم وأغنى أرض وفيها أهم مقدسات ولم تنازعها قوة على هذه الأرض؟

أليست هي إرادة الله الذي قدّر حكم القدس لأعظم قوة في الأرض بشكل دائم هي التي دفعت بريطانيا للخروج دونما ضغط من جهة أقوى ودونما ضعف اعتراها .

وأصبحت الولايات المتحدة أقوى قوة على هذه الأرض ولا تريد أن تحتل القدس، فتجزأت إلى جزأين قدس شرقية وقدس غربية ومن معاني هذا وتحليلاته يستنتج أنه كان لدى كل من الطرفين المتنازعين الفرصة والإمكانية للسيطرة والتأثير على هذه القوة الكبرى واستمالتها لجانبها .

وقد سبق اليهود إلى هذا فاستطاعوا تشكيل قوة ضغط على الإدارة الأمريكية ؛ وهو ما يسمى حالياً باللوبي الصهيوني الذي أحكم السيطرة على الولايات المتحدة لدرجة يصعب معها تصديقها، واستطاعت اليهودية العالمية وتحت تنظيم الماسونية أن تسيطر على وسائل الإعلام وعلى توجيه البنوك وأعمال السينما والقمار وأخيراً على أسلوب انتخاب رئيس الولايات المتحدة وبالتالي أن تسير نظام الحياة في الولايات المتحدة .

ولما تمكن اليهود من ذلك أصبحوا يديرون أقوى قوة في الأرض فاحتلوا النصف الآخر من القدس وباقي أرض الأقصى عام ١٩٦٧ .

لقد تصاعدت قوة اليهود في الولايات المتحدة لدرجة تستطيع معها القول بأن هذه القوة لا تدار من قبل حكومة الولايات المتحدة بل إن حكومة الولايات المتحدة وقوتها تدار من قبل قوة اليهود .

وبذلك نقول أن الولايات المتحدة هي البندقية الموجهة وأن عين إسرائيل هي التي على شعيرة التسديد وأن إصبع إسرائيل على زناد الإطلاق. فهي توجهها حيث تشاء لتضرب من تشاء متى تشاء وكيف تشاء. وتتدخل في دول العالم متى تشاء وكيف تشاء .لقد تحقق فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا

بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء:٤-٦].

لقد علوا في الأرض أيام سليمان عليه السلام وفسدوا بعد موته بما نشروه من فساد وبعدوان أسباط الضلالة على سبطي الخير .

وها هم أسباط الضلالة يعلون في الأرض ثانية ويحكمونها من خلال الماسونية ويفسدون من خلال ما ينشرونه من وسائل إفساد وبعدوانهم على أحفاد سبطي الخير .

وهكذا رد الله تعالى الكرة لهم، ليقع إفسادهم الثاني في الأرض .

وكما تنص الآيات فقد علوا علواً كبيراً فهم يسيطرون على سكان الأرض من خلال الماسونية العالمية ومن خلال قوة الولايات المتحدة ، وإلا ما معنى أن يذكر الله تعالى هذا في كتابه الكريم ولا يذكر احتلال الصليبيين للقدس ؟ إن احتلال الصليبيين للقدس تأديب للمسلمين ولكن من الطبيعي أن تنتصر أوروبا الصليبية على المسلمين عندما يبعدون عن دينهم لأن العدد متقارب هنا وهناك .

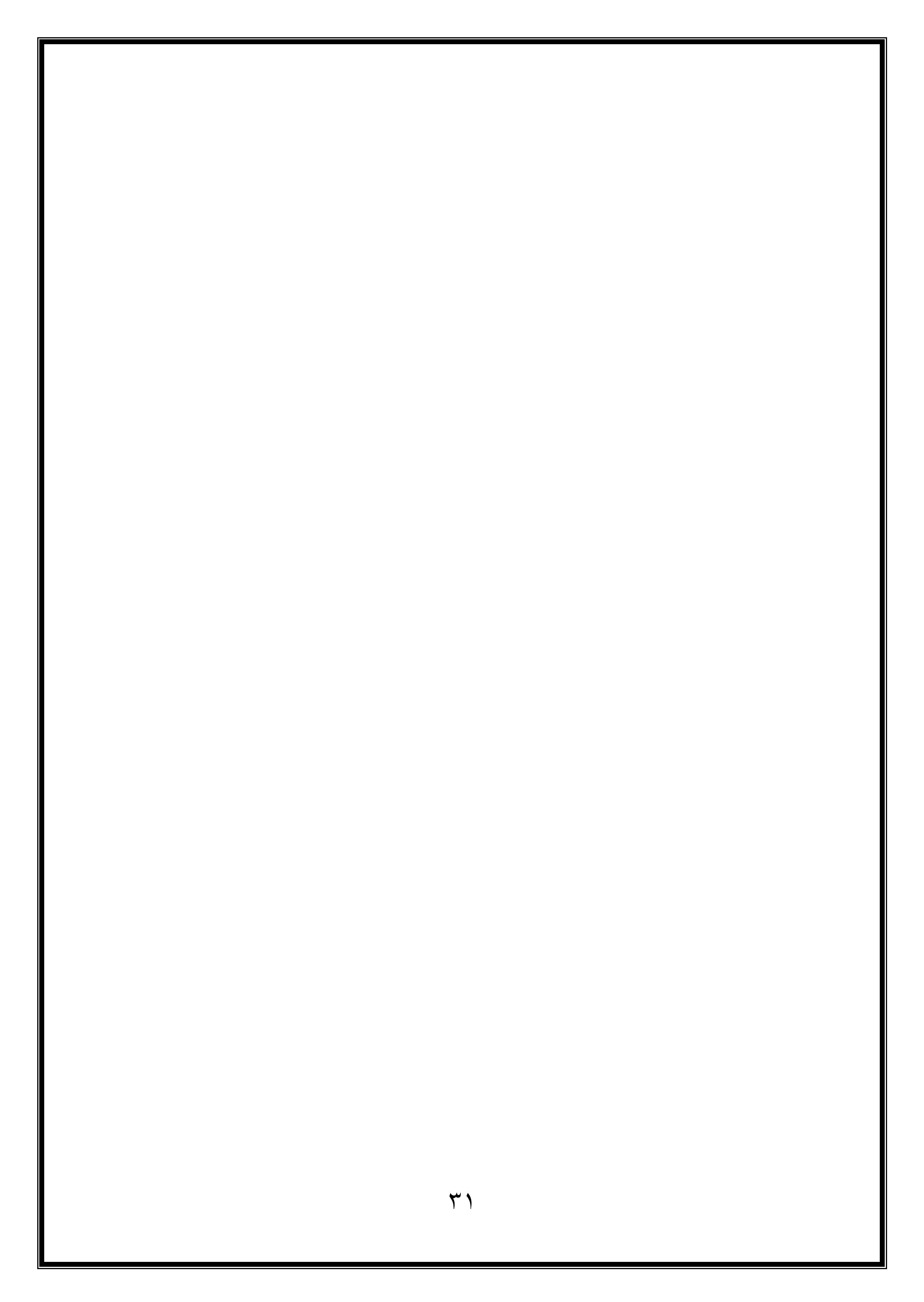
ولكن لا معنى لأن ينتصر اليهود الذين ينتشرون في بقاع الأرض دونما بقعة يسيطرون عليها ويستطيع هؤلاء أن يجدوا لهم بقعة ومن خلالها يستطيعون أن يسيروا سكان الكرة الأرضية وعددهم أكثر من خمسة مليارات ، لا معنى لهذا ولا يصدق هذا إلا أن تكون إرادة الله وراء ذلك ولأن يكون هذا الحدث شاهد إعجاز لكتاب الله في هذا الزمن الذي نعيشه سبحانه من إله لا راد لحكمه . فمن أراد أن يكون له سلطان على فلسطين والقدس فليكن أقوى قوة في الأرض .

هذه القوة سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة كما فعل اليهود لأن عددهم لا يؤهلهم أن يكونوا أكبر قوة بشكل مباشر ، كذلك لم تكن لهم أرض يصبحون فيها أكبر قوة .

كيف يصبحون أكبر قوة إلا بطريقة غير مباشرة وبطريق الفساد وكما ذكر الله تعالى فقد نشروا الفساد مقدمة لسيطرتهم كالقمار و الخمرة و الرشوة و الزنا و الربا و العصابات و الأفيون وكل وسائل الإفساد الحديثة التي من خلالها استطاعوا الإفساد في الأرض .

ولو اتبعوا طريق الحق ما سيطروا لأن الحق يحق الحق ويعطيه لأصحابه. هذا إعجاز القرآن نراه يتحقق ونعيشه الآن وهذا يثبت أن هذا القرآن أنزله الله تعالى وما أخبر به فانه لا بد أن يقع لا محالة.

اللهم إننا نعلم أن قولك الوعد الحق فأتم وعدك الحق .



الفصل الثانى "وإبراهيم الذي وفي"

قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم:٣٧]، أي شهادة هذه وعن أي شاهد صدرت؟ وكفى بالله شهيداً.

بعث الله تعالى نبيه إبراهيم لقومه وكانوا يعبدون الأصنام وكان بفطرته التي تتجلى فيها حقيقة الألوهية ترفض الأصنام وكل ما من شأنه أن ترفضه فطرة الإنسان المؤمن بربه. صاحب الفطرة السليمة النضرة التي لا تقبل إلا الله تعالى، ولا ترتاح ولا تطمئن إلا لله خالقها .

ها هي فطرة إبراهيم تبحث عن إلهها الحق الذي ينسجم مع ما في أعماقها وتعارض كل ما يوجد في هذا الوجود من انحرافات جاهلة تتعارض وطبيعة تكوين هذه الفطرة .

وهكذا كان سيدنا إبراهيم بفطرته يفكر بخالق هذا الكون فلم يرض بالأصنام من أول وهلة لأنها من صناعة الإنسان نفسه ، الذي يعبدها .

وبدأ يفكر في الكواكب والسماوات وخلقها وحركتها لعله يجد من خلالها ما يقوده إلى الهداية ويتضح ذلك من قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٥-٧٩].

وهكذا ظل إبراهيم يفكر فاهتدى إلى أن الله تعالى لا يغيب ولا يتغير وهو الحي القيوم في هذا الوجود وأدرك أن قومه يشركون بعبادة الله فلذلك قال لقومه : ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٧٨].

وبدأ حواره مع أبيه وقومه وبين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:٨٣-٨٧].

وبدأت رحلة الهداية في الحوار بين إبراهيم وقومه وكانت شديدة ، وكان يحكمهم ملك يقال له النمرود، أعطاه الله الملك فأنكر وتكبر بدلاً من أن يؤمن بالله ويشكره على ما آتاه من ملك في هذه الدنيا .

وبدأ إبراهيم عليه السلام دعوة جادة لقومه تحمل كل معاني الإقناع وتوجه إلى الله لإلهامه الصبر والحجج القوية، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٥١-٥٦].

يظهر في هذا السياق الحجة القوية في قولـه لقومه : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ﴾، أي التي أنتم تنحتونها بأيديكم ولم ينعتها بالآلهة ولم يجيبوا إلا الإجابة التي لا تنم إلا عن ما هو زائف وتقليد متوارث : ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾.

ولم يكل إبراهيم من الاستمرار في الدعوة إلى الله والمثابرة عليها بكل وسائل الإيضاح اللازمة وقال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم:٤١-٤٧]. ولم تنفع هذه الدلائل والبراهين رغم وضوحها إذ ما من صنم يسمع أو يبصر أو يفيد أو يضر ورغم ذلك فإن الله يهدي من يشاء .

وبدأت المعركة تشتد، وبدأ يواجههم بشيء من الصلابة وبين الله لنا ذلك في سورة الأنعام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٧٤].

وقال في سورة الزخرف : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦].

وقال في سورة الممتحنة مبيناً موقفه وموقف الذين آمنوا معه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة:٤].

وقال تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

واشتد الصراع بين الحق والباطل ولم يطق عليه السلام صبراً إلا أن يظهر لهم أن آلهتهم لا تستطيع حتى الدفاع عن نفسها فكيف يركنون إلى عبادة آلهة يلجأون إليها عند الشدة ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها الضرر أو الأذى.

ولقد بين الله تعالى ذلك في سورة (الأنبياء) بقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الأنبياء:٥٧-٦٧].

وهكذا كان التحدي فحطم الأصنام إلا واحداً هو كبيرها ليسألوه وليتيقنوا أنه لا يستطيع الإجابة وأنه لم يدافع عن الأصنام الصغيرة التي كانت حوله ولم يحرك ساكناً.

وأثناء السؤال والاستفسار عما حدث عرفوا الحق وعرفوا أنهم ظلموا أنفسهم بعبادتهم الأصنام ولكن الشيطان عاد وتمكن منهم وسيطر على عقولهم فأعادها إلى الانحراف واعتبروا أنه من البديهي أن الأصنام لا تتكلم.

فأجابهم هل تعبدون من دون الله ما لا ينفعكم ولا يضركم بدليل انه لم ينفع نفسه حتى بالدفاع عن نفسه ، إنكم لا تعقلون .

ووصف الله هذا المشهد في سورة الصافات بقوله : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات:٨٨-٩٨].

وكان ذلك في يوم عيد حيث يحضر القوم إلى المعابد مع الطعام لآلهتهم ثم يخرجون إلى الحدائق لفترات من الزمن ثم يعودون إلى المعابد.

فبعد خروج القوم خاطب الأصنام ألا تأكلون ؟ وبالطبع فإنها لا تأكل ولا ترد ثم أتبع سائلاً إياها : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ [الصافات:٩٢] ، ثم انهال عليها ضرباً حتى حطمها جميعاً إلا كبيرها وهذا ما هدأ نفسه وأزال سقمه .

لا يعرفون إلا منطق القوة مع الضلالة فبنوا بناءاً أوقدوا فيه ناراً كبيرة جداً ، وعلى مرأى من الناس جميعاً ألقوه في النار ، ولكن الله تعالى ينصر رسله فأبطل مفعول النار : ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩]. ورغم كل هذا ما آمن مع إبراهيم إلا قليل ؛ ومنهم سيدنا لوط ، فقال تعالى فـي ذلك : ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات:٩٩]. وقال في سورة (مريم): ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم:٤٨]. وقال في سورة الزخرف: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف:٢٧].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:٧١].

وكان ذهاب إبراهيم ولوط إلى الأرض المقدسة بأمر من الله ولقد ورد هذا في ((الكتاب المقدس)) بما يلـي :

((**وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة**)). [سفر التكوين - الإصحاح ١٢] .

وتم ذكر هذا الأمر في الكتاب المقدس بما يلي :

(وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه. ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد وأجعل نسلك كتراب الأرض) [سفر التكوين - الإصحاح ١٣] .

فإذا كان هذا قرار الله فمن يستطيع إلغاءه وطردهم من تلك الأرض وإذا كان بعضهم قد طرد منها وهم الأسباط العشرة فهذا يعني أنهم غير مقصودين بوراثة هذه الأرض.

أدار إبراهيم ظهره إلى مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة جديدة وسيهاجر إلى ربه الهجرة النفسية أولاً تاركاً كل ما مر في حياته من أحداث ويتجه إلى الله ليوجهه إلى أحداث أفضل ويترك الأهل والوطن وكل ما يربطه بهؤلاء الناس ويتجه إلى حيث يوحي له ربه وبهذا ترك حياته السابقة كاملة ولم يكن له ولد ، واتجه إلى ربه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح وغادر الأهل والديار إلى فلسطين وعاش في منطقة صارت مدينة تحمل اسمه وهي مدينة الخليل (خليل الرحمن) ، وفيها مسجد إبراهيم الخليل ويدعى أيضاً الحرم الإبراهيمي ، وفيها كان يتلقى من ربـه ويرزقـه الله ولـده إسماعيـل إذ قـال الله تعالـى : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١].

وقد أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم أن يأخذ زوجته وابنه الرضيع إسماعيل وأن يضعهما قرب البيت الحرام الذي لم يكن بادياً للعيان ولا يظهر منه شيء على وجه الأرض.

ونفذ الأمر وصحبهما إلى ذلك الوادي الذي يخلو من كل أنيس إلا من رحمة الله بهم ، وهناك دعا إبراهيم ربه وبين الله دعواه بقوله في سورة (إبراهيم) : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

واستجاب الله الدعوة وطلب من إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج ليجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وجعل مكانهم محج الناس وبين الله تعالى ذلك بقوله في سورة الحج: ﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾ [الحج:٢٦-٢٧].

ولقد جاء في الكتاب المقدس ما يلي :

(ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به. لأنني سأجعله أمة عظيمة). [سفر التكوين ـ الإصحاح ٢١].

وفجر الله ماء زمزم للرضيع في يومه وبدأت الناس تهوي إليهم وجعل من أحفاده رسول الهدى محمد ﷺ وأمة الإسلام العظيمة.

وهناك في أرض مكة ابتلى الله سيدنا إبراهيم بذبح ولده إسماعيل بعد أن اطمأن إليه وصار يأنس به فلم يتردد، بل بادر إلى تنفيذ أمر ربه، ولكن رعاية الله وعنايته فوق كل شيء إذ ناداه ربه في اللحظة الأخيرة أن صدقت الرؤيا وافتدى إسماعيل بذبح عظيم.

وكان هذا بلاءً مبيناً لإبراهيم من ربه ابتلى به صبره على الشدائد وليكون حجة له يوم القيامة وأمام الأجيال القادمة يشهد له به ربه.

ودعا إبراهيم ربه عدداً من الأدعية، ولنبدأ بأولها عندما غادر الأهل إلى فلسطين: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات:٩٩-١٠٠]. فوهبه الله إسماعيل وإسحاق نبيان صالحان.

وقال الله في ذلك في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم:٣٩]. وقال في سورة مريم : ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴾ [مريم:٤٩].

وقال في سورة الأنبياء : ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٢].

كانت الدعوة الثانية عندما طلب منه ربه أن يسكن زوجته وابنه إسماعيل قرب البيت الحرام فدعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، فأمره الله أن يؤذن بالحج ولا يزال الحج منذ ذلك التاريخ حتى

يومنا هذا وإلى قيام الساعة وذلك لتهوي أفئدة من الناس إلى إسماعيل وأنجاله وأحفاده إلى يوم القيامة . فهل هناك استجابة أكبر من هذه الاستجابة .

لقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن يقيما البيت الحرام مرة أخرى حيث كان مهدوماً وأن يطهراه وبينما هما يفعلان ذلك دعوا الله بما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٦-١٢٩]. وفي هذه الآيات الدعوات التالية :

أولاها: أن يجعل الله هذا بلداً آمنا وهي مدينة مكة بما فيها البيت الحرام والدعوة الثانية أن يرزق أهله من الثمرات من آمن منهم. والثالثة أن يجعل الله من ذريتهم أمة مسلمة وأن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

وأما الدعوة الثانية : فقد استجاب الله لها بنفس الآيــة إذ قال : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ ﴾ [البقرة:١٢٦] . وبذلك تعهد الله بالرزق حتى الكافر في معية البيت الحرام فكيف بالمؤمن؟

ولننظر إلى الدعوة الأولى، فقد استجابها الله تعالى في قولـه : ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:٥٧].

وما من أحد لا يعرف قصة أبرهة الأشرم الذي جاء لهدم الكعبة وبعث الله طيراً أبابيل ، فقضى الطير عليه وعلى جيشه وسمى ذلك العام بعام الفيل الذي ولد فيه رسول الهدى محمد ﷺ حيث قال تعالى في ذلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ [الفيل:١-٥].

وهذا كان قبل الإسلام وأما بعد الإسلام فقد قويت الدولة الإسلامية حيناً وضعفت حيناً وطمع فيها المستعمرون وجزؤوها واحتلوا أجزاء كبيرة منها طمعاً في خيراتها ولكن لم يتجرأ أي منهم على احتلال البيت الحرام لا ضعفاً منهم ولا قوة في المسلمين الذين بعدوا عن إسلامهم مما أدى إلى ضعفهم، فلا بد أن يكون هناك سبب رباني أدى إلى عدم احتلال المسجد الحرام من قبل من لا يعرفون ولا يميزون بين الحلال والحرام.

وأما الدعوة الثالثة : وهي أن يجعل الله من ذريته أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . ولقد استجاب الله هذه الدعوة فكان خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ من قريش نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام هو نبي الهدى وآخر الأنبياء والمرسلين ونبي لبني البشر كافة ولقد استجاب الله حتى لنفس الكلمات إذ قال الله في سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:٢].

ولقد كان هناك إخبار في التوراة وآخر في الإنجيل عن بعثة سيدنا محمد ﷺ ولقد جاء في العهد القديم ذكر هذه البشرى بما يلي :

(أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه) [سفر التثنية ـ الإصحاح ١٨] .

والنصف الأخير من هذه البشرى يعني عليه البلاغ وعلينا الحساب .

كما جاء في العهد الجديد ذكر هذه البشرى بما يلي :

(لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ولكن إن ذهبت أرسله إليكم . ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة .... إن لي أموراً كثيرة لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم) [إنجيل يوحنا ـ الإصحاح ١٦].

ولقد كان سيدنا إبراهيم يفرح لتكليف ربه ويعتبر أن زيادة التكليف هي من عظيم ثقة ربه به فكان يطلب التكليف له ولذريته لأنه يعلم أن وراء ذلك رضى الله تعالى، ولقد تجلى هذا بوضوح من قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤].

فقول الله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤] ، لا يعني أنه غير موافق على هذا الطلب وإنما يعني أن نسلك سيكون منهم خيرون وظالمون فأما الذين ظلموا فعلى أنفسهم ولا يلومون إلا أنفسهم وأما الذين يحسنون فأعاملهم بالحسنى والكرم والرحمة وهذا من سنتي، واستجاب الله هذا وجعل كافة الأنبياء من بعد سيدنا إبراهيم من ذريته ولم يبعث نبياً بعده لهذه الأمة من خارج ذريته.

ولقد أورد الله تعالى هذا الأمر بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:٢٦].

فما هذا العطاء الإلهي لإبراهيم إذ يجعل إمامة البشرية له ولولده من بعده ويجعل رسالة الله لخلقه بواسطته وبواسطة أولاده من بعده ، هل هناك تكريم أكبر من هذا التكريم.

ولقد كان عطاء الله لإبراهيم في الكتاب المقدس كما يلي :

((**أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأنني سأجعلك أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً. وملوك منك يخرجون . أقيم عهداً بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً . لأكون الهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون الههم**)) [سفر التكوين - الإصحاح ١٧].

ومما ذكر الكتاب المقدس نرى أن الله تعالى تعهد أن تكون الأرض المقدسة لأحفاد إبراهيم إلى الأبد - لا يخرجهم منها أحد - ويخبر الله أن شرط ذلك هو الإيمان وكذلك يخبر الله أنه سيكون هذا النسل مؤمناً إلى الأبد باتباعه الأنبياء متتابعين.

لقد رأينا من آيات الله تعالى في كتابه الكريم أن إبراهيم ﷺ هجر الأهل والديار بصحبة لوط الذي آمن معه وأن الله تعالى اختار لوطاً ليكون نبياً إلى قرية سدوم التي هي حاضرة البحر الميت، وكان فيها قوم يرتكبون الفاحشة وكان لوط يدعوهم إلى التوحيد وإلى التطهر والارتفاع عن الأعمال النجسة ولكن دون جدوى، فأرسل الله ملائكته لينزلوا بهم العقاب الرادع الذي يستحقون وفي طريقهم إلى قوم لوط مروا على بيت سيدنا إبراهيم وبشروه بولده إسحاق ومن هناك ذهبوا إلى قوم لوط لتنفيذ أمر ربه.

ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٧٣].

وهذه العجوز هي زوجة لوط ﷺ ، ولقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود:٨١].

ولما انتهى أمر قوم لوط لم يعد هناك ما يعكر صفو أجواء النبوة الخالصة الهادئة التي سارت بعد ذلك كأهدى ما تكون حيث أخذ الكل معاً يدعون إلى التوحيد وعبادة إله واحد وقد رأوا معجزاته أيام كان إبراهيم في قومه إذ أخرجه الله من النار ثم دمر الله النمرود، وكذلك فعل الله بقوم لوط .

وبدأ سيدنا إسماعيل النبي المرسل في الحجاز ولوط وإسحاق في فلسطين وسيدنا إبراهيم معهم وهو خليل الله يتفقدهم ويذهب إلى مصر داعياً أهلها إلى التوحيد فاعتنقت مصر ديانة التوحيد وكان ذلك في عهد الأسرة الحادية عشرة وأنزل الله بركاته على الجميع .

ولقد بين الله تعالى لإسحاق ﷺ وعده لأبيه إبراهيم ﷺ بالأرض المقدسة حيث ورد ذلك في الكتاب المقدس بما يلي :

((**اسكن في الأرض التي أقول لك . تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك. لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وافي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك**)).[سفر التكوين ـ الإصحاح ٢٦] .

هذا النص يدل على أن أحفاد إسماعيل عليه السلام مستبعدون من وراثة الأرض المقدسة لأنها لنسل إسحق عليه السلام من بعد إبراهيم، لذا فإن وعد الله تعالى لإبراهيم أنها لأحفاده لا يعني كل أحفاده بل جزء من أحفاده.

لم يلاق نبيا الله إسماعيل وإسحاق عليهما السلام أي عنت في دعوتهما لأنهما كانا برعاية الله وبرعاية أب هو خليل الله وكانا امتداداً له ورزق إسحاق يعقوب في حياة سيدنا إبراهيم كما يظهر من معاني الآيات . وشاء الله أن يكون يعقوب نبياً كما جاء في الآيات وتزوج ورزقه الله اثني عشر ولداً أحدهم هو سيدنا يوسف عليه السلام الذي ورث الرسالة الإلهية وهذا العدد هو بركة من الله تعالى في نسل إسحاق تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات:١١٢-١١٣].

ونبي الله يعقوب عليه السلام هو إسرائيل وهو ابن إسحاق كما تشير الآيات ولقد بارك الله في ذريته فرزقه الأولاد وأورث أحدهم النبوة وعاش سيدنا يعقوب مكملاً ومحافظاً على الرسالة التي ورثها من أبويه إبراهيم وإسحاق ، ولقد ظهر حب يعقوب لولده يوسف عليهما السلام فيما وصفه به من صفات وما ذكره بالهام ربه له عما سيكون عليه مستقبل يوسف وأحفاده من بعده ، وهذا ما جاء في الكتاب المقدس بما يلي :

((**يوسف غصن شجرة مثمرة غصن شجرة مثمرة على عين . أغصان قد ارتفعت فوق حائط . فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام . ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه . من يدي عزيز يعقوب من هناك من الراعي صخر إسرائيل من إله أبيك الذي يعينك ومن القادر على كل شيء الذي يباركك تأتي بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت . بركات الثديين والرحم. بركات أبيك فاقت على بركات أبوي . إلى أمنية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير أخوته**)) [سفر التكوين ـ الإصحاح ٤٩] .

وفي هذا نبوءة يعقوب عليه السلام بالهام ربه بأن نسل يوسف عليه السلام هم القمة وهم الصفوة بشكل دائم على مر العصور وبذلك فإنهم شعب الله المختار وهم الذين بشر الله إبراهيم عليه السلام بهذه السلالة المؤمنة التي تحفظ عهد الله إلى الأبد. ولكن مشيئة الله تقضي ان ينتقل يعقوب وعائلته ليعيشوا في مصر وذلك حفاظاً على استمرار ديانة التوحيد التي نشرها نبي الله إبراهيم عليه السلام هناك ، ولله في ذلك حكمة وهي أن ينشأ بنو إسرائيل تحت ظل حكم كبير وعظيم وهو أكبر قوة في الأرض كما مر معنا وليكونوا أعزاء ويحافظوا على ديانة التوحيد لتقوى وتنتشر.

ولنقف على قصة يوسف عليه السلام والتي تبدأ من الرؤيا التي رآها وتنتهي باعتلائه عرش مصر في وقت كانت مصر هي أقوى دولة على وجه الأرض .

فما كان موقف والده نبي الله يعقوب عليه السلام حين أخبره برؤياه إلا أن قال له: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف:٥-٦].

لقد أدرك سيدنا يعقوب عليه السلام ببصيرة النبوة التي لديه أن هذه الرؤيا سيكون من ورائها شيء عظيم وأن الله سيختار يوسف عليه السلام عن باقي إخوته ليضع فيه نفحة النبوة، فتوقع ببصيرته ما سيكون من سلوك أولاده إذا عرفوا أن الله تعالى اختاره عليهم وعلى غيرهم.

هذا هو الحسد الذي يحرك الحس الشيطاني في الإنسان والذي إذا تجاوز حداً معيناً أدى إلى ملء القلوب غلاً وارتكاب حماقات قد تصل إلى القتل، وهذا ما توقعه سيدنا يعقوب عليه السلام من أولاده وكان توقعه في مكانه فكادوا ليوسف دون أن يعلموا باختيار الله له وقرروا قتله إلا أن أحدهم طلب منهم أن يرموه في بئر على طريق التجارة إلى مصر لعله يمر به تجار يأخذونه وإن لم يمر به أحد مات جوعاً.

ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف:٧-١٠].

لقد أعماهم الحسد حتى تصوروا أنهم لو قتلوا يوسف عليه السلام فإن والدهم سيحبهم وسيصبحون من الصالحين، وأي صلاح بعد ارتكاب جريمة قتل لأخ لهم دون سبب إلا حسداً من عند أنفسهم.

وهكذا سولت لهم أنفسهم اختراع قصة أن يأخذوا أخاهم ليلعب معهم حباً فيه وليخرج كأمثاله من الغلمان الذين هم في سِنّه ، ولقد حذرهم والدهم من إهماله حتى لا يأكله الذئب إذا هم تغاضوا عنه أثناء لعبهم، ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١١-١٨].

وهكذا أخذوا يوسف ونفذوا مؤامرتهم وألقوه في الجب والله تعالى يوحي إليه أنه سيأتي يوم تخبرهم بأمرهم هذا دون أن يعرفوك وأنك لن تموت من هذه الفعلة الشنيعة وأنها ابتلاء لك فاصبر، وطمأنه ربه بالنجاة من هذه المحنة

لقد نفذوا المؤامرة ولم يجدوا حجة يستترون بها إلا ما حذرهم منه والدهم إذ قال لهم أخاف عليه من الذئب فلم تتسع عقولهم لغير هذا ، وقالوا لقد أكله الذئب وجاءوا على قميصه بدم حيوان أليف كالدجاج أو الأرانب حيث تقول الآية بدم كذب أي أنه دم ولكنه ليس بدم يوسف عليه السلام .

يا لها من حكاية مكشوفة، ولكن الوالد الذي لا يملك أدلة على إثبات كذبهم صبر نفسه وكأنه صدقهم وقال : ﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨]، وطلب العون من الله ليوسف، ومرت قافلة تجارية مسافرة إلـى مصر واحتاجوا الماء ، فذهب أحدهم ليجلب الماء من البئر فتعلق يوسف بالدلو وخرج من البئر: ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف:١٩-٢٠] .

وهكذا نجاه الله بواسطة القافلة التي أخرجته من البئر فباعوه بدراهم قليلة وكان من رعاية الله أن من اشتراه هو عزيز مصر كما تثبت الآية، وكأنه كان لا ينجب فأحبه من أول لقاء بينهم وأوصى زوجته به خيراً بينه الله تعالى بقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف:٢١-٢٢] .

وكذلك فإن الله تعالـى قـد آتـاه العلم والنبـوة والرؤيـا، وفهم الرؤيـا كما أخبره بذلك أبوه يعقوب عندما رأى رؤياه ، إذ أخبره أبوه حيث قـال لـه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾ [يوسف:٦].

وفي هذا البيت الجديد الذي يعيش فيه كانت تنتظره محنة جديدة من امرأة يعيش في بيتها وهو الفتى في شبابه ولكن برهان ربه عصمه من ارتكاب الإثم ، وشاعت الإشاعة في المدينة أن امرأة العزيز تراود فتاها فأعتدت متكئاً أي جلسة للنساء اللاتي تكلمن بها وأخرجت يوسف عليهن فبهرهن حسنه وجماله وهنا طلب منه أن يفعل الغواية من قبل زوجة العزيز أو أن يرمى به في السجن فاستغاث ربه فأغاثه وجاء هذا بقول الله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف:٣٣-٣٥].

ولقد نجاه ربه من هذه المحنة أيضاً إذا زاده عصمة ضد الإغراء وكشف الأمر للمسؤولين وزجوا به في السجن وهذا كان طلبه من رب العالمين . ومن داخل السجن استقطب يوسف عليه السلام شعور المساجين، وهذا ما وجه إليه أنظارهم وجعله موضع ثقتهم.

تظهر الآيات اثنين من المساجين ممن كانوا مقربين إلى الملك وقد رأى كل واحد منهما رؤيا وطلبا منه تفسيرها لهم، فيستغل هذه الفرصة لاكتساب مزيد من الثقة ونشر دعوة الحق التي هو مكلف بها، وأن الله علمه تفسير الرؤيـا والأحاديث لأنـه يعبد الله لا يشرك به شيئاً هو وآباؤه من قبلـه وبذلك يكسب ثقتهما بـه وبربـه.

قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف:٣٦-٤٢].

هكذا أكد يوسف لهم ولغيرهم بأنه يستطيع أن ينبئهم سلفاً بما يأتيهم من طعام وبما يعني ذلك. وكذلك صدق في تأويل رؤياهما التي رأياها فصلب أحدهما وخرج الآخر وعمل ساقياً عند الملك.

لا تذكر الآيات إلا الحدث الأدل الذي يظهر يوسف عليه السلام بما لديه من علم الله لدى الملك وذلك من خلال الرجل الذي أُخرج من السجن ويعمل عند الملك، وهكذا صار يوسف معروفاً بالمصداقية وحسن السلوك وبعلم التأويل وبما يدين به من ديانة التوحيد.

بعد بضع سنين رأى الملك رؤيا أزعجته وطلب ممن حوله أن ينبئوه بتأويلها ولكن لا أحد يستطيع تأويل الرؤيا . وهنا فطن الرجل الذي خرج من السجن ويعمل ساقياً في حضرة الملك فسمع طلب الملك فقال أرسلني إلى السجن فهناك من يستطيع تفسير الرؤيا بما عرفنا ورأينا من هذه المعرفة لديه وبالتأكيد فإنه أخبر بتفسير العديد من الحكايات ليصدق الملك وحاشيته. وقد قال تعالى مبيناً ذلك : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ ۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٣-٤٦].

إنه ينادي يوسف بالصديق أي شديد الصدق . وجاء يوسف يخبره بما رأى الملك ونقلها نقلاً صحيحاً كما هي ولكن يوسف ﷺ رد عليه بكيفية مواجهة نتائج هذه الرؤيا ، وأن الرؤيا سيئة ويجب التنبه لمجابهة هذا السوء القادم ومن خلال خطة المواجهة يتضح تأويل الرؤيا .

طرح لهم يوسف أن ازرعوا أرضكم سبع سنوات بنشاط وجد واهتمام لتزداد غلتها ويزيد محصولها ثم احصدوه واحفظوا الحب في السنابل لكي لا يتلف ، وخذوا حاجتكم للأكل وهناك عملية حسابية يمكن إجراؤها بحيث أن توفير سبع سنوات يكفي لاستهلاك سبع سنوات تالية إضافة إلى بذار السنة الثامنة التي بعد السنوات العجاف وهي السنة الخامسة عشرة من البداية .

هذه السنة الخامسة عشرة هي مما مكن الله يوسف أن يراه، وقال تعالى فـي ذلك: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف:٤٧-٤٩].

بعد هذا الحدث يقوم صاحبه بإخبار الملك بما أبلغه به يوسف وطلب أن يجتمع به فوراً فأرسل في طلبه من السجن لمقابلة الملك ، وهنا طلب يوسف أن يبرأ مما نسب إليه من تهم سابقة وأنه أدخل السجن ظلماً ويريد أن تعلن براءته مما نسب إليه، وكان ما طلب وتم إعادة التحقيق في القضية التي نسبت إليه . تيقن الملك أن يوسف إنسان صديق ذو مبدأ ودين وعلم علمه الله إياه وبذلك أرسل في طلبه مرة أخرى ليستخلصه لنفسه وقال الله تعالى مبيناً ذلك: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف:٥٤].

مكين: أي لا ينازعك أحد، وكذلك أمين بما ثبت لنا منك ومن سيرتك السابقة وبذلك لا تقبل بك وشاية من أي نوع وإنك مصدق على من دونك.

وطلب إلى يوسف أن يعرض قدراته في إدارة شؤون الدولة فقال يوسف قول الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥].

وكان له ما طلب حيث عين وزيراً للمالية أي عزيز مصر. هذا يدل أن عزيز مصر قد توفي في أثناء فترة سجن يوسف، وبهذا التعيين صـار الرجل الثاني في دولـة الرجل الأول فيها هو الملك ويعتبره مكيناً أميناً، وبذلك مكن الله ليوسف فـي الأرض حيث قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف:٥٦-٥٧]. وهكذا انتهت فترة السجن وخرج منها يوسف معززاً مكرماً .

إنه يقوم بواجبات وزير المالية ووزير الزراعة ووزارة التموين بكل أعباء هذا الحمل في تلك الأيام وإنه على ذلك حفيظ عليم وقد قام بهذا الجهد خير قيام .

وعندما جاء إخوته في تجارة لهم مع مصر فدخلوا عليه دون أن يعرفوه، ومما يدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [يوسف:٥٨-٦٢].

لم يكشف لهم يوسف عن نفسه ويظهر أنه استقبلهم بالطيب والترحاب وأنهم جلسوا وتناقشوا إلى أن قادهم الحديث إلى أن لهم أخاً صغيراً من أبيهم فطلبه منهم ليصرف له حصة من البضاعة.

عندما طلب منهم إحضار أخيهم قالوا له: ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ [يوسف:٦١]. وبذلك أجابوا بأنهم سيبذلون جهدهم مع أبيهم ليجعله يرافقهم في رحلتهم القادمة. وأخيراً وافق الوالد على إرسال ابنه الصغير الثاني معهم وقال تعالى مبيناً ذلك: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ [يوسف:٦٣-٦٦].

وهكذا أقسموا لوالدهم أنهم سيعودون بأخيهم له إلا إذا غلبوا على أمرهم من قبل أمر أكبر منهم جميعاً وأن يدافعوا عنه بحياتهم ما استطاعوا .

وسار الركب إلى مصر مرة أخرى فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه وأطلعه على أنه أخوه ودعاه لأن ينسى الماضي الذي هو في فكره من خلال حياته مع أهله بما سمعه عن فعلة إخوته بأخيه يوسف.

قام يوسف بوضع صواع الملك في رحل أخيه الصغير وصاح مؤذن في العير والناس بأن صواع الملك قد فقد وأن من يحضره له كيل بعير .

عادوا بكل ثقة للتفتيش لأنهم واثقون من أنفسهم فقيل لهم ما جزاء من سرق إن وجدناه لديكم فأجابوا بالجزاء الذي هو متبع لديهم، وهو بأن السارق يؤخذ خادماً ليخدم مدة تساوي قيمة ما سرق ، وهكذا حكموا على أخيهم بالبقاء .

وقد قال الله تعالى مبيناً ذلك: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ

مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يوسف: ٦٩-٧٥].

عاد إخوة يوسف إلى أنفسهم فتذكروا عهدهم مع أبيهم، وبدأوا يرجون يوسف وعرضوا أن يأخذ أحدهم بدلا منه ولكنه رفض ذلك لأنه يريد أخاه.

تبين الآيات أنهم نادوا يوسف بالعزيز وهم لا يعرفونه وهذا يدل أنه كان في تلك الفترة هو عزيز مصر وبين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف:٧٨].

وانصرفوا يائسين وعقدوا اجتماعاً لإقرار ما ينوون عمله في المرحلة القادمة وتبين الآيات النتيجة إذ قال كبيرهم وذكرهم بما كان منهم من عهد لوالدهم أن يرجعوا به إلا أن يحاط بهم ، وربط بين هذه الحادثة وحادثة يوسف وتوقع غضب والده الشديد وقال : أنه لن يبرح أرض مصر حتى يأذن أبوه له ووصى إخوانه الباقين أن يذهبوا لأبيهم وأن يخبروه بحادثة السرقة وأنه الآن يعاقب بما سرق وأنه يمكنه أن يسأل ويتأكد مما حصل وأنهم لا يعلمون الغيب ولو علموا بأنه سيسرق ما أخذوه معهم ولكن الوالد الشديد الحزن لم يصدقهم أيضاً ، وأظهر أنه سولت لهم أنفسهم شيئاً ، وألهمه الله الصبر وطلب عون الله وطلب من أبنائه الذين هم عنده ألا ييأسوا من روح الله وأن يذهبوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه وابيضت عيناه من الحزن وفقد البصر ، وأولاده يلقون عليه باللوم إذ لا يزال يذكر يوسف ولم يفقد الأمل من لقائه رغم مرور السنين الطويلة على فراقه ولكن الأب المؤمن يؤكد لهم أنه يعلم من الله ما لا يعلمون .

ويطلب من أولاده الموجودين البحث عن يوسف وأخيه ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧] .

وعاد إخوة يوسف إلى مصر ببضاعة مرة ثالثة ودخلوا عليه ولم يعرفوه ويتحدثون بلهجة الضعيف المكسور، وطلبوا أيضاً أن يتصدق عليهم. عند هذا لم يطق يوسف مزيداً من الإنكار لهم ومزيداً من التخفي عنهم وحان وقت التعرف عليهم والصفح فيما بينهم. فيعود بهم إلى الماضي البعيد ويسألهم عما فعلوه بيوسف وأخيه أيام الجهالة، وهذا الحديث لا يعرفه سواهم لذلك فقد عرفوا وقالوا : ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ﴾ [يوسف:٩٠].

وبدا عليهم الأسف والاعتذار لما بدا منهم وقد أساءوا إليه وهو يحسن إليهم، واعترفوا بخطيئتهم وذلك لما يروه من أن الله آثره عليهم بالمكانة والتقوى والإحسان. فما كان من يوسف إلا أن آواهم وواساهم وقال: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢].

وهكذا سامحهم على عملهم وبالطبع فقد استفسر عن أبيه وحاله وأعطاهم قميصه وطلب منهم العودة إلى الأهل وأن يلقوا بقميصه على وجه أبيه فيرتد بصيراً ، وعرفهم بأخيه الصغير أيضاً وطلب منهم أن يعودوا إلى مصر ومعهم أهلهم جميعاً ليعيشوا معه في ظل وكنف عزيز مصر ، الذي هو أخ لهم ونبي الله يوسف عليه السلام ليعاونوه على أداء مهمته في الحياة الدنيوية إضافة إلى ما يقوم به من دعوة إلى التوحيد، وهذان عملان شاقان ويتطلبان الصبر والجلد.

وقد قال الله تعالى مبيناً ذلك : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف:٨٨-٩٣].

إنه إلهام رباني أن يعلم يوسف أن رائحته سوف ترد بصر أبيه له وعادت القافلة وما أن قاربت على الوصول قال يعقوب: ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف:٩٤] . قد اشتم رائحة يوسف منذ أن فصلت العير عن باقي القافلة لتتجه في اتجاه الضاحية التي يسكنها يعقوب والمسافة ليست بالقصيرة ، فأخبر أنه يشم رائحة يوسف وأنه يخاف أن يتهمه من حوله بالتخريف. وفعلاً اتهموه بذلك حيث قالوا له: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف:٩٥]. كيف ما زلت تتذكر هذه القصة التي مضى عليها سنين طويلة .

وكانت المفاجأة عندما وصل أولاده وألقوا القميص على وجه أبيهم فارتد بصيراً بأمر الله وهنا ذكر يعقوب الجملة التي كان يرددها لمن حوله ولا يفهمونها كما يفهمها هو لأنه أقرب إلى الله منهم فهو نبي الله حيث كان يقول : ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٩٦] .

وبالطبع فقد حدثوه عما رأوا وأن يوسف هو العزيز وعن أخيهم الأصغر وبأن يوسف طلب منهم أن يعودوا بأهلهم أجمعين ليعيشوا في ظله ، وهذه المرة ثبت صدقهم لأول مرة مع أبيهم حيث البشرى السارة والقميص واعترافهم بذنوبهم .

وجهزوا أنفسهم وعادوا إلى مصر ليعيشوا فيها في ظل يوسف عليه السلام. وخلال هذه الفترة منذ تركوا يوسف وكان عزيز مصر ولحين عودتهم تسلم يوسف فيها سلطة الملك حيث تدل الآيات على ذلك ودون أن تذكر نصاً بوفاة الملك، ولكنها تثبت أن يوسف أصبح ملكاً على أقوى دولة في العالم في ذلك الزمان ، وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى

وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:٩٩-١٠١].

ومن الأدلة على أن يوسف أصبح ملكاً قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩]، وهذا قرار لا يصدر إلا عن أكبر سلطة في البلاد.

وثانياً :قول الله : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، ولا يجلس أحد أبويه على العرش إلاّ إذا كان صاحب هذا العرش ويوسف نبي وله أخلاق نبي ولا يجدر به أن يجلسهم على كرسي غيره .

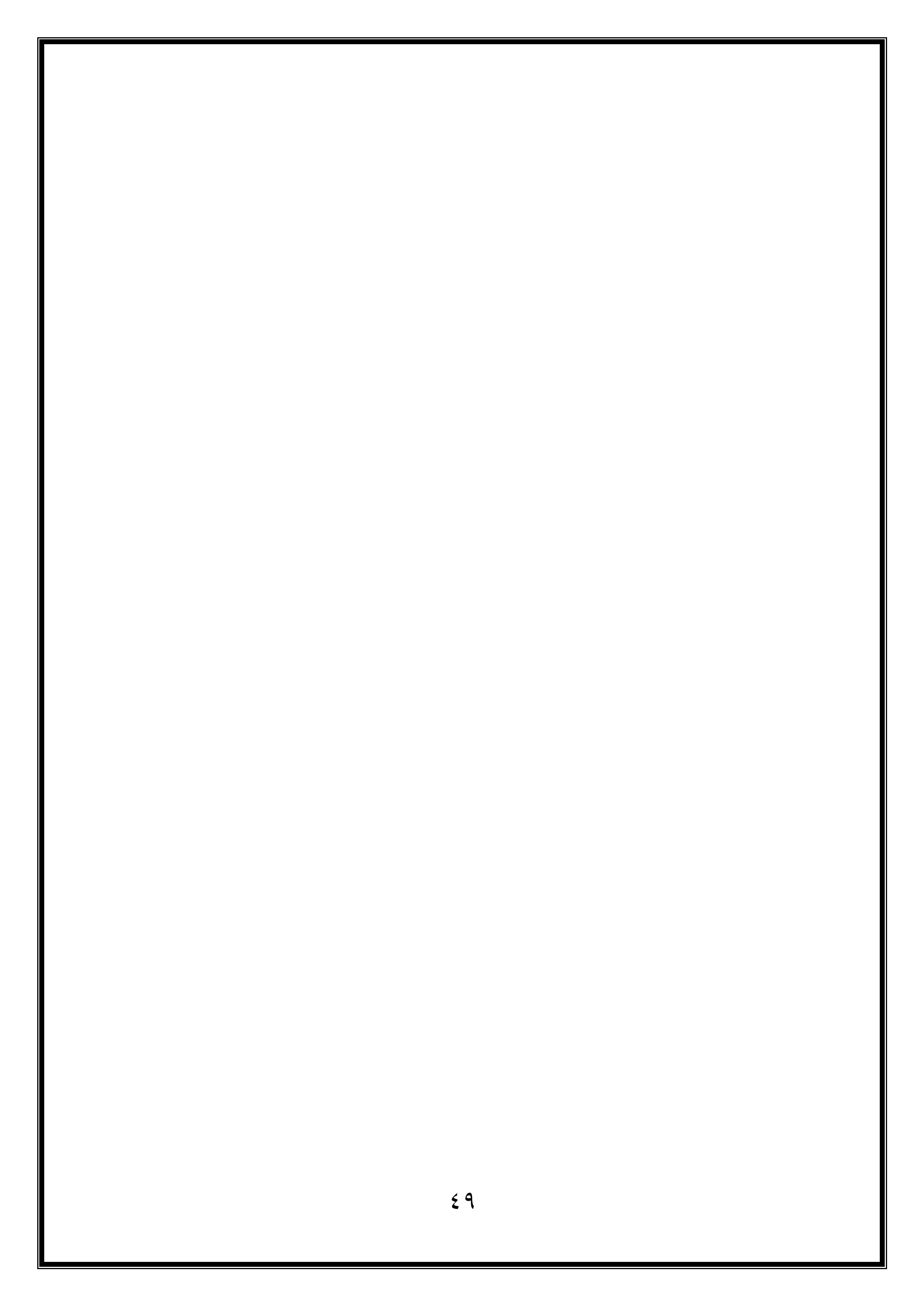
وثالثاً: قول الله : ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ [يوسف:١٠٠]، وهذا لا يحدث إلا لرتبة الملك الشخصية .

ورابعاً: قولـه : ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ﴾ [يوسف:١٠٠]، أي أن الله تعالى حقق لي ما كان حلماً في السابق ويسجد لي الناس بحكم موقعي .

وخامساً: قول يوسف : ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف:١٠١]. وقبل كل هذه الأمور قول الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦].

وهناك أمور سترد لاحقاً تؤكد اعتلاء يوسف عليه السلام عرش مصر ، ومهما يكن من أمر تسلم يوسف عليه السلام عرش مصر فإن ذلك لا يغير شيئاً من الحقائق التي ستظهر لاحقاً.

وهكذا انتقل يعقوب وأبناؤه وعائلاتهم ليعيشوا في مصر التي كانت أقوى دولة على الأرض في ذلك الزمان بكل ما يتطلبه ذلك من إمكانيات تعيينهم في المراكز التي يستحقونها ليساعدوه في إدارة شؤون الدولة المترامية الأطراف وبكل ما ينتج عن ذلك من رفعة لهم في هذه الحياة الدنيا .



الفصل الثالث يعقوب وعقبه في مصر

إن وجود أناس على بقعة من الأرض يعتمد أساسا على وجود إنتاج من نوع معين في تلك البقعة وهذا الإنتاج إذا ما ازداد ليصدر إلى غيرها من المناطق لحاجتها إليه أدى إلى ازدياد معدل الدخل القومي للفرد في تلك البقعة ، وهذا يؤدي إلى ازدياد القدرة الاستيعابية السكانية لتلك المنطقة وبالتالي إلى وجود مزيد من فرص العمل والى ازدياد التعداد السكاني نتيجة لاستيعاب مهاجرين وعمالٍ يفدون على هذه المنطقة الإنتاجية من مناطق أقل حظا .

وإذا كان الإنتاج في أي منطقة بقدر حاجتها ولا يصدر إلى غيرها من المناطق فإنها إما أن تحافظ على وجودها السكاني أو تتناقص وذلك بهجرة الناس منها إلى مناطق أخرى أكثر حظا .

وإذا ما نظرنا إلى خارطة السكان العالمية فإننا نجد أن هذا التباين موجود دائماً وأن الهجرة دائمة على مر الأجيال وأنها لا تتوقف داخل نفس الدولة أو من دولة لأخرى أو من قارة لأخرى.

ولله في خلقه شؤون ، فلولا هذا التباين المتقلب في وسائل الإنتاج واحتياج البشرية المتقلب واختراعاتها المتباينة لازدحمت بقعة معينة بسكانها، وبقيت باقي المناطق فارغة دون سكان ، ولكن حكمة الله وإرادته فوق كل ذلك وهو الذي أنزل آدم خليفته في الأرض لعمارتها، فقد اقتضت حكمته تعالى عمارة الأرض كل الأرض وهو القائل:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾

[الملك:١٥].

فالله هو الذي قدر في الأرض أقواتها وما نحن إلا خلائف على ما وضع الله من خيرات وما أودع في هذه الأرض ويجب علينا أن ندير هذه الخيرات بكل أمانة ووفق ما طلب الله من وسائل ضبط تبعاً لشرع الله وإلا فإن ربك لبالمرصاد .

هكذا تستمر الحياة وتتغير الكثافة السكانية من منطقة لأخرى وتتغير وسائل الإنتاج وأماكن الإنتاج بما يضمن انتشار البشر على هذه الأرض وعمارتها وبما ينتج عن ذلك من تداخل أعراق وأجناس وانتشارها في بقاع الأرض خلال فترة قصيرة من الزمن.

وهناك مقاومة لهذا التغيير في النفس البشرية، فالآباء يحبون أن يكون أولادهم حولهم وقريبين منهم وفي كنفهم وهذا الشعور لدى كل الآباء، وكذلك يتوفر لدى الأبناء تجاه والديهم والأب الناجح ذو الملكية الكبيرة يحب أن يورث أبناؤه مهنته وذلك ليحلّوا محله بعد رحيله عن الدنيا وقد يتحقق هذا أحيانا لدى العائلات ذات الملكية الكبيرة التي تستوعب الأبناء وعائلاتهم ولكن من النادر أن تمتد هذه الملكية للأحفاد وعائلاتهم إلا لذوي السلطان إذ قد تمتد الأملاك إلى الحفيد الرابع أو الخامس.

أما إذا كانت الدولة ذات اتساع كبير وذات مرافق كبيرة ومتعددة فإنها قد تمتد لثمانية أجيال أو عشرة، وهذا ينتهي خلال فترة مائتي عام، وأما إذا زاد الأمر عن ذلك فإنه يعتبر معجزة ولم يكن في التاريخ إلا ما كان من إقامة بني إسرائيل في مصر حيث دام ذلك من عهد نبي الله يوسف عليه السلام إلى عهد نبي الله موسى عليه السلام .

إن إقامة بني إسرائيل في مصر خلال تلك الفترة الطويلة تدل على أنهم توارثوا أمورا كبيرة جدا وكثيرة جدا استوعبت هذا العدد الكبير من السكان للعدد الكبير من الأجيال التي تعاقبت ولم تهجر مصر بشهادة الله تعالى على ذلك ، وهذا يدل على انهم ملكوا رأس الدولة لفترة طويلة من الزمن وانتشروا في طبقات حكمها وفي ممتلكاتها وكان هذا بمشيئة الله، وقد ذكره في كتابه الكريم مبينا دخولهم مصر: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف:٩٩] .

وكان يوسف قد اعتلى عرش مصر وعاشوا معه وفي كنفه وظلوا في مصر إلى أن بعث الله نبيه موسى وأرسله إلى فرعون يريه آيات الله ويطلب منه التوحيد وأن يرسل معه بني إسرائيل إلى فلسطين وبين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥].

وتبين هذه الآيات أنه يريد بني إسرائيل ، وبين في موضع آخر من كتاب الله الوجهة التي يريد أن يأخذ بني إسرائيل إليها وهي فلسطين؛ أرض الأجداد إذ قال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٢١].

ولما لم نكن لنتبين المدة الزمنية التي انقضت بين نبي الله يوسف ونبي الله موسى عليهما السلام فقد استلزم الأمر العودة إلى كتب التاريخ ، علنا نستطيع أن نعرف هذه المدة لكي نخمن العدد السكاني الذي كان عليه بنو إسرائيل عندما اختار الله تعالى موسى وهارون نبيين. وأن هذه الذرية التي بدأت بأربعة وعشرين هم اثنا عشر ولدا وهم أولاد يعقوب عليه السلام وزوجاتهم على أساس أن نبي الله يعقوب عليه السلام وزوجته توقفا عن الإنجاب لكبر سنهما، ولو افترضنا أن الزيادة السكانية كانت فيهم بمعدل (١,٥٪) وهذه هي أقل زيادة سكانية نراها حاليا وأن الدول التي تنظم النسل قد تكون زيادتها السكانية السنوية أكثر من هذا - ولو افترضنا أن معدل سن الزواج هو (٢٥) سنة فإن عدد بني إسرائيل خلال مدة إقامتهم في مصر يزيد عن المليون نسمة إذا لم يهاجر جزء منهم إلى فلسطين باختياره قبل نبوءة موسى عليه السلام حيث كانت فلسطين جزءا من الدولة المصرية في ذلك الوقت .

هذا على اعتبار أن إقامة بني إسرائيل في مصر كانت مدة (٧٥٠) سنة تقريبا كما تم استنباطها من كتب التاريخ وذلك ما سيتبين لاحقا .

من خلال جولة في كتب التاريخ وأولها كتاب (مصر القديمة) الذي يقع في مجلدات تبين لنا من الحقائق الشيء الكثير.

وكان للإطلاع على كتب التاريخ وما دونته لنا عدة أهداف أولها معرفة المدة الزمنية التي انقضت بين نبي الله يوسف ونبي الله موسى عليهما السلام ، وذلك بغية إحصاء العدد السكاني التقريبي لبني إسرائيل في مصر في عهد نبي الله موسى عليه السلام ، والذين هم من نسل نبي الله يعقوب عليه السلام الذي هو إسرائيل ، وبنو إسرائيل في زمن موسى عليه السلام هم أحفاد نبي الله يوسف عليه السلام وإخوانه الأحد عشر الذين اشترك عشرة منهم في رمي يوسف في البئر حسداً من عند أنفسهم لأنه أحب إلى نفس أبيه منهم.

وهناك هدف ثانٍ هو معرفة العلاقة بين مصر والأرض المقدسة حيث إنها المدخل البري الوحيد من قارة أسيا إلى قارة إفريقيا ولا بد من وجود علاقة تاريخية من نوع ما منذ أقدم العصور وذلك قبل اختراع السفن والطائرات حيث كانت بهيمة الأنعام هي وسيلة السفر والتنقل الوحيدة .

وهناك هدف ثالث لمراجعة كتب التاريخ هو معرفة أين يقع أنبياء الله إبراهيم ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام من هذا التاريخ ، وما الأثر الذي أحدثوه في الحياة العامة وانعكاس ذلك على المسار التاريخي للشعب أو الشعوب التي بعثوا فيها ولها رسلاً من رب العالمين .

عودة إلى كتاب التاريخ الذي قسم الفترات التاريخية إلى عهود نسبت إلى أسماء الأسر الملكية التي حكمت مصر منذ فجر التاريخ (التاريخ القديم) ولقد بين الكتاب أسماء الملوك والفترة الزمنية التقريبية التي حكمها الملوك الأوائل قبل اختراع وتدوين الكتابة الصحيحة وكذلك أهم المنجزات التي أنجزها كل منهم والديانة المصرية السائدة في عهد كل ملك أو كل أسرة .

لقد استعمل الكتاب الترجمات المباشرة التي ترجمها علماء الآثار الأجانب ولم يجر تعريبها إلى المفردات المستخدمة حاليا ، فمثلا يستخدم كلمة كاهن لأي ديانة كانت في حينه مع أننا الآن نستخدم كلمة إمام للمسلم وكلمة خوري للمسيحي وهكذا. وللقارئ أن يتبين المعاني الحديثة للكلمات المستخدمة وذلك ليستنتج أو ليشتق مسار الأحداث.

وكذلك يتطلب الأمر البحث عما يدعم صحة هذه الأحداث من كتاب الله لإقرارها أو عما يضادها لاعتبارها غير صحيحة .

بين الكتاب أيضا أسس انتقال الحكم من ملك إلى الذي يليه وكان انتقال الملك بالوراثة لمن هو أحق أو أقرب إلى صلب الملك، وكذلك بين الكتاب كيف كان ينتقل الملك من أسرة إلى أسرة وذلك حين ينتهي الأمر بملك من أسرة ليس له أولاد وتتزوج إحدى بناته من شخص قريب أو غير قريب ليكون ابنهما هو الأحق باستلام العرش لأنه جرى فيه الدم الملكي الذي ورثه عن أمه وهذا يكون رأس الأسرة المالكة الجديدة ، وهكذا ....

كذلك بين الكتاب الذين تسلموا الملك بشكل شاذ عن هذه القاعدة والأسباب التي أدت إلى اعتلائهم العرش، وسيتبين ذلك من خلال الفقرات الملخصة التي تم أخذها لتكون خلاصة موجزة وفقرات مختصرة مختارة من كتاب التاريخ للاسترشاد بها خدمة لأهدافنا في معرفة الحقائق المطلوبة المذكورة سابقا.

ملوك الأسرة الأولى : أهمهم الملك مينا ويسمى (نعرمر) ، وكذلك (عجا) ثم الملك (زر) و(زت) فالملك (دن حسبتى) و (ودمو) ، ثم (عزايب) و (سمرخت سحنبتاح) والملك (قع) (ص٢٢٩/جلد١).

وبعد هذا الفرعون يأتي الملك (ودمو) الذي كان يسمى أيضا (دن) وهو الذي قام بحملة ضد القبائل الرحل في شبه جزيرة سيناء لمعاقبة قطاع الطرق الذين كانوا يغيرون على سكان الدلتا . (ص٢٧١/جلد ١ ـ الأسرة الأولى).

أما الملك سمرخت فأهم ما نعرفه عنه أنه احتفل بالعيد (سد) الثلاثيني وقام بحملة إلى وادي مغارة في شبه جزيرة سيناء وقد بقيت ذكرى هذه البعثة محفوظة إلى الآن في النقوش التي تركها هذا الفرعون في هذه الجهة (٢٧٥/جلد ١ـ الأسرة الأولى).

الأسرة الثانية : أول ملوك هذه الأسرة هو (حتب سخموى) وقد عثر له على تمثال راكع من الجرانيت مكتوب على كتفه أسماء ثلاث ملوك وفي عهده حدث انفجار أرضي في جهة تل بسطه مات بسببه خلق كثير ، ومن المحتمل أنه زلزال وقع هناك لقرب المكان من منطقة أبي زعبل البركانية (٢٧٥/جلد ١)

الأسرة الثالثة : وأول ملوكها (زوسر) وقد أرسل (زوسر) حملات إلى المحاجر والمناجم في شبه جزيرة سيناء لإحضار النحاس والفيروز ، (٢٨٠/جلد ١) وخلف (زوسر) الملك (سانخت) .

والظاهر أن هذا الفرعون حكم كل مصر إذ وجدنا اسمه منقوشا على صخور وادي مغارة في شبه جزيرة سيناء (٢٨٢/جلد ١) .

الأسرة الرابعة : أول ملوكها (سنفرو) . وفي عهده قامت حملة بحرية عظيمة إلى الموانئ السورية رجع منها المصريون بنحو أربعين سفينة محملة بالأخشاب . (٢٨٤/جلد ١) .

ـ **الملك (خوفو)** : وقد ترك خوفو اسمه منقوشا في مناجم النحاس والفيروز في شبه جزيرة سيناء والنقوش التي بقيت تخبرنا أنه أشعل نار الحرب ضد الساميين الرحل الجائلين في هذه الجهات (٢٩٤/جلد١) .

الأسرة الخامسة : لقد كانت (خنت كاوس) هي آخر ملكة في الأسرة الرابعة وهذا ما أحدث فوضى سياسية في البلاد .

ولما تزوجت (خنت كاوس) الوارث الحقيقي للملك ، وأنجبت (وسر كاف) خلصت البلاد من تلك الفوضى السياسية ، وكانت هي الحلقة الموصلة بين الأسرتين الرابعة والخامسة (٣١٩/جلد١).

ـ **الملك وسركاف** : حكم سبع سنوات ، وهب أراضي من أملاكه الخاصة إلى معبد الإله (رع) ، هذا إلى أنه بنى محرابا في معبد (حور) بمدينة (بوتو) وخصص لعبادة البقرة (حتحور) ضياعا في الدلتا باعتبارها أم الإله (رع) وبنى معبداً للإله (سبا) وعلى وجه عام أظهر العناية اللازمة نحو الآلـهة (٣٣١/جلد ١).

ـ **الملك كورع** : ويعد من الملوك الحربيين إذ عثر له في شبه جزيرة سيناء على لوحة مثل فيها مرتديا تاج الوجه القبلي والبحري ويضرب الآسيويين .

وفـي أواخـر حكمه ذكـر لنا حجـر بلرم أنه قـام بحملة إلى بلاد بنت عادت منها حاملـة (٨٠٠٠) مكيال من الروائح العطرية ، (٦٠٠٠) مكيال من الذهب (٣٣٣/جلد١).

ـ **الملك (نفر اركارع) ، (كاكاو)** : وتدل النقوش على أنه حارب في شبه جزيرة سيناء حيث ترك لنا لوحة في وادي مغارة يظهر فيها ممثلا وهو يضرب الآسيويين وقد نقش عليها ما يأتي (قاهر الآسيويين من كل الأقطار) (٣٤٤ـ٣٤٥/جلد ١) .

ـ **الملك إسيسي** : أما النقش الذي يلفت النظـر لهذا الفرعـون ، فقد وجـد في سيناء وقد جاء في مقدمته التاريخ كما كان يدون وقتها . ففي عهده أرسل المستشار الملكي (باوردد) إلى بلاد بنت (٣٤٨/جلد ١).

الأسرة السادسة : الملك (سحتب تاوى تيتى) .

الأسرة الخامسة كانت ميولها متجهة نحو عبادة عين شمس (الإله رع) أما ملوك الأسرة السادسة الدينية فكانت تتجه إلى عبادة الإله فتاح في منف. كان متجها بميوله إلى تنظيم كهنوت (فتاح) .

توجد لوحة نقشت عليها قصيدة نسب فيها أصل كل ما ظهر وما خفي إلى الإله (فتاح) ؛ الإله الواحد الخالق كل شئ (٣٦٢/جلد ١) .

ـ **الملك بيبي الأول** : ولقد قـام جلالتـه بحملـة تأديبيــة ضــد الآسيويين رؤسـاء الرمـال. (٣٧١/جلد ١) .

إن الحملة التي قام بها إلى فلسطين تعد الأولى من نوعها في تاريخ مصر والظاهر أن سبب قيام الفرعون بهذه الحملة إلى فلسطين ما يقال عن هجرة جم غفير من الشمال الشرقي من بلاد ما بين النهرين وتقدمهم في هجرتهم إلى أن وصلوا إلى فلسطين بل والحدود المصرية فاضطر فرعون مصر إذ ذاك إلى منع هؤلاء المهاجرين الآسيويين من دخول مصر(٣٧٤/جلد ١) .

ـ الملك بيبي الثاني : حكم البلاد أربعة وتسعين عاما وفى عهده أن أحد الضباط الذين أرسلوا في حملة إلى سواحل البحر الأحمر واسمه (عنخت نيني) ، وكان يريد أولا بناء سفينة والسفر بها إلى بلاد بنت التي كان يعتقد فيها المصريون أنها شبه مقدسة وأن أصلهم يرجع إليها . (٣٩٠/جلد ١) .

سقوط الدولة القديمة والثورة الاجتماعية :

لقد كانت سلطة الفراعنة في الأسرة السادسة آخذة في التدهور شيئا فشيئا وبخاصة في عهد الفرعون بيبي الثاني ، الذي حكم البلاد أكثر من ثلاثة أجيال وقد انتهى الأمر بعده بانحلال البلاد ويرجع السبب في ذلك إلى أمرين هامين : الأول إغارة الأجانب من البدو على البلاد من جهة والحروب الداخلية من جهة أخرى .

وتفصيل ذلك أن البدو رغم الهزيمة المنكرة التي لحقت بهم في عهد بيبي الأول لم يفقدوا الأمل في غزو البلاد المصرية التي كانت في تلك الفترة تزخر بالثراء والغنى وقد سنحت لهم الفرصة في عهد الملك بيبي الثاني لنيل مآربهم .

ولكن على أية حال كان موقف الحكومة المصرية في هذا العهد في حالة يرثى لها حتى أن الشعب انتهز هذه الفرصة وقام بثورة اجتماعية طاحنة امتد أمدها أكثر من قرنين من الزمان كانت البلاد ترزح خلالها تحت عبء ثقيل من الفوضى والخراب إذ كان سلطان فرعون قد زال وأملاكه قد اختفت. وأخذ كل شخص يغير على ما يستطيع أن يصل إليه وليست لدينا وثائق تاريخية تنير لنا الطريق خلال هذا العصر المظلم ، وأهم كتاب وصل إلينا من هذا العصر هو (تحذيرات نبي) وهو من الكتب الأدبية النادرة في حسن تركيبها وتأثيرها في النفس (٣٩٨ـ٤٠٠/جلد ١) .

ويعد العصر الذي تلا الأسرة السادسة إلى ظهور الأسرة الحادية عشر من أظلم العصور والواقع أن هذا العصر مجدب في الحقائق التاريخية إلا من جعران لفرعون (رع ان كا) فقد وجد عليها رسم يدل على أنه من أصل سامي محض وهو يشبه الرسم الذي وجد على أسطوانة الفرعون (خندو) ، وهذه الدلائل التي ذكرناها رغم قلتها مضافا إلى الفوضى التي سادت البلاد في هذا العصر تزكى الفكرة القائلة بأن البلاد في هذه الفترة قد غزاها قوم من أهالي سوريا .

ويظن الأستاذ بتري: أن الوجه البحري وجزءا من الوجه القبلي قد غزيا في نهاية الأسرة السادسة بل يقال أن قوما من الشمال الشرقي من سوريا قد فتحوا مصر. (٤٠٧/جلد ١) .

الأسرتان السابعة والثامنة : إن هذا العصر مجدب في الحقائق التاريخية وما ذلك إلا لعدم وجود آثار معاصرة ، وان ما يمكن الإشارة إليه بعض جعارين للفرعون (نفر كارع) الذي يظن أنه من الأسرة السابعة وكذلك أسطوانة للفرعون (خندو) ويقال أنها صناعة سورية وهو من الأسرة الثامنة .

وعثر على خاتم للفرعون (نفر كارع تلولو) وعلى مراسيم للفرعون (نفر كاو حور) وجعران لفرعون اسمه (رع ان كا) وهؤلاء الفراعنة لم يشيدوا مباني كأسلافهم (٤٠٦ ـ٤٠٧/ جلد ١) .

الأسرة الثامنة القفطية : (٢٢٨٠ ـ٢٢٤٠ ق.م) .

إن حاكم مقاطعة قفط آنس من نفسه القوة فضم إلى مقاطعته المقاطعات السبع العليا من الوجه القبلي وأسس فيها مملكة مستقلة تحت سلطانه عن أسرة منف .

ولا نعرف كيف انتهت الأسرة المنفية إذ كانت فريسة بين الأسيويين الذين كانوا يحتلون الدلتا وبين ملوك أهناس الجدد . (٤٠٩/جلد ١) .

ومن ذلك الحين نرى أن مصر في هذا العهد كانت مقسمة ثلاثة أقسام ففي الشمال كانت الدلتا في يد الآسيويين وفي مصر الوسطى كان حكام أهناس وهم المسيطرون وفي الوجه القبلي نجد أن البلاد

كانت ملتفة حول حكام طيبه ولا نعرف شيئاً عن اختفاء أمراء قفط الذين كانوا أصحاب السلطان في المقاطعات الجنوبية (٤١٣/جلد١).

الأسرة التاسعة والعاشرة : في مصر الوسطى عاصمتهم أهناس .

أول ملوك الأسرة التاسعة هو (خيتى الأول) ، وقد حكم نحو اثنين وعشرين عاما (٢٢٤٢-٢٢٢٠ ق.م) (٤١٦/جلد ١).

خيتى الثاني لا نعرف عنه شيئا تلاه خيتى الثالث وقام بينه وبين بيوت الجنوب خلاف كبير وقد كان مقر حكومة هذا البيت العظيم الذي ظهر في الجنوب بلدة طيبة وكان حاكمها في هذا العهد هو (انتف العظيم) (انتف عا) ابن انتف الأول مؤسس هذا البيت، وكان انتف هو الحاكم الحقيقي لمقاطعات الجنوب وقامت بينهما حروب لم تؤد إلى نتيجة بل رسخت الفرقة بين الجنوب والوسط .

وخلال هذه المدة توفي انتف العظيم وخلفه اثنان من الأمراء حكم كل منهما مدة قصيرة ثم خلفهما فرعون يدعى (منتوحتب الثاني).

وقد جاء في نقوش عثر عليها في الجبلين انه قبض على أمراء الأرضين وانه المسيطر على الجنوب والشمال وعلى الأرض المرتفعة وعلى القطرين وعلى قبائل البدو التسع وعلى الأرضين (٤٣٢/جلد ١).

الأسرة الحادية عشرة : امرأة تدعى (اكوي) رزقت ابنا اسمه انتف في طيبة وبالتوازي مع الأسرة التاسعة والعاشرة في أهناس ويظهر انه جاء بعد انتف مؤسس هذه الأسرة انتف آخر كان يحكم البلاد الطيبية (٢١٤٣-٢١٤٠ ق م) واسمه (سهرتاوى انتف)، وهو في نظر التاريخ الأمير الأول من الأمراء الستة الذين تتألف منهم الأسرة الحادية عشرة وهم الذين حكموا نصف البلاد قبل مجيء الأسرة الثانية عشرة بما يقرب من ١٤٣ سنة، أي منذ (٢١٤٣ -٢٠٠٠ ق.م). (ص ٨/ جلد ٣).

واح عنخ انتف	(٢١٤٠ - ٢٠٩٠ ق.م).
نخت نب تب نفر - انتف	(٢٠٩١ - ٢٠٨٨ ق.م).
سعنخ آب تاوي - منتوحتب	(٢٠٨٨ - ٢٠٧٠ ق.م).
حونترحزت هو منتوحتب الثاني	(٢٠٧٠ - ٢٠١٩ ق.م).

وحكم البلاد (٥١) عاما ، وفي عهده توحد القطران كما أسلفنا (٦٦/جلد٣).

لوحة خيتى (موظف له): إن من يقرأ محتويات هذه اللوحة ليشعر أن خيتى هذا قد تجاوز في رحلته هذه حدود شبه جزيرة سيناء (٨٠/جلد ٣) .

- **الملك سعنخ كارع** : منتوحب الثالث (٢٠١٩ - ٢٠٠٧ ق.م).

من أهم أعمال هذا الفرعون العظيمة استغلاله محاجر وادي الحمامات وتمهيد الطريق من قفط إلى البحر الأحمر لتسهيل طرق التجارة بين مصر وبلاد (بنت) وقد كان لزاما على الفراعنة أن يخضعوا بدو الصحراء الشرقية أولا حتى يتيسر لهم الوصول إلى مآربهم (١٠٨/جلد ٣).

- **منتوحتب الرابع** : (٢٠٠٧ - ٢٠٠٠ ق.م) .

أما السبعة أعوام المضافة فكانت عهد فوضى وهي عبارة عن الفترة التي تطاحن فيها سنوسرت الوالد المقدس ونب تاوي رع (منتوحتب الرابع) وغيرهما على تولى العرش الذي فاز به الأخير مدة وجيزة ثم انتزعه منه امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة (١٤٠/جلد ٣) .

ومنذ ذلك الحين أصبحت البعثات التي ترسل إلى بلاد بنت المشهورة وقتئذ بروائحها العطرية وبالبخور لا تذهب عن طريق السويس كما كان الحال من قبل ، بل صارت تخرج من قفط إلى وادي الحمامات ثم البحر الأحمر حيث أسس ميناء (ساوو)، (أُنشىء في عهد منتوحب الرابع) (١٤٧/جلد ٣) .

الأسرة الثانية عشرة : (٢٠٠٠ ـ ١٧٨٧ ق.م):

مؤسس الأسرة الثانية عشرة هو **امنمحات الأول** (٢٠٠٠ ـ ١٩٧٠ ق.م) .

هو وزير الفرعون منتوحتب الرابع والمرجح أن سلطان هذا الوزير اخذ يعظم ونفوذه يزداد ويقوى في عهد منتوحتب هذا حتى تمكن في النهاية من الاستيلاء على العرش عنوة . ويقوي هذا الظن أن (منتوحتب) الرابع هذا كان مغتصبا الملك ولم يكن صاحب حق وراثي فيه (١٦٩/ جلد ٣) .

على انه من الجائز أن يكون (امنمحات) تولى العرش بعد (منتوحتب) مباشرة بفضل ما كان له من قوة ونفوذ في البلاط، من أجل ذلك لم يعتمد امنمحات الأول في استوائه على العرش على القوة وحدها بل قرنها بحيلة تدل على الحذق والمهارة استمال بها أبناء الشعب مثقفين وغير مثقفين تلك هي أسطورة حرص على إذاعتها بين القوم قوامها نبوءة لحكيم قديم رأى فيها أن الويلات التي حاقت بالبلاد ستنجاب على يد رجل عظيم يصلح عوجها ويرى بحكمته عالمها وذلك المخلص المنتظر هو امنمحات (آمن بها الدهماء لأنها نبوءة تنبأ بها حكيم) (١٦٩ـ١٧٠جلد ٣).

مقر الملك الجديد : بنى موقعا جديدا ليكون عاصمة متوسطة تسمى (اللشت) ، ومعناها مراقبة الأرضين .

نظرة عامة على أخلاقه وإصلاحاته : إن أكبر شفيع له في تولي عرش البلاد واحترام الأهلين له يرجع إلى كفايته في إدارة البلاد بعد طول الفوضى وانه هو المصلح المنتظر الذي تنبأت به الأساطير منذ قديم الزمان ، وحقا قد حقق ما أنبأت به الكتب بما أظهره من مقدرة نادرة في توجيه سكان البلاد وهي تلك المقدرة التي ورثها عنه أخلافه ، وميزت هذه الأسرة وجعلتها أقوى أسرة مصرية حكمت البلاد في كل عصورها بمقدرة وكفاية منقطعة النظير ، حتى أصبح عصرها يعرف بالعصر الذهبي في تاريخ الديار المصرية (١٧٩/جلد ٣).

حروبه ضد آسيا : أرسل حملة إلى آسيا بقيادة (نسومنتو) وكان ذلك في السنة الرابعة والعشرين لحكمه ويقول هذا القائد على لوحته : فقد قهرت سكان الكهوف من الآسيويين وسكان الرمال وخربت معاقل البدو وجعلتها كأن لم تغن بالأمس ووطئت حقولهم (١٨٥/جلد ٣) .

وقد أشرك معه ابنه سنوسرت في الحكم آخر عشر سنوات ليدربه على أمور القيادة.

من يوم أن اعتلى امنمحات الأول عرش الديار المصرية أخذ نجم الإله (آمون) يعلو ويتلألأ بين الآلهة المصرية حتى صار فيما بعد أعظم الآلهة المصرية شهرة وعظمة وثراء وسنرى فيما بعد أن كهنة طيبة قد ازداد سلطانهم تدريجيا حتى أنهم في النهاية اصبحوا أصحاب السيطرة الدينية في البلاد كلها وأغنى طائفة فيها في عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وسنتكلم عن نشأة عبادة آمون عند الكلام عن الديانة (١٧٧/جلد ٣) .

أما في الأمور الدينية فإن الآلهة المختلفة التي كانت تعبد في كل البلاد قد بقيت على حالها مع إصلاح معابدها ، والشيء الجديد هو ظهور الإله آمون ولقد عظم شأنه حتى أصبح الإله الأعظم الرسمي للحكومة (١٨٦جلد٣).

- **سنوسرت الأول** : (١٩٨٠- ١٩٣٦ ق.م).

شارك أباه في الحكم عشر سنوات ، هرب أخوه سنوهيت إلى فلسطين وأصدر عفوا عنه وعاد إلى مصر. في السنة الثالثة والأربعين من حكمه وقد ناهز السبعين من عمره وأشرك معه ابنه امنمحات الثاني في حكم البلاد .

- **امنمحات الثاني** : (١٩٣٨ - ١٩٠٣ ق.م) .

فقد أظهر نشاطه العظيم في إرسال البعوث العديدة إلى مختلف نواحي ممتلكاته لاستخراج المعادن من جبالها الغنية بها، أو لتهدئة الأحوال في الجهات التي حدثت فيها اضطرابات كما أرسل البعوث للبلاد الأجنبية بقصد التجارة ونشر الحضارة المصرية ، فمن أهم أعماله ما أظهره من نشاط في شبه جزيرة سيناء إذ أرسل بعثتين لاستخراج المعادن والأحجار الكريمة (٢٤٦/جلد٣) .

ولما كانت ظواهر الأحوال تدل على أن العلاقات بين مصر في عهد (امنمحات الثاني) والبلاد الأجنبية كانت علاقات صداقة وود وبخاصة بين هذا الفرعون وآسيا فإن من المستبعد أن تكون هذه التحف قد أتت إلى مصر عن طريق الغزو ، بل يحتمل جدا أنها كانت جزية فرضها الفرعون على أمير ببلوص سواء كان أميرا من أهل البلاد نفسها أم أميرا مصريا قد وضعه الفرعون حاكما عليها من قبله. (٢٧٥ جلد٣) .

- **سنوسرت الثاني** : (١٩٠٦ - ١٨٨٣ ق.م) .

لم يكن ميالا للحروب وبلاد النوبة أخذت تفلت من يده حتى أن القبائل النوبية هددت البلاد المصرية نفسها بالغزو .

وقد عثر على لوحة لمدير خزانته يذكر فيها انه قام ببعثة إلى أرض الإله (بنت) وقد عثر له على تمثال صغير في سرابة الخادم وهي مركز المناجم في شبه جزيرة سيناء . (٢٦٧/جلد ٣).

وقد تمتعت مصر في أيامه بالرخاء والثروة والسعادة مما جلب إليها المهاجرون الساميون من الصحراء وكذلك أهل البلاد الأخرى التي تجاورها. (٢٦٩/جلد ٣) .

- **سنوسرت الثالث** : (١٨٨٧ - ١٨٤٩ ق.م) :

يعد عند المصريين من أكبر الغزاة الذين قاموا بحروب طاحنة دفاعا عن حدود مصر من جهة الجنوب ضد السودان ومن جهة الشمال ضد الآسيويين .

والظاهر أن العلاقة بين البلدين كانت علاقة مودة وصفاء كما توضح لنا ذلك الهدايا التي كانت تأتى إلى مصر من هذه الجهات في عهد أسلاف سنوسرت وما نفهمه من روح قصة سنوهيت إذ نجد أن السوريين كانوا يحترمون المصريين احتراما عظيما ويعجبون بالحكم المصري . (٢٨٩/جلد٣).

- **امنمحات الثالث** : (١٨٤٩ - ١٨٠١ ق.م) .

عصره سكينة وهدوء ومشاريع عظيمة وأعمال جليلة حيوية واجتماعية وإصلاحات داخلية زراعية ودينية وقد كان أهم نشاط لهذا الفرعون في استخراج المعادن متجها إلى شبه جزيرة سيناء التي كان يعتبرها جزءا من مصر (٣٠٣/جلد ٣) .

وهناك نقش لأحد قادته يقول: وأخضعت بلاد الآسيويين لمن في القصر (أي الفرعون) ، وجعلت سيناء تركع تحت قدميه واخترقت الوديان الوعرة ووصلت إلى التخوم المجهولة .

ومن هذا النقش نعلم أن هذا الموظف قد التحم في أحد بعوثه مع قبائل البدو والآسيويين وكذلك أخضع ثورة كانت في شبه جزيرة سيناء (٣٠٦/جلد ٣)

- **امنمحات الرابع** : (١٨٠١ - ١٧٨٨ ق.م) .

كان ضعيف الشكيمة بعد رجل قوي .

- **الملكة سبك نفرو** : (١٧٩٢ - ١٧٨٧ ق.م) .

وهي أخت امنمحات الرابع حيث لم يكن له ولد وتم تتويجها ملكة وهي ابنة امنمحات الثالث وآخر ملوك الأسرة الثانية عشرة . كان تولي الملكة (سبك نفرو رع) عرش مصر آخر مرحلة تنذر بسقوط الأسرة الثانية عشرة فبانتهاء حكمها انقطع نسل هذه الأسرة ودخلت مصر في عهد مضطرب، تغشاه ظلمة حالكة تتضاءل أمامها تلك الظلمة التي غشيت البلاد على أثر سقوط الدولة القديمة فالمصادر التي لدينا عن ذلك العصر نادرة والآثار التي كشف عنها حتى الآن ضئيلة(ص١/جلد ٤) .

الإمبراطورية المصرية في آسيا في عهد الدولة الوسطى :

ففي عصر ما قبل الأسر المتأخر تدل البحوث على أن آسيا كان لها تأثير عظيم على سكان وادي النيل ولكن سرعان ما نرى أن مصر قد استثمرت بدورها شبه جزيرة سيناء، ومن المحتمل فلسطين من الوجهة الاقتصادية وذلك في عهد الدولة القديمة ، ولكن نجد ثانية في العهد الإقطاعي الأول أن الآسيويين قد غزو الوجه البحري وبعد ذلك عادت مصر وزحفت ثانية إلى الأقاليم الآسيوية في عهد الدولة الوسطى ونشرت بعض سلطانها ، أما العصر الذي تلا سقوط الدولة الوسطى فيشاهد أن الهكسوس قد اجتاحوا البلاد المصرية واستوطنوها لمدة طويلة ثم لم نلبث أن رأينا نجم الغزاة قد أفل وقامت الدولة الحديثة وأسست إمبراطورية شاسعة في آسيا، ثم مال الميزان كرة أخرى، وأخذت كفة مصر تهوي عندما أراد أعداؤها في القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد أن يغزوها (٤٢٤-٤٢٥/جلد ٣).

الأسرة الثالثة عشرة :

- **الملك سخم رع خوتاوي - امنمحات سبك حتب :**

لم تصل إلينا معلومات وثيقة عن حال نهاية حكم الملكة (سبك نفرو رع) آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ويظن بعض المؤرخين أنها لابد قد تزوجت (سخم رع خوتاوى) وانه بزواجه منها أصبح ملكا شرعيا ولكن ليس لدينا ما يدعم الزعم ، فمن الجائز أن هذا الفرعون قد اغتصب الملك منها وبخاصة إذا علمنا أن حكم النساء لم يكن مرغوبا فيه في كل عصور التاريخ المصري. (٤ /جلد ٤) .

وقد حكم امنمحات سبك حتب البلاد المصرية ما لا يقل عن أربع سنوات وخلف وراءه آثارا عدة في طول البلاد وعرضها مما يدل على انه كان مسيطرا على القطر كله. (٥/جلد ٤).

بوادر الانحلال في الحكم :

إن بوادر الانحلال أخذت تظهر في نهاية حكم أول فراعنة هذه الأسرة بصورة جلية وواضحة وفي حكم الفراعنة الذين خلفوا حكم هذا الملك فقد كان الانحطاط سريعا إذ نجد أن انتقال الحكم من فرعون إلى فرعون كان يجرى في سرعة خاطفة مدهشة ولا أدل على ذلك من أن ثلاثة من هؤلاء الملوك الذين تربعوا على عرش البلاد لا نعرف لواحد منهم اسم تتويج، مما يدل على انهم خلعوا عن العرش على أثر توليتهم قبل أن يتاح لهم التتويج رسمياً.

ولابد أن هذا العصر كان يمتاز بالثورات التي كانت تشب في القصر فيغتصب العرش من كان في جانبه القوة (ص٧ /جلد ٤) .

استوطن ملوك الأسرة (١٣) طيبة ، وسيطروا في بادئ الأمر على مصر كلها حوالي (١٧٨٨ ق.م) ، وظلت كذلك حتى نهاية عهد رابع ملوك هذه الأسرة حيث حكم الباقون الجزء الجنوبي فقط وأما الدلتا فقد حكمه الهكسوس (٦٥/جلد ٤) .

الأسرة (١٤) كانت تعاصر الأسرة (١٣) ولكن عاصمتها غرب الدلتا وكان ملوكها يغيرون كثيرا جدا فهم حكام تابعون لغيرهم وكان مقرهم مدينة (سخا) من أعمال الدلتا .

أسس الهكسوس الأسرة (١٥) بعد (١٤) وكانت الأسرة (١٣) مازالت في الجنوب والذين كانوا آخر ملوكهم خاضعين للهكسوس أيضا (٦٥/جلد ٤) .

بعد ذلك جاء في مختصر افريكانوس أسرة ثانية ؛ وهي الأسرة السادسة عشرة وعدد ملوكها (٣٢) ملكا ثم جاءت الأسرة السابعة عشرة وقد حكم منها (٤٣) ملكا من الهكسوس ومثلهم من الطيبيين جنبا لجنب وانتهت بطرد الهكسوس على يد الفرعون احمس الأول مؤسسة الأسرة الثامنة عشرة (٨٢ جلد ٤) .

الهكسوس : حكام الأقاليم الأجنبية : أصبحوا أصحاب السلطان في أرض الدلتا حوالي (١٧٣٠ق.م) ، أما تاريخ طردهم من أرض الكنانة فيكاد يكون متفقا عليه الآن انه كان حوالي (١٥٨٠ق.م) على يد الفرعون احمس الأول . وبدأ وجود الهكسوس في عهد الأسرة الثانية عشرة قبل أن يغزو البلاد جملة وسنرى أن المواد الأثرية التي كشف عنها قد لعبت دورا في كشف النقاب عن الجواب عن هذه المسألة (١٦٦/جلد٤) .

توجد أسباب عدة تدل على أن أولئك الغزاة كانوا قوة ثقافية في وادي النيل منذ عهد الملك سنوسرت الثاني (١٩٠٦ ـ ١٨٨٧ق.م) ، أي في منتصف عهد الدولة الوسطى عندما كانت مصر في أوج عظمتها (٥٤/جلد ٤) .

إن مصر كانت وقتئذ في عصر من أزهى عصورها وان ببلوص الواقعة على الشاطئ السوري كانت موالية لمصر حتى (١٧٤٠ق.م) ، ويظهر أن الجواب المقنع على ذلك هو أن غزو الهكسوس لمصر لم يتم دفعة واحدة بين عشية وضحاها ولكنه تم تدريجيا وعلى مهل فكان يكتسب قوة بمرور الزمن . (٥٥/جلد ٤).

ملاحظة : تسميهم كتب تاريخ فلسطين (اليبوسيين) أي سكان يبوس (القدس سابقاً)، وهم سكان فلسطين الأصليين ، وتسميهم كتب تاريخ أخرى بالكنعانيين .

مدنية الهكسوس :

انهم قوم على جانب كبير من المدنية وأكثر تقدما في بعض النواحي من جيرانهم في وادي النيل الذين كانوا يعتبرون أقدم منهم، وصفاتهم الحربية ظاهرة وهم الذين جلبوا استخدام الحصان إلى مصر ، لدينا إمارات عدة على أنهم كانوا يعيشون عيشة منظمة بالمعنى الاجتماعي الصحيح ، فقد خططوا البلدان المنظمة التي راجت فيها التجارة وقد كان صانع الفخار عضوا هاما في الجماعة وكان الحداد وصائغ المجوهرات كل ينتج في صناعته بمهارة فائقة ولم تشهد من قبل السواحل الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط اتقانا في ميدان صناعة المعادن وهذا ما ظهر على يد الهكسوس في صناعتها . (١٦٥/جلد ٤) .

على أننا من جهة أخرى لا نجد في سقوط الأسرة الثانية عشرة الذي أدى إلى ضعف مصر سبباً يساعد على حركة قامت للأسباب التي أوردناها هنا ، وهي التي كانت نتيجتها توطين أول أسرة للهكسوس في ارض الدلتا حوالي (١٧٣٠ق.م) (٥٥/جلد٤) .

على أن أهم ظاهرة في حكم الملك (خيان) هي وجود آثار له في خارج القطر المصري في جهات نائية بعيدة جدا لدرجة أن بعض المؤرخين ظن أن مملكته امتدت أطرافها إلى تلك البقاع ، فقد وجد له آثار في سوريا وفلسطين من جهة ، أما عن وجود جعارين باسم هذا الملك في سوريا وفلسطين فلا غرابة فيه ، لأننا سنرى أن هذين القطرين كانا ضمن البلاد التي سيطر عليها الهكسوس أيام عظمة مجدهم (٩٢/جلد٤).

ولكننا نعلم أن الهكسوس لما اجتاحوا البلاد وتسلطوا عليها وجدوا عند استيطانهم فيها أن الإله (ست) كان هو المعبود المحلي للبقعة التي كانوا أقاموا فيها تحصينات عاصمتهم العظيمة التي اتخذوها بمثابة نقطة الاتصال بين أجزاء دولتهم الضخمة وهي التي كانت تضم بين جوانبها مصر وفلسطين وسوريا (٦٦/جلد ٤).

ـ **الملك كامس** : آخر ملوك الأسرة (١٧) وهو الذي بدأ الحرب مع الهكسوس حيث كانت مصر ثلاثة أقسام الشمالي الشرقي منها مع الهكسوس (١٣٠/جلد ٤) .

وخلف أحمس الأول على عرش الملك (١٥٨٠ـ١٥٥٧ق.م) الملك كامس وعلى الرغم من أنهما من أسرة واحدة فإن الملك الجديد كان يعد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة (١٤٢جلد ٤).

الأسرة الثامنة عشرة :

ـ **احمس الأول** : (١٥٨٠ ـ ١٥٥٧ ق.م) .

طرد الهكسوس وقاد البلاد على أسس متينة هيأت لمن جاء بعده من الفراعنة الشجعان أن يؤسسوا دولة مترامية الأطراف تمتد من الشلال الرابع إلى أعالي نهر دجلة والفرات . (١٩٩ـ٢٠٠/جلد٤) .

ولم تمض أربع أو خمس سنوات على بداية هذا النضال العنيف حتى أفلح احمس في طرد الهكسوس من البلاد جملة بل سار بجيشه حتى بلاد زاهي (فينيقيا) حيث يحدثنا أحمس عما أحدثه من انتصار (٢٠٠/جلد٤) .

ـ **أمنحتب الأول**: (١٥٥٧ـ ١٥٣٥ ق.م) .

وهو ابن نفرتاري التي أصبحت وصية على العرش لصغر سنه .

ـ **تحتمس الأول** : انه ليس ابن امنحتب وربما يكون ابن احمس الأول .

كان يريد تأسيس إمبراطورية واسعة النطاق وكان قد وضع أساسها في عهد الأسرة الثانية عشرة وبقى حبل الاتصال بين المصريين والآسيويين موصلا كما نجد آثاره في عهد الأسرة الثانية عشرة (٢٦٠/جلد ٤) .

وقد علمنا فيما بعد من غير المصادر المعاصرة أن تحتمس الأول قد وصل في زحفه على نهر الفرات إلى المنحنى العظيم بالقرب من قرقميش وانه أقام هناك لوحه تذكارية لانتصاره فقد أخبر تحتمس الثالث أنه وجد اللوحة التي أقامها جده هناك وأقام بدوره لوحة أخرى على الجانب الأيمن لنهر الفرات (٢٦١/جلد ٤) .

ـ **تحتمس الثاني** : أخمد ثورة في الجنوب وأخرى في سوريا ، وكان له ولد من زوجة عادية فأوصى له بالملك على أن يتزوج من أخته وبذلك عينت حتشبسوت وصية على الملك الصغير الذي سيتزوج ابنتها وعينت نفسها ملكة على البلاد .

ـ **الملكة حتشبسوت** : عينت نفسها ملكة على البلاد في السنة السابعة لحكمها وذلك حوالي (١٤٩٤ق م)، ولم تقم بالقضاء على تحتمس الثالث وأبقته في طي الكتمان (٣١٩ جلد ٤) .

ـ حملتها إلى بلاد بنت : بعد أن بدأت الملكة حتشبسوت في إقامة معبدها الجنائزي الذي أرادت أن تدون على جدرانه كل ما قامت به من جليل الأعمال لوالدها آمون ثم لنفسها فكرت في إرسال حملة سلمية إلى بلاد بنت لتحضر منها الأشجار ذات الروائح العطرية التي اشتهرت بها تلك البلاد النائية وهي التي كانت تعد في نظر المصريين بلاد الآلهة يضاف إلى ذلك أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن لهم علاقة قديمة بهذه البلاد وانهم من نفس الجنس الذي تألف منه شعب بنت وكانت البلاد نفسها تسمى في الأدب المصري الأرض المقدسة أو أرض الإله. (٣٢٦جلد ٤) .

ـ تحتمس الثالث : (١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق.م) .

لم يعترف بحكم حتشبسوت واعتبر تاريخه منذ تعيينه وهي وصية عليه وأخذ ينكل بأعدائه والذين كانوا يساندونها في حكمها (٣٩٠/جلد ٤) .

لوحـــة: ويحتمل انه نقشها في العام الثاني والأربعين من حكمه بعد أن عاد مظفرا من آخر حملة سار على رأسها إلى بلاد آسيا . (٣٩٠ـ٣٩١ /جلد ٤) .

تعد موقعة مجدو التي قابل فيها تحتمس الثالث جيوش الحلف السوري بإمرة حاكم قادش أول معركة حربية في تاريخ العالم القديم ، قد بقي عنها تفصيلات تذكر (٣٩١/جلد٤) .

ونصب أمراء جدداً وصحب أولادهم إلى طيبة ليعيشوا فيها ويربوا كما يشاء وهم رهائن وفي السنة الثلاثين قام الفرعون بحملته السادسة وكان غرضها الاستيلاء على بلدة قادش (٤٢٩/ جلد ٤).

ـ أمنحتب الثاني : (١٤٥٠ـ ١٤١٥ ق.م) .

هو ابن تحتمس وولد في منف وفي عهد والده قسمت البلاد إلى قسمين : قسم من أسوان إلى أسيوط ، وآخر من أسيوط إلى البحر الأبيض المتوسط ، ويشرف على كل منها وزير وكان امنحتب ذو جسم رياضي وقوي . وبعد أن وصل جلالته أمام قادش فخرج أميرها لمقابلة جلالته بسرور وعقد هو وأولاده عين الإخلاص لجلالته . (٦٦٠/جلد ٤) .

ـ تحتمس الرابع : (١٤١٥ ـ ١٤٠٥ ق.م) .

رياضي وصياد مثل والده ، يعتبر عصره عهدا جديدا فقد زار الدول التي حوله حيث لا مجال للحروب لعدم الحاجة لها .

ولما تولى الحكم قام بحملة على شمال سوريا (نهرين) غير أن الوثائق المباشرة التي تحدثنا عن هذه الغزوة لم يكشف عنها بعد ، وقد حكم تسع سنين وثمانية أشهر. (١٧/جلد٥) .

ـ أمنحتب الثالث : (١٤٠٥ ـ ١٣٧٠ ق.م) .

يعتقد انه أخو تحتمس الثالث كانت مصر في عهده أكبر إمبراطورية في الشرق القديم .

ـ أخناتون : (١٣٧٠ ـ ١٣٥٢ ق.م) .

هو ابن امنحتب الثالث وورث عن أبيه حب النساء ويسمى امنحتب الرابع وقد أحدث انقلاباً دينياً ولدينا من الحقائق التاريخية ما يجعلنا نعتقد أن الانقلاب الديني الذي أحدثه لم يتم بغتة وأن مقدماته قد بدأت في عهد تحتمس الرابع جد أخناتون .

إن تحتمس الرابع كان أول فرعون ثار على سلطان كهنة (آمون) وانتزع من يدهم وظيفة رئيس كهنة القطرين وقلدها أحد قواده الذين يركن إليهم ويثق فيهم (٢٥٧/جلد٥).

فقد تولى أخناتون عرش البلاد ووجد الأمور مهيأة بعض الشيء لعبادة إله الشمس وحده الذي سماه آتون وقال عن معبوده انه القوة الكامنة وراء هذا القرص وانه واحد لا شريك له وبنى له معبدا في طيبة .

مات أخناتون بعد أن حكم (١٨) ربيعا وانه مات في وقت لمعت فيه مملكة الخيتا وازدادت قوة وشوكة وأخذت تطرق أبواب سيدتها مصر وتهاجم حدودها آملة أن تسودها (٢٦٤/جلد ٥).

عرش مصر بين سمنخكا رع ونفرتيتي :

تولى سمنخكا رع الحكم بعد أخيه ولم تبايعه نفرتيتي فاستعانت بغيرها ومات سمنخكا رع واعتلى عرش مصر توت عنخ آمون .

ـ توت عنخ آمون : (١٣٥٢ ـ ١٣٤٤ ق.م) تقريباً .

هو ابن أمنحتب الثالث ومعه زوجته بنت أخناتون ونفرتيتي .

بقي النشاط في مراقبة الولايات في سوريا حتى تولى امنحتب الثالث وكان ملكا متساهلا في أمر دولته فشل نشاط الجيش وانحلت قواه والواقع أن هذا الفرعون قد أراد أن يترك الأمور في مختلف بقاع دولته تجرى كما يشاء القدر. (٣٤٥/جلد ٥) .

تولى السلطة وهو في العقد الثاني من العمر ومات مبكرا وكان يدير البلاد الكهنة ، كان آخر فرعون من الأسرة الثامنة عشرة تولى بعده ثلاثة فراعنة لم يجر فيهم الدم الملكي وهم الفرعون (أي) الذي خلفه (حور محب) ثم أعقبه (رعمسيس الأول) وكان كل من هؤلاء يحمل لقب القائد الأعلى وكان كل منهم يبرر اعتلاءه العرش بزواجه من إحدى الأميرات (٤٦٠/جلد ٥) .

إن الملكين (أي) و (حور محب) هما اللذان مهدا السبيل إلى استعادة مجد مصر بعد أن ضيعه أخناتون في عهد إصلاحه الديني . (٦٠٧/جلد ٥) .

يعد حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة قد أعاد للبلاد ديانتها الأصلية كما استرد لها بعض مكانتها السياسية بإخضاع بلاد النوبة ثانية للحكم المصري وبالانتصارات التي أحرزها على أقوام البدو (خيتا) الذين كانوا قد أغاروا على أملاك مصر في سوريا وفلسطين (٢/جلد ٦) .

ـ سيتي الأول : (١٣٢١ ـ ١٣٠٢ ق.م) .

شارك أباه في الملك وكان جنديا محبوبا وكان في الأربعين عندما تسلم الملك وفي بداية عهد سيتي الأول تم قهر (خيتا) (٣٤٢/جلد ٦) .

أما المرحلة الرابعة من حروب سيتي الأول فكان الغرض منها إخضاع قادش الواقعة على نهر الارنت وتعد المنفذ لسهل بلاد سوريا الشمالية . (٤٧/جلد ٦) .

وقد كان من نصيب رعمسيس الثاني ابنه أن يواصل الكفاح الطويل المرير للاستيلاء ثانية على أعالي نهر الارنت ويخضعها لسلطان مصر (٥٤ جلد ٦) .

ويدل ما لدينا من نقوش على أن سيتي الأول قد أصلح معبد اوزير القديم في العرابة وكان قد تهدم فـي الأيام السود التي مرت على الآثار في عهد اخناتون وكذلك أقام معبده الفاخر المسمى (بيت ملايين السنين من ماعت رع) للإله اوزير أولا وهو الذي يشمل محاريب لاهم آلهة البلاد الآخرين (ص ٨/جلد ٦) .

ومن الغريب المدهش حقا انه لم يأت ذكر بلاد (بنت) فيما لدينا من الآثار حتى الآن في عهد سيتي الأول أو رعمسيس الثاني حتى في النقوش الفخرية التي كان يدونها الفرعون لمجرد حب العظمة (٥٩٢/جلد ٦) .

ولكن الجزية التي كانت تأتي من (بنت) حتى عهد حور محب كانت لا ترد في تلك الفترة التي نحن بصددها حتى أعادها رعمسيس الثالث بإرساله بعثة إلى هناك (٥٩٣/جلد٦).

ـ رعمسيس الثاني : (١٣٠١ ـ ١٢٣٤ ق.م) .

تزوج نفرتاري وعمره (١٤) سنة ورزق ولدين وماتا صغيرين وتوج وهو في سن العشرين (٢٠٨/جلد ٦) .

على لوحة في معبد أبو سمبل مهداة للآلهة (بتاح تاتنن) كبير الآلهة . ولقد أهدى رعمسيس لهذا الإله تلك اللوحة لأنه ناصره وعززه على أقوام الشمال في آسيا المجاورين لهذا الإله العظيم لأنه ابنه، إذ قد تمثل (الإله بتاح) لأمه في صورة كبش (منديس) ووضع فيها بذرته ، ومثله في ذلك مثل بعض ملوك الأسرة الثامنة عشرة وخاصة (حتشبسوت) و(امنحتب الثالث) اللذين تمثل لأميهما الإله آمون في صورة الملك ، ووضع بذرته فيهما من أجل ذلك أن الإله بتاح قد ناصر رعمسيس الثاني وعني بتربيته وثقافته عناية بالغة ، فوهبه السعادة والصحة في الحياة الدنيا كما نفخ فيه من روحه وجعل قلبه قدسياً مثل قلبه ثم أعطاه القوة ومكن له في الأرض وجعله ملكا على العباد ، وأسعد البلاد التي كان يحكمها (٣١٠/جلد ٦) .

هذا إلى أن بتاح وعد ابنه حياة طويلة وفلاحا عظيما على الأرض وقوة جبارة وسيفا بتارا يهزم به الأعداء (٣١٠/جلد ٦) .

من أجل ذلك دعا رعمسيس رجال بلاطه وعظماء موظفيه من كل صنف فجاءوا إليه وخروا له ساجدين ، وأخذوا في إطرائه وتمجيده حتى رفعوه إلى منزلة أعظم من منزلة الآلهة أنفسهم وبعد أن أحاطوه بسياج من القوة والعظمة بعباراتهم المنمقة التقليدية المتواترة قالوا : وها نحن إذن أمام جلالتك لتمنحنا الحياة التي تتحكم فيها يا أيها الفرعون الحي السليم القوي ويا نسيم أنوفنا ويا حياة كل البشر عندما تشرق في أعينهم ، وهكذا كان حكم الفرعون المنحدر من صلب الآلهة فكان يعد نفسه إلها (٢٢٧/جلد٦).

ومن خطاب رجال البلاط الفرعوني : إنك مثل (رع) في كل ما تفعل وكل ما يرغب قلبك ينفذ وإذا رغبت في أمر أثناء الليل وقع بسرعة في الصباح ولقد كنا نشاهد عددا عظيما من أعاجيبك منذ أن ظهرت ملكا على الأرضين بما لم نسمع به ولم تره أعيننا ومع ذلك وقعت (٢٣٣/جلد ٦) .

وفي الطور الثاني نجد أن رعمسيس الثاني يحارب أهالي فلسطين الذين حرضهم ملك خيتا على الخروج على مصر وقد أطفأ رعمسيس نار الثورة هناك وعادت فلسطين خاضعة للحكم المصري. وتمكن بعد ذلك من هزيمة السوريين ومد سلطانه إلى نهر الفرات (٢٤٤/جلد ٦) .

تزوج بنت ملك خيتا وسماها (ماعت نفرو رع) وكانت الأعلى شأنا بين زوجاته وعلى وجه عام يظهر أن مصر لم تكن قد فقدت سيطرتها على فلسطين إلا عند نهاية حكم (حور محب) (٣٢٤/جلد ٦) .

ملاحظة : جاء في الاحاديث الشريفة ان اسم زوجة فرعون هو: **آسيا بنت مزاحم** .

لقد بنى جلالته لنفسه قلعة اسمها عظيمة الانتصارات . (٣٨٧/جلد ٦) .

أما في فلسطين فقد قامت مصر فيها بنشر ثقافتها ومدنيتها بغيرة وحماس بالغين منذ أقدم العهود وقد أقام الفرعون رعمسيس الثاني على غرار والده سيتي الأول معبدا في (بيت ثان) (٥٩٠/جلد ٦) .

بل خطا خطوة إلى الأمام فعين بعض الأجانب في وظائف الدولة العالية وفي استطاعتنا تمييز هؤلاء الموظفين بما يحملون من أسماء سامية (٥٩٨/جلد ٦) .

كانت عاصمة الملك طيبة ثم نقلها إلى المدينة التي سميت باسمه (بر رعمسيس) .

ثم انحط إنتاجه في سنيه الأخيرة حتى أنه بانطفاء مصباح حياته ذبل معه العصر الذهبي للدولة الحديثة وراح يترنح نحو الهاوية السحيقة (٦٤٢/جلد ٦) .

ومن الطريف أن رعمسيس الثاني كان لا يعد نفسه ابن إله مثل الملوك السابقين وحسب بل كان يعد نفسه إلها (٦٥٤/جلد ٦) .

مرنبتاح ونهاية الأسرة التاسعة عشرة : (١٢٣٢ـ ١٢٢٤ ق.م):

كان ترتيب مرنبتاح في القوائم التي تركها لنا (رعمسيس الثاني) بأسماء أولاده الذكور الثالث عشر وأمه هي الملكة (است نفرت) وقد اختاره والده ولي عهد لعرش بلاده في السنة الخامسة والخمسين من حكمه ، وذلك بعد موت الأمير (خعمواست) الذي ظل وليا لعهد المملكة المصرية مدة طويلة (٨/جلد ٧) .

ولا نزاع في أن هذا النقش يشير إلى السنوات الأخيرة من عهد (رعمسيس الثاني) عندما كان طاعنا في السن وهو العهد الذي تولى فيه ابنه الثالث عشر (مرنبتاح) القيادة العليا لجيش الفرعون بعد موت إخوته الاثنى عشر الذين كانوا أكبر منه سناً، ونحن من جانبنا نعلم أن الفرعون (رعمسيس الثاني) بعد حروبه التي شنها في النصف الأول من حكمه جنح للسلم وأخذ يحكم البلاد في هدوء مستمر أربعين عاما تقريبا (٩/جلد ٧) .

إن الفرعون المسن قد ترك لابنه وخليفته مرنبتاح إرثا مثقلا بالمصاعب والمشاكل داخل البلاد وخارجها والخطر في هذه المرة لم يكن من ناحية آسيا كما اعتاد القوم بل كان من ناحيتي لوبيا وأقوام البحر لان العلاقة التي كانت بين الفرعون وممتلكاته وقتئذ في سوريا كانت على غاية من الود والصفاء كما يبدو ولا أدل على ذلك من أن الفرعون قد أرسل الغلال لحليفته (خيتا) في أثناء القحط الذي اجتاح سوريا (١١/جلد ٧) .

إن مرنبتاح في سني حكمه الأولى قد وجه اهتمامه إلى توطيد النظام في ممتلكاته الآسيوية إذ كانت الأحوال قد اضطربت بعض الشيء على إثر التغيير الذي حدث في عرش الملك وكما يحدث عادة في مثل هذه المناسبات بقيام الأمراء المحليين ببعض الثورات (١١،١٢/جلد ٧).

وورد في كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) للدكتور رمضان عبده ما يلي :

وقد اضطر مرنبتاح في بداية حكمه إلى قيادة حملة في سوريا حيث أعقبت وفاة أبيه ثورة عارمة هناك وقد أحرز نصرا سريعا . (٤٨٧) .

وعلى لوحة إسرائيل التي اغتصبها مرنبتاح من امنحتب الثالث وهو يذكر القبائل التي قام الفرعون بقهرها ومن هذه القبائل بنو إسرائيل وأيضا بعض المدن الآسيوية التي عاقبها مثل ، كنعان، عسقلان، جزر وينعام ثم يضيف: إسرائيل قضي عليها لم يصبح لها ذرية وأصبحت خارو (فلسطين وسوريا) أرملة مصر (ص٤٨٧((**معالم تاريخ مصر القديم**))).

عودة إلى كتاب ((مصر القديمة)) :

وهذه اللوحة شيدت في السنة الخامسة من حكم مرنبتاح بعد انتصاره على ليبيا وهذا يدل على أن الحدثين قد تما فعلا قبل إنشاء اللوحة ، خروج بنى إسرائيل والانتصار وهذا يعنى انه تم مع نهاية عصر والده رعمسيس الثاني (١١١/جلد ٧) .

وجاء في اللوحة وإسرائيل قد خربت وانقطعت بذرتها (١٠٧/جلد ٧) .

إن الحفائر التي قام بها الأستاذ (**فشر**) في بيسان وقد وجد فيها قلعة مصرية وعثر فيها على لوحات من عهد (سيتي الأول ، ورعمسيس الثاني) ، وأهم من ذلك تمثال لرعمسيس الثالث .

ويقول فشر: إن هذه الآثار المؤرخة تقدم لنا برهاناً كافياً على أن البلدة التي بقيت في أيدي مصرية من (١٣١٣ حتى ١١٦٧ق.م) ، وعلى ذلك فان اليهود قد هاجروا في عهد ملك ما وفلسطين في حوزة مصر وعندئذ يكون مثلهم في ذلك كمثل المستجير من الرمضاء بالنار (١١٥/ جلد ٧) .

وأما عن مرنبتاح والأمور الدينية فقد جاء وبين هذا المحراب والمحراب الذي يليه نحتت لوحة صغيرة أخرى نشاهد عليها مرنبتاح يقدم صورة للعدالة للإله (آمون رع).

وكذلك توجد لوحة لهذا الفرعون منحوتة في الصخر يشاهد فيها يتبعه (رومع ردى) الكاهن الأول (لآمون) أمام الإله (آمون رع) (١٦٤/جلد ٧) .

وتتجلى مظاهر الفوضى في البلاد في تلك الفترة فيما نشاهد من انعدام الآثار التي تحدد لنا تتابع الملوك الذين جاءوا بعد مرنبتاح ولا يزال المؤرخون مختلفين في أمرهم في هذا الشأن حتى الآن (٢٠٤/جلد ٧) .

(مرنبتاح - ٨ سنوات ، أمنمس - ما يقارب السنتين ، مرنبتاح سبتاح - ست سنوات، سيتي الثاني - ٦ سنوات ، رعمسيس سبتاح + أرسو عدة سنوات) . أي إنهم جميعا حكموا حوالي ٣٢ سنة (١٢٣٢ - ١٢٠٠ ق م) (٢٠٥ جلد ٧) .

الأسرة العشرون : (**الملك ستنخت**) .

بعد موت هذه الملكة (أرسو) حدث الارتباك والفوضى اللذان تحدثنا عنهما في مصر، وعندما أعاد ستنخت النظام والسلام إلى ربوع البلاد بدأ في نحت قبره ولكنه غض الطرف عنه وفضل اغتصاب مقبرة (توسرت) . (٢٦٠/جلد ٧) .

ولدينا معلومات يكتنفها الغموض والإبهام عن هذه الحوادث الأخيرة التي وقعت قبل تولي رعمسيس الثالث في الأساطير القومية عندما تحدث مانيتون عن الملك (اوزارسيف) على حسب رأي الأستاذ (إدوارد مير) ، إذ نعلم انه عندما قص الحركة الدينية التي قام بها امنحتب الرابع نجد انه قلبها ووضعها في عهد مرنبتاح الذي جعل إسمه هناك (امنوفيس) (٢٦٢/جلد ٧) .

- **رعمسيس الثالث** : (١١٩٨- ١١٦٨ ق.م) .

تولى الحكم بعد والده ستنخت الذي لم يحكم اكثر من عامين وقام ببعض الحروب ووحد البلاد حتى أن كل ما يحيط به قرص الشمس قد أصبح موحدا في قبضة يده ، والأعداء من الآسيويين واللوبيين قد سيقوا وهم الذين خربوا مصر فيما مضى (٢٧٩/جلد٧).

من كتاب ((معالم تاريخ مصر القديم)) :

ـ وسرماعت رع مرى آمون رعمسسو الثالث : (١١٩٨ـ ١١٦٦ ق.م).

تولى من بعد ست نخت ولده رمسيس الثالث وهو يمثل آخر عهد قوي شهدته مصر وأظهر أنه جدير بهذا الاسم مثل سلفه رمسيس الثاني (ص٥٠٣) .

وتعتبر الفترة ما بين آخر حكم رمسيس الثاني ونهاية الأسرة الخامسة والعشرين فترة مجد للحياة الدينية في مصر إذ يعتبر عصر الكهنة في الحقيقة، وكان أقوى كهنة في مصر هم كهنة آمون رع فقد أضيف إلى معبد هذا الإله في الكرنك الكثير وزين بواسطة الملوك السابقين وكانت أوقاف آمون رع شاسعة جدا بحيث لا يمكن حصرها ، وكان كبار كهنة آمون رع على جانب كبير من الثراء، هكذا كان الوضع الديني عندما ارتقى رمسيس الثالث العرش وكان رجلا على جانب من التقوى ، وسوف نرى كيف أصبح الفرعون فيما بعد مجرد أداة في أيدي كبار الكهنة هؤلاء (ص٥٠٥).

وفي أثناء هذا الحكم أرسلت بعثة رسمية إلى بلاد بنت عن طريق البحر الأحمر وقد عادت السفن محملة بأشجار البخور والصمغ وكل المنتجات الأخرى لهذا البلد البعيد (ص٥٠٩) .

ومن ثم فقد عادت السيطرة المصرية كاملة على سوريا (ص٥٠٧) .

ـ حقا ماعت رع / ستب ان آمون ـ رمسيس الرابع : (١١٦٦ ـ ١١٦٠ ق.م) .

لكي يعمل رمسيس الرابع على نشر شعبيته لجأ إلى إصدار عفو عام (ص ٥١٧).

توفي رمسيس الرابع عام ١١٦٠ ق م وكان من أهم رجال عصره (نخت) كبير كهنة آمون الذي أشرف على بعثة وادي الحمامات . (ص٥٢٠) .

خلف رمسيس الرابع سبعة ملوك يحملون جميعا اسم رمسيس حتى رمسيس الحادي عشر (١١٦٠ ـ ١٠٨٥ق.م) ، ولا نعرف عنهم الشيء الكثير سوى أن فترة حكمهم قد تميزت بالاضطرابات الداخلية والمجاعة ، ونرى مظاهر ضعف الملكية في تلك الثورات التي قامت خاصة في مصر الوسطى ، وازداد أيضا نفوذ كهنة آمون في طيبة ، ولنا أن نتخيل مدى سلطانهم عندما نتفهم حقيقة الدور الذي قاموا به فيما بعد (ص٥٢١) .

يعتبر رمسيس الحادي عشر آخر سلالة الرعامسة ويعتبر حكمه الذي استمر ثمانية وعشرين عاما بداية لتدهور السلطة الملكية وزيادة نفوذ كهنة آمون ، وذلك بفضل نشاط كبير الكهنة (حريحور)، وعلى أية حال فقد اعتبر نفسه سيدا لمصر على الرغم من أن (رمسيس الحادي عشر) كان يعتلى العرش من الناحية الرسمية في الواقع (ص٥٢٧).

ولم يبق لرمسيس الحادي عشر الكثير من السلطة وعندما توفي أعلن الكاهن الأكبر لآمون (حريحور) نفسه ملكا في الحال وفي تانيس إبان ذلك الوقت كان الأمير المحلي (سمندس) يمارس سلطته مواليا لذلك منذ بداية حكم رمسيس الحادي عشر.

وهكذا تنتهي الأسرة العشرون ويؤول العرش إلى الكهنة، وتنتهي بذلك سلالة الملوك الذين يحملون اسم رمسيس ، وهكذا أصبحت مصر مقسمة من جديد إلى جزأين ، في الشمال يحكم سمندس وكان قويا للغاية، وفي الجنوب حريحور وزير الجنوب القديم ومن الملاحظ أن أيا منهما لم يبد للآخر أي عداوة (ص٥٣٢ ـ ٥٣٣).

الأسرة الحادية والعشرون : (١٠٨٥ ـ ٩٥٠ ق.م).

ـ بتي حم نتر إن آمون ـ حريحور ساآمون : (١٠٨٥ – ١٠٥٤ ق.م).

يشمل حكم سمندس حكم حريحور في الجنوب أيضا وإذا كان لدى حريحور النية في ضم الشمال تحت سلطانه فانه لا يملك الوقت الكافي لتحقيق أهدافه وعقب وفاته ظلت مصر مقسمة بين سلطة فعلية في مصر العليا على رأسها بعنخي وملك شرعي في الشمال هو سمندس(ص٥٣٥) .

إن سنمدس هو الذي اصبح مؤسسا للأسرة الحادية والعشرين التي سوف تتخذ عاصمتها في تانيس في شرق الدلتا (ص٥٣٦) .

كان سمندس من بلدة (مندس) ، وتزوج تانوت آمون التي كان لها الحق في ارتقاء العرش واستمر سمندس يحكم في مصر السفلى ، ويبدو أنه قبل نهاية حكم حريحور قد استولى على السلطة في كل البلاد أي الدلتا وفي مصر العليا أيضا. (٥٣٧). ولم يحكم مصر كلها إلا أربع سنوات أو خمس فقط (ص٥٣٨) .

ـ عاخبر رع ـ ستن إن آمون (بسوسينس الأول) : (١٠٥٤ – ١٠٣٧ ق.م) .

أسند سمندس سلطانه قبل وفاته إلى ابنه بسوسينس الأول الذي حكم البلاد كلها لمدة سبعة عشر عاما بينما استمر حفيد حر يحور ـ باي نجم يشغل وظيفة كبير كهنة آمون ولم ينجب بسوسينس الأول أولاداً (ص ٥٣٨) .

لذا زوج ابنته (ماعت كارع) التي كانت تملك الحقوق الشرعية في العرش التي نقلتها إلى ابن بعنخي (باي نجم) .

سوف نرى أن باي نجم ورث السلطة في الجنوب خلفا لأبيه والملكية في الشمال عن طريق زوجته ، وعندما توفي بسوسينس الأول عام (١٠٣٧) تولى كبير الكهنة باي نجم مهام العرش (ص ٥٣٩).

ـ باي نجم : (١٠٣٧ ـ ١٠٠٩ ق.م) .

حاول على الرغم من استقراره في الشمال أن يحافظ على سلطته في الجنوب وذلك بفضل تعيين أبنائه بصفة شخصية في وظيفة كبار كهنة آمون ولكن عقب وفاة ابنه الأكبر عين ابنه الثاني على رأس كهنة آمون في طيبة ولكن هذا الأمير الذي كان يسمى (منجد رع) استولى على السلطة لصالحه(ص ٥٣٩).

وقد تمتع (باي نجم الأول) بحكم مستقر لمدة تقرب من الثلاثين عاما .

وعفا هذا الفرعون عن كل المنبوذين الذين نفوا وتشردوا ولاقوا العذاب منذ عدة سنوات في واحات الصحراء (ص٥٤٠ ـ ٥٤١) .

وهكذا وعلى الرغم من مجهودات (باي نجم) فإن مصر ظلت مقسمة إلى جزأين وبعد وفاة باي نجم استمرت الأسرة في حالة من الانفصال . (ص٥٤٢) .

ـ وسرماعت رع ـ آمن ام اوبت : (١٠٠٩ – ١٠٠٠ ق.م) .

ولا نعرف العلاقة بين هذا الفرعون وعائلة بسوسينس ، وقد حكم هذا الملك تسع سنوات لا نعرف عنها شيئا ذا أهمية ومن الواضح انه اهتم ببعض الشيء بطيبة حيث كان (منخبر رع) كبير كهنة آمون لا يزال يتمتع بنفوذ هناك لعدة سنوات تالية وأخيرا أولاها لأبنائه - نسوبانب جدت (سمندس) وباي نجم الثاني اللذان اصبحا بدورهما كبارا للكهنة وقد دفن آمن أم أوبت في مقبرة بسوسينس .

ـ نفر خبر رع ـ ستب ان آمون ـ ساآمون : (١٠٠٠ – ٩٨٤ ق.م) .

تولى من بعد آمن ام اوبت في عام (١٠٠٠ق.م) ابنه سا آمون الذي ترك اسمه في كل المعابد في المدن الكبرى في تانيس ـ منف ـ هيلوبوليس وطيبة ، كما قام بترميمات في مقصورة المعبد الكبير وجدير بالذكر بأن باي نجم الثاني كان كاهنا اكبر في السنوات الأخيرة لحكم آمن ام اوبت والسنوات الأولى لحكم سا آمون ، وقد عثر في تانيس على نقش صور عليه ساآمون بالصورة التقليدية المعروفة للفراعنة وهم يضربون آسيويا (ص٥٤٣).

ومن الجائز أن ذلك كان تخليدا لانتصار ساآمون على جماعة البلستى والاستيلاء على مدينة جيزر وقد جاء ذلك في (سفر الملوك الجزء الأول ـ الإصحاح التاسع) : إن الفرعون منح ابنته كزوجة لسليمان وتعاهد الملك سليمان مع الفرعون عن طريق المصاهرة .

واصطحب ابنة الفرعون في مدينة داود حتى انتهى من بناء منزله (منزل الآبدين) وقد انتهى من بناء المعبد بعد إتمام الزواج الذي من المحتمل أنه حدث عام (٩٨٠ ق.م).

ويقال أن هذه الأميرة أعطيت مدينة جزر كصداق ولكن من الصعب معرفة ما إذا كانت هذه الأحداث قد وقعت أثناء حكم سا آمون أو إبان حكم خليفته بسوسينس الثاني وقد حكم ساآمون حوالي ستة عشر عاما (ص٥٤٣ ـ ٥٤٤) .

ما ذكرنا حول زواج سليمان ﷺ من ابنة الفرعون هو ما جاء في كتاب التاريخ حرفياً أما ما جاء في ((الكتاب المقدس)) من اطلاعنا المباشر فهو كما يلي :

((**وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الثالث].

وجاء في موقع آخر من الكتاب المقدس ما يلي :

((**وأما بنت فرعون فاصعدها سليمان من مدينة داود إلى البيت الذي بناه لها لأنه قال لا تسكن امرأة لي في بيت داود ملك إسرائيل لأن الأماكن التي دخل إليها تابوت الرب إنما هي مقدسة**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح الثامن] .

ـ تيت خبر رع ـ ستب ان رع (بسوسينس الثاني) مرى آمن : (٩٨٤–٩٥٠ ق.م): تولى بعد سا آمون وانتهت الأسرة الحادية والعشرين بوفاة بسوسينس الثاني عام (٩٥٠ ق.م) .

الأسرة الثانية والعشرون : (٩٥٠ ـ ٧٣٠ ق.م) .

ترجع هذه الأسرة إلى أصل ليبي وتمثل إلى حد ما (الدكتاتورية العسكرية) .

إننا نجد أن المرتزقة الليبيين الماشواش قد نجحوا في أن تكون معظم وحدات الجيش قاصرة عليهم وحدهم، وقد كان رؤساؤهم يتمتعون بنفوذ كبير ، نظرا لأن البلاد كانت في حالة انهيار سياسي واقتصادي وعسكري ، وهي منقسمة إلى عدة ممالك. (ص٥٥٠) .

وكنا نعتقد أو نتوقع أن وحدة البلاد السياسية سوف تتحقق في ظل حكمهم كما هو الحال عامة عندما تستولي أقلية عسكرية على السلطة ولكن لم يحدث شئ من هذا القبيل، فقد كانت الأسرة الثانية والعشرون مفككة أيضا وضعيفة مثل الأسرة التي سبقتها(ص٥٥٠) .

وأخيرا إن الانفصال المتوقع من الشمال والجنوب كان يمثل فجوة هامة في البناء السياسي وعدم التوازن والتوافق بين الجنوب والشمال كان له آثار أكثر عمقا فمقر مصر الوسطى في هيراقليوبوليس نجد أن تلك الأسرة التي من أصل ليبي قد استولت على السلطة المحلية وحلت محل ملوك تانيس وأسست الأسرة الثانية والعشرين (ص٥٥١) .

ـ حدج خبر رع ـ ستب إن رع ـ ششنق الأول : (٩٥٠ ـ ٩٢٩ ق.م).

تمثل عائلة ششنق الأول المثل الحي لطريقة التمصر التي تعرض لها الليبيون في مصر فنعلم انهم قد استقروا في مدينة هيراقليوبوليس أي في منطقة الحدود الليبية وفي تانيس وكانت عائلة ششنق الأول من أصل ليبي نقي ، ونراهم أيضا قبل أن يستولوا على السلطة في هيراقليوبوليس قد أصبحوا مصريين بالفعل بعد أن كانوا رؤساء عسكريين فقط وأصبحوا كهنة للإله المحلي (حري شف) وبهذا اللقب أصبح لهم الحق أن يدفنوا في أبيدوس مثل المصريين .

وسوف تزداد سلطة العائلة فيما بعد ومن هيراقليوبوليس سوف يبسطون سلطتهم حتى بوباست في وسط شرق الدلتا ، وقد امتد سلطانهم في الجنوب حتى أسيوط وعقب وفاة بسوسينس الثاني اتخذ ششنق الألقاب الملكية ولكي يعطى الحق الشرعي لأسرته زوج ابنه اوسركون إلى ابنة بسوسينس الثاني .

ويمكن القول أن الدكتاتورية العسكرية الليبية قد أثارت الاضطرابات في البلاد ومن المحتمل أنه في هذه اللحظة بالذات لجأ بعض كهنة آمون للهرب إلى السودان . (٥٥٢) .

وكان لششنق الأول ولد ثالث يدعى ايوبوت الذي عين كبيرا لكهنة آمون محتفظا بالصداقة التي كانت تربط هذه الوظيفة بالتاج متبعا هكذا سياسة الأسرة السابقة وكان كهنة آمون لا يزالون يمثلون القوة الكبرى في البلاد وكان معبد آمون المركز الرئيسي للحياة الدينية.

ومن أهم أحداث حكم (ششنق الأول) غزو سوريا العليا وفلسطين ، وقد جاء ذكر هذه الحملة في ((**الكتاب المقدس**)) ، فنجد في ((**سفر الملوك الأول**)) (الفصل الرابع عشر) (والجزء الثاني من التاريخ): أنه وفي السنة الخامسة من حكم (يربعام) ، جاء ششاق ملك مصر ليهاجم القدس بألف ومائتي عربة حربية وستين ألف فارس ، وخرج من مصر ومعه شعب لا يمكن حصره من الليبيين والسوقيين والإثيوبيين واستولى على المدن المحصنة التي كانت ملكا ليهوذا ووصل حتى القدس واستولى على خزائن بيت الأبدية وخزائن بيت الملك وأخذ كل شئ وأخذ كل الدروع من الذهب التي صنعها سليمان .

وتتطابق السنة الخامسة من حكم يربعام ملك إسرائيل الذي خلف سليمان عليه السلام في العام (٩٢٩ ق.م) ، أي السنة الحادية والعشرين من حكم ششنق . (٥٥٣) .

ملاحظة : انقسمت دولة سليمان بعده الى دويلتين الشمالية اسمها اسرائيل وحاكمها اسمه يربعام و الجنوبية اسمها يهودا و حاكمها ابن سليمان عليه السلام .

عودة إلى كتاب التاريخ**:** وربما كانت المحاولة التي قام بها ششنق هي عبارة عن إحياء للنفوذ والسيطرة المصرية على تلك المناطق (ص٥٥٥) .

وتنقصنا التفاصيل العديدة عن هذه الحملة ، ولكن عندما عاد ششنق منتصرا إلى مصر سجل بالنقوش قصة انتصاره ، وقد مثل فوق رؤوس الأسرى الذين يمثلون أهالي مائة وستة وخمسين مدينة في فلسطين ، والتي تقع على الحدود الجنوبية لأرض يهوذا وشمال الجليل ، ويقوم الملك في هذه المناظر بتقديم الأسرى إلى الإله آمون (ص٥٥٤) .

وقد حاول ششنق الأول اتباع سياسة أسلافه في الحد من نفوذ كهنة آمون ، ولهذا وضع على رأس الكهنة أحد أبنائه ، ولكن كما حدث سابقا نجد أن الأبناء الذين عينوا على رأس كهنة طيبة كانوا يحاولون أن يقيموا في الجنوب أسرات مشابهة للفرع الأكبر القائم في الشمال ، ولتجنب ذلك أدى إلى خلق وظيفة دينية هي الزوجة الإلهية (ص٥٥٥) .

وكانت هذه العابدة أميرة من الأسرة المالكة وكان أن هؤلاء المتعبدات انتزعن سلطة كبار الكهنة دون أن يكن مخلصات للسلطة المركزية وهكذا بقيت مصر مقسمة إلى جزءين . (ص٥٥٦) .

ـ سخم خبر ـ ستب ان رع ـ اوسركون الأول : (٩٢٩ – ٨٩٣ ق.م) .

تولى بعد ششنق الأول وأسرف في الاهتمام بمعابد الآلهة وقد شيد اوسركون أو والده في قرية الحيبة معبدا للإله آمون . (ص٥٥٦) .

وفـي العام العشرين من حكمه أشرك معـه ابنه الأكبر تاكيلوت فــي الحكم (ص٥٥٧) .

ـ وسرماعت رع ـ تاكيلوت الأول : (٨٩٣ – ٨٧٠ ق.م) .

بقي تاكيلوت كحاكم وحيد عندما تسلم وبعد سنين أشرك معه ولده اوسركون الثاني في الحكم وقد عثر على أثر باسم تاكيلوت في ببلوص (ص٥٥٧) .

ـ وسرماعت رع ـ ستب ان آمون ـ اوسركون الثاني : (٨٧٠ - ٨٤٠ ق.م).

عندما تولى كان يناهز الخمسين من عمره - احتفل بالعيد سد في السنة الثانية والعشرين من حكم اوسركون الثاني وقد أعفى الملك في نقوشه هذه البوابة انه أعفى طيبـه كلها مـن الضرائب (ص٥٥٨) .

أشرك معه ابنه في الحكم ششنق الثاني(٨٤٧ ق.م) ، وتوفي هذا الولد بعد أربع سنوات واختار اوسركون الثاني ولدا آخر هو تاكيلوت الثاني .

ـ حدج خبر رع ـ ستب ان رع ـ تاكيلوت الثاني : (٨٤٧ - ٨٢٣ ق.م) .

في العام الحادي عشر من حكمه عين ابنه الذي يسمى اوسركون أيضا كبيرا لكهنة آمون وفي ذلك الوقت وقعت اضطرابات عنيفة في طيبة وانتشر لهيب الثورة إلى مصر الوسطى واستطاع اوسركون أن يقضي على تلك الثورة (ص ٥٥٨) .

توفي تاكيلوت الثاني ولم يختر شريكا له في الحكم ولم يتول العرش ابنه الأكبر اوسركون (ص ٥٥٩) .

ـ وسرماعت رع ـ ستب ان آمون ـ ششنق الثالث : (٨٢٣ - ٧٧٢ ق.م) .

خلف تاكيلوت الثاني حفيده ششنق الثالث الذي كان شابا يبلغ من العمر حوالي ثمانية عشر عاما وفي طيبة احتفظ او سركون بوظيفته ككبير لكهنة آمون لمدة سنوات .

في العام الخامس عشر من الحكم ثارت طيبة ضد الملك ششنق ويبدو انه أثناء هذه الثورة اضطر كبير الكهنة اوسركون للفرار إلى الجنوب البعيد ولكن في النهاية قضى على هذه الثورة وعاد كبير الكهنة وعفا آمون عن كل الثائرين (ص ٥٥٩) .

ـ وسرماعت رع ـ ستب ان رع ـ بامي : (٧٧٢ ـ ٧٦٧ ق.م) .

في العام الثاني والخمسين من الحكم أشرك ششنق الثالث معه في الحكم ولده بامي الذي يعني اسمه القط وفي العام الثاني توفي كلاهما وآل العرش إلى ملك آخر يدعى ششنق (٥٦٠) .

ـ عاخبر رع ـ ستب ان رع ـ ششنق الخامس : (٧٦٧ – ٧٣٠ ق.م) .

يرى فاندين وضع ششنق الرابع في الأسرة الثالثة والعشرين . (ص٥٦٠) .

وقد جاء ذكر ملوك هذه الأسرة على لوحة لأحد كهنة هيراقليوبوليس ، وهي مؤرخة بالعام السابع والثلاثين من حكم ششنق الخامس، ويذكر على اللوحة أن أصل سلالة أسرته يرجع إلى ستة عشر جيلا وهي من سلالة كان رئيسها ليبياً يسمى (بوبو واوا) ، ويذكر أيضاً أن سلالته عاصرت ششنق الأول حتى اوسركون الثاني (ص٥٦٠) .

الأسرة الثالثة والعشرون : (٨١٧ - ٧٣٠ ق.م) .

زادت مقومات الفوضى إبان حكم أواخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين وبدأ الانقسام يسود مصر أكثر فاكثر خاصة في الدلتا وهكذا قامت الأسرة الثالثة والعشرون وقبل أن تنتهي الثانية والعشرون (ص٥٦١) .

وهكذا نتج عن تقسيم البلاد إلى جزئين جنوبا وشمالا إلى خلق فرع آخر في شرق الدلتا (ص٥٦٢).

وفي حوالي عام (٧٣٠ ق.م) أصبح الموقف العام غامضاً للغاية .

فمن ناحية كانت السلطة في الدلتا مقسمة بين فراعنة الأسرة الثانية والعشرين ومؤسسي الأسرة الثالثة والعشرين ، ومن ناحية أخرى كانت هناك الأسرات التي اغتصبت السلطات المحلية في الأقاليم ونجد أن في مصر العليا أن كبير الكهنة وخاصة العابدة الإلهية لآمون كانت تتمتع بنفوذ في منطقة طيبة وكانت مستقلة تماما عن الحكومة المركزية .

أما في بلاد كوش فنجد أن عناصر كهنة آمون الذين هاجروا في بداية الأسرة الثانية والعشرين أخذوا يتجمعون في مملكة مستقلة واتخذوا (نباتا) عاصمة لهم (ص٥٦٢) .

النقاش: لقد استعرضنا فيما سبق مقتطفات ملخصة عن تاريخ مصر وفلسطين من كتاب ((**تاريخ مصر القديمة**)) ، وغيره منذ عهد الأسرة الأولى حتى الأسرة الثالثة والعشرين .

وتبين لنا أن الأسرات الست الأولى كانت تحكم مصر كلها وكان لها سيطرة على سيناء وكان بعض فراعنتها يمثلون على لوحات وهم يضربون الآسيويين وقاموا بحملات لتأديب الثورات في فلسطين وحملات لمنع هجرة المهاجرين من بلاد النهرين إلى مصر وملاقاتهم على الحدود الشرقية لفلسطين وهذا يعنى منعهم من دخول فلسطين.

كما يذكر انه في عهد أحد ملوك الأسرة الرابعة، قامت حملة بحرية عظيمة إلى الموانئ السورية رجع منها المصريون بنحو أربعين سفينة محملة بالأخشاب (٢٨٤/جلد ١)

ومن مطالعة تاريخ الأسرات الست الأولى تبين لنا أن لها جميعا سلطة بينة على سيناء ولنتذكر أن اسم فلسطين لم يكن في السابق وهو اسم حديث.

وأما اسم سيناء المذكور سابقا والمذكور في كتاب الله ؛ فانه يتضمن فلسطين كجزء من سيناء ، حيث أن التسمية سيناء هي التسمية الدينية لما يسمى الآن (فلسطين + سيناء) وسيتم تفصيل ذلك بشكل مستقل، ثم جاء الزمان الغامض من بداية الأسرة السابعة حتى الأسرة الحادية عشرة والذين حكموا الجزء الجنوبي من مصر وكانت قوات غازية من الشام تحتل الدلتا كما تأكد لنا من الجعارين وبعض الآثار، وقد أقر بذلك علماء الآثار ، وكما ورد في الصفحات (٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٧/ جلد ١) كما أسلفنا .

وهذا يعني أن الدلتا كانت دولة واحدة مع فلسطين بغض النظر عمن يحكم البلاد ، ثم جاءت الأسرة الثانية عشر وهي تمثل العصر الذهبي لمصر واستطاعت توحيد البلاد كلها والسيطرة على فلسطين وأجزاء من الشام أيضا وبذلك فإن فلسطين مازالت في وحدة واحدة مع مصر .

ثم يستمر الوضع حتى رابع ملوك الأسرة الثالثة عشرة حيث تتعرض البلاد إلى الاضطراب ويؤدي إلى سيطرة الهكسوس على الدلتا وينفصل حكم الجنوب حيث يحكمه باقي الأسرة الثالثة عشرة ويحكم الهكسوس في الدلتا ويمتد حكمهم إلى فلسطين والشام وبذلك بقيت الدلتا مع فلسطين تحت حكم واحد .

شكل الهكسوس الأسر الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة في جنوب وغرب الدلتا.

وأخيراً يثور الشعب المصري على الهكسوس ويحاربهم مع آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة ويدعى الملك كامس ويكمل المهمة الملك أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ويتمكن خلال أربع سنوات أو خمس من حكمه من طرد الهكسوس كليا ومن توحيد البلاد والسيطرة على فلسطين والشام كما تشهد بذلك المقتطفات التي استشهدنا بها .

يستمر الوضع بهذه الصورة وتكون فلسطين جزءاً من الدولة المصرية أيضا في فترة حكم الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة حيث امتدت سيطرة رمسيس الثاني حتى نهر الفرات واستمر الأمر من بعده لابنه مرنبتاح ثم من بعده للأسرة العشرين حيث يثبت التاريخ أن حكم رمسيس الثالث شمل فلسطين (٢٧٩/جلد ٧) .

وتؤكد ذلك الآثار التي وجدت في بيسان وهذا يدل على أن فلسطين بقيت تحت حكم واحد مع الدلتا .

لو أردنا أن نضع خلاصة التاريخ السابق للأسرة العشرين لوجدنا أن فلسطين مع الدلتا كانتا ضمن دولة واحدة لم تنفصلا أبدا خلال تلك الفترة في حين أن جنوب مصر قد انفصل عن الدلتا لفترات زمنية ليست بالقصيرة ومع ذلك فان الكاتب يحرم استخدام كلمة وحدة ويفضل استخدام كلمات، غزاة ، تأديب، ثورات، حملات، وكلها من الكلمات العدوانية وأعذر الكاتب إذا ذكرها إرضاءً لسلطة عليا، فهذه متطلبات ديمقراطية النظام العالمي الجديد .

هل يعقل أن تكون فلسطين محتلة من قبل القوات المصرية لعشرة قرون أو اكثر هي عهد الأسرات الست الأولى ثم تستطيع الاستقلال ثم تستطيع في اليوم التالي أن تحتل من كان يحتلها، إن هذه الخرافة لا يمكن أن تحدث، أما لو قلنا انه شعب واحد وانتقل الحكم من هذه العاصمة إلى تلك العاصمة وتقبله الشعب الواحد فهذا يمكن تصديقه وهو أمر ليس له احتمال آخر .

أما ما تمت تسميته بحملات تأديبية قام الملوك بها إلى سيناء وإلى فلسطين وكذلك اللوحات التي مثلوا فيها وهم يضربون الآسيويين فليست بالضرورة أن تكون حملات بكل معنى الكلمة لأنه ليس هناك أي شعب في أي بلد محكوم ضعيف ينتج ثورات وثواراً بهذه الكثافة المذكورة مع كل ملك ولا يمكن أن يتحمل مثل هذه الخسائر التأديبية في القوى البشرية مع كثرة هذه الحملات التأديبية .

في ذلك الوقت كانت بهيمة الأنعام هي وسيلة التنقل الوحيدة في البر ولم توجد الدبابات ولا الطائرات ولا وسائل الاتصال الحديثة التي تمكن الملك من السيطرة على مملكته عن بعد، لذلك كان الملك إذا تحرك في زيارة لأي محافظة يصطحب معه قوة كبيرة موالية له تستطيع أن تضمن النصر على أي قوة معادية محتملة قد تصادفها أثناء الزيارة ، وكان من برنامج هذه الزيارة أن يقوم الملك بتأديب المعارضين الذين كان يحتجزهم أمراء المناطق في السجون، وهذا ما تم تمثيله على لوحات تخليداً لذكرى الزيارة وتأديباً للمتمردين ورمزاً لطاعة الرعية للملك .

لو نظرنا إلى التاريخ القديم لما وجدنا فيه الحكم ذا الكيان القوى الذي مركزه خارج مصر وامتد حكمه إليها، ولكننا بالنظر إلى كتاب الله تعالى نجد أن (الآشوريين) كانوا لفترة من الزمن أقوى قوة على هذه الأرض وكان مركزهم العراق وأنهم وفلسطين كانوا دولة واحدة فهل يصدق أن حكم هذه الدولة امتد إلى الدلتا المصرية؟ أعتقد أن هذا من المعقول، وسنبينه لاحقاً .

ولننظر إلى قول الله تعالى لهم في كتابه العزيز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وهذه الآية تدل على أن سلطانهم كان واسعا وكبيرا ، وهذا يتفق مع ما جاء في كتاب التاريخ الصفحات (٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٧/جلد ١) ، ومنها أن البدو رغم الهزيمة المنكرة التي لحقت بهم في عهد بيبي الأول لم يفقدوا الأمل في غزو البلاد المصرية التي كانت في تلك الفترة تزخر بالثراء .. وأهم كتاب وصل إلينا من هذا العصر هو ((تحذيرات نبي)) ، وهو من الكتب النادرة في حسن تركيبها وتأثيرها في النفس .

وما النبي إلا نبي الله إبراهيم ﷺ ، وأن هذا الغزو هو غزو الآشوريين الذين تبعهم دخول المنطقة في طاعة الله ورسوله إبراهيم عليه السلام وكان ذلك نهاية لعهدهم وعهد حاكمهم النمرود الذي ذكر الحديث الشريف أيضاً أنه ممن ملكوا الأرض .

ويؤكد ذلك كتاب ((**تاريخ مصر القديمة**)) نفسه (٤٠٧/جلد ١) ، ويذكر أن مصر قد غزيت في نهاية الأسرة السادسة بل يقال إن قوماً من الشمال الشرقي من سوريا قد فتحوا مصر.

وإذا نظرنا إلى أبعد من ذلك في التاريخ القديم نجد خبراً عن أمر وقع في عهد (حتب سخموي) أول ملوك الأسرة الثانية وهو: (وفى عهده حدث انفجار ارضي في جهة تل بسطة مات بسببه خلق كثير ومن المحتمل انه زلزال وقع هناك لقرب المكان من منطقة أبى زعبل البركانية) (٢٧٥/جلد١) .

يتحدث الكتاب عن انفجار وعن احتمال زلزال ولم يؤكد ما حصل والشيء الوحيد المؤكد انه مات خلق كثير ، فهل يمكن أن نقول أن هذا هو نهاية قوم ثمود ، حيث قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٢٩-٣١].

أنا لا أؤكد هذا بل أقول انه احتمال على أساس أن مركز قيادة ثمود كان مدينة البتراء في الأردن وأنهم كانوا أكبر قوة في الأرض في زمانهم كما ذكر الله تعالى ، ولذلك فإن هناك احتمالاً كبيراً أن يكون حكمهم قد امتد إلى مصر لأنهم قريبون منها بل ملاصقون لحدودها الشرقية.

<u>ملاحظة</u> : في كتاب التاريخ ((**مصر القديمة**)) ذكر فرعون موسى باسم رعمسيس الثاني . وفي كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) ذكر فرعون موسى باسم رمسيس الثاني . في مشروحاتي الشخصية استخدمت اسم رمسيس الثاني لسهولة اللفظ .

عودة إلى تاريخ مصر القديمة لنبحث فيه عن مكان لأنبياء الله علنا نستطيع ترتيب الأحداث بإقرار ما أقره كتاب الله وحذف ما عارضه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل وهو الصدق المطلق . هناك جملة واحدة فقط ذكرها التاريخ عن بني إسرائيل ، وهي في اللوحة التي أقامها الملك (مرنبتاح) ابن رمسيس الثاني الذي حكم من سنة (١٢٣٢ـ١٢٢٤ ق.م) .

هذه اللوحة تحدثت عن انتصاراته في توطيد النظام في ممتلكاته الآسيوية إذ كانت الأحوال قد اضطربت بعض الشيء على أثر التغيير الذي حدث في عرش الملك (١١و١٢/جلد ٧).

وكذلك ما ذكر عن هذه اللوحة في كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) للدكتور رمضان عبده (ص٤٨٧).

إن الجملة الوحيدة التي ذكرت هي : (إسرائيل قضى عليها ولم يصبح لها ذرية)، وهذا يؤيده ما جاء في كتاب الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٤١]. ولو لم يخرج بنو إسرائيل من مصر واستمر فرعون في ذبح أبناء بني إسرائيل لقضى عليهم وانقرضوا خلال جيل واحد فقط .

يذكر الكتاب عن احتمالات خروج بني إسرائيل في زمن (مرنبتاح) أو في زمن والده رمسيس الثاني ويرجح أن الخروج كان في زمن مرنبتاح ، ولنعد إلى كتاب الله تعالى ولمقارنة ما فيه مع ما ورد في التاريخ لنبحث في العلاقة بين فرعون وموسى ﷺ .

قال تعالى في سورة القصص : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص:٧-٨].

وهذه الآيات تثبت أن موسى ﷺ كان رضيعا عندما التقطه آل فرعون أي أن عمره عدة أيام أو عدة أشهر كحد أقصى وتمت تربيته في قصر الفرعون بعد أن أرضعته أمه ، وبعد أن بلغ مرحلة الشباب والبلوغ وقال الله تعالى في ذلك في سورة القصص : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص:١٤].

وتذكر الآيات (١٥- ٢٦) من سورة القصص قصة اقتتال موسى ﷺ مع رجل من عدوه وكيف قتله وخرج إلى جهة مدين إلى قول الله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص:٢٧-٢٨].

ثم يختار الله تعالى موسى ﷺ لرسالته ويعود وأخوه إلى فرعون لدعوته إلى الحق ويبدأ الجدل فيما بينهم ، قال الله تعالى مبينا ذلك في سورة الشعراء: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ ﴾ [الشعراء:١٦-١٧].

لو افترضنا أن فرعون رباه حتى سن البلوغ وهو سن الثامنة عشرة فقط ثم مكث في مدين عشر سنوات وأن الذهاب والإياب لا يأخذان وقتا فهذا يعنى أن هذا الفرعون مضى عليه في الحكم (٢٨) سنة فاكثر.

ولو نظرنا في تاريخ حكم رمسيس الثاني لوجدناه يبدأ سنة (١٣٠١ق.م) ، وينتهي (١٢٣٤ق.م) أي اأنه حكم زمناً مقداره (٦٧) سنة وأما ابنه (مرنبتاح) فانه حكم ثماني سنوات فقط وهذا يقطع الشك باليقين أن رمسيس الثاني هو فرعون موسى ﷺ .

وهناك دليل آخر في التاريخ له ما يؤيده في كتاب الله وهو أن رمسيس الثاني كما ورد في (ص٦٥٤/جلد ٦) حيث جاء:

(ومن الطريف أن رمسيس الثاني كان لا يعد نفسه ابن إله مثل الملوك السابقين وحسب بل كان يعد نفسه إلها).

وهو الوحيد في سلسلة الملوك الذي اعتبر نفسه إلها ، وهذا ما يؤكده قول الله تعالى في كتابه العزيز عن فرعون في سورة النازعات (فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى) وقال الله تعالى عنه في سورة القصص : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨].

ولقد جاء في التاريخ أن رمسيس بنى قلعة عظيمة سماها عظيمة الانتصارات فلعلها هي الصرح المذكور في الآيات الكريمة .

وأما ما جاء على لوحة الانتصارات التي نقشها الملك مرنبتاح ابن رمسيس الثاني فهي تصدق هذا القول ، إذ انه عندما رأى الملك الجديد والده وجنوده قد غرقوا وماتوا جميعا بسبب موسى عليه السلام .

(هذا من وجهة نظر نفس ليس لديها إيمان بالله)، بدأ يعد العدة للانتقام لهم، لذلك جمع ما بقى من جند وهجم في اتجاه فلسطين التي هي مقاطعة مصرية وتحت الحكم المصري في ذلك الوقت وقتل من قتل وحقق انتصارا سريعاً على سكان فلسطين.

أما بنو إسرائيل فكانوا ما يزالون في التيه إذ حرمها الله عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض عقوبة ربانية لهم على تقاعسهم عن القتال ، فانتقم مرنبتاح لوالده من وجهة نظره ، وعاد ليصد اللوبيين الذين وصلوا إلى حافة الدلتا وانتصر عليهم وشيد لوحته المشهورة المسماة لوحة بني إسرائيل في السنة الخامسة من حكمه .

كما ورد ذكر مهاجمة فلسطين وتأديبها في كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) (ص٤٨٧) ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ومن خلال معرفة حالة البلاد وسيرته فإن رمسيس الثاني كان أقوى قوة في الأرض فكان يسيطر على فلسطين والشام ووصل حكمه نهر الفرات شرقا وفي الغرب امتد إلى لوبيا كما امتد جنوباً وكانت دولته دولة غنى وقوة وقد شهد الله بذلك بقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤].

وأما في زمن ابنه مرنبتاح فإن الثورات كانت في كل مكان والفوضى عمت البلاد في كل اتجاه لذا فإنه إذا كان لا بد لأحدهما أن يدعي الألوهية فإنه سيكون سيد القوة والرخاء الذي سيدب الغرور في نفسه وسيدخلها الكبر ووسوسات الشيطان لتدعي الألوهية لأنها ستجد من الضعفاء من يجد السبيل إلى تصديق ذلك .

ولو نظرنا إلى الوضع الديني أثناء فترة حكم رمسيس الثاني ووالده سيتي الأول لوجدنا أن والد رمسيس الملك سيتي الأول (١٣٢١ ـ ١٣٠٢ق.م) قد مهد لما كان عليه ابنه رمسيس من كفر إذ أقام سيتي الأول معبده الفاخر المسمى (بيت ملايين السنين من ماعت رع) ، وهو الذي يشمل محاريب لأهم آلهة البلاد، وبذلك ساوى بين الديانات جميعا ، وهذا ما يسمى اليوم بالعلمانية (ص٨/جلد٦) .

كذلك فانه أوقف الرحلات إلى بلاد بنت إذ ورد انه (ومن الغريب المدهش حقا انه لم يأت ذكر بلاد (بنت) ، فيما لدينا من الآثار حتى الآن في عهد (سيتي الأول) أو (رمسيس الثاني) حتى في النقوش الفخرية التي كان يدونها الفرعون لمجرد حب العظمة) (٥٩٢/جلد٦) .

هذا ما فعله الأب فما كان من الابن إلا أن يزيد على ذلك ويدعي أن الإله تمثل لأمه في صورة كبش ووضع فيها بذرته فولدته وهو ابن إله وكبر وأصبح إلها كما ورد سابقا (٣١٠جلد ٦) .

ولكن ما أن نصل إلى نهاية حكم مرنبتاح ابن رمسيس الثاني ، حتى نجد انه أخذ اتجاهاً دينياً هو عبادة الإله آمون وقد صور ذلك على لوحات كما ورد في (١٦٤/جلد ٧) .

وإذا كان هذا يعتبر توبة عما بدر من أخطاء سابقة خاصة وأن التاريخ يظهر لنا أن عبادة الإله آمون أخذت تنتشر وتشتد إلى أن أصبحت الديانة الرسمية للدولة خاصة في زمن رمسيس الثالث الذي امتد حكمه ليشمل بلاد الشام ، فان هذا يدل على أن الشعب آمن بما رأى من معجزات نبي الله موسى عليه السلام التي رآها بعينه وأن ديانة التوحيد بدأت تنتشر وتشتد في مصر وفلسطين والشام وان لفظ كلمة آمون هي ترجمة لكلمة الرحمن والتي هي من أسماء الله الحسنى وهذه هي ديانة التوحيد التي دعا إليها نبي الله موسى عليه السلام ويدعو إليها كل أنبياء الله .

والى الذين يسألون عن إثبات أن كلمة آمون هي ترجمة لكلمة الرحمن أقول لهم : لا إثبات لدي على ذلك ، ولا إثبات لديكم على عكس ذلك.

وهنا دوري لأسألكم إلى ماذا يمكن أن يدعو رسول الله موسى عليه السلام ؟ والى عبادة من يمكن أن يدعو نبي الله موسى أو غيره من أنبياء الله عليهم السلام ؟

ماذا لو ترجمنا بعض الكلمات إلى المفردات المستعملة حاليا للغرض نفسه فكلمة كاهن نستبدلها بالإمام وكلمة كبير الكهنة أو الكاهن الأعظم نستبدلها بوزير الأوقاف .

سنجد أن الدين انتشر وصار قويا لدرجة أن الملك صار ألعوبة بيد الأئمة وهذا إن دل فإنه يدل على فترة من الصلاح والعودة الروحية لرب العباد لدرجة أن قرار الأمير لا يصدر قبل أن يمحصه رجال الدين حلالا أو غير حلال وبذلك تكون الأمة على أفضل ما تكون .

وكذلك نلاحظ أنه في الأسرة الحادية والعشرين صار الملك يسره أن يعين ابنه وزيرا للأوقاف لضمان ولاء الأئمة له وان بعض الملوك كان وزيرا للأوقاف قبل اعتلائه العرش وهو الملك (باي نجم) الذي تولى السلطة من (١٠٣٧ ـ ١٠٠٩ق.م) ، وكذلك قام بتعيين أبنائه بصفة شخصية في وظيفة كبار كهنة آمون (وزارة الأوقاف) حيث عقب وفاة ابنه الأكبر عين ابنه الثاني كما ورد في صفحة (٥٣٩).

انه مع أواسط حكم هذه الأسرة دخل داود عليه السلام فلسطين وارتفع نجم بني إسرائيل كما وعدهم الله وزوج أحد ملوك هذه الأسرة ابنته لسليمان مقابل صداق كما يقول الكتاب ، وان كافة ملوك هذه الأسرة كانوا يبدون اهتماما بطيبة مركز ديانة آمون وأنا أتصور أن فيها وزارة الأوقاف وأكبر المساجد في البلاد . أعود الآن إلى باقي الآلهة كالإله حتحور والإله آتون وغيرها، هل يمكن أن تكون مسميات لأسماء الله الحسنى بتلك اللغة ، الله اعلم.

وأما ما تقوله كتب التاريخ بسبب وجود هذه الأسماء مع رسومات فهذا لا يدل على أن هذه الرسومات هي آلهة ، فإننا نرى الآن أن النخلة هي شعار دولة عربية وهي مدلول الغذاء الشعبي والقومي ، ونرى أيضا أن شجرة الأرز هي شعار دولة عربية أخرى وهي مدلول لجمال الطبيعة التي يوجد فيها ، وهذه الشعارات لا تدل إطلاقا على أنها آلهة أو أنها معبودات.

وكذلك فإننا نرى الآن أن العالم الإسلامي يستخدم الهلال كشعار للإسلام وليدل عليه وأننا نستخدمه للتقويم الديني ولا يدل استخدامنا لشعار الهلال على أننا نعبد هذا القمر، إذاً فشعار الشمس لا يدل على أنها كانت تعبد و ربما تكون شعارات لديانات توحيد طرأ عليها بعض التحريف مع الزمن كما نرى الآن فيما طرأ على بعض الديانات السماوية وهي في أصلها ديانات توحيد وليست عبادة أوثان .

ألا ترون أن الله تعالى قد أرسل موسى وهارون ويوسف وإبراهيم وصالحاً ومن قبلهم هوداً عليهم السلام، هذا الحشد الديني الرباني إلى شعب مصر فهل أرسلهم ليتركه على الوثنية أم ليبعده عنها ويضعه في النور وعلى ديانة التوحيد ؟ الصراط المستقيم.

ليس لدينا إثبات أن ثمود حكمت مصر إلا ما تقوله كتب التاريخ ولدينا إثبات أن الله مكن لهم في الأرض فكانوا أكبر قوة في الأرض في زمانهم فمن صدق أن ثمود حكمت مصر فسيصدق أن نبي الله صالح عليه السلام كان هو النبي المرسل للمنطقة كلها .

أمر آخر لا جدال فيه ولا إثبات للملحدين لضده إطلاقا هو أن الله تعالى قد أرسل يوسف عليه السلام إلى مصر خاصة حيث دخلها غلاما وعاش فيها ومات فيها، فالذي يقول انه لم ينشر ديانة التوحيد أقول له: ماذا تقول في قول الله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١] .

ماذا يقول المتقولون في كتاب الله الذي أورد قصة يوسف عليه السلام واستقراره في مصر مع أهله ووالديه وإخوانه حيث كان وجودهم بداية حياة بني إسرائيل في مصر .

فوالدهم يعقوب عليه السلام هو المسمى إسرائيل وهم أبناء إسرائيل وقد بدأت هجرة سكان فلسطين بكثافة إلى مصر بحثا عن العمل حيث كانت ارض الخير والإنتاج والحضارات وكانت بحاجة إلى الأيدي العاملة تردها من كل مكان فالأولى أن تردها من الأرض المباركة خاصة وأنها تابعة لمصر في ذلك الوقت ، وتبع ذلك هجرة كبيرة للكنعانيين طلباً للعمل في مصر .

أقول للمتقولين ماذا تقولون في نبي الله إبراهيم جد يوسف عليهما السلام الذي بعث للمنطقة كلها ومن ضمنها مصر، وكما ورد في كتاب الله تعالى فإن إبراهيم لاقى المشاق في قومه جنوبي العراق وأما في بلاد الشام ومصر والحجاز فوجد كل تعاون ولم يجد أي عنت وهذا يدل على أن القوم أطاعوه ومنهم المصريون وزوجته الثانية أم نبي الله إسماعيل عليه السلام هي من مصر ـ فمن كانت هذه علاقته بمصر ـ ألا يتوقع أن يترك أثرا للتوحيد؟ ألم ينجح في دعوته لعبادة الله ؟ .

وشهد الله تعالى بنجاحه في أكثر من موضع من كتابه الكريم كما أسلفنا إذ قال الله في أحد المواقع : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم:٣٧] ، أي عمل كل ما طلب منه وماذا طلب الله منه غير نشر ديانة التوحيد والدعوة إلى الله .

أيشهد الله بذلك ونشهد نحن البشر بضده؟

أقول للمتقولين أن كل نبي من أنبياء الله قد ترك مصر على طريق التوحيد وربما اعترى هذا الطريق بعض العوج أحيانا فكان الله يتبعه بنبي آخر لإبقاء هذه الأمة على طريق التوحيد.

ماذا لو ألقينا نظرة على بلاد (بنت) التي كانت الرحلات المصرية تذهب إليها في السفن عبر البحر الأحمر، فماذا لو أخطأ المترجم في حرف الياء واستبدله بالنون لتصبح بلاد (بيت) أو بيت الله الحرام والذهاب إليها للحج والذي يجلب منها حتى أيامنا هذه العطور والبخور ، أليست طريقها بالسفن من البحر الأحمر .

يذكر الكتاب مرة واحدة فقط أنها بلاد بعيدة ويحتمل أن تكون الصومال أو اليمن، وهذا من باب الاحتمالات الذي اغلق أمام أن تكون بلاد الحجاز وفي نفس الوقت ورغم أن الكتاب وفي أكثر من موضع يشهد ويؤكد أنها بلاد الحجاز وبلاد بيت الله وذلك من تكرار قوله في أكثر من موضع أنها بلاد الألهة، وكذلك يشهد الكتاب انه فقط في زمن العلمانية والكفر فقط وهما زمني سيتي الأول ورمسيس الثاني اختفت

الرحلات إلى بلاد بنت حتى أن الكاتب يستغرب من هذه الظاهرة فيقول : (ومن الغريب المدهش حقا انه لم يأت ذكر بلاد بنت فيما لدينا من الآثار حتى الآن في عهد سيتي الأول أو رمسيس الثاني حتى في النقوش الفخرية التي كان يدونها الفرعون لمجرد حب العظمة) . (٥٩٢/جلد ٦).

وفي أكثر من موضع يشهد الكتاب أنها حقاً بلاد بيت الله الحرام ، حيث يذكر أنها التي كانت تعد في نظر المصريين بلاد الآلهة يضاف إلى ذلك أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن لهم علاقة قديمة بهذه البلاد وأنهم من نفس الجنس الذي تألف منه شعب بنت وكانت البلاد نفسها تسمى في الأدب المصري (الأرض المقدسة) أو (أرض الله) (٣٢٦/جلد ٤) .

ماذا تقولون بالله عليكم في هذه الشهادة يا من تؤمنون بالله ؟ .

أليست هذه هي بلاد بيت ـ أليست بلاد الحجاز ؟

ألا يدل هذا وتكرار الرحلات إلى هذه البلاد أنها بلاد البيت ـ بيت الله الحرام ؟ وإذا كان المصريون القدماء يعتقدون أن هذه البلاد مقدسة، ألا يعني هذا أنهم كانوا يعرفون الحق وأن نقوشهم نقشت صواباً وأن الذي يترجمها هو الذي أخطأ في هذه الترجمة .

عودة إلى كتاب ((مصر القديمة)):

وأرجو أن لا يفهم أنني أسعى إلى انتقاد الكاتب ، وإنما نلوم الأئمة كيف لا يبحثون في التاريخ عن مكان أنبياء الله، ألم يخطر ببالكم ذلك وانتم تعرفون مكانة أنبياء الله ومدى حب الله لهم ونصرته لهم ولدينه، ألم يخطر ببالكم مرة أن تبحثوا في التاريخ عن المتسع الذي خصص لأنبياء الله أو لأثرهم على الشعوب التي بعثوا فيها ولها .

أريد أن اعرض الآن ما خصصه التاريخ لأنبياء الله تعالى فقد ورد ما يلي (١٨٠/جلد٣): (تاريخ سيدنا إبراهيم وما يقال عنه وينسب بعض المؤرخين خروج إبراهيم ﷺ وطرده من مصر إلى هذا العهد وان الإشارة إلى الآسيويين في نبوءات (نفر روهو) يقصد بها هذا الحادث بعينه .

وإذا كان من الأمور الثابتة أن إبراهيم ﷺ كان معاصرا لأحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة فالقول بأنه معاصرٌ بالذات للفرعون (امنمحات) الأول وان طرده حادثة مؤكدة وقعت في عهد هذا الفرعون ؛ قول لا نجد برهانا على صحته) (١٨٠/جلد ٣).

من هذا يتضح أن الكتاب يؤكد طرد سيدنا إبراهيم ﷺ من مصر ولكنه لا يؤكد في زمن من وقع هذا الطرد ، وهذا ما حدثنا الله عن ضده وعن نجاح سيدنا إبراهيم في الشام ومصر والحجاز.

وننتقل إلى ما ذكره الكتاب عن باقي أنبياء الله حيث جاء : (أما بالنسبة لعهد يوسف فانه كان من الطبيعي أن نرى أعمال بني إسرائيل غير مذكورة في الوثائق المصرية في عهده ، إذ أن يوسف على الرغم من انه كان ذا مكانة في حكومة الفرعون غير انه لم يتعد أن كان وزير مالية وحسب ـ كما يقال ـ وأن كل عمل عظيم يقوم به ويستحق التسجيل كان لابد من نسبته إلى الفرعون الذي كانت النقوش تهدف إلى تعظيمه والإشادة بذكره ، لأن كل شئ كان من وحيه هو وعلى ذلك فان اسم يوسف لم يكن ليظهر بطبيعة الحال).

وأما عن موسى فقد جاء:(وكان موسى من الوجهة المصرية أقل شأنا من يوسف فقد كان كما تقول التوراة لقيطا في قصر الفرعون ثم هاربا من وجه العدالة ثم متكلما عن عبيد غرباء) (١٠٧،١٠٨/جلد ٧) .

وأما عن بني إسرائيل فقد جاء: (غير أنه وجدت حادثة واحدة تتصل بإقامتهم في مصر كان لها من الوجهة المصرية أهمية سياسية واقتصادية، إذا كان هذا قد حدث فعلا كان يهم الحكومة وقتئذ لما كانوا

يقومون به من أعمال السخرة للفرعون في إقامة مبانيه وعلى ذلك فان الإشارة إليه في السجلات الحكومية الخاصة بهذا العصر ممكنة .

إنه إذا كان هناك ذكر للإسرائيليين في تلك النقوش المعاصرة لإقامتهم في مصر فان ذلك لابد يشير إلى خروجهم وفضلا عن ذلك فانه ينتظر من المتن أن يسجل لنا انقطاع علاقة هؤلاء القوم بمصر) (١٠٨/جلد ٧) .

يا رجال الدين ، هذا كل ما ذكر التاريخ وهذا كل ما ورد في التاريخ من مكانة وأثر لأنبياء الله تعالى ، أين انتم من ذلك ؟

ولنحاول الآن الدخول إلى فجر التاريخ لنرى إذا كانت هناك إشارة من نوع ما تدلنا على أثر لنبي الله يوسف ﷺ فقد قضى حياته كلها نبيا في مصر والله غالب على أمره وينصر دينه ورسله ولنعد إلى الوراء مخترقين حاجز الزمن لنرى هل هناك من تنطبق عليه مواصفات نبوة وآثار نبوة.

هناك ملك تسلم الملك وكان وزيرا ولم يكن من سلالة العائلة المالكة وتعاظم نفوذه في البلاط الملكي، حتى أدى نفوذه إلى اعتلائه العرش بعد الملك .

أقول هذا في حين أن كتاب التاريخ يستمتع أن يزج بلقب فرعون لكل ملك من الملوك في حين أن الله تعالى ميز عهد يوسف بأن سمى صاحب الأمر في مصر ملكاً وأما في عهد نبي الله موسى ﷺ فقد ناداه بفرعون، وبذلك يميز الفرعون بأنه الظالم الفاجر ومن لم يحمل صفات السوء هذه لا يسمى فرعوناً، أقول هذا مع أن بعض الناس يستمتع بترديد هذه الكلمة دون ما معرفة لمعناها ويتغنى بها كأنها مفخرة .

هذا الملك الذي كان وزيرا ثم تسلم الملك دون مبرر وراثي هو الملك (أمنمحات) الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الذي أرى أنه نبي الله يوسف ﷺ بالحس الإيماني. ومما أورده التاريخ من أمور تطابق ما ورد عن سيدنا يوسف ﷺ في كتاب الله تعالى .

فقد ورد في كتاب الله تعالى أنه تسلم ما يسمى الآن بالوزارة وسمي في ذلك الوقت عزيز مصر ويظهر ذلك جليا من قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف:٧٨]. وهذا دليل واضح لفظاً أن يوسف ﷺ تسلم منصب العزيز .

وجاء في التاريخ (١٦٩/جلد ٣) [أن (امنمحات الأول) مؤسس الأسرة الثانية عشرة يحتمل أن يكون هو نفس (امنمحات) وزير الفرعون (منتوحتب) الرابع والمرجح أن سلطان هذا الوزير أخذ يعظم ونفوذه يزداد ويقوى في عهد منتوحتب هذا حتى تمكن في النهاية من الاستيلاء على العرش عنوة، على أنه من الجائز أن يكون امنمحات تولى العرش بعد وفاة منتوحتب مباشرة بفضل ما كان له من قوة ونفوذ في البلاط].

ولنقارن الآن مقدار نفوذه وقوته في البلاط الملكي مما ذكر في كتاب التاريخ بما ورد في كتاب الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ [يوسف:٥٤].

وهذا قول الملك ليوسف ، ومعناه أنك القوي وأنك المصدق على من دونك إذا اختلف معك وأنك القوي والمؤيد من قبلنا إذا ما اختلفت مع غيرك وهذه الجمل معناها أنه الرجل الحق وعلى صواب ، والحق له ومعه إذا ما قال أو فعل أو اختلف مع إنسان غيره ، وبذلك يكون أقوى رجل في بلاط الملك وهو الرجل الأول بعد الملك مباشرة .

هل هناك اختلاف بين معنى ما ذكر الله وما ذكر كتاب التاريخ ؟ لا خلاف .

وهناك مقارنة أخرى وهي ما ذكرناه سابقاً وما سماها الكتاب أسطورة حيث جاء [تلك هي أسطورة حرص على إذاعتها بين القوم قوامها نبوءة لحكيم قديم رأى أن الويلات التي حاقت بالبلاد ستنجاب على يد رجل عظيم يصلح عوجها ويبرى بحكمته عللها ، وذلك المخلص المنتظر هو أمنمحات آمن به الدهماء] (١٧٠/جلد٣) .

آمن بهذه التي سميت أسطورة كل الناس كما ورد ولو لم يروا من هذا الرجل العلامات التي يريدون لما آمن كل الناس، وبذلك لم تعد أسطورة ووقعت الويلات فعلا وإنه إن لم يستطع علاجها فإنه سيظهر بعكس ما يدعي وسيحاسبه الشعب عندها على عدم صدقه.

ويؤكد هذه الوقائع ما جاء في كتاب الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف:٤٣].

فكان جواب يوسف ﷺ بتفسير ذلك ، ومن جوابه يستدل أنه يعلن بأنه قادر على التغلب على هذه المشكلة ، لأنه أعطى الحل في جوابه إذ قال الله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف:٤٧-٤٩].
ويستمر السياق إلى قول الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥].

وفي هذا إعلان بأنه قادر بأمر الله على التغلب على هذه الويلات وأنها ستنجاب على يديه كما يظهر أن الإجابة تشمل خطة شاملة لنسق زراعي يتم توجيه الشعب لاتباعه، هذا النسق في غاية الدقة والإعجاز ويحتاج إلى خبرات وقدرات كبيرة ، خبرات زراعية لتوجيه إرشاد زراعي وأسلوب تخزين للمحصول لسنين طويلة ولنظام استهلاك مقنن محدد ونظام حفظ للبذار في السنابل لكي لا تتلف ثم حساب ما يجب استهلاكه وما يجب خزنه من محصول كل عام وبناء الصوامع (مخازن الغلال) وحساب كمياتها ، هذا على مستوى دولة مترامية الأطراف كبيرة السكان والمساحة ولا ترد السائل لأنها دولة الحق ودولة التوحيد لا ترد سائلا محتاجا لمعونة ، وفي هذا يكون واجب يوسف ﷺ يشابه واجبات وزير الزراعة ووزير التموين ووزير المالية معا إضافة لواجباته في النبوة والدعوة إلى الله ويشهد التاريخ انه قام بهذا بكفاءة عالية منقطعة النظير. أيستطيع هذا غير الأنبياء ؟.

ألم تكن هذه المحنة التي حلت بأرض النيل هي من إعجاز الله ليوسف عليه السلام وهي إنقاذ بلد وشعب من ظلمة حالكة كبيرة طويلة الأمد إضافة إلى ما أعطاه الله من تأويل الأحاديث وغيرها.

ولقد نصر الله عبده وشهد التاريخ بذلك حيث جاء:

[وحقا قد حقق ما أنبأت به الكتب بما أظهره من مقدرة نادرة في توجيه سكان البلاد وهي تلك المقدرة التي ورثها عنه أخلافه ، وميزت هذه الأسرة وجعلتها أقوى أسرة مصرية حكمت البلاد في كل عصورها بمقدرة فذة وكفاية منقطعة النظير] (١٧٩/جلد ٣) ، وأي مقدرة ستكون أعظم من مقدرة نبي يسير بهدى من الله تعالى .

عودة إلى ما أسماه كتاب التاريخ الكاهن المرتل (نفرروهو).

حيث يعود الكتاب ويذكر ما يلي:

[وهل كان عرافنا هنا واثقا من أن بطله امنمحات سيستولي على التاجين اللذين يرمزان لحكومة البلاد المتحدة مصر السفلى ومصر العليا وأنه سيفتح عصراً جديداً غير أنه يرجئ الإصلاح العظيم بوجه عام إلى المستقبل وذلك يضع أمامنا سؤالا جديدا وهو: هل هذا التأكيد القوي مجرد نبوءة عن حادثة قبل وقوعها ؟ وهل كان ذلك إعلانا ينم عن الظفر يلقاه بطل منتصر قد نجح نجاحا عظيما في إصلاح مصر العليا ،حتى أن انتصاره النهائي وإصلاحه لمصر كلها كان متوقعا حدوثه؟ أم هل كان (نفرروهو) مرسلا من قبل امنمحات إلى مصر السفلى ليعلن قدومه إليها أو هل كان كأي شخص من أنصار امنمحات قد عظم إصلاحاته فصورها بصورة تبرزها إذا قاسها بما صارت إليه البلاد من الدمار والخراب قبل مجيئه] (١٧٥/جلد ٣).

ألا يدل هذا الكلام على أنه ليس نبوءة وان نفرروهو يعيش في زمن امنمحات وأن الخراب واقع فعلا في مصر ، وأن هذا الرجل يقوم بدعوة الناس لاتباع هذا النبي المرسل ، ألا يقابل هذا نبي الله يحيى عليه السلام الذي كان يدعو لاتباع عيسى عليه السلام واتباع محمد ﷺ عند بعثته.

ألا يقابل هذا ما قاله الله تعالى في سورة يوسف عن زميله في السجن الذي خرج وعاد ليعمل عند الملك عندما طلب الملك من يفتيه في رؤياه ، إذ كان جوابه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٥-٤٦].

بغض النظر عن الاسم ولو كان الاسم مهما لأظهره الله تعالى ، هذا الذي ينادي نبي الله يوسف عليه السلام بالصديق، وهو زميل السجن الذي بشره بيوسف أنه سيعمل ساقياً لدى الملك، ألا يمكن لهذا أن يسيح في البلاد في مصر السفلى ليعمل دعاية لنبي الله ولاتباعه حيث يقول : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٦]، أي سأخبر الناس ليعلموا ما أعلم وكما يقول الكتاب ويعلم الناس بمعجزة هذا النبي المكين الأمين بشهادة الملك الذي سبق يوسف في الحكم وكل من عمل في بلاطه ، وقد تمكن يوسف عليه السلام من توحيد مصر كلها مع فلسطين وسوريا وأجزاء من النوبة إلى حكمه لتكون دولة الإيمان والتوحيد المترامية الأطراف .

هناك مقارنة أخرى، حيث ورد في (١٧٧/جلد ٣) ما يلي: [نشأة امنمحات وعبادة الإله آمون ؛ تلك كانت حالة البلاد المصرية كما يريد أن يصفها لنا (نفرروهو) أو كما يريد أن يصورها لنا (أمنمحات) عند توليه العرش وسنرى فيما يلي الإصلاحات العظيمة التي أدخلها هذا الفرعون العظيم من خلال مدة حكمه الطويل ومن الغريب أن المؤرخ مانيتون لم يذكر لنا في تاريخه عن هذا البطل العظيم شيئا إلا أنه هو المؤسس للأسرة الثانية عشرة .

ومن مدلول اسمه (امنمحات) (آمون في الأمام) أي آمون أمام الآلهة نلحظ أن أسرته كانت تنتمي إلى عبادة الإله (آمون) معبود طيبة المحلي ، وانه كان يقدس هذا الإله اكثر من الإله (منتو) إله الحرب وهو معبود بلدة (ارمنت) المحلي وكان ملوك الأسرة الحادية عشرة يقدسونه أكثر من آمون ، ويمزجون اسمه في تركيب اسمهم (منتوحتب) ، هذا على الرغم من أن عاصمتهم كانت طيبة .

ولكن من يوم أن اعتلى (امنمحات) الأول عرش الديار المصرية أخذ نجم الإله آمون يعلو ويتلألأ بين الآلهة المصرية حتى صار فيما بعد أعظم الآلهة المصرية شهرة وعظمة وثراءً].وهذا يوافق قول الله تعالى : ﴿ يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

وهنا تبرز لنا ملاحظة جلية وهي: هل ما دعا إليه موسى عليه السلام هو ما دعا إليه يوسف عليه السلام؟ إنه في زمن كل منهما وبعد زمن كل منهما علا نجم الإله آمون فهل يجوز لنا الآن أن نترجم كلمة آمون إلى كلمة (الرحمن)، وهي من أسماء الله الحسنى ويدعو إليها كافة أنبياء الله عليهم السلام .

إنني اعتقد الآن أن الآلهة الأخرى ما هي إلا أسماء باللغات القديمة من أسماء الله الحسنى وهي في الأصل ديانات توحيد لمن سبق من الأنبياء وطرأ عليها بعض الانحراف فبعث الله نبيه يوسف ليعدل المسيرة ويعيد الأمة إلى الصراط المستقيم، ثم استقامت الأمور إلى نهاية حكم الهكسوس وبداية الأسرة الثامنة عشرة حيث ادعت (حتشبسوت) أنها ابنة الإله آمون وكذلك ادعى الملك (امنحتب الثالث)، وهذا انحراف عن صلب التوحيد إذ طبقوا قول المشركين (وقالوا اتخذ الله ولدا) وهذا بحد ذاته شرك وانحراف عن مسيرة التوحيد ، ثم جاء (سيتي الأول) ليساوي كل الديانات معا ثم أعقبه رمسيس الثاني ليدعي أولا انه ابن الله ثم ادعى انه الإله وبذلك بلغ الانحراف عن المسيرة أشده فبعث الله نبيه موسى ليعدل مسيرة الأمة وليضعها مرة أخرى على الصراط المستقيم ، أليست هذه رحمة من الله على هذه الأمة أن يرسل لها الأنبياء تباعا ليحفظها على الصراط المستقيم ؟ .

ومن ضمن الظواهر التي برزت بوضوح في عهد الأسرة الثانية عشرة ؛ هي هجرة سكان فلسطين إلى مصر طلبا للعمل والرزق حيث كانت أرض الخيرات ، ومما شجع على ذلك وجود يوسف عليه السلام حاكما لها وسبع سنين الخير التي وجه سكان البلاد للزراعة فيها وأسلوب التقنين وترشيد الاستهلاك الذي اتبعه في السبع سنين القحط التي لم يفطن إليها غيره من حكام المناطق المحيطة فهي إعجاز النبوة له إضافة إلى الرؤيا وتفسير الأحلام . وهذا القحط أدى إلى رحيل سكان المناطق المجاورة للسكن والعمل في مصر طلبا للرزق والمعيشة ، ولقد ذكر التاريخ ذلك حيث قال : [بدأ وجود الهكسوس في عهد الأسرة الثانية عشرة قبل أن يغزوا البلاد جملة ، وسنرى أن المواد الأثرية التي كشف عنها قد لعبت دورا هاما في كشف النقاب عن جواب لهذه المسألة] (١٦٦/جلد ٤).

وكذلك جاء [توجد أسباب عدة تدل على أن أولئك الغزاة كانوا قوة ثقافية في وادي النيل منذ عهد الملك سنوسرت الثاني (١٩٠٦ ـ ١٨٨٧ ق.م) ، أي في منتصف عهد الدولة الوسطى عندما كانت مصر في أوج عظمتها] (٥٤/جلد ٤) .

ويشهد التاريخ أن هجرة سكان فلسطين لم تكن غزوا وإنما هجرات تدريجية طلبا للرزق وذلك كما جاء في (ص٥٥/جلد ٤): [ويظهر أن الجواب المقنع على ذلك هو أن غزو الهكسوس لمصر لم يتم دفعة واحدة بين عشية وضحاها ولكنه تم تدريجيا وعلى مهل فكان يكتسب قوة بمرور الزمن].

أُلفت النظر إلى أن كلمات غزو ، غزاة وردت سهوا ودون قصد ولا يقصد بها تحريض القارئ ضد إخوانه الفلسطينيين أبدا حيث أنها وردت في نفس الجمل التي تشهد بأن الهجرة كانت فردية وبأن المهاجرين كانوا أكفاء في أداء أعمالهم .

ولقد جاء في كتاب الله ما يتفق مع ذلك من قول الله تعالى: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف:٩٣ .

وهذا طلب مباشر للهجرة ، وبناء على طلبه رحل إلى مصر نبي الله يعقوب وأبناؤه وعائلاتهم وبما أنها دولة واحدة ـ دولة إيمان بالله ـ دولة إسلام فلا فرق بين ساكن هنا وهناك ، وهكذا بدأت الحركة للجميع من أي مكان إلى أي مكان ، كما شهدنا ذلك في ظل الدولة الإسلامية فكان يحكم المحافظة المصرية عمرو بن العاص ﷺ الذي ولد ونشأ وترعرع في الجزيرة العربية ولكن الإسلام أهله إلى أن يصل بكفاية إلى هذه المكانة التي نفخر بها الآن ولا مجال إلا لذلك .

وكذلك من سماهم التاريخ الهكسوس وتعني سكان الأقاليم المجاورة فقد ارتحل بعضهم إلى مصر في ظل إسلام سمح ودين حق والفرص فيه متساوية أمام الجميع والناس سواسية كأسنان المشط في ظل دين إسلامي كما قال الله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].
وها هو نبي الله يشهد بالإسلام وبأن دعوته كانت للإسلام .

ومما شجع على الرحيل إلى مصر أنها دولة واحدة مع فلسطين والرحيل هو بمثابة الانتقال من القرية إلى المدينة داخل نفس الدولة، حيث كانت فلسطين ومصر دولة واحدة في حكم الأسر الملكية من الأولى وحتى السادسة وأما ما بعد الأسرة السادسة ، فقد انتقلت القيادة إلى العراق وهي بلد النمرود وكانت الدلتا ضمن الدولة واستمر هذا لأواسط الأسرة الحادية عشرة وعند ارتقاء نبي الله يوسف عليه السلام عرش مصر العليا ضم إليه مصر السفلى وفلسطين والشام وبذلك كانت فلسطين والدلتا في وحدة واحدة وحق لمن في فلسطين أن يتحرك إلى مركز النبوة .

ومما شجع على انتقال الناس فرص العمل المتوفرة بعد القحط حيث تدل الآية الكريمة على أنه سيكون عام يغاث فيه الناس ويعصرون إضافة إلى ما يبارك الله به من نهر النيل العظيم وما لدى هؤلاء المهاجرين الجدد من مهارات زراعية وغيرها .

ولقد ذكرت مهارتهم الزراعية في (٤٢٦/جلد١) حيث يقول: (إن الأسيوي الخاسئ أينما حل يتبعه الشقاء في الأرض التي يحل بها حيث الماء الآجن ولا يمكن المرور في أرضه بسبب كثرة أشجارها) ، وهذا يدل على الاهتمام بالزراعة واستغلال الأرض أيما استغلال وهذه جملة من وصية فرعون (خيتي) لابنه .

كما ذكرت مهارتهم الأخرى تحت عنوان مدنية الهكسوس في (١٦٥ جلد ٤) وهو ما أسلفنا ذكره سابقا .

وفي نهاية حكم الأسرة الثانية عشرة حيث كانت الملكة (سبك نفرو) ، وهي أخت امنمحات الرابع وابنة امنمحات الثالث قد تزوجت من (سخم رع خوتاوى) وبزواجه منها أصبح ملكا شرعيا على كل البلاد كما أوردنا سابقا .

ولقد بدأت بوادر انحلال سريعة وكثرت في هذا العصر الثورات المتتابعة التي أدت في النهاية إلى انفصال جنوب مصر عن شمالها وبقاء الدلتا مع فلسطين في دولة واحدة تحت حكم الهكسوس (سكان الأقاليم المجاورة) وهذا ما أعده انفصالاً عن حكم الآسرة الثالثة عشرة .

هناك جملة وردت في (ص ٦٦/جلد ٤) ، وقد أوردناها سابقا وهي تقول: [ولكننا نعلم أن الهكسوس لما اجتاحوا البلاد وتسلطوا عليها وجدوا عند استيطانهم فيها أن الإله (ست) كان هو المعبود المحلي

للبقعة التي أقاموا فيها تحصينات عاصمتهم العظيمة التي اتخذوها بمثابة نقطة الاتصال بين أجزاء دولتهم الضخمة وهي التي كانت تضم بين جوانبها مصر وفلسطين وسوريا].

إن هذه الجملة تؤكد لنا أن مصر وفلسطين وسوريا كانت دولة واحدة في عهد الهكسوس وقد أكدت جمل أخرى أثناء حكم الأسرة الثانية عشرة أنها كانت دولة واحدة ، وبذلك فإن ما حصل ليس غزوا ولم يكن هناك أي غزو إلا في ذهن أو خيال من قام بترجمة التاريخ وأن ما حصل ليس إلا انفصال جزء من دولة عن جسم الدولة والجزء الأصغر هو الذي يعتبر أنه انفصل وهو جنوب مصر، وبقي الجزء الأكبر يمثل الدولة وهي دولة الهكسوس.

كذلك كانت عبادة الإله آمون الدين الرسمي للدولة في كافة أرجائها وذكر الإله (ست) هنا يدل على أن فراعنة الأسرة الثالثة عشرة حاولوا إجراء تغيير لدين الدولة وفرض عبادة هذا الإله ولكن عباد الله المخلصين تمسكوا بدينهم، وبذلك استمرت ديانة التوحيد في الشمال وانفصل الجنوب بديانة جديدة .

وبذلك فإن ملوك الأسرة الثالثة عشرة يعتبرون مرتدين من وجهة نظر عبدة الإله آمون في ذلك الوقت، وما الديانات الأخرى إلا ديانات توحيد في أصلها وضع قواعدها أنبياء الله إبراهيم وصالح وهود عليهم السلام قبل سيدنا يوسف ولكن التحريف استمر من قبل أعداء الله لدين الله على مر العصور حسدا من عند أنفسهم لعباد الله المخلصين.

وما حصل في تلك الحقبة الزمنية يدل على أن ديانة التوحيد التي جاء بها يوسف ﵇ ظلت مستقيمة ولم تتعرض لتحريف إلا بعد طرد الهكسوس وادعاء بعض ملوك الأسرة الثامنة عشرة أنهم أبناء الله وهذا كان بداية الانحراف ثم ازداد هذا الانحراف في زمن (سيتي الأول) ثم أعقبه ابنه رمسيس الثاني الذي ادعى أنه ابن الله ثم كبر هذا الإبن وأصبح هو الإله.

إذا أمعنا النظر في هذا وأعدنا قراءة التاريخ سنجد أن مصر في رعاية الله منذ فجر التاريخ وأنها تتبع ديانة التوحيد وكلما طرأ بعض الانحراف عن اصل التوحيد الصحيح فان الله تعالى برعايته يرسل لها نبيا آخر وهذا من فضل الله تعالى على ذلك البلد الخير .

استمر حكم الهكسوس إلى نهاية الأسرة السابعة عشرة ولقد تمكن مؤسس الأسرة الثامنة عشرة (أحمس الأول ١٥٨٠ ـ ١٥٥٧ق.م) من طرد الهكسوس كما أوردنا حيث جاء أنه : (طرد الهكسوس وقاد البلاد على أسس متينة هيأت لمن جاء بعده من الفراعنة الشجعان أن يؤسسوا دولة مترامية الأطراف تمتد من الشلال الرابع إلى أعالي نهر دجلة والفرات) . (١٩٩ـ٢٠٠/جلد ٤) .

أي طرد هذا الذي حصل إذا كانت هذه المنطقة دولة واحدة في زمان حكم الهكسوس وقبل ذلك خلال حكم الأسرة الثانية عشرة ثم قبلها خلال حكم النمرود ثم قبل ذلك خلال حكم الأسرات الست الأولى كما يشهد بذلك التاريخ.

هل يطرد أناس داخل الدولة نفسها من محافظة إلى أخرى؟ إن كتابنا ما زال يشهد بأن هذه المنطقة مازالت دولة واحدة حتى بعد ما اسماه طرد الهكسوس وستظل دولة واحدة خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين .. الخ ، وما بعد ذلك كما ورد وكما يلاحظه من يقرأ.

أما لو تم تسمية ما حصل بأنه انقلاب من السكان الأصليين على الحكام الذين كانوا يسيرون البلاد على أسس دينية فهذا أقرب إلى الصواب أنه انقلاب على الحكام الذين هم من البلاد المجاورة (سيناء)، وقد أدى هذا الانقلاب إلى طردهم إلى منطقة أصلهم وعزلهم عن الحكم، والى بداية خروج البلاد عن الخط الديني الصحيح وخروجها عن ديانة التوحيد ودخولها في بداية ما يسمى هذه الأيام بالعلمانية، فهذا اقرب إلى الصواب وفيه شئ من الإقناع ويبعد الإنسان عن الدخول في متاهة ليس لها مخرج .

ولقد جاء في الكتاب ما يشهد بذلك حيث ذكر عن أخناتون وابنه :[وقد أحدث انقلابـاً دينياً ولدينا من الحقائق التاريخية ما يجعلنا نعتقد أن الانقلاب الديني الذي أحدثه لم يتم بغتة وإنما مقدماته قد بدأت في عهد تحتمس الرابع جد اخناتون ، إن تحتمس الرابع كان أول فرعون ثار على سلطان كهنة (آمون) وانتزع من يدهم وظيفة رئيس كهنة القطرين وقلدها أحد قواده الذين يركن إليهم ويثق فيهم] (٢٥٧/جلد ٥) .

وتعيين أحد القواد في منصب كبير كهنة آمون الذي قام به تحتمس الرابع هو ما نشبهه اليوم بقيام حكومة عسكرية بتسليم منصب وزير الأوقاف إلى أحد الضباط ليبدأ في تسيير الأمور الدينية للبلاد ..

ومن العجيب بل ومن أعظم العجائب أن الوحدة بين فلسطين والدلتا وسيناء قائمة منذ أكثر من ألف سنة من قبل ما يسمى بطرد الهكسوس أو هجرة الكنعانيين (الهكسوس) فلنفرض أنها بدأت مع هجرة بني إسرائيل وبذلك يكون قد مضى عليها ما يقرب من أربعمائة عام وهذا يخلق ستة عشر جيلا، فما الأسلوب الذي كان يتبع في تسجيل المواليد حتى يحفظ هذا الأمر لطول تلك المدة بحيث يمكن التمييز بين من هو من أصل كنعاني ممن هو من أصل مصري ، أليس هذا أمراً عجيباً ؟

وأما بنو إسرائيل فإنه مع طرد الهكسوس أيضا يكون قد مضى عليهم أربعمائة عام لأن رحيلهم إلى مصر بدأ مع بداية الأسرة الثانية عشرة وكانوا مميزين وكانوا كما تقول كتب التفاسير الدينية يسجلون مواليدهم ويحتفظون بسجل شجرة العائلة يصل إلى الجد الأخير (ابن يعقوب) عليه السلام ، وهذا ما سمي بالأسباط أي الأحفاد ودليل صحة ذلك شهادة رب العالمين على ذلك في كتابه الكريم واستمر هذا إلى أيام نبي الله موسى عليه السلام ، والى ما بعد ذلك إذ يستطيع أي شخص منهم أن يعرف انه من بني إسرائيل وأنه من السبط الفلاني .

ولكن من أعجب العجائب أن يتم طرد سكان فلسطين (الكنعانيين) وإبقاء بني إسرائيل في مصر مع أنه انقلاب ديني ومع أن رجال الدين أصلا منهم فهل كان إبقاؤهم هو لإسكات الشعب المصري الذي كان لا يزال فيه من يريد الدين ؟ الله اعلم .

لم يطرد بنو إسرائيل مع الهكسوس وتم خروجهم مع نبي الله موسى عليه السلام بعد خروج سكان فلسطين بزمن يقارب ثلاثمائة وخمسين سنة أو يقل قليلا ، إذ أن طرد الهكسوس كان عام (١٥٨٠ق.م)، في حين أن خروج بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام كان في نهاية حكم رمسيس الثاني وكان ذلك عام (١٢٣٤ق.م) .

إن ما يدور في خلدي أن خروج الهكسوس دفعة واحدة من بعد وحدة وتعامل دام اكثر من ألف عام وإقامة تقارب أربعمائة عام كانت وراءه مكيدة كبيرة لا يستطيعها إلا أهل السوء من بني إسرائيل ، أحفاد من رموا أخاهم نبي الله يوسف عليه السلام في البئر لأنه أحب إلى أبيه منهم ، وذلك لان خروج شعب عاش في مصر مئات السنين وتبدلت أجياله، واستوطنت أولاده وأحفاده وصاروا مواطنين أصليين لدرجة أهلتهم إلى أن يصلوا إلى سدة الحكم وحكموا البلاد زمناً مقداره مائه وستون عاما ومع ذلك تم اقتلاعهم ولم يترك التاريخ أثراً لهم. إن هذا يثبت أنهم كانوا أهل خير وعدل لأنه لو صدر منهم سوء لتغنى من اقتلعهم بهذا السوء .

أليس هذا من عجائب التاريخ ؟

ومما يؤكد هذا الظن أمران: الأمر الأول هو الإبقاء على بني إسرائيل مع أن الانقلاب ديني ومنهم حملة الرسالة (الجزء الخير منهم) أحفاد يوسف ، والأمر الآخر هو وجود موظفين من أصل سامي في

الحكومات التي تلت خروج الهكسوس ولم يبق في مصر من هذا الأصل إلا بنو إسرائيل وهم جزءان الجزء الخير وهم الأنبياء وأحفادهم وورثتهم ، والجزء السيئ وهم الأسباط العشرة أحفاد من رموا يوسف في البئر وهؤلاء هم المفسدون الذين يظن أنهم وراء الانقلاب الديني ووراء مؤامرة طرد الهكسوس وهم الذين اشتركوا في الحكومات اللاحقة وكانوا أشد على أبناء عمومتهم أحفاد يوسف أيام فرعون موسى، الذي هو رمسيس الثاني حيث كانوا يعملون له ضد أهل الخير (أبناء عمومتهم) حسدا من عند أنفسهم، ولقد شهد التاريخ بذلك إذ جاء عن رمسيس الثاني أنه :

[بل خطا خطوة إلى الأمام فعين بعض الأجانب في وظائف الدولة العالية وفي استطاعتنا تمييز هؤلاء الموظفين بما يحملون من أسماء سامية] (٥٩٨/ جلد ٦) .

ولقد جاء في كتاب الله تعالى ما يؤيد ذلك في سورة يونس : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس:٨٣].

وهذه الآية تثبت أن هناك من بني إسرائيل من كان يعمل مع الفرعون مخلصاً له ولكفره وأن الذين آمنوا لموسى من بني إسرائيل كانوا يخافون من أفراد قومهم وأقاربهم الذين يعملون مع فرعون أن يقوموا بالإبلاغ عنهم فيتعرضوا للعذاب الذي إذا اشتد قد يفتنهم عن دينهم .

هذا من جهة المتطلبات الأمنية للدولة أما من الناحية الاقتصادية فإن كتاب الله تعالى يذكر لنا قارون أغنى الأغنياء وهو من قوم موسى بنص الآية في سورة القصص: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص:٧٦].

فهو بنص الآية الكريمة من بني إسرائيل وبغى على قومه أي خانهم وكان من كبار تجار الجملة وهو المسيطر على التجارة في البلاد ومن قمة أهل الفساد فهو الثالث بعد رمسيس وهامان وذلك بنص الآيات في سورة غافر: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر:٢٣-٢٥].

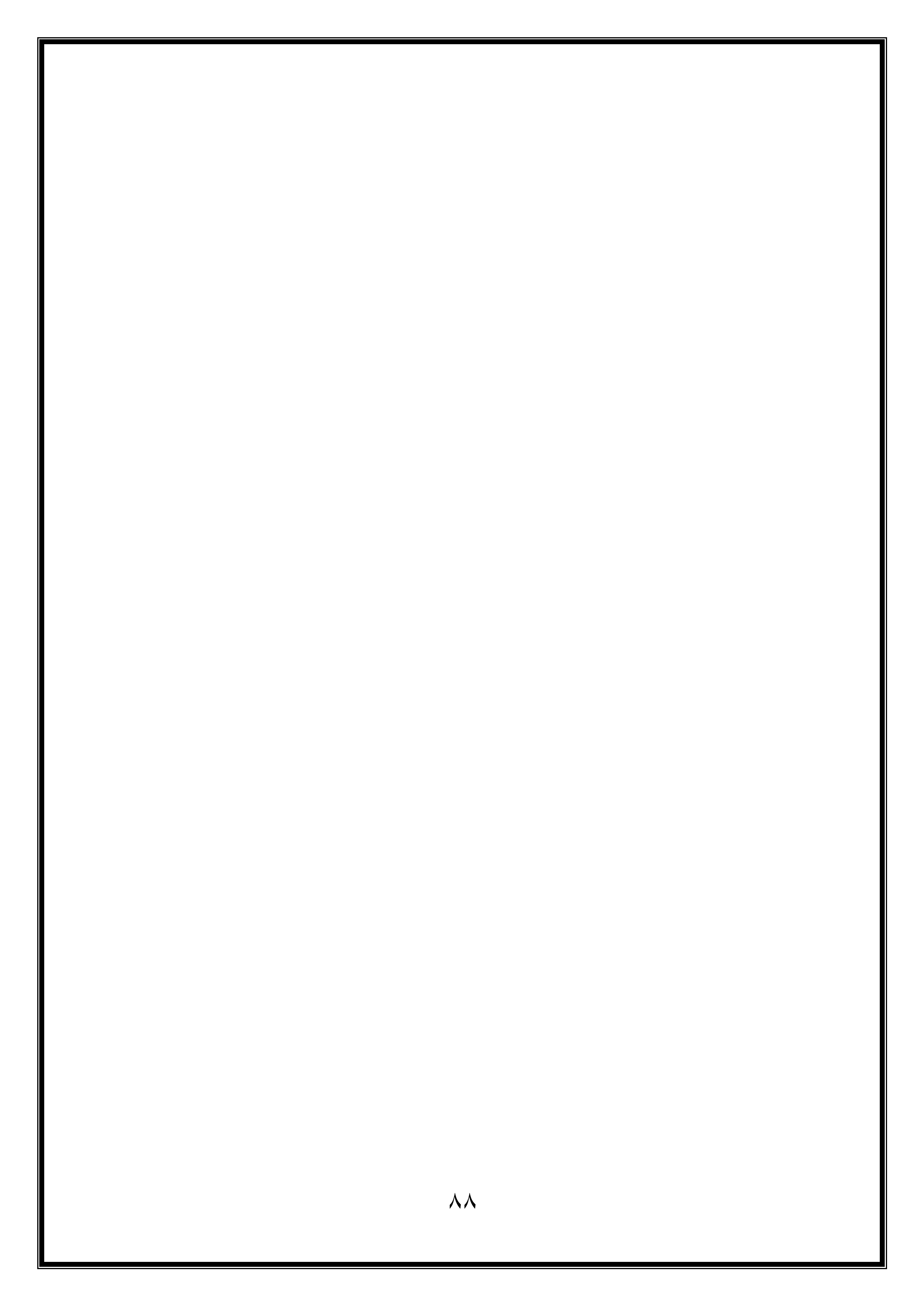
فيظهر جليا من الآيات أن قارون من بني إسرائيل وهو الأول في الغنى والموقع المالي والثالث في موقع الكفر وممن قالوا بقتل أبناء من آمنوا وهم من قومه وهذا يدل على مدى اندماجه وأمثاله من بني إسرائيل في مواقع السوء التي يحتلونها من الدولة أيام رمسيس الثاني .

ألا تولد هذه الأمور قناعة بأن أهل السوء من بني إسرائيل كانوا المدبرين للانقلاب الديني الذي أدى بأبناء عمومتهم إلى مهاوي الردى والعيش وبسكان فلسطين إلى الطرد ـ أليسوا أهل فساد كما وصفهم الله ـ بلى والله .

وأخيرا فإنه وفق ما يذكره كتاب التاريخ أن سكان الأقاليم المجاورة حوصروا بعد الانقلاب وكان عددهم يقارب ربع مليون وتم التفاوض معهم على الخروج بأملاكهم وخرجوا إلى فلسطين وقاموا ببناء مدينة القدس التي لم تكن مبنية قبل ذلك التاريخ .

وهذا ما ذكر بالمعنى في كتاب ((**تاريخ مصر القديمة**)) (جلد٤ ـ ص ٥٩ ـ٦٠) من الطبعة الجديدة على لسان المؤرخ يوسفيوس .

ويؤكد الكتاب هذا المعنى أيضاً فيما ذكره عن أن سكان فلسطين هم أنفسهم الهكسوس حيث جاء في (جلد ٤ ـ ١٨١) ما يلي : [وتدل المعلومات الاثريّة التي يتزايد ظهورها كل يوم في فلسطين على ان نظام الحكم المصري لم يصبح ذا أثر فعال في البلاد الآسيويّة حتى عهد تحتمس الثالث وأن الهكسوس لم يغلبوا على أمرهم في هذه الأراضي الآسيوية إلاّ في هذا الوقت] .



الفصل الرابع مولد موسى ﷺ وتكليفه بحمل الرسالة

لقد علمنا أن ديانة التوحيد استقامت في مصر وفلسطين والشام في الفترة من (٢٠٠٠ ق.م) حتى (١٧٥٠ ق.م) تقريبا ، وهي طول فترة حكم الأسرة الثانية عشرة حتى رابع ملوك الأسرة الثالثة عشرة حيث وقع انقلاب ديني في صعيد مصر فاستقل بديانته الجديدة وهي إحدى ديانات التوحيد القديمة مع ما طرأ عليها من تحريف . وبقيت الدلتا وفلسطين والشام تحت حكم الهكسوس متبعة ديانة التوحيد إلى حوالي ١٥٨٠ ق م حيث هزم الملك أحمس الأول الهكسوس الذين اضطروا للخروج إلى فلسطين بعد مفاوضات .

وبدأ الانحراف يدخل على مسيرة التوحيد التي أرسى دعائمها نبي الله يوسف ﷺ حيث قامت الملكة (حتشبسوت) وهي من ملوك الأسرة الثامنة عشرة فادعت أنها ابنة الإله وأن الله تمثل بشراً لوالدتها فوضعتها فأعقبها تحتمس الرابع الذي قلص سلطات رجال الدين فعين على رأسهم أحد قادته الذين يثق بهم ليبدأ تسيير الأمور الدينية على هواه ثم أعقبه أمنحتب الثالث الذي ادعى أيضاً أنه ابن الله وبذلك بدأ الدين يضعف في النفوس .

استمر الوضع إلى بداية حكم الأسرة التاسعة عشرة حيث الملك (سيتي الأول) الذي ساوى كل الديانات ثم أعقبه ابنه رمسيس الثاني الذي ادعى أنه ابن الإله فكبر هذا الإبن وأصبح إلها وبذلك بلغ الفسق والكفر مبلغه وآن للقدرة الإلهية أن تتدخل ، ومع هذا الانحراف والتغيير السلبي المتنامي الذي طرأ على الدين تغلغل أهل السوء من بني إسرائيل في الدولة المصرية حيث أنهم لم يخرجوا مع الهكسوس مع أن أصلهم واحد وبقوا في مصر وبلغ تغلغلهم السيئ مداه في زمن رمسيس الثاني إذ بلغوا أرفع المناصب في الدولة وكان همهم موجهاً لضرب أبناء الخير من بني إسرائيل وهم أحفاد يوسف ﷺ وأتباعه الذين حملوا راية الإسلام في الفترة السابقة.

واستمرت دعوة التوحيد وهي الدعوة إلى الإسلام لله تعالى في سلالة يوسف ﷺ يحملها أهل الخير من أحفاده إلى عهد نبي الله موسى ﷺ الذي حمل الراية ودعا إلى التوحيد والإسلام لرب العالمين .

إنني أعني بهذا الكلام أن سلالة الإيمان التي ظلت تحمل الدين هي سلالة يوسف ﷺ وأن موسى وهارون هم أحفاد يوسف عليهم السلام رغم أن الكتاب المقدس ينفي ذلك بوضوح في حين أن الكتاب المقدس يثبت ذلك عن غير قصد في عدة مواقع تم ذكر بعضها ، وسيتم ذكر بعضها الآخر كل في موضعه الصحيح .

أما عن النفي المباشر فقد بين الكتاب المقدس أصل موسى كما يلي:

((وهذه أسماء بني لاوي بحسب مواليدهم . جرشون وقهات ومراري ... وبنو قهات عمرام وبصهار وحبرون وعزيئيل ... وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى)) [سفر الخروج ـ الإصحاح السادس] .

يتضح أن موسى بن عمران بن قهات بن لاوي بن يعقوب. والزمن بين يعقوب وموسى تسع مائة سنة وبينهما ثلاثة أجيال فقط، أي أن معدل سن الزواج يزيد عن مائتي سنة، وهذا بعيد عن الواقع ويتناقض مع سنن الله في معدل سن الزواج ويتناقض مع أعمار الأجيال التي أوردنا من أحفاد يعقوب الذين تسلموا السلطة في مصر إذ كانت أعمارهم عادية، وبذلك يتضح أن الهدف من هذا النص هو إبعاد موسى وهارون عن سبط يوسف والذي يستنتج من آيات القرآن الكريم حيث أوحى الله إلى أم موسى،

وهذا يثبت أنها من سبط الإيمان، وأنها من أحفاد يوسف، وكذلك الآيات (٣٢-٣٣). من سورة آل عمران فإنها تثبت أن عمران والد موسى من أحفاد الإيمان.

ولنعد إلى الحديث عن دعوة الحق التي حملها موسى عليه السلام وهي الدعوة إلى الإسلام.

وقد تجلى هذا فيما ذكره الله تعالى مما قاله نبي الله موسى عليه السلام لقومه ليحثهم على الصبر على البلاء الذي لحقهم إذ قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس:٨٤]. فإلى ماذا كان يدعو موسى عليه السلام ؟

لقد كان يدعوهم إلى الإسلام وقبلوا دعوته وأسلموا أمرهم لله خالقهم ، ويظهر هذا أيضا بوضوح عندما أسلم السحرة لما رأوا ما جاء به موسى من بينات ، فقام فرعون بتهديدهم فردوا عليه ، ولقد بين الله تعالى ذلك في سورة الأعراف : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٦].

فها هم السحرة يدعون الله أن يتوفاهم مسلمين ـ فمن أين عرفوا الإسلام ؟ إنها دعوة موسى عليه السلام التي هي استمرار لدعوة أبيه وسلفه يوسف عليه السلام .

وأخيراً وبعد فوات الأوان حيث لا تقبل التوبة من الإنسان أدرك عدو الله فرعون الصواب وصدق وأسلم ولكن هيهات ان يقبل منه ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٩٠].

فها هو اكبر المشركين في التاريخ يقر بإسلامه، فمن أين سمع بالإسلام ودين الإسلام إلا من نبي الله الذي عاصره وبعد أن رأى بعينه كل معجزات الله الكبرى فلم يصدق إلا في اللحظات الأخيرة من إحدى هذه المعجزات وبعد فوات الأوان .

ولقد أوذي بنو إسرائيل الأذى الكبير لحملهم راية الإسلام في زمن بعد فيه كل الناس عنه وعاداهم حتى أن أبناء عمومتهم من بني إسرائيل حسداً من عند أنفسهم وآذوهم الأذى البليغ، ولقد بين الله ذلك بقوله : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس:٨٣].

وهذا يثبت أن هناك فئة من بني إسرائيل كانوا يعملون مخابرات لفرعون على خيرة قومهم بل توضح الآية أن الذين آمنوا بالله يخافون من فرعون ومن أقاربهم (وملإيهم) وخوفهم من فرعون أن يفتنهم عن الإيمان بتعذيبهم وقتل أبنائهم، وخوفهم من أقاربهم أن يبلغوا عنهم سلطات فرعون أي

أنهم مخابرات فرعون عليهم ، وكذلك قول الله تعالى في: ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِى ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦].

يقول الله تعالى أن قارون من بني إسرائيل وبغى عليهم بسبب المال، حيث كان يستغل ماله لإفساد الناس ليزيد من كسبه المادي (كما يحصل في نوادى القمار وحانات الخمرة والمراقص).

ومما يدل على فساد فرعون قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعًا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةً مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡىِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص:٤].

إن فرعون كان من المفسدين ، والمفسد من يفسد غيره ويكون فاسدا أصلا ولا يقرب إلا الفاسدين وقد قسم الناس إلى طوائف وعائلات ونشر بينهم العنصريات والعداوة والبغضاء وقواها وغذاها، فإذا كان يستضعف أهل الخير والصلاح فإنه قد استمال أهل الفساد والشر.

بنو إسرائيل كانوا اثني عشر سبطا بعضهم وهو أقلهم على خير وهم ورثة ديانة التوحيد والأغلبية الباقية من المفسدين فاستمال فرعون أكثرهم فسادا ليكونوا عينه على أبناء عمومتهم من أهل الخير حسدا من عند أنفسهم ، وكذلك فعل بباقي الطوائف يستميل أهل الشر منهم وأحدث فسادا وفرقة بين مختلف الطوائف ليذيق بعضهم بأس بعض، وبهذه الطريقة حكمهم جميعاً ببعضهم ورفع أهل النفاق وقربهم إليه، أولئك الذين صدقوا أنه إله وكانوا يبررون تصرفاته لمن دونهم فهم فاسدون مفسدون منافقون وصوليون.

في هذا الجو من قمة الشرك والكفر حكم فرعون أكبر قوة في الأرض وادعى الألوهية وصدقه الناس. وكان له بعض المستشارين المنافقين يتدارس معهم الخطر المحدق به وبادعائه فدرسوا فلم يجدوا ما يناقض هذا الإدعاء إلا من كانوا يحملون راية الإسلام الموروثة ويعلمون أن هناك إلهاً هو خالق كل شئ ، وهؤلاء حجتهم قوية في إقناع الناس بكذب ادعاء فرعون إذا اضطروا لذلك أو سئلوا عنه لأن واجبهم تجاه ربهم كان يحملهم على قول الصدق إذا سئلوا، وعلى قلة حيلتهم وعدم وجود قوة تساندهم كان فرعون وهامان خائفين منهم فأشار المستشارون على فرعون بضرورة القضاء على هذه الملة المسلمة بقتل المواليد الذكور والإبقاء على الإناث، وبهذه الطريقة سينقرضون خلال جيل واحد، وتم تعيين المسؤولين عن مراقبة تنفيذ ذلك.

في هذا الجو من القوة المادية لفرعون وضعف الفئة المؤمنة يكون مولد موسى ﷺ، وتتدخل العناية الإلهية وتتحدى قوى الشر لتكون تربية هذا المولود في بيت رأس الشر، ليربي بنفسه عدوه الذي سيقضي على كفره برعاية رب العالمين الذي أرسله ويحيطه برعايته.

ولد نبي الله موسى ﷺ في زمن قمة الكفر، فرعون الذي لا يكتفي بإنكار وجود الله كمن يسمون بالملحدين، بل كان أسوأ منهم إذ ادعى لنفسه الألوهية ، وأنه الإله الواحد الأحد الذي لا يريد منافساً في هذه الدنيا ولا يسمح أن يحاججه أحد في ادعائه فقرر قتل المواليد الذكور من مسلمي بني إسرائيل الذين يسمون كهنة آمون في كتب التاريخ .

ويظهر من الآيات الكريمة أنه كان هناك من يتجسس له على النساء الحوامل، وأنه كان هناك تفتيش على المواليد بعد ولادتهم ليتم تسليم الذكور للذبح ولتبقى الإناث مع أهلهنّ، ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله

في سورة القصص: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧].

ويظهر جلياً من الآية أن من كان يقع في أيدي مفتشي فرعون كانت نجاته من الموت مستحيلةً إذ أن مآله إلى الذبح، أما الذي يرمى في الماء فان هناك احتمالاً لنجاته مهما تضاءل هذا الاحتمال.

لقد كانت النجاة مكفولة لموسى وقد كفلها الله تعالى، وحديثي هذا ينطبق على عامة الناس.

أوحى الله تعالى لأم موسى أن لا مانع من أن يبقى ابنها لديها لترضعه مادام لا يعلم به أحد من المخبرين وعليك أن تأخذي حذرك وتكوني جاهزة لإخفائه ولإبعاده عن أعين المخبرين، ويظهر أن بيتهم كان على شاطئ الماء وأن التفتيش المحتمل كان دقيقا، لذلك فلا مخرج إلا أن يرمى الطفل الرضيع في الماء ، وكذلك قال الله تعالى في سورة طه يخبر موسى ﷺ بمراحل حياته الأولى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه:٣٧-٣٩].

وبذلك يكون الله تعالى قد أوحى لأم موسى خطة العمل الواجب اتباعها وهي أن تضعه في التابوت (صندوق خشبي) وأن تلقي التابوت في الماء وأوحى إلى اليم أن يلقي الصندوق بالساحل، وكان جند فرعون يحيطون بالماء من كل الجهات، ولقد أخبر الله تعالى أم موسى مسبقاً بما سيكون إذ قال لها: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ ﴾ [طه:٣٩]، أي إذا سمعت ان جند فرعون التقطوا طفلا فلا تجزعي ولا تحزني فأنا ربه وأعرف كيف أعتني به وأحرسه وسأجعل حراسته وتربيته من قبل أعدائي وأعدائه وسأعيده إليك لتطمئني وسأجعله من المرسلين .

وهذا الإيحاء من الله لا يكون إلا لأهل الخير والإيمان من عباده، وأسلمت أمرها لربها وألقت وليدها في اليم ليأخذه الموج ويعثر عليه آل فرعون فيعرض الأمر على فرعون نفسه بحضور زوجته فيرق قلبها لهذا الطفل الرضيع وتطلب الإبقاء عليه لتقوم بتربيته في القصر إبناً لها ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:٨-٩].

وقد كان بأمر الله قرة عين تلك المرأة التي كافأها الله فآمنت ولقد نفعها فعلا اذ أرشدها الى الإيمان، وقد شهد الله تعالى بإيمانها بقوله في سورة التحريم: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم:١١] .

وأخيراً وافق فرعون على طلب زوجته بالاحتفاظ بالطفل ليكون ولداً لها، أما هو فقد رفض اعتباره ولداً ولم يرق قلبه له.

جاء دور الرضاعة، والظاهر أنه لم توجد في قصر الفرعون أم ولدت حديثاً فترضعه في معية وليدها، وتجلت العناية الإلهية التي جعلت هذا الطفل الرضيع لا يقبل الرضاعة من امرأة غير أمه؛ إذ قال الله تعالى في ذلك: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:١٠-١٣].

وقال الله تعالى أيضا في سورة طه : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٠].

وهكذا نفذ الله وعده الأول لأُم موسى حيث قال لها وحياً: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ [القصص:٧] ، فقرت عينها وربط الله على قلبها المؤمن بالصبر قبل عودته، وعاد إليها وليدها لترضعه ولكنه سيعود مرة أخرى إلى القصر ليربى هناك بعد اجتياز سن الرضاعة.

وتنفذ إرادة الله في أن تتم تربية نبي الله في قصر الفرعون الذي ظلت مخابراته وجنوده يبحثون عن عدوهم ويذبحون أبناء الناس ولا يعلمون ان إرادة الله هي الحق وأن عدوهم بينهم وهم أحرص الناس على العناية به ورعايته.

هذه هي رعاية الله للمؤمنين وأن النصر من عند الله دائماً مهما ضعفت إمكانيات المؤمنين المادية وأن على المؤمن أن يجهز ما لديه من إمكانيات والباقى على الله.

لذا فان المطلوب من الفئة المؤمنة أن تجهز إمكانياتها مهما ضعفت ولو لم يبق منها إلا الدعاء فان العدالة الإلهية تتدخل لنصرة الفئة المؤمنة وهذا ما حصل مع موسى عليه السلام ، وقد كانت أول نصرة له إنقاذه من بطش فرعون في طفولته وعيشه في قصر فرعون وله حرية الحركة في القصر وفي طول البلاد وعرضها فلا ضير في ذلك فهو الابن الروحي المحبب لزوجة الفرعون التي لا يعصى لها أمر .
وتمر السنين ويكبر الطفل المربى في القصور ويصل سن الشباب والرشد ويبلغ أشده كما أظهرت الآية الكريمة: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص:١٤]
.

وتظهر الآية الكريمة انه كان محسنا وهذا يعني أنه لم يؤمن بربوبية فرعون الذي تربى في قصره وأنه كانت له أفكار معادية لذلك، وهذا يظهر جلياً من إيمان زوجة فرعون. وبلوغ أشده يعني اكتمال قوته الجسمية ولم تحدد الآية الكريمة عمره وهذا يحصل هذه الأيام في حوالي سن الرابعة والعشرين.

والإستواء يعني اكتمال الاتزان العقلي، وهذا يكون قريباً من سن الثلاثين، فهل بقي موسى عليه السلام داخل القصور حتى هذه السن أم أنه تركها والتحق بعمل معين ولن يصعب عليه ذلك وهو ربيب الفرعون، فيمكنه أن يعمل في الجيش أو أي دائرة حكومية في ذلك الزمان .

الأرجح أنه كان يعمل في دائرة سواء كانت عسكرية أم مدنية وقريبة من صحراء سيناء أو داخلها حيث التقى هناك بالعبد الصالح، خاصة وأن الآية الكريمة تذكر أنه دخل المدينة على حين غفلة من أهلها.

والمدينة أي العاصمة وهذا يعني أنه كان خارجها حيث قال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [القصص:١٥-٧].

ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، أي لم يحس به أحد فوجد رجلين يقتتلان أحدهما من شيعته، وهذا يدل على انه كان على شيعة معينة وانه بدأت عداوة بينه وبين ديانة فرعون. فاستغاثه الذي هو من شيعته فوكز الرجل الذي هو عدو له، أي ضربه بكامل يده فوقع الرجل ميتا من ضربة واحدة مما يدل على القوة العضلية الشديدة التي يتمتع بها موسى عليه السلام ، وكان الأمر مفاجأة له حيث لم يتوقع ذلك ولم يقصد قتله ، بل قصد هزيمته فقط ، فلما رآه ميتا ندم على فعلته وعزا الأمر إلى وسوسات الشيطان الذي دفعه إلى الغضب الشديد الذي أدى به إلى أن يضرب الرجل ضربة أدت إلى موته فاستغفر ربه في الحال كما ورد في الآية الكريمة : ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴾ [القصص:١٥].

ثم استطرد قائلا : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي ﴾ [القصص: ١٦]. فغفر الله له فعلته غير المقصودة وشعر موسى عليه السلام بالإيحاء بغفران الله له بعد استغفاره فإذا هو يعاهد ربه ألا يعاود هذه الفعلة أبداً وذلك جزاء النعمة التي انعم الله عليه وهي المغفرة على فعلته حيث قال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧]، إنه يعاهد الله ألا يساند إنساناً مجرما ولا عملا غير صالح مهما كان ومن أي كان وأيضا فانه يتبرأ من الجريمة والمجرمين وسيكتم غيظه عند اللزوم في المرات القادمة .

هذه الاندفاعة العاطفية التي صدرت عن موسى عليه السلام ستكون بادية في تصرفات كثيرة ستظهر لنا جلية من عرض سيرة حياته القادمة .

انتهى الموقف الأول وندم موسى عليه السلام أشد الندم واستغفر ربه فغفر له ولكن القلق بقي يساوره من أن يفتضح أمره، يبدو أنه لم يعد ابن القصر المدلل كما كان طفلاً، وانه بدأ يجاهر بدينه وبالصواب وفي هذا معاكسة للفرعون الذي له عليه فضل كبير، فالدليل الأول على انه بدأ يجاهر بدينه ويعاكس الفرعون هي جملة (وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ)، وهذا يدل على انه جاء من خارجها، والدليل الثاني هي جملة (هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ) وهذا يدل على انه بدأ يعرف شيعته ويتشيع لها ، والدليل الثالث كلمة يترقب فمعناها يدل على وجود خوف داخل نفسه من عقاب فرعون ولو كان مازال ابن القصور البار لما خاف بطش فرعون

ولكان هان عليه قتل أي إنسان في جو يتم فيه ذبح بني إسرائيل الذكور الأطفال الذين أعمارهم يوم أو أيام وفي مثل هذا الجو من الجبروت فان قتل أي إنسان يكون أهون من قتل عصفور إلا إذا كان هذا الإنسان من زبانية الفرعون وكان القاتل من أعداء الفرعون. ما طمأن نفسه أنه لا شهود على ما حصل إلا الرجل الذي من شيعته حيث تقول الآية: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [القصص:١٥]، أي أنه لم يره أحد غير شريك القتال الذي دار وسبب قتل الرجل.

وبينما هو يسير في شوارع المدينة بعد يوم فاذا بشريك القتال يناديه مرة أخرى كما تظهر الآيات : ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص:١٨-١٩].

إنه مسبب القتال مشتبك في شجار مع شخص آخر واستنجد به مرة أخرى ليفعل ما فعل بالأمس ويريد الرجل أن يظهر بقوة عضلات غيره حيث أن خصمه اليوم أشد منه قوة بكثير حيث توضح الآية أن الذي استنصره بالأمس يستصرخه، فبالأمس طلب نصرته أما اليوم فإنه يصرخ طالبا نجدته أي أنه في ورطة لا ينقذه منها إلا موسى ﷺ، ولكن موسى ﷺ مازال الندم على فعلة الأمس يراود عقله وأحاسيسه ويلاحقه ويجعله يترقب السوء ويتوقعه في أي لحظة وكله قناعة أن هذا الشخص هو المسبب لما هو فيه من قلق وإحساس بالذنب، لذلك وصفه موسى بالغواية والضلال حيث قال له موسى انك لغوي مبين، حيث يسبب مشاكل كثيرة لا علاقة له بها وتحرج بني إسرائيل الضعفاء الذين لا يملكون القدرة والإمكانيات على الثورة العامة على ما هم فيه من ظلم لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم بأي طريقة، فلا ضرورة لافتعال مشاكل لن تجلب إلا الأذى والحرج لهم .

ولكن موسى ﷺ تذكر الظلم الواقع على قومه فهجم يريد أن يبطش بالذي هو عدو لهما لأن نفسه مملوءة غيظا على أعمال فرعون التي لا مبرر لها حيث لم يشهد التاريخ ولا الإنسانية ظلماً بهذه القسوة ولا من هذا النوع مورس ضد شعب كما مورس من فرعون في قوم موسى .

وبينما هو في طريقه لضرب الرجل قال له: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص:١٩]، وهذا يدل على أن قتيل الأمس قد افتضح أمره ولم يعد سراً وربما كان الرجل الذي من شيعته ومن باب التباهي بما حصل أخذ يتحدث ويفتخر بما حدث بالأمس، ومما لفرعون من مخابرات من بني إسرائيل على أنفسهم وصل خبر الأمس إلى أعلى المستويات وقرر فرعون الخلاص من موسى ﷺ وقتله.

يظهر جلياً من أسلوب مخاطبة عدوهما لموسى أنه يذكر موسى بقتيل الأمس من جهة، ومن جهة أخرى يذكر موسى بما عرف عنه من الإصلاح بين الناس وأسلوبه للدعوة الى ربه وكأنه يريد أن يقول له أتريد أن تترك طريق الإصلاح والصلاح وأن تصبح جباراً في الأرض؟ ما هذا الذي نرى؟

وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى سمع ما تم اتخاذه من قرار بقتل موسى ﷺ فجاء يحذره، ويظهر ان هذا الرجل هو المؤمن من قوم فرعون الذي قال الله فيه في سوره غافر: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨].

فاستمع موسى إليه ومرة أخرى توجه بقلبه إلى الله خالقه وخرج من المدينة خائفاً وقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢١]، ويخرج من المدينة بالخوف والندم وليس معه شيء وهو مطلوب للإعدام وهذا يجعله هائما على وجهه لا يدري ماذا يفعل فإذا أراد النجاة فعليه أن يخرج من كامل الدولة التي يحكمها فرعون ليشعر بالأمان ليعيش ويشعر ببعض الطمأنينة .

وما وصل إلى درجة الطمأنينة إلا في أرض مَدْيَن عندما ذهب لوالد الفتاتين اللتين سقى لهما فقال له بعد أن حدثه بما حصل معه: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥]، أي اطمئن فإنك الآن خارج حدودهم وخارج منطقة سلطانهم، ولقد نجاك الله منهم وإنك الآن في مأمن مما كنت فيه، ولقد قال الله تعالى مبيناً تحذيره هذا: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص:٢٠-٢٣].

ها هو يخرج متجها نحو مدين وكأنه يعرف الطريق ويعرف وجهته وتدل الآيات على انه كان يعرف طريقه جيدا وهي الطريق الى مدين ، فأخذها مباشرة واذا به يصل بعون الله الى عين ماء مدين حيث يجتمع الرعاة لسقاية الغنم (الماشية) ، وهذا يؤخذ من أسلوب سرد الجملة في الآيات: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٢] ، وتقول الآية التالية: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٣]. ومن هذا يؤخذ انه ما ان ترك المدينة (العاصمة) حتى توجه وأخذ طريقه الى مدين مباشرة مستعينا بالله ، ورغم ان المسافة تزيد عن سبعمائه كيلومتر إلا انه وصل ماء مدين مباشرة فهذا يعني انه كان يعرف الى من يذهب والى أين يذهب . انه ذاهب الى منطقة أمن وطمأنينة والى منطقة دين وإسلام.

وقطع المسافات الطويلة إلى أرض مدين التي تقع شرقي فلسطين وشمال الحجاز، هذه المسافة قطعها في مسيرة متصلة وآل فرعون يطاردونه، وأخيراً وصل بعون الله ماء مدين ووجد الرعاة يسقون أغنامهم وتقف بعيدا عنهم فتاتان تذودان أي تحاولان السيطرة على غنمهما من التحرك بعيدا أو قريبا لأنهما لا تريدان ان تختلطا بالرجال الرعاة وثارت الحمية في نفس موسى، فالمفروض ان تتم السقاية للفتاتين أولاً لتنصرفا الى المنزل في حين رأى العكس فالرجال يسقون أغنامهم ولا يسأل بهما أحد منهم فتقدم إليهما وسألهما ﴿مَا خَطْبُكُمَا ۖ﴾[القصص:٢٣]؟ فأجابتا: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص:٢٣-٢٤].

لقد دفعته شهامته أن يتقدم ويسقي للفتاتين قبل أن يستريح حتى من عناء السفر ، لأن الأولوية عنده للصواب والعمل الصحيح وهذا له الأولوية على الراحة فلما سقى لهما تولى الى الظل وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [القصص:٢٤] .

لقد آوى إلى ظل شجرة ليستريح وما أن انتهى من دعائه حتى جاء فرج الله العاجل بالحاجة المطلوبة، حيث سمع إحدى الفتاتين تناديه تقول له: ﴿ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ [القصص:٢٥].

إنها دعوة الإيواء والجزاء تحملها إحدى ابنتيه وهي تمشى على استحياء مشية الفتاة النقية الطاهرة حين تلقى الرجـال.

وتم اللقاء بين موسى عليه السلام والشيخ الكبير الذي تقول كتب التفاسير أنه نبي الله شعيب عليه السلام أو ابن أخيه؛ وهذا أغلب الظن إذ لا يعقل ان يعامل شباب قوم مسلمين بنات نبيهم بمثل هذه المعاملة، انهم لم يعتدوا ولكنهم لم يقدموا لهما الاحترام اللازم لبنات نبي.

خلال هذا الاجتماع بادرت إحدى البنتين فاقترحت على والدها ان يستأجر موسى خاصة وأنها شهدت منه القوة والأمانة وذلك لتستريح وأختها من عناء رعاية الماشية وشقائها والتعامل مع الرجال في هذا المجال الخشن وان الفرصة مناسبة لهن ليسترحن من عناء هذا العمل ولتشغيل هذا الرجل الغريب والذي هو بحاجة إلى عمل ولاستغلال ما لديه من قوة وأمانة، وهذه الصفات الحميدة قلما تجتمع في شخص.

واستجاب الوالد لاقتراح ابنته ولعله أحس منهما بعض الاحترام المتبادل يكنه كل منهما للآخر خلال ما أبدت من ثقة به وبأمانته وقوته، وهذا صادر عن فراسة قلما تتوفر في النساء فعرض الأمر عليه.

وقبل موسى العرض، قال الله تعالى مبينا ذلك في سورة القصص : ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾ [القصص:٢٦-٢٨].

ولنقف بعد هذا على قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح التي وردت في سورة الكهف، فمما تقوله كتب التفاسير أن موسى عليه السلام سئل :من أعلم البشر؟ فأجاب: أنه أعلم البشر، وهنا ألهمه الله أن هناك من هو أعلم منه وأوحى إليه بالذهاب إلى ملتقى البحرين للالتقاء به .

لم تحدد الآيات الزمن الذي حصلت فيه هذه القصة ويتضح أنها كانت قبل سفر موسى إلى قوم مدين بوقت وليس أثناء سفره هاربا إلى مدين لأنه لا مجال للبحث والتقصي ومصاحبة أستاذ أثناء عملية هرب ، وكذلك فانه بعد ان أنهى مدة عمله مع الشيخ الكبير في مدين وعاد بأهله كلفه الله بالذهاب إلى فرعون فلا مجال لان يذهب هنا وهناك بل نفذ أمر ربه، لذا يستنتج ان هذه الواقعة حصلت قبل معركته الفردية منجدا من هو من شيعته على من هو من عدوه .

لأن موسى نتاج تربية قصور فإن الأمر يتطلب أن يقوم بعمل من نوع معين يؤهله لاستلام منصب كبير في المستقبل يتناسب ووضعه الاجتماعي كأن يكون مارس عمله كضابط في الجيش أو محافظ لإحدى المحافظات ، ومن المعروف أن أبناء القصور يسلّمون مناصب تسبق سنهم بكثير وهذا بالطبع ما حصل دونما داع لذكره لأن له غلاماً وهذا بمثابة خادم أو مراسل بتعبير العصر الحديث وهذا الغلام لا يتوفر إلا لأبناء الذوات أو لذي المنصب العالي .

البحران هما خليج العقبة وخليج السويس فطول كل منهما يزيد عن (٢٠٠) كيلو متر وعرضه يتراوح بين العشرين والخمسين كيلو متر وفي عرف السكان المحليين آنذاك حيث لم تكن تتوافر الخرائط العامة التي تظهر أن كليهما جزء من البحر الأحمر، ومن هنا نعرف ان ملتقى البحرين هو شاطئ البحر الأحمر المسمى (راس محمد)، كذلك فانه لا مجال لان يكون الحدث أيام هرب موسى وقومه من فرعون خارجين من الديار المصرية ، لذا بقي ان الاحتمال الوحيد هو ان هذا حدث مع وجود موسى عليه السلام في إحدى الوظائف التي يتدرب من خلالها على استلام منصب كبير.

تذكر بعض الكتب حالياً ان هناك جبلاً في جنوب سيناء اسمه جبل الطور ومبني في تلك المنطقة كنيسة ويعتقد أن هذا الجبل كان يتعبد عنده موسى عليه السلام ، وهذه الرواية قابلة للتصديق إذا كان التعبد في شبابه وقبل التكليف من ربه وقبل أن يكلمه ربه بحمل رسالته إلى فرعون ، ولنطلق عليها فترة العمل الدنيوي خاصة إذا كانت الوظيفة الدنيوية التي كلف بها في مقتبل حياته في تلك المنطقة ، ومما يؤكد هذا الآيات التي تتحدث عن سيره مع فتاه ومع العبد الصالح فهي تدل على انه يعرف المنطقة حيث يذكر أسماء أجزائها ويتجول فيها رغم بعدها عن المدينة ويتبين ذلك من قول الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف:٦٠-٦٥].

ويظهر جليا من الآيات ان موسى عليه السلام يسير مع فتاه ويعرف وجهته وقصده حيث يريد ان يصل مجمع البحرين للقاء شئ ما فإن تاه فانه وان اضطر ان يقضي حقبا من حياته فسيظل يبحث حتى يصل هذا المكان .

وللمكان صفة وصفت له من قبل جهة ما وغالبا ما تكون الهاماً ربانياً لانه عندما طلب ان يتناولا الطعام قال فتاه : أتذكر عندما آوينا الى الصخرة أي وقفا ليستريحا بعض الزمن ليأخذا قسطا من الراحة فان الحوت (سمكة أعدت لتكون غدائهم) قد أخذ طريقه في البحر عجبا ، يتحدث ويتعجب لان السمكة تحركت ونزلت إلى البحر وهذا يدل على ان السمكة كانت ميتة وجاهزة للطهي او انها مطهية وجاهزة للأكل لانه يتعجب كيف تأخذ طريقها الى البحر .

وهنا يقول موسى عليه السلام هذا ما كنا نبغي أي هذا هو المكان الذي أنا ابحث عنه وأريده بالتحديد، فارتدا على آثارهما قصصا، أي عادا من حيث أتيا بالضبط ليعودا إلى نفس المكان وهذا يظهر أنه كان هناك الهام رباني أخبره ان مكان لقائك العبد الصالح هو المكان الذي يتحرك حوتكم عنده وتدب فيه الحياة وينزل الى الماء ثانية بأمر ربه ، وفعلا عندما وصلا إلى الصخرة وجدا العبد الصالح في انتظارهما ،

وهنا يسكت سياق الآيات عن الحديث عن فتى موسى ويتحدث عن العبد الصالح وعن موسى عليهما السلام وبذلك يكون انتهى دور الفتى وكان موسى عليه السلام صرفه عند لقائه بالعبد الصالح .

ويتم اللقاء المطلوب بالعبد الصالح فيقول له موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ [الكهف:٦٦]. فها هو عليـه السلام وبكل أدب النبوة يطلب منه ان يعلمه مما علمه الله تعالى من سبل الرشاد فأجابه العبد الصالح: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾ [الكهف:٦٧-٦٩].

وقال موسى بأنه سيصبر على ما يراه ولا يفهمه. فاجابه العبد الصالح: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴾ [الكهف:٧٠-٧٣].

وكانت بداية التعامل أن ركبا سفينة ، وبينما هي في عرض البحر احدث فيها خرقا، فوجئ موسى بهذا العمل واحتج بعصبية أخرقتها لتغرق أهلها وهم ممن سيغرق إذا غرقت وهنا أجابه بأنني قلت سلفا انك لن تستطيع معي صبرا على ما سترى مما لا تعلم أسبابه الإلهية ، وهنا تذكر موسى عليه السلام الاتفاق فيما بينهما وطلب منه ان يعذره لهذا الموقف ، وانه لن يكرر مثل هذا الموقف .

ثم تابعا مسيرهما: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾ [الكهف:٧٤-٧٦].

ومرة أخرى وبعد نزولهما من السفينة وجدا غلاما أي فتى لم يبلغ سن الرشد فقتله العبد الصالح فاندفع موسى محتجا بأنك قتلت نفساً زكية بغير نفس ، وهنا عاد العبد الصالح ليذكره بما دار بينهما ويذكره بأنه قال له بأنه لن يطيق ما يرى مما لا يفهم من تصرفات فطلب موسى أن يمهله للمرة الأخيرة وأن يتحمل منه هذه المرة فقط ثم انطلقا: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾ [الكهف:٧٧-٧٨].

وسار بهما الدرب إلى قرية أهلها بخلاء لا يحبون الغرباء وطلبا أن يضيفوهما فلم يلب طلبهما، ومع ذلك رأى العبد الصالح جدارا متصدعا فاعاد بناءه دون تكليف من أصحابه ودون أجر فما كان من نبي الله موسى عليه السلام إلا أن قال : لو أردت لاتخذت عليه أجرا ، وكانت نهاية المطاف بينهما حيث افترقا

بعد ان قام العبد الصالح بتفسير تصرفاته وفق علم الغيب الذي علمه الله وانـه ما تصرف من تلقاء نفسه أبدا ، وقد بين الله تعالى ذلك بقولـه:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ۝٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ۝٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ۝٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ [الكهف:٧٩-٨٢].

ها هو سر تصرف العبد الصالح ، إنه لم يتصرف عن أمره بل بأمر ربه الذي يعلم الغيب فأطلعه الله على الغيب في هذه المسائل وفوضه التصرف وفق ما رآه من علوم الغيب فكان منه ما كان والحكمة هنا ان الله يعطي ما يشاء من علمه لمن يشاء من عباده وانه يكشف لنا من علوم الغيب ما يشاء وكيف يشاء وليس لنافي أمور الغيب إلا ما يعطينا وعلينا أن نصدق وان نؤمن بالغيب خيره وشره وان نفوض أمرنا إلى الله خالقنا في كل حياتنا وان نتصرف وفق شرع الله في كل حياتنا.

ونعود إلى موسى في مدين وقد انقضى الأجل وقرر موسى العودة الى مصر وهو يعرف طريقه ولكنه قدم فردا وسيعود بعائلة، لم تذكر النصوص القرآنية عدد الأولاد ولكنها قالت (أهله). وهذا يعني زوجة وأبناء أي عائلة ولقد خاطبهم موسى بقوله (أمكثوا).
كما انه قدم هاربا ولا يعرف انه في طريق عودته سيكلف بحمل رسالة ربانية الى فرعون وملإه لعبادة الله الواحد الأحد ولاطلاق سراح بني إسرائيل وتركهم وحريتهم في عبادة الله والكف عن تعذيبهم لكي يورثهم الله الأرض التي كتبها لهم وليقضي على فرعون وهامان وجنودهما .
لقد كان من عادات الأقوام السابقة أن يوقدوا النار على رؤوس الجبال ليهتدي بها المسافرون ليلاً بضيائها ونهاراً بدخانها وذلك في الطرق الرئيسية التي تربط المناطق، وتكون المسافات بين هذه النيران مرئية رغم بعدها وكان من عادات أهل الكرم ان يقدموا الطعام عند هذه النقاط للمسافرين، فهذه النقاط كانت علامات واستراحات للمسافرين والمسافر الذي لا يريد أن يمر عليها يمشي بمحاذاتها أي يسترشد بها .

لقد آتى الله موسى حكماً وعلماً وعرف من قومه ما الإسلام وما الدين، ولقد عاش مع صهره في مدين عشر سنوات في ظل دين الله أيضاً. فهذا يعني أنه على دراية تامة بمبادئ الديانة الإسلامية وأنه يطبقها بحذافيرها وأن لديه التصور الكامل للحياة الدنيا والآخرة ويوم البعث والملائكة وأنه ملهم من الله خاصة في ذهابه للقاء العبد الصالح والشيء الذي لا يعرفه هو ان الله تعالى أختاره ليكون الرسول القادم أي أنه كان في تصوره أنه نبي ولم يكن في تصوره أنه سيكلف برسالةٍ من ربه الى فرعون وملإه في طريق عودته الى الأهل.

وقبل أن يصلهم يكون قد كلفه الله بحمل الرسالة ويكون قد دار أول حوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام ، حيث بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء:١٦٤].

لقد أخبرنا القرآن الكريم بقصة بني إسرائيل كاملة مقسمة الى حلقات كل حلقة منها أو اكثر في سورة ، ولقد وردت حلقات منها في سور كثيرة من القرآن الكريم وكانت الحلقة أو الحلقات التي ترد في سورة معينة منسجمة مع تلك السورة ومتناسقة معها وكانت تشترك مع باقي آياتها في تصوير الموضوع الرئيسي، وقد يظهر لمن لا يتفكرون في كتاب الله أن هناك تكراراً في هذه الحلقات، ولكن المتمعن يرى

أنه لا تكرار فيما ذكر، بل فيه تكامل للموضوع، وهنا نريد أن نعرض الحلقات التي تصور أول حوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام في طريق عودته من مدين إلى الأهل في مصر حيث كلفه الله تعالى بحمل الرسالة.

وردت حلقات هذا الحوار في سور كثيرة منها سورة طه وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القصص وسورة النازعات.

غادر موسى بأهله مدين من خلال فلسطين الى مصر حيث يعرف الطريق نتيجة قدومه سابقا ولعمله في هذه المناطق أيام شبابه الأولى، وكانت الليلة باردة فرأى ناراً فأخبر الله تعالى عن حاله بقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص:٢٩]، وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه:٩-١٠]، وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل:٧].

ويتضح من الآيات أنها كانت ليلة باردة وان موسى عليه السلام قال الثلاث مقولات التي وردت في الآيات الثلاث ويخبر الله تعالى عنها فالأولى التي ورد في أولها ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ [القصص:٢٩]، فهي تفيد تعقيب هذا الحدث على قضاء العشر سنوات، وقال من ضمنها امكثوا ويظهر أنهم لم يسمعوا هذه الكلمة فكرر موسى لأهله الجملة التي وردت في سورة طه وكرر كلمة امكثوا أي قفوا ولا داعي لأن تلحقوا بي وإن كان بكم شئ من الخوف فلا مبرر له، وتوقفوا فعلا ثم قال ما ورد في الآية الثالثة وهي جملة مطمئنة ليس بها إلا طلب الدفء ومعرفة الأخبار ، وبعد أن توقف أهله سار منفرداً في اتجاه النار التي رأى.

فلما اقترب من النار ناداه رب العزة ولقد عرفنا الله بذلك وبالنداء وبمكان النداء وببركة من في منطقة النداء بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ [طه:١١]. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل:٨-٩]. ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠]. ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات:١٥-١٦].

ففي الآيات (١٥، ١٦) من سورة النازعات يخبرنا الله تعالى أن نداءه لموسى عليه السلام كان في واد مقدس اسمه (طوى) يؤدي الى جبل الطور . وفي الآية (٣٠) من سورة القصص يحدد رب العزة مكان النداء من شاطىء الواد الايمن أي الشاطىء الذي يسير عليه موسى وعلى يمين موسى تقع الشجرة ، وان النداء كان من البقعة المباركة من الشجرة نفسها وهي بجانب جبل الطور كما توضح الآيات (٤٤ ،٤٦) من سورة القصص .

باقي ما ذكر من الآيات هو النداء بحد ذاته من رب العزة إلى موسى، حيث ناداه قائلا له: (يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ، يَـٰمُوسَىٰٓ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ، يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) .

فوقف موسى ﷺ منصتا لهذا النداء الذي يخرج من النار ولا يمكن لأحد ان يتوقعه. إنه يؤمن بالله حق الإيمان حيث أنه من بيئة مسلمة أصلاً ، وآتاه الله حكماً وعلماً، ورافق العبد الصالح فترة وأطلعه على ان هناك في علم الغيب الكثير ، ثم عاش في بيئة مسلمة ومع هذا فإنه لم يتوقع أن يكلمه الله لأن الله تعالى لم يكلم أحداً قبله.

بعد هذا النداء يقول رب العزه : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٧].

كان موسى ﷺ منصتاً بكل جوارحه لما عنده من إيمان مسبق وهاهو يتلقى من ربه مباشرة، ولقد خلع نعليه وعرف من ربه قرب قيام الساعة وانه يجب على كل إنسان أن يعد لها من العبادات وفعل الخير والبعد عن الكفار الذين يتبعون أهواءهم وهم أهل الغواية والبعد عن مالا يرضي الله وما يؤدي الى الهلاك يوم الحساب، وبالطبع فقد أجاب على سؤال ربه عما يحمله في يمينه بقوله: ﴿ قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه:١٨]. فاجابه رب العزة بقوله : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ ﴾ [النمل:١٠] وهو قوله: ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ ﴾ [القصص:٣١]، ثم أعقب: ﴿ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٩].

وردت هذه المناداة في الآيات: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:١٠] ، ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ [القصص:٣١] .

فأطاع موسى ربه وألقى العصا فرآها تهتز كأنها جان فخاف موسى ﷺ من الأفعى وضخامتها فأدار ظهره وهرب دون ان يعقب بأي كلمة لانه ليس مطلوب منه أي إجابة إلا أن يلقيها وبين الله ذلك بقوله : ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه:٢٠] .

فأما الجملة التي وردت في الآيتين (النمل:١٠) (القصص:٣١)، فإنها تصف ما بدر من موسى ﷺ، عندما رأى العصا تتحول إلى أفعى ضخمة وتهتز كأنها جان فإنه: ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ [النمل:١٠]، وعندها ناداه الله تعالى بقوله في نفس الآيتين : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ

ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النمل:١٠-١١]. فوقف موسى وكرر الله نداءه: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ [القصص:٣١].

وعند هذا عاد موسى عليه السلام وزال عنه هول المفاجأة ورعب الرؤيا واطمأن بأن الله يدبر هذا وهو القادر على كل شئ فلو أراد به سوءا فلا مرد له ولا هرب منه ولو أراد به خيراً فلا راد له وهو مطمئن إلى ربه وهنا قال الله تعالى: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه:٢١]. وأمسك موسى عليه السلام عصاه وعرف ما هذه العصا وكيف تستخدم وأنها إعجاز كبير من رب العالمين يحمله بيده يرد به كيد الظالمين .

ودخلت السكينة على قلبه أنه في الحضرة الإلهية وعلى اتصال مباشر برب العالمين يكلمه مباشرة دون وحي، وها هو يقف في الحضرة الإلهية لا يعرف ماذا يعمل أو ماذا سيطلب منه أن يعمل ، انه مستمع منصت مستسلم لربه فيأتي قول الله تعالى: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:٢٢-٢٤].

وينبهر موسى لما سمع ولا يعقب كأنه من شدة انبهاره يستفسر عما سمع فيكرر الله قوله بعد أن ظهرت الرهبة على ملامح موسى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص:٣٢].

وهنا كانت المفاجأة التي لم يعقب عليها موسى شيئا بل مازال يبدي انبهاره. ثم يقول الله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل:١٢]. ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾[الشعراء:١٠-١١].

وكانت المفاجأة الكبرى لموسى عليه السلام إذ أن الله تعالى يكلفه مباشرة دون وساطة بحمل رسالة إلى فرعون وقومه وأن هذه الرسالة تحتاج إلى مجهود كبير وإلى وقت طويل وإلى جدال وإلى نزال والى محاولات شتى، فالله يخبره أنه سيؤيده بتسع آيات رأى منها اثنتين، إنه موضوع كبير عظيم لذا فان موسى عليه السلام حريص على تمام هذا الموضوع كما يريده الله، إنه يحرص على إيصال أمر ربه أكثر من حرصه على نفسه وحرصه على أن يكون الإيصال أفضل ما يكون، وإن به لثغة لسان وتعلثماً في الكلام يؤدي إلى توقف أحيانا، وضيق في النفس يؤدي إلى توقفه عن الكلام كليا وهذه الصفة الجسدية تجعل المستمع لا يصغي تماما إلى المتكلم ولا يكون قول المتكلم الذي فيه هذه الصفات ذا أثر بليغ على المستمع .

ويريد موسى عليه السلام أن يكون الأثر كبيراً على المستمع لينصاع إلى الحق وإلى اتباع أمر ربه، وحامل هذه الرسالة يجب أن يكون سليماً فصيح اللسان بليغ الكلام له تأثير على من يستمعون إليه وهذه الصفات في أخيه هارون .

ومن جهة أخرى فإن موسى قتل نفسا من آل فرعون ويعلم انه مطلوب، وهناك احتمال كبير أن يقتل ، وإذا قتل فمن يتمم حمل الرسالة ومن يقوم على إيصالها.

إنه لا يخاف على نفسه الموت بل يخاف على الرسالة ألا تصل كما يريدها الله، فأجاب موسى ربه: ﴿ قَالَ : رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾ [الشعراء:١٢-١٤] ، فيأتي الرد من رب العزة : ﴿ قَالَ: كَلَّاۖ ﴾ [الشعراء:١٥].

وفي هذه الإجابة ردع لموسى وكل ما يتوهم من سلبيات قد تحصل بسبب لسانه وبسبب ذنبه لا تساوي شيئاً أمام القدرة الإلهية، وهنا يستسلم موسى لربه ويعود يطلب منه مع الانصياع لأمره بقوله : ﴿ قَالَ : رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾ [طه:٢٥-٣٥].

إن موسى عليه السلام سيذهب للمهمة ولكنه يريد أن يشرك أخاه فيما هو فيه من خير ليرفع من شأن اخيه عند ربه ويضمن له رضى الله ، وهذه صفة إيجابية حسنة ، ويظهر من الآيات أنه يريد ان يشاركه أخوه في التسبيح والعبادات والطاعات لرب العالمين ، فيأتي الرد من رب العزة: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ [النازعات:١٧-١٩].

فيعود موسى عليه السلام مؤكدا انصياعه ويقول راجياً مستعطفاً ربه مظهراً أن هدفه من هذا الطلب هو تمام الرسالة وحسن أدائها ولكي يكون قويا في حجته وفي منطقه أمام أعداء الله ، وان رضى الله وقهر أعدائه وتمام رسالة ربه هي أكبر همه، وهو لا يرفض الذهاب بل يريد أخاه سنداً وساترا له عندما يضطر لذلك فيقول : ﴿ قَالَ : رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص:٣٣-٣٤].

فيأتي رد رب العزة: ﴿ قَالَ : قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٣٦]. ﴿ قَالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص:٣٥].

﴿ قَالَ: كَلَّاۖ : فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:١٥-١٧] .

وتظهر البشرى على وجه موسى عليه السلام إلى ما استجاب له ربه فيكمل الله تعالى حديثه لموسى عليه السلام :

﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٣٧-٤٤].

أدرك موسى عليه السلام تمام الإدراك أن الله تعالى يرعاه منذ طفولته ويهيئه لهذه المهمة في هذا التوقيت، كما يعلم عليه السلام أن هناك أموراً كثيرة من حياة الإنسان يكون فيها الإنسان مسيراً ومثل هذه الأمور لا يحاسب عليها كلونه وطوله وكافة ما له من صفات خلقيه، وأن هناك أموراً كثيرة هو مخير في التصرف فيها كفعل الخير والشر والحلال والحرام ، وهذه هي التي يحاسب عليها الإنسان .

ولو نظر موسى عليه السلام الى نفسه لوجد ان معظم أمور حياته التي كان يظن أنه مخير فيها كانت من تدبير رب العالمين ، لذلك فإنه حامل هذه الرسالة وفي حمل هذه الرسالة مشقة كبرى ولكن فيها المتعة لأن فيها الثقة الإلهية التي هي أقصى المراد في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة ومع أن فيها ومعها قمة المشقة إلا أنها تهون بجانب رضوان الله .

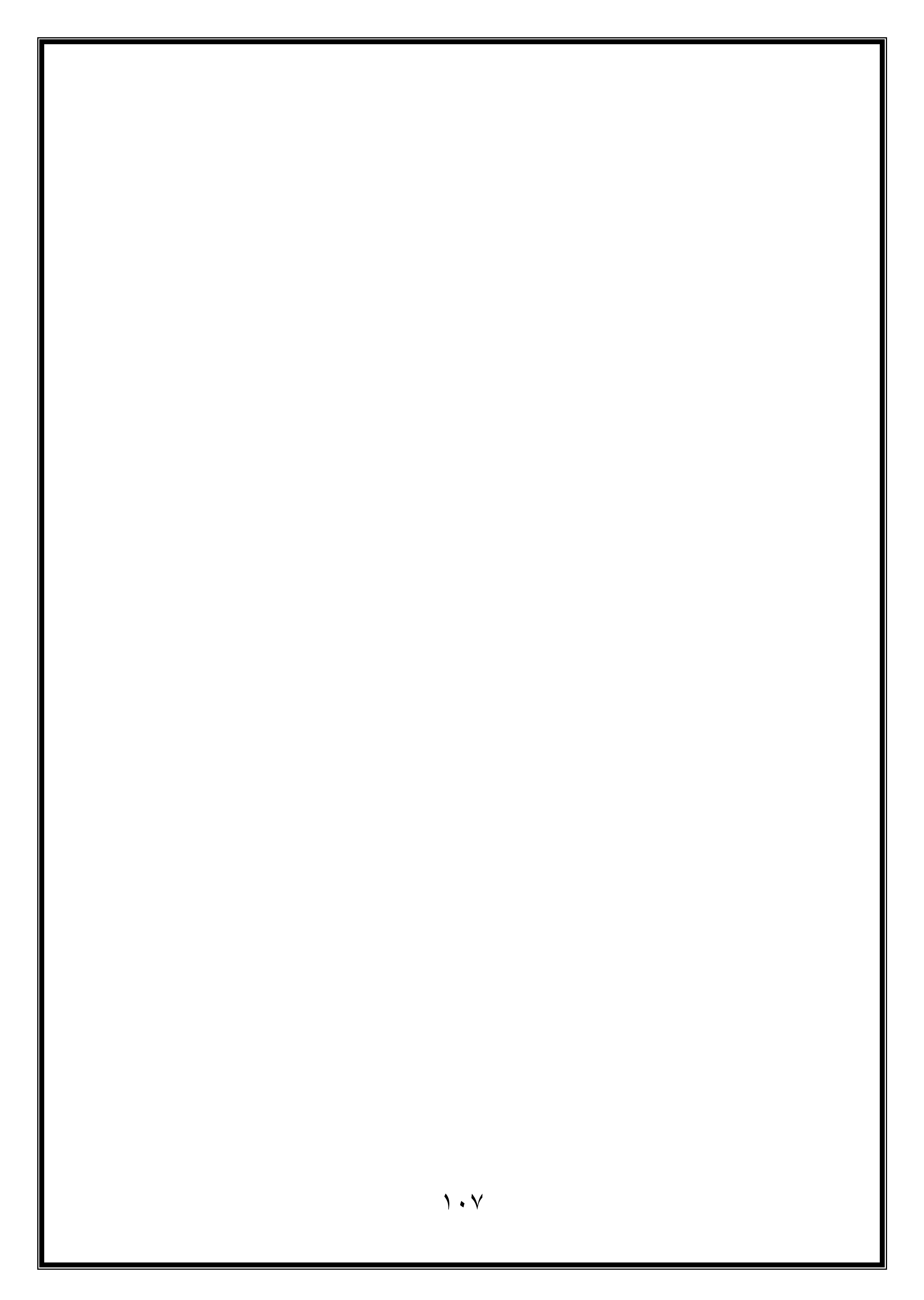
لقد شرح الله له تاريخ حياته منذ وضعه في التابوت فقذفه في اليم وهو الطفل الذي لا يقدر على شئ فلولا رعاية الله لما نجا، ولقد وقع في أيدي أعدائه فقاموا على تربيته ثم دخل في قتال أدى إلى ارتكاب فعل القتل غير المتعمد ليهرب من هناك إلى مدين ليعيش في ظل نبوة حديثة العهد وإسلام حديث العهد، وقبل هذا يجعل له لقاءً بالعبد الصالح ليطلعه على ما هي أنباء الغيب وارتباطها بالحاضر وأثرها عليه، إن هذه الأمور لا يمكن أن تحصل صدفة بل هي بتدبير خالق هذا الكون، الذي قال وصدق فيما قال له : ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ [طه:٤١].

كان هذا الخطاب لموسى عليه السلام وهو أول كلام يجري بين موسى وربه، ثم انصرف الى أهله واجتمع بأخيه هارون وحدثه بما كان .

وأوحى الله إلى هارون بمشاركة أخيه موسى بالمهمة الموكلة إليه وبعد اجتماعهما معاً أوحى الله لهما بمهمتهما، ويطلبان العون من الله بقولهما: ﴿ قَالَا : رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾ [طه:٤٥].

فيجيبهما الله تعالى مطمئنا حاسما الموقف مذكرا إياهما بقدرته : ﴿ قَالَ : لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِىَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه:٤٦-٤٨].

وعند انتقالهما وتبليغهما الرسالة يقوم الطاغية بسؤالهما موجها حديثه الى موسى: ﴿ قَالَ: فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٩] .



الفصل الخامس "دعوة الحق في مصر"

تلقى موسى ﷺ من ربه التكليف ووعاه وعاد إلى أهله حيث قال لهم امكثوا فمكثوا. بهذا التكليف وبكل الانشراح وبكل ثقة بربه وبنفسه وبكل غبطة سار موسى بزوجته وأولاده في اتجاه الأهل لتبليغ رسالة ربه.

سار موسى مبتدئاً رحلته من أرض مدين في اتجاه الغرب عبر الوديان ليدخل إلى فلسطين ثم منها إلى مصر. وفي ذلك الزمان كانت (بررعمسيس) هي عاصمة رمسيس الثاني (فرعون موسى)، ويستطيع من يعرف خارطة المنطقة أن يتخيل الطريق التي يتوجب أن يسلكها من أراد أن يعبر فلسطين إلى سيناء ثم إلى مصر خاصة من كان يرافقه زوجة وأولاد صغار و أغنام ، نقول أولاد صغار لأن الله تعالى بين انه غادر مدين حين قضى الأجل أي مدة الاتفاق مع الشيخ الكبير وهي عشر سنوات فقط وبذلك فان عمر اكبر أولاده يكون تسع سنوات وما تبقى يكون اصغر من ذلك .

لم يذكر الله تعالى أولاده بالاسم لأنه لا ضرورة لذلك ويستنتج من الآية أنهم اثنان على الأقل لأنه خاطب أهله (زوجته وأولاده) بالجمع وقال : (امكثوا) . والجمع يدل على ثلاثة فاكثر وبذلك فإن أبناؤه كانوا اثنين فأكثر .

وكذلك فان الله تعالى بين ذلك بقوله: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٨]. فالله تعالى يقول (آل موسى) ، وهذا يعني ذريته ومنها الأبناء والأحفاد وبذلك فقد كان له أبناءً .

وقد ورد ذكر أبناء موسى ﷺ في ((الكتاب المقدس)) بما يلي :

((**وقال الرب لموسى في مديان اذهب وارجع إلى مصر، لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك . فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر، وأخذ موسى عصا الله في يده**)) [سفر الخروج ـ الإصحاح الرابع] .

وكذلك فقد ورد ذكر أبناء موسى بما يلي :
((**وأتى يثرون حمو موسى وابناه وامرأته إلى موسى في البرية حيث كان نازلاً عند جبل الله . فقال لموسى أنا حموك يثرون آت إليك وامرأتك وابناها معها**)) [سفر الخروج ـ الإصحاح ١٨] .

وأما الأغنام فهي ما وهبه حموه من غنم جزاء خدمة آخر سنتين؛ حيث كان الاتفاق على ثماني سنوات وما زاد فمن عنده ، فقضى عشر سنوات ولقد ذكر الحديث الشريف ما أخذ من مكافأة (أغنام) .

وكأي شخص يرافقه ما رافق موسى ﷺ فانه سيتجنب صعود الجبال ونزولها إلا ما اضطر لذلك حيث في الدخول إلى فلسطين فلا بد من أن يمر بين الجبال. وأما في فلسطين نفسها فإن الجزء الجنوبي منها يخلو من الجبال حيث ان الجبال في النصف الشمالي ، ويحيط بجبال فلسطين السهل الساحلي ، ويقع على البحر الأبيض المتوسط وهو ضيق في الشمال ويتسع كلما اتجهنا إلى الجنوب والسهل الداخلي ويقع على نهر الأردن وهو ضيق جداً في الشمال ويتسع كلما اتجهنا إلى الجنوب ثم يلتف حول البحر الميت من الجهة الغربية ثم يتسع ويلتقي بالسهل الغربي جنوب الخليل ليشكلا معا ما يسمى صحراء النقب التي تمتد إلى ميناء العقبة .

ويستطيع المرء أن يتخيل طريق رحلة موسى ﷺ موازيا لسلسلة الجبال داخل فلسطين إلى أن يصل إلى أقصاها الجنوبي قريباً من بئر السبع، ثم يتجه من هناك غربا في اتجاه مصر مرورا برفح والعريش حيث إن ما يسمى صحراء سيناء وهي سهلية التكوين في الجزء الشمالي وجبلية التكوين في

معظمها من الجهة الجنوبية . وبذلك فان طريق موسى عليه السلام سيكون موازيا للساحل الشمالي من سيناء ومن الشرق إلى الغرب إلى أن يصل إلى بور سعيد ثم يتجه من هناك حيث يشاء متبعا الطريق المرسومة للتنقل بين المدن هناك .

إن الغاية من هذا هي معرفة الطور الذي كلم الله موسى عليه السلام عنده، ان الكتب لم تحدد مكانه ولم تحاول ذلك ، ويوجد الآن جبلان يحمل كل منهما اسم جبل الطور: أحدهما جنوبي سيناء ويقال أن موسى عليه السلام كان يتعبد عنده وتوجد بلدة بجانبه تسمى مدينة الطور ومقام في تلك المنطقة كنيسة للمسيحية، والآخر في القدس ويعرف باسم جبل الطور، فأي هذين الجبلين هو الذي كلم الله موسى عنده (قربه).

إذا تتبعنا الطريق التي يسلكها أي مسافر في ذلك الزمان وجدنا أن الطريق يمر جنوب طور القدس، ولا يمر بطور سيناء بل يبعد عنه ما يزيد عن خمسمائة كيلو متر.

هناك أمر آخر نود معرفته وهو ما ذكره الله في كتابه العزيز باسم سيناء وما هو المقصود بهذه التسمية .

لو نظرنا إلى خارطة العالم وتمعنا في التضاريس الطبيعية من جبال وسهول وبحار وانهار وصحارى لوجدنا أن هذه التضاريس تكاد تميز مناطق معينة بأن تفصل مناطق عن أخرى وتشكل فواصل طبيعية بين مختلف المناطق .

فمثلاً نجد أن البحر الأبيض المتوسط هو الفاصل الطبيعي الذي يفصل إفريقيا عن أوروبا والبحر الأحمر يفصل إفريقيا عن آسيا وجبال ا لأورال هي الفاصل الطبيعي بين قارة آسيا وقارة أوروبا إضافة إلى البحر الأسود وبحر إيجه .

ولو نظرنا إلى أي قارة بمزيد من التدقيق وجدناها تنقسم إلى عدد من المناطق تختلف في طبيعتها عن بعضها ونجد أن هناك فواصل طبيعية فيما بينها ، وبالطبع فان هذا لا يعني أن طبيعة كل دولة تختلف عن الأخرى وذلك لان أهل السوء جزءوا المناطق إلى دول ثم إلى دويلات أصبح عددها كبيراً ويكاد يكون أضعاف التكوين الطبيعي للمناطق .

لقد وردت في كتاب الله تعالى كلمة سيناء وكلمة سينين ويراد بهما المنطقة نفسها كما تذكر كتب التفاسير، ولم ترد كلمة فلسطين المعروفة حالياً التي هي تسمية حديثة قياساً بعمر الزمن إضافة إلى أنها لم تكن مستخدمة أيام سيدنا موسى عليه السلام، ويقال حاليا سيناء لذلك الجزء الشرقي الشمالي من جمهورية مصر، فهل هي المقصودة بكلمة سيناء التي وردت في كتاب الله؟ أم أنها فلسطين إضافة لسيناء المصرية الحالية وأنهما كانتا جزءاً واحداً يحمل اسماً واحداً في السابق؟

لنلق نظرة على التكوين الطبيعي لفلسطين وسيناء كما هي حالياً، إن طول فلسطين من الشمال إلى الجنوب يقرب من أربعمائة كيلو متر ومتوسط عرضها يقارب الستين كيلو متر ، وأما طول سيناء من الشمال إلى الجنوب فهي في الجزء الشرقي تقارب مائتي كيلو متر وكلها مشتركة مع فلسطين وفي الجزء الشمالي من سيناء وهو الجزء الأوسط من فلسطين فان أرض سيناء هي امتداد لأرض فلسطين وهذا يكون في منطقة رفح والعريش .

هذا في منطقة الساحل الشمالي من سيناء ثم ما ان نتجه جنوباً حتى يبدأ بروز جبال في سيناء يقابلها صحراء النقب في فلسطين بشكل شبه بارز للعيان تشكل حدودا طبيعية وهذه تقريبا ثلثي المسافة المشتركة فيما بينهما .

ولو نظرنا إلى فلسطين وسيناء كقطعة واحدة وحاولنا تحديدها وبيان ارتباطها السابق والذي لا يختلف عن الحالي إلا في وجود قناة السويس التي لم تكن موجودة سابقاً، حيث تم حفرها سنة ١٨٦١م.

إن هذه القطعة من الأرض يحدها جبل الشيخ في الجزء الشمالي الشرقي منها وينبع منه نهران الأول يتجه غربا ليصب في البحر الأبيض المتوسط والثاني يتجه جنوبا حيث يمر ببحيرة طبريا ثم يتجه جنوبا ليصب في البحر الميت (بحيرة لوط) وهذه الأنهار تشكل حاجزا طبيعيا لهذه القطعة من الأرض عن ارض الشام .

وأيضاً فانه من الجهة الشرقية حيث نهر الأردن كما ذكرنا وبحيرة طبريا والبحر الميت ووادي عربة هي معا تشكل امتداداً لحفرة الانهدام كما يقال في التكوين الجغرافي للكرة الأرضية والتي هي امتداد للبحر الأحمر وخليج العقبة ،فلولا بعض الارتفاع في الأرض في منطقة العقبة هو عدة أمتار فقط عن مستوى سطح البحر لغمر البحر هذه المنطقة شمالا إلى بحيرة طبريا وكانت امتداداً لخليج العقبة ، وهذه الحفرة أو الأغوار تنخفض مسافة (٣٩٢م) تحت سطح البحر وهي تشكل فاصلاً طبيعياً بين هذه المنطقة وما شرقها من الأراضي إضافة لوجود سلسلة جبال الشراة في الجزء الجنوبي من الأردن والتي يقابلها سهل واحد متصل في فلسطين هو صحراء النقب .

كما أن هناك سلسلة جبال تقع شرق قناة السويس وهي تشكل حدوداً طبيعية لهذه المنطقة، هذه السلسلة ممتدة من الشمال إلى الجنوب ويقع في مصر إلى الغرب منها سهل ممتد على طولها وهو الذي تم حفر قناة السويس خلاله ، ويتم العبور من شرق هذه السلسلة إلى غربها عبر ثلاثة معابر، الشمالي وهو الطريق الساحلي وممران بين الجبال أحدهما يسمى ممر متلا والآخر يسمى ممر الجدي، مما يعني وجود فاصل طبيعي لهذه القطعة من الأرض عن مصر.

يحد هذه القطعة من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب البحران وهما خليج العقبة وخليج السويس وبذلك فإن هذه القطعة محاطة بالمياه من كل الجهات إلا من منتصفي جهتين، منتصف الجهة الشرقية وهو مرتبط بآسيا من جنوب البحر الميت إلى العقبة ومنتصف الجهة الغربية وهو ارتباطها بأرض مصر ، ومن هنا فانه يمكن اعتبارها قطعة مستقلة تربط آسيا بإفريقيا وتستحق تسمية مستقلة ربانية وتعريفاً ربانياً بها وهي الممر أو المعبر أمام الهجرات السكانية القديمة من آسيا إلى إفريقيا حيث بدأت عمارة الأرض في آسيا وذلك قبل اختراع السفن والطائرات ، أيام كانت بهيمة الأنعام هي الركوبة الوحيدة ، فلا بد من المرور بها للمهاجرين المتجهين إلى قارة إفريقيا .

هذا الوضع يؤيد إلى حدٍ ما إعطاء هذه القطعة مسمى واحداً وذلك من خلال الوضع الجغرافي لها والتاريخي للمرور بها واستخدامها وهي حلقة الوصل بين قارتين، لذلك فان لها أهمية تجارية كبيرة وهذا ما رأيناه من علاقة تجارية ظهرت جلية واضحة في سورة يوسف وكذلك في مواضع أخرى من كتاب الله .

كذلك يمكن تقسيم هذه القطعة إلى جزأين عند اللزوم بالفاصل الطبيعي بين صحراء النقب وما يوازيها من سلسلة جبال في صحراء سيناء تشكل فاصلا طبيعياً عند اللزوم .

هذا ما حدا بمصر القديمة أن تكون دولة واحدة مع هذه البقعة كلها خلال التاريخ المعروف وهو (٣٠٠٠) سنة قبل الميلاد وحتى الاستعمار الروماني الذي استعمرهما معاً ومع مجيء الدولة الإسلامية بقيت كل من مصر وفلسطين في وحدة واحدة خلال حكم الإسلام ولم ينفصلا إلا في عهد متأخر من حكم العباسيين، ونرى أيضاً أنه بعد الاحتلال الصليبي فان الناصر صلاح الدين الأيوبي هو الذي حررها وهذا يقال سابقاً بلغة ذلك العصر، وأما بلغة هذا العصر فهو الرئيس المصري وجيشه الذين حرروا فلسطين من الاحتلال الصليبي عندما تسلحوا بالإيمان.

لنبحث في كتاب الله عما يؤيد وحدة التسمية هذه وأن المقصود بسيناء أرض جزؤها الشرقي فلسطين وجزؤها الغربي سيناء وحيث وردتا في كتب التاريخ وفي الآثار تحت مسمى واحد. قال الله في كتابة

العزيز ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ [الطور:١] ، أي انه يقسم بالطور لأهميته وبالعودة إلى كتب التفاسير فهو جبل الطور الذي كلم الله عنده سيدنا موسى عليه السلام.

وقال تعالى في سورة التين : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين:١-٢]، إن الله تعالى يقسم بالتين والزيتون ويتمم القسم بطور سينين ، وبذلك حدد مكانه في سينين؛ وهي سيناء كما تقول كتب التفاسير. وقال تعالى: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٠] .

جاء في ((**تفسير ابن كثير**)) (ص ١٦- الجزء الخامس) : وقوله: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ يعني الزيتون ، وطور سيناء هو طور سينين وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون .

قال رسول الله ﷺ : ((**كُلوا الزيت وادَّهِنوا به فإنه من شَجرة مباركة**)) .

وقال ﷺ : ((**إئتدموا بالزيت وادهنوا به فانه يخرج من شجرة مباركة**)) . [رواة الترمذي وابن ماجه] .

والآية (٢٠) من (سورة المؤمنون) تبين أن الزيتون ينبت في طور سيناء وما حوله من الجبال وهذا كائن في جبال فلسطين ومنذ نزول الآيات حتى يومنا هذا والى قيام الساعة بإذن الله ولذلك فان الاحتمال الأكبر أن يكون طور سيناء في فلسطين .

ولنأخذ الآن قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم:٥٢] ، أي أن الله تعالى نادى سيدنا موسى بن عمران من جانب جبل الطور الذي كان يقع على يمين سيدنا موسى عندما كلمه الله ويظهر مكانه جليا من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه:١١-١٢] ، وهنا يبين الله تعالى قدسية المكان وانه مكان مقدس في واد بجانب جبل الطور اسمه طوى ، وان هذا الوادي مقدس .

وتظهر هذه القدسية في آية أخرى إذ بعد خروج بني إسرائيل من مصر يقول الله تعالى على لسان سيدنا موسى : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٢١] .

وأيضا فإن الله تعالى بين أن مكان ندائه لموسى عليه السلام هو في أول موضع نار يراها المسافر بمجرد دخوله فلسطين من مدين علي طريق السفر إلى مصر، ويتضح ذلك من قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص:٢٩] .

إن الآية تبين انه بمجرد الخروج من أرض مدين ودخول هذه الأرض وعند أول نار دالة للمسافرين كما ظنها موسى عليه السلام فإنها كانت النار التي كلم منها موسى وجانب الطور الذي نودي عنده موسى وهذا لا يكون إلا عند أقرب جبال إلى مدين (في الأردن) وهي الجزء الجنوبي من جبال فلسطين.

ومن مجموع الآيات يتضح أن جبل الطور هو وما حوله من الجبال تنبت الزيتون بشكل دائم، وهذا في جبال فلسطين وأيضا فانه يقع بجانب ا لواد المقدس الذي هو ارض مقدسة وهذا أيضا في فلسطين لأنها هي الأرض المقدسة والمباركة وأورثها أنبياء الله داود وسليمان. وبذلك فانه بنص الآيات فان جبل الطور الذي كلم الله عنده موسى عليه السلام هو أحد جبال فلسطين وفي الجزء الجنوبي من سلسلة جبال فلسطين .

وهذا يثبت أيضا أن كلمة سيناء يقصد بها فلسطين إضافة لسيناء في المسميات الحديثة وأن سيناء هي التسمية الربانية للاثنتين معا وان الجزء الشرقي منها يسمى حديثا فلسطين وأما تسميته الربانية فإنها الأقصى كما سيرد فيما بعد أو الأرض المقدسة .

وهناك الأحاديث الشريفة التي تثبت أن هناك قدسية دينية للمسجد الأقصى المعروف حاليا والذي هو مكان المسجد الأقصى الذي بنته الملائكة وهو ثاني بيت بني في الأرض ولا يوجد أي حديث يشير إلى وجود قدسية لجبل أو مسجد أو بقعة فيما يسمى حالياً صحراء سيناء، وأما المسجد الأقصى فقد جاء في الحديث الشريف:

((**لا تُشد الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا**)) [رواه البخاري ومسلم] .

وأيضا فقد قال الله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١].

ولقد خاطبنا الله تعالى بأصول اللغة العربية وبالمسميات الأصلية، وبذلك فان كلمة سيناء حيثما وردت في النقوش التاريخية المصرية تعني كامل الأرض التي هي فلسطين وسيناء معا وانهما كانتا معا ومصر في حكومة واحدة منذ فجر التاريخ رضي من رضي وغضب من غضب .

عاد سيدنا موسى عليه السلام وهو يحمل تكليف رب العالمين لكل من بني إسرائيل ولفرعون وقومه ، عاد لإبلاغ دعوة الحق للجميع لأنها دعوة الحق والإسلام وليفصل بين الطرفين لأن الخلاف وصل بينهما درجة لا تراجع ولا صفاء بعدها ولا مجال إلا للمفاصلة والتباعد.

عاد موسى عليه السلام بالمهمة المزدوجة حيث بين الله تعالى مهمته لفرعون وقومه بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٨].

وكذلك قال الله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء:١٠-١١].

يلخص الله تعالى بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه بهذه الآيات الكريمات فما كان من فرعون ومن معه إلا أن استكبروا واستعلوا وقالوا ساحر ولم يتعظوا بما لدى موسى عليه السلام من آيات كالعصا وغيرها من الآيات التسع التي رأوها بأعينهم فماذا يريدون أكثر من هذه الأمور يرونها بأعينهم، ولم يروا منها إلا أن قوم موسى وهارون كانوا من خدم فرعون ، هل يؤمنون لرجل من عبيدهم؟

وكذلك قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس:٧٥-٧٦].

فكان السحر مهربا لهم كما كان مهرباً لغيرهم من الأقوام الذين ضلوا ولا حجة لهم على أنبياء الله غير كلمة لا يمكن إثباتها من قبلهم وهو اتهامهم بالسحر.

إن فرعون ومن اتبعه كانوا من المفسدين ولقد ظلموا أنفسهم هو وأتباعه من بني إسرائيل وغيرهم حيث بين الله أكبرهم سوءا وهو قارون ولقد ذكر الله ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٣-٢٤]. ولقد كان لفرعون الأثر السيئ على قومه الذين لم يؤمنوا وما آمن منهم إلا القلة القليلة ، ولقد بين الله أثر فرعون السيئ على قومه بقوله: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:٧٩].

ولقد شاركه معظم قومه الكفر والاستعلاء رغم عطاء الله الكبير لهم إذ جعلهم اكبر قوة في الأرض وأرسل لهم من الخيرات ما يفتخرون به مما جعل لهم من جنات وعيون.

إن الجزء الأول من مهمة موسى عليه السلام هي تجاه قومه أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وقومه كل بني إسرائيل إن استطاع وليست الفئة القليلة فقط ، وتلك الفئة تعهدها الله تعالى بقوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥].

ملاحظة: هذه الآية بينت أحد ألأهداف الرئيسية لبعثة موسى عليه السلام وهو توريث الأرض المقدسة للذين قاوموا دعوة فرعون للكفر وأوذوا واستضعفوا في سبيل الحفاظ على دين الله.

إن على موسى عليه السلام أن يدعو قومه إلى الله وهؤلاء الذين أضلهم فرعون، ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ

ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [إبراهيم:٥]، ليخرجهم من ظلمات الخرافة والأوهام وسلطة فرعون الذي انتحل لنفسه الألوهية ومن ظلمات العيش وظلم العباد.

هل يخرج عن دين الله من كان له نبي مرسل وهم القوم الذين يدونون أسماء آبائهم وأجدادهم حتى يعقوب وهو نبي الله ويعرفون أن لهم أنبياءَ مرسلين من الله فما بالهم يؤمنون بأن فرعون اله ، هل نسوا أن هناك الهاً حقاً لهذا الكون.

قرر رب العزة المفاصلة بين بني إسرائيل وقوم فرعون، وكانت من مهمة موسى عليه السلام أن يرسل معه بني إسرائيل إلى الأرض التي كتب الله لهم وان يتوقف فرعون عن تعذيبهم، ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ [طه:٤٧].

وقال تعالى أيضا في ذلك: ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:١٦-١٧] .

وقال تعالى أيضا مبينا مهمة موسى إلى فرعون وملإه والى المفاصلة بينهم وبين بني إسرائيل : ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف:١٠٣-١٠٥].

إن الله لا يترك أحدا يقيم عليه الحجة، بل الله يقيم الحجة على الجميع ؛ وذلك لعدله ورحمته وان فرعون وأمثاله هم ظالموا أنفسهم وان الله لا يظلم أحدا ، وقال تعالى مبينا ظلم فرعون في هذه الآيات: (فَظَلَمُواْ بِهَاۖ)، أي ظلموا أنفسهم وبعث لهم رسولا مع آيات بينات واضحات تبين لهم وجود الله الحق بالبراهين ويكشف لهم زيف ما هم فيه.

وصل موسى عليه السلام إلى الأهل مع زوجته وأولاده وأغنامه الكثيرة وأول عمل قام به هو إبلاغ أمر ربه وبشراه لأخيه هارون الذي هو مكلف معه بتبليغ رسالة الله وان الله تعالى اتخذه نبياً مع أخيه موسى يشد عضده.

هذا مع أسرته، وأما بنو إسرائيل فانه مكلف رسمياً بدعوتهم إلى الحق والى دين الله، ولكي تكون دعوته تامة فلابد من إظهار معجزاته وهي العصا وبياض اليد وهي أمور لا بد أن تنتقل إلى فرعون بسرعة عمل مخابراته التي بلغته قتل نفس في اليوم نفسه رغم أن ذلك كان سراً، وأنه وقع في غفلة من أعين الناس، فما بال دعوة جهرية بأمر الله فيها من الإعجاز ما لم يتخيله إنسان قبل ذلك وفيها من أن الله تعالى كلم موسى تكليماً، وأن الأخبار ستنتشر بسرعة ولا بد أن الحاسدين سيحاولون إيذاء موسى وهارون، ولكن عناية الله تحيط بهما ومعهما معجزة ربانية وهي الحية العصا التي تحرسهما بأمر ربها، ولن يتمكن أحد منهما مهما كانت قوته، قال الله تعالى في ذلك: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص:٣٥].

فهما لن يتوجها إلى فرعون دون أن يطمئنا إلى عنصر القوة معهما فقد جعل الله لهما سلطانا وهي وسيلة حماية ربانية لا يستطيع أي سلطان بشري أن يقف أمامها، قال تعالى في بيان ذلك: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٥-٤٦].

لقد ذاع صيتهما وسمع الناس بما كان منهما ودعوتهما للحق ، وكان لا بد من ترتيبات معينة للقائهما بفرعون الذي سيقوم بإعداد المشاهدين الذين سيرون ما سيوجهه إلى موسى من المضايقات والإهانات وانه سيكون الأعلى لأنه الإله المعبود منذ سنوات .

لقد تمكن خلال فترة غياب سيدنا موسى ﷺ من الهيمنة الكلية على كافة فئات الشعب وطبقاته لأنه لا يوجد من يحاججه، وبذلك فسد وأفسد وعلا في الأرض، وهذا ما سيثير لديه الغرور والغطرسة ويجعله لا يتنازل أن يقابل شخصاً مثل موسى ﷺ الذي له فضل عليه حيث رباه صغيراً، وهو من رعيته التي تتخذه إلها ، ثم إنه مطلوب في جريمة قتل فماذا يفعل له ويفعل به إذا تمكن منه، لابد أن يدبر خطة حصار تجعله يتمكن منه ليقضي عليه أو على الأقل يظهره أمام الناس بمظهر الصغير الضعيف أمام فرعون العظيم، وهذا ما يجعله يتلكأ في تحديد موعد اللقاء ليظهر كبره وعظمته وبذلك فانه لا يقبل اللقاء المباشر وسيؤجل الموعد المرة تلو الأخرى ليثبت للناس أنه الأعلى وهو لا يعلم أنه بتأجيل هذا الموعد يزيد عدد أتباع موسى من المسلمين ويزيد من يترقبون هذا اللقاء ويريدون أن يستمعوا إلى النتيجة المرتقبة، وبذلك ستزداد الفضيحة التي يجهزها لنفسه وهو يظن أنها ستكون لموسى ﷺ .

ومن ضمن ما قيل في بعض الكتب أن اللقاء تم بعد ثلاث سنوات من الطلب ومهما يكن فان اللقاء كان مهما ومن تتبعه كانوا كثيرين .

ولا يعلم فرعون أيضاً أن الله جعل سلطانا لأنبيائه فلا يستطيع فرعون وكل ما ملك من قوة أن يلحق بهما أي أذى، وأنه كان بإمكان موسى وأخيه أن يهلكا فرعون لو أرادا ولكنهما لا يريدان ذلك ولم يصدر مثل هذا العمل عن أي نبي قبلهما، فوسيلة النبي وغايته هي إقناع الناس باتباع دعوة الحق بإظهار آيات الله لهم ليهتدوا إلى الحق.

وأخيراً يتم اللقاء المرتقب ويحضر له فرعون كبار مستشاريه ولتكون له مهابة كبيرة في نفس موسى وهارون فلابد أن يكثر من زبانيته ليلتفوا حوله وينافقوه وكذلك من حرسه المدججين بالسلاح ليرهب أنبياء الله بما لديه من قوة فهو أقوى رجل في الأرض ومملكته هي مصر وسيناء وفلسطين وجزء من ليبيا وجنوبا تمتد إلى الشلال الرابع وهي أقوى دولة على وجه الأرض في ذلك الزمان حيث قال الله تعالى مبينا ذلك: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص:٤].

وهذه شهادة من الله بأنه أقوى قوة في الأرض ولكن هذه القوة كانت قوة مفسدة حيث قال الله فيه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤]، فهو مفسد والمفسد يكون فاسدا أصلا ولا داعي لان نستشهد على قول الله بشيء آخر فيكفي ما قاله الله فيه، ولقد ادعى الألوهية وادعاءه هذا هو قمة الفساد.

وأخيراً يتحدد اللقاء ويذهب موسى وهارون إلى القصر ومعهما سلطان من الله تعالى إضافة للآيات التي يحملها سيدنا موسى ﷺ، وأهم من هذا كله معية الله الذي يسمع ويرى وكان اللقاء التاريخي المهم وعلى مشهد من أعوان فرعون الأشداء وكبراء الشرك ومستشاري الفساد ومن مختلف الطوائف المقربين إليه .

لا يذكر كتاب الله عن كيفية تحديد الموعد وإجراءات المقابلة والحرس وما إلى ذلك لان هذا لا يقدم ولا يؤخر شيئا في الموضوع والذي هو لقاء بين أنبياء الله وقمة الشرك فرعون.

لقد حاولنا هنا الربط بين مختلف الآيات التي تتحدث عما دار من حوار بين موسى عليه السلام ورأس الشرك والكفر فرعون وهذه الآيات مذكورة في عدة سور قرآنية كل آية أو اكثر تتوافق مع ما جاء في السورة من موضوع إيماني ، ونسأل الله أن يوفقنا في ترتيب هذه الآيات لتعبر عما دار في الحوار الذي حصل وفق ما حصل وان يجنبنا الله الخطأ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

دخل موسى وهارون على فرعون وأتصور موسى وهارون عليهما السلام واقفين في مواجهة رأس الشرك وهو جالس وحوله مستشاروه وأنصاره وحرسه وزبانيته بين واقف وجالس جاءوا ليشهدوا هزيمة موسى أمام فرعون وبادر موسى عليه السلام بتوجيه الكلام إلى فرعون بقوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الزخرف:٤٦].

ولم يكن من فرعون إلا أن يشيح وجهه كبراً على ما سمع ويجيب بتكبر (سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) ولقد جاء هذا في قول الله تعالى : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ : سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات:٣٨-٣٩].

فكان من موسى عليه السلام أن رد عليه بأسلوب أقسى حيث ناداه باسمه أولا" إثباتا" له وللحضور انه من سائر البشر كغيره ثم يذكر مهمته كنبي مرسل أمين على رسالة ربه حيث ورد هذا في قول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ : يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥].

وهنا يواجه موسى عليه السلام فرعون في دعوته وكأنه يعلن بطلان ادعائه الألوهية لأنه يخبره أنه رسول من رب العالمين أي لا رب إلا رب العالمين وانك يا فرعون على ضلال وعلى باطل في دعوتك للناس بعبادتك لأن الناس يجب أن يكون لهم رب واحد في كل بقاع الأرض وألا يدعى كل حاكم دولة الألوهية فتكثر الأرباب فيتخاصمون فتفسد الأرض.

ويهز موسى فرعون بقوله يا فرعون على عكس ما يسمعه من الناس والزبانية والمنافقين الذين يخاطبونه بالألقاب مثل يا مولاي أو ما شابهها وهاهو موسى يجرده من هذه الألقاب ، ويجرده من دعوته إذ يعلنها أمام المستمعين أنه رسول من رب العالمين . وفي هذا ثورة على فرعون ودولته ونظامه الذي يحكم من خلاله لأن الربوبية لله أول ما تعني التقيد بشرعه وإبطال كل شرع آخر مخالف لشرع الله .

والرسول الذي يعرف الله لا يكذب عليه وهو يعلنها أنه يحمل بينة من الله ليثبت صدق رسالته، إنه يدعو إلى عبادة الله بأمر من الله ويطلب أن يرسل معه بني إسرائيل ليكونوا عبيداً لله وحده لا لغيره، وكونه يعلن وجود إ+له هو رب العالمين فهذا يعني بطلان ربوبية فرعون على بني إسرائيل وعلى غيرهم لذلك فهو في حل من دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

هذا الطلب يحمل في طياته هدم دولة فرعون وتغيير نظام الحكم وإنكار شرعيته وإبراز ظلمه للعباد ، فهل يقبل فرعون بهذا وزبانيته الذين يتسلمون المراكز العليا وليس لهم من المؤهلات إلا النفاق لفرعون

وترويج ادعائه وكذبه. ويبادر فرعون بالإجابة موجهاً حديثه لسيدنا موسى ﷺ: ﴿ قَالَ: فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٩].

قالها موجهاً حديثه إلى موسى ﷺ لأنه يعلم أنه صاحب الدعوة الأول وقالها لسببين أولهما إنكاراً منه لرب العالمين وأنه ليس رباً لكل الناس بل رب لموسى وهارون فقط والسبب الثاني ليذكره بأنه هو الرب في هذا البلد لمن يعيش فيه وليذكرهم بقوته وجبروته وليرعبهم بهذا السؤال، ويكون الجواب من جنس السؤال وبذكر الصفات القوية التي تدل على صاحبها كذلك يأتي رد موسى : ﴿ قَالَ: رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٥٠].

هذه الإجابة التي تصف رب العزة من خلال عظيم خلقه إذ أنه خلق كل ما في الوجود بالصورة المثلى ولوظيفة محددة يؤديها، والوجود كله منتظم من خلال هداية الله لكل مخلوق ليؤدي وظيفته التي خلق لها، وإذا فكر الإنسان بما حوله من المخلوقات وكيف تسير بنمط رتيب يكمل بعضُها بعضاً فإنه يتجلى في فكره ووجدانه عظمة هذا الخالق الذي خلق كل شئ وهـداه إلى وظيفته، ومرة أخرى يبادر فرعون إلـى السؤال: ﴿ قَالَ : فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه:٥١].

إنه يستفسر عن الأجيال التي سبقت والتي لم تدرك دعوة موسى فكيف يكون مصيرها من الله وماذا سيكون شأنها وكيف سيكون حسابها وكأنه يقول له أين إلهك من هذه الأجيال السابقة، فيأتي الجواب من موسى ﷺ : ﴿ قَالَ : عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً : فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه:٥٢-٥٣].

بهذه الإجابة يظهر أن موسى ﷺ قد أناط الأمر لله الخالق من خلال صفاته التي يعرفها هو وبأن الله يكتب كل شئ ولا ينسى شيئاً فهو الأولى بهذه الأجيال السابقة وهو المسؤول عنهم كما هو الآن مسؤول عنكم ومثلما يعطيكم الآن من خيرات من الأرض ومن ماء السماء وغيره فقد أعطاهم سابقا.

ويبادر فرعون إلـى السؤال والتذكير بما مضـى ليبين فضلـه على موسى: ﴿ قَالَ: أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٨-١٩].

ويرد فرعون على موسى ويذكره بفضله عليه وعلى تربيته منذ الطفولة إلى سن الرجولة، وبأن هذا كله لم يؤثر فيه وأنكر الجميل، وكأنه يقول له يا فاضل الأخلاق إنك قاتل منكر للجميل ولا يحق لمن يحمل هذه الصفات أن يتكلم بما تكلمت به .

وهنا توقع فرعون أن يلجم موسى عليه السلام فلا يستطيع الإجابة ويهزم بالمنطق الكافر فيأتي الرد من موسى : ﴿ قَالَ : فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٢٠-٢٢].

يقول موسى إنه فعل فعلة القتل دفاعاً عن مظلوم وأنه لم يكن مرسلاً آنذاك ففر من الظلم ومن عدم توفر العدالة فوهب الله له الحكم وجعله نبيا مرسلا، ثم يرد على نعمة التربية فيذكره بتعبيده لبني إسرائيل وظلمه لهم مما اضطر والدته إلى أن ترميه في اليم ولا يربى في ظل والديه، بل تربى في موضع آخر، أهذه هي التي تمنها علي؟

ثم ينعطف فرعون عن هذا الموضوع ويسأل باستهتار عن رب العزة : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣] .

وفي هذا السؤال قمة الكفر وإنكار كل ما حدث من جدال فقد سبق واخبره بأنه رسول الله مرتين، وأنه رب كل المخلوقات ثم ها هو ينكر ربوبية الله مرة أخرى وينكر وجوده ويأتي الرد من موسى عليه السلام رد العالم للجاهل : ﴿ قَالَ: رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢٤].

الله هو رب كل ما في الوجود وربك يا من تدعى أنك إله مصر فالله إله السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، أي إن كنتم تعلمون ما هو موجود بين السماوات والأرض وأنتم أقل شأناً من أن تعلموا ذلك، والتفت فرعون إلى حاشيته وزبانيته ليرى أثر هذا الحديث عليهم وليصرفهم عن أن يتأثروا به ويذكرهم بسلطانه وبوجوده، وليستعرض قوة المناظرة التي تصدر عنه فيقول موجها حديثه إلى من حوله: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٥] . وكأنه يطلب الإجابة ممن حوله وليس لديهم الإجابة لجهالتهم وكفرهم.

ويأتي الجواب من موسى عليه السلام موجها حديثه للجميع: ﴿ قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء:٢٦].

وفي الإجابة هجوم شديد على فرعون ودعواه بالألوهية فها هو يقول للحاضرين بأن الله ربهم ورب آبائهم الأولين وان فرعون ليس بربكم كما تظنون ولا يوجد لكم ولآبائكم ولأجدادكم إلا رب واحد هو رب العالمين، وهذا ما أثار فرعون على موسى مما جعله لا يعرف ماذا يعمل وثارت ثائرته فوجه حديثه لمن حوله: ﴿ قَالَ : إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء:٢٧].

قال هذا ليصر فهم عن التفكير في جدية المقولة لأن قائلها مجنون فلن يصدقوا مقولته، ويتابع موسىعليه السلام رده على فرعون: ﴿ قَالَ : رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء:٢٨].

ويذكر الحضور أن ما ترونه يومياً من شروق الشمس وغروبها ولا يدعي أحد انه يستطيع أن يتصرف فيهما وأن الله هو الذي يتصرف فيها وليس فرعون.

إن صاحب الجبروت والطغيان لا يخاف إلا صحوة الشعوب ولا يكره إلا من يدعو إلى هذه الصحوة ولذلك فانه يحارب الدعوة والدعاة بكل ما أوتي من قوة . ويشتد فرعون غضبا وكأنه لاحظ أثرا على بعض الوجوه من حوله وانهم بدأوا يفكرون فيما قال موسى فاشتد غضبه ولجأ إلى التهديد وليذكر من حوله ببطشه: ﴿ قَالَ: لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩].

لم يعد أمامه من الحجج شئ فلجأ إلى استخدام القوة وهي السبيل الوحيد أمام الطغيان لإسكات الحق، فيأتي رد موسى وبكل هدوء: ﴿ قَالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:٣٠]. ويضطر فرعون إلى الاستجابة فيقول: ﴿ قَالَ : فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء:٣١]. ثم أتبع قولـه : ﴿ قَالَ : إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٦] .

يقول إن كان لديك شيء تخبؤه فأظهره ليثبت صدق مقولتك ، ومقولته الثانية تثبت أن لديه الحس بمصداقية موسى وبأن الله يرسل آيات مع رسله فتأتى السليقة بها ليعترف بأن هناك آية لابد أن توجد ويطلب من موسى أن يظهر ما لديــه من آيات الله تثبت صدق قوله، وهنـا ينتقل موسى عليه السلام من القول إلـى العمل الفعلي بإظهار آيات الله تعالـى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨] .

وهما نفس الآيتين في سورة الشعراء (٣٢ ،٣٣)، وهما تتفقان مع أحداث كل من السورتين لذلك تم ذكرهما حرفيا في كل من السورتين ولأنهما إجراء واحد على طلبين متتاليين لفرعون تم بيانهما أعلاه: اولهما جاء في (الشعراء:٣١)، وثانيهما ما جاء في (الأعراف:١٠٦)..

فما كان من موسى عليه السلام إلا أن ألقى العصا وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء آيتان يحملهما من ربه، ها هم يرون حركة حياة تدب في عصا صغيرة فإذا هي ثعبان مبين كبير الحجم أكبر من حجم العصا مما يؤكد أنه تحول من جماد إلى حياة وأخافت من كان حاضراً حتى رأس الفتنة الذي كان يهدد بالسجن قبل قليل فها هو يضعف أمام ما يرى من هول للأفعى لا يستطيع هو ولا جيشه معها شيئاً.

ولابد أن هول المفاجأة أثرت على الجميع فينظر فرعون حولـه ويوجه حديثه لحاشيته فيقول: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ : إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓاْ : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٧].

كان يهدد بالسلطان وبالسجن وها هو لا يستطيع ذلك فالقوة إلى جانب موسى إضافة لقوة الله وسلطانه الذي هو معهم يسمع ويرى ، لقد أرعبهم أن يروا شيئا صغيرا من قوة الله وتأييده لأنبيائه ولم يروا إلا جنديا من جنود الله فأرعبهم فكيف بهم أمام ما لا يعلمون من قوة الله، وكعادة الطغاة فان السحر مهربهم عندما يحشرون أمام الآيات الربانية فكلمات السحر وساحر يهرب بها واليها كل من لا يملك حيلة الرد الإيجابي على شئ إيجابي .

وضعفت لهجة القوة التي كانت تهدد بالسجن فها هو يقول لمن حوله إنه كما ترون ساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون، وكأنه يريد ممن حوله أن يشاركه في المصيبة التي وقع فيها.

يقول لهم تحملوا الآن المسؤولية معي أمام هذا المأزق وهو فيما مضى لم يكن ليستشيرهم بل كان يأمرهم بل إنهم عبدوه، وكان يرجو أن يكون رأيهم أن يتركه وشأنه ولكنهم أشاروا عليه بمبارزة سحرية بينه وبين كبار السحرة ليثبتوا للناس أنه ساحر وأن دعوته باطلة.

ثم نظر فرعون إلى الجهة الأخرى من حاشيته وقد استمعوا لما دار بينه وبين من على يمينه من الحاشية فبادروه بقولهم : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ : إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٠٩].

هؤلاء المنافقون قالوا له نفس الجملة التي قالها الفريق الآخر من الحاشية ويكمل فرعون قوله لهم كما قال لغيرهم: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف:١١٠].

إنه يريد أن يحملهم النتيجة وأن يشركهم بعمل نتيجته سيئة لكي يأخذ الحجة عليهم مستقبلا فيبقى على استعباده لهم بحجة أنهم جلبوا المصيبة بمشورتهم ويكون منهم نفس الرد الذي سمعوه من باقي الحاشية : ﴿ قَالُوٓاْ : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف:١١١-١١٢].

فقالوا ما قاله باقي الحاشية ولا خلاف إلاّ في كلمة واحدة هي بنفس المعنى فهؤلاء قالوا (وأرسل) والآخرون قالوا (وابعث) مما يدل على أنهم منافقون جبناء وجدوا إجابة الآخرين مهربا جيدا لهم أمام الفرعون فهربوا من نفس الطريق ولم تسعفهم رجولتهم بجملة أخرى أو رأي آخر.

وفرعون وجد بدوره في هذه الإجابات أن من حوله ما زالوا على جبنهم ونفاقهم له فاطمأن إليهم وأعطى الإجابة لموسى عليه السلام وكأنها إجابة جماهير ولا تمثله هو فقط بل إن هذا رأي الجماهير التي هو ربها: ﴿ قَالَ: أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه:٥٧-٥٨].

قالها بصيغة الجماعة لينهي هذا الجدل الذي كان هو فيه الطرف الضعيف بعد أن كان القوي الجبار الذي يقتل ويسجن فها هو يجد مهربا يهرب من خلاله وهو السحر وقد وافقه أعوانه على ذلك، فطلب موعد مناظرة سحرية وحجته أن يحدد موسى الموعد والتقيد به إمعانا في التأكيد ولكنه يتمنى داخل نفسه أن يتم نسيان الموضوع وأن ينتهي الأمر عند هذا الحد بأن يقر الناس له أن موسى ساحر وبعد ذلك يفعل مع الساحر ما يرى من استمالته إن استطاع ذلك أو أن يشتري ذمته كما اشترى ذمة غيره من قبله ويوافق موسى عليه السلام على هذه النتيجة فيجيب: ﴿ قَالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه:٥٩].

قبل موسى هذا التحدي وحدد لهم يوم عيد الذي يحتفل فيه كل الناس وحدد لهم الوقت وهو الضحى والناس في عز نشاطهم وأن يتم جمع الناس وإبلاغهم بالموعد في الضحى في مكان واحد.

لقد تم الاتفاق على الموعد وأمام هذا الحشد الكبير من الحاشية والحرس وظهر فرعون بمظهر الضعيف بعد ما رأى الحية الضخمة ، وكذلك لابد أنه ظهر الخوف عليه وعلى من هم حوله من حرس

وحاشية وأراد أن يظهر بعض الرجولة وليس القوة لأنه لو أراد استعراض أي قوة فستكون نهايته ومن معه، لذلك فلا يوجد أمامه إلا الكلام الذي لا يرد عليه إلا بكلمات، فمع الاتفاق على الموعد يريد أن ينهي هذا الاجتماع بجملة تشعر المجتمعين أنه لا يزال رابط الجأش وأنه يحتفظ بعظمته فقال موجهاً حديثه لموسى بينه الله في الآية : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ : إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١].

ورد موسى على فرعون بما هو أشد وأعتى فقال له: ﴿ قَالَ : لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠٢].

إن موسى عليه السلام يقول لفرعون بأنك تعلم ببصيرتك أن هذه الآيات لا يستطيعها إلا الله خالق كل شئ وأنها ليست سحراً بل هي بصائر أي يعرفها كل من عنده عقل وان من يعارض الله ولا يؤمن به فإنه لابد هالك (مثبوراً) وإني أبشرك بالهلاك جزاء موقفك. وانتهى الاجتماع وخرج موسى وأخوه في انتظار يوم الزينة يوم اللقاء الفاصل مع السحرة.

وبعد خروج موسى وهارون عليهما السلام بدأت مشاورات الإعداد لليوم المشهود من فرعون وحاشيته، وتم وضع خطة إبلاغ السحرة ودعوتهم للحضور وإبلاغ الناس بالاجتماع في المكان المحدد في الزمان المحدد، ولقد بين الله ما حصل بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [يونس:٧٩]. ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء:٣٨-٤٠] .

حضر السحرة إلى ديوان فرعون أولا ليعطيهم الدرس المطلوب وليبسط عليهم هيبته وليرغبهم ويرهبهم وكانت هذه فرصتهم أن يتقربوا من رب مصر كلها؛ وهذه فرصتهم ليكونوا من المقربين ومن العالين في الأرض إن كانوا هم الغالبين ، وعند حضورهم لديوان فرعون لتلقي التعليمات : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ : أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ: نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤١-٤٢].

وسألوا عن الأجر المادي إن كانوا هم الغالبين وهم لخيبتهم لا يطلبون بل يستفسرون هل سيكون لهم أجر أم لا ، وهم يتمنون السلامة وتجنب أذى فرعون فقط وهم الذين طبعوا على الدجل والغش، فيجيبهم فرعون: ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾، وما عليهم إلا أن يهزموا هذا الساحر الذي سيواجهونه .

وجاءت دفعة ثانية من السحرة ذكرها الله بقوله:﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟: إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣ قَالَ: نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف:١١٣-١١٤].

ويظهر أن هذه الفئة اكثر اعتداداً بنفسها من الأخرى إذ أنها تعتبر أن لها أجراً محتوماً، إنهم سحرة والسحر منتشر في زمانهم بذكر الله له ولكن ما هو إلا خداع للبصر.

وجاء يوم اللقاء وجمع الناس لتكون النتيجة مكشوفة وعلى أعين الناس أجمعين ويقبل فرعون مع من جمع من السحرة وكبار الحاشية والحرس وما يتطلبه موقف القوة: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه:٦٠] .

ويقف السحرة في مواجهة موسى ﷺ ويقوم بواجب النبوة ودعوتهم إلى الحق ويشرح لهم الأمرلأن دينه يفرض عليه ذلك لتقوم عليهم الحجة، وبين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ : وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ [طه:٦١-٦٢].

ولقد أصاب كلام موسى بعض قلوب السحرة ، وظهر على وجوههم بعض التردد وأخذ السحرة يتجادلون فيما بينهم بعضهم يؤيد موسى وبعضهم يصر على ضلاله، وأخذوا يتجادلون إلى أن انتهوا جميعا إلى الضلالة وبأن موسى وهارون يريدان أن يغيرا ديانة هذا الشعب ، لذلك فانهما من الأعداء وتجب هزيمتهما وان على السحرة أن يكونوا صفاً واحداً ويداً واحدةً على من سواهم ، وأن المنتصر اليوم هو الذي ستكون له العاقبة وسيكون هو الأعلى: ﴿ قَالُوٓا۟ : إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه:٦٣-٦٤]. وهنا برئت ذمة موسى ﷺ وقد حذرهم غضب الله ولكنهم أبوا إلا المضي في الضلالة .

لا يعرف عدد السحرة ويظهر انهم كانوا كثيرين إذ انهم مجموعات ويظهر ذلك من أسلوب السياق القرآني الذي يتحدث عنهم ، فكتاب الله يتحدث عن عدة مجموعات متتالية حضرت المبارزة وكلمهم موسى لإلقاء ما لديهم من سحر .

ومن أسلوب مخاطبة موسى ﷺ لهم يظهر انهم عدة مجموعات لاختلاف الجمل التي صدرت عن سيدنا موسى ولاختلاف الردود التي تلقاها منهم ، ولقد ظهر هذا جليا من قول الله تعالى على لسان موسى ومناظرته مع إحدى المجموعات: ﴿ قَالُوا۟: يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه:٦٥].

فرد عليهم موسى: ﴿ قَالَ : بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ : فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه:٦٦-٦٧].

إن نبي الله خاف أن يهزم، لقد خاف على الدين ولم يخف على نفسه، فأوحى الله إليه يذكره بوجوده، وبإلقاء العصا: ﴿ قُلْنَا: لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه:٦٨-٦٩].

وكانت المفاجأة الكبرى إذ أن السحرة جاءوا للفوز وللغنيمة من فرعون إذا ما فازوا ، ولقد قدموا من السحر ما جعل الخوف يدخل إلى نفس موسى، ثم تقع المفاجأة التي لا يتصورها إلا من يعرف السحر وحدوده وأنه خداع بصر ليس أكثر، وأن ما ألقى موسى هو آية ربانية تبتلع كل ما ألقوه، وأدرك السحرة أن هذا الذي أظهره موسى ليس سحراً، وأن موسى عليه السلام رسول رب العالمين وآمنوا بالله: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ : ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه:٧٠].

وثارت ثائرة فرعون لأن يهزم هو وسحرته على أعين الناس في يوم عيد ويغضب وينسى نفسه وانه مخلوق مثلهم ويعرب عن غطرسته بشكل كبير ومعلن : ﴿ قَالَ : ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝ قَالُواْ : لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٧١-٧٣].

أخذ فرعون يهددهم ويذكرهم بأنه هو الذي أحضرهم وان حضورهم بأمره وعملهم بأمره ولذلك فان اتباعهم لموسى يكون بإذن منه ويعلن أمام الملأ أن موسى هو معلمهم السحر ليدخل إلى النفوس الضعيفة أن هؤلاء تلامذة موسى في السحر، فهم متعاونون معاً وأن ما فعلوه هو مؤامرة منهم جميعا وبالطبع سيصدر الأمر إلى جيشه وحراسه لإلقاء القبض عليهم ليصلبهم وليقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف كما وعد ويذكر أنه سيريهم من هو أشد عذاباً و أبقى .

وهم يعلنون بدورهم إعلان المؤمن بربه بأنك لا تستطيع أن تتصرف إلا في هذه الحياة الدنيا التي لا تساوي شيئاً، لذلك ومن موقعك الحالي المؤقت فاقض ما أنت قاض، فلن نؤثرك على رب العزة الذي نطمع أن يغفر لنا أخطاءنا السابقة ومنها ما أكرهتنا عليه من السحر وان يدخلنا برحمته وان ما تملكه أنت هو العقاب في هذه الحياة الدنيا الفانية ونحن ننظر إلى الأخرى الباقية مع الله: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٧٣]، والجمهور يستمع فهل يصدق السحرة الذين آمنوا أم يصدق فرعون بأنهم متآمرون معه وينتقل السحرة مقيدين إلى العقاب .

وينتقل موسى وهارون إلى جماعة أخرى من السحرة تظهر في قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ : أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ [يونس:٨٠]، ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ : أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٣-٤٤] .

لقد سُر السحرة بما أنجزوا من عصي وحبال يخيل إليهم أنها تسعى ولشدة اعتزازهم بما صنعوا أقسموا بعزة فرعون أنهم سيغلبون موسى.

ويقف موسى مطمئنا غير خائف، فقد رأى قبل قليل ما حل بسحر غيرهم بما يحمل من معجزة ربانية، وقال ليعيدهم إلى رشدهم ولكي لا يتفاءلوا أكثر مما يجب: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ:مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١] .

وواجب الرسول الدعوى وهاهو يذكرهم بأن ما عملوه مجرد سحر وان ما سيعمله هو عمل من أمر ربه وليس من نفسه وليس بسحر وان ربه لا يصلح عمل المفسدين وإنني إن فزت عليكم فمن الله وليس مني ، انه مع ذلك يدفعهم إلى التفكير بربهم ويذكرهم بأنهم سحرة وانه ليس بساحر و إنما يعمل بأمر ربه فيلقي عصاه: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ : ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:٤٥-٤٨].

وكانت المفاجأة الكبرى للسحرة عندما رأو عصا موسى تنقلب إلى حية ضخمة تبتلع كل ما ألقوه وهو كبير، إنها أفعى تبتلع كل حبالهم وعصيهم ولا تتضخم، ولا تبقي أثراً لعصيهم وحبالهم ولو أن ما قام به موسى سحر لخيل إليهم أنها تبتلع ولبقيت العصي والحبال مكانها. وعادت الحية بعد أن ابتلعت الكم الهائل من العصي والحبال يمسك بها سيدنا موسى فتعود عصا بيده وبنفس حجمها الأصلي .

وها هم السحرة يهتدون إلى وجود الخالق فيخرون له سجدا مؤمنين فيحولهم الإيمان من أناس دجالين مأجورين ينتظرون الأجر من فرعون ، إلى أناس يرتبطون بالله وبالعقيدة والإيمان والنور الإلهي الذي دخل قلوبهم .

إن هذا سيذهل فرعون الذي ينتظر النصر وها هو يهزم مرة أخرى أمام الجماهير ويشتط غضباً إذ أن هذا التحول يهدد ربو بيته بين الناس، إن كبار السحرة وهم يؤمنون بالله يقولون للناس إن ما يقوله فرعون كذب وباطلٌ، وما كان من فرعون إلا أن يستطرد في التهديد واثبات وجوده فيقول لهم ما قاله لمن سبقهم:

﴿ قَالَ : ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ:لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٤٩-٥١].

يعود فرعون لاتهامهم جميعاً بالسحر وإن موسى هو كبيرهم الذي علمهم ولذلك فإن غلبته لهم طبيعية لأنه المعلم، ويهدد بأنه سيصلبهم جميعا ويقطع أيديهم وأرجلهم جزاء تلك المؤامرة التي تآمروها عليه.

ويجيبونه بروح الإيمان بأنه لا ضير مما تريد فعله فانه سيؤدي إلى الموت وهذا هو الذي يلحقنا بالرفيق الأعلى وهذا أكثر ما نرجوا أن نكون من الشهداء ونشكر الله على أن جعلنا أول المؤمنين به ولا تهمنا هذه الحياة الدنيا شيئاً فإنا إلى ربنا منقلبون.

ثم يأتي الدور على المجموعة الثالثة وهي الأخيرة وهم أكبر كبراء السحرة الذين يثقون بأنفسهم أكثر من غيرهم ولم يعبئوا لما حصل مع غيرهم أو لم يروه لأنهم منشغلون في الإعداد لسحرهم الكبير، فيأتي إليهم موسى وأخوه وليس معه إلا عصا وكأي عصا من ناحية المنظر وهم معهم الحبال والعصي ومتطلبات السحر، فهم مدججون بالسلاح وعدوهم موسى عليه السلام ليس معه إلا عصا صغيرة يتوكأ عليها فبادروا موسى عليه السلام بالكلام : ﴿ قَالُواْ : يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ : أَلۡقُواْۖ : فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:١١٥-١١٦].

إنهم يتحدون موسى عليه السلام ويتركون له حرية العمل ويخيرونه بين أن يلقي هو أو يكونوا هم الملقين، وهو بدوره يجيبهم بنفس الثقة وبدون تفاصيل حيث قال: (ألقوا) ولم يقل غيرها وهذا يدل على ما لديه من ثقة بربه، هذه الثقة التي لا يدركونها، وهم الذين لا إله لهم الا شخص مثلهم.

ويلقي السحرة ما لديهم ويظهر المظهر الجبار والسحر العظيم الذي يشهد له رب العالمين بقوله: (وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ)، إنهم أعظم السحرة فعلاً، فلقد سحروا أعين الناس ودبت الرهبة في نفوسهم من هول سحرهم ويظهر ان الرهبة تسللت إلى نفس موسى فلم يلق عصاه إلا بعد أن أوحى الله له بذلك، كأنه تأثر مرة أخرى بما رأى، ففي المرة الأولى كانت الخيفة لأنه يرى السحر لأول مرة، أما في الثانية فإنه يتأثر لشدة عظمة ذلك السحر ويوحي الله إليه بقوله: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ: ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢].

وكانت المفاجأة الكبرى، انه نور اليقين يدخل قلوب السحرة فسجدوا لرب العالمين، فهم كانوا أعلم الناس بالسحر وبحدوده، لذا فهم أعرف الناس بأن ما جاء به موسى ليس سحراً وأنه أبعد من السحر، فاستسلموا للحقيقة حين أدركوها وهنا تحول السحرة من قمة التحدي والكفر إلى قمة الإيمان، وعرفوا أنهم الآن في دائرة علوم الرحمن من إحياء الموتى وتحويل الجمادات إلى أحياء ، حين ابتلعت عصا صغيرة كل ما أرهبوا به الناس بعد أن تحولت من جماد إلى كائن حي.

ولم يكن من فرعون إلا ان يعود للتهديد والوعيد وليتهمهم جميعا بالتآمر عليه بقوله: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ : ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ :

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٣-١٢٦].

يعود للاتهام والتهديد بالتنكيل وهم يجيبون بما أجاب غيرهم بأنهم لا يهممهم الموت في سبيل الحق بعد أن عرفوه، ويطلبون من الله خالقهم أن يصبرهم وأن يتوفاهم مسلمين.

يقف الطاغية عاجزاً أمام الإيمان بالله فهاهم الذين كانوا قبل قليل طوع أمره ينقلبون عليه ويعلنون إيمانهم بالله رب العالمين، رب موسى وهارون ، وفي هذا إعلان ان ربوبية فرعون باطلة وانها كذب وزور وبهتان . إنهم آمنوا بالله وحده وارتبطوا بالله وحده ربا وخالقا ويطمعون أن يغفر لهم ما كان منهم من ذنوب سابقة ، يا للإيمان الذي لا يعرفه إلا المؤمنون. إنه موقف تاريخي معلن بين الكفر والإيمان ، بين الحق والباطل ، إنه ميلاد دين وحرية وإباء وارتباط بالله وحده لا بمخلوق متجبر، فالذين كانوا يتمنون قربه هاهم يعلنون إنكارهم له وإنكار دعوته .

وعاد فرعون إلى القصر مع حاشيته مدحورا ليعقد اجتماع عمل مع مستشاري السوء والفساد الذين لا يعرفون إلى الحق سبيلا، ولو اتبع أحدهم الحق فان مكاسبه ستضيع لأنه غير أهل لما هو فيه من سلطان ومال وبدأ الجدال فاقترح فرعون أن يقتل موسى عليه السلام ، ولكن من يستطيع ذلك وعليه حراسة ربانية رأوا من آثارها الأفعى.

يظهر أن هناك شخص من الذين آمنوا من أبناء مصر يعارض قتل موسى، ويذكر قومه ما حل بأمم عارضت رسلها أنزل الله بهم جزاء ما فعلوه من فواحش ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر:٢٦-٣٤].

وأريد هنا أن اذكر أو أن ألفت النظر إلى نقطتين أولهما أن معظم كتب التفسير عندما يُذكر قتال موسى للذي من غير شيعته تقول القبطي يقتتل مع الإسرائيلي ، وهذا كلام مردود لان أنبياء الله لا يتشيعون إلا لله تعالى ولا يتشيعون لعرق أو قومية، فالأجدر بمن يكتب في هذا الموقف أن يقول المسلم والكافر.
وقد ثبت من الآيات التي وردت أن مخابرات فرعون كانت من بني إسرائيل ووزير تجارته كان قارون من بني إسرائيل وبغى على قومه وها هي الآيات تقول الذي آمن من آل فرعون وهذا يؤكد عدم اقتصار الإيمان على قومية واحدة.

النقطة الأخرى وهي مقارنة ما جاء في هذه الآيات بما جاء في كتب التاريخ التي تذكر أن العديد من الديانات كانت متبعة في مصر وكلها تؤكد على أنها كانت ديانات وثنية وتفخر هذه الكتب بذلك وكأن الوثنية من مفاخر الشعب الذين هم من أحفاده.

ها هو في الآيات رجل آمن من قوم فرعون يعظ قومه ويذكرهم بما كان من عقاب رباني لمن سبقهم من أقوام عارضت أنبياء الله ويذكرهم بقوم نوح وعاد وثمود ويحذرهم من يوم القيامة ، فمن أين عرف هذه المعلومات؟

لقد استقى هذه المعلومات مما كان متيسراً بين أيديهم من كتب دينية ممن سبقوا، وقد كانت صحف إبراهيم بين أيدي الناس، وأن هذه المعلومات هي منها وهي تحذر أن يحصل ما حصل بأقوام نوح وعاد وثمود وهم سبقوا إبراهيم عليه السلام.

وإن كتاب ((**تحذيرات نبي**)) الوارد ذكره سابقاً هو صحف إبراهيم .

وفي معرض تحذير الرجل لقومه يذكرهم بسيدنا يوسف عليه السلام وبأنه قريبا كان بينكم حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، وفي هذا ندم منكم على انكم لا تتبعونه حالياً وها هو الله يبعث رسولا من بعده فما لكم لا تتبعونه وتنجون بأنفسكم من عذاب يوم عظيم.

ويا قوم ها أنتم اليوم ظاهرين في الأرض وانتم اكبر قوة في الأرض فاتقوا الله يبقكم على ما انتم فيه، واذا لم تؤمنوا فتذكروا الأقوام السابقين.

وتظهر الآيات أن فرعون كان يدور على الناس ليقول لهم (مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ)، كذلك كان يفعل موسى عليه السلام يطوف على الناس يدعوهم إلى الإيمان بربهم، ولم تفلح جبهة الشر وبقيت جبهة الخير والإيمان تقوى وتشتد، ويدعو فرعون إلى اجتماع آخر مع أهل الشر من أعوانه ويعود إلى اتهام موسى عليه السلام بأنه ساحر ،وتبدأ الدعاية والدعاية المضادة في هذا المجال، فقد اخذ تيار الإيمان يقوى ويشتد وتيار الكفر يكشر عن أنيابه وزادت الأحقاد فكل إنسان ينضم لقافلة الإيمان يكون قد انفصل عن قافلة الكفر سواء كان من بني إسرائيل أو من آل فرعون، ولقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٣٦-٣٧] .

وما قول السحر الا مهرب لكل عاجز عن الرد ولو عرفوا مقدار ما في ردهم من ظلم لهم من أنفسهم ما ردوا إذ انهم يتهمون رسل الله تعالى بالسحر وهو الدجل والشعوذة والأكاذيب وما دعا ساحر يوما إلى الله ولا إلى دين وما عمل ساحر الا لنفسه ولدنياه ولم يعمل لدينه وهم يعلمون ذلك وان هذا شأن السحرة ومع ذلك فلا يجدون تهمة يتهمون بها أنبياء الله اقرب من هذه التهمة .

قال الله تعالى في قوم موسى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٧٥-٧٨] .

وهنا كشفوا عن نواياهم وبأنهم يخافون على ما ورثوه عن آبائهم من نظم سياسية ومالية واجتماعية أوصلتهم إلى ما هم فيه من مركز مالي واجتماعي مرموق قائم على ظلم وفساد وأنهم يريدون أن يحافظوا على الكبرياء في الأرض، ولا يريدون العدالة لأن فيها انهيار سلطانهم وذوبانهم بين الناس.

وأخذت موجة السحر والادعاء على موسى بأنه ساحر مأخذها ومع ذلك فان عدد المؤمنين في تزايد وقوة موسى في تزايد، وهنا اجتمع أقطاب الشر مرة أخرى ولم يعودوا زبانية فرعون الفئة المستضعفة بل اصبحوا يتحدثون من مصدر قوة وبدأوا يرون في فرعون الرجل الضعيف الذي ضاعت هيبته وكبر في سنه، وبدأت علامات الهزيمة تظهر عليه فقويت لهجتهم في ندائه بعد أن كانوا يتخذونه إلها ويرهبوا جانبه، وفي هذا الاجتماع بين الله قولهم لفرعون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر:٢٣-٢٥].

وظهر منطق الجبابرة حين يكونون بلا حجة ولا دليل وهو اللجوء إلى القوة والغطرسة التي لا يعرفون غيرها، وقد كان فرعون سن هذا القانون أيام مولد موسى عليه السلام وذلك خشية ميلاد من يعادي فرعون.

وتذكروا هذا القانون الجائر وهو ذبح الأبناء واستحياء النساء وكان يطبق على الفئة القليلة من بني إسرائيل المتوقع أن يكون منها عدو فرعون ويطلبون تطبيقه على أبناء الذين آمنوا معه من بني إسرائيل وغيرهم.

وكما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر:٢٥] ، فرغم هذه الشدة زاد عدد المؤمنين وأحس زبانية فرعون بمركزهم يتزعزع وسلطانهم ينهار فاجتمعوا بفرعون وهم يعلمون ان طلب موسى عليه السلام هو أن يرحل مع بني قومه إلى الأرض التي كتب الله لهم وهي التي جاء منها أجدادهم وهي الجزء الشرقي من دولة الفرعون، وفرعون يرفض هذا الطلب فإن هجرة ما يقرب من مليون ما بين آباء وأمهات وأطفال ومنهم رجال المخابرات وكبار التجار سيخلق فراغاً لن يتم التغلب عليه بسهولة وسيؤدي إلى هزة اقتصادية وعسكرية واجتماعية في مجتمع الفرعون الذي بني على أساس وجود هذه النسبة وهذه الشيعة فيهم، ولم يوافق فرعون على هذا الطلب من أول يوم وموافقته تعني اعترافه بدين موسى، واجتمع القوم ووجهوا كلامهم لفرعون مرة أخرى بعد أن رأوا ان قوة موسى في ازدياد.

وخاطبوا فرعون بلهجة كأنه واحد منهم بعد ان ضاعت هيبته ولم يعد مثلما كان حيث قالوا: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] . يظهر من سياق الآية ان فرعون تنازل عن الألوهية المطلقة إلى ربوبية رب القوانين التي يحكم بها مصر ففي الأساس ادعى انه ابن الله ثم كبر هذا الابن واصبح الها وهاهو يعود إلى إظهار أنه يحكم مصر بقوانينه نيابة عن أبيه الخالق الأعظم، وحذره قومه من ازدياد قوة موسى الذي يتركك وآلهتك.

ويرد فرعون بتعميم قتل الأبناء على كل أسباط بني إسرائيل بعد أن كان على أبناء الذين آمنوا مع موسى والذي اقروه سابقا عندما قالوا: ﴿ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ ﴾ [غافر:٢٥]، وها هو فرعون يقول: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] .

لقد عم أذى فرعون كل بني إسرائيل ، وقام رجالـه بتنفيذ هـذه الجرائم بكل قسوة لأنهم أحسوا بالخطر الداهم نحوهم.

ها هو التغيير بدأت تظهر ملامحه ، بدأ أولا بتقوية إيمان الفئة المؤمنة من بني إسرائيل ثم بدأت تظهر علامات إيمان على الشعب المصري وبدأت تظهر علامات انتصار موسى حيث ابتلعت الأرض قارون وما لديه من مال، وهذا نصر لموسى عليه السلام وذلك حين حكمه الله فيه، وكذلك انتصار موسى على السحرة في يوم عيد مشهود وها هي هيبة فرعون تضيع بعد أن كان عاليا في الأرض كما شهد الله لـه وكان كبار قومه ينافقونه ويتخذونه إلها، ولقد شهد الله تعالى بذلك بقوله: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤] .

وبدأ فرعون يتخبط في أقواله وأفعاله، هذا الجبار الذي كان وزيره يقبل التراب تحت قدميه وأعلى منصب يطمح ان يصل إليه وزير هو ان يقبل قدمي الفرعون، وهناك وزير أخر يسمى حامل نعلي الفرعون ويمشي وراءه ليلبس أو يخلع نعليه تبعاً لمزاجه، وهذا ما ذكر في كتاب التاريخ . (ص٣١٧/جلد ١) .

وها هو فرعون يدور في المدن يكذب دعوة موسى التي شوهد انتصارها يوم العيد وشاع الخبر خاصة مع إعدام السحرة الذين كان أهلهم في مدن مختلفة ولن يتركوا موتهم يضيع سدى بل سيحاولون الانتقام لهم وعلى الأقل سيتبعون ديانة موسى ويروجون لها إن لم يحاولوا الانتقام الجسدي لأقربائهم .

وبدأ فرعون طريقة جديدة في مقاومة موسى عليه السلام وهو طلبه أن يكلم إله موسى مستعيناً بوزيره هامان. وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر:٣٥-٣٧] .

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨] .

وتبين الآيات دعوة الرجل المؤمن الذي يدعو إلى الله ويسوق البراهين والحجج للناس مؤيدا ما جاء به موسى ﷺ ، وفرعون بدوره يزيد ضلالا ويطبع الله على قلبه ويزداد الشيطان إحاطة به فيتصور أنه سيصعد إلى إله موسى ويتم بناء الصرح العظيم، ويصعد وينزل ولم يجد شيئا ويقول بأنه لا إله إلا هو، فانه لم يجد شيئا في السماء التي صعد إليها وهكذا يطبع الله على قلب كل متكبر جبار ليزيده ضلالاً ، ولقد ورد في كتاب التاريخ أنه بنى قلعة كبيرة مرتفعة سماها عظيمة الانتصارات (ص٣٨٧/جلد ٦).

واعتبر فرعون أنه حقق انتصاراً إذ لم يجد إله موسى وأنه انتصر حيث ثبت له كذب موسى، وازداد الأذى على المؤمنين من بني إسرائيل ظهر من قول الله فيهم: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٨-١٢٩].

بنو إسرائيل يشكون ويقولون انهم كانوا في السابق تذبح أبناؤهم أيام ميلاد موسى وهذا كان قبل ان يكلف موسى بالرسالة وهاهم اليوم يتعرضون لنفس الأمر بعد ان أتاهم موسى برسالة ربه ويتذمرون لموسى ﷺ ، فيخفف عنهم الهم والحزن ويطمئنهم بأن الله هو صاحب الأرض بما عليها وليس فرعون والله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين والنصر لهم وهذه سنة الله ويطلب منهم الصبر على هذا الأذى فإن نصر الله قادم لا محالـة.

ولقد بين الله تعالى هذا الموقف بقوله: ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ

﴿قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٢-٨٩].

ويظهر جلياً أن الذين آمنوا لموسى هم ذرية من قومه (سلالة)، و هذا يعني أنهم من أمة واحدة من بني إسرائيل وأنهم وهم الذين كانوا يحملون رسالة السماء من قبل ويحملون بقية من ديانة يوسف عليه السلام وهاهم يقوى إيمانهم ويتوكلون على الله ويلجأون إليه بأن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين، وأن ينجيهم من الظلمة وأهل الفساد، وفي هذه الآيات يوحي الله لموسى ان يتخذ بيوتا خاصة وان يقيموا فيها الصلاة وان يجعلوها قبلة أي ذات اتجاه محدد لتميزها وفي هذا تميز لبيوت المؤمنين عن الكافرين، وهذا استعداد لحدث كبير كذلك يقول الله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٤٧] ، أي ان البشرى قادمة قريباً والله لا يخلف الميعاد .

وبهذه الطريقة عزل الله المؤمنين عن الفاسدين والتمييز هو مقدمة للمفاصلة والمعركة القادمة حيث بدأ التعامل يقل بين الفئتين .

وأخيراً اتجه موسى عليه السلام إلى الله يدعوه على فرعون وملئه الذين يملكون المال والسلطان فدعا الله أن يدمر هذه الأموال وهذا الجاه ليثبت القلوب التي آمنت على إيمانها ولكي لا يغريها شيء، وهذا دعاء نبي الله الذي يئس من إصلاح هؤلاء القوم وعلم أن لا توبة لهم فدعا الله أن يزيد قلوبهم قسوة، وأن يزيدهم ضلالاً لكي لا يؤمنوا إلا عندما يروا العذاب بأعينهم وفي هذه الحالة لا تقبل توبتهم لأنها جاءت بعد فوات الأوان.

ويستجيب الله الدعوة، وتبدأ المرحلة الأخيرة من آيات الله لكي لا يكون للكافرين حجة على الله، ويبدأ الله بابتلائهم بباقي الآيات البينات المبصرات، وبين الله هذه الآيات الفرصة الأخيرة بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣٦] .

وبدأ الله تعالى بالإنذارات الربانية حيث يقول: (وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ)، وهذه تدل على سنوات من القحط. إن أرض مصر خصبة وفيها نهر النيل بضخامته فمن أين يكون القحط وكيف يكون؟ إنه من تدبير رب العالمين.

وصار الوضع الاقتصادي والزراعي في تقلب شديد ليثوب الناس إلى رشدهم، وبدلاً من أن يتوبوا زادهم هذا ضلالاً.

ولم يكتفوا بذلك بل يقولون لموسى ﷺ مهما جئت لنا من آيات إضافية فلن تسحرنا ولن نؤمن لك فلقد تعودنا على عظيم سحرك ، وان هذا السحر الذي ضللت به كبار السحرة فقتلهم فرعون بسببك لن تضللنا به بعد اليوم.

وأرسل الله عليهم الطوفان أي المطر الشديد الذي يتلف الزرع النابت ويمنع الفلاح من ان يزرع لكثافته إذا لم يكن قد زرع ، وطال الأمر فلجأوا إلى فرعون ليعمل لهم شيئاً فوقف عاجزاً، فلجأوا إلى موسى ليدعو ربه ليوقف المطر، فدعا ربه فكشف المطر ولكنهم لم ينفذوا ما وعدوا من: إرسال بني إسرائيل والإيمان بالله، وعادوا إلى كفرهم، ثم أرسل الله عليهم الجراد الذي يأكل الأخضر واليابس. ولجأوا إلى موسى مرة أخرى فدعا ربه فأزاح عنهم الجراد وأزال هذه الغمة ولم يؤمنوا.

ثم جاء زرع جيد في إحدى السنوات واستمر حتى حصدوه وصار حباً في البيوت وهم مطمئنون فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس، الحشرة السوداء التي تأكل الحبوب وكان بكثرة أهلكت المحصول بعد أن تم جنيه، وفي ظني أن السوس لم يصب محصول المؤمنين وبيوتهم فلم يجد الكافرون مفراً من الذهاب لموسى ليطلبوا منه ان يدعو ربه بما عهد عنده ليكف عنهم هذا البلاء ليؤمنوا له فدعا ربه فلم يؤمنوا. ثم أرسل الله عليهم الضفادع تتكاثر بسرعة حتى ملأت الحقول والبيوت والشوارع ولم يجدوا بداً من التوجه لموسى مرة أخرى ليدعو ربه فدعا ربه فأزال الضفادع ولم يؤمنوا .

فأرسل الله عليهم آيه الدم فكان الكافر كلما اقترب من ماء ليستعمله في أكل أو شرب انقلب إلى دم سائل في يده والماء في مجراه ماء وفي النهر ماء ولكن عند الشرب أو الطهي أو الاستحمام ينقلب مع الكافر إلى دم وفي يد المؤمن يبقى ماءً.

وهذه المعجزة وحدها كافية لأن يؤمن كل من رأى ذلك، لأن الساحر يستطيع أن يسحر الناس ولا يستطيع أن يسحر الماء ليحوله إلى دم وليميز الماء أُناساً عن آخرين فيتحول إلى دم مع هؤلاء ولا يتحول مع آخرين ، وهذا يدل على انه ليس بسحر ، وهذا رآه كل كافر في دولة فرعون ، والله أعلم .

ورغم هذا لم يؤمنوا، لقد كانوا كلما وقعوا في بلاء يذهبون إلى نبي الله ويطلبون منه ان يدعو ربه لإزالة البلاء وأنهم سيؤمنون بعد ذلك فيدعو لهم وكانوا ينكثون وعدهم في كل مرة ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف:٤٩-٥٠].

وبعد هذا أرسل الله عليهم عذاباً شديداً وهو الرجز ويقال إنه طاعون كان يموت منه كثير من الكافرين فتوسلوا لفرعون أن يرسل بني إسرائيل مع موسى مقابل أن يدعو ربه ليزيح عنهم هذا البلاء، فدعا موسى ربه فأزال عنهم البلاء فوافق فرعون على خروج موسى مع بني إسرائيل؛ قومه الذين آمن قليل منهم كما بين الله، وادعى كثير منهم الإيمان.

ويظهر أن الآيات التي أرسلها الله جعلت العنصرية تقوى خاصة بعد تعميم قتل الأبناء على الجميع مما جعل قوم فرعون يحقدون على بني إسرائيل، سواء كانوا مؤمنين أم لم يكونوا لأنهم من الناحية العرقية من ملة واحدة، ولأنهم صاروا يرون علامات انتصار موسى ﷺ وأخذ بنو إسرائيل من آمن منهم ومن لم يؤمن يرون أن الخير في ترك مصر وعدم الإقامة بين قوم لا يحبونهم لأنهم كانوا يعملون في مخابرات فرعون مما زاد كره المصريين لهم.

وسيظهر لنا لاحقاً أن فرعون نكث وعده وتبع موسى وقومه فكانت القاضية، أغرقهم الله في البحر هو وجنوده.

ولقد ذكر الله تعالى هذه القصة ملخصة لتكون عبرة لمن يعتبر ، حيث قال الله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤-٥٥].

وفي هذا عبرة للشعوب التي لا تستعمل فكرها فيتخذها الحكام ألعوبة من ألاعيبهم لأنهم يستخفون بهم وبعقولهم وتكون النتيجة انتقاماً ربانياً من الطرفين الجبابرة والظالمين لأنفسهم من الناس الذين يقبلون ان يكونوا تبع هوى المسؤولين.

لقد كان فرعون يعد موسى بعد كل آية من آيات البلاء التي نزلت أنه سيرسل معه بني إسرائيل اذا دعا الله فكشف عنهم البلاء وكان يفعل ولم يوافق فرعون على هذا الطلب إلا مرة واحدة عندما كشف عنهم الرجز.

صحيح إن الموافقة كانت مؤقتة اذ ما لبث فرعون ان نقض وعده ولكن الخبر عن الموافقة عمّ.

تجمع موسى وقومه استعداداً للحركة، ومن ذلك المكان إلى فلسطين طريقان: أحدهما يتجه شرقاً شمالاً إلى منطقة الإسماعيلية ثم إلى أحد الممرات لتخترق جبال سيناء الغربية إلى شرقها ثم إلى صحراء سيناء ومن ثم تتجه شمالاً شرقاً في اتجاه العريش ثم رفح، والطريق الثاني هو أن يسير بمحاذاة النيل إلى منطقة بور سعيد ثم يتجه شرقاً بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط ومن ثم إلى العريش فرفح . ولا يوجد غير هذين الطريقين، ولكن الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى علم ان فرعون سينكث وعده فأوحى إلى موسى أن يسلك طريق البحر الأحمر، وبذلك فانه سيتجه بالقوم إلى الشرق ومن ثم يعبر البحر الأحمر.

وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٧٧]، ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان:٢٣]، ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء:٥٢].

إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام ان يسير ليلاً وفي اتجاه البحر وان يضرب لهم طريقاً في البحر أي أنهم سيخترقونه على الأرض اليابسة منه، أما كيف فان ذلك ما سيراه بعينه عند ما يتم أمر الله وبذلك فإن موسى عليه السلام اتجه شرقاً حسب أمر ربه في اتجاه البحر .

ويجن فرعون لخروج موسى وقومه وينكث وعده رغم انه هو الذي وافق لهم على الخروج عندما دعا ربه فرفع عنهم الرجز أي العذاب، وتشب نار الحقد في نفسه ويجهز للحاق بهم للقضاء عليهم في معركة بين جيش مجهز بالأسلحة وبين قوم عزل لتقع مذبحة ما شهد التاريخ مثلها حيث يقتل الآباء والأمهات والأطفال، وذلك لأنه يتوقع أن يقوم موسى بإعداد قومه لمهاجمة فرعون للانتقام على ما كان منهم سابقا وما هي إلا سنة أو اكثر حتى يجهز قومه لمعركة انتقامية .

ويريد فرعون أن يسبق هذا الأمر ويقضي عليهم فأعلن التعبئة العامة وجمع الجيش من كل المدن ليلحق بموسى، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ [الشعراء:٥٣-٥٦] . وحجة الطاغية أن هؤلاء شرذمة قليلو العدد لا حول لهم ولا قوة وإننا نحذر منهم.

وتجمع الجيش وخرج بقيادة فرعون شخصياً بما يحمل من أحقاد وتجمع كل من يحمل في صدره حقداً على الإيمان والمؤمنين، لأنه حضر من المدن البعيدة إلى العاصمة ولبى نداء الكفر ليقضي على الإيمان، وكانت سنوات القحط والعذاب قد محصت الناس فمنهم من بدأ الإيمان يعمر قلبه وبقي يكتم إيمانه كما قالت الآيات ومنهم الذي ران على قلوبهم الكفر فازدادوا حقداً وكراهية للإيمان ، ولقد أتته الفرصة ليقتل كما يشاء ويستمتع بالقتل كما يظن فجاء مسرعاً وهو لا يعلم أن الله بالمرصاد، هؤلاء الذين تجمعوا لقتل المؤمنين كان جزاؤهم بقدر حقدهم حيث قال الله فيهم : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص:٤٠].

توضح الآيات أن حقدهم أعماهم عن أن يميزوا المعجزة النهائية وهي انفلاق البحر رغم عرضه الكبير الذي يبلغ عشرات الكيلومترات، ويجب أن يميزوا ان هذا فوق قوة بشر أو قوة ساحر ، ولكن جدلاً لو كانت قوة ساحر فان هذا الساحر سيغلق عليهم البحر كما فتحه لهم ، ولكن حقدهم أعماهم عن مثل هذه الحقائق وهنا يقول الله تعالى (فنبذنهم في اليم) أي كأن الله تعالى قذفهم في البحر قذفا ورماهم فيه .

وتبعهم فرعون وجنوده وبينهم مسافة زمنية وكان فرعون أسرع في الحركة منهم لأنه يتحرك مع فرسان مقاتلين، وأما موسى عليه السلام فان معه كامل قومه من رجال ونساء وأطفال وعددهم وفق ما تقول كتب التاريخ يقارب المليون، وهذا يوافق العدد الذي يكون بحساب التناسل والتكاثر التقريبي، ولقد بين الله لحاق فرعون بالمؤمنين بقوله: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء:٦٠-٦٤].

تبعهم فرعون حتى رأى الفريقان بعضهم بعضاً، وهذا يدل على ان الأرض فيما بينهما كانت مستوية بحيث يمكن ان يرى الفريقان بعضهما من مسافة كيلومترات حيث كان موسى وقومهُ على الشاطئ، وكان هذا قبل انفلاق البحر، وذلك واضح من قول قوم موسى له: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) ، ويجيبهم بكل روح إيمانية (قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ).

ولو نظرنا إلى جغرافية الشاطئ المصري على البحر الأحمر، فإننا نستطيع تحديد مكان خروج بني إسرائيل وهو الشاطئ السهلي الخالي من الجبال وهذا موجود في شاطئ (سفاجة).

قوم موسى في شدة الخوف حيث لا سفن ولا سلاح ، وها هو البحر أمامهم والعدو وراءهم رأي العين فأين المفر؟

وكان نبي الله على ثقة بربه يتوقع مساعدة ربه ونصره في أي لحظة، ولم يهتز إيمانه ولا ثقته بنصرة ربه له ، فكان ما توقع فانفلق البحر بضربة عصا من وحي الله وعبر هو ومن معه وابقوا اثرهم كما أمره الله أيضا إذ بين ذلك بقوله: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان:٢٤] ، والرهو

يعني السكون أي إبقوا على أثركم في مكانه ليعبروا وراءكم وحيث عبرتم وبذلك فان الله أوحى لموسى بالنتيجة وبأن فرعون ومن معه حكم عليهم بالغرق .

وعبر موسى ومن معه ، وعند وصول جيش فرعون تبعوهم ، ويظهر ذلك من قول الله: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:٧٨-٧٩] .

ويظهر أن زمن الوصول إلى شاطئ البحر كان اكثر من ساعة وأن الأرض بينهم كانت سهلية يتمكن الإنسان فيها من رؤية عشرات الكيلومترات ، ويظهر ذلك من أن موسى وقومه كانوا كثيري العدد وكذلك فرعون وجيشه فانهم كثيروا العدد وبذلك فان مسيرة كل منهم ستكون عدة كيلومترات، وهذا يتطلب مسافة كبيرة داخل الماء وان ما يغري فرعون بالعبور هو ان يرى موسى وقومه مازالوا داخل الماء ولو كانوا خرجوا ما تبعهم، وهنا يظهر مقدار ما في صدور الكافرين من حقد اسود منع عنهم ان يروا ان من فلق البحر سيطبقه مرة أخرى على أعدائه سواء كان رسولاً أم ساحراً فانه فعل هذا الفعل للهروب من العداء وانه سيرد على العداء بمثله ، وكان هذا جزاء مكرهم واستكبارهم في الأرض بغير الحق وإنكارهم لوجود الله وقد بين الله مصيرهم بقوله في كتابه الكريم: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القصص:٤٠].

أما قوم موسى فان الله نجاهم من البحر قبل ان يغلق على فرعون وجنوده ، ولقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٦٥-٦٧] .

وأيضاً فان الله أوضح نجاة بني إسرائيل ثم إغراق آل فرعون بقوله: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس:٩٠-٩٢] .

واستجاب الله دعاء موسى على فرعون إذ دعا الله على فرعون ألا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم وعندها لا تقبل توبته ولكن الله حفظ جسمه فلم يأكله السمك ولا الحيوانات البحرية وجعل البحر يقذفه في اتجاه مصر ليصار إلى دفنه وليتأكدوا من موته غرقاً وان الله سيوفر من الشهود والدلائل ما يدل على تفاصيل انغلاق البحر ونجاة بني إسرائيل وغرق آل فرعون ليكون الأمر آية لمن يهديه الله إلى الإيمان بهذه الآية .

عودة بنا إلى قوم موسى حيث قال تعالى فيهم: (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)، إن هذه الآية تبين الحالة الإيمانية التي كان عليها أولئك البشر في ذلك الوقت، وأما فرعون ومن معه فقد كانوا كفاراً فأغرقهم الله، وأما من كان مع موسى فكان بعضهم مؤمناً، والآخرون يتظاهرون بالإيمان

وأن الله تعالى نجاهم لمرافقتهم موسى والمؤمنين معه ولكي يرسل لهم آيات أخرى تكون عليهم حجة لعلهم يؤمنوا.

وقد بين الله تعالى أن أكثر بني إسرائيل سوءاً كانوا مع حاشية فرعون ومخابراته بالآية التي تقول: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس:٨٣].

كذلك تبين هذه الآيات أن من آمن مع موسى هم ذرية (سلالة) من قومه وهم حملة الرسالة الأولى الذين أحس فرعون الخطر على دعوته منهم، وهم الذين مكن الله لهم في الأرض تنفيذاً لوعده حيث قال لهم وبينهم: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص:٦].

هؤلاء هم الذين آمنوا مع خوفهم من فرعون وأذنابه ومخابراته الذين هم من قومهم أصلاً.

ولقد لخص القرآن ما كان من دعوة إيمان وحق ونتائجها فيما جاء في سورة النازعات حول بعثة موسى ﷺ إلى فرعون وما كان من فرعون وما آلت إليه من نتيجة: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات:١٥-٢٦].

وكذلك لخص القرآن ما حدث مع موسى وأخيه وقومهما وجزاء الله لهما بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الصافات:١١٤-١٢٠] .

وهذه الآيات هي إشارات ربانية لمن اختارهم لحمل المسؤولية وحملوها بأمانة وبلغوها ونصرهما الله وقومهما على فرعون ونجاهم الله من الكرب الذي كانوا يعيشونه في ظل حكم فرعون حيث يصفه الله تعالى بالكرب العظيم، وهداهم الله إلى الصراط المستقيم ليكون لهما نبراساً في الدنيا وطريقاً إلى الجنة في الآخرة.

عودة بنا إلى ما جاء في كتاب التاريخ ((**مصر القديمة**)) عن قصة خروج بني إسرائيل من مصر كما وردت في الكتاب وينسبها الكاتب إلى ما قرأه عن التوراة وانا أبين هنا ما جاء في الكتاب حرفياً دون تغيير :

[والطريق إلى فلسطين من (برر عمسيس)، لابد أن يكون بمحاذاة الشاطئ الأيمن للنهر غير ان التوراة تقول ان بني إسرائيل لم يسيروا فيها على الرغم من قربها ، ولما كان موسى يخاف على قطيعه وكذلك كان يخشى ان يتبعه الفرعون وجنوده فانه اتخذ طريق الصحراء بدلاً من طريق فلسطين**]** (ص١٢٤/جلد ٧).

وبالطبع فان هذا يتوافق بعض الشيء مع ما جاء في كتاب الله، إذ انه تعالى أوحى لموسى عليه السلام ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان:٢٣]، ولذلك لابد ان يغير الطريق المعتادة وأن يسير في طريق مغاير في الصحراء وبالتحديد في اتجاه البحر لان الله أوحى له بذلك اذ قال الله لموسى أيضا: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه:٧٧].

واتجه موسى عليه السلام شرقاً نحو البحر حسب أمر ربه ويظهر هذا واضحاً من جوابه لقومه حين قالوا له : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء:٦١]، أجابهم بكل ثقة: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢]، وكان الله معه فعلاً حيث أوحى بقوله: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣].

عودة إلى ما جاء في كتاب التاريخ:

جاء في الرحيل ((**الرحيل: وفي غد الفصح خروج بنو إسرائيل بيد سامية على مشهد من جميع المصريين**)) . [سفر العدد ٣٣-٢] .(ص١٣٣/جلد ٧) .

((**اليوم الأول ثم ارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت بنحو ستمائة ألف ماش من الرجال خلا الأطفال**)) [سفر الخروج ١٢ـ ٣٧] (١٣٢/جلد ٧).

هذا يدل على أن العدد الإجمالي يفوق مليون ونصف وهؤلاء لو تجمعوا فانهم يملأون مساحة تقارب عشرة كيلومترات مربعة ، ومسيرتهم طولياً تزيد عن عشرة كيلومترات .

((**اليوم الثاني : وارتحلوا من سكوت ونزلوا بأيتام في طرف البرية**)) [سفر الخروج ـ ١٣ـ٢٠] (ص١٣٣/جلد٧).

((**اليوم الرابع : وكان موسى حذراً لأنه على الرغم من انه حصل على إذن من فرعون بالخروج من البلاد مع اتباعه كان يخاف ان يغير رأيه ولذلك سلك طريقاً غير الطريق المعتاد فلم يأخذ طريق الفلسطينيين على الرغم من أنها كانت قريبة كما شرحنا ذلك من قبل وعلى الرغم من حذره فان الفرعون غير رأيه فعلاً وتبع موسى وقومه بستمائة عربة من خيرة عرباته يسوقها نخبة من فرسانه**)) (ص ١٣٤ جلد ٧) .

<u>**تعليق**</u> : إن ما ذكرنا يتفق مع ما جاء في كتاب الله حول سلوك موسى طريق غير الطريق المعتادة ولكن ذكر العربات وهذا العدد لا يتفق مع ما جاء في كتاب الله ، فان بني إسرائيل زادوا عن المليون ونصف ولو قدر للشخص الفارس ان يقاتل مائة شخص غير مسلح ليضمن انتصاره عليهم فانه يلزم ان يكون مع فرعون خمسة عشر ألف جندي ، وهذا ما أظهره الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء:٥٣-٥٤] .

وإعلان جمع الجيش من مختلف المدن لا يكون لألف فارس لان العربة القتالية كانت تحتوي على فارسين أما لو كان من ضمن الجيش ستمائة عربة يسوقها افضل فرسانه والباقي من المشاة فإنها تكون قابلة للصحة إذ ان يكون قادة الفصائل المقاتلة الذين يركبون العربات هم ستمائة فارس فان هذا يكون قريباً من الصواب ويكون الجيش يقارب العدد المطلوب لتحقيق النصر .

ثم يتبع الكاتب قوله: (ومد موسى يده على البحر فأرسل الرب ريحاً شرقية شديدة طول الليل حتى جعل البحر جفافاً وانشق الماء)، (راجع الخروج١٤ـ٢١) (١٣/جلد٧) .
وهذا لا يؤخذ به ولا يتوافق ما جاء في كتاب الله إذ ينشق البحر بأمر ربه بمجرد ان ضربه موسى بالعصا ولا حاجة لأكثر من ذلك وهذا ما حصل لان الآية الكريمة تبين انه لما تراءى الفريقان قال أصحاب موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، أي أن موسى ومن معه تمكنوا من رؤية فرعون وجنوده بالعين المجردة والمسافة تعتمد على سهلية الأرض ، وان الإنسان يتمكن من ان يرى في الأرض السهلية مسافة تقارب الأربعين كيلومتر وبذلك فان هذه هي اكبر مسافة بينهم ويحتاج الجيش على الخيول إلى (ساعات) ليقطع هذه المسافة إذا كان في حالة هجوم. ويبدو أن الأمر لم يكن ليلاً بل نهاراً ليتمكن الجمعان من رؤية بعضهم بعضاً كما تنص الآية ، لذلك فان الزمن لا يسمح بانقضاء الليل في انتظار جفاف البحر لان فرعون يكون قد وصلهم بجنوده .

الذي حصل أنه ما أن رأى قوم موسى جيش فرعون حتى أدركهم الخوف وأبدوه لموسى وأوحى الله له ليضرب البحر فانفلق البحر فبدأوا بالعبور، ورآهم جيش فرعون، فاتجهوا نحوهم حتى وصلوا فرق البحر فرأوا بني إسرائيل وسطه، ولو كان عرض البحر قليلاً ورأوهم خارجين لما عبروا ، والذي أغراهم بالعبور رؤية بني إسرائيل في فرق البحر فدخلوه ليتبعوا بني إسرائيل ليقتلوهم كما نصت الآية: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس:٩٠]، وهذا ما أغراهم كما قال الله: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الذاريات:٤٠]، أي كأن الله قذفهم في البحر .

((**الأيام الخامسة والسادسة والسابعة : بعد عبر هذه البحيرة بالكيفية السابقة سار بنو إسرائيل في بيداء شور ومشوا ثلاثة أيام في الصحراء لم يجدوا ماءً**)) .(١٣٦/جلد ٧) .

وفي هذا بعض الصواب ولا نعلم أين تقع صحراء شور لأن المسميات تغيرت منذ ذلك الزمان حتى الآن .

نعود الآن إلى رأي الكاتب الشخصي إذ يقول: (ومما سبق نعلم ان خرافة غرق فرعون في البحر الأحمر وموته لا أساس لها من الصحة وقد جاء ذلك من الخلط من ترجمة ((يام سوف)) بالبحر الأحمر أو بحر القلزم هذا فضلاً عن ان ما جاء في القرآن الكريم لا يشعر بان فرعون الذي عاصر موسى قد غرق ومات ، بل على العكس نجاه الله ببدنه ليكون آية للناس على قدرة الخالق والتعبير : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ ، يعادل التعبير العامي (خلص بجلده) (ص١٣٥/ جلد٧).

وهنا أعود لأعاتب رجال الدين وأقول لماذا لم يحاول أي منكم أن يبحث أو يدرس ويرى أين موقع أنبياء الله في كتب التاريخ وماذا يقال عن أنبياء الله في هذه الكتب وما الإنجاز الذي حققه أنبياء الله والأثر الذي تركوه .

لا أقول هذا دفاعاً عن أنبياء الله فهم صفوته في الأرض والله كفيل بالدفاع عنهم، ولكن لمصلحة العباد الذين لا يستطيعون التمييز اذا اختلطت عليهم الأمور، فالكتاب ينفي أن يكون العبور من البحر الأحمر، وأنا أقول وأسأل ما البحر الذي يلاقينا إذا اتجهنا شرقاً من داخل مصر؟ فالجواب لا يوجد بحر

إلا البحر الأحمر وهو يحد مصر شرقاً وبنص الآية الكريمة حيث قال الله: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء:٦٠]. أي أن فرعون وجنوده تبعوا موسى ومن معه متجهين شرقاً فماذا نقول لكتاب الله وهو الصدق المطلق ؟

أما من جهة: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس:٩٢] ، على انه لم يمت كما يقول الكتاب (خرافة غرق الفرعون) ، فإننا نقول بان كتاب الله يؤخذ وحدة واحدة لا تفريق فيه ، وكذلك يتوجب أولا فهم معنى غرق ، وتعني مات في الماء ، وأما من لم يمت فيكون غطس ، ولنفرض أن من عمل في تأليف هذا الكتاب لا يفهم اللغة العربية ولكنه قرأ القرآن الكريم الذي ذكر موت فرعون ومن معه غرقاً في الآيات التالية:

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء:٦٥-٦٦]، ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان:٢٤] ، ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٣٦]، ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه:٧٨] ، ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف:٥٥]، ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص:٤٠] .

ألا يكفي هذا لإقناع من لم يقتنع ان الله تعالى اغرق أعداء رسوله من الظالمين؟

وكذلك ورد في الكتاب ((**مصر القديمة**)) ما يلي : (ونحن من جانبنا نعلم ان الفرعون (رمسيس الثاني) بعد حروبه التي شنها في النصف الأول من حكمه جنح للسلم واخذ يحكم البلاد في هدوء مستمر أربعين عاماً تقريباً) (ص ٩/ مجلد ٧).

ونحن نرى صحة هذا إذ انه في أول حياته ادعى انه ابن إله وحقق انتصارات في حروبه في أطراف دولته التي بلغت نهر الفرات وشمال سوريا والى السودان وليبيا ولما حقق هذا دار في خلده ادعاء الألوهية فادعى انه اله في مصر فاغضب الله تعالى فكان ما كان من ولادة موسى ﷺ وتربيته له ثم خروجه هارباً إلى مدين ثم عودته لدعوة فرعون إلى الله والمناظرة السحرية وسنوات القحط وآيات الله، إن المدة التي تغطي هذه الأحداث تقارب أربعين عاماً لم يقم فرعون بأي غزو خارجي لعدم الحاجة له من جهة وانشغاله بأمور كفره وجبروته من جهة أخرى.

وأيضا فقد جاء عن مرنبتاح ابن رمسيس الذي تولى الحكم بعده مباشرة:

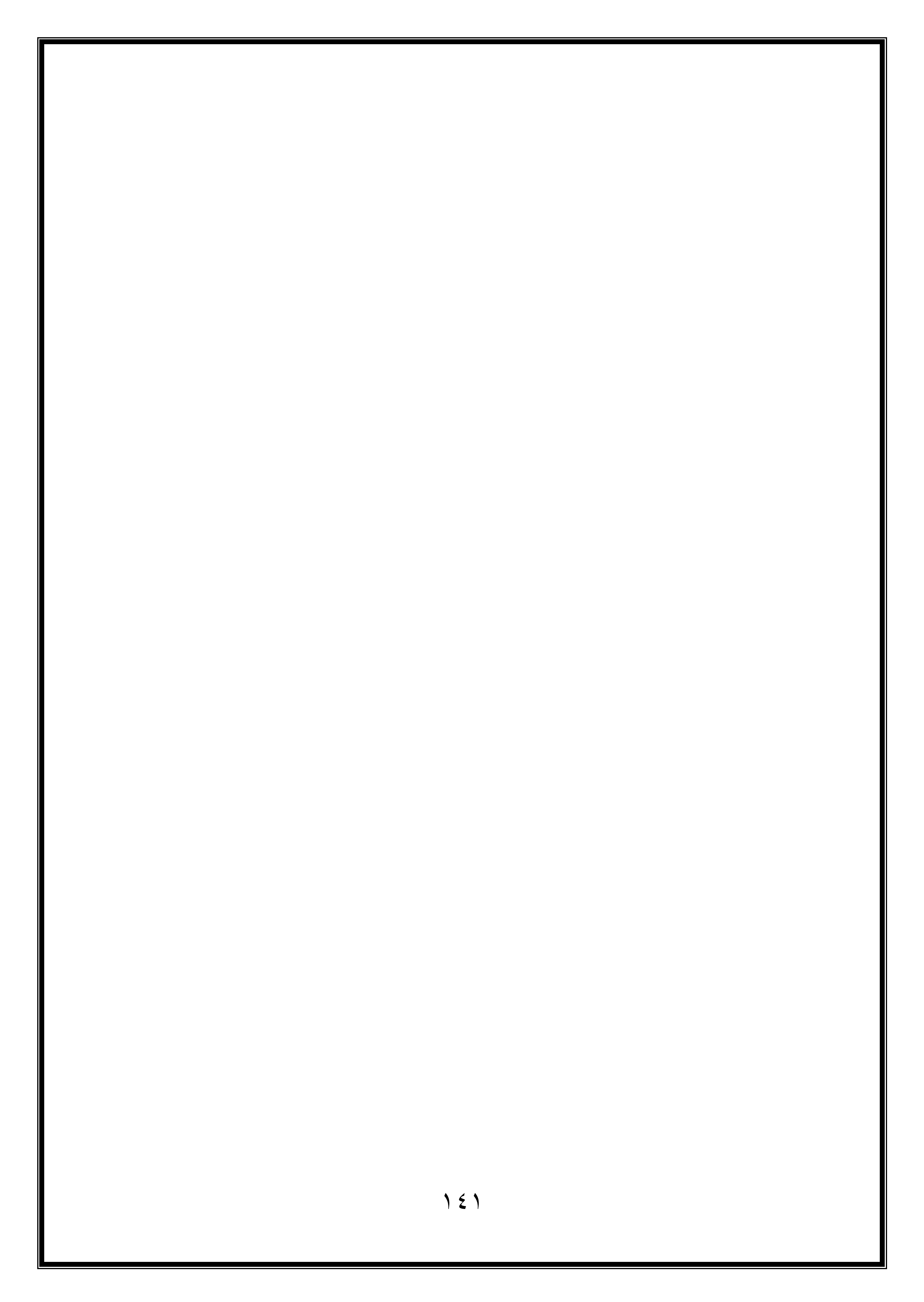
[إن مرنبتاح في سني حكمه الأولى قد وجه اهتمامه إلى توطين النظام في ممتلكاته الأسيوية اذ كانت الأحوال قد اضطربت بعض الشيء على اثر التغيرات التي حدثت في عرش الملك**]** (١١-١٢/جلد ٤).

وجاء أيضا: (قد اضطر مرنبتاح في بداية حكمه إلى قيادة حملة في سوريا حيث أعقبت وفاة أبيه ثورة عارمة هناك وقد أحرز نصرا سريعاً) ((**معالم تاريخ مصر القديمة**)) (ص٤٨٧).

وهذه الحملة هي للانتقام لموت والده إذ كان يظن ان موسى وقومه اتجهوا إلى فلسطين حيث كان موسى ﷺ يطلب ان يخرج بقومه ليعيشوا في فلسطين وهو الجزء الشرقي من مصر وحيث قدم يعقوب من هناك ، وهذا يدل على ان منطقة خروج موسى ومن معه من ساحل البحر الأحمر في نقطة تقابل راس محمد غرباً (ملتقى البحرين) بحيث يظن من يقف فيها على ان القوم قطعوا البحر من هناك وخرجوا إلى سيناء فبادر مرنبتاح إلى الذهاب إلى فلسطين لقتال بني إسرائيل والانتقام لوالده ، وكما

يتبين فقد حقق نصراً سريعاً وقتل من قتل وعاد سريعاً ليقاتل الليبيين الذين هاجموا مصر من الغرب حتى وصلوا ضفاف النيل وانتصر عليهم ، وأخيرا هداه الله واتبع ديانة التوحيد ديانة موسى حيث بدأت تنتشر ويبرز ذلك ماجاء عنه في كتاب التاريخ : (وكذلك توجد لوحة لهذا الفرعون منحوتة في الصخر يشاهد فيها يتعبه (رومع ردي) ـ الكاهن الأول لآمون امام الإله آمون رع) (١٦٤/جلد ٧) .

وبدأت الفوضى في مصر بعد خروج بني إسرائيل وغرق فرعون وجزء كبير من جيشه الإجمالي (كل من خرج معه) ولم تخرج مصر من هذه الفوضى إلا باتباع ديانة التوحيد حيث عادت دولة مؤمنة قوية كما سيرد لاحقاً.



الفصل السادس بنو إسرائيل في الصحراء

ومن أوفى بعهده من الله؟

لقد أرسل الله رسوله موسى ﷺ بالهدى ودين الحق وعززه بأخيه هارون سنداً ووزيراً له ليهدي القوم الظالمين وليخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكنهم كذبوا بآيات الله، فدمرهم الله تعالى ولقد لخص الله ذلك وبينه بقولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٥-٣٦].

ولم ينفع آل فرعون علوهم في الأرض وفسادهم فيها بل أدى هذا إلى غضب الله عليهم فذهبوا هباءً منثورا، وتركوا كل ما أنتجوا من نتاج مادي مثل القصور والمزارع والأطيان والأموال التي كان يجب أن تكون سبب شكرهم لله فغادروها وتركوها إرثا لغيرهم: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٥-٢٩]، وطبعا فإن السماء والأرض لا تبكي على من كان عدوا لله. في الوقت الذي أطبق فيه البحر على فرعون ومن معه أجمعين، فإن موسى ومن معه خرجوا جميعا وفق نص آيات الله ، حيث تقول الآيـة: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء:٦٥].

وفي تصوري أن موسى ﷺ كان يسير في مؤخرة قومه يسوقهم أمامه ليكون المدافع الأول عنهم إذا تمكن فرعون من اللحاق بهم بما يحمل معه من معجزات الله وسلطانه ، وتكفي العصا التي تتحول إلى ثعبان مبين ليدافع بها عن نفسه.

والأهم من النجاة المادية النجاة من الذل الذي كانوا يلاقونه على أيدي فرعون وجبابرته ويذكر الله تعالى سبب اختياره لبني إسرائيل لحمل رسالة الله لخلقه ولقيادة الناس إلى نور الإيمان فهم خير أهل ذلك الزمان وهم أحفاد إبراهيم وإسحاق ويوسف ، وها هو يبعث فيهم موسى وهارون فهذه سلالة النبوة ، لذلك فإن الله تعالى يعرضهم للاختبارات وللبلاء لتمحيصهم ولفرز المؤمنين الصابرين منهم وليبعد الكافرين وأعداء الله الذين لا يصبرون على البلاء الرباني ويعودون لكفرهم مع أول ابتلاء ولقد بين الله تعالى هذا الاختيار وهذا الاختبار بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان:٣٠-٣٣].

لقد علمنا من قبل أنه حتى عبور البحر لم تؤمن لموسى إلا ذرية من قومه، وها هم جميعاً مؤمنهم وكافرهم يخرجون مع موسى؛ المؤمن هرباً بإيمانه ومهاجراً إلى ربه والكافر هرباً بنفسه ورغم أنه شاهد المعجزات التسع التي شاهدها فرعون إلا أنه لم يدخل الإيمان قلبه. مع أن أياً من الآيات التسع كافية لأن تجعل أي إنسان يؤمن بربه.

لقد ظهرت حقيقة الكافرين من بني إسرائيل بعد خروجهم من البحر الذي انطبق على فرعون وأعوان الشر ممن معه، وبعد أن شعروا بسلامة أجسامهم وجدوا سكان تلك المنطقة يعبدون الأصنام،

وكان المفروض أن يهدوهم إلى الصواب وإلى عبادة الله إلا أنهم طلبوا من موسى ﷺ أن يجعل لهم صنمـاً يعبدونه مثلهم، وما أسرع أن نسوا نصر الله لهم الذي قال فيهم: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٠].

ولقد بين الله تعالى طلب الكفر بعبادة الصنم بقوله: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠].

إن رواسب الجاهلية وانحرافاتها هي أكبر ما سيواجهه موسى ﷺ في نفوس قومه، تلك النفوس التي طال عليها الأمد وهي تحت القهر حتى اعتادت عليه وطاب لها وفقدت طعم الحرية والإيمان، فها هم يطلبون صنماً يعبدونه من النبي الذي أنقذهم من عدوهم بعون الله الواحد الأحد الذي وهب له النبوة والآيات ورأوا بأعينهم ولم تكد مناظر الآيات الحية تغيب عن الأذهان.

لقد نسوا آيات معجزات وصراعات بين موسى وفرعون دامت عشرين عاماً أو أكثر حين رأوا أصناماً واطمأنوا إلى عدم وجود فرعون .

لقد انتهى موسى ﷺ من مواجهة فرعون وبدأ يواجه الكفر في نفوس قومه فهذه هي المسؤولية الأولى الملقاة عليه وهي دعوة قومه للإسلام والوحدانية وإخراجهم من الظلمات إلى النور وليرحل بهم عن مصر وعن ظلم فرعون.

إن واجب موسى ﷺ أن يذكر قومه بربهم وذلك من خلال تذكيرهم بأيام الله وهي الأيام التي ظهرت فيها آيات الله ومعجزاته التي تدل عليه بوضوح تام مثل انفلاق البحر والمطر والجراد والقمل وطوفان نوح والأيام التي حل فيها العذاب على الأُمم السابقة التي لم تؤمن بربها مثل عاد وثمود وقوم لوط وليذكرهم أيضاً بنعم الله عليهم وإنقاذهم مما كانوا فيه من بلاء .

ولقد واجه موسى ﷺ مواقف من قومه كان فيها كفر واضح، وجحود لنعم الله عليهم، وكان يذكرهم في كل موقف بما كانوا فيه ويدلهم على طريق استنزال النعم ودوامها، ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٥-٨].

وضرب الله تعالى لموسى ﷺ ميقاتاً بعد أن انتهت مهمته الأولى تجاه قومه وهي تخلصيهم مما كانوا فيه من ذل واستعباد.

وكانت فترة اللقاء إعداداً لنفسية موسى عليه السلام للمثول بين يدي ربه وليتلقى عنه مباشرة وهذا ما يحتاج إلى تجرد بالتأمل في مخلوقاته من سماوات ونجوم وأرض وجبال واقتضى الأمر غياب موسى عن قومه فاستخلف عليهم هارون فأوصاه وحمله مسؤولية القوم في غيابه وقال له: ﴿ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٢].

إن موسى عليه السلام يعلم أن هارون نبي وأن الله أعانه به على حمل المسؤولية ومع ذلك أسدى إليه النصح لما يعرف من طبيعة قومه، وثقل المسؤولية التي تركها له، ولقد أخذ هارون النصيحة بكل تواضع ومحبة ويذهب موسى للقاء ربه ليكلمه مباشرة ، هذا الكلام الذي اختص الله به موسى عليه السلام دون عباده. وهذا ما جعله يطلب من ربه أن يمكنه من رؤيته مباشرة، ولكن عظمة الله لا يجليها الله لبشر لأن البشر لا يحتملون هذا التجلي. وإن ثقة موسى بربه ومحبته له وعبوديته الخالصة هي التي جعلته يطلب من الله أن يمكنه من أن يراه، وهذا الطلب من خالص إيمان، وقد ترفق به رب العزة وقال له لن تراني، ولكي يقنعه بذلك طلب منه أن ينظر إلى الجبل فإذا استقر الجبل مكانه فإن موسى قادر على رؤية الله، ويتجلى الله تعالى للجبل. وهذا التجلي الذي لا نعلمه ولا نتصوره لأنه أعلى من قدراتنا، ويندك الجبل من هيبة الله تعالى، فأدرك موسى عليه السلام رهبة الله تعالى وهذا ما جعله يخر إلى الأرض من أثر الصعقة التي أحس بها : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، أي أغمي عليه من الهيبة والرهبة وعندما أفاق وصار باستطاعته النطق خاطب ربه بقوله: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ثم أتبع: ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

والرسل هم أول من يؤمن من أقوامهم وتدركهم كما أدركت موسى رحمة الله وبشراه بأنه اصطفاه وحمله رسالة إلى قومه ليخلصهم جميعاً مما هم فيه من طغيان، ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

[الأعراف:١٤٢-١٤٧] .

إن الله تعالى يعلن إحدى سننه في خلقه بشأن أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وما من مخلوق يتكبر بحق لأنه مخلوق ولأن الكبرياء لله الخالق وحده وأن من يتكبر فإن الله سيصرفه عن فهم آياته وعن الانصياع إليها، سواء كانت هذه الآيات في المخلوقات المختلقة أو في الكتب السماوية المنزلة، وإن من يتكبر فإن الله سيطبع على قلبه ليبقى على ضلاله ومصيره النار وساءت مصيراً،

وبينما كان موسى عليه السلام في حضرة الله وفي ذلك الموقف الرهيب الذي تحار فيه الأرواح المؤمنة، ومكث في هذا الموقف المشرف أربعين ليلة، وورد ذكر هذا الموقف في الكتاب المقدس في النص التالي:

((**ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة**)) [سفر الخروج: الإصحاح الرابع والعشرون].

وكان الضالون من قومه حيث تركهم يصنعون عجلاً جسداً له خوار صنعوه مما جلبوه معهم من ذهب قوم فرعون بغير حق.

لقد فوجئ موسى بما أخبره الله من أن قومه انهاروا أمام أول تجربة واختبار فما أن لاح لهم صنم حتى عبدوه ، فعاد موسى غضبان يوبخهم ويوبخ أخاه ويمسك بلحيته ويجره منها وألقى الألواح التي تحمل تعليمات رب العالمين .

أثناء غياب موسى للقاء ربه اقترح عليهم السامري حلاً للتخلص من الذهب الذي جلبوه معهم أن يصنع لهم منه عجلاً جسداً له خوار ويصدر صوتاً إذا هبَّ عليه الهواء ، وهذا ما حصل وقال لهم: إن هذا العجل هو إله موسى فعبده أهل الضلالة منهم.

وطبيعة الضالين البعيدة عن الإيمان أنستهم أن هذا العجل لا يكلمهم وإذا طلبوا منه شيئاً لا يجيبهم وهذه صفات صنم وليست صفات إله ولم يدركوا أن هذا الصنم لا يستطيع أن يدفع الأذى عن نفسه فكيف يكون إلهاً ويحمي شعباً، لقد نهاهم نبي الله هارون عليه السلام عما فعلوه ونصح لهم وأمرهم بالصواب فأعرضوا عنه وكادوا يقتلونه، ورفضوا نصائحه وقالوا سنظل نعبد هذا الصنم إلى أن يعود إلينا موسى.

ويتبين هذا من قول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه:٨٣-٩١].

وعاد موسى عليه السلام إلى قومه وهو في أشد الغضب لأنه نبي الله ويغضب لله ولقد ظهر غضبه قولاً

وعملاً ، ظهر في قوله لهم: ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف:١٥٠].

وذكر الكتاب المقدس هذه الواقعة في النص التالي:

((**فقال الرب لموسى اذهب إنزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به. صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له، وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر،... وكان عندما اقترب من المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه...**)) [سفر الخروج: الإصحاح الثاني والثلاثون].

كما ظهر غضب موسى عليه السلام في إلقاء الألواح التي يحملها وشده أخاه من لحيته وتعنيفه له وهذا يدل على شدة الغضب. وما كان من هارون عليه السلام إلا أن استثار فيه عاطفة الأخوة ليسكت غضبه ويهدئ من ثورته حيث قال له: ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٠].

لقد وصل الأمر بين هارون وقومه إلى حد المفاصلة، فإما أن يصبر على ما فعلوه حتى يرجع موسى، أو أن يفارقهم واختار الصبر حتى لا يتفرق بنو إسرائيل، وبين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه:٩٢-٩٤] .

بعد هذه المجادلة بدأ الغضب يهدأ وخاطب موسى ربه طالباً المغفرة له ولأخيه: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٥١].

ثم أدار موسى وجهه إلى السامري الذي صنع التمثال وسأله عما فعل من فتنة لبني إسرائيل، وبعد الحوار بينهما طرده.

إنه أقلهم مسؤولية إذ لم يجبر أحداً على عبادة التمثال فالمسؤولية الأولى تقع على الناس الذين عبدوا تمثالاً، ثم تأتي المسؤولية بعد ذلك على القائد الجديد الموكل بهم وبتوجيههم وهو هارون عليه السلام ولذلك اتجه أخيراً إلى السامري صانع التمثال وقال له: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ [طه:٩٥]، فيأتي بعذر يدل على أنه يتملص من الإجابة بأسلوب يعود به إلى الدين وبأنه أخذ حفنة تراب من الأرض حيث رأى جبريل ينـزل وقذفها على الذهب فحولته إلى هذا العجل.

فما كان من موسى عليه السلام إلا أن طرده من بني إسرائيل وترك أمره إلى الله طرده ليعيش في الصحراء هائماً منفرداً طيلة حياته، وأمر بالتمثال فحرقه موسى ونسفه ورماه في اليم، وبينما موسى عليه السلام يحرق التمثال وينسفه أعلن لقومه عن الله الواحد الأحد وذكرهم ببعض صفاته.

وقد بين الله تعالى هذا بقوله: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ

فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴾ [طه:٩٥-٩٨] .

وجاء ذكر حرق تمثال العجل في الكتاب المقدس في النص التالي:

((**ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذرّاه على وجه الماء**)) [سفر الخروج: الإصحاح الثاني والثلاثون].

شاهد عبدة التمثال ما حل به حيث لم يدفع عن نفسه شيئاً، وأسقط في أيديهم وعرفوا أنهم كانوا على ضلالة كبيرة وبدأ بعضهم بالاستغفار حيث ظهر ذلك من قول الله: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٨-١٤٩].

وأيضاً فإن الله قال فيه: ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴾ [طه:٨٩] .

بعد هذا هدأ الغضب في نفس موسى وفطن إلى الألواح التي رماها عند وصوله فتوجه إليها وأخذها : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٤] .

لقد حكم موسى عليه السلام على السامري بالعزلة في معيشته وتعامله وألا يتعامل مع أحد ما بقي حياً وأما حكمه على القوم الذين عبدوا العجل فكان القتل حيث يصطف القوم صفين ، صف للمؤمنين ويقابلهم صف للذين كفروا فيقتل كل مطيع عاصياً ومع ما في هذا الأمر من مشقة على المطيع أن يقتل أخاه العاصي إلا أنهم يستحقون ذلك ولو أطاعوا هارون ما عبدوا صنماً ، وها هم يدفعون ضريبة ذلك ، فقاموا لتنفيذ العقوبة فتاب الله عليهم.

ولقد ورد هذا بقول الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٥٤].

إن طبيعة السوء في أهل الضلالة منهم قادتهم إلى الكفر وإلى عبادة العجل ، ورغم هذا فإنهم بعد انصياعهم لتنفيذ عقوبة القتل قبل الله توبتهم وعفا عنهم. ماذا يريد بنو إسرائيل أكثر من هذا وماذا يجب

عليهم أن يقدموا لله مقابل هذا؟

يجب أن يكونوا عابدين لله ربهم مطيعين له وفي هذا مصلحتهم في الدنيا والآخرة .

ولكن هل شكروا الله وعبدوه؟ هذا ما لم يحصل من تلك الفئة الباغية من بني إسرائيل الذين تأصل في وجدانهم الكفر وكما يقول الله: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ [البقرة:٩٣]، وهذا امتد في سلالتهم التالية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها حيث بدر مثل هذه التصرفات من يهود المدينة المنورة في مواجهة الإسلام بدلاً من أن يتبعوه، ولكن هيهات فقد أتاح الله لهم الكثير من الفرص كما سيتبين معنا رحمة بهم ولكي تكون حجج الله عليهم كثيرة ومتلاحقة ولا تكون لهم عليه حجة، وقد كان.

وقد بين الله تعالى أحد مواقفهم من موسى بقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩٢-٩٣] .

وإن الله تعالى يعرف رسوله النبي الأمي بهذه الفئة الباغية التي لا صواب لها وإنما مآلها إلى الضلال ولا تتأثر بآية مهما عظمت وها هم يسألون نبي الله أن ينزل عليهم كتاباً من السماء فالله يحذر نبيه ويطلب منه عدم الاكتراث بطلبهم، وأنهم لن يسلموا مهما جاءهم به فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر من هذا الأمر، ومع ذلك لم يسلموا وطلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة فأماتهم الله ثم أحياهم ورغم المعجزات الكثيرة فقد عبدوا العجل أثناء غياب موسى عنهم لميقات ربه ويظهر هذا من قول الله فيهم: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٥٣] .

ويعقب الله تعالى أيضاً بآية تثبت سوء أهل السوء من بني إسرائيل منذ ذلك الجيل الذي عبد العجل إلى قيام الساعة ، وكأنها تتوارث السوء في الكروموسومات التي في الخلايا الوراثية في أبدانهم لا يحيدون عن الباطل مع الذلة في الحياة وغضب من الله إلى قيام الساعة ويظهر هذا جلياً من قول الله فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٢] .

ونعود إلى نبي الله موسى عليه السلام فبعد أن هدأ روعه وخف غضبه ونفذ قومه ما طلب منهم بقوله : ﴿ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء:٦٦]، وتاب الله تعالى عليهم عند ذلك.

اختار موسى من قومه سبعين رجلاً من خيرتهم وأكثرهم ورعاً وأقربهم إلى الإيمان لميقات الله وعاد بهم موسى عليه السلام لميقات ربه ليسمعوا ربهم حيث كان قد حدث قومه بما كان معه في لقاء ربه الذي

كتب له فيه الألواح التي فيها تعليمات رب العالمين.

سبب هذا الميقات لم يذكر ولكن مادام الله ذكره فقد كان، وفي أثناء لقاء الله تعالى أخذتهم الرجفة وكان هذا بلاءً ربانياً لاختبار ما يكون منهم من تصرف تجاه ربهم فكانت البادرة من موسى ﷺ الذي توجه إلى الله يتوسل إليه ويطلب الرحمة والمغفرة بعد إعلانه استسلامه لربه ، حيث قال لربه: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ [الأعراف:١٥٥]، وهذا تسليم بعظيم قدرة الله عليهم ويتم موسى دعاءه لله بأن لا يعاقبهم بفعل السفهاء من الأمة الذين عبدوا العجل فهؤلاء هم خيرة القوم. وأتم موسى رجاءه لربه بقوله : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف:١٥٥] ، ثم يكمل موسى ﷺ رجاءه لربه بقوله: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ [الأعراف:١٥٥] ، وفي هذا رجاء من موسى لربه ليرفع البلاء ويخفف عن أمته لئلا يضلوا ولكي لا يفتنوا وليبقوا على طريق الحق، ثم يعود لطلب الرحمة من ربــــه حيث يقول: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٥] ، ثم يكمل دعوته بقوله : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي يا الله إننا رجعنا إليك ونلتجئ إليك بحاجتنا دائماً .

كان دعاء موسى نموذجا خيراً لدعاء العبد الصالح المطيع لربه المستسلم له فكيف لا وهو نبي الله . ويجيب الله تعالى موسى ﷺ : ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] .

إن الله هو العادل فعذابه يصيب من أخطأ ولم يستغفر فقط ورحمته أكبر وتسع المصيب الطائع وتسع المخطئ حين يستغفر ربه وبذلك فإن رحمته تسع كل شيء ، ويكمل الله تعالى حديثــه لموسى ﷺ عن أمـــر من أمور الغيب مما سيكون مع بعض بني إسرائيل، ذلك الجزء الخير الذي ستشمله هداية ربه وقد ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧] .

وفي هذه الآيات يبين الله تعالى سلفاً عن امتداد أمة موسى أي الفئة الصالحة التي ينتمي إليها موسى، والله تعالى يخبر أن هذه الأمة ستتبع التوراة حيث قال: ﴿ يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وكذلك فإن أحفادهم عندما يبعث الله عيسى ﷺ فإنهم سيتبعونه وذلك لأن الرسالات

السماويـة هـي امتداد لأمـة توحيد وإسلام واحـدة حيث تقـر الآيـة وتقـول : ﴿ عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] ، أي أن الإنجيل عندهم أيضاً ، إذاً فهو في عقبهم وهم من أتباعه ، وأحفادهم الذين سيتبعون الإنجيل سيؤمنون بمحمد ﷺ النبي الأمي آخر الأنبياء والمرسلين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف:١٥٧] .

إن الله تعالى يخبر موسى بما سيكون من أهل الخير، حيث أن الله تعالى يتحدث عن امتداد سلالة طيبة تحمل التوراة ثم الإنجيل ثم تتبع القرآن وهذه السلالة لم توجد إلا في فلسطين، وهي بذلك تكون قد نفذت عهدها مع الله كامتداد لنسل إبراهيم وفق ما ورد في الكتاب المقدس بالعهد بين الله تعالى وبين نسل إبراهيم **(يكونون عباداً لي وأكون إلههم)**.

ويخاطب الله تعالى هذه الخيرة من بني إسرائيل (من خلال القرآن) ويذكرهم بما كان من الله من عطاء خير لهم ويدعوهم إليه ليؤمنوا به وبرسوله، وإن الله الذي يسر لهم الرزق والنصر في السابق سييسره لهم في أي وقت ما داموا مؤمنين موحدين لا يبطرون بالنعمة ولا يكفرون بها ويؤدون لله فرائضه وأوامره ، وكذلك يبين الله تعالى أنه غفار لمن أخطأ ثم تاب وعاد إلى طريق الصواب.

ولقد جاء هذا في قول الله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ۝٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٠-٨٢] .

إن الله تعالى يعرض أمته لابتلاءات ليميز الخبيث من الطيب وهناك أناس من هذه الأمة سيسقطون على الطريق ولكن الأصل الصالح سيستمر وهذه الفئة ستكون مسلمة صالحة وتتبع النور وسنتعرض لذلك لاحقاً في حينه.

تميل بعض التفاسير إلى أن سبب الرجفة التي أصابت السبعين أنهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة .

وأما ما جاء في تفسير القرطبي ((**الجامع لأحكام القرآن**)) الجزء الأول الصفحة (٤٣٦) ، فهو يقول بأن الذين طلبوا رؤية الله جهرة هم القوم الذين عاد إليهم موسى من لقاء ربه وبذلك فإنهم ليسوا السبعين الذين رافقوه ، بل هم من عامة بني إسرائيل.

ونحن نؤيد ما جاء من أن طلب رؤية الله جهرة هو من أهل السوء من عامة بني إسرائيل وليس من السبعين رفاق موسى للقاء ربه ، إذ لو أخذنا بالاعتبار الآيات لوجدنا أن هذا بعيد الاحتمال حيث أنهم كما تقول الآية خيرة القوم حيث اختارهم موسى لميقات الله ليشهدوا كلامه مع الله تعالى ليخبروا القوم الآخرين وهؤلاء من المؤمنين الذين شهد الله بإيمانهم .

وأما الرجفة فإن الله تعالى لم يذكر سببها كما أنها لم تؤثر على موسى عليه السلام شخصياً وإنما أصابت من معه، ويستدل من ذلك على أنهم لما سمعوا كلام الله لموسى لم يحتملوا هذا الموقف العظيم الذي يتعرضون له لأول مرة فلم يحتملوا الرهبة الشديدة فرجفوا ولم يرجف موسى عليه السلام لأنه يأتي للقاء الثالث.

وهذه الأمة سيأتي الحديث عنها لاحقاً، وهي امتداد حملة كتاب الله، والآية تخبر عنهم وعن وجودهم في صدر الإسلام.

ولقد ثبت الله تعالى هذه الاستمرارية من هذا النسل بقوله تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩] .

وسيظهر لنا لاحقاً كيف أن الله تعالى يتحدث عن هذه الفئة المؤمنة في آيات كثيرة ومواقف كثيرة سترد لاحقاً.

كما وردت شهادة الله بهذه الفئة المؤمنة في الكتاب المقدس حيث جاء :

((**فقال الرب لموسى إجمع لي سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ الشعب وعرفاؤه .. فأنزل أنا وأتكلم معك هناك وآخذ من الروح الذي عليك واضع عليهم**)) [سفر العدد - الإصحاح الحادي عشر] .

لقد كان السبعون مؤمنين مستمعين عندما تم اللقاء وسمعوا كلام الله لموسى وهم شهود ليبشروا المؤمنين من قومهم وما هم إلا صحابة موسى عليه السلام ، وبعد أن تم اللقاء عاد موسى إلى قومه، وشهد هؤلاء أمام القوم بما سمعوا بآذانهم ، فثارت الغيرة والحسد في نفوس من خلت قلوبهم من الإيمان ، وهم الذين عبدوا العجل وهم الأغلبية من بني إسرائيل ، وهم أحفاد من رموا يوسف عليه السلام في البئر حسداً ، ومن شدة حسدهم ممن سمعوا كلام الله طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة ليكونوا أعلى شأناً ممن سمع الله، وهذا ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

وإن مما يثبت أن الذين طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة هم من عبدة العجل قول الله تعالى بالوضوح الذي لا لبس فيه ولا احتمال لمعنى آخر: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٥٣] .

هذه الآية تبين بالوضوح التام ان الذين طلبوا رؤية الله جهرة هم عبدة العجل ، وأما رفاق موسى فهم الذين اختارهم موسى للقاء ربه ليكونوا شهوداً على هذا اللقاء ، قال الله فيهم : ﴿ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف:١٥٥]، وأما فيمن طلبوا رؤية الله جهرة ، فقد قال الله تعالى فيهم : (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ) ، كما أن موسى عليه السلام لا يمكن أن يختار إلا من يثق بإيمانهم وهم أهل ليكونوا صحابته.

هذه هي فطرة النفس التي تملكها الشيطان وعمت عن الغيب والغيبيات ولا ترى إلا المادة والمحسوس ولا تنضبط إلا بالسيف والضرب فأخذتهم الصاعقة وأماتهم الله، وأي موت، يجب أن يحسوا بالموت وبعذابه وبخروج الروح، أما كيف حصل هذا الإحساس فإنه بعلم الله لأنه ما من ميت عاد بعد الموت ليشرح كيف يكون عذاب الموت.

ثم أحياهم الله بعد أن أماتهم وبعثهم مرة أخرى لعلهم يشكرون ، وأعطاهم الله فرصة أخرى مع آية كبيرة ولم يكادوا ينتهون من الآية التي سبقتها والفرصة السابقة وهي عبادة العجل حتى أراهم الله آية أخرى حيث أماتهم وأحياهم وأعطاهم فرصة ليتوبوا ويثوبوا لرشدهم ولكن هيهات لمن أشربوا في قلوبهم العجل .

ولم يكتف رب العزة بأن أحياهم بل ليريهم كرمه على عباده الذين مازالوا في الصحراء وأنه يرعاهم حيث يسر لهم طعاماً دون أن يبذلوا فيه جهداً وهو ألذ طعامٍ لأنه من السماء وكذلك وقاهم حر الشمس بأن ظلل عليهم الغمام .

إنهم يرون بأعينهم الغمام يظللهم كما أنهم يرون بأعينهم الطعام ييسر لهم من السماء، ألا يدل ذلك على وجود إله خالق وراء هذه الآيات؟ إن من يرى هذه الآيات بعينه يجب أن يؤمن بالله كمن يراه جهرة لأنه يرى جهرة ما هو مغاير لنواميس الكون التي اعتاد عليها في حياته ولا يمكن أن يخترق هذه النواميس إلا خالقها.

تقول الروايات أن الله سخر لهم (المنّ) يجدونه على ما يحيط بهم من نباتات صحراوية يأكلونه حلو المذاق وكذلك طائر السلوى يجدونه حولهم دائماً على غير ما هو مألوف في جو الصحراء يصطادونه بسهولة دون بذل جهد وبذلك يسر الله لهم أفضل طعام دون جهد في صحراء قاحلة وظللها بالغيوم ، فهل آمنوا وشكروا؟ لقد ظلموا أنفسهم بعنادهم وجحودهم هذه النعم وهذا ما بينه الله تعالى بقوله: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة:٥٧] .

إن هؤلاء الضالين عبدة العجل أتيحت لهم الفرص الكثيرة حيث كانوا يعصون ويسامحهم الله ثم يعصون ثم يعفو عنهم إلى أن خرجوا من رحمة الله كآخر فرصة لهم مع نبي الله داود عليه السلام ولم يغتنموا أي فرصة للتوبة وهؤلاء يخاطب الله تعالى رسوله محمدا ﷺ وبطبيعة السوء فيهم فهؤلاء الذين هم منهم يهود المدينة المنورة وخيبر وهم بقية أولئك السلف السيئ وهم أحفاد تلك الأسباط السيئة التي لعن الله تعالى وفيهم قال الله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٧٥] .

ومع كل آية كانوا يتظاهرون بالإيمان لموسى عليه السلام لفترة وجيزة ثم يعودون وينقضون مواقفهم ويعربون عن عدم رضاهم وعدم إيمانهم وهم بما فيهم من كبر يعتبرون أنهم يستحقون أي نعمة من الله دون أن يكون عليهم واجب الشكر لله الخالق والعياذ بالله منهم .

ويريد الله أن يأخذ عليهم الحجة الكبرى ويشهد عليهم أنبياءهم وخيرتهم من القلة المؤمنة والذين هم السبط الأمة التي منها موسى عليه السلام ويرفع الله تعالى الجبل ويضعه فوقهم لدرجة أنهم ظنوا أنه واقع بهم (فوقهم مباشرة) .

إن قوة الميثاق تتناسب مع القوة اللازمة لاقتلاع الجبل ورفعه وتحريكه فوق معسكر بني إسرائيل جميعاً ليشهدوا هذه العظمة والجبروت التي ستكون متناسبة مع قوة العهد الذي سيؤخذ عليهم وأمرهم الله أن يأخذوا ما في العهد بنفس الاندفاع والتصميم وأن تكون لديهم الإرادة على تنفيذ بنوده بنفس التصميم.

ولا بد أن يدرك من يعاهد مثل هذا العهد أن زمن الرفاهية قد انتهى وأنه قد حان وقت الجد والعمل، ووردت هذه العبارة في قول الله: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟

مَآ ءاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٧١] .

فما هي تفاصيل هذا الميثاق وما المطلوب منهم، لقد بين الله تعالى ذلك في آيات أخرى حيث جاء أن على رأس هذه الأمور المطلوبة : ألا تعبدوا إلا الله ، وبالولدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً ، ثم جاء إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولقد وردت هذه الأمور في قول الله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة:٨٣].

وتشير هذه الآية إلى القلة القليلة التي تتبع رضوان الله وأما الأغلبية فهي التي تنقض العهد وهم عبدة العجل وظهرت هذه القلة من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ [البقرة:٨٣] ، والله يستثني هذه القلة المؤمنة من كل خطاب موجه إلى بني إسرائيل عامة وهناك خطابات موجهة إلى القلة المؤمنة فقط وأخرى للأغلبية الضالة ، ويمحص الله القلة المؤمنة مع الزمن ويخرج منها الخبث.

كما أن من ضمن بنود هذا الميثاق ألا يعدوا يوم السبت وأن يدخلوا الأرض المقدسة سجدا عندما يأذن الله وأن يقولوا حطة ، وقد جاء ذكر عدم العمل يوم السبت في قول الله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء:١٥٤] .

كما جاء ذكر السجود عند دخول الأرض المقدسة وقول حطة في قول الله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:٥٨] .

ومن ضمن ما عاهدهم الله عليه أيضاً كشف هذا الدين للناس وبأمانة ، ليعرف الناس طريق الحق والإحسان ، وهذا العهد مأخوذ على كل أمة جاءها كتاب من عند الله ، وظهر هذا من قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران:١٨٧].

إن هذا ليس هو العهد الوحيد والميثاق الوحيد معهم حيث اتبعه الله بميثاق تم عقده مع ممثلين عنهم وهم اثنا عشر نقيباً اختاروهم من بينهم. فهل وعوا الدرس وأدركوا أن هذا إنذار كبير من رب العالمين وهل أدركوا أن غضب الله ولعنته ستكون على من لا يرعى هذا العهد ؟ فهل يحافظون عليه أم يحرفونه وينقضونه .

هيهات لمن جف قلبه من الإيمان وتملكه الشيطان وغلبت عليه طبيعته الشيطانية فلقد نقضوا العهد

.

إن الذين عبدوا العجل أظلمت نفوسهم وقلوبهم فلم يعد فيها مجال للضياء ولقد نقضوا الميثاق بتصرفاتهم التي جاءت على عكس ما عاهدوا الله عليه وبين الله ذلك بقول: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩٣].

والمقصود بهذه الآية هم عبدة العجل المذكورون نصاً بها، ويظنون أنهم يحسنون صنعا ويلصقون سوء أعمالهم بالإيمان، وأخطاؤهم ينسبونها إلى الدين ، فكما وصفتهم الآيـة حيث تقول : ﴿ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩٣].

وأما الطور فقد ورد في ((**تفسير ابن كثير**))، الجزء الأول ما يلي : (وفي رواية عن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال وما لم ينبت فليس بطور وفي حديث الفتون عن ابن عباس أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا) .

وفي ((**الجامع لأحكام القرآن**))، الجزء الأول، الصفحة (٤٣٦) للقرطبي ، فقد جـاء ما يلي: (وروى الضحاك أن الطور ما أنبت من الجبال خاصة دون ما لم ينبت ، وقال مجاهد وقتادة : أي جبل كان).

ونحن نميل إلى القول بأنه كان جبلٌ قريباً من معسكر بني إسرائيل يعرفونه لأن المخاطبة من الله تعالى إليهم مباشرة بتعريف الجبل وهذا يعني أن الجبل معروف لهم على عكس جبل الطور الذي كلم الله عنده موسى عليه السلام في فلسطين فلم يكن معروفا لهم في ذلك الزمان عند وقوع ذلك الحدث.

ألا يجب على كل من يرى الجبل مرفوعاً فوقه جهرة أن يؤمن بالله كمن يراه جهرة؟ لقد زادوا غيا وكفرا وزادت قلوبهم سواداً وقد ظهر هذا في قول الله فيهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَاتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:١٥٥].

وتستثني هذه الآية أيضاً القلة القليلة التي لديها إيمان بالله وتمسكٌ بعهده على عكس الغالبية العظمى التي نقضت عهد الله وتظهر هذه القلة من قول الله: (فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) ، كما أنها تشير إلى قتل الأنبياء بغير حق الذي استمروا يمارسونه ، ومع كل هذا فإن عناية الله أدركتهم بدعاء أنبيائهم والصالحين منهم فقد بين الله ذلك بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ [البقرة:٦٣-٦٤].

وينمو شعور الحسد ويكبر حيث أن من اختارهم موسى للقاء ربه هم من الفئة المؤمنة وهم خيرة القوم وهذا يعني أنهم من نفس السبط الذي منه موسى وهارون ، وهذا ما أدى لمقولة الكفر لموسى عليه السلام

من قبل أهل الكفر منهم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة:٥٥]، أي أنه إذا كان من ذهبوا معك قد سمعوا الله فإننا نريد رؤيته وكان ما كان من تأديب رباني لهم .

إن الفارق الإيماني الكبير بين أمة الخير وهم القلة وبين أهل الضلالة وهم الأغلبية ستثير بينهم الحسد والأحقاد ومن ثم ارتكاب أعمال مشينة.

وحصل المحذور وارتكبت جريمة قتل وقتل أحد الأفراد وشبت النزاعات التي ستؤدي إلى نشوب قتال وأخذ بالثأر، وكان رأي كبارهم هو التوجه لموسى عليه السلام ليدعو ربه لحل هذا الإشكال.

فجاء أمر الله تعالى بأن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت بلحمها فيحييه الله تعالى ليشهد بنفسه على من قتله فكل فريق منهم يلصق التهمة بالآخرين وينكر هذه الفعلة أن تكون منه.

ولم يكن هناك شاهد إثبات على هذه الجريمة والله تعالى يريد أن يريهم بأعينهم كيف أنه قادر على أن يكشف كيدهم وأن يكشف فسادهم ويعاقب المفسدين منهم.

ودارت بين موسى وقومه مفاوضات حول البقرة التي أمروا بذبحها أظهرت طبيعة السوء الكامنة في أهل السوء منهم وتعنتهم في الاستجابة لأمر الله وتعقيدهم الأمور على أنفسهم، ولقد ظهرت هذه المفاوضات من قبل أهل السوء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧١ ﴾ [البقرة:٦٧-٧١].

ها هي طبيعة النكد وحب الذات في أهل السوء من بني إسرائيل ، وإن الله تعالى ذكر لنا هذه القصة لنتعرف على طبيعتهم وجبلتهم التي جبلوا عليها وليس في هذه القصة أحكام شرعية ، ولكن فائدتها كبيرة لأنها تكشف جبلة قوم سيئين.

لقد رأوا بأعينهم آيات الله العظيمة وكل واحدة أعظم من أختها وهم غير مستعدين لأن يقدموا لله بقرة تنهي مشكلة بأضعاف سعرها فيما بينهم، رغم أنهم يرون عظمة الله وقوته وهم أمامه في غاية الضعف .

وأخيراً وبعد تلكؤ شديد ومفاوضات مع موسى عليه السلام ومحاولات تملص ذبحوا البقرة، وضربوا المقتول بلحمها، وقد بين الله حل هذا الإشكال بقوله: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٧٢-٧٣] .

فماذا يمكن أن يقدم هؤلاء لمن يفاوضونهم من البشر وهم الآن يمتلكون مئات الرؤوس النووية

والذي يفاوضهم لا يستطيع صناعة أبسط أسلحته بل يشتريها من دول تدين لهم بالولاء.

إن طبيعتهم التي جبلوا عليها وما يملكون من وسائل القوة ستخلق فيهم الغطرسة بما يجعلهم يتمادون في طلباتهم.

إن لديهم قلوباً قاسية لا تعرف الحق ولا تريده بل تستسيغ أكل حقوق الآخرين وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:٧٤] .

إن العطاء الكبير الذي يسره الله لهم جميعا في جو الصحراء وهو المن والسلوى وتظليل الغمام يتساوى فيه الجميع مما يخفف الحسد تجاه النخبة الطيبة.

وحفاظاً على الوحدة ومنعاً للمنازعات عاش كل سبط مستقلاً عن الآخرين، رغم أنهم في صحراء قاحلة لا مجال للرزق فيها إلا ما يسر الله.

واحتاج قوم موسى إلى الماء للشرب فهم في صحراء قاحلة، طلب موسى ﷺ من ربه الماء لقومه فأوحى له أن يضرب حجراً كان في تلك المنطقة فتفجر منه الماء اثنا عشر ينبوعاً على عدد أسباط بني إسرائيل، يشرب كل سبط من نبع، وهذا يدل على عظم شعور الحسد فيما بينهم لدرجة أنهم لا يطيقون أن يتعاملوا على شربة ماء ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٠].

كما بين الله تعالى هذه الحادثة في خطابه المباشر لبني إسرائيل إذ قال : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة:٦٠].

إن الله تعالى فصل بين أسباطهم الفصل الذي لا مبرر بعده لأي نزاع يحصل بينهم ولا مبرر ولا مجال لأي تصادم من أي نوع يحصل بينهم فالطعام والشراب والظل متوفرة للجميع .

فهل يشكرون الله على هذه النعمة التي لم تمنح لغيرهم ؟ هل يذوب شعور التحاسد فيما بينهم؟ هل يتوقف الشعور بالحسد تجاه السبط الذي منه أنبياء الله موسى وهارون وصحابتهم من المؤمنين ؟

إن هؤلاء الصحابة سيعينون مرشدين دينيين لباقي الأسباط فهل يقبلون ذلك؟
إنهم يرفضون ذلك ويطلبون أن يكون المرشدون لكل سبط منهم وأن تكون قيادة كل سبط منه لا من غيره. ورعاية الله توافقهم على هذا الطلب فيختارون من كل

سبط واحد ويأخذون البيعة من الله بواسطة نبيه موسى ﷺ ليكون كل واحد منهم على رأس سبطه (قومه) يتلقى من موسى أو هارون وليس من صحابتهم .

ويريد الله تعالى أن يبين حقيقتهم لنا وحقيقة موقفهم وتملصهم من عهودهم، ويبين الله أن ما حل بهم بعد ذلك هو نتيجة نقضهم ميثاقهم مع الله مما أدى إلى لعنتهم وطردهم من رحمة الله.

ولقد واثقهم الله موثقاً به شروط وعقوبات ظهرت من نص الآيات فالذين عقدوا الميثاق هم نقبائهم، وأما عطاء الله لهم في هذا الميثاق فهو قول الله: (إِنِّى مَعَكُمْ)، وما أعظمه من عطاء أن يكون الله معهم دائماً وفي كل تصرفاتهم وطلباتهم ومادام الله معهم فهم منتصرون ولا مجال لعدو أن ينال منهم ولا مجال لأن يحتاجوا شيئاً فهم ميسر لهم كل شيء، ويضع الله شروطاً معينة وهي : ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المائدة:١٢] ، ومن فعل هذا فإن جزاءه عند الله : ﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [المائدة:١٢].

وما جزاء من ينقض هذا ويعود إلى الكفر إلا بما بين الله : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٢] ، ومن يضل سواء السبيل فإنه سيقع في أخطاء أخرى لا حصر لها، وهذا ما ظهر من قول الله فيهم : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٢].

كان هذا ميثاق الله مع بني إسرائيل من خلال نقبائهم الذين ارتضوهم فصار كأنه ميثاق مع كل واحد فيهم على انفراد .

كما وردت شهادة الله بهذا العهد مع بني إسرائيل في ((الكتاب المقدس)) حيث جاء: ((**كيف احمل وحدي ثقلكم وحملكم وخصومتكم. هاتوا من أسباطكم رجالا حكماء وعقلاء ومعروفين فاجعلهم رؤوسكم. فأجبتموني وقلتم حسن الأمر الذي تكلمت به ان يعمل. فأخذت رؤوس أسباطكم رجالا حكماء ومعروفين وجعلتهم رؤوسا عليكم**)) [سفر التثنية:الإصحاح الأول] .

لقد وفّى الله عهده لبني إسرائيل ولكنهم نقضوا عهودهم مرات عديدة وأنهم كانوا يتبعون الهوى، وهذا ما جاء في قول الله فيهم : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة:٧٠].

لقد نقض أهل السوء منهم هذا الميثاق ؛ فقتلوا الأنبياء حسدا وبغير حق، ولم ينفذوا ما في التوراة من هدى ونور وقست قلوبهم فلم تعد صالحة ليدخلها إيمان ، إذ ما من نبي نجا من أذاهم بنص الآية.

فهل يعطيهم الله فرصة أخرى تكون حجة عليهم؟ قال الله تعالى مبيناً حالهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٣] ، فالله تعالى يبين لنا أنهم نقضوا الميثاق فيما بعد واستحقوا اللعنة إلا القلة منهم .

لقد أعطوا فرصة أخرى ولا يزال أنبياء الله بينهم ، وما زالوا يعيشون في جو نبوة ورعاية ربانية ، ظل ظليل ومن وسلوى وعيون ماء تيسر من الله في جو الصحراء. أمور ما عرفت في مثل هذا الجو ورعاية من الله لم تعط لغيرهم وهم يضمرون السوء.

فهل يشكرون الله على ما هم فيه وهل يقوى إيمانهم أم أنهم سيضيفون طلبات جديدة إلى ما هم فيه من أنعم الله ؟ لقد جحدوا هذه النعمة وطلبوا تغييرها إلى ما اعتادوا عليه من أطعمة فيها العدس والبصل والثوم والقثاء، وقالوا لنبيهم بأنهم لا يستطيعون أن يصبروا على طعام واحد، فأجابهم بصيغة الاستنكار لهذا الطلب العجيب، حيث أجابهم موسى عليه السلام : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٦١] .

وكان هذا الإستنكار توبيخاً من موسى لهم يلومهم على هذا الشعور المعاكس لما يجب أن يكونوا عليه، وقد بين الله ذلك بقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة:٦١].

ولم يعرف في التاريخ عن أمة تعتدي على أنبيائها وقادتها ودعاتها مثلما عرف عن أهل السوء من بني إسرائيل ؛ فهم قاسية قلوبهم ويجحدون أنعم الله، ويقتلون الأنبياء حسداً وبغير حق ، ولا أدل على ذلك من شهادة الله تعالى عليهم بهذه الأعمال المنكرة وقد سجل التاريخ قتلهم زكريا ويحيى عليهما السلام، وسجل القرآن محاولتهم قتل عيسى عليه السلام لولا أن رفعه الله إليه. وشهد الله بسوء تصرفاتهم مع موسى عليه السلام إذ نسبوا إليه الفحش من القول فبرأه الله مما نسبوا إليه وقد ظهر ذلك من قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩]، ولم يبين الله نوع الأذى الذي ارتكبوه ولكن شهادة الله كافية عليهم وعلى ما نسبوه لموسى عليه السلام ولكن الله تعالى برأه مما نسب إليه وفي قول الله ما يكفي لأن نرد عنه أي قول يقال أيا كان مصدره.

ولا ننسى محاولتهم قتل محمد ﷺ لولا رعاية ربه ، وهم كما شهد الله فيهم فمن لم يقتلوه من الأنبياء فقد كذبوه.

عودة بنا الآن إلى موسى عليه السلام وقومه، لقد آن الأوان لأن يتحرك الجميع إلى الأرض المقدسة، أرض

المسجد الأقصى وهي الجزء الشرقي من سيناء وهم يعرفونها ويعرفون من يسكنها.

فقد كانت محافظة مصرية وهي الجزء الشرقي من ملك الفرعون ويعرفون أيضاً أنها مسكونة من قبل من أسماهم كتاب التاريخ (الهكسوس) وكانوا هم السبب في خروجهم من مصر قبل حوالي قرنين من الزمان (وتسميهم كتب تاريخ أخرى بالكنعانيين ، ويسميهم الكتاب المقدس بالكنعانيين).

إنهم يعلمون أيضاً أن الهكسوس ما خرجوا من مصر مهزومين بل خرجوا بعد مفاوضات مع الملك المصري الذي خرجوا في زمانه وكانت نتيجة المفاوضات أن يعودوا من حيث قدموا وهو الجزء الشرقي من ملك مصر، ومع قلة عددهم قياساً بمن يقابلهم خرجوا بما يملكون وهاهم بنو إسرائيل يصفونهم بأنهم (قوم جبارون) ولا يستطيعون قتالهم .

كان لا بد أن يدخلوها مقاتلين لأن سكانها أعداء لهم لأنها الجزء الشرقي من ملك فرعون وبالتالي أن يكون فيها جيش عدوهم ينتظرهم ليأخذ الثأر منهم لكونهم السبب في غرق فرعون ومن معه أجمعين .

ويخبرهم موسى ﷺ أن هذه الأرض كتبها الله لكم ولكن الخوف تسلط عليهم ورفضوا ذلك ولو كان لديهم حس إيماني لفهموا أن النصر سيكون حليفهم لأن الله غالب على أمره وينصر رسله .

إنهم يريدون كل شي جاهزاً وهم لم يمانعوا في الذهاب بل حددوا أنهم سيذهبون إليها عند خروج سكانها منها.

إن موسى ﷺ يحاول جهده معهم ويذكرهم بأنعم الله السابقة والحالية التي هم فيها وأن الله تعالى الذي أخرجهم بسلام من أرض فرعون وأغرق أعداءهم سينصرهم ، ولكنه لم يفلح في إقناعهم بالأمر، وبين الله موقفهم هذا بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة:٢٠-٢٢] .

وهناك القلة القليلة المؤمنة الذين يريدون القتال ولكن عددهم لا يمكنهم من عمل شيء وكانوا مع موسى ﷺ وأبدوا رأيهم الذي يشمل الحيلة الحربية والأثر النفسي للاقتحام. ولقد شهد الله لهذه الفئة المؤمنة هذا الموقف بقوله : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] .

هذان الرجلان من الذين يخافون الله تعالى ويؤمنون به أنعم الله عليهما بالخبرة في أداء القتال فبينوا لقومهم الطريق إلى الانتصار وشروطه وهي الإعداد الجيد ضمن الإمكانيات ومباغتة الأعداء والشجاعة وعدم التردد والاقتحام ومع كل هذه الأمور التوكل على الله، ولكن هيهات مع الجبناء أن ينفع نصح فكرروا إصرارهم على مواقفهم، وهذا ما أظهره الله بقوله : ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] .

فما كان من موسى ﷺ إلا الأسف والغضب مما وجد من تعنت ووقاحة من القوم حيث يخاطبون

موسى ﷺ : (فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ) وكأنه ليس ربهم الذي عمل لهم كل شيء وقدم لهم الكثير ولا يزال.

وعاد موسى يرجوهم ليسيروا معه وهم يتراجعون ويخيبون ظنه بهم ، وبدأ يتذكر ما فعلوه معه خلال رحلته في هداهم وتعبه معهم فهم القوا اللوم عليه في أذاهم أيام فرعون بسبب تبعيتهم له ولرسالته وكأنهم لا يرون في الرسالة السماوية أي خير لهم.

لقد تذكر موسى ﷺ مواقفهم معه وعدم استجابتهم له فأخذ يعاتبهم بمودة الرسول الأمين عليهم المحب لمصلحتهم بقوله : ﴿ يَـٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ ﴾ [الصف:٥].

ولكن قلوب الضالين زاغت عن الحق بعد ما رأت كل أسباب الاستقامة ولم تستقم حيث رأوا من الآيـات أضعاف ما رأى فرعون فلم يستقيموا فزادهم الله زيغاً ، ولم تعد قلوبهم تتقبل الهدى ، وكتب الله عليهم الضلالة ، وهذا ما ظهر من قول الله فيهم: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَـٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥] .

وما زادهم رجاء موسى إلا تعنتاً وإصراراً على مواقفهم منه واستشعر موسى ﷺ منهم هذه الضلالة فما كان منه إلا أن دعا ربه دعوة ألم وفراق ليفرق بينه وبين أخيه من جهة وبين قومهما فيقول: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَـٰسِقِينَ ﴾ [المائدة:٢٥] .

فاستجاب الله دعاءه وأصدر حكمه عليهم بما يستحقون حيث قال الله :﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَـٰسِقِينَ ﴾ [المائدة:٢٦].

ولقد ورد ذكر هذا الأمر في الكتاب المقدس بما يلي :

((**إن جميع الرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر وفي البرية وجربوني الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولي لن يروا الأرض التي حلفت لآبائهم . وجميع الذين أهانوني لا يرونها ... وكلم الرب موسى وهارون قائلاً حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ. قد سمعت تذمر بني إسرائيل الذي يتذمرونه عليَّ . قل لهم حيٌ أنا يقول الرب لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذني .... فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر وبنوكم يكونوا رعاة في القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر**)) . [سفر العدد - الإصحاح الرابع عشر] .

وهكذا فإن الله حرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض لا يعلمون وجهتهم، وليقارنوا معيشتهم في التيه بمعيشتهم التي كانت بمعية الله وكلها عطاء ونعم .

إنهم رفضوا أن يقدموا بعض التضحيات ليفوزوا بالأرض المقدسة المباركة وليقارنوا الآن معيشتهم التي يعيشونها بالتي كان يمكن أن يعيشوها لو أطاعوا رسولهم ، ربما يريد الله أن يبدل الأجيال خلال هذه المدة الزمنية لينشأ جيل جديد خشن قادر على تحمل الظروف الصعبة ويعرف كيف تكون طاعة الله ورسوله .

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس في وقبل معركة بدر إذ قالوا لمحمد ﷺ : ((**إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قعدون ، لكن نقول : إذهب أنت وربك فقاتلا فإنا معكما مقاتلون**)) . هذا هو الرد الصحيح من الرجل المؤمن الذي يعرف أن النصر من الله لعباده المؤمنين.

لقد جاء في قول موسى : ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة:٢٠]، ما يرتبط بما ذكرنا سابقاً من أمر تسلم نبي الله يوسف عليه السلام ملك مصر موضحين الأمور التي دلت على ذلك من كتاب الله وأننا استنتجنا من هو يوسف عليه السلام من المقارنات بين الأحداث التي وردت في كتاب الله وهو الصدق المطلق ومطابقتها مع الأحداث التي ذكرت في كتب التاريخ وها نحن نرى إثباتاً آخر من كتاب الله، فمن المعروف والمشهود به في القرآن وفي التاريخ أن بني إسرائيل يحتفظون بسجلات أسباطهم مفصلة من الجد الأخير ابن يعقوب حتى سيدنا موسى عليه السلام الذي يقول لهم: ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾.

إن موسى عليه السلام يذكر قومه بما يعرفونه حق المعرفة وأن ما يعرفونه هو من عطاء الله لهم وأن الله تعالى لم يعط هذا العطاء لغيرهم من العالمين

وتقول بعض التفاسير إنه سيجعل منهم ملوكاً وهذا لا يعقل إذ أن موسى عليه السلام يخاطب قومه بما يعرفونه لا بما سيكون مستقبلاً.

وإن تاريخهم المعروف من القرآن أنهم دخلوا مصر في عهد يوسف وها هم يخرجون منها وما كانوا يوماً أقرب إلى السلطان والملك من العهد الذي ارتقى فيه يوسف إلى منصب العزيز بالنص الصريح للآية الكريمة ، وأما ارتقاؤه العرش فكان بالمعاني التي تدل على ذلك والتي أشرنا إليها سابقاً وبخاصة قول الله تعالى : (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) .

وجاء في ((**مختصر تفسير الطبري**)) الجزء الأول/ صفحة (٥٧٩) ما يلي: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يوسف:١٠٠] ، ورفع أباه وأمه على سرير الملك .

وجاء في ((**تفسير الطبري**)) ، (المجلد السابع، الجزء الثاني عشر صفحة -٤٤) ما يلي: (حدثنا به حميد ثنا سلمة عن ابن اسحق قال: تحمل - يعني يعقوب - بأهله حتى قدموا على يوسف فلما اجتمع إلى يعقوب بنوه دخلوا على يوسف فلما رأوه وقعوا له سجوداً ، وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان ، أبوه وأمه وإخوته).
فإن لم يكونوا ملوكاً في ذلك العهد فمتى كانوا ملوكاً بعدها، وبين ذلك العهد وبين قولة موسى لقومه شهد الله تعالى أنهم كانوا مستضعفين.

وكما جاء في ((**ظلال القرآن**)) ، المجلد السابع، صفحة (١٨٢) ، في تفسير سورة غافر لسيد قطب:
[وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يشار فيها إلى رسالة يوسف عليه السلام للقوم في مصر. وقد عرفنا من سورة يوسف أنه كان قد وصل إلى أن يكون على خزائن الأرض، المتصرف فيها. وأنه أصبح (عزيز مصر) وهو لقب قد يكون لكبير وزراء مصر ، وفي السورة كذلك ما قد يؤخذ منه أنه جلس على عرش مصر، وإن لم يكن ذلك مؤكداً وذلك بقوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف:١٠٠] ، أي أن الله تعالى حقق له أن يسجد له فعلاً أمه وأبوه وإخوانه كغيرهم وهذا لا يتحقق إلا إذا صار ملكا فعلاً**]**.

كما أن الآية : ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ تثبت أنهم كانوا ملوكاً قبل قولتها ولم يسكنوا قبل تلك المقولة إلا مصر حيث دخلها يعقوب وبنوه وها هم يخرجون منها ، لذا فإنهم أصبحوا ملوكاً في مصر ، وهذا قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء:١٢٢].

ونعود إلى حكم رب العالمين الصادر بحق القوم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة وفي هذا إشارة إلى انتهاء قيادة (موسى وهارون عليهما السلام) لأن القرار اتخذ من الله.

كان عمر موسى عليه السلام يزيد عن الأربعين سنة عند خروجهم من مصر فهل سيعيش أربعين سنة أخرى وهذا علمه عند الله ، وكما جاء في الآيات فإن موسى عليه السلام وكذلك هارون لم يدخلا الأرض المقدسة إذ أن هذا حصل في عهد نبي آخر وبقيادة الملك طالوت ، وهذا يعني أن موسى وهارون قد انتقلاً إلى الرفيق الأعلى قبل ذلك ، وربما يكون موتهما قتلاً من قبل أهل السوء من بني قومهم .

ولقد ورد في كتاب ((**العرب واليهود في التاريخ**)) ، المجلد الثاني، صفحة (٤٩٢) للدكتور أحمد سوسة ما يلي : (إن هناك دلائل بأن موسى مات شهيداً اغتاله الكهنة الذين قاوموه فهدموا كل ما نادى به من تعاليم دينية تقريباً، وهناك من يرى أن يوشع ابن نون هو الذي اغتال موسى حيث اصطحبه إلى أعلى الجبل ثم عاد بدونه ليعلن أن الأمر بموت موسى قد تم تنفيذه وفقاً لما أمر به الرب).

إن الله تعالى يشهد بأنهم يقتلون الأنبياء بغير حق وأن هذا غير مستبعد بغض النظر عن شخصية القاتل فإنه حصل في التيه ولا شهود عليه من غير بني إسرائيل ونحن لا يهمنا اسم القاتل بل نكتفي بشهادة الله فيهم .

وهناك كتب تقول عن هذه الشخصية أنه نبي، ومما يؤكد هذا الحدس أن فترة التيه حضر أولها موسى وهارون ولم يكن بإمكانهما أن يرشدا قومهما إلى الصراط المستقيم ، وقد يكون الله قد أزال تظليل الغمام وأزال المن والسلوى بعد أن حكم عليهم بالتيه وتركهم لمعيشة الصحراء تأديباً لهم فلم يكن منهم إلا أن يعلنوا كفرهم بواحاً وأن يحرفوا كلام الله وأن يقتلوا أنبياءَه ، الذين جاءوهم بكلام الله مكتوباً وقد قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩١].

إن في هذه الآية ما معناه أنهم قتلوا أنبياء الله وبالتحديد الذي أنزل عليه هذا الكتاب الذي يدعون أنهم يؤمنون به ، وهذا يعني أنهم قتلوا موسى عليه السلام .

وقد جاء في تفسير سيد قطب ((**ظلال القرآن**)) ، الجزء الأول ، الصفحة (١١٩): (لم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم حقاً تؤمنون بما أنزل إليكم وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به) .

وأيضاً فقد أخفوا الألواح التي فيها التوراة الصحيحة وأحضرتها الملائكة لطالوت كما سيتبين لاحقاً . ولقد شهد الكتاب المقدس في العهد القديم بقتلهم الأنبياء حيث ذكر : ((**وأعطيتهم خبزاً من السماء لجوعهم وأخرجت لهم ماءً من الصخرة لعطشهم وقلت لهم أن يدخلوا ويرثوا الأرض التي رفعت يدك أن تعطيهم إياها ... وعصوا وتمردوا عليك وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين اشهدوا عليهم ليردوهم إليك وعملوا إهانة عظيمة**)) [سفر نحميا ـ الإصحاح التاسع] .

وهذا النص يشهد أنهم قتلوا الأنبياء الذين جاؤا بالشريعة وهم موسى وهارون .

وهناك من الآيات الواردة في كتاب الله ما يشير الى قتلهم موسى ﷺ ، حيث قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران:١٨١-١٨٣].

إن الآية الأولى من هذه الآيات توضح تماما أنهم يهود حيث بين الله أنهم هم الذين يقتلون الأنبياء بغير حق، والآية الثانية توضح تماما مصيرهم يوم الحساب نتيجة عمل أيديهم وهو ما بينه الله في الآية الأولى حيث تقول: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [آل عمران:١٨١]، والآية الثالثة توضح انهم يشترطون ان يأتيهم الرسول ﷺ ليؤمنوا بقربان تاكله النار فيقول رب العزة، لقد جاءكم هذا الذي طلبتم من قبل وجاءكم رسل بالبينات ثم يعقب الله بقوله: (فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ) أي أنكم قتلتم من جاءكم بقربان وقتلتم الذي جاءكم بالبينات، ومن الذي جاءهم بالبينات وهي التوراة؟

هذه الآيات تؤكد انهم قتلوا موسى ﷺ وتاريخهم يعترف بذلك ونحمد الله الذي أوضح عقابه لهم فسيذوقون عذاب الحريق إضافة لعذاب الدنيا.

وتمضي حياتهم في أرض التيه أربعين عاماً عقوبة إلهية لو أرادوا الحركة إلى الأرض المقدسة لما استطاعوا ولما عرفوا الطريق لأن هذا الزمن عقوبة إلهية ولا راد لحكم الله .

وأما إذا أرادوا المكوث في الصحراء لزمن أطول فإن هذا يعتمد عليهم. وهذا ما تبين من مختلف الدراسات والشواهد أن زمن إقامتهم في الصحراء كان طويلاً بسبب من أنفسهم، فإنهم كانوا يرفضون الحركة إلى الأرض المقدسة بوجود موسى ﷺ بينهم وبعهد الله لهم مباشرة فكيف سيتحركون إليها من تلقاء أنفسهم دون قيادة نبي الله وبعيداً عن رضوان الله. المتوقع إنهم سيتلكئون وسيركنون إلى أي معيشة يعيشونها مهما تدنت مع عبدة الأصنام بعد موت موسى.

استمرت معيشتهم القاسية المتدنية المستوى بعد موسى ﷺ ولم يتخلل هذه الحياة من الأحداث ما هو مهم إلا قصة صيد الحيتان يوم السبت حيث عاهدوا الله من ضمن العهد المأخوذ عليهم ألا يعدوا في السبت وألا يعملوا شيئاً والسبت يوم العبادة لهم يجب أن يتعبدوا فيه لله وألا يذهبوا فيه إلى الصيد ولا إلى متاع الدنيا وكان هذا بناء على طلبهم من الله وهو أن يجعل لهم يوم السبت مقدساً لا عمل فيه بل هو عبادة فقط وكانوا يعيشون قرب البحر ويعتمدون في حياتهم على صيد الأسماك فابتلاهم الله حيث تتكاثر الأسماك قرب الشاطئ يوم السبت وتبتعد إلى عمق البحر في الأيام الأخرى، فهل يصمدون أما هذا الإغراء ويتركون الصيد يوم السبت؟، هل يتركون الصيد وفاءً لعهد مع الله.

لقد تحايلوا على الأمر وعملوا شباكاً تحجز السمك يوم السبت ولا يتمكن من العودة إلى عرض البحر ثم يجمعونه في اليوم التالي ، وبذلك يظهرون كأنهم لم يصطادوه يوم السبت ، ولقد ذكـر الله هـذا الحدث موجهاً كلامـه إلى أهـل السـوء مـن بني إسرائيل قائلاً : ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي

ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٦٥-٦٦].

وهذه هي أول عقوبة ينزلها الله تعالى مباشرة بمن نقضوا أحد بنود الميثاق الذي عاهدوا الله عليه وجعلها الله عبرة لمن يعتبر منهم ورأى بعينه ما حل بمن ينقض الميثاق ولعلها تؤدي إلى تأديب الباقين من أهل السوء.

كما أن الله تعالى يذكر هذه القصة في موقع آخر موجهاً حديثه إلى رسول الله ﷺ بقوله : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٤] .

يتبين من الآيات أنه كان في تلك المنطقة (القرية) ثلاث أمم والأمة في التعريف الإسلامي هي التي تدين بعقيدة واحدة وبذلك فإنهم يمثلون ثلاث اتجاهات إيمانية إضافة إلى أنهم من ثلاث أسباط مختلفين لأن الله قال فيهم : ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف:١٦٠]، أي أن كلمة أمة بعد ذلك التاريخ تعني سبطاً، أحد هذه الأسباط أمة مؤمنة تماماً وأمة إيمانها متوسط لا ترتكب الإثم ولا تنهى عنه وأمة كافرة.

فأما الأمة الكافرة العاصية فقد نقضت العهد مع الله وما كان من أمة الإيمان إلا أن وقفت وقفة الإيمان اللائقة بالنهي عن المنكر وإسداء النصح والإرشاد الواجبة على كل مؤمن أن يبديها لغيره عند الحاجة.

وأما الأمة (السبط) الثالث فإنه محايد لا يعمل المنكر ولا ينهى عنه ، ورأوا أن الأمة الضالة لا يتقبلون أي نصح ولا يرتدعون وأنهم مصرون على عنادهم وغيهم وضلالهم فقالوا لأمة الصلاح: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف:١٦٤]، حيث عرفوا أن هذا المنكر يؤدي إلى غضب الله تعالى وبالتالي إلى الهلاك والعذاب.

فما كان من أمة الصلاح إلا أن أجابت بأن هذا واجب فرضه الله على المؤمنين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر : ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤] .

ولم تستجب أمة السوء للنهي عن المنكر وأصرت على الصيد يوم السبت فوقع عليهم غضب الله، ونجا من العذاب الناهون عن السوء، وسلط الله عذاباً على أمة السوء ولم يتعظوا من العذاب ولم يرتدعوا فحولهم الله إلى قردة خاسئين. ولقد ورد هذا في قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ

﴿ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [الأعراف:١٦٥-١٦٦] .

أما كيفية معيشتهم وهل تناسلوا وهم قردة أم لا فإن هذا ما كثر فيه الحديث ويكفي أن نقول أن المسخ قد حدث وأن سنة الله ثابتة ولا تزر وازرة وزر أخرى، وإن الذين تم تحويلهم هم البالغون من الكفار الذين نقضوا العهد ولا بد أن يحسوا بهذا المسخ والتحويل إلى قردة، لأنهم لو لم يحسوا به لما كان عذاباً. وحتى يكون الأمر عذاباً لا بد أن تكون أجسامهم أجسام قردة، وأما عقولهم فتبقى كي تعي ما حصل معهم ولا يستطيعون النطق حتى لا يعطف عليهم أحد .

ولم يتناسل هؤلاء الممسوخون لأنه لو وجد نسل لكان مأخوذاً بجريرة الآباء وهذا ليس من سنن الله الثابتة التي منها ألا تزر وازرة وزر أخرى .

ولعل الحكمة من رواية هذه الحادثة في القرآن الكريم مرتين إحداها وجه الله تعالى حديثه إلى بني إسرائيل لعلمه بأنهم يتناقلونها ويعلمونها، وفي المرة الأخرى فإن الله تعالى يوجه كلامه لنبيه محمد ﷺ إذ يقول له: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ ﴾ [الأعراف:١٦٣]، أي أنهم يعرفون هذه الرواية وهي كما وردت في القرآن تماماً، ويؤخذ منها إقرار رباني من الله تعالى أن يهود المدينة المنورة ويهود خيبر هم من أصل بني إسرائيل عرقاً وهم من تلك السلالة، سلالة الأسباط السيئين .

وهناك في موقع آخر وفي آية أخرى ، فإن الله تعالى يقول بالنص المباشر: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف:١٠] ، وهذه آية نزلت في حق عبد الله بن سلام الذي كان يهودياً ثم أسلم وشهد أن هذا القرآن من عند الله وليس من تأليف محمد ﷺ.

هذه الآية شهادة ربانية بأن عبد الله بن سلام والقبيلة التي ينتمي إليها هم من بني إسرائيل عرقاً وسلالة ، وهذه البراهين ستلزم عند الحديث عن منطقة التيه التي تاه فيها بنو إسرائيل .

كانت معيشتهم في التيه في صحراء جدباء فيها عيون الماء التي فجرها لهم موسى عليه السلام بأمر ربه ولم يذكر الله تعالى إن كانت جفت بعد موت موسى أم استمرت، إضافة إلى وجود البحر وما يخرجه لهم حسب اجتهادهم ، يستدل أن المعيشة فيها مع السكان الأصليين الذين يعبدون الأصنام ستكون كفافاً وقاسية ، وسيتبين لأهل الكفر منهم أنهم كانوا في نعيم كبير أيام وجود أنبياء الله بينهم ورعاية الله المباشرة لهم من ظل ظليل ورزق من السماء من المن والسلوى وعيون الماء التي تفجرت وسط الصحراء ، بعد فقدان النعم لا بد من أن يبدأ الفكر بالمقارنة بين ما كانوا فيه وما آلوا إليه بعد غضب الله .

وتمضي السنون ويزداد إحساس أهل الخير من بني إسرائيل بأنهم يظلمون أنفسهم ببقائهم في الصحراء وأمامهم الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وما عليهم إلا أن يخوضوا المعركة والنصر من عند الله .

وتبين الآيات أن الحماسة بعثت فيهم روحاً قتالية ومن الله عليهم بأن أرسل لهم نبياً آخر بعد موسى وهارون عليهما السلام فجاءوا إلى النبي المرسل، ولم تبين الآيات اسمه وإنما ذكرت نصاً أنه: ﴿ مِنۢ

﴿بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ [البقرة:٢٤٦] ، وأن هذا النبي هو الذي تلا موسى وهارون عليهما السلام وأن عهداً ليس بالقصير بينهم مع النبي الأخير وبين موسى ﷺ وأن هذا العهد ليس الأربعين سنة فقط، بل مضى من الزمن ما يكفي لأن ينفذ الله وعده بإرسال نبي آخر يقود مسيرتهم ويصحح ما طرأ من خلل في مسيرة السبط الأمة المؤمنة أصلاً .

لقد اجتمعوا لهذا النبي وطلبوا منه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله تحت إمرته، وهذا الطلب يدل على أن الحس الإيماني قد استيقظ فيهم وأنهم في معنوية عالية فهم أصحاب دين وعقيدة وإيمان بالله ، ويعرفون أن أعداءَهم ليسوا أصحاب دين ولذا فإن قتالهم يكون في سبيل الله.

لقد أراد هذا النبي أن يتأكد من حماستهم وأن يختبرهم فلم يندفع مع حماسهم في إبداء الرغبة في القتال: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا﴾ [البقرة:٢٤٦] وزادت حماسة القوم وذكروا أسباباً قوية تدعوهم للقتال في سبيل الله:﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة:٢٤٦]، ومقولتهم هذه توضح الإصرار على القتال.

مما سلف نعلم أن بني إسرائيل خرجوا من مصر حيث عبروا البحر وأن موسى ﷺ قال لفرعون: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٠٥]، ثم أوضح موسى ﷺ لقومه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٢١] ، وها هي الآية تقول : ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة:٢٤٦]، أي أنهم يريدون القتال للعودة إلى الديار التي أُخرجوا منها لأنها ديارهم .

من مدلول هذا الكلام أن الأرض المقدسة كانت جزءاً من دولة الفرعون ، وأن فلسطين (التسمية الحالية) كانت المحافظة الشرقية لمصر وأنهم يريدون العودة إلى الدولة (الديار) التي أُخرجوا منها وأن موسى ﷺ طلب من فرعون أن يعود ببني إسرائيل ليعيشوا في الأرض التي قدم منها أجدادهم.

هذه الحماسة لم تظهر من كل الأسباط، فقد نقض أغلبهم عهده مع النبي حيث أن الله تعالى استجاب لدعوة نبيهم وأوحى إليه بالقتال فاخبرهم فتخاذل الأغلبية منهم وتراجعوا عن مواقفهم وثبتت القلة منهم وهي القلة المؤمنة التي تستثنيها الآيات من كل المواقف عندما يتحدث رب العزة عن عموم بني إسرائيل .

أما الأغلبية منهم فتخاذلت مرة أخرى ونقضت مرة أخرى العهد مع الله تعالى كما نقض آباؤهم وأجدادهم عهودهم مع الله أيام أنبياء الله موسى وهارون عليهما السلام ولقد بين الله تعالى هذا بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦].

لقد عرف نبيهم القلة المؤمنة وميزها وفرزها وذلك ليتم تنظيمها استعداداً لخوض المعركة فأخبرهم نبيهم بأن الله تعالى اختار عليهم (طالوت) ملكاً وهو واحد منهم أعطاه الله من الصفات القيادية ما يلزم

لإدارة معركة ناجحة فقد أعطاه الله بسطة في العلم والجسم ، أي أنه خبير في فنون القتال. إضافة إلى ضخامة جثته مما يعطيه هيبة في نفوس جنده فيطيعونه وبذلك تكون له هيبة القائد في النفوس.

ولقد جاء وصف طالوت في ((الكتاب المقدس)) بما يلي :

((**وكان رجل من بنيامين اسمه قيس وكان له ابن اسمه شاؤل شاب وحسن ولم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب**)) [سفر صموئيل الأول ـ الإصحاح التاسع].

احتج القوم على قلة ماله وأنه ليس من أغنيائهم وهذه مفاصلة لا داعي لها لأن المطلوب قتال في سبيل الله فصفة القائد أن يكون مؤمنا وهذه الصفة موجودة وهو من خيرتهم وأيضاً مطلوب الخبرة العسكرية والشخصية النافذة وهذه متوفرة فيه أكثر من غيره، احتجوا مرة أخرى إلى أنهم أقرب إلى سلالة الملك منه حيث هناك أحفاد موسى عليه السلام مباشرة وأحفاد هارون وهم أحق بالملك منه وهذا لا يبرر الاحتجاج فإنهم جميعاً من سبطي الخير.

ولقد بينا سابقاً أن طالوت من سبط بنيامين وهو سبط خير كما بين الكتاب المقدس في نص آخر أصل طالوت (شاؤل) فيما يلي :

((**ومن ثم طلبوا ملكاً فأعطاهم الله شاؤل ابن قيس رجلاً من وسط بنيامين أربعين سنة ثم عزله وأقام لهم داود ملكاً الذي شهد له أيضاً إذ قال وجدت داود بن يسى رجلاً حسب قلبي الذي سيصنع كل مشيئتي . من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لإسرائيل مخلصاً يسوع)** [أعمال الرسل ـ الإصحاح الثالث عشر] .

وفي هذا النص ذكر صريح بأن عيسى عليه السلام من نسل داود لأمه .

وقد واجه نبيهم احتجاجهم على قلة ماله بما بينه الله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٤٧] .

يتبين لنا من هذه الآية معرفة بني إسرائيل لسلالة الملوك لديهم وأنهم كانوا يعرفون من منهم منتسب إلى سلالة يوسف عليه السلام.

وهذا إقرار رباني أيضا بأنهم تسلموا الملك في مصر لأنهم قبل هذا التاريخ لم يعيشوا في غير مصر كما انهم لم يكونوا أقرب إلى الملك من العهد الذي كان فيه يوسف عليه السلام في سدة الحكم في مصر، وهذا يثبت أنه تسلم الحكم وامتد في أبنائه وأحفاده وهم الملوك الذين تشير الآية إليهم بقول الله: ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٠] .

وكون طالوت ليس الأقرب إلى صلب يوسف لا يمنع تسلمه القيادة لأن القيادة بالتقوى والمعرفة وليست بالقرب من الأصل أو البعد عنه.

فالأعمال خير من الأصل ولكي يتقبلوا طائعين اختيار طالوت ملكاً أخبرهم نبيهم أن هناك آية ربانية لاختياره وهي أن يأتيكم التابوت وهو صندوق فقد أو سرق من بعد موت موسى عليه السلام تحمله الملائكة وفيه

بقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، ويقال أن فيه درع سيدنا موسى عليه السلام وفيه نسخة "التوراة" الأصلية التي نزلت عليه وهذا ما سيدخل السكينة إلى نفوسكم وأن هذا الأمر من آيات الله تعالى لكم، وبين الله ذلك بقولـه: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

ولقد تم ذكر محتويات التابوت في الكتاب المقدس بما يلي:

((**لم يكن في التابوت إلا اللوحان اللذان وضعهما موسى في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل عند خروجهم من مصر**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح الخامس].

وبالطبع فقد جاءتهم الملائكة بالتابوت مصداقاً لقول نبيهم فتيقنته أنفسهم وقبلوا قيادة طالوت.

وأعد طالوت الجيش من القلة القليلة التي ثبتت على عهدها مع النبي ولم تتراجع عندما فرض القتال عليهم وحضروا التدريب .

وسار طالوت بالجيش متقدماً الأمة التي ستسير وراءه بعد المعركة ، وتتجلى حكمة الله تعالى باختياره عندما وصل بجيشه إلى نهر الأردن إذ يريد أن يختبر هذا الجيش وصبره على البلاء ومدى الانضباط الذي يتحلى به ويطيع الأوامر القيادية ، لأن هذا الجيش هو من أمة عذبها فرعون وتاهت في الصحراء وليس لديها إلا ما تتحلى به من إيمان بالله .

ويريد أن يختبر إلى أي مدى رفع هذا الإيمان معنويات الجند وإلى أي مدى نفخ في أرواحهم الشجاعة والإقدام لملاقاة قوم منتصرين ثابتين في الأرض ولم يهزموا وهم في أرضهم مدافعين .

يريد طالوت أن يختبر مدى تحملهم للشدائد والصبر عليها فقبل عبور النهر قال لجنده ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وكان أن شرب معظمهم وارتوى وهؤلاء تم فصلهم من الجيش لأنهم لا يصلحون للمهمة الشاقة الملقاة على عاتقهم وعبر النهر بمن بقي من القلة القليلة الذين لم يشربوا أو اغترفوا غرفة واحدة وعبروا النهر وسجدوا لله تعالى وقالوا حطة كما جاء في طلب الله منهم أن يدخلوا الباب سجداً وباب الأرض المقدسة أي مدخلها عند بدايتها وهو النهر.

إن ما فعله طالوت وهو اقتحام الأرض المقدسة على الأعداء سيثير فيهم الرعب وإن ما طبقه طالوت، هو ما جاء في قول الله تعالى أيام محاولة موسى عليه السلام دخول الأرض المقدسة إذ تقاعس القوم فقال رجلان من الذين أنعم الله عليهما بالإيمان: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:٢٣] ، ومضى طالوت بجيشه متقدماً في الأرض المقدسة وعندما واجهوا جيش الأعداء بقيادة جالوت ، ورأوا بأعينهم الأعداد والعدة قال بعض من معه: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٤٩].

هؤلاء من الصفوة المؤمنة الذين دخلوا معه والذين يخبر الله بإيمانهم وبقولهم ، حيث قال الله

تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ ﴾ [البقرة:٢٤٩] .

إن الله تعالى يخبر بإيمان هؤلاء ولكنهم رأوا قلتهم إلى جانب كثرة جنود وعتاد جيش جالوت فأحسوا بالضعف والخوف ، إنهم لم يتراجعوا ولكنهم خافوا فأزال خوفهم من كان معهم من المؤمنين.

وأما القلة القليلة المتبقية التي لم تخف والتي عمر الإيمان قلوبهم ويستمدون قوتهم من قوة الله والإيمان به وأن الله ناصر جنده فإنهم يفكرون بموازين غير موازين البشر وإنهم على يقين من أن الفئة القليلة التي اختارها الله ستغلب فئة كثيرة وأن النصر من الله حيث يقولوا (بإذن الله) والله هو الذي يمنح النصر لعباده الصالحين إذا صبروا .

ويستدل من مجموع الآيات أن النهر هو البوابة للأرض المقدسة وأن هذا النهر هو نهر الأردن حيث أنه النهر الوحيد الذي يؤدي عبوره إلى الأرض المقدسة وأيضاً يستنتج أن القداسة هي لكل شبر في فلسطين وليست لبقعة خاصة منها كذلك لأن الله تعالى طلب من الجند من خلال نبيه أن يسجدوا لله عند دخولهم الباب، حيث بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [البقرة:٥٨] .

عند المواجهة المباشرة بين بني إسرائيل وبين أعدائهم لجأت الفئة المؤمنة إلى ربها طالبين العون والنصر، فهزمت فئة الشرك وتمكن داود عليه السلام من قتل جالوت وكان في جيش طالوت ، وهذه إرادة الله أن يجعل مصرع الجبار جالوت على يد فتى هو داود عليه السلام ، لتكون عبرة لكل فرد أن الإيمان يغلب الجبابرة مهما كان المؤمن أو سلاحه، وشاء الله تعالى أن يتسلم داود الملك بعد طالوت ويرثه ابنه سليمان وكلاهما نبي من الله ولقد بين الله هذا النصر بقوله : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٠-٢٥١].

وقد ذكر الكتاب المقدس انتصارات طالوت فيما يلي :

((**وأخذ شاؤل الملك على إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه مؤاب وبني عمون وأدوم وملوك صوبة والفلسطينيين وحيثما توجه غلب**)) [سفر صموئيل الأول ـ الإصحاح ١٤] .

كما ذكر الكتاب المقدس قتل داود جالوت فيما يلي :

((**وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب... وفيما هو يكلمهم إذا برجل مبارز اسمه جليات الفلسطيني من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود ... فكلم داود الرجال الواقفين معه قائلاً ماذا يفعل للرجل الذي يقتل ذلك الفلسطيني ويزيل العار عن إسرائيل ...فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتله**)) [سفر صموئيل الأول ـ الإصحاح ١٧] .

ودخلوا الأرض المقدســة المباركـة التي تدر لبناً وعسلاً، وكما قال الله تعالـى : ﴿ فَكُلُواْ مِنۡهَا

﴿ حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا ﴾ [البقرة:٥٨] ، إنها الأرض المعطاءة الغنية المباركة المقدسة.

ولحق بهم بنو إسرائيل الذين تخلفوا عن القتال ومنهم الذي يتظاهر بالإيمان وهؤلاء نفذوا ما قالوه لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤]، ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة:٢٢] .

لقد قعدوا ولم يحركوا ساكناً حتى هزم جالوت وجنوده أمام جند الحق ولم يكتفوا بهذا بل إنهم لم ينفذوا أمر الله بالسجود أو بقول حطة، قال تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ [البقرة:٥٩] . وكذلك بينه الله بقولـه : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٢] .

وهذه الآيات تدل على أنه قيل لهم ما يجب أن يقولوه عند دخولهم الباب لكنهم استبدلوه بقول آخر مما يدل على استهتارهم وأرسل الله عليهم عذاباً من السماء بهذا الفسق الذي كانوا فيه.

عودة بنا إلى المؤمنين أتباع يوسف عليه السلام الذين قاوموا فرعون بادعاءه الألوهية ، فاستن فرعون عليهم قانون قتل المواليد الذكور عقوبة لهم وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥] . وهؤلاء هم المؤمنون من أتباع يوسف عليه السلام ومنهم والديّ موسى عليه السلام ، وبين الله هذا الاجتباء بقولـه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤] ، وعمران هو والد موسى كما تبين لنا .

وكانت ولادة موسى عليه السلام لتصحيح أوضاع الكفر.

ويبين الله تعالى أن أتباع يوسف عليه السلام من سبط واحد (ذريّة) ، أي من سلالة واحدة وأنهم فقط الذين آمنوا لموسى عليه السلام قبل خروجهم من مصر إلى صحراء التيه ، وقد ظهر هذا في قول الله تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [يونس:٨٣] .

وهناك من آمن في الصحراء بعد رؤيته لآيات الله على ضعف في إيمانه ، وأما الأسباط العشرة فبقوا على كفرهم رغم تتابع الآيات على مر الزمن .

وفي الصحراء قال موسى عليه السلام لقومه ما بينه الله بقوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي

﴿... كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١] .

لقد كان الكنعانيون على دين الحق وارتدوا عنه إلى الكفر اتباعاً لما حصل في مصر، فقرر الله تعالى طردهم من الأرض المقدسة وذلك باحتلالها من قبل وثنيين أوروبيين، ثم يقوم الذين وعدهم الله بها بتحريرها من الوثنيين لأنهم يستحقوا أن يرثوها وهم المؤمنون من بني إسرائيل.

خلال وجود بني إسرائيل في صحراء التيه استطاع الوثنيون الأوروبيون أن يحتلوا الأرض المقدسة من سكانها الأصليين (الكنعانيين) ونشر الوثنية فيها كما ذكرنا سابقاً .

قام المؤمنون من بني إسرائيل بقيادة طالوت ومعه داود عليه السلام وحرروا الأرض المقدسة من الوثنيين الأوروبيين.

هُزِمَ الكنعانيون لكفرهم فطردوا من الأرض المقدسة ، وقام المؤمنون من بني إسرائيل بتحريرها من الغزاة، وبذلك استحقوا أن يرثوها، وذلك وفق قول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

دخل المؤمنون من بني إسرائيل الأرض المقدسة بالجهاد واستحقوا وراثتها.

ولقد جاء ذكر تقسيم المنطقة بين أسباط بني إسرائيل في الكتاب المقدس بما يوافق ما جاء في الآية أعلاه حيث جاء: (**فأمر موسى بني إسرائيل قائلاً: هذه هي الأرض التي تقتسمونها بالقرعة. التي أمر الرب أن تعطى للتسعة أسباط ونصف السبط. لأنه قد أخذ سبط بني رؤبين حسب بيوت آبائهم، وسبط بني جاد حسب بيوت آبائهم، ونصف سبط منسى. قد أخذوا نصيبهم. السبطان ونصف السبط قد أخذوا نصيبهم في عبر أردن أريحا شرقاً نحو الشروق**) [سفر العدد/الاصحاح٣٤].

سنبين لاحقاً وقائع المعيشة في الأرض المقدسة بعد دخول بني إسرائيل إليها والأحداث التي مرت بهم من الكتب السماوية وكتب التاريخ .

جاء في في الكتاب المقدس أن الأرض المقدسة هي للمؤمنين فقط وهذا عهد الله مع إبراهيم عليه السلام إذ جاء فيه :

((**أقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك ... وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم . وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي .. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك**)) [سفر التكوين - الإصحاح ١٧].

إن شروط الله واضحة لوراثة الأرض المقدسة وهذا عهد الله مع إبراهيم عليه السلام ووعد أنها للمؤمنين إلى الأبد وحفظ العهد يكون من إبراهيم ومن نسله إلى الأبد وهذا يعني أنه سيكون هناك من نسل إبراهيم من يتوارث الإيمان إلى الأبد ليستحق وعد الله بأرض كنعان و ذلك باتباعهم أنبياء الله بالتتابع.

كما وعد الله نبيه إسحق بوراثة أرض كنعان في الكتاب المقدس في النص التالي: (**فذهب إسحق إلى أبي مالك ... وظهر له الرب وقال: لا تنزل إلى مصر. اسكن في الأرض التي أقول لك ... لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمته لإبراهيم أبيك**) [سفر التكوين/الاصحاح٢٦].

إن هذا النص يدل على أن الأرض هي أرض كنعان كما يدل على أن نسل إسماعيل (قريش) غير

مشمولين بهذه الوراثة لأرض كنعان.

كما وعد الله نبيه يعقوب بوراثة هذه الأرض في النص التالي:

(إسمك يعقوب لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل. والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك، أعطي الأرض) [سفر التكوين/الاصحاح٣٥].

وسيتبين معنا لاحقاً أن الأسباط العشرة الذين عبدوا العجل هم أهل شر وأنهم غير مقصودين بهذه الوراثة، وأن وراثة الأرض هي فقط لأحفاد يوسف وأنهم أيضاً ورثة كتاب الله وحملة العهد مع الله عهداً أبدياً لأنهم سيتبعون كافة أنبياء الله بالتسلسل.

إضافة إلى الوعد الأبدي في الأرض المقدسة فان الله تعالى بشرهم بما هو أكبر من ذلك ما داموا مؤمنين ومجاهدين وهو إخبار بما سيكون وليس وعداً أبدياً ولقد ظهر هذا في الكتاب المقدس بما يلي :

((**لتحبوا الرب إلهكم وتسلكوا في جميع طرقه وتلتصقوا به يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوباً أكبر وأعظم منكم . كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم**)). [سفر التثنية - الإصحاح الحادي عشر].

وإرادة الله نافذة ولا يقوى بشر على ردها فقد حقق الله تعالى ذلك ودخل المؤمنون الأرض المقدسة وهم أصحابها بقرار رباني وهم الذين كانوا يستضعفون في الأرض. إنها الفئة المؤمنة التي خصها الله بالأرض المقدسة وكتبها لها بنصوص الكتب السماوية وبوحيه لأنبيائه إذ قال الله في وحيه لداود ﷺ في الزبور ما بينه الله في القرآن بقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥] .

وجاء معهم أهل السوء من باقي الأسباط ليكونوا طفيليين يعيشون مؤقتا في هذه الأرض ثم يحكم الله عليهم بأن يطردوا منها لأنهم ليسوا بأهلها ولا يستحقون أن يعيشوا فيها وهم الذين أصدر الله فيهم بعلمه الأزلي حكماً قاطعاً بأنهم لن يتوبوا ولن يثوبوا إلى رشدهم مهما أعطوا من فرص .

وقد جاء في الكتاب المقدس البيان والتحذير من الانحراف وبيان عاقبته:

((**إذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها أعطي مطركم في حينه وتعطي الأرض غلتها ...وتسكنون في أرضكم آمنين ... ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف. والتفت إليكم وأثمركم وأكثركم وأفي ميثاقي معكم ... وإن لم تتأدبوا مني بذلك بل سلكتم معي بالخلاف فإني أسلك معكم بالخلاف وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطايكم...وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف ... فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم..**)) [سفر لاويين - الإصحاح ٢٦] .

ولقد بين الكتاب المقدس تهديد رب العالمين لمن هم في الأرض المقدسة سواء أكانوا من المؤمنين أم من الأسباط العشرة بأن الله سيطردهم من الأرض المقدسة إذا تخلوا عن إيمانهم:

((**وكما فرح الرب لكم ليحسن إليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فتستأصلون من الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها . ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها ... وفي تلك الأمم لا تطمئن ولا يكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلباً مرتجفاً وكلال العينين وذبول النفس وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك**)). [سفر التثنية/ الإصحاح ٢٨].

ويأتي الوعد بالرحمة لمن طردوا إن هم رجعوا إلى ربهم:

((**فإن رددت في قلبك بين جميع الأمم الذين طردك الرب إلهك إليهم ورجعت إلى الرب إلهك ....يرد ا لرب إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلهك**)) [سفر التثنية ـ الإصحاح الثلاثون] .

وما أعطى الله لهم، الفرصة تلو الأخرى للتوبة إلا لتقوم الحجة عليهم يوم القيامة وذلك لعدالة الله المطلقة وهم الذين أصدر الله حكمه الأزلي فيهم بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٢] .

فهل يعقل أن يكون عبدة العجل ممن ينطبق عليهم قول الله : ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥]؟

وهل يعقل أن ينطبق على عبدة العجل وقتلة الأنبياء قول الله: ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]؟

وهل يعقل أن تنطبق على عبدة العجل الكفرة كلمة ربك الحسنى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف:١٣٧]؟

إن هذه المقارنات ستقودنا إلى نقطة هامة وهي أن بني إسرائيل الذين تمت كلمة ربك الحسنى لهم تعني في القرآن (الأسباط) الخيرة فقط، وأن المعنى بالنداء يا بني إسرائيل يكون أحياناً أهل الخير وأحياناً أهل الكفر وأحياناً يشمل الجميع وذلك تبعاً للزمن والحدث والجماعة المعنية بالحدث فهذه الأمور هي التي تحدد المقصود بالنداء.

وكذلك الأمر في الكتاب المقدس فإن كلمة إسرائيل تحتمل معاني مختلفة فأحياناً تعني كل بني إسرائيل وأحياناً تعني الأسباط العشرة عبدة العجل، وأحياناً تعني أهل الخير من بني إسرائيل ، وأحياناً تعني كل فرد في بني إسرائيل .

إننا نقر ونعترف بأن بعض هذه الشرذمة من اليهود المعتدين على الديار المقدسة هم من أحفاد إبراهيم عليه السلام ـ ولكن أي أحفاد ـ والبعض الآخر ممن تبع ديانتهم من أعراق أخرى .

إنهم الظالمون أعداء الله وأعداء البشرية الذين يعيثون فيها فساداً وأعداء أنفسهم لأنهم يلقون بأنفسهم إلى النار وبئس المصير.

ومع مرور الزمن تبينت الفئة الصالحة التي قال الله فيها تنفيذا لدعوى سيدنا إبراهيم جدها عليه السلام : ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥].

أثناء جدل مع صاحب لي قال بأنك بهذا الكلام تحكم بأن سبط يوسف هم أهل الخير ويتوارثون الخيرية إلا ما ندر، وأن الأسباط العشرة الأخرى هم أهل الكفر ويتوارثون الكفر الا من رحم الله فقلت نعم . فقال لي صاحبي اثبت كلامك ! فقلت له : قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ

وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤] .

وتظهر الآية أن آدم خير المخلوقات وأول من اصطفاهم الله، ومن ذريته اصطفى نوحاً وهو نبي زمانه وخير من لم يأخذه الطوفان ، وتلك البقية التي نجت في السفينة فإن نوحاً خيرها. وبدأت هذه البقية بإنجاب البشرية وكان لهم ذريات ومن ذرياتهم قبائل وخير قبيلة من أحفاد نوح عليه السلام هي القبيلة التي جدها إبراهيم عليه السلام - ويستثنى منهم من استثنى الله بالنص الصريح .

وان إبراهيم أنجب قبائل مختلفة مع الزمن وخير هذه القبائل هي القبيلة التي جدها عمران والتي بينها الله بقوله: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩]، وتدل الآية ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٤]، أن الصلاح متوارث وأن توارث الصواب في هذه الذريات وهذا هو طبيعة التوارث وأما قول الله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الروم:١٩] ، فإن يحصل وهو الإعجاز في خلق الله .

والصلاح لا يكون إلا باتباع أوامر الله أي بالإسلام. ومن ذرية إبراهيم عليه السلام خير الأنام وسيد ولد آدم محمد ﷺ .

كذلك فإن قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٢].

فهل قصد الله تعالى ذلك النفر من ذلك الجيل الذين عبدوا العجل ؟ إنهم جيل واحد وما أن عاد موسى عليه السلام من لقاء ربه حتى حطم العجل واستغفروا ربهم فتاب عليهم والجيل التالي لهم مباشرة لم ير العجل بل سمع بقصته كما نسمع الآن ولكنه توارث الكفر وحافظ عليه وكذلك فعل أحفادهم أحفاد الكفر والضلالة إلى يومنا هذا .

كذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٦٧] . فقول الله هذا يعني الأبناء والأحفاد إلى يوم القيامة لأنهم سيتوارثون الكفر جيلاً بعد جيل، واستثنى الله تعالى من رحم وينطبق عليه قول الله : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [الروم:١٩]، وذلك بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٦٧] .

وأما قول الله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٥]، فيتحدث عن الذين صاروا أئمة وورثوا الأرض المقدسة وهم أحفاد الذين استضعفوا وسمعوا بما حصل مع أجدادهم والفرق بينهم ثمانية أجيال ، ولكنهم توارثوا العنصر الإيماني وأوذوا في سبيل الله وتحملوا وصبروا وحافظوا على إيمانهم، ولا يزال أحفادهم هم سكان الأرض وما حولها تنفيذاً لوعد الله تعالى لهم حيث جعلهم الوارثين وأسكنهم الأرض التي كتب الله لهم.

وصفوة الخير هذه هم ورثة كتاب الله أيضاً، وهم حملة شعلة الإيمان منذ بزوغها ورثوها عن جدهم يوسف عليه السلام حيث قال الله تعالى فيهم: **(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)** [غافر:٥٣].

كما وصف الله تعالى هذه الفئة بأنهم خيرة خلقه في قوله تعالى: **(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)** [الدخان:٣٢].

لقد اصطفى الله أهل الخير أحفاد يوسف ﵇ وهم أتباع موسى وهارون عليهما السلام فهم حملة الشعلة الإيمانية ومن الله عليهم بالاستمرار بحملها واتباعها وأكرمهم بأن يكونوا من أتباع محمد رسول الهدى ﷺ وبذلك حافظوا على مسيرتهم الإيمانية منذ جدهم إبراهيم وسيحافظون عليها إلى قيام الساعة يتساقط منهم على الطريق من يهب نفسه للشيطان ويثبت من يثبت وهو المعتصم بحبل الله .

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على الصراط المستقيم وأن يجعلنا من ورثة جنة النعيم كما أورثنا أرض الأقصى المباركة المقدسة .

نأتي الآن إلى نقطة أشرنا إليها سابقاً بالتلميح لا بالتصريح وهي أين كان تيه بني إسرائيل؟ هل كان في صحراء سيناء أم في شبه الجزيرة العربية ؟

لا يوجد في القرآن وفي السنة ما يشير إلى أن التيه كان في صحراء سيناء وإنما تناقل هذا من تناقلوه عن بعضهم دونما دليل. وما سبب ذلك إلا أن سيناء هي الطريق البري الوحيد من مصر إلى فلسطين فاعتبر من كتب في هذا الأمر أن موسى عليه السلام سار بقومه إلى سيناء رغم انه عبر البحر إلا أنه خرج منه ليدخل سيناء ومن طبع البشر أن يتيهوا في الصحراء فكيف بهم إذا حكم الله عليهم بذلك .

وللعلم فإن الكتاب المقدس يبين أن التيه كان في (برية سيناء) بالنص المباشر ويذكر القبائل العربية التي قاتلها بنو إسرائيل خلال فترة التيه ويبين وجودها وهي أماكن تقع شمال الجزيرة العربية وجنوب شرق الأردن.

لقد نسي الذين يقولون أن سيناء هي صحراء التيه أن بإمكان موسى أن يدخلها دون أن يعبر البحر إليها حيث لم تكن هناك قناة سويس ، وسيقولون بان الله أوحى لموسى الذهاب للبحر وهذا صحيح ولكن هذا يتناقض مع الغرائز البشرية التي خلقها الله ومنها حب الانتقام ، فلو كان موسى وقومه في سيناء لتبعهم أبناء فرعون وأقارب جنده الذين غرقوا معه لينتقموا منهم، لقد اتجه موسى وقومه خارج دولة فرعون، وسيناء وفلسطين من دولته، وما خارجها إلا جزيرة العرب وإن من قالوا أن التيه كان في صحراء سيناء لم يرجعوا إلى كتب التاريخ وفيها من المعلومات ما لا يتناقض مع كتاب الله بل ما يتوافق معه ومع الغرائز التي خلقها الله في النفس البشرية، ولو أخذ من بحثوا في التيه ما جاء في كتب التاريخ وفي كتاب الله لعرفوا أن التيه لم يكن في صحراء سيناء بل كان في صحراء شبه الجزيرة العربية.

وسواء كان التيه هنا أم هناك فإن ذلك لا يغير من باقي الحقائق شيئاً .

يوجد من الدلائل الكثير مما يشير إلى أن التيه كان في شبه الجزيرة العربية ومنها أن موسى ﵇ ما إن عبر البحر وخرج منه بقومه حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. أي أنهم أتوا على منطقة سكانها يعبدون الأصنام وسيناء هي أرض مصرية وكان أهلها يعبدون فرعون، وعبادة الأصنام كانت في شبه الجزيرة العربية.

وإذا جاز لنا أن نستشهد تأكيداً على ما جاء بكتاب الله بما جاء في كتاب التاريخ فقد جاء في كتاب التاريخ ((**مصر القديمة**)) ما يلي : (إن الحفائر التي قام بها الأستاذ "فشر في بيسان وقد وجد فيها قلعة

مصرية وعثر فيها على لوحات من عهد سيتي الأول ورمسيس الثاني وأهم من ذلك تمثال لرمسيس الثالث وبقول فشر ان هذه الآثار المؤرخة تقدم لنا برهاناً كافياً على ان البلدة التي بقيت في أيدي مصرية من عام (١٣٢٣ق.م) حتى (١١٦٧ق.م) ، وعلى ذلك فان اليهود قد هاجروا في عهد ملك ما وفلسطين في حوزة مصر وعندئذ يكون مثلهم في ذلك كمثل المستجير من الرمضاء بالنار) (صفحة ـ ١١٥/مجلد٧).

إن خروج موسى من مصر كان عام (١٢٣٤ ق.م) وهو تاريخ موت فرعون موسى وهو رمسيس الثاني وهذا يثبت مقولة ما جاء في الكتاب كما يثبت ان بني إسرائيل كانوا خارج حكم مصر وليس فيها وفي تلك الفترة كانت فلسطين وسيناء جزءاً من مصر وهذا يؤيد القول بان منطقة التيه هي صحراء النفوذ الكبرى .

وهناك أمور أخرى تؤيد هذا الرأي ، منها أن الآيات تذكر دخول طالوت إلى فلسطين من خلال نهر الأردن، وتقر بذلك كل كتب التفاسير وبذلك يكون قد قدم من الجبهة الشرقية وهذا ما تشهد به الآيات إذ قال لجنوده : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ [البقرة:٢٤٩] ، ويكمل الله تعالى قوله في نفس الآية: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [البقرة:٢٤٩] ، أي أنهم عبروا النهر إلى الأرض المقدسة .

فلو أنهم كانوا في سيناء للزم أن يخرجوا من سيناء إلى فلسطين ثم يخرجوا من فلسطين إلى الأردن ثم يدخلوا من الأردن إلى فلسطين مرة أخرى ، أليس الأقرب إلى العقل أن يكونوا أتوها من منطقة تيماء وتبوك في شبه الجزيرة العربية .

هناك أمر آخر وهو تردد بني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة وغضب الله عليهم وحكمه عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة فكان عليهم أن يلتزموا منطقة الشاطئ تجنباً للضلال.

ألم يخطر ببال وريث فرعون أن ينظم جيشه وان يلحق بهم في سيناء لينتقم لأبيه وهي منطقة مفتوحة أمامه كما أنها ارض مصرية مع فلسطين وهي تحت الحكم المصري بل لو لم تكن فلسطين فسيناء مصرية من قديم الزمان.

كيف لم يخطر ببال أحد أنهم لا يزالون في خطر القتل انتقاماً من وريث فرعون. أليست الأربعين سنة كافية لان يهب وريث فرعون ويبحث عنهم لينتقم منهم. أما انتقام وريث فرعون من بني إسرائيل فقد جاء في التاريخ فعلاً أن وريث فرعون وهو الملك مرنبتاح نظم جيشاً ودخل فلسطين لإطفاء ثورة تحركت هناك نتيجة موت والده فلو كان بنو إسرائيل فيها لما أبقى منهم أحداً.

أمور أخرى توضح انهم كانوا على شاطئ البحر لفترة طويلة من حياتهم وهي :

أولا : عودة موسى ﷺ من لقاء ربه ليجدهم عبدوا العجل ، ويقول للسامري عن العجل : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه:٩٧] ، أي أن موسى وقومه كانوا على شاطئ البحر رغم أن زمن الميقات فقط هو أربعون يوماً وهذه مدة كافية لان يتبعهم وريث فرعون، وهذا يدل أيضا انهم كانوا على شاطئ خارج سلطان مصر ولا يوجد هذا الشاطئ إلا أن يكون شاطئ جزيرة العرب الغربي .

ثانياً : استمرارهم لفترة طويلة يعيشون على الشاطئ ، وهي سنوات طويلة حتى بعد موسى ﷺ ، ويعرف ذلك من قصة القرية التي كانت حاضرة البحر التي عتت عن أمر ربها واصطادوا يوم السبت فحولهم الله إلى قردة ، وهذا يعني أنهم كانوا قرب الشاطئ فلو كانوا في سيناء لانتقم منهم وريث فرعون وهذا ما لم يحصل مما يدل على انهم كانوا خارج سلطانه .

ثالثاً : وجود قبائل منهم في المدينة المنورة وخيبر حتى البعثة الإسلامية وقد شهد كتاب الله كما مر معنا انهم من بني إسرائيل عرقاً وسلالة وهذه هي البقية التي لم تتبع طالوت لأنها كانت في زمن التيه قد وصلت إلى استقرار معاشي ومادي يغنيها عن الذهاب إلى الأرض المقدسة لتبدأ هناك من جديد واكتفت ورضيت بما حققت في معيشتها مع عبدة الأصنام من استقرار مادي ومعيشي .

ومن مدلول الآيات يتبين أن هذه الفئة الضالة من بني إسرائيل قد عمرت هذه الأرض قبل القبائل العربية الأخرى لأن الله تعالى يذكر نصاً قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ [الحشر:٢-٣]. فالله تعالى يقول في هذه الآيات : (ديارهم) ويقول (حصونهم) ويقول (بيوتهم) ، ويقول أخيراً (كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ) .

والإنسان يجلي عن بيته ولا يعني هذا أن لهذه الشرذمة حقاً في المدينة المنورة أو خيبر لا سمح الله لان خروجهم وجلاءهم هو بقرار الهي ، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويظهر هذا القرار من الآية بالنص الصريح، وقصدنا أن نقول إنهم عمروا هذه الأرض.

فكيف عمروها ومتى ذهبوا إليها إن لم يكونوا قد بقوا فيها من أيام موسى عليه السلام وكذلك بين الله هذا الأمر بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقًا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضًا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧].

ويظهر من الآيات قول الله تعالى بالنص الصريح (صَيَاصِيهِم)، وقوله (وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ)، وهذا يعني انهم كانوا أصحابها قبل صدور حكم الله تعالى بجلائهم عن هذه الأرض التي طهرها الإسلام فلا يستحقون أن يسكنوا فيها لأنهم رجس وفساد .

رابعاً: ذكرهم الله بالنص الصريح في آيات قرآنية أنهم من بني إسرائيل عرقاً، حيث قال تعالى: **(أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ)** [الشعراء:١٩٧]. وهذه الآية تشهد أن عبدالله بن سلام والقبيلة التي ينتمي إليها هم من بني إسرائيل عرقاً، وكذلك قال تعالى: قال تعالى: **(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِيَ إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)** [الأحقاف: ١٠]. وهذه الآية أيضاً تشهد بالنص الصريح أن يهود المدينة المنورة هم من بني إسرائيل عرقاً.

نأتي الآن إلى موضوع آخر وهو الزمن الذي انقضى بين عبور البحر إلى دخول فلسطين حيث تذكر معظم الكتب بأنه أربعون سنة.

إن كتاب الله لم يتحدث عن الفترات الزمنية للأحداث لأنه يهتم بالأحداث نفسها وليس بالزمن فالأمور بخواتيمها ولذا فإنه لمعرفة الأزمان لا بد من العودة إلى كتب التاريخ ولو عدنا إلى هذه الكتب لوجدنا ما

يلي:

في كتاب ((**مصر القديمة**)) ، الصفحة ، (٢٠٨) المجلد السادس نجد أن فترة حكم رمسيس الثاني كانت في الفترة من (١٣٠١ـ١٢٣٤ق.م) ، وهذا يعني أن غرقه كان عام (١٢٣٤ق.م) ، وهو عام خروج موسى وقومه من مصر وبداية فترة المعيشة الصحراوية والتي كان بعضها فترة التيه العقوبة الإلهية لهم .

كما جاء في كتاب ((**عهد الملوك**)) ما يلي :

(وكان حكم شاؤل قد استمر حوالي (١٥) سنة بين (١٠٢٥ـ ١٠١٠ق.م) ، ثم تقلد الحكم الملك داود خلفاً لشاؤل فاستطاع هذا الملك على قول التوراة أن يخضع أكثر المدن الفلسطينية وقد اتخذ داود أورشليم بعد استيلائه عليها من اليبوسين عاصمة له وبنى فيها قصره الملكي ، وأقام فيها معبدا للإله يهوه، وقد استمر حكم داود زهاء (٤٠) سنة من (١٠١٠ـ ٩٧١ق.م) منها سبع سنين في حبرون والباقي في بيت المقدس ثم انتقل الحكم إلى الملك سليمان بن داود الذي اشتهر ببناء الهيكل في أورشليم) (الصفحات ٤٩٨، ٤٩٩).

وجاء في كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) الصفحات (٥٤٣، ٥٤٤) عن الفرعون سآمون ، إن الفرعون منح ابنته كزوجة لسليمان وتعاهد الملك سليمان مع الفرعون عن طريق المصاهرة واصطحب ابنة الفرعون في مدينة داود حتى انتهى من بناء منزله (منزل الآبدين) ، وقد انتهى من بناء المعبد بعد إتمام الزواج الذي من المحتمل انه حدث عام (٩٨٠ ق.م).

ـ بسوسينس الثاني : (٩٨٤ ـ٩٥٠ ق.م) : تولى بعد سآمون وانتهت الأسرة الحادية والعشرون بوفاة بسوسينس الثاني عام (٩٥٠ ق.م) .

تعليق : كما استنتجنا سابقاً فلو ترجمنا آمون إلى الرحمن فان اسم هذا الملك سيكون عبد الرحمن ، ولكن ماذا نقول لمن يريدون أن يترجموا خطأً ولا راد لهم وهم يعلنون بسيادة الإسلام ويذكرون صداق الزوجة الأميرة .

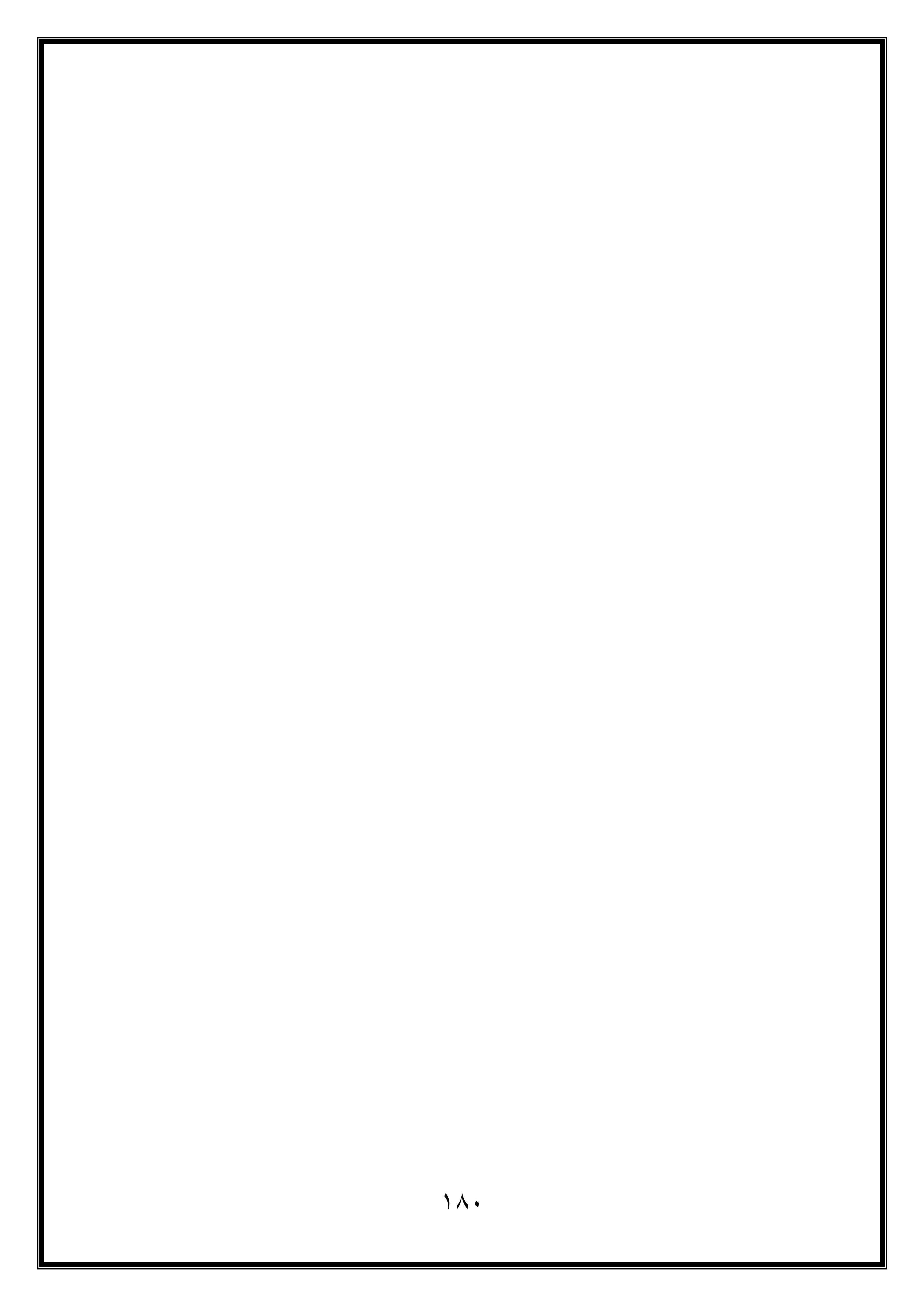
ولقد تمت مراجعة كتب تاريخ أخرى فظهر هناك بعض التباين في التواريخ المبينة . إذا اعتبرنا التواريخ الواردة في كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) صحيحة فهذا يعني أن نبي الله سليمان ﷺ توفي عام (٩٣٤ ق.م) ، ولنلخص الآن التواريخ التي لها علاقة بزمن المعيشة الصحراوية لقوم موسى وزمن إقامتهم وسيادة الإسلام الذي حملوا رايته على ارض الأقصى نجد أن: خروج موسى وصحبه من مصر وعبورهم البحر كان عام (١٢٣٤ ق.م) .

دخول المسلمين بقيادة طالوت إلى فلسطين كان عام (١٠٢٥ ق.م) ، كما ورد في كتاب ((عهد الملوك)) . دخول المسلمين بقيادة طالوت إلى فلسطين كان عام (١٠٤٥ ق.م)، كما ورد في كتاب آخر .

يستنتج من التواريخ أعلاه أن المعيشة الصحراوية لقوم موسى كانت ما بين (١٨٩) سنة إلى (٢٠٩) سنوات ، وجزافا نقول في حدود مائتي عام. في حين أن الجميع يذهب إلى القول بأن هذه المدة هي أربعون عاماً آخذين العقوبة الإلهية فقط ، مع أن هناك في كتاب الله ما يشير إلى أن المدة أكثر من ذلك وذلك من نص الآية التي تقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٦].

وتظهر الآية الكريمة أن هذا النبي الذي أوحى له الله تعالى باختيار طالوت ملكاً هو النبي التالي لموسى وهارون ، وأن موسى وهارون قد انتقلا إلى رحمة الله وعاش قومهما الفترة الزمنية اللازمة

للعيش دون نبي إلى أن بعث الله لهم نبياً آخر ، وهذه المدة تقارب المائتي عام وهذا قريب من الصواب.
ومع دخولهم فلسطين كان داود عليه السلام شاباً شجاعاً ، وهو الذي قتل قائد جيش الأعداء: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥١] ، وتسلم الملك بعد طالوت مباشرة وآتاه الله النبوة والزبور.



الفصل السابع الإسلام يعمر الأقصى

ويدخل المجاهدون من بني إسرائيل الأرض المقدسة كما أمرهم الله تعالى فلبوا النداء وجاهدوا في سبيل الله وسجدوا لله شكراً على نعمته ، وكانت معركة تحرير الأرض المقدسة من الشرق عبر نهر الأردن بقيادة طالوت ومعه داود عليه السلام كما أوردنا ولقد شهد الكتاب المقدس بهذه المعركة وضراوتها إذ جاء في الكتاب المقدس ما يخاطب الأرض المقدسة بما يلي:

((**إذ تصرخين فلينقذك جموعك. ولكن الريح تحملهم كلهم. تأخذهم نفخة أما المتوكل عليَّ فيملك الأرض ويرث جبل قدسي ويقول اعدوا أعدوا هيئوا الطريق . إرفعوا المعثرة من طريق شعبي**)) [سفر اشعياء ـ الإصحاح ٥٧].

يوضح الكتاب المقدس بأن المؤمنين المتوكلين على الله يملكون الأرض وهم المجاهدون الذين حرروا الأرض المقدسة بالجهاد .

كما كان هناك ذكر لمعركة من الجهة الغربية من الأرض المقدسة في كتاب التاريخ لا تؤكد الحدث ولكن تشير إليه ولقد شهد الكتاب المقدس بذلك وهي مساهمة ملك مصر في طرد الفلسطينيين عن آخرهم من الأرض المقدسة وهذا يؤكد أنه لم يبق فيها أحد من المحتلين الوثنيين وتم تطهير الأرض المقدسة منهم وذلك بما يلي :

((**كلمة الرب التي صارت إلى ارميا النبي عن الفلسطينيين قبل ضرب فرعون غزة هكذا قال الرب... من صوت قرع حوافر أقويائه من صرير مركباته وصريف بكراته لا تلتفت الآباء إلى البنين بسبب ارتخاء الأيادي.. بسبب اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيين لينقرض من صور وصيدون كل بقية تعين لأن الرب يهلك الفلسطينيين بقية جزيرة كفتور. أتى الصلع. أتى الصلع على غزة. أهلكت أشقلون مع بقية وطائهم**)) [سفر أرميا ـ الإصحاح ٤٧].

ودخل أهل الكفر من بني إسرائيل منافقين متواكلين على غيرهم فأرسل الله عليهم عذاباً لفعلتهم ولتخليهم عن الجهاد الذي طلبوه من نبيهم وهذا العذاب جزاء ما قدمت أيديهم وأنفسهم الكافرة من تخلي ونقض لعهد حق. ويعلو اسم داود عليه السلام فهو الذي قتل زعيم الشرك جالوت ويتسلم الأمور ويؤول إليه الملك بعد طالوت .

ولقد بين الكتاب المقدس تنصيب داود ملكاً بما يلي :

((**فقال الرب لصموئيل ... املأ قرنك دهنا وتعال أرسلك إلى يسى البيتلحمي لأني قد رأيت لي في بيته ملكاً... وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر... فقال الرب قم امسحه لأن هذا هو. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته. وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً**)). [سفر صموئيل الأول - الإصحاح السادس عشر] . وأما أصل داود عليه السلام فقد حددته التوراة بما يلي :

((**وهذه مواليد فارص . فارص ولد حصرون وحصرون ولد رام ورام ولد عمينا دابْ وعمينا داب ولد نخشون ونخشون ولد سلمون وسلمون ولد بوعز وبوعز ولد عوبيد وعوبيد ولد يسى ويسى ولد داود**)) [سفر راعوث ـ الإصحاح الرابع].

وفي موقع آخر من الكتاب المقدس يبين أن فارص ابن يهوذا ابن يعقوب ، وأما فترة حكمهِ فكانت أربعين سنة ووردت في الكتاب المقدس بما يلي :

((**وكان الزمان الذي ملك فيه داود على إسرائيل أربعين سنة. في حبرون ملك سبع سنين وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الثاني].

مما أوردنا فإن داود هو الجيل الحادي عشر بعد يعقوب وبينهما من الزمن أحد عشر قرناً ، وبذلك يكون معدل سن الزواج مائة سنة ، وهذا بعيد عن الواقع لأنه يهدف إلى إثبات أن داود ليس من أحفاد يوسف، كذلك فإنه يتناقض مع العادات المتبعة في الزواج، ويتناقض مع النصوص الواردة أدناه من (سفر مزامير) والتي تثبت أن داود عليه السلام من سبط يوسف.

كما بين الكتاب المقدس في مواقع أخرى ما يشير إلى أن داود من سلالة يوسف عليهما السلام فقد جاء ما يلي :

((**يا راعي إسرائيل أصغِ يا قائد يوسف كالضان يا جالساً فوق الكروبيم اشرق. قدام أفرايم وبنيامين ومنسّى أيقظ جبروتكَ وهلم لخلاصنا.يا الله أرجعنا وأنر بوجهك فنخلص**)) [سفر مزامير - المزمور الثمانون] .

وأفرايم ومنسى هما سبطا يوسف ﷺ وبنيامين هو أخوه الصغير ، فهل ترى نبي الله داود يدعو لعائلة أخرى ولشعب آخر أم لشعبه.

وكذلك فقد ورد في الكتاب المقدس ما يلي :

((**انفخوا في رأس الشهر بالبوق عند الهلال ليوم عيدنا. لأن هذا فريضة لإسرائيل حكم لإله يعقوب . جعله شهادة في يوسف عند خروجه على أرض مصر**)) [سفر مزامير - المزمور الحادي والثلاثون] .

والنفخ ترانيم دينية للصلاة وإذا كان الله تعالى فرضه أن يكون في أحفاد يوسف فهذا يعني أنهم السلالة المتبقية في الأرض المقدسة وهم المختارون ومنهم أنبياء الله.

ويشهد الكتاب المقدس بأن سكان القدس في ذلك الزمان وهم أهل الخير يخاطبون أهل الشر من الأسباط العشرة بأن هذه الأرض المقدسة هي للخيرين فقط وهذه شهادة الكتاب المقدس تؤكد بأن الأرض المقدسة لأسباط الخير فقط وتم بيان ذلك فيما يلي :

((**وكان لي كلام الرب قائلاً : يا ابن آدم اخوتك إخوتك ذوو قرابتك وكل بيت إسرائيل بأ جمعه هم الذين قال لهم سكان أورشليم ابتعدوا عن الرب. لنا أعطيت هذه الأرض ميراثا**)) [سفر حزقيال - الإصحاح الحادي عشر].

وكما ذكرنا فإن كلمة إسرائيل في هذا النص تعني الأسباط العشرة فقط وهم دويلة إسرائيل التي انفصلت عن ملك سليمان في ذلك الزمان لكفرها وتمردها.

ويتسلم زمام الأمور ويؤتيه الله النبوة والعلم والفضل المبين وقمة الفضل تكون في النبوة والعلم.

ولقد أورد الله ما أتاه من علم متنوع ومن ذلك تعليمه الترتيل بكتاب الله ترتيلاً يخترق به حاجز التعامل بين الإنسان والمادة فتسبح الجبال والطير معه لما يصدر عنه من نفحات تجعل الجبال خاشعة من خشية الله وكذلك الطير كانت تتجاوب مع هذه النغمات فتسبح بحمد ربها ، ولقد أوجز الله تعليمه لداود وسليمان بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل:١٥].

لقد آتاه الله الحكمة فكان حكيماً قوياً عزيزاً يتخذ الرأي السديد بجدية وحزم لا تردد فيه ومع هذا الحزم كان على درجة من الكمال والعقل والعدل في الحكم والسلطان، ولقد ذكر الله ذلك بقولـه: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ

﴾ [ص:١٧-٢٠].

إن الله تعالى يقول في الآية : (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ)، أي جعله شديداً قوياً عزيزاً، فما مدى هذه القوة مقارنة بغيرها من قوى الشعوب أو الدول التي عاصرت تلك الحقبة الزمنية، فهل يمكن أن يوجد قوة مثيلة لها أم كانت أكبر قوة في ذلك الوقت؟ كانت بالتأكيد أكبر قوة على وجه الأرض رغم أن المدة الزمنية التي مضت على قيام دولة الإسلام كانت قصيرة إلا أن معية الله تعالى هي فوق كل شيء.

ولم يتوقف عطاء الله عند هذا بل تعداه إلى إعجاز لم يسبق لغيره حيث جعل الحديد ليناً بين يديه ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ [سبأ:١٠]، ولم يذكر فيما إذا كان بالتسخين لدرجة حرارة منخفضة أم دون تسخين ، وأغلب الظن أن يكون بالتسخين لأنه لا يمكن لملك أن يصنع دروع جيش دون أن يستخدم بشراً يعملون بإمرته دون معرفة لما يعملون بل كانوا يفعلون ما يؤمرون وتكون النتيجة كما يريدها نبي الله، والسابغات هي الدروع التي كانت تعمل سابقاً من صفائح الحديد فكانت ثقيلة وتعيق الجسم عن الحركة، فألهم الله نبيه داود أن يعملها أجزاء متصلة بفصالات أو زرد، وبذلك تأخذ شكل الجسم الذي تستره وتحميه ولا تعيق حركة الجسم ، وبذلك يزداد إحكامها لمنع اختراق السهام لها وهذا هو التقدير في السرد. ولقد جاء هذا في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ:١٠-١١].

كما بين الله تعالى ما ألهمه لداود عليه السلام من صناعة الدروع التي تقي الإنسان بأس عدوه بقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

إن صنعة الدروع هذه كانت كلها إلهاماً من الله تعالى لداود عليه السلام ولم تكن علماً سابقاً لديه وهذه من الأمور التي شد الله تعالى بها ملك داود عليه السلام إضافة للنبوة وحمله راية الإسلام على أرض الأقصى .

ما مدى القوة التي وصل إليها داود في مملكته، إن الله شدَّ ملكه ومن يشدد الله ملكه فلن تجد من يجاريه في قوته ، إذاً فهو أكبر قوة على الأرض في ذلك الزمان ، وفي هذا العطاء الكبير تكليف له بخلافة الأرض وبإقامة الحق والعدل بين الناس وعدم اتباع الهوى وعدم التسرع.

ولقد بين الله تكليفه لداود عليه السلام بخلافة الأرض بقوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦].

فهل اكتفى نبي الله بنشر دين الله على أرض الأقصى أم ينشر دين الله فيما حوله من الممالك، وهل

توسعت دولة الإسلام أم بقيت محصورة في الأرض المقدسة؟

لقد بحثنا في كتب التاريخ فوجدنا في كتاب ((**العرب واليهود في التاريخ**)) ، المجلد الثاني الصفحة (٥٠٠) ما يلي : (ويرى الباحثون أن العوامل التي ساعدت على توطيد ملك داود وتهيئة الظروف الملائمة لبعض الاتساع هي أن أمور مصر في عهده كانت مرتبكة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبكة كذلك وقد منح هذا لداود شيئاً من حرية الحركة والنشاط والتبسط وممارسة السيادة) .

إن هذا الكلام اعتراف بأن ملك داود عليه السلام شمل الشام وجزءاً من مصر ، وجزءاً من العراق وهذا ما أيده القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص:٥-٦].

يريد الله أن يري الكافرين أن هؤلاء القوم الذين كانوا يستضعفون في الأرض لإيمانهم بالله ، ها هم الآن أقوى قوة على الأرض وهم أهل الهدى وهم الأئمة على هذه الأرض ، وهذا جزاء الله للمؤمنين بما صبروا وهذا ما يريد الله أن يريه لأتباع فرعون وهامان وجنودهما ممن لا يزالون على غيهم فها هم يرون بأعينهم سلطان هذه الفئة المؤمنة يعم ويصلهم .

وأما التوسع جهة الشرق والغرب فإن الله تعالى بين توسع ملك داود خارج أرض الأقصى بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٧] .

إن هذه الآية تحمل المعنى الدائم وهي تعني أن سكان الأرض المباركة ومسافات منها إلى الشرق (شرق الأردن) ومسافات إلى الغرب (جزء من سيناء)، أنها ميراث أهل الخير من بني إسرائيل، وأن سكان هذه المناطق هم من سلالة واحدة.

ملاحظة: إن قارئ الفقرة التي أوردناها من كتاب ((**العرب و اليهود في التاريخ**)) يستشعر منها أن الكاتب يعد نبي الله داود من اليهود ناسياً أن أنبياء الله تعالى مسلمون وما دعوا يوماً إلاّ للإسلام .

ونرد عليه بقولنا إن تلك الفترة كانت فيها القدس عاصمة الإسلام وكانت عاصمة أقوى دولة على الأرض ، فدولة الإسلام الحقة دائماً وفي أي زمان هي أكبر قوة على الأرض ما دامت تتبع منهج الله الذي أنزل على أنبيائه. كذلك فإنني أستشعر هذا العجب من معظم الكتب وكافة وسائل الإعلام التي نقرأ ونسمع تعد أنبياء الله موسى وهارون وداود وسليمان أنبياء لليهود ومن اليهود، وهذا أمر غير صحيح، فهم مسلمون وأنبياء إسلام وما دعوا إلا للإسلام.

أقول هذا لكل من يريد أن يرى حقائق التاريخ من كتاب الله وأقوله ردعاً لكل من يريد أن يزيف حقائق التاريخ لأن كتاب الله هو المرجع لكل شيء وكتاب الله يشهد بأن الشعب المسلم الذي يقطن الأقصى وما حوله هم أحفاد سليمان وداود وهم أحفاد موسى وهارون وهم أحفاد يوسف عليه السلام وأن الذرية الصالحة ممتدة إلى تلك الأجداد الخيرة وأن البركة كانت وما زالت قائمة على هذه الأرض بما عليها وبمن عليها بشهادة الله تعالى على ذلك بمختلف آياته ولمختلف العصور وأن جملة بني إسرائيل التي وردت في الآية (الأعراف ـ١٣٧) التي استشهدنا بها تعني ذلك الجزء السبط الأمة الخيرة من بني إسرائيل ولا تعني أهل

الكفر منهم. وسيظهر معنا استمرارها على ما هي عليه على مر الزمن وإلى قيام الساعة، وأهل الخير هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم القول الثابت الدائم المعنى: (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىَ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [الدخان: ٣٢].

نعود إلى كتاب الله وإلى عهد الله ووعده لنصرة المؤمنين المتقين، لقد كانت الأرض المقدسة جزءاً من الأرض التي يسيطر عليها الفرعون رمسيس الثاني، وها نحن نرى أن من كانوا يستضعفون في الأرض وصبروا صاروا أصحاب هذه الأرض وأصحاب السيادة عليها وعلى أرض تقع شرقها وغربها بمسافات كبيرة بنص الآية وباعتراف كتاب التاريخ ومن هذا يتضح لنا معنى الآيات التي تقول : ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩].

فقد كان آل فرعون يحكمون الأرض المباركة بما فيها من كنوز مع أرض مصر فأخرجهم الله منها ومن المقامات والمناصب التي كانوا بها وأورث هذه الأرض لبني إسرائيل (أحفاد يوسف)، وإذا نظرنا إلى الآية وجدنا أنها تحمل المعنى الدائم لا المؤقت فهذا يعني أن تلك السلالة هي التي تسكن هذه الأرض منذ ذلك الزمان وهي التي اتبعت أنبياء الله جميعاً وهي التي ما تزال موجودة حتى الآن، ويشهد الكتاب المقدس بالوضوح التام أن سلالة داود وسليمان ما زالت موجودة منذ دخولها الأرض المقدسة حتى ظهور الإسلام، وليس كما يدعي من يريد تزوير جذور ذلك الشعب الخير المبارك بادعاء أن أصل هذا الشعب من جزيرة كريت دون أي إثبات وليس هذا إلا رقصاً على دف كاتب أجنبي لأنه أجنبي وتنفيسٌ لعقد نقص في نفس من كتب أن يجد نفسه كاتباً دون محاسب يحاسبه على سوء ما كتب.

هذا عن سبط الخير والفلاح فماذا عن أهل الكفر من باقي الأسباط؟

هل تراهم شاركوا فيما حصل من معارك يتطلبها نشر دعوة الحق على أرض الله ، أم أنهم دخلوا هذه الأرض بعد أن قام أهل الخير بنشر دعوة الحق وهم دخلوها ليسكنوا فيها دون عناء ، إن الله ذكر دخولهم فلسطين، كما ذكر تحريفهم لما طلب منهم أن يقولوه عند الدخول، وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [الأعراف:١٦٢].

كذلك يبين ((الكتاب المقدس)) أن هؤلاء الظالمين كانوا في الأرض المقدسة في زمن داود وأنهم سيطردون منها ما لم يهتدوا ووصفهم الكتاب المقدس بقوله نسل الأشرار وبشر بطردهم، وقد جاء ذلك فيما يلي :

((**حد عن الشر وافعل الخير واسكن إلى الأبد .. لأن الرب يحب الحق ولا يتخلَّ عن أتقيائه ... إلى الأبد يحفظون أما نسل الأشرار فينقطع. الصديقون يرثون الأرض ويسكنوها إلى الأبد ... انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض إلى انقراض الأشرار تنظر**)) [سفر مزامير ـ المزمور السابع والثلاثون].

فهل شاركوا في المراحل التالية من الجهاد لنشر دعوة الحق؟ بالطبع لا.

ولنأخذ الآن قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١].

إن أهل الخير وسبط الخير من بني إسرائيل هم الصفوة الذين قاتلوا وراء طالوت الذي اختاره الله ملكا" عليهم، وها هم الآن يتبعون نبي الله داود ﷺ بعد أن كانوا يتبعون موسى ﷺ، وأما أهل الكفر فإن الله أظهرهم باختبار عبور النهر، وها هم الآن إما منافقون ومنهم من يظهر كفره، ومن يظهر كفره فإن نبي الله سيطرده من أرض الإسلام ولن يبقيه فيها وفق تكليف الله له، وهذه الأغلبية الكافرة أظهرها الله من خلال قوانين الحلال والحرام ، فهذه الفئة ظلت تأكل الربا وتأكل أموال الناس بالباطل وهذا ما نهى عنه الله، وقد بين الله أعمالهم بقوله: ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء:١٦١].

كذلك فإن الكتاب المقدس يشهد بسوئهم وهذا ما سنبينه لاحقاً حيث سيعودون لعبادة العجل بعد موت نبي الله سليمان.

كانت هذه الفئة تتباهى بالباطل ولا تنهى عن الفحشاء والمنكر ولقد لعنهم نبي الله داود ﷺ، وهذا يعني أنه كان يعرفهم، وقد بينهم الله تعالى بقوله: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨].

وأما أهل الخير منهم فإنهم يتقون الله تعالى ويطيعونه ويطيعون أنبياءه وما أرسل إليهم من كتب سماوية وفيهم قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [غافر:٥٣-٥٤]. إن بني إسرائيل في هذه الآية تعني أهل الخير منهم فقط .

وسنبين لاحقاً استمرار بقاء سلالة الخير على الإيمان، وسنورد ما ذكر الكتاب المقدس بهم وبالأنبياء منهم وبقادتهم واستمرارهم على الإيمان.

ومنذ عهد نبي الله داود ﷺ بدأ الفصل بين أهل الحق وأهل الباطل من بني إسرائيل ، بل ومن لحظة تصفيتهم مع طالوت لدخول الأرض المقدسة حيث أنزل رجزاً على المتخلفين عن الجهاد، كما لعن الذين كفروا على لسان داود ﷺ وبذلك فإن زمن الفرص والدلال قد انتهى، ومنذ دخول الأرض المقدسة بدأ حساب الله لهم أولا بأول، حيث عاقبهم الله تعالى مباشرة بمجرد أن استبدلوا قولا غير الذي قيل لهم وأنزل عليهم عذاباً من عنده مباشرة، والآن وفي ظل نبي ودولة عدل فإن النبي يقيم الحد اللازم على من يخالف شرع الله.

لنعد الآن إلى ما يقول التاريخ عن حال مصر وفلسطين بعد غرق فرعون وما آلت إليه منذ ذلك الحين وحتى ظهور نبي الله داود ﷺ، إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً.

جاء في كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) ما يلي :

أصل تسمية فلسطين والفلسطينيين:

(في العام الثامن من حكم رمسيس الثالث غزت قبائل جاءت من الشمال ومن البحر وكانت كثيرة العدد منطقة سوريا ومن قبلها تركيا وكان مع هؤلاء الغزاة زوجاتهم وأطفالهم ومتاعهم ويظهر أنه كانت هناك مجاعة من نوع ما أحاطت بهم في بلدانهم مما حدا بهم للهجرة إلى حيث الرزق فجاءوا بمتاعهم وسموا بالهندو ـ أوروبيين) (ص٥٠٦).

رمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٦ ق.م):

ومرة أخرى نجد أن شعوب البحر تبحث عن مناطق نفوذ لها في الشرق فقضوا على دولة الحيثيين وغيرها من دول آسيا واستولوا على قبرص ونزلوا في شمال سوريا ووصلت تلك القبائل في ذلك الوقت حتى حدود فلسطين متجهين إلى مصر .

كان عليه أن يواجه الموجة الأخرى من غزو الهندو-أوروبيين فقد جاء غزاتهم ومعهم زوجاتهم وأطفالهم وجاءوا من الشرق ومن الشمال وهددوا مصر من البر ومن البحر، وليس لدينا معلومات محددة عن الحملة البرية ولكن يبدو أن الجيش المصري قد نجح في محاصرة الهندو-أوروبيين على الحدود الفلسطينية السورية أي خارج حدود مصر وقد أرخ هذا في السنة الثامنة من حكم رمسيس (ص ـ ٥٠٦).

وأيضاً فقد عادت السيطرة المصرية كاملة على سوريا (ص ـ ٥٠٧) .

وجاء في كتاب ((**دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**)) (عن عهد رمسيس):

سياسة مصر نحو الشرق :

تعرضت منطقة الشرق الأدنى القديم إلى هجرات الأقوام (الهندو ـ أوروبيين) وكانت الهجرات سبباً في انهيار الإمبراطورية الحيثية مما أوجد اضطراباً في الممتلكات المصرية في سوريا وفلسطين ، وكان رمسيس الثالث مازال محتفظاً بإمبراطوريته الآسيوية في فلسطين وجنوب سورية ، وقد اضطر رمسيس الثالث في بداية عهده إلى القيام بحملة آسيوية ربما نتيجة الاضطرابات التي نتجت عن هجرات الشعوب الهنود وأوروبية ، وتمكن من إعادة الأمن إلى نصابه في ممتلكاته الآسيوية ولكن إلى حين . (ص ـ١٧٣) .

كانت السنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث من أقسى السنوات على مصر إذ أنها واجهت فيها تهديداً خطيراً وذلك لأن بعض الشعوب التي تسميها النصوص المصرية (الشماليون الذين في جزرهم) فكرت في الهجرة إلى بلاد الشرق الأدنى وأتت في موجة كبيرة بعضها بطريق البحر والآخر بطريق البر ، وكان هدفهم من وراء تلك الحملات الاستقرار الدائم في هذه البلاد وقد جاء في ركابهم أزواجهم وأطفالهم. (ص ـ١٧٣) .

وتقدمت هذه الهجرات نحو مصر براً وبحراً ، وعندما وصلت أخبارها إلى (رمسيس الثالث) بدأ يعمل الاستعدادات اللازمة لمواجهتهم ، فقام بتحصين الحدود ؛ وبخاصة عند زاهي كما أمر بتحصين مصاب النيل بأنواع من السفن المختلفة ولقد تمكن رمسيس الثالث من هزيمة شعوب البحر شر هزيمة في معركة برية قامت بينهما ، وأما المعركة البحرية فقد تمكن الأسطول المصري من هزيمتهم هزيمة قاسية ودمر سفنهم تدميراً كاملاً ولم تنقذ مصر نفسها فقط بل أنقذت غربي آسيا معها كذلك . (ص/١٧٤) .

وقد جاء في تاريخ ((**مصر القديمة**)) للدكتور سليم حسن :

رمسيس الثالث:

ففي السنة الثامنة من حكم هذا الفرعون كان يقوم على هذه العملية نرى الفرعون في عربته في طريقه لمقابلة جيش (أقوام البحر) في بلاد زاهي التي كانوا قد احتلوها بعد أن استولوا على بلاد (خيتا) و (هودي) و (قرقميش) و (قبرص) و (كيليكا) وقد كان آخر مطافهم أن وضعوا رحالهم في بلاد (آمور) (٢٩٩/جلد ٧) .

وما أن وصل رمسيس الثالث إلى مكان الأعداء من أقوام البلست (الفلسطينيين) والتكر والشكلش والدنين وقوم وشش حتى كان على أهبة الاستعداد ولم يكد رمسيس الثالث يلتقي بعدوه في زاهي حتى أنقض على قلب قوات أقوام البحر الذين قد ساد بينهم الارتباك وحل في صفوفهم سوء النظام وبعد قليل أسفرت الواقعة عن هزيمة ساحقة لأقوام البحر إذ نشاهدهم يولون الأدبار على أقدامهم وفي عرباتهم وأما أولادهم ونساؤهم فكانوا يهربون بأمتعتهم التي حملت على عربات ثقيلة تجرها الثيران (٣٠٠/جلد ٧) .

وقد ترك معظم الفارين البلاد ولم يتخلف عنهم إلا الفلسطينيون الذين استوطنوا الإقليم الساحلي الذي يمتد بين غزة وجبل الكرمل وهؤلاء هم الذين سمي باسمهم الإقليم الذي سكنوه وقد بقي كذلك حتى أيامنا (٣٠٣/جلد ٧) .

قام رمسيس الثالث بحملته على بلاد سوريا وبلاد آمور لخوفه من التعدي على أملاكه في بلاد فلسطين التي كانت مرتبطة بمصر ارتباطاً وثيقاً منذ أقدم عهود التاريخ المصري ، وحتى بلاد فلسطين نفسها كادت أن تفلت من أيدي المصريين لأن كل الإقليم الساحلي قد احتله الفلسطينيون الذين وفدوا مع أقوام البحار واحتلوا هذا الجزء من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ولكن يدل ما لدينا من آثار على أنه كان في مقدور مصر أن تستمر في سيطرتها على بلاد كنعان في عهد الملوك الذين خلفوا رمسيس الثالث مدة ما ولا أدل على ذلك من الكشوف التي عملت في مجدوا إذ وجد فيها قاعدة تمثال للفرعون رمسيس السادس (جلد ٧) .

تعليـق : نستنتج مما سبق أن قبيلة اسمها البلستي وفدت لمدة قصيرة جداً من الزمن وما لبثت أن طردت مع غيرها وإنني لأظنهم قبائل غجرية من غجر البحر الأبيض المتوسط والذين احتلوا فلسطين وطردوا سكانها الأصليين (الكنعانيين) ، وما لبث نبي الله داود عليه السلام أن طردهم كلياً عندما دخل ومعه الإسلام أرض الأقصى ، وبذلك استحق الذين استضعفوا من بني إسرائيل وراثة الأرض المقدسة المباركة التي كتب الله لهم . لقد طرد السكان المعتدون (قبائل البلستي الأوربية) وبقيت التسمية، فمهما كانت فهي الآن مصدر فخار لأصحابها وسكانها فهي الأرض المباركة المعطاء وهي المعراج إلى الجنة وهي المحشر يوم الدين .

ولكن العجب هو في تسمية سكان فلسطين الأوائل في كتب التاريخ فسموا بالكنعانيين وأيضاً باليبوسيين وأيضاً بالهكسوس وهم أنفسهم الذين هزمتهم القبائل الأوربية، وأما بنو إسرائيل الذين هزموا القبائل الأوربية فقد سمتهم كتب التاريخ بالفلسطينيين بعد استقرارهم في فلسطين وهذا ما يبعد الفكر عن اصول الشعب الفلسطيني سليل الأنبياء.

عودة بنا الآن إلى ما يفرضه المنطق على مجريات الأحداث في مصر ، وما المتوقع أن يكون بعد غرق فرعون وجنوده حيث أغرقهم الله أجمعين، ولكي تكون هذه آية للناس فلابد من أن يترك الله تعالى من الدلائل والبراهين ومن الشهود من سكان المنطقة ما يدل على أنهم ماتوا غرقاً، ونجى جسد فرعون دون أضرار من الحيوانات البحرية ليكون آية لمن بعده من أهل الكفر والدلائل ستثبت أن هذا هو الإعجاز العاشر الذي جاء به موسى لمصر حيث رأوا بأعينهم الحية العصا واليد البيضاء والمطر الشديد والجراد والقمل والضفادع والدم والرجز إضافة لأخذهم بالسنين وها هم يرون انفلاق البحر ، وهذا ما سيحدث اضطراباً فكرياً وجدلاً يشتد بين أنصار الإسلام الذين هم أتباع السحرة الذين آمنوا قبل إعدامهم وكذلك هناك المصريون الذين أشار الله إليهم بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٨] .

هذه الآية تدل على أن الشر كان أقوى من الخير أيام فرعون لأن الرجل يكتم إيمانه وهذا يعني أنه يدعو إلى الإسلام سراً خوفاً على دينه من فرعون ، وإن هذه الفئة المؤمنة من المصريين بعد موت فرعون ستدعو إلى الله جهراً فهي ترى إعجازاً وآية جديدة وهي غرق ملة الكفر والعناد وبذلك فإن قوة الشر قد ضعفت ونقصت وهذا ما يقوي جبهة الخير والدعوة إلى الإسلام ، وقد ذكر الله دعوتهم إلى الله بآيات كثيرة في سورة غافر نذكر منها : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝ ۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ [غافر:٣٨-٤٢].

تبين الآيات الدعوة الجهرية إلى الله، حيث يقول الذي آمن **(يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد)**، فهو يقود الدعوة إلى الله علناً. فها هي الدعوة إلى الله والجدل يشتد بين أهل الخير وأهل الكفر وهذا ما سيؤدي بالبلاد إلى الفوضى التي أشار إليها كتاب التاريخ ، ولا مخرج من الفوضى إلا بإتباع الحق لأن أهل الحق لن يحيدوا عنه إلا بإبادتهم وهذا لن يكون لأن الله ينصر جنده ودينه وأولياءه وهذا ما حصل وما أظهره الله تعالى بقوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥].

وهذا إعلان رباني أن دعوة الحق في مصر قد انتصرت على الباطل وأن الإسلام عم ربوع مصر كلها ، وهذا كان في زمن ستنخت الذي وحد البلاد كلها على كلمة التوحيد وحكم سنتين تولى من بعده خليفته رمسيس الثالث الذي يشهد كتاب التاريخ بأنه كان رجلاً على جانب من التقوى، وأنه في عهده وحتى نهاية حكم هذه الأسرة كان كهنة آمون رع ذوي نفوذ كبير، وهذا واقعي جداً إذ أننا في صدر إسلام جديد وسيكونون جميعاً ذوي دين وخلق أميرهم قبل صغيرهم ومن هنا يذكر الكاتب أن الكهنة كانوا أقوياء والحقيقة أن الجميع كانوا أهل دين فأطلق عليهم الكاتب لقب كهنة . إن الكاتب لا يزال يتغنى بالوثنية مع ظني بأنه يعلم عكس ذلك .

واستمر حكم الإسلام لنهاية حكم الرعامسة في دولة مصر أما في فلسطين فقد تمكنت القبائل الغجرية الأوروبية من إحتلالها وطرد سكانها الأصليين بعد حكم رمسيس السادس حيث أحضروا زوجاتهم وأولادهم معهم للإستيطان فيها قبل دخول نبي الله داود إليها، وفي نهاية حكم هذه الأسرة انقسمت مصر إلى قسمين الشمالي وحكمه سمندس والجنوبي وحكمه (حريحور)، وبذلك فإن الدلتا وفلسطين خرجتا عن دين الحق كحكم وحكام وساد الفساد أهل الحكم وهذا لا يعني فقدان القاعدة الشعبية كلياً وإنما سيطرة أهل الكفر على الحكم وهذا سيؤدي إلى البعد عن أصل الدين مع الزمن وإلى الكفر إن استمر الأمر طويلاً .

وكان تقسيم مصر عام (١٠٨٥ ق.م):

من التواريخ التي مرت نرى أن فترة الجدل والدعوة إلى الحق استغرقت فترة (٣٢) عاماً وهي من (١٢٣٤ـ ١٢٠٢ ق.م) .

حكم سنخنت عموم البلاد وانتصر الإسلام من (١٢٠٢ ـ ١٢٠٠ ق.م).

وصل الإسلام ذروته من (١٢٠٠ ق.م) ولغاية (١٠٨٥ ق.م) في عموم مصر وتستمر المسيرة بالأسرة الجديدة التي ستتولى العرش في الشمال ويستمر الدين في الجنوب في الاتجاه الصحيح حيث مازال الإمام الديني هو القائد .

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٨٥ ـ ٩٥٠ ق.م) ، والأسرة الثانية والعشرون (٩٥٠ ـ ٧٣٠ ق.م) :

وقد أوردنا عنها مقتطفات فيما سبق . ولنحاول الآن ربط الأحداث في مصر مع تلك التي حدثت في أرض كنعان .

نلاحظ أنه بعد غرق فرعون بدأت الدعوة إلى الله جهرة ونصر الله جنده ودينه في مصر في زمن مقداره (٣٢) سنة .

استطاع ستنخت أن يوحد البلاد كلها تحت سلطته وعلى كلمة التوحيد عام (١٢٠٠ق.م) واستطاع ابنه رمسيس الثالث أن يعيد مجد مصر بكل مقاطعاتها في أرض كنعان والجنوب ، حيث ارتفع نجم الإسلام على كامل الدولة طيلة فترة حكمه التي امتدت من (١١٩٨ق.م إلى ١١٦٨ق.م) ، وقوى نفوذ رجال الدين وهم الأئمة حيث كانت القيادة إسلامية في زمن الرعامسة امتدت حتى آخر عهد رمسيس الحادي عشر وذلك حتى سنة (١٠٨٥ ق.م) وتم احتلال أرض كنعان قبل نهاية حكم الرعامسة من قبل الأوربيين .
بعد ذلك استطاع أمير الشمال (الدلتا) سمندس أن ينفصل بالشمال ليحيد بعض الشيء عن الدين وليعيد الدولة إلى العلمانية أو إلى الوثنية واستطاع رجال الدين في الجنوب أن يبقوا الجنوب على منهج الله وبذلك انقسمت مصر إلى قسمين الشمالي وبعد عن منهج الله والجنوبي بقي لفترة من الزمن على منهج الله ، استطاع أمير الشمال أن يسيطر على الجنوب في آخر سنين حكمه.

أورث سمندس العرش لأبنه بسوسينس الأول (١٠٦٤ـ ١٠٤٧ق.م) الذي حكم البلاد كلها مع عدم التدخل في الشؤون الدينية في الجنوب التي بقيت كما هي .

تسلم الحكم بعده باي نجم الذي كان الكاهن الأول ويظهر أن زوجته وحب العرش حرفاه عن منهج الله فتسلم الحكم في الشمال وعين ابنه إماماً للجنوب واستقل عن أبيه مما يدل على أن أباه انحرف عن الدين وكان هذا من (١٠٤٧ ـ ١٠٠٩ق.م).

تولى الحكم بعده آمن أم اوبت لمدة تسع سنوات لم يعرف عنها شيئاً ، كما أن كافة الفترات التي تبعت فيها مصر حكماً مركزه في آسيا فإن كتاب التاريخ لا يعرف عنها شيئاً .

رأيي الشخصي أن هذه الفترة هي فترة فتوحات إسلامية قام بها داود عليه السلام و أنها فترة ثورة داخلية تحول مصر من العلمانية إلى دين الحق ليزامن هذا حروب داود عليه السلام في فلسطين.

ثم تولى الحكم بعده ستب ان آمون (١٠٠٠ـ٩٨٤ق.م) الذي يذكر كتاب التاريخ أن له أثاراً في كل المعابد ، هذا يعني أنه اهتم بالمساجد في كل البلاد وهناك لوحة تخليداً لانتصاره على البلستي.

يستنتج من هذا أنه على درجة عالية من التقوى فلقد ترك أثراً في كل المساجد في مصر خاصة في المدن الرئيسية وأنه هاجم المحتلين الكفار في أرض كنعان، وأعتقد أن هذا ما شهد به الكتاب المقدس، وأوردناه سابقاً فقد كان هو مهاجماً من الغرب مما سهل انتصار الإسلام وهزيمة الشرك على أرض المقدسات، وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة:٢٥١]، أي أن الانتصار كان سريعاً لأن إرادة الله تقتضي نصرة جنده وبهذه السرعة والسهولة كما أنه ليس عجيباً أن يخطب داود عليه السلام بعد ذلك لإبنه سليمان وأن يختار له ابنة رجل ورع تعرفه كل المساجد في مصر وهو (سا آمون) .

فهل كانت مصر مستقلة أم محافظة إسلامية؟ هذا ما لم يتطرق إليه الكتاب ولا داعي لذلك فالأمر واضح فلا يمكن لحاكمٍ متدين يعيش في ظل نبوة إلا أن يتبع ذلك النبي والحكم في الإسلام هو لله لذا فإن المرء لا يحس إلا أنه تابع للوالي إذا كان هذا الوالي يتبع رضوان الله كما كان الأمر في صدر الإسلام فحاكم مصر المطلق كان عمرو بن العاص ولكن الخليفة كان في المدينة المنورة وكانت عاصمة الإسلام.

وهكذا كان الأمر أيام نبي الله داود عليه السلام فقد كانت القدس هي عاصمة الإسلام والمسلمين وكانت مصر بأجزائها هي ولايات في حكومة إسلام بقيادة نبي الله داود.

وامتدت القيادة وانتقلت من داود إلى ولده سليمان عليه السلام الذي كان على درجة من الورع، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٣٠]، فها هو رب العزة يشهد

له بأنه (نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ).

وكذلك بين الكتاب المقدس أن ملك سليمان دام أربعين سنة حيث جاء :

((**وملك سليمان في أورشليم على كل إسرائيل أربعين سنة ثم اضطجع سليمان مع آبائه فدفنوه في مدينة داود أبيه وملك رحبعام ابنه عوضاً عنه**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح التاسع].

وكذلك وردت في ((الكتاب المقدس)) شهادة الله تعالى بسمو أخلاق سليمان عليه السلام وقد ورد ذلك في النص التالي:

((**فأعط عبدك قلباً فهيما لاحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الثالث].

ويضرب الله لنا مثلاً من حسن أخلاقه وورعه وتقواه إذ أنه أواب، حين عرضت عليه خيل ورثها عن نبي الله داود، فطلب أن تعرض أمامه فعرضت وكانت كثيرة وجميلة المنظر فسر بها ولكثرتها استغرق عرضها عليه فترة من الزمن نسي فيها ذكر الله.

فطلب أن تعاد عليه فأعيدت (فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ) ، فقيل أنه أخذ يضرب أعناقها وسيقانها لأنها شغلته عن صلاة كان يصليها في ذلك الوقت من النهار وفي تفسير آخر أنه أخذ يمسح أعناقها وسيقانها لأنها في سبيل الله أي أمر بتوزيعها في سبيل الله.

ومهما كان الأمر فإن هذا تصرف من يعرف الله حق المعرفة ويريد أن يعود إلى الله وأن يبقى على اتصال دائم بربه بالذكر والعبادات والتسبيح طوال وقته ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحادثة بقولـه : ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [ص:٣١-٣٣].

وما كان من سليمان عليه السلام إلا أن عاد إلى الله وطلب المغفرة منه واتجه إلى الله بقلبه وطلب منه أشياء إضافية، ليظهر لربه مدى تفانيه في طاعته، ومن ذلك أن يهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده وأن يتفرد به، وقد استجاب دعاءه فأعطاه الريح تجري بأمره يوجهها حيث يشاء إلى الأرض المباركة بما تحمله من سحاب وبذلك تجلب الخير الوفير إلى الأرض المباركة فيزداد عطاؤها، وكذلك سخر له الجان يعملون بإمرته، وعلمه الله منطق الطير فصار يفهم لغة الطير والنمل وكانت الطيور تسبح مع والده داود عليه السلام، وأما هو فقد علمه الله لغتها، وقد ذكر الله تعليمه لغة الطير بقوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النمل:١٦] .

وأما تسخير الريح له والجان يعملون بأمره ؛ فقد وردت في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص:٣٥-٣٩] .

وتسخير الريح لعبد من عباد الله لا يتناقض مع كون هذه الإرادة هي لله تعالى ، وإنما جعلها لفترة من الوقت من خلال ذلك العبد الذي رضي الله عليه وأعطاه هذه النعمة ليوجه الريح بالخير لا بالشر

وذلك لمزيد من عطاء الخير والمطر للأرض الطيبة.

كذلك سخر له الشياطين لتعمل له ما يشاء من مباني وتماثيل ولتغوص له في البحر وفي الأرض لتحضر له من كنوزها ما يطلب ، كما أعطاه الله سلطة معاقبة هذه الشياطين إذا خرجت عن طوعه وكذلك أن يكبلهم بالأصفاد وبعد هذا أخبره الله أنك مطلق الصلاحيات فيما وهب الله لك من النعم تعطي منها ما تشاء لمن تشاء حيث قال الله لـه: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص:٣٩] .

وزاد كرم الله تعالى عن ذلك بقوله لسليمان ﷺ إن له لقربى عند الله في الدنيا والآخرة حيث قال: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص:٤٠].

وقد ذكر الله تعالى تسخير الريح والجن لسليمان ﷺ أيضاً في سورة (سبأ) ، حيث قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٢-١٣].

لم يظهر الكتاب المقدس حكم سليمان للجن ولا تسخير الريح له ولكنه يذكر أن سليمان أُعطي الكبير من العطاء والمذكور فيما يلي:

((**قد أعطيتك حكمة ومعرفة وأعطيتك غنىً وأموالاً وكرامة لم يكن مثلها للملوك الذين قبلك ولا يكون مثلها لمن بعدك**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح الأول].

تظهر الآيات أن الله سخر الريح تذهب في اتجاه شهر كامل ثم تعود لمدة شهر جالبة معها الغيوم والأمطار وفي هذا حكمة كبيرة لأهداف الزراعة والنباتات والله أعلم ، حيث أن هذا الشهر كافٍ لترتوي الأرض تماماً ثم يليه شهر لتتعرض للشمس والحراثة والتقليم وباقي أمور الرعاية الزراعية، وهذه الريح مسخرة بأمره إلى بقعة معينة فقط ؛ وهي أرض الأقصى (فلسطين) ليزيدها من بركتـه، وقد أوضح الله ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨١] .

ومن عطاء الله تعالى لسليمان عين القطر وهو النحاس المذاب ليجري إلى صبه وطرقه وتشكيله حسب المطلوب ، وإذا تم مزجه بالحديد الذي ورثه عن والده كانت منه سبيكة ملساء صلبة قوية. كما سخر له الجان يعملون بأمره ومن عصى منهم نال عذاب الله كما أعطاه الله صلاحية عقابهم وأما عقاب الله ، فقد ورد في قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ:١٢].

وهؤلاء الجن مسخرون لعمل محاريب وهي جمع محراب وهذا ما هو في المساجد وكذلك التماثيل إن كانت خشبية أو نحاسية ، وأوعية طعام كبيرة (كالجوابي) وهذه لخدمة احتياجات الجيش والله أعلم.

ويختم الله تعالى هذه الآيات بقوله لداود وسليمان: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ ﴾ [سبأ:١٣]، أي أن هذا العطاء ابتلاء من الله لا يمنحه إلا لعباده المخلصين المؤمنين ويكشف الله أن القلة القليلة فقط من

عباده قادرون على تحمل المسؤولية وتنفيذها وعلى شكره على هذه النعمة إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] الذين يُقَدّرون نعم الله لكثرتها، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨].

لقد أوردنا بعض عطاء الله لسليمان عليه السلام وسلطانه على الريح والإنس والجن والطير، كما بين الله تعالى قصة تعامل سليمان مع هذه المخلوقات إذ أنها اصطفت ليتفقدها، وقد جاء هذا في قول الله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل:١٧].

اصطف الموكب المؤلف من الإنس والجن والطير، والمقصود بالآية والله أعلم جزء من الجن وجزء من الطير وليس كل الطير على هذه الأرض.

ونود أن نورد هذه القصة لأهداف خاصة ستظهر من خلال عرضها، لقد تفقد سليمان هذا الطابور فلم يرَ الهدهد، ويتضح له أنه غائب بغير إذن، ولذا فقد وجب عقابه إلا إذا كانت هناك حجة تستوجب غيبته وتنفي عنه العقوبة وأخيراً يحضر الهدهد ومعه نبأ عظيم لسليمان.

فيبدأ بقوله له: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ [النمل:٢٢]، ويكمل انه رأى في منطقة سبأ في جنوب الجزيرة العربية أُناساً على درجة من الثراء الكبير تحكمهم امرأة، وأنهم يسجدون للشمس من دون الله وأن الشيطان يوسوس لهم ويزين لهم هذا العمل فيصدهم عن سبيل الله.

فيرسله نبي الله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم وتقرأ الملكة الكتاب لقومها: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٢٩-٣١].

إن نبي الله سليمان يطلب من الملكة باسم الله خالق كل شيء أن يسلموا لله رب العالمين خالقهم ـ أي أنه يدعوهم إلى الإسلام .

أقول هذا تذكيراً لمن يعتقد أو يفكر خطأً بأن سليمان عليه السلام هو لليهود، إنه نبي الله المسلم ويدعو إلى الإسلام.

استشارت الملكة قومها وأعلنت أنها لن تتخذ قراراً دون مشورتهم رغم أنها وصفت كتاب سليمان بأنه (كِتَٰبٌ كَرِيمٌ) أي أنها احترمت هذا الكتاب ومرسله ومضمونه، وأبدى رجالها استعدادهم للوقوف إلى جانبها والقتال إذا طلبت منهم ذلك وهم جاهزون وما عليها إلا اتخاذ القرار بالقتال .

فكان رأيها أن ترسل هدية لسليمان لعلها تكون سببا في علاقة ود بين الدولتين ويكف عن حربهم وتبعد احتمالات القتال، فإن قبل سليمان الهدية فهو إذن من رجال الدنيا ويمكن إسكاته بوسيلة دنيوية مادية، وإن لم يقبل فإنه رجل عقيدة ولا مجال إلا لاتباعه ولا يصرفه عن عقيدته شيء من أمور الدنيا.

وتذهب الهدية لسليمان عليه السلام ويستنكرها على حاملها ويعيد حامل الهدية ويحمله التهديد والوعيد لقومه ليبلغه لهم: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ [النمل:٣٧]، هذه الجنـــود لم يسخرها الله إلا

لسليمان ولذلك سيخرجهم من ديـارهم صاغرين أذلـة: ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل:٣٧] .

ويتوقع سليمان عليه السلام أن تأتيه الملكة مع بعض قومها مسلمين فيقول للملأ حوله ما قاله الله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣٨] .

ها هو نبي الله يكرر مرة أخرى أنه ينتظر من القوم أن يأتوه مسلمين عقيدة وديانة، ويتم إحضار عرشها في طرفة عين ليكون مفاجأة للملكة التي خرجت وتركت عرشها في مملكتها ولا تتوقع أن يكون سبقها في طرفة عين لتجده أمامها.

أعد لها سليمان عليه السلام أمراً آخر وهو قصر من البلور تلمع أرضيته كالماء وطلب منها أن تدخله ، فلما دخلته كشفت عن ساقيها ظناً منها أن هناك ماءً وعندما لم تجد ماءاً أدركت أن الله سخر لسليمان ما لم يسخر لغيره، فأعلنت إسلامها وقد ظهر هذا من قول الله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤] .

ها هي ملكة سبأ تعلن إسلامها مع نبي الله سليمان وتعلن أنها أسلمت ولم تعلن أنها اتبعت ديانة أخرى، وسليمان عليه السلام هو من المسلمين وللمسلمين ديناً، وأما عرقاً فإنه من أجداد ذلك الشعب وذلك السبط الأمة المسلمة من بني إسرائيل التي تسكن أرض الأقصى وما حولها من مسلمين .

ولقد جاء في ((الكتاب المقدس)) ما يشير إلى أن سليمان من سبط يوسف عليه السلام حيث جـاء:

((**ويربعام بن ناباط افرايمي من صردة عبدٌ لسليمان واسم أمه صروعة....وكان الرجل يربعام جبار باس. فلما رأى سليمان الغلام أنه عامل شغلاً أقامه على كل أملاك بيت يوسف**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الحادي عشر].

هذا النص يبين أن يربعام جبار باس وما دام الملك سليمان قد عينه والياً ومشرفاً على أملاك بيت يوسف فهذا يعني أن سليمان نفسه من بيت يوسف.

وهذا يعني أن والده داود عليه السلام من أحفاد يوسف، وهذا يؤيد النصوص التي أوردناها سابقاً من سفر "مزامير" والتي تثبت أن داود عليه السلام من أحفاد يوسف عليه السلام.

كذلك فقد ذكر الكتاب المقدس نسل سليمان من بعده لغاية السبي البابلي بما يلي :

((**وابن سليمان رحبعام وابنه أبيا وابنه آسا وابنه يهوشا فاط وابنه يورام وابنه أخزيا وابنه يوآش وابنه أمصيا وابنه عزريا وابنه يوثام وابنه آحاز وابنه حزقيا وابنه منسى وابنه آمون وابنه يوشيا. وبنو يوشيا البكر يوحانان والثاني يهوياقيم الثالث صدقيا الرابع شلوم . وابنا يهوياقيم يكنيا ابنه وصدقيا ابنه**)) [سفر أخبار الملوك الأول ـ الإصحاح الثالث].

وبين سليمان وصدقيا سبعة عشر جيلاً، والفترة الزمنية بينهما هي أربعمائة وعشرين سنة، وهذا يثبت أن معدل سن الزواج فيهم هو خمسة وعشرون سنة تقريباً، وهذا هو الطبيعي والمعقول .

عودة بنا الآن إلى ما جاء في كتاب التاريخ من أن سا آمون زوج ابنته لسليمان عليه السلام وبأنه ترك اسمه في كل المعابد وهذه المعابد التي يشرف عليها كهنة آمون .

فنحن الآن أمام خيارين ، أولهما بأن سليمان عليه السلام كان وثنيا وصاهر وثنيين وحاشا لله أن يكون كذلك، وأما الاحتمال الآخر فهو أن سليمان نبي الله وصاهر رجلاً متديناً ترك اسمه في كل المساجد في مدن مصر لما قدمه لله ، وهذه المساجد الرحمانية يشرف عليها أئمة الرحمن فأي اختيار يقبل قلب

المؤمن؟

نصل الآن إلى الاستنتاج الثاني من سرد قصة سليمان مع مملكة سبأ وهو أن نبي الله سليمان ﷺ لم يسمح لدولة سبأ أن تشرك وهي على مسيرة شهر منه فكيف يسمح لدولة ملاصقة أن تكون على وثنية وهو نبي الله. لقد طلب من سبأ أن يأتوه مسلمين وإلا فسيرسل لهم جيشاً يخرجهم منها أذلة صاغرين لمجرد أنهم يسجدون لغير الله فهل يقبل مثل هذا العمل من شعب ملاصق له؟

كما طلب من سبأ أن يحضروا ويعلنوا ولاءهم للإسلام ولنبي الله، فهل فعل ذلك مع سبأ وترك مصر دون ولاء وبديانة وثنية وصاهر الوثنيين؟

إن من يعتقد ذلك فإنه يرمي لشيء أسوأ مما يمكن أن يتحدث به إنسان.

نأتي الآن إلى الجهة الشرقية من أرض الأقصى ولنعد إلى ما ذكر عنها في كتاب التاريخ في تلك الحقبة من الزمن .

لقد جاء في كتاب ((**دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**)) للدكتور أحمد أمين سليم ما يلي : (ولقد خلف (تجلات بلاسر) أحد عشر ملكاً بلغوا حدا من الضعف والاستكانة جعل الانحلال يدب في جسم آشور ولم يستطيعوا الصمود أمام هجمات الآراميين القوية وانتهى الآمر بأن أصبحت سلطة الدولة الآشورية لا تتعدى المدن الآشورية نفسها .

وكان الآراميون يستوطنون المنطقة ما بين آشور والساحل الفنيقي فَوُجدَ فرع منهم في وسط الشام وشرقه من دمشق إلى حماه وقد كون هذا الفرع فيما بعد دويلات تجارية ازدهرت ولكنه اصطدم بالتوسع الآشوري منذ القرن التاسع قبل الميلاد .

واستوطن فرع ثانٍ من الآراميين منطقة الفرات الأوسط والمراعي الواقعة في شمال العراق وكان هذا الفرع الأخير هو الذي اصطدم به الآشوريون في أول الأمر بعد تجلات بلاسر وتمكن هذا الفرع من الآراميين من التضييق على الآشوريين وهدد دولتهم بالزوال) (ص ـ ٣١٩) .

(ولقد استطاع الآشوريون مع نهاية القرن العاشر ق.م ومطلع القرن التاسع ق.م من الخروج من أزمتهم بل واستطاعوا خلال القرن التاسع من تكوين إمبراطورية عظيمة وهي المرحلة التي تعرف باسم ـ العهد الآشوري الحديث) . (ص ـ ٣١٩) .

تعليـق : إن الآشوريين كانوا دولة عظمى تراجعت أمام الآراميين لفترة من الزمن، وهذا كان في الزمن الذي علا فيه نجم داود وسليمان عليهما السلام والأمر لا يحتاج إلى أكثر من ذلك فقد مكن الله لهما في الأرض وهذا ما لا نريد إثباتاً عليه من كتب التاريخ ويكفينا قول الله إثباتاً لذلك.

ملاحظة : كتاب التاريخ يسمي سكان المنطقة (بالآراميين) في فترة انتصار الإسلام بقيادة داود ﷺ، وكل من يقرأ آراميين يظن أن هذا عرق معين وله لغة اسمها (آرامية) وذلك لتورية معينة يريدها من دونوا تاريخنا ستتبين معنا لاحقاً.

لماذا طلب سليمان من سبأ أن يسلموا ولم يطلب ذلك من تركيا وإيران وليبيا مع أنهم أقرب إلى القدس من سبأ ، هل لهذا دلالة على أنه ومصر والعراق والشام واليمن من سلالة واحدة؟ لقد بسط داود وسليمان عليهما السلام سلطان الإسلام في المنطقة العربية كلها حتى وصل إلى اليمن التي كانت تسمى سبأ وشهد بذلك القرآن الكريم كما أوردنا كما شهد بذلك الكتاب المقدس في النص التالي :

((**وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان فأتت لتمتحن سليمان بمسائل إلى أورشليم بموكب عظيم جداً وجمال حاملة أطياباً وذهباً بكثرة وحجارة كريمة ... فقالت للملك صحيح الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك ولم أصدق كلامهم حتى جئت وأبصرت عيناي فهو ذا لم أُخبر بنصف كثرة حكمتك**)). [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح التاسع] .

كذلك فان النص التالي يبين الضرائب العربية التي كانت تجبى لسليمان:

((**وكان وزن الذهب الذي جاء سليمان في سنة واحدة مئة وستاً وستين وزنة ذهب فضلاً عن الذي جاء به التجار والمستبضعون. وكل ملوك العرب وولاة الأرض كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح التاسع].

هذا النص يثبت أن المنطقة العربية مقسمة إلى ممالك، وأنها كلها تدين لحكم سليمان وتدفع ضريبة سنوياً، وهذا أيده الحديث الشريف الذي ينص على أن سليمان أحد مؤمنين حكموا الأرض.

ولكن، هل استطاع داوود وسليمان أن يدخلا الإسلام إلى النفوس الضعيفة من أهل الكفر من بني إسرائيل أم عاشوا منافقين تحت حكم أنبياء الله الأقوياء.

إن ما في نفوسهم من غل جعلهم لا يطيقون أن يشربوا من عين واحدة في زمن نبي الله موسى عليه السلام فأخرج لهم موسى بأمر الله اثنتي عشرة عيناً لكل سبط عين ماء لأنهم لا يطيقون أن يشربوا معاً فهل امتزج أهل الكفر بأهل الإيمان ؟ .

إن الله تعالى ومن باب علمه بالغيب المطلق فرق بينهم لئلا يعتدي بعضهم على بعض حيث قال : ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ ﴾ [الأعراف:١٦٠] ، أي أن كل سبط أمة وهذه الأمم نوعان: أهل شر وأهل خير، فأما أهل الخير فهم سبطان ويمكن أن يتحابوا في الله لأنهم أهل إيمان.

ومن الآيات يتضح لنا أن أهل الخير فريقان ويمكن القول أنهما سبطان وهم أحفاد يوسف وأخيه الصغير ومن هذه الذرية أنبياء الله موسى وهارون وداود وسليمان والملك طالوت وباقي أنبياء الله من بني إسرائيل هم من أسباط الخير.

إن الكتاب المقدس يذكر نصاً أن موسى وهارون عليهما السلام من أحفاد لاوي وأن داود وسليمان عليهما السلام هم من أحفاد يهوذا ويبين كذلك بطريقة غير مباشرة أن داود وسليمان وغيرهما هم من أحفاد يوسف عليهم السلام ولقد أوردنا ملاحظاتنا ونوردها حول ذلك كل في موضعه.

لقد ذكرت كتب التاريخ أن سبطين سكنوا محافظة القدس وما حولها وأما الأسباط العشرة فقد سكنوا المنطقة الشمالية وكان محورهم في مدينة سامرا أي نابلس .

هؤلاء الأسباط العشرة هم أهل الكفر والحسد من بني إسرائيل، وهم الذين عاشوا فترة نفاق شديد في عهد أنبياء الله الأقوياء داود وسليمان وكانا من القوة بحيث لا يقهرا وبذلك فإن أهل الكفر بدأوا يحقنون في قلوبهم الأحقاد ضد أهل الخير لأنهم ورثة النبوة والكتاب ومنهم الملوك وهم الذين اختارهم الله على علم على العالمين لما فيهم من صفات خير يعلمها الله وأودعها فيهم .

ولقد أمر الله بني إسرائيل في زمن سليمان بشقيهم الخير والشرير بالسير على الصراط المستقيم، ومن لم يفعل ينتقم الله منه بالطريقة التي يستحق، ولقد جاء تحذير الله لهم في النص التالي:

((**إذا كنتم تنقلبون أنتم وأبناءكم من ورائي ولا تحفظون وصاياي فرائضي التي جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها فإني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي أعطيتهم إياها والبيت الذي قدسته أنفيه من أمامي ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة في جميع الشعوب**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح التاسع].

إن الحسد إذا استشرى في النفس فإنه يحولها إلى نفس شريرة ، ولذلك قال الله تعالى لنا أن نستعيذ به تعالى من شر حاسد إذا حسد، وذلك لما يكون لدى الحاسد من شر إذا انطلق عواقبه وخيمة.
لقد وجد في أسباط الكفر من بني إسرائيل الحسد الذي وجد عند ابن آدم الذي قتل آخاه حسداً لأن الله لم يتقبل قربان قابيل الحاسد وتقبل قربان أخيه هابيل التقي.

ولذلك فإن الله تعالى بعد ما قص لنا قصة ابني آدم انتقل مباشرة إلى قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة:٣٢].

إن أسباط الكفر يتوارثون هذا الحسد الشديد الذي وصل إلى أنهم يحسدون على التقوى والذي يحسد على التقوى فإنه يحسب على كل أمور الحياة، ولذلك بين الله تعالى ما ظهر منهم من عداء لأنبياء الله ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون وبذلك لم ينج نبي من أذاهم.

ولقد ظهر أثر هذه الصفة السيئة في بني إسرائيل واشتدت آثارها كلما كانت هناك نبوة ولقد بين الله بعضها في سورة يوسف حين حذر يعقوب يوسف من أن يقص ما رأى على إخوته وأخبره أنهم سيكيدون له.

ولسنا بصدد موقف أبناء يعقوب عليه السلام فلقد ندموا وعاهدوا والدهم قبل موته أن يموتوا مسلمين . ولكننا بصدد الحديث عن الأسباط أي الأحفاد الذين ورثوا ما في أبناء يعقوب من صفات ، فأسباط الخير توارثوه وأسباط الحسد توارثوا الحسد ولكن أجدادهم أبناء يعقوب عاهدوا أباهم أن يعبدوا إلهه وإله آبائه وأن يموتوا مسلمين، ولكن الأحفاد أي أسباط الكفر لم يتقوا الله على مر الدهور وتوارثوا الحسد والكفر رغم المعجزات الكثيرة التي بعث الله إليهم ورغم الأنبياء والآيات وكثرتها وتتابعها ، إلا أن قلوبهم ران عليها ما كانوا يكسبون ، وظلوا على طبيعة السوء التي تظهر وتشتد كلما كان هناك نبي من سبط الخير .

ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس:٩٣] .

فالله تعالى يخبرنا أنه كلما جاءهم العلم أي كلما أرسل رسولاً منهم اشتعلت بينهم الأحقاد ، والأحقاد لا تكون إلا من طرف واحد فهي من أهل الكفر تجاه أهل الإيمان دائماً لأن المؤمن بربه يحب كل البشر أن يؤمنوا ويحب الخير لكل الناس وأما أهل الشر فلا يتمنون لغيرهم إلا الشر.

كما بين الله تعالى تقسيمه بني إسرائيل إلى قسمين: أحد القسمين على شريعة الأنبياء؛ وهي شريعة الله والأخرى مضادة، أي أنها شريعة الشيطان ويطلب الله تعالى من نبيه محمد ﷺ أن يتبع شريعة الله التي سارت عليها فئة الخير وسبطا الخير من بني إسرائيل وهي التي أنجبت الأنبياء وورثت الكتاب، ولقد بين الله تعالى هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:١٦-١٨].

إن الله تعالى لعلمه بالغيب المطلق وما سيؤول إليه هذا الحسد وما سينتج عنه ولكي يكون الأمر حجة عليهم يوم القيامة؛ حذرهم من عدوان بعضهم على بعض وأخذ موثقاً عليهم بذلك، وكان هذا من

ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم أيام موسى ﷺ، ولقد بين الله هذا الميثاق بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [البقرة:٨٤]
.

وبالطبع فإن هذا الميثاق هو ضد أهل الشر لأن أهل الخير لا يكرهون أحداً ويحبون الخير للجميع وأما أهل الشر فقد وصف الكتاب المقدس شيوخهم وأهل المشورة فيهم بما يلي : ((**ثم قال لي أرأيت يا ابن آدم ما تفعله شيوخ بيت إسرائيل في الظلام كل واحد في مخادع تصاويره لأنهم يقولون الرب لا يرانا. الرب قد ترك الأرض**)) [سفر حزقيال ـ الإصحاح الثامن].

وكلمة إسرائيل الواردة في النص السابق تعني الأسباط العشرة فقط لأن هذا النص يخصهم في الكتاب المقدس.

إنهم لم يحترموا موثقاً مع الله ونقضوها جميعاً وكان هذا من أول المواثيق التي نقضوها حيث اعتدوا على أهل الخير وأخذوا منهم الصندوق الذي يحتوي كتاب الله الذي أنزله على موسى (الألواح) ، ونعتوا موسى بما لا يليق من فحش القول كما مر معنا ودافع الله تعالى عنه بآيات الكتاب الكريم .
وعاش هؤلاء الكفرة في ظل داود وسليمان عيشة منافق يقتله الغيظ لأنه ليس أمامه إلا أداء الطاعة.

ولم يطل الأمر وانتقل سليمان إلى جوار ربه ودب الفساد الكبير في أهل الفساد من بني إسرائيل منذ موت سليمان ﷺ وانقسمت الدولة إلى قسمين ، أهل الباطل وهم الأسباط العشرة ، حيث شكلوا دويلة منفصلة عاصمتها السامرة واسمها إسرائيل ، ولقد ورد هذا في ((الكتاب المقدس)) بالنص التالي :

((**هكذا قال الرب اله إسرائيل هأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأُعطيك عشرة أسباط. ويكون له سبط واحد من أجل عبدي داود من أجل أورشليم المدينة التي اخترتها من كل أسباط إسرائيل... وآخذ المملكة من يد ابنه وأعطيك إياها أي الأسباط العشرة وأعطي ابنه سبطاً واحداً ليكون سراج لداود عبدي كل الأيام أمامي في أورشليم**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الحادي عشر].

لقد استشهدت بهذا النص لإثبات أن دولة الفساد هي عشرة أسباط وهم أسباط الشر وأنهم تمردوا على ابن سليمان وقد ورد هذا الأمر أيضاً فيما يلي:

((**وذهب رحبعام إلى شكيم لأنه جاء إلى شكيم كل إسرائيل ليملكوه. ولما سمع يربعام بن ناباط وهو في مصر حيث هرب من وجه سليمان الملك رجع يربعام من مصر...فلما رأى كل إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم جاوب الشعب الملك قائلين أي قسم لنا في داود ولا نصيب لنا في ابن يسى ...فعصى إسرائيل بيت داود إلى هذا اليوم**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح العاشر].

يتضح مما أوردنا أن كلمة إسرائيل تعني الأسباط العشرة في هذا الموضع وأنهم تمردوا على الملك الجديد وهو رحبعام بن سليمان ﷺ وأن قائد التمرد هو يربعام بن ناباط وهو المحرض على الشر وقائد هذا التمرد الذي حصل إلى يومنا هذا وذلك اليوم كان يوم الانقسام الذي لا عودة بعده إلى الصواب من قبل الأسباط العشرة أو أبنائهم حيث أن النص يحمل المعنى الدائم وبذلك فإن هذا الانفصال قائم إلى يوم القيامة.

أما كيفية وتفاصيل هذا التمرد فقد وردت في موقع آخر من الكتاب المقدس هو:

((**وذهب رحبعام إلى شكيم لأنه جاء إلى شكيم جميع إسرائيل ليملكوه ولما سمع يربعام بن ناباط وهو بعد في مصر. لأنه هرب من وجه سليمان الملك وأقام يربعام في مصر وأرسلوا فدعوه. أتى يربعام وكل جماعة إسرائيل وكلموا رحبعام قائلين. إن أباك قسى نيرنا وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية...فبادر الملك رحبعام وصعد المركبة ليهرب إلى أورشليم. فعصى إسرائيل على بيت داود إلى**

هذا اليوم. ولما سمع جميع إسرائيل بان يربعام قد رجع أرسلوا فدعوه إلى الجماعة وملكوه على جميع إسرائيل. لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده. ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين مائة وثمانين ألف مختار محارب. ليحاربوا بيت إسرائيل ويردوا المملكة لرحبعام بن سليمان)) [سفر الملوك الأول - الإصحاح الثاني عشر].

يتضح مما أوردنا بأن في القدس سبطين (يهوذا وبنيامين)، وهذا النص يتناقض مع نصوص أخرى إلا إذا كان هناك خطأ طباعة حيث يطبع كلمة يهوذا بدل يوسف في بعض النصوص فعندها تستقيم وتتضح كل الأمور.

ولقد كان تصرف أهل السوء مثلهم وبدأ الإنحراف عن منهج الله دون تأخير ولقد ورد هذا في الكتاب المقدس بما يلي :

((**وبنى يربعام شكيم في جبل أفرايم وسكن بها ثم خرج من هناك وبنا فتوئيل...وعمل عجلي ذهب وقال لهم كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم هو ذا الهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. ووضع واحداً في بيت إيل وجعل الآخر في دان. وكان هذا الأمر خطية**)) [سفر الملوك الأول - الإصحاح الثاني عشر] .

وهذه شهادة الكتاب المقدس أن الأسباط العشرة ارتدوا عن الدين وأنهم فاسدون وأنهم عادوا لعبادة الأصنام حكومة وشعباً. ولم يتوقف الأمر عند هذا بل تعداه إلى إمعان في الكفر الذي ورد بالنص التالي من الكتاب المقدس :

((**بعد هذا الأمر لم يرجع يربعام عن طريقه الردية بل عاد فعمل من أطراف الشعب كهنة مرتفعات. من شاء ملأ يده فصار من كهنة المرتفعات. وكان من هذا الأمر خطية لبيت يربعام وكان لإبادته وخرابه عن وجه الأرض**)) [سفر الملوك الأول - الإصحاح الثالث عشر].

ويظهر واضحاً التمادي في الكفر وذلك بإيجاد علماء سوء كفرة ويذكر الكتاب المقدس العقوبة المتوقعة لهذا الخطأ بما يلي :

((**ويضرب الرب إسرائيل كاهتزاز القصب في الماء ويستأصل إسرائيل عن هذه الأرض الصالحة التي أعطاها لآبائهم ويبددهم إلى عبر النهر لأنهم عملوا سواريهم وأغاظوا الرب. ويدفع إسرائيل من أجل خطايا يربعام الذي أخطأ وجعل إسرائيل يخطئ**)) [سفر الملوك الأول - الإصحاح الرابع عشر] .

وهذا ذكر صريح بأن يربعام أفسد الشعب الذي يحكمه بعبادتهم للأصنام جميعاً. حيث بدأت الأحقاد تنطلق من النفوس وتعاونت النفوس الشريرة مع الشياطين التي كانت لا تستطيع إلا طاعة الأمر وانطلقت ولا حاكم لها ولا ضابط ، وبدأ عدوان أهل الكفر على أهل الخير حرباً لا تنقطع لا سبب لها ولا مبرر إلا وجود الحسد من قبل أهل الكفر تجاه أهل الخير ولا شي غير ذلك.

ولقد ذكرت كتب التاريخ عن عدوان الأسباط العشرة على سبطي الخير ونورد هنا شهادة الكتاب المقدس على هذا العدوان المستمر الغير مبرر والذي ذكر في عدة مواقع من الكتاب المقدس نورد بعضها فيما يلي :

((**وكانت حرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام**)) [سفر الملوك الأول - الإصحاح الرابع عشر] .

((**فقام يربعام بن نباط عبد سليمان بن داود وعصى سيده. فاجتمع إليه رجال بطالون بنو بليعال وتشدد على رحبعام بن سليمان وكان رحبعام فتى رقيق القلب فلم يثبت أمامهم**)) [سفر أخبار الأيام الثاني - الإصحاح الثالث عشر] .

((**وفي السنة الثامنة عشرة للملك يربعام ملك أبيا على يهوذا ...ملك ثلاث سنين في أورشليم وكانت حرب بين أبيا ويربعام**)) [سفر أخبار الأيام الثاني - الإصحاح الثالث عشر] .

كما ورد ذكر القتال فيما يلي :

((**وكانت حرب بين أبيام ويربعام. ثم اضطجع أبيام مع آبائه فدفنوه في مدينة داود وملك آسا ابنه عوضاً عنه...وعمل آسا ما هو مستقيم في عيني الرب كداود أبيه...وكانت حرب بين آسا وبعشا ملك**

إسرائيل كل أيامهما)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الخامس عشر] .

((**في السنة السادسة والثلاثين لملك أسا صعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكيلا يدع أحداً يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح السادس عشر] .

((**وصعد يوآش ملك إسرائيل فتراءيا مواجهة هو وأمصيا ملك يهوذا في بيت شمس التي ليهوذا. فانهزم يهوذا أمام إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢٥] .

ولقد تعرضت أمة الخير في القدس إلى هجوم كبير من جانب ملك مصر بعد خمس سنوات من موت نبي الله سليمان عليه السلام وكان ذلك أيام حكم رحبعام للقدس .

كان عدوان على القدس من قبل الملك المصري الجديد وورد ذكره في الكتاب المقدس في عدة مواقع نذكر منها ما يلي :

((**وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الرابع عشر] .

((**وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر على أورشليم. لأنهم خانوا الرب. بألف ومئتي مركبة وستين ألف فارس ولم يكن عدد للشعب الذين جاؤوا معه من مصر لوبيين وسكيين وكوشيين. واخذ المدن الحصينة التي ليهوذا وأتى إلى أورشليم...فصعد شيشق ملك مصر على أورشليم وأخذ خزائن يبت الرب وخزائن بيت الملك أخذ الجميع واخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان)** [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح الثاني عشر] .

ويذكر كتاب التاريخ ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) عن الملك المصري (شْشنق الأول) (٩٥٠ـ ٩٢٩ ق.م) والذي هو من أصل ليبي وكانت عائلته تستقر في هيراقليوبوليس غرب الدلتا واستطاع أن يسيطر وقد جاء عن هذا الملك في كتاب التاريخ ما تم ذكره سابقاً .

ومما جاء في كتاب التاريخ نستنتج أن السنوات الخمس التي مرت هي اللازمة لينطلق ششنق بقواته على قوات العائلات الحاكمة والذين كانوا محافظين أو حكام أقاليم لمصر في زمن سيدنا سليمان عليه السلام وتم له الاستيلاء على مصر ومن ثم تحرك إلى فلسطين ليهاجم القدس ويحدث ما حدث من تدمير وأن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثورة شيوعية ضد الحكم الإسلامي تحركت فور موت سليمان.

ما أوردنا من الكتاب المقدس يصف ششنق وجيشه بأنهم (خانوا الرب) ، أي أن ما حصل هو انقلاب شيوعي في العرف الحالي لأنه عدوان على عاصمة الإسلام في حينه. وهذا ما أشفى غليل أهل الكفر من بني إسرائيل والذين ساهموا في هذا الأمر مساهمة فعالة وما أظن هذا الأمر إلا من تدبيرهم حسداً لأهل الخير.

هذا العدوان على أهل الإيمان لن يتركه الله دون عقاب ولقد بينت كتب التاريخ ما حل من عقاب بمصر جراء عدوانهم على الإسلام والمسلمين في القدس كما أورد الكتاب المقدس هذا العقاب في عدة نصوص نورد منها ما يلي :

((**ويل لآشور قضيب غضبي. والعصا في يدهم هي سخطي على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهباً ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة..**)) [سفر أشعيا ـ الإصحاح العاشر] .

هذا النص يبين ضرب الأشوريين لمصر بعد أن قضوا نهائياً على دويلة إسرائيل الشمالية لعدوانها على أهل الخير في القدس.

كذلك نورد النصين التاليين في ضرب البابليين لمصر بعد أن أدبوا قيادة دويلة يهوذا في القدس (وهذا ما سيرد لاحقاً بالتفصيل).

((**قال رب الجنود اله إسرائيل . هأنذا أعاقب آمون وفرعون مصر وآلهتها وملوكها وفرعون والمتوكلين عليه وأرفعهم ليد طالبي نفوسهم وليد نبوخذ راصر ملك بابل وليد عبيده. ثم بعد ذلك تسكن كالأيام القديمة يقول الرب**)) [سفر ارميا ـ الإصحاح ٤٦] .
وهذا النص يعني أن مصر تصبح محافظة عراقية كما كانت.

((**هكذا قال السيد الرب. أني أبيد ثروة مصر بيد نبوخذ راصر ملك بابل هو وشعبه عتاة الأمم يؤتى بهم لخراب الأرض فيجردون سيوفهم على مصر ويملؤون الأرض من القتلى... وأشدد ذراعي ملك بابل وأجعل سيفي في يده. وأكسر ذراعي فرعون فيئن قدامه أنين الجريح**)) [سفر حزقيال ـ الإصحاح الثلاثون] .

عودة إلى كتب التاريخ:

لقد جاء في كتاب ((**تاريخ فلسطين القديم**)) للمؤلف (ظفر الإسلام خان) ما يلي : (عقب انقسام مملكة سليمان ظلت الدويلتان إسرائيل ويهودا تتخاصمان وكانت إسرائيل الدويلة الشمالية هي التي تعتدي على جارتها الجنوبية). (ص٥٣) .

تعليق : في مصر علا نجم الإسلام وظل عالياً منذ عهد الملك مرنبتاح حتى بداية حكم شنشق الأول إلا من فترة قصيرة خلالها إنتهت على يد ساآمون ثم حدث هذا الانقلاب الديني والذي لم يكتف بضرب دولة الإسلام في مقرها في القدس بل تعداه إلى السيطرة على المراكز الدينية في مصر وتعيين الإمام الأكبر ليكون ابن الملك شخصياً وذلك ليتسنى له السيطرة على الأمور الدينية وتحجيمها لأنها بلغت ذورتها وذروة تأثيرها على الشعب المصري في تلك الفترة كما مر معنا حيث ذكر التاريخ عن رمسيس الثالث أنه كان على درجة كبيرة من الورع واستمر الأمر وازداد بظهور أنبياء الله داود وسليمان عليهما السلام وارتباطهم بمصر بمصاهرة وحكم أدت إلى ارتفاع جديد لنجم الإسلام .
ولخص كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) هذا الأمر فيما أورده في (ص٥٠٥) حيث جاء: (وإذا نظرنا إلى الناحية الدينية نجد أنه منذ عصر الملك مرنبتاح أصبحت الوظائف في طبقة الكهنوت العليا لآمون رع في طيبة وراثية وازدادت سيطرة الكهنة في كل البلاد) .

ملاحظة: سنستخدم اسم فلسطين حيث أن الأرض المقدسة حملت هذا الاسم رغم طرد المعتدين الذين سميت باسمهم.

استمر العدوان من دويلة إسرائيل على يهودا والصواب أن نقول من محافظة نابلس على محافظة القدس لأن كل منهما تحت حكم دولة أخرى هي دولة مصر تليها دولة الأشوريين.

ونعود إلى الكتاب المقدس لنرى وصفه لأخلاقيات الأسباط العشرة وما كانوا عليه إضافة لما أوردنا سابقاً وهو يكشف رأس الفتنة يربعام بن نباط الذي عمل عجلين (صنمين) ليعبدوها.

هذا البعد عن الدين إضافة لعدوانهم على سبطي الخير الدائم والذي مصدره أنهم أهل شر ، ولقد جاء في وصفهم ما يلي :

((**فجاء إلي من شيوخ إسرائيل وجلسوا أمامي فصارت إلي كلمة الرب قائلة ... يا ابن آدم هؤلاء الرجال قد أصعدوا أصنامهم إلى قلوبهم... قل لهم هكذا قال الرب ... كل إنسان من بيت إسرائيل الذي يصعد أصنامه إلى قلبه... فإني أنا الرب أجيبه حسب كثرة أصنامه... لكي آخذ بيت إسرائيل بقلوبهم لأنهم كلهم قد ارتدوا عني بأصنامهم**)) [سفر حزقيال ـ الإصحاح الرابع عشر] .

هذا النص يصف كل شيوخ إسرائيل (الأسباط العشرة) بالفساد الديني ولقد أوردنا ما بدر من رأس الفتنة يربعام بن نباط وسنورد نصوصاً من الكتاب المقدس بمن تلاه من زعماء الأسباط العشرة وبفسادهم

ونورد منها ما يلي : ((**والزمان الذي ملك فيه يربعام هو اثنتان وعشرون سنة ثم اضطجع مع آبائه وملك ناداب ابنه عوضاً عنه**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح ١٤] .

((**وملك ناداب بن يربعام على إسرائيل في السنة الثانية لآسا ملك يهوذا فملك سنتين. وعمل الشر في عيني الرب وسار في طريق أبيه وفي خطيته التي جعل بها إسرائيل يخطئ**)) [سفرالملوك الأول ـ الإصحاح ١٥] .

((**وفي السنة الثالثة لآسا ملك يهوذا ملك بعشا بن أخيا على جميع إسرائيل في ترصة أربعاً وعشرين سنة. وعمل الشر في عيني الرب وسار في طريق يربعام وفي خطيته التي جعل بها إسرائيل يخطئ**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح ١٥].

((**وفي السنة السادسة والعشرين لآسا ملك يهوذا ملك أيلة بن بعشا على إسرائيل في ترصة سنتين . ففتن عليه عبده زمري رئيس نصف المركبات وهو في ترصة يشرب ويسكر في بيت أرصا... فدخل زمري وضربه فقتله...وملك عوضاً عنه.**

وفي السنة السابعة والعشرين لآسا ملك يهوذا ملك زمري سبعة أيام في ترصة... فسمع الشعب من يقول قد فتن زمري وقتل أيضاً الملك. فملك كل إسرائيل عمري رئيس الجيش على إسرائيل في ذلك اليوم في المحلة.

وفي السنة والواحدة والثلاثين لآسا ملك يهوذا ملك عمري على إسرائيل اثنتي عشرة سنة... وعمل عمري الشر في عيني الرب وأساء أكثر من جميع الذين قبله... واضطجع عمري مع آبائه ودفن في السامرة وملك أخآب ابنه عوضاً عنه... وملك أخآب بن عمري على إسرائيل في السامرة اثنتين وعشرين سنة ... وعمل أخآب بن عمري الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح السادس عشر] .

((**أخزيا بن أخآب ملك على إسرائيل في السامرة في السنة السابعة عشرة ليهو شافاط ملك يهوذا. ملك على إسرائيل سنتين. وعمل الشر في عيني الرب وسار في طريق أبيه وطريق أمه وطريق يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح ٢٢] .
((**وسقط أخزيا من الكوة التي في عليته التي في السامرة فمرض.. فمات . وملك يهورام عوضاً عنه.. لأنه لم يكن له ولد**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الأول].

((**وملك يهورام بن أخآب على إسرائيل في السامرة في السنة الثامنة عشرة ليهو شافاط ملك يهوذا ملك اثنتي عشر سنة. وعمل الشر في عيني الرب**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثالث].

((**هناك ياهو بن يهوشافاط بن نمشي ... وركب ياهو وذهب إلى يزرعيل ... لأن يورام كان مضطجعاً هناك... وخرج يهورام ملك إسرائيل وأخزيا ملك يهوذا كل واحد في مركبته خرجاً للقاء ياهو ... فقبض ياهو بيده على القوس وضرب يهورام بين ذراعيه فخرج السهم من قلبه فسقط في مركبته... ولما رأى ذلك اخزيا ملك يهوذا هرب في طريق البستان فطارده ياهو وقال اضربوه. فضربوه أيضاً في المركبة في عقبة جور... فهرب إلى مجدوا ومات هناك..**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح التاسع] .

((**واستأصل ياهو البعل من إسرائيل ولكن ياهو لم يتحفظ للسلوك في شريعة الرب اله إسرائيل من كل قلبه. ولم يحد عن خطايا يربعام الذي جعل إسرائيل يخطئ**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح العاشر] .

((**وكانت الأيام التي ملك فيها ياهو على إسرائيل في السامرة ثمانياً وعشرين سنة**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح العاشر] .

((**في السنة الثالثة والعشرين ليوآش بن اخزيا ملك يهوذا ملك يهوآحاز بن ياهو على إسرائيل**

في السامرة سبعة عشرة سنة. وعمل الشر في عيني الرب. وسار وراء خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ ›› [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثالث عشر].

‹‹ **ثم اضطجع يهوآحاز مع آبائه فدفنوه في السامرة وملك يوآش ابنه عوضاً عنه. في السنة السابعة والثلاثين ليوآش ملك يهوذا ملك يهوآش بن يهوآحاز على إسرائيل في السامرة ستة عشرة سنة. وعمل الشر في عيني الرب. ولم يحد عن جميع خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ بل سار بها** ›› [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثالث عشر] .

‹‹ **ثم اضطجع يهوآش مع آبائه ودفن في السامرة مع ملوك إسرائيل وملك يربعام ابنه عوضاً عنه... وفي السنة الخامسة عشر لأمصيا بن يوآش ملك يهوذا ملك يربعام بن يوآش ملك إسرائيل في السامرة إحدى وأربعين سنة. وعمل الشر في عيني الرب. لم يحد عن شيء من خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ ثم اضطجع يربعام مع آبائه مع ملوك إسرائيل وملك زكريا ابنه عوضاً عنه** ›› [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ١٤] .

‹‹ **وفي السنة الثانية والثلاثين لعزريا ملك يهوذا ملك زكريا بن يربعام على إسرائيل في السامرة ستة أشهر. وعمل الشر في عيني الرب كما عمل آباؤه. ولم يحد عن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ .ففتن عليه شلوم بن يابيش وضربه أمام الشعب فقتله وملك عوضاً عنه...**

شلوم بن يابيش مَلَكَ في السنة التاسعة والثلاثين لعزيا ملك يهوذا . وملك شهر أيام في السامرة. وصعد مخيم بن جادي من ترصة وجاء إلى السامرة وضرب شلوم بن يابيش فقتله وملك عوضاً عنه...

في السنة التاسعة والثلاثين لعزريا ملك يهوذا ملك مخيم بن جادي على إسرائيل في السامرة عشر سنين وعمل الشر في عيني الرب. لم يحد عن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ كل أيامه... ثم اضطجع مخيم مع آبائه وملك فقحيا ابنه عوضاً عنه .

في السنة الخمسين لعزريا ملك يهوذا ملك فقحيا بن مخيم على إسرائيل في السامرة سنتين وعمل الشر في عيني الرب. لم يحد عن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ. ففتن عليه فقح بن رمليا ثالثه وضربه في السامرة... قتله وملك عوضاً عنه.

في السنة الثانية والخمسين لعزريا ملك يهوذا ملك فقح بن رمليا على إسرائيل في السامرة عشرين سنة. وعمل الشر في عيني الرب. لم يحد عن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ ... وفتن هوشع بن أيلة على فقح بن رمليا وضربه فقتله وملك عوضاً عنه في السنة العشرين ليوثام بن عزيا ›› [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح السادس عشر].

‹‹**في السنة الثانية عشرة لآحاز ملك يهوذا ملك هوشع بن أيلة في السامرة على إسرائيل تسع سنين وعمل الشر في عيني الرب ولكن ليس كلموك إسرائيل الذين كانوا قبله**›› [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ١٧].

بهذا يثبت ‹‹الكتاب المقدس›› أن الأسباط العشرة كانوا فاسدين مدة وجودهم في الأرض المقدسة وفسادهم يعمهم حكومة وشعباً وهم عبدة أصنام طول الوقت وهذا يؤخذ من الجملة المذكورة عن كل ملك فيهم (لم يحد عن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ) وكلمة إسرائيل هنا تعني كل فرد في دويلة إسرائيل أي كل فرد من الأسباط العشرة إضافة إلى ما يفعلوه من أمور فساد أخرى لم تذكر وهذه شهادة الكتاب المقدس بهم.

هذا تاريخهم بالتسلسل وأعمالهم الواردة في ‹‹الكتاب المقدس›› الذي يؤمن به كل يهودي وكل نصراني ، ومن عرف هذا وبقي على تأييده لليهود فإنه ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة:٥١] .

ملاحظة : لو جمعنا سنوات حكم ملوك الأسباط العشرة من الكتاب المقدس لاختلفت مع ما جاء في كتب التاريخ بحوالي ثلاثين سنة فقط .

وكان الشر في أهل الشر وكراهيتهم للخير في أهل الخير السبب المباشر للعدوان المستمر منهم على أهل الخير وذلك ما شهد به الكتاب المقدس وشهدت به كتب التاريخ ولكن الله بالمرصاد لضرب أعداء الحق ونصرة أهل الحق.

عودة إلى كتب التاريخ وما تقوله في هذه المرحلة التاريخية :

استمر العدوان من محافظة السامرة على محافظة القدس وهما لا زالتا تحت الحكم المصري الذي امتد بوضوح تبينه الآثار لغاية حكم تاكيلوت (٨٩٣ ـ٨٧٠ ق.م) وقد عثر على أثر باسم تاكيلوت في ببلوص . (٥٥٧ ـ من معالم تاريخ مصر القديم).

استمر العدوان والغارات المستمرة التي يراها الحاكم ولا يردعها لأنها من أهل الشر على أهل الخير والحاكم بدوره بدأ بتحجيم الدين في بلده الأصلي ولقد أخذت هذه النتائج مما ورد في كتب التاريخ، خاصة ما ورد آنفاً في الصفحات (٥٥٢-٥٥٣) من كتاب ((**معالم تاريخ مصر القديم**)) وفيهما حديث عن تحجيم القوة الدينية وهرب الأئمة إلى السودان من ذلك الظلم والعدوان الذي وقع على الدين.

استمر العدوان واستمرت معه الغارات الانتقامية الربانية من الآشوريين على المعتدي إلى أن احتلت آشور كامل فلسطين ومن بعدها مصر كما سيتبين معنا ، استمر الحال على ما هو عليه من تضييق على الدين حتى زمن :

ششنق الثالث (٨٢٣ ـ٧٧٢ ق.م):

في العام الخامس عشر من الحكم ثارت طيبة ضد الملك ششنق ويبدو أنه أثناء هذه الثورة اضطر كبير الكهنة اوسركون للفرار إلى الجنوب البعيد ولكن في النهاية قضى على هذه الثورة وعاد كبير الكهنة وعفا آمون عن كل الثائرين . (ص ـ ٥٥٩) .

هذه محاولة ثورة دينية لم تنجح وكان الدين مركزاً في الجنوب وطيبة هي العاصمة الدينية ، ولمن يواصل متابعة ذلك في كتب التاريخ سيرى أن الله نصر الدين وهزم أعداء الدين فعاد الدين يسيطر على الحياة في مصر وذلك في زمن الأسرة الخامسة والعشرين (٧٥١ ـ ٦٥٦ ق.م) التي يطلق عليها الأسرة الإثيوبية .

ولكن هذا الدين ليس بالقوة التي كان عليها أيام أنبياء الله ولا بالصواب نفسه، فقد تعرض إلى ما تعرض له خلال السنوات الطوال من تحريف وتقييد أدى إلى وجود انحرافات في الحياة الدينية ، هذا لأن هذا الدين انقطع عن الاتصال بمصدره الأصلي في القدس حيث استمرار النبوة وتعهد الله بأن يبعث أنبياء ليحافظوا على هذا الدين ، ولقد نفذ الله وعده ولكن الحياة الدينية في جنوب مصر فقدت الاتصال بهذا النبع الخير فبعدت عن أصل الخير ومصدره.

نعود الآن إلى سنن الله في الكون التي لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً ولنر انتقام الله من الذين اعتدوا على دينه وهم شقان الشق الرئيسي الذي استمر يضرب أهل الدين فترة من الزمن كما ذكرنا، والشق الآخر الذي تم تحريضه لضرب مصدر الدين في القدس التي بدلاً من أن تعيش حياة خلافة بعد أنبياء الله تعرضت للضرب والنهب والتخريب والتنكيل والتقتيل.

لقد استمرت الحياة في مصر بعيدة عن الدين فترة من الزمن وهذا بحد ذاته عقاب رباني للذين سكتوا على العدوان على الدين وكان آخر الأمر أن تقطعت مصر إلى دويلات ثلاث إضافة إلى احتلال الوثنيين لها فيما بعد .

وأما في دولة السامرة، وهي دولة النفاق والكفر التي استمر عدوانها على أهل الخير والدين في

القدس طوال سنوات حسداً لهم لأنهم أقرب إلى الله، وكانت السبب في حملة ششنق على أهل الدين، حيث قال الله تعالى مبينا ما بدا من أسباط الكفر والذين عاهدوا الله على أن لا عدوان منهم على بعضهم كما أسلفنا ، فقد بدر منهم العدوان الثاني الكبير الذي قال الله فيه: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:٨٥] .

لقد عاهدوا الله على أن لا يقاتلوا بعضهم وأن لا يخرجوا بعضهم بعضاً من ديارهم أي لا يستولي بعضهم على أرض بعض وأقروا بذلك وشهدوا لله .

وها هم ينقضون العهد ويتعاونون مع ششنق لضرب الخيرين ولكي يستروا هذا التعاون السيئ كانوا يدفعون فداء الأسرى من أهل الخير وبذلك يتسترون على تآمرهم وقد بين الله لنا في آياته ما سترته كتب التاريخ والوثائق وما لم يظهر من جرائم ارتكبوها في حق أهل الخير وسبطي الخير .

كذلك فقد بين الكتاب المقدس بما أوردنا تفاصيل العدوان ومراحله واستمراره طيلة فترة وجود دويلة إسرائيل في الأرض المقدسة.

ولم يقف عدوانهم على الشعب الخير بل تعداه إلى نبي الله سليمان عليه السلام الذي كان يحكم الجن وكان معه صلاحيات عقاب المخالف منهم وعندما مات انطلقت الجن وأبدت الندم على طاعة سليمان وهو ميت، لم يشعروا بموته إلا بعد أن خر على الأرض حين أكلت دابة الأرض عصاً كان متكئاً عليها ومات، ولقد بين الله تعالى هذا الأمر بقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ:١٤].

لقد نسب الجن بالتعاون مع بعض أهل الكفر إلى سليمان عليه السلام من الأعمال ما لا ينسب لبشر إلا أن يكون كافراً ونحن هنا لسنا بصدد ما نسبوا إليه، ولكننا نورد هذا الكلام لنبين أن نبي الله الذي سخر الله له الجان والريح كان على درجة كبيرة من القرب من الله، والله تعالى يشهد فيه أنه (نعم العبد)، ورغم ذلك فلم ينجُ من سوء أعمالهم ، ونسبوا له وهم أهل الكفر من الكلام ما يضعه بين الكافرين ودافع الله تعالى عنه بقوله في كتابه العزيز: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [البقرة:١٠٢].

تقول بعض الكتب في تفسير الآية وما جاء فيها من قول الله: (تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ)، بأن يهود المدينة المنورة كانوا في تبعيتهم مختلفين بين القبائل العربية فكانوا يقاتلون مع حلفائهم وبذلك فإنهم من خلال الحلفاء يقاتلون بعضهم بعضاً ويفتدون أسرى بعضهم بعضاً .

لا نميل إلى هذا التفسير لأن عهد الله بين أهل الخير وأهل الكفر من بني إسرائيل في حين أن يهود

المدينة المنورة هم من أهل الكفر أي من فريق واحد وبذلك فإن ما جاء في الآية لا ينطبق عليهم.

كذلك فان الآية تحمل الفعل المضارع منذ عاهدهم الله وبذلك فإنها تعني كلما سنحت لكم الفرصة للعدوان، وها هو عدوانهم الحالي على فلسطين بالتعاون مع كافة قوى الشر في العالم.

ولقد استمر عدوان أهل الكفر على أهل الخير كما تشهد بذلك كتب التاريخ والكتاب المقدس وذلك في ظل الدولة الحاكمة في مصر التي ترى وتسمع وتسكت عما ترى إلى أن غضب الله ، وكانت هناك دولة في طور الشباب قد نمت في شمال العراق وهي دولة آشور فسلطها الله على أهل الكفر لتنتقم منهم تأديباً ربانياً على ما بدر منهم من ظلم لأهل دين الله.

لننظر ماذا أوردت لنا كتب التاريخ مما يفسر ما ورد في الكتاب المقدس.

جاء في كتاب ((**دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**)):

الإمبراطورية الآشورية الأولى :

تمكن إدد نيراري الثاني: (٩١٣ - ٨٩٠ ق.م)، من تثبيت قواعد حكمه واسترجاع الإشراف الفعلي لدولته على تخومها الغربية حول نهري الخابور والفرات وإشعار أهل هذه التخوم وخاصة الأراميين بسلطانه.

وخلفه ابنه (توكلتي ننورتا الثاني) (٨٩٠-٨٨٤ ق.م) : وسار على نهج أبيه وقام بعدة حملات حربية الهدف منها استعراض قوته لتأمين الدولة التي أقامها والده .

اتجهت سياسة آشور نحو توطيد سلطان الدولة على حدودها الغربية مع محاولة إضعاف الفروع الآرامية الغربية التي استمرت في شرق سوريا وأواسطها وامتد نفوذه إلى موانئها البحرية. (ص٣٢٠-٣٢١) .

جاء بعده ابنه (آشور ناصر بال الثاني) (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م) : وهو يعتبر من أعظم ملوك الآشوريين رغم شهرته بالقسوة وقد شغل حكمه بعدد من الحملات في الشرق والغرب لتوطيد دولته وقد سجل أعماله الحربية في لون من الزهو والمبالغة أحياناً. إن فتوحاته قد وصلت إلى شواطئ البحر المتوسط وإلى جبال امانوس ، وقد استطاع أن يخضع كل البلاد الواقعة بين آشور وبين البحر وأن يسيطر بذلك على الأقاليم الغربية (ص ٣٢١).

وخلف شلمنصر الثالث (٨٥٨ -٨٢٤ ق.م) أباه على العرش ، ولم يكن أقل اعتزازاً بجبروته من أبيه فوصفته نصوصه بأنه الأفعوان الكبير وأنه طحن أعداءه جميعاً.

ساعدته الظروف فتدخل في عرش بابل وتعداها بجيوشه إلى كلديا حتى الخليج العربي وقد قام بسلسلة من الحملات الحربية في سوريا وفلسطين (ص ٣٢١-٣٢٢).

ولقد تجرأ في العام السادس من حكمه على مهاجمة دمشق وانتصر ضد تجمع من اثنى عشر ملكاً ولكن نصره لم يكن حاسماً، وكان على الآشوريين أن ينتظروا سنين طويلة قبل أن يتمكنوا من إخضاع دمشق على أيام (تجلات بلاسر الثالث) في عام (٧٢٢ ق.م) (ص ٣٢٣) .

هذه السلسلة من الحملات الحربية في سوريا وفلسطين كانت ضربات متلاحقة لأهل الكفر (الأسباط العشرة) جزاءً ربانياً على عدوانهم على أسباط الخير والإيمان، ولكنهم لم يتأدبوا ولإتاحة الفرصة الأخيرة لمن أراد أن يتوب منهم إلى الله، ولكن ذلك لم يكن فالله أعلم بهم وما إتاحة الفرصة الأخيرة لهم إلا لتكون حجة عليهم يوم الحساب .

ويتضح من نصوص كتاب التاريخ الذي أوردنا انتقام رب العالمين من أهل الشر ، ولقد بين الكتاب المقدس أيضاً هذا الانتقام الرباني الذي بدأ بسيطاً وأخذ يشتد مع شدة عدوانهم على أهل الخير (الجزاء من جنس العمل) ولقد جاء ذلك فيما يلي :

((**وكانت يد الرب على إيليا... فقال له الرب اذهب راجعاً في طريقك إلى برية دمشق وامسح حزائيل ملكاً على آرام وامسح ياهو بن نمشي ملكاً على إسرائيل وامسح اليشع بن شافاط من آبل محولة نبياً عوضاً عنك**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح التاسع عشر].

وهذا النص يثبت أن دمشق كانت مسكن كفار بني إسرائيل وأنها كانت تدار من قبل كهنة بني إسرائيل حيث أن ملك دمشق كان يعينه النبي الذي يحكم بني إسرائيل.

وكان بداية انتقام رب العالمين من أهل الكفر أن أوجد الله عداءً فيما بينهم ممثلين في دولة الآراميين في دمشق ودولة إسرائيل وقد ورد هذا في الكتاب المقدس في النصين التاليين :

((**في تلك الأيام ابتدأ الرب يقص إسرائيل .. فضربهم حزائيل في جميع تخوم إسرائيل**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح العاشر] .

((**ملك يهوآحاز بن ياهو على إسرائيل في السامرة سبع عشرة سنة. وعمل الشر في عيني الرب وسار وراء خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطئ. لم يحد عنها. فحمي غضب الرب على إسرائيل فدفعهم ليد حزائيل ملك آرام وليد بنهدد بن حزائيل كل الأيام ... لم يبقى ليهوآحاز شعباً إلا خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل لأن ملك آرام أفناهم ووضعهم كالتراب للدوس**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ١٣] .

بعد هذا وقعت عقوبة الله على طرفي الكفر في الشام والسامرة وذكرها الكتاب المقدس بأن الله سلط عليهم الآشوريين وجاء ذلك فيما يلي:

((**فجاء فول ملك آشور على الأرض فأعطى مخيم لفول ألف وزنه من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة في يده. ووضع مخيم الفضة على إسرائيل على جميع جبابرة البأس ليدفع لملك آشور خمسين شاقل فضة على كل رجل فرجع ملك آشور ولم يقم هناك في الأرض**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الخامس عشر].

كان ما ذكرنا بداية التبعية لآشور ودفع الجزية ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اشتدت عقوبة رب العالمين بعد ذلك نتيجة استمرارهم في الفساد وعدم العودة عنه وقد ورد هذا فيما يلي:

((**في أيام فقح ملك إسرائيل جاء تغلث فلاسر ملك آشور وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى آشور**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الخامس عشر].

هذا نص صريح بأن آشور بدأت تكتسح المنطقة وتقتل وتأسر وتأخذ الأسرى إلى آشور ومن هناك يتم طردهم خارج دولة الآشوريين وبالطبع فإن الذي وصل الجليل يكون قد احتل الشام التي وردت نبوءة خرابها بما يلي:

((**لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يدعو يا أبي ويا أمي تحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قدام ملك آشور**)). [سفر أشعيا ـ الإصحاح الثامن].

هذا الفساد وعدوان أهل الكفر على أهل الخير وضربات الآشوريين المتلاحقة لهم هي التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء:٤-٥] .

هذا هو الفساد الأول والارتفاع الأول فقد ارتفعوا أيام داود وسليمان عليهما السلام وبعد أن توفي سليمان بدأ الفساد الذي كان أشده بعدوان أهل الكفر على أهل الخير، هذا العدوان المتكرر وكأن الله تعالى

يوجه لهم ضربات في صيغة غارات متكررة في أنحاء مختلفة من البلاد، وهي التي تصفها الآية بقول (فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ)، أي أنهم يصولون ويجولون كما يحلو لهم يقتلون وينهبون كما يشاؤون وذلك لشدة قوتهم حيث قال الله فيهم (أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ) فلهم قلوب لا ترحم ، وهؤلاء سلطهم الله على أهل الكفر ليرتدعوا أو ليعودوا إلى رشدهم وليكفوا عن عدوانيتهم التي لا مبرر لها إلا الحسد الذي هو حرام وممنوع ولا مبرر له.

وها هي كتب التاريخ تصف قادة الآشوريين بالقسوة والجبروت كما وصفهم الله وسلطهم الله عليهم عقاباً لهم على فعلتهم وغيظهم الذي يشتد ويبلغ أشده كلما كان هناك نهاية لعهد نبي.

واستمر الأمر طويلاً ولم يرتدع أهل الضلال فأصدر الله تعالى قراره بنفيهم من الأرض المقدسة.

نعود إلى الكتاب المقدس لنرى ماذا قال في طردهم من الأرض المقدسة. حيث جاء في طردهم ما يلي :

((**وصعد عليه شلمنآصر ملك آشور فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية. ووجد ملك آشور في هوشع خيانة لأنه أرسل رسلاً إلى سوا ملك مصر .. ولم يؤد جزية إلى ملك آشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك آشور وأوثقه في السجن. في السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة وسبي إسرائيل إلى آشور وأسكنهم في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح السابع عشر] .

يلاحظ أن هناك فرقاً بسيطاً في التسميات ما بين الكتاب المقدس وكتب التاريخ وأنه لا يوجد أي تناقض فيما بينها.

ما ذكرنا تم ذكره في موقع آخر من الكتاب المقدس فيما يلي :

((**وفي السنة الرابعة للملك حزقيا وهي السنة السابعة لهوشع بن أيلة ملك إسرائيل صعد شلمنآصر ملك آشور على السامرة وحاصرها وأخذوها في نهاية ثلاث سنين ففي السنة السادسة لحزقيا وهي السنة التاسعة لهوشع ملك إسرائيل أخذت السامرة. وسبي ملك آشور إسرائيل إلى آشور ووضعهم في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي لأنهم لم يسمعوا لصوت الرب إلههم بل تجاوزوا عهده وكل ما أمر به موسى عبد الرب فلم يسمعوا ولم يعملوا**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثامن] .

في النص السابق يوضح الكتاب المقدس سبب غضب الله على الأسباط العشرة وهو عدم طاعتهم لله ولرسله ولعملهم ونقضهم عهد الله وأما تفاصيل هذا الأمر فقد ورد فيما يلي :

((**وكان أن بني إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم الذي أصعدهم من أرض مصر من تحت يد فرعون ملك مصر واتقوا آلهة أخرى وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل وملوك إسرائيل الذين أقاموهم. وعمل بنو إسرائيل سراً ضد الرب إلههم أموراً ليست بمستقيمة... وعبدوا الأصنام التي قال الرب لهم عنها لا تعملوا هذا الأمر. واشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء قائلاً ارجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصاياي فرائضي حسب كل الشريعة التي أوصيت بها آباءكم والتي أرسلتها إليكم عن يد عبيدي الأنبياء فلم يسمعوا... وباعوا أنفسهم لعمل الشر في عيني الرب لإغاظته... فغضب الرب جداً على إسرائيل ونحاهم من أمامه... وسلك بنو إسرائيل في جميع خطايا يربعام التي عمل. لم يحيدوا عنها حتى نحى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء فسبي إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى هذا اليوم**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح السابع عشر] .

يتضح من هذه النصوص أن طرد الأسباط العشرة من الأرض المقدسة هو قرار رباني لأنهم لا يستحقون أن يعيشوا فيها وكان هذا بعد أن أتاح الله لهم الفرص الكثيرة للتوبة والعودة إلى الصواب بواسطة

العديد من الأنبياء ولكنهم لا يعرفون الصواب وجبلوا على الخطأ فنحاهم الله من أمامه (طردهم) بواسطة الآشوريين حيث سلطهم الله عليهم لطردهم (حكم عليهم بالنفي من الأرض المقدسة).

لقد أصدر الله تعالى حكمه على أسباط الكفر من نفس العقوبة التي أوردها في كتابه الكريم على المحاربين إذ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٣-٣٤] .

لقد حاربوا الله في دينه وشوهوا سمعة نبي الله سليمان وقتلوا المؤمنين ودمروا دولة الإسلام التي أقامها سليمان ودنسوا دور العبادة ، فلو كانت هناك دولة إسلام قوية وجب عليها أن تعاقبهم بالقتل أو الصلب أو أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وذلك مثلما كان حكم المسلمين عليهم بعد معركة الخندق إذ تعاون يهود بني قريظة مع المشركين على أن يفتحوا لهم حصونهم في المدينة المنورة ليدخلوا منها على المسلمين فكان الحكم عليهم بقتل الرجال المقاتلين جميعاً أو أن يسلموا فلم يسلموا فقتلوا.

ولكن لا يوجد هناك دولة إسلام لتعاقب المعتدين من أسباط الكفر، فدولة الإسلام هي التي قهرت، لذلك أصدر الله تعالى حكمه عليهم بالنفي من الأرض المقدسة في قوله تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ ﴾[الإسراء:١٠٤].

لقد بينا من قبل أن الله كتب هذه الأرض المقدسة لتلك الفئة المؤمنة وهم سبطا الخير والإيمان فقط ولذلك فإن جملة بني إسرائيل في الآية التي هي قرار النفي من الأرض المقدسة يقصد بها الأسباط العشرة وهم أهل الكفر من بني إسرائيل.

ولنحاول معرفة ما أورده الكتاب المقدس في وصف حالة سكان القدس (يهوذا) الذين كانوا موجودين بالتوازي مع نظرائهم من الأسباط العشرة ولقد ورد هذا في النصوص التالية :

((**وكان كلام الله إلى شمعيا رجل الله قائلاً كلم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكل بيت يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلاً هكذا قال الرب لا تصعدوا ولا تحاربوا إخوتكم بني إسرائيل. إرجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندي هذا الأمر. فسمعوا لكلام الرب ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الثاني عشر] .

((**ثم اضطجع رحبعام مع آبائه ودفن مع آبائه في مدينة داود. واسم أمه نعمة العمونية وملك أبيام ابنه عوضاً عنه**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الرابع عشر].

((**وكانت حرب بين أبيام ويربعام. ثم اضطجع أبيام مع آبائه فدفنوه في مدينة داود وملك آسا ابنه عوضاً عنه. وفي السنة العشرين ليربعام ملك إسرائيل ملك آسا على يهوذا... ملك إحدى وأربعين سنة ... وعمل آسا ما هو مستقيم في عيني الرب كداود أبيه**)) [سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الخامس عشر] .

كما ورد ذكر آسا في النص التالي:

((**ثم اضطجع أبيا مع آبائه فدفنوه في مدينة داود وملك آسا ابنه عوضاً عنه. في أيامه استراحت الأرض عشر سنين. وعمل آسا ما هو صالح ومستقيم في عيني الرب إلهه**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح الرابع عشر] .

((**وملك يهوشافاط بن آسا على يهوذا في السنة الرابعة لأخآب ملك إسرائيل... وملك خمساً**

وعشرين سنة في أورشليم... وسار في كل طريق آسا أبيه. لم يحد عنها. إذ عمل المستقيم في عيني الرب (([سفر الملوك الأول ـ الإصحاح الثاني والعشرون].

وورد ذكر يهوشافاط في النصوص التالية أيضاً :

)) **وملك يهوشافاط عوضاً عنه وتشدد على إسرائيل... وكان الرب مع يهوشافاط لأنه سار في طرق داود أبيه الأولى ... فثبت المملكة في يده** (([سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح السادس عشر] .

)) **وكان ليهوشافاط غنى وكرامة بكثرة . وصاهر أخآب. ونزل بعد سنتين إلى أخآب إلى السامرة. فذبح أخآب غنماً وبقراً بكثرة له وللشعب الذي معه وأغواه أن يصعد إلى راموت جلعاد..**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح الثامن عشر] .

)) **وملك يهوشافاط على يهوذا. كان بن خمس وثلاثين سنة حين ملك وملك خمساً وعشرين سنة في أورشليم... وسار في طريق أبيه آسا ولم يحد عنها إذ عمل المستقيم في عيني الرب... ثم بعد ذلك اتحد يهوشافاط ملك يهوذا مع أخزيا ملك إسرائيل الذي أساء في عمله** (([سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح العشرون] .

)) **واضطجع يهوشافاط مع آبائه في مدينة داود أبيه فملك يهورام ابنه عوضاً عنه** (([سفرالملوك الأول ـ الإصحاح الثاني والعشرون] .

)) **وفي السنة الخامسة ليورام بن أخآب ملك إسرائيل... ملك يهورام بن يهوشافاط ... وملك ثماني سنين ... وسار في طريق ملوك إسرائيل كما فعل بيت أخآب لأن بنت أخآب كانت له امرأة. وعمل الشر في عيني الرب... واضطجع يورام مع آبائه ودفن مع آبائه في مدينة داود .. وملك أخزيا ابنه عوضاً عنه** (([سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثامن].

كما ورد ذكر يورام في النص التالي :

)) **واضطجع يهوشافاط مع آبائه... وملك يهورام ابنه عوضاً عنه... وسار في طريق ملوك إسرائيل كما فعل أخآب لأن بنت أخآب كانت له امرأة وعمل الشر في عيني الرب** (([سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢١] .

)) **في السنة الثانية عشر ليورام بن أخآب ملك إسرائيل ملك أخزيا بن يورام ملك يهوذا... وملك سنة واحدة في أورشليم.. وسار في طريق بيت أخآب. وعمل الشر في عيني الرب كبيت أخآب لأنه كان صهر بيت أخآب** (([سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثامن] .

)) **كان أخزيا ابن اثنتين وعشرين سنة حين ملك وملك سنة واحدة في أورشليم وهو أيضاً سلك في طرق بيت أخآب فعمل الشر في عيني الرب** (([سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢٢].

)) **في السنة السابعة لياهو ملك يهوآش. ملك أربعين سنة في أورشليم... وعمل يهوآش ما هو مستقيم في عيني الرب كل أيامه التي فيها علمه يهوياداع الكاهن ... وقام عبيده وفتنوا فتنة وقتلوا يهوآش في بيت القلعة... فمات فدفنوه مع آبائه في مدينة داود وملك أمصيا ابنه عوضاً عنه** (([سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثاني عشر] .

كما ذكر يوآش فيما يلي:)) **كان يوآش بن سبع سنين حين ملك وملك أربعين سنة في أورشليم... وعمل يوآش المستقيم في عيني الرب كل أيام يهوياداع الكاهن...** (([سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢٤] .

((**في السنة الثانية ليوآش بن يوآحاز ملك إسرائيل ملك أمصيا بن يوآش ملك يهوذا. كان ابن خمس وعشرين سنة حين ملك.... وعمل ما هو مستقيم في عيني الرب ولكن ليس كداود أبيه عمل حسب كل ما عمل يوآش أبوه**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الرابع عشر] .

وورد ذكر أمصيا أيضاً في النص التالي:
((**ملك أمصيا وهو ابن خمس وعشرين سنة وملك تسعاً وعشرين سنة في أورشليم... وعمل المستقيم في عيني الرب ولكن ليس بقلب كامل**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢٥].

((**وعاش أمصيا بن يوآش ملك يهوذا بعد وفاة يهوآش بن يهوآحاز ملك إسرائيل خمس عشرة سنة... وفتنوا عليه فتنة في أورشليم فهرب إلى لخيش فأرسلوا وراءه إلى لخيش وقتلوه هناك... وأخذ كل شعب يهوذا عزريا وهو ابن ست عشرة سنة وملكوه عوضاً عن أبيه أمصيا**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الرابع عشر] .

((**في السنة السابعة والعشرين ليربعام ملك إسرائيل ملك عزريا بن أمصيا ملك يهوذا... وملك اثنتين وخمسين سنة في أورشليم... وعمل ما هو مستقيم في عيني الرب حسب كل ما عمل أمصيا أبوه... ثم اضطجع عزريا مع آبائه فدفنوه مع آبائه في مدينة داود وملك يوثام ابنه عوضاً عنه**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الخامس عشر] .

كما ورد ذكر عزريا فيما يلي: ((**كان عزيا ابن ست عشرة سنة حين ملك وملك اثنتين وخمسين سنة في أورشليم.... وعمل المستقيم في عيني الرب....**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢٦].

((**في السنة الثانية لفقح بن رمليا ملك إسرائيل ملك يوثام بن عزيا ملك يهوذا وعمل ما هو مستقيم في عيني الرب. عمل حسب كل ما عمل عزيا أبوه واضطجع يوثام مع آبائه ودفن مع آبائه في مدينة داود وملك آحاز ابنه عوضاً عنه**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الخامس عشر] .

وورد ذكر يوثام في النص التالي : ((**كان يوثام بن خمس وعشرين سنة حين ملك... وملك ستة عشرة سنة في أورشليم.... وعمل المستقيم في عيني الرب حسب كل ما عمل عزيا أبوه**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢٧] .

((**في السنة السابعة عشر لفقح بن رمليا ملك آحاز بن يوثام ملك يهوذا . ولم يعمل المستقيم في عيني الرب إلهه كداود أبيه بل سار في طريق ملوك إسرائيل... حينئذ صعد رصين ملك آرام وفقح بن رمليا ملك إسرائيل إلى أورشليم للمحاربة فحاصروا آحاز ولم يقدروا أن يغلبوه...**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح السادس عشر] .

وورد ذكر آحاز في النص التالي: ((**كان آحاز بن عشرين سنة حين ملك وملك ستة عشرة سنة في أورشليم ولم يفعل المستقيم في عيني الرب كداود أبيه بل سار في طريق ملوك إسرائيل**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢٨] .

((**وأرسل آحاز رسلاً إلى تغلث فلاسر ملك آشور قائلاً. أنا عبدك وابنك. إصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علي... فسمع له ملك آشور وصعد ملك آشور إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير وقتل رصين... ثم اضطجع آحاز مع آبائه ودفن مع آبائه في مدينة داود وملك حزقيا ابنه عوضاً عنه**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح السادس عشر].

((**وفي السنة الثالثة لهوشع بن أيلة ملك إسرائيل ملك حزقيا بن آحاز ملك يهوذا... وعمل المستقيم في عيني الرب كما عمل داود أبوه**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثامن عشر].

كما ورد ذكر (حزقيا) فيما يلي: ((**ملك حزقيا وهو ابن خمس وعشرين سنة .. وملك تسعاً وعشرين**

سنة في أورشليم... وعمل المستقيم في عيني الرب حسب كل ما عمل داود أبوه..)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٢٩] .

يلاحظ مما أوردنا أن سكان القدس وحكام القدس كانوا على تقوى من الله حيث يشهد الكتاب المقدس لهم وبأنهم عملوا المستقيم في عيني الرب إلا من أخطاء طفيفة من بعض الملوك لمصاهرتهم بيت السوء أخآب وهذا السوء لم يمتد إلى الشعب بل كان من الحاكم شخصياً وهذا الصلاح العام أكسب أسباط الخير رضا الله عنهم.

وكان من جراء هذا الصلاح أن الله تعالى لم يمكن ملك آشور منهم حيث ورد ذلك فيما يلي :

((**وبعد هذه الأمور وهذه الأمانة أتى سنحاريب ملك آشور ودخل يهوذا ونزل على المدن الحصينة وطمع بإخضاعها لنفسه**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٢] .

((**فرجع بخزي الوجه إلى أرضه ... ولما دخل بيت إلهه قتلـه هناك بالسيف الذين خرجوا من أحشائه ... وخلص الرب حزقيـا وسكان أورشليم من سنحاريب ملك آشور...**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٢] .

بذلك نفذ الله وعده لأهل الخير بالبقاء في الأرض المقدسة كما كتبها الله لهم وقرر طرد أهل الكفر من هذه الأرض ليعيشوا بعيدين عنها لأنهم لا يستحقون أن يعيشوا فيها وليجربوا معيشتهم بعيداً عن الأرض المقدسة المباركة في ظل أقوام غرباء عنهم في اللغة والدين وليقارنوا هذه المعيشة بالتكريم الذي كانوا فيه في ظل أنبياء الله.

وهذا ما أكد عليه الكتاب المقدس في ما ذكرناه سابقاً وفي النص التالي تأكيد على أن نفيهم من الأرض المقدسة هو قرار من رب العالمين :

((**وتعلم الأمم أن بيت إسرائيل قد اجلوا بإثمهم لأنهم خانوني فحجبت وجهي عنهم وسلمتهم ليد مضايقيهم فسقطوا كلهم بالسيف كنجاساتهم وكمعاصيهم فعلت معهم وحجبت وجهي عنهم**)) [سفر حزقيال ـ الإصحاح ٣٩].

عودة بنا إلى كتاب التاريخ لنرى تنفيذ قرار الله بنفيهم في الأرض .

((**دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**)):

استمر الحال على ما هو عليه وظلت بابل على ولائها لآشور وأخيراً تولى العرش تجلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) : وبعد توليه الحكم عمل على توسيع رقعة دولته وإحلال هيبتها في نفوس الشعوب المجاورة له.

إن جهوده الحربية الفعلية كانت موجهة ضد الأقاليم الواقعة غرب دولته حيث قضى سنوات حكمه في توجيه الحملات إلى هذه المناطق ، فحارب اربد أربع مرات وتدخل في شؤون مملكة يهوذا ووصلته الجزية من العديد من البلدان مثل صور وصيدا ودمشق ، وكذلك من بعض المناطق في آسيا الصغرى ، ولقد تمكن من إخضاع دمشق عام (٧٣٢ ق.م) ولم يكتف بتبعيتها لنفوذه بل قام بنقل أهلها إلى مناطق أخرى وبذلك قضى على المملكة الآرامية فيها ، ثم عين فيها حاكماً آشورياً وهو بهذا العمل إنما استن سنة نقل الشعوب وتشريد أهلها من مواطنهم وهي السياسة التي سار خلفاؤه على نهجها.

وقد قام بتنصيب (هوشع) (٧٣١ ـ٧٢٢ ق.م) ملكا على إسرائيل ولكنه قامت ضده ثورة جعلت آشور تتدخل وتجتاح الجليل . (ص٣٢٤ ـ٣٢٥) .

نعود الآن إلى تحليل الأحداث التي مرت:

نستنتج الآن أن بلاد الشام وفلسطين كانت تحت حكم الآشوريين (في ذلك العصر)، وهذا واضح من أخذه الجزية من المدن الواقعة في تلك المناطق، وهذا يعني أنها تابعة لحكمه وإن كان على كل منها

ملك فتلك تسمية للزعيم المحلي آنذاك وهذه التسمية تقابل تسمية محافظ هذه الأيام أو متصرف أو مدير ناحية.

ويتضح أيضاً اجتياحه للجليل وتدخله في شؤون يهوذا وتعيينه هوشع ملكاً على نابلس ليكون تابعاً له ولكن أهل السوء يثورون عليه ويجتاح تجلات بلاسر الثالث الجليل، كما أنه قام بترحيل سكان الشام من بني إسرائيل ليقضي على المملكة الآرامية فيها.

ويخلف (شلمنصر الخامس٧٢٧ ـ٧٢٢ ق.م) أباه على عرش آشور.

وذكر المؤرخ اليهودي يوسفيوس أن شلمنصر حاصر مدينة صور وأخضعها بعد أن ثارت عليه ونزل شلمنصر ليتسلم الجزية من هوشع ولكن هوشع كان قد غير ولاءه للآشوريين، وهنا رأى شلمنصر أن يؤدب هوشع هذا فاستمر ليحاصر السامرة حيث استمر حصاره لها أعواماً ثلاثة ولكنه لم يفلح في الاستيلاء عليها إذ عاجلته المنية (ص٣٤٥) .

انتقل العرش إلى خلفه الذي يعرف باسم (سرجون) وهو أخوه الذي دخل المدينة ونفى أغلبية سكانها وسباهم. ويعتبر (سرجون الثاني) شاروكين الملك الصادق (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م) في نظر بعض المؤرخين مؤسسا لأسرة جديدة (ص٣٢٦).

انتهزت مصر وبابل قيام ملك جديد على آشور لتثير المتاعب ، وكانت الأولى تستهدف إعادة نفوذها الذي ضاع في فلسطين أما الأخرى فكانت تسعى لرفع النير عن كاهلها، وقامت معركة غير فاصلة ولم يتسنّ لسرجون أن يعيد منازلة الثوار إلا في عام (٧١٠ق.م) بعد انتهاء حملاته في الغرب (الشام). ثم توج سرجون ملكاً على بابل كما فعل تجلات بلاسر وشلمنصر من قبل (ص٣٢٦).

أما في الغرب فإنه استمر في محاصرة السامرة حتى سقطت في نفس العام الأول من حكمه (٧٢٢ ق.م) ، وحينئذ سقطت دويلة إسرائيل وانتهت من الوجود كدولة ووضعت البلاد تحت أمرة ضابط آشوري. ويسجل سرجون في حولياته أنه في بداية حكمي وفي السنة الأولى منه حاصرت السامرة واستوليت عليها ونقلت من أهلها (٢٧,٢٩٠) مواطناً واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكي تم ملأتها بسكان أكثر مما كان بها وعينت ملكاً عليها وفرضت الجزية والضرائب كما يفعل الآشوريون (ص٣٢٧).

ويتميز عهد سرجون الثاني بإفراغ السامرة من اليهود وبعثرتهم في أنحاء دولته وبلغ عدد اليهود ما يقرب من (٣٠,٠٠٠) كان نصيب الميديين منهم أعداداً كبيرة (أحلهم سرجون في المدن الميدية) (ص٤٩٥).

وأما في الشمال في طوروس رفض ملكها دفع الجزية وانضمت له ولاية أتونا واستطاع سرجون أن يهزمهم عام (٧١٨ ق.م) وفي العام التالي ضم قرقميش. في عام (٧١٤ ق.م) قام بغارة على أورارثوا ونهب المدينة وفي العام التالي احتل تابال التي تحولت إلى ولاية آشورية ثم احتل قبرص وأقام في سيتون لوحة نصر وكأنما يتحدى العالم اليوناني. وفي عام (٧١٢ ق.م) خلع ملك ملاطية ودمر مدينته ثم تحول إلى أشدود في فلسطين على الحدود المصرية فجعل منها مدينة آشورية (ص ٣٢٨).

ملاحظة: يا للعجب كيف يقوم تجلات بلاسر الثالث بترحيل أهل الشام ويقوم سرجون الثاني بترحيل أهل سامرا وملأها بسكان جدد (كما جاء في حولياته المذكورة آنفاً)، ولم يقوما بترحيل سكان آخرين مثل سكان صور وصيداً وتركيا وقبرص ومدن يونانية ، إن حكمهم واسع و كبير ولكن نقل السكان لم يتم إلا لمن أراد الله أن يقتلع من تلك الأرض ولمن أراد الله أن يشتتهم في الأرض والذين حكم الله عليهم بالجلاء عن الأرض المقدسة، وهم فقط الذين قام الحكام بترحيلهم فقط ولم يقوموا بترحيل غيرهم.

تلك الأحداث تؤكد أن الأرض المقدسة لمن صلح من سبطي الخير وليس للأسباط العشرة حيث لا يوجد من يستطيع أن يلغي ما كتب الله .

ما ذكر عمن رحل من أهل السامرة هو في العام الأول من حكم سرجون ولم يذكر من نفى في الأعوام الأخرى ، وبغض النظر عمن ذكر ممن لم يذكر فإنهما نفذا أمر الله بترحيل أهل الكفر عن تلك المناطق.

بعد تلك الفترة الزمنية ومع طرد الأسباط العشرة بدأ يظهر بعض الإنحراف على سبطي الخير فاستحقوا تأديباً ربانياً، وهذا التأديب تجلى في تبعيتهم لآشور ودفع الجزية دون حرب أو قتل وذلك في زمن الملك حزقيا وذكر تأديب الله لسبطي الخير بما يلي:

((**في السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور إلى لخيش يقول قد أخطأت إرجع عني ومهما جعلت عليَّ حملته. فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب. فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب. وفي خزائن بيت الملك..في ذلك الزمان قشَّر حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه إلى ملك آشور**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح الثامن عشر].

((**في تلك الأيام مرض حزقيا للموت... ثم اضطجع حزقيا مع آبائه وملك منسى ابنه عوضاً عنه**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح العشرون] .

((**كان منسى ابن اثنتي عشرة سنة حين ملك.. وعمل الشر في عيني الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل... وسفك أيضاً منسى دماً بريأً كثيراً... فضلاً عن خطيته التي جعل يهوذا يخطئ بعمل الشر في عيني الرب.. ثم اضطجع منسى مع آبائه... وملك آمون ابنه عوضاً عنه...**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢١] .

كما تم ذكر منسى فيما يلي :

((**كان منسى ابن اثنتي عشرة سنة حين ملك وملك خمساً وخمسين سنة في أورشليم. وعمل الشر في عيني الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل... ولكن منسى أضل يهوذا وسكان أورشليم ليعملوا أشر من الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٣]

((**كان أمون ابن اثنتين وعشرين سنة حين ملك وملك سنتين في أورشليم... وعمل الشر في عيني الرب كما فعل منسى أبوه... وفتن عبيد آمون عليه فقتلوا الملك في بيته.. وملك يوشيا ابنه عوضاً عنه**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢١] .

كما تم ذكر آمون في النص التالي:

((**كان آمون ابن اثنتين وعشرين سنة حين ملك وملك سنتين في أورشليم. وعمل الشر في عيني الرب كما فعل منسى أبوه**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٣]

((**كان يوشيا ابن ثمان سنين حين ملك وملك إحدى وثلاثين سنة في أورشليم... وعمل المستقيم في عيني الرب وسار في جميع طرق داود أبيه. لم يحد يميناً ولا شمالاً**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢٢] .

كما تم ذكر يوشيا بشكل أوضح في النص التالي :

((**كان يوشيا ابن ثماني سنين حين ملك وملك إحدى وثلاثين سنة في أورشليم... وعمل المستقيم في عيني الرب وسار في طرق داود أبيه ولم يحد يميناً ولا شمالاً... وفي السنة الثانية عشرة ابتدأ يطهر يهودا وأورشليم من المرتفعات والسواري والتماثيل والمسبوكات وهدموا أمامه مذابح البعليم وتماثيل الشمس.. وأحرق عظام الكهنة على مذابحهم وطهر يهوذا وأروشليم...**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٤] .

وتم ذكر أعماله الدينية والدنيوية في موقع آخر من الكتاب المقدس بما يلي :
((**وكذلك السحرة والعرافون والترانيم والأصنام وجمع الرجاسات التي رؤيت في أرض يهوذا وفي**

أورشليم أبادها يوشيا ليقيم كلام الشريعة... في أيامه صعد فرعون نخو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات فصعد ا لملك يوشيا للقائه فقتله في مجدوا حين رآه وأركبه عبيده ميتاً من مجدوا وجاؤوا به إلى أورشليم ودفنوه في قبره)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢٣] .

كما ذكرت هذه الحادثة في النص التالي :

((**بعد كل هذا حين هيأ يوشيا البيت صعد نخو ملك مصر إلى كركميش ليحارب عند الفرات فخرج يوشيا للقائه . وأصاب الرماة الملك يوشيا فقال الملك لعبيده انقلوني لأني جرحت جداً. فنقله عبيده من المركبة واركبوه على المركبة الثانية التي له وساروا به إلى أورشليم فمات ودفن في قبور آبائه**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٥].

((**فأخذ شعب الأرض يهوآحاز بن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضاً عن أبيه. كان يهوآحاز بن ثلاث وعشرين سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر في أورشليم... فعمل الشر في عيني الرب.. وأسره فرعون نخو في ربلة في أرض حماة لئلا يملك في أورشليم... وملك فرعون نخو ألياقيم بن يوشيا عوضاً عن يوشيا أبيه... وغير اسمه إلى يهوياقيم وأخذ يهوآحاز وجاء به إلى مصر فمات هناك**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢٣] .

ولقد تم ذكر يهوآحاز في النص التالي :

((**وأخذ شعب الأرض يهوآحاز بن يوشيا وملكوه عوضاً عن أبيه في أورشليم. كان يهوآحاز بن ثلاث وعشرين سنة حين ملك وملك ثلاثة أشهر في أورشليم. وعزله ملك مصر في أورشليم.. وملك ملك مصر الياقيم أخاه على يهوذا وأورشليم وغير اسمه إلى يهوياقيم وأما يوآحاز فأخذه نخو وأتى به إلى مصر**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٦].

((**كان يهوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك. وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل آباؤه**)) [سفر الملوك الثانـي ـ الإصحاح ٢٣].

((**كان يهوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم وعمل الشر في عيني الرب إلهه .. عليه صعد نبوخذ ناصر ملك بابل وقيده بسلاسل نحاس ليذهب إلى بابل... وملك يهوياكين ابنه عوضاً عنه... كان يهوياكين بن ثماني سنين حين ملك وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام في أورشليم وعمل الشر في عيني الرب ..وعند رجوع السنة أرسل الملك نبوخذ ناصر فأتى به إلى بابل مع آنية بيت الرب الثمينة وملك صدقيا أخاه على يهوذا وأورشليم**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٦].

ولقد تم ذكر هذه القصة بتفصيل أكثر في النص التالي :

((**في أيامه صعد نبوخذ ناصر ملك بابل فكان له يهوياقيم عبداً ثلاث سنين ثم عاد فتمرد عليه... ثم اضطجع يهوياقيم مع آبائه وملك يهوياكين ابنه عوضاً عنه. ولم يعد أيضاً ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر كان يهوياكين بن ثماني عشرة سنة حين ملك. وملك ثلاثة أشهر في أورشليم... وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل أبوه.. في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذ ناصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار. وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها. فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه وأخذه ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه... وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف سبي وجميع الصناع والاقيان. لم يبقى أحد إلا مساكين شعب الأرض**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢٤] .

((**وملك ملك بابل متنيا عمه عوضاً عنه وغير اسمه إلى صدقيا... وعمل الشر في عيني الرب**

حسب كل ما عمل يهوياقيم لأنه لأجل غضب الرب على أورشليم وعلى يهوذا حتى طرحهم من أمام وجهه كان أن صدقيا تمرد على ملك بابل)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢٤].

ووردت هذه القصة في النص التالي :

((**وكان صدقيا ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم وعمل الشر في عيني الرب إلهه... وتمرد أيضاً على الملك نبوخذ ناصر...فاصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف في بيت مقدسهم... واحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم واحرقوا جميع قصورها بالنار..... وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٦].

وورد هذا الأمر بتفصيل أكبر فيما يلي :

((**في السنة التاسعة لملكه ... جاء نبوخذ ناصر ملك بابل وهو وكل جيشه على أورشليم... ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقيا... فثغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال... فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في برية أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه. فأخذوا الملك واصعدوه إلى ملك بابل وقتل بني صدقيا أمام عينه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاؤوا به إلى بابل.. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط. ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين... وأما الشعب الذي بقي في أرض يهوذا الذين أبقاهم نبوخذ ناصر ملك بابل فوكل عليه جدليا ابن اخيقام بن شافان .. ولما سمع جميع رؤساء الجيوش هم ورجالهم أن ملك بابل قد وكل عليهم جدليا أتوا إلى جدليا إلى المصفاة... وحلف جدليا لهم ولرجالهم وقال لهم لا تخافوا من عبيد الكلدانيين. اسكنوا الأرض وتعبدوا لملك بابل فيكون لكم خير**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢٥].

تعليق: يتضح مما أوردنا أنه بدأ الفساد ينتشر في أسباط الخير وأنه يقتصر على الحكام وذويهم فقط ولم يمتد إلى طبقات الشعب ولم يصل إلى حد الكفر فكان أن الله سلط عليهم من يردهم إلى حظيرة الإيمان بتأديبهم وكان هذا على مراحل مختلفة أولها دفعهم للجزية للآشوريين وتبعيتهم لهم، ثم ضربهم الضربة الأولى من قبل الكلدانيين وسبي بعضهم ثم ضربهم الضربة الكبرى من قبل الكلدانيين وتدمير مسجد سليمان وتدمير أسوار القدس وسبي القائمين على الحكم جميعاً وقتل من قاوم منهم مع إبقاء فلاحين وشعب الأرض وجميع رؤساء الجيوش ورجالهم وتعيين حاكم (محافظ) يتبع بابل اسمه جدليا طمأن السكان أنكم إن أخلصتم لملك بابل فلا خوف عليكم.

<u>ملاحظة</u>: لو جمعنا سنوات حكم ملوك أهل الخير من الكتاب المقدس لاختلفت مع ما جاء في كتاب التاريخ بحوالي ستٍ وعشرين سنة.

بحثنا في الكتاب المقدس لنرى ان كان هناك نصوص تشير لهذه الأمور وبأن ضرب سبطي الخير هو تأديب رباني فقط وليس أكثر ووجدنا ما يلي :

((**الكلمة التي صارت إلى ارميا من قبل الرب بعدما أرسله نبوزرادان رئيس الشرط إلى الرامة إذ أخذه وهو مقيد بالسلاسل من وسط سبي أورشليم ويهوذا الذين سبوا إلى بابل قال. ارجع إلى جدليا ابن اخيقام بن شافان الذي أقامه ملك بابل على مدن يهوذا وأقم عنده في وسط الشعب وأنطلق إلى حيث كان مستقيماً في عينيك أن تنطلق وأعطاه رئيس الشرط زاداً وهديه وأطلقه. فجاء ارميا إلى جدليا ابن اخيقام إلى المصفاة وأقام عنده في وسط الشعب الباقين في الأرض فلما سمع رؤساء الجيوش الذين في الحقل هم ورجالهم أن ملك بابل قد أقام جدليا ابن اخيقام على الأرض وأنه وكله على كل الرجال والنساء والأطفال وعلى فقراء الأرض الذين لم يسبوا إلى بابل أتى إلى جدليا هم ورجالهم فحلف لهم جدليا ابن اخيقام بن شافان ولرجالهم قائلاً لا تخافوا من أن تخدموا الكلدانيين ... اسكنوا في الأرض واخدموا ملك بابل فيحسن إليكم**)) [سفر ارميا ـ الإصحاح الأربعون].

إن هذا النص يدل على إلغاء الدولة في القدس واعتبارها محافظة بابلية مع سلامة من بقي فيها تحت حكم محافظ عيَّنه ملك بابل اسمه جدليا.
كما وجدنا النص التالي الذي يؤكد هذا المعنى :

((**هكذا كلام الرسالة التي أرسلها ارميا النبي من أورشليم إلى بقية شيوخ السبي وإلى الكهنة والأنبياء وإلى كل الشعب الذين سباهم نبوخذ ناصر من أورشليم إلى بابل... قال رب الجنود اله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها ... وأكثروا هناك ولا تقلوا واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام... لأنه هكذا قال الرب. أني عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردكم إلى هذا الموضع... يقول الرب وارد سبيكم وأجمعكم من كل الأمم ومن كل المواضع التي طردتكم إليها**)) [سفر ارميا ـ الإصحاح ٢٩] .

هذا كلام الله لنبيه الذي أرسله للأسرى جميعاً يحثهم فيه على العمل والزراعة والزواج والتكاثر والحفاظ على المدينة التي تأسرهم ، ويذكر نصاً أن سبيهم هذا من الله وان الله تعالى تعهد بردهم بعد سبعين عاماً لحكمة عنده تعالى إذ أنه خلال تلك الفترة الزمنية يموت السيئ منهم أو يتعود على البعد عن الأرض المقدسة ولا يعود إليها إذا أُعطي الخيار بذلك. في حين أن طرد الأسباط العشرة من السامرة أبدي حسب النصوص التي تقول: (وسبي إسرائيل إلى هذا اليوم)، أما سبي قيادة يهوذا فإن النص التالي يبين وصف الله لهم بعد عودتهم حيث جاء :

((**كهذا التين الجيد هكذا أنظر إلى سبي يهوذا الذي أرسلته من هذا الموضع إلى أرض الكلدانيين للخير واجعل عيني عليهم للخير وأرجعهم إلى هذه الأرض وابنيهم ولا أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلباً ليعرفوني أني أنا الرب .. فيكونوا لي شعباً وأنا أكون لهم إلها لأنهم يرجعون إلي بكل قلبهم**)) [سفر ارميا ـ الإصحاح ٢٤].
هل هناك رعاية لشعب أكبر من هذه الرعاية الربانية فالله هو الذي أرسلهم إلى بابل لتمحيصهم وتنقيتهم من الأخطاء، ويجعل الله عينه عليهم ويعيدهم إلى الأرض المقدسة ويبنيهم البناء الإيماني الصحيح، ويغرسهم في الأرض المقدسة ولا يقلعهم بعد ذلك. وهذا النص يعني أنهم لن يغادروا الأرض وإن غادروها فلهم إليها عودة.
فهل هناك تأديب رباني أعظم من هذا التأديب وهل هناك رعاية أعظم من هذه الرعاية ، ومما يثبت هذا الكلام وهذه الرعاية ما قدمه ملك بابل أويل مردوخ للملك الأسير، وهذا الحدث وما يليه من أحداث مع هؤلاء الأسرى التي سنورد كلاً منها في موقعه المناسب، تثبت رعاية الله العملية لهؤلاء الناس ولدينهم وللحفاظ عليهم وأما ما يخص الملك الأسير فقد ورد فيه النص التالي:

((**وفي السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكين ملك يهوذا رفع أويل مردوخ ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن وكلمه بخير وجعل كرسيه فوق كراسي الملوك الذين معه في بابل وغير ثياب سجنه وكان يأكل دائماً الخبز أمامه كل أيام حياته**)) [سفر الملوك الثاني ـ الإصحاح ٢٥].

إلى كل من يؤمن بالعهد القديم والعهد الجديد ، هل تعلمون هذا الكلام وما مدى رعاية الله لهذا الشعب الخير سليل الأنبياء.

عودة بنا إلى كتاب التاريخ وكيف يفسر ما أوردنا من الكتاب المقدس:
خلف (سنحريب) (سين آخي ريبا) (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م) أباه سرجون الثاني وقد أرجع مركز المملكة إلى المدينة المقدسة نينوى فجدد أبنيتها وجعلها مركز الإمبراطورية.

ولقد سار سنحريب على منهج الملوك الآشوريين في إعادة إخضاع الأقاليم التابعة للإمبراطورية ، وبنى في طرطوس مدينة آشورية ليحكم منها مستعمراته الجديدة وكذلك أعاد فتح المدن الفينيقية والسورية ومملكة يهوذا حيث أبدت في أوائل حكمه بوادر العصيان (٣٢٩ ـ٣٣٠).

وكانت مصر وبابل تحرضان ولايات سوريا وفلسطين على التخلص من الحكم الآشوري حتى تشغل الآشوريين عنها فتوجه سنحريب إلى بابل حيث قام بدك حصونها وخربها وعين ابنه أسرحدون حاكماً على جنوب العراق. ثم توجه إلى الولايات السورية وفلسطين حيث استولى على مدنها ثم حاصر مدينة بيت المقدس وأخضعها واضطر ملكها (حزقيا) إلى دفع ضريبة ضخمة كان من جرائها أن جردت المعابد من كنوزها (ص٣٣٠).

اسرحدون ـ آشور أخادين (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق.م) :

تولى العرش خلفاً لوالده وقد وجه اهتمامه للانتقام من مصر لتدخلها في شؤون مستعمراته في سوريا وفلسطين (ص٣٣٠) ، وبعد ذلك وجه أسر حدون اهتمامه للقضاء على الحلف الذي تكون بتحريض من مصر ولقد تمكن من الاستيلاء على صيدا عام (٦٧٧ق.م) حيث أباد المدينة وسبى أهلها ولما رأى ملك صور ما حل بمدينة صيداً فإنه أعلن ولاءه للعاهل الآشوري (ص٣٣١) .

ثم وجه أسرحدون جهوده للانتقام من مصر لتدخلها المستمر في شؤون سوريا وفلسطين ولقد استعد الملك طهراقا لمقابلتهم ولقد خرج أسر حدون في عام (٦٧٥ ق.م) متوجها نحو مصر حيث تمكن من الوصول إلى شرق الدلتا ، ولكن المصريين استماتوا في الدفاع حتى تمكنوا من هزيمة الآشوريين وردهم عنها (ص٣٣١) .

وبعد أن تم تأمين حدود بلاده أسرع بالعودة إلى مصر حيث تمكن من دخول منف في صيف عام (٦٧١ ق.م) واضطر طهراقا إلى الهرب إلى الجنوب ، وبعد أن نظم الإدارة في الأقاليم وثبت بعض الحكام في أماكنهم واستبدل بعضهم بغيرهم من الوطنيين عاد إلى بلاده وبمجرد عودته بدأ المصريون في الثورة ضد الحكم الآشوري ، وحالت وفاة (أسر حدون) المفاجئة دون العودة لقمع الثورة المصرية فوقع عبؤها على خليفته (آشور بانيبال) .

ويخلف **آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م)** أباه على العرش . ولم يكد يجلس على العرش حتى وصلته أنباء ثورة المصريين ضد الآشوريين فجهز حملة كبيرة سارت إلى مصر ودخلت العاصمة المصرية طيبة وخربتها، ولم يبق الآشوريون بمصر طويلاً واكتفوا بأخذ الجزية واضطر آشور بانيبال إلى إرسال حملة أخرى إلى مصر نتيجة لحدوث ثورة أخرى فيها فدخل الجيش الآشوري طيبة مرة أخرى (ص٣٣٢ ـ ٣٣٣) .

آشور ـ اتل ـ إيلاني (٦٢٦ـ ٦٢١ ق.م) :

خلف والده على عرش آشور وقد قضى سني حكمه يدافع عن عرشه حتى تمكن أخوه الأصغر من إقصائه عن العرش واستأثر به لنفسه مدة (٦٢٠ـ٦١٢ ق.م) .

وقد أثرت هذه الحروب الداخلية على سمعة الدولة الآشورية فانفصلت كثيراً من ولاياتها عنها فانفصلت مصر وكثيراً من المدن الساحلية في فلسطين وسوريا وأرمينيا ، وفي بابل تكونت أسرة جديدة تعرف باسم الأسرة البابلية الأخيرة.

واستطاع الملك الميدي وبعد أن اتفق مع ملك بابل هاجما العاصمة الآشورية نينوى وسقطت في أيديهما بعد حروب عنيفة واقتسما مملكة آشور ، حيث استولى الميديون على قسمها الشمالي الشرقي واستولى البابليون على جنوبها. ودخل العراق القديم في آخر مراحله السياسية وهو الذي يعرف باسم (العهد البابلي الأخير) أو (المملكة الكلدانية) (ص٣٣٤).

كان يحكم بابل الأمير الكلداني (نبوبولاسر ٦٢٦ـ ٦٠٥ ق.م) وقد تزعم الثورة ضد الآشوريين فأعلن نفسه ملكاً على بابل (ص٣٣٧).

استمرت الحرب ضد الآشوريين أحد عشر عاماً تمكن بعدها من الاستيلاء على نيبور وفي ذلك الوقت كان الميديون قد بدأوا غزو الأراضي الآشورية ، فتحالف نبوبولاسر مع الملك الميدي ودعم هذا التحالف بزواج نبوخذ نصر ابن نبو بولاسر من ابنة الملك الميدي. وساعد هذا التحالف على سقوط آشور

ويبدو أن الميديين لم يهتموا بأملاك آشور فقنعوا بنصيبهم من الغنائم ثم حولوا أطماعهم إلى أرمينيا وآسيا الصغرى وأما البابليون فقد امتلكوا آشور (٣٣٨) .

تعليق: كانت دولة الآشوريين دولة كفر لذلك فإنها حسب سنن رب العالمين لن تعيش إلا جيلاً واحداً فقط بمقياس الزمن الذي عاشته ومن ثم فان الله تعالى يعاقبها سواء بالمؤمنين أو بكافرين ولقد كان انهيار آشور عقاباً ربانياً لهم على كفرهم وعلى عدوانهم على السكان في القدس وظهر هذا في النص التالي :

((**وأجعلك عبرة ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى من يرثي لها. من أين أطلب لك معزين... هوذا شعبك نساء في وسطك. تنفتح لأعدائك أبواب أرضك تأكل النار مغاليقك . استقي لنفسك ماءً للحصار. اصلحي قلاعك ادخلي في الطين ودوسي في الملاط... نعست رعاتك يا ملك آشور . اضطجعت عظماؤك تشتت شعبك على الجبال لا من يجمع. ليس جبر لانكسارك. جرحك عديم الشفاء. كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام**)) [سفر ناحوم ـ الإصحاح الثالث] .

هذا النص يشهد بأن آشور كانت دولة شر على الدوام وبأن دمارها عقوبة لها وبأنه لن تقوم لها قائمة أبداً بعد ذلك وقد كان .

عودة إلى التاريخ وما ذكره بعد الآشوريين : (دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم).

من أهم الأحداث السياسية في عهد نبو بولاسر بعد تخلصه من آشور هي تلك الحملة التي أرسلها بقيادة ابنه (نبوخذ نصر) لاسترجاع سوريا وفلسطين من النفوذ المصري (٣٣٨).
فلقد تحرك الملك المصري (نخاو الثاني) لنجدة الملك الآشوري وفي طريقه هزم الجيش اليهودي وذلك في موقعة عند (مجدو) ، وبعد ذلك تمكن من فرض نفوذه على فينيقيا وسورية وبلاد العرب الشمالية وأدوم. وبعد ذلك بعامين وبعد أن وطد نبو بولاسر نفوذه أرسل ابنه (نبوخذ نصر) على رأس جيش لاستعادة النفوذ الآشوري في سوريا وفلسطين حيث قابل الملك المصري عند قرقميش واضطر نخاو الثاني إلى الانسحاب إلى العريش بعد هزيمته أمام نبوخذ نصر.

نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ ـ٥٦٢ ق.م):

ولقد خدمت الظروف نبوخذ نصر وذلك لأنه كان لا يخشى جانب الميديين فقد كانوا أصهاره وبالنسبة لمصر فقد رأيناه في أواخر عهد والده ينهي حربه معها بمعاهدة استعادت بابل بموجبها أملاك آشور من الناحية الغربية (ص٣٣٩) .
وما لبثت الأمور أن تطورت في فلسطين عندما رفضت ولاية يهودا أداء الجزية لنبوخذ نصر مما حدا بالملك البابلي إلى محاصرة يهودا حتى اضطر الملك اليهودي إلى التسليم مع أمه وزوجاته وكل أهل بيته حيث نقلوا إلى المنفى وكان ذلك في عام (٥٩٧ق.م) .

وتعتبر هذه أول عبودية كبيرة لمملكة يهوذا لإبعاد الرؤساء والحرفيين وكان من بينهم النبي الكاهن (حزقيا) ونهب المعبد جزئياً وبقي الملك اليهودي أسيراً في بابل، وعين نبوخذ نصر أخاه مكانه وكان اسمه (متانيا) وغير نبوخذ نصر اسمه إلى (صدقيا) وجعله يقسم على أن يكون حليفه وقد بقي صدقيا مخلصاً لفترة ما (ص٣٣٩) .

ثم يعمل للتخلص من الحكم البابلي وفي ذلك الوقت كانت مصر في عهد بسماتيك الثاني تعمل على استعادة نفوذها في فلسطين واستمر الحال في عهد خلفه (أبريس) وهو الأمر الذي شجع بعض حكام فلسطين بزعامة صدقيا على مناوءة الحكم البابلي (ص٣٤٠) .

واضطرت الأحوال نبوخذ نصر إلى القيام على رأس جيش لإخماد هذه القلاقل حيث حاصر أورشليم وحاول صدقيا الهرب بجيشه عبر الأردن ولكن محاولته فشلت وتمكن جنود نبوخذ نصر من أسره حيث أحضر أمام العاهل البابلي وذبح أبناؤه أمامه ثم سُمِلت عيناه وحمل بعد ذلك أسيراً إلى بابل

وبعد ذلك دمرت أورشليم فهدم معبدها والقصر والمباني الهامة وأشعلت النار في المدينة وأبعد خدم المعبد وجمع الأسرى استعداداً لترحيلهم عن المدينة (ص٣٤٠) .

توفي نبوخذ نصر وخلفه على العرش ابنه (أوبل مردوك) (٥٦٢ ـ٥٦٠ ق.م).

وجاء مكانه على العرش صهره نرجال شار أوصر (٥٥٩ ـ ٥٥٦ ق.م)، ولما مات خلفه ابنه الصغير الذي لم يحكم سوى أسابيع قليلة حيث تدخل الكهنة وأبعدوه عن الحكم بعد أن ذبحوه وعينوا مكانه أحد أبناء طائفتهم ويدعي نبونيد.

ويمثل عهد نبونيد (٥٥٦ ـ ٥٣٩ ق.م) خاتمة المطاف لسيادة بابل في التاريخ ولقد جاءت نهاية بابل على يد الملك (كوروش) الفارسي الذي تمكن من دخول بابل عام (٥٣٩ ق.م) حيث استقبلته جميع الطبقات وبخاصة الكهنة والنبلاء واعتبروه محرراً لهم.

التحليل : لقد انحرف بعض أسباط الخير عن الحق وصار إليهم الحكم في يهودا فأكمل الله وعده أن سلط عليهم نبوخذ نصر فحاصر القدس مرتين وسبى أهل الكفر وشردهم إلى بابل ، وكان هذا إكمالاً لأمر الله بتشتيتهم في الأرض لأن أهل الفساد لا ينبغي أن يسكنوا هذه الأرض المباركة الطاهرة وأصبحت فلسطين مقاطعة تحت الحكم البابلي بمن بقي من أهل الخير من بني إسرائيل.

وكان الذين بقوا من أهل الخير من بني إسرائيل في فلسطين غير المهتمين لا بسياسة أو بحكم بل اهتموا بدين الله وبعملهم لكسب قوتهم اليومي وقوت أولادهم أي أصبحوا سكاناً هادئين يعرفون الله لا علاقة لهم بحاكم أو حكم ويعيشون في ظل دولة غيرهم على أرض مقدسة.

ولقد أخبرنا ((الكتاب المقدس)) بحالهم بعد عودتهم من السبي بما أوردنا سابقاً ، حيث جاء :

((**هكذا أنظر إلى سبي يهوذا الذي أرسلته من هذا الموضع إلى أرض الكلدانيين للخير... وأعطيهم قلباً ليعرفوني أني أنا الرب فيكونوا لي شعباً وأنا أكون لهم إلها لأنهم يرجعون إلي بكل قلبهم**)) [سفر ارميا ـ الإصحاح ٢٤] .

كما وردت نصوص أخرى تصف حالهم بما يلي : ((**في ذلك اليوم لا تخزين من كل أعمالك التي تعديت بها عليّ..... لأني حينئذ أنزع من وسطك مبتهجي كبريائك ولن تعودي بعد إلى التكبر في جبل قدسي وأبقي في وسطك شعباً بائساً ومسكيناً فيتوكلون على اسم الرب، بقية إسرائيل لا يفعلون إثماً ولا يتكلمون بالكذب ولا يوجد في أفواههم لسان غش لأنهم يرعون ويربضون ولا مخيف.**
ترنمي يا ابنة صهيون اهتف يا إسرائيل افرحي وابتهجي بكل قلبك يا ابنة أورشليم. قد نزع الرب الأقضية عليك أزال عدوك. ملك إسرائيل الرب في وسطك لا تنظرين بعد شراً ... أجمع المحزونين على الموسم....وأجمع المنفية واجعلهم تسبيحة واسماً في كل أرض خزيهم. في الوقت الذي آتي بكم وفي وقت جمعي إياكم. لأني أصير إسماً وتسبيحة في شعوب الأرض كلها حين أرد مسبييكم قدام أعينكم قال الرب)) [سفر صفنيا ـ الإصحاح الثالث] .

هل هناك أفضل من هذا التمحيص إذ يزيل الرب من بينهم كل متكبر ويبقي المساكين الطيبين ويرفع شأنهم حتى في البلد الذي أسرهم وقد كان وأنهم لن يروا شرا بعد ذلك إذ يعيشون في أمان وفي أرضهم وما تمحيصهم وتعرضهم لعدوان بين وقت وآخر إلا تأديباً ربانياً لهم من جراء ما يصيبهم وفق قول الله لهم: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران:١١١] .

وأما بالنسبة لأصل هؤلاء الأسرى فقد ورد النص التالي :

((**لأن رب الجنود قد تعهد قطيعة بيت يهوذا وجعلهم كفرس جلاله في القتال... وأقوي بيت يهوذا واخلص بيت يوسف وأرجعهم لأني قد رحمتهم ويكونون كأني لم أرفضهم لأني أنا الرب إلههم فأجيبهم ويكون افرايم كجبار ويفرح قلبهم**)) [سفر زكريا ـ الإصحاح العاشر] .

هذا النص يثبت أن أحفاد يوسف هم سكان القدس وما حولها وكذلك فان افرايم هو سبط يوسف (أحد عائلتي يوسف وهم افرايم ومنسى) وتقويتهم تكون أولاً بإبقائهم على الإيمان بالله. وبذلك يثبت أيضاً أن يهوذا اسم منطقة القدس، وليس اسم سبط يسكنها.
هذا العدد من بني إسرائيل يرعاه الله بإرسال الأنبياء تباعاً للمحافظة على مسيرة التوحيد من الانحراف، وهذا عهد على الله التزم به ونفذه رب العزة كما مر معنا ، وهو أن يرسل الله الرسل كلما دعت الحاجة إلى تقويم الأوضاع الدينية وإعادتها إلى صوابها.

ورغم انتشار المعرفة والكتابة والتدوين، إلا أن رجال التدوين لم يسجلوا لنا تواريخ إرسال أنبياء الله أمثال أيوب ويونس وإلياس واليسع وذي الكفل وغيرهم وانشغلوا في تدوين تاريخ الملوك والحروب وقد كانت من الدقة بحيث شملت عدد الجند أحياناً ورغم ذلك فإنها لم تشمل أنبياء الله تعالى.

وكان النبي أو من بعده من صحابته الموجه والقائد الروحي لبني إسرائيل في فلسطين، فهو وريث كتاب الله الأمين على منهج الله الصحيح يورثه لمن بعده خوفاً عليه من التحريف والتزييف حيث يعيشون تحت حكم وثني ويمكن لأهل السوء منهم أن يستغلوا أهل الوثنية للقضاء على الخيرين منهم.

ورد في كتاب التاريخ أن اليهود في المنفى وهم أهل السوء والكفر لم يحملوا معهم كتاب الله حيث أنه في القدس يتوارثه أنبياء الله وصحابتهم، فأخذ أحبار أهل الكفر من بني إسرائيل المطرودين بكتابة التوراة بلغتهم الشخصية.

ملاحظة: التوراة نزلت من الله وبلغة الله مكتوبة على الألواح كما تثبت آيات الله البينات.

صار أهل الكفر يكتبون بلغتهم ما يتذكرون من التوراة ويضيفون من عندهم ما يرغبون بإضافته خدمة لأهداف دينية أو دنيوية أو سياسية أو اقتصادية.

ألا يستحق أهل الكفر هؤلاء أن ينفوا من الأرض المباركة وأن ينزل الله بهم غضبه ولعنته؟

إن من يقرأ ما حل بهم ليدرك أن الله تعالى غضب عليهم وأخرجهم من رحمته لأنهم أسوأ من فرعون وأسوأ من المشركين.

إن من يطلع على ما جاء في التاريخ من أن (تجلات بلاسر الثالث) فتح الشام ونفى أهلها عام (٧٣٢ ق.م)، ثم تلاه (سرجون الثاني) وفتح السامرة عاصمة دويلة إسرائيل عام (٧٢٢ ق.م) ونفى أهلها، وأن (نبوخذ نصر) فتح القدس عام (٥٩٧ ق.م) ونفى بعض أهلها وأن هؤلاء الملوك فتحوا عشرات المدن في كل دول المنطقة وهي مصر ولبنان (فينيقية) وسوريا وتركيا وقبرص واليونان وأرمينيا وشمال الجزيرة العربية لم يخرجوا منها أحداً ولم يشردوا أهلها، ألا يدل هذا على أن قرار طرد أهل الكفر من بني إسرائيل من فلسطين هو قرار رباني نفذه عباد الله ذوو البأس الشديد كما وصفتهم كتب التاريخ وصادق على ذلك كتاب الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الإسراء:١٠٤].
صار الأمر بعد ذلك إلى ما يسمى دويلة يهودا حيث يقطنها أهل الخير.

قلنا إن يهودا سادها من فسد من أهل الخير وصار الحكم إلى فساد فسلط الله (نبوخذ نصر) واقتلع منها طبقات وفئات معينة كاملة ونفاهم إلى بابل.

وقد يكون من هؤلاء المنفيين من هو صالح، وذلك لأن نبوخذ نصر أصدر أمراً باقتلاع فئات معينة وقام جنده بالتنفيذ دون بحث عمن يكون خيراً ممن يكون سيئاً لأنهم أهل وثنية ولا يهمهم مسلم من غير مسلم من بني إسرائيل. لذا فإن هذه الدفعة ممن شردوا حوت أو يحتمل ذلك بعض من ظلموا وشردوا وهم أهل خير ومسلمون فهل يرعاهم الله تعالى ويعيدهم للأرض المقدسة أم يبقون مع من طرد من أهل الكفر؟

عودة إلى الكتاب المقدس لنرى ما هي المراحل التنفيذية التي ذكرت حول عودة أسرى بابل إلى القدس، وما الأمور التي تمت بالتسلسل الزمني لعودتهم وماذا ذكر الكتاب المقدس في ذلك:

((**وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس.... فأطلق نداءً في كل مملكته وكذلك بالكتابة قائلاً هكذا قال كورش ملك فارس... أن الرب اله السماء قد أعطاني جميع ممالك الأرض وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا من منكم من جميع شعبه الرب إلهه معه وليصعد**)) [سفر أخبار الأيام الثاني - الإصحاح ٣٦] .

وكذلك فقد وردت النصوص التالية :

((**وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم ارميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداءً في كل مملكته وبالكتابة أيضاً قائلاً هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب اله السماء وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا...والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التي أخرجها نبوخذ ناصر من أورشليم وجعلها في بيت آلهته... الكل اصعده شيشبصر عند إصعاد السبي من بابل إلى أورشليم**)) [سفر عزرا - الإصحاح الأول] .

ملاحظة :

جاء في كل من النصين السابقين جملة (أورشليم التي في يهوذا) وهذا يعني أن يهوذا هو اسم منطقة القدس و ليس اسم سبط يسكن فيها.

وجاء أيضاً:

((**نحن عبيد اله السماء والأرض ونبني هذا البيت الذي بني قبل هذه السنين الكثيرة وقد بناه ملك عظيم لإسرائيل وأكمله..... ولكن بعد أن اسخط آباؤنا اله السماء دفعهم ليد نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني الذي هدم هذا البيت وسبي الشعب إلى بابل..... على أنه في السنة الأولى لكورش ملك فارس أصدر كورش الملك أمراً ببناء بيت الله هذا حتى أن آنية بيت الله هذا التي من ذهب وفضه التي أخرجها نبوخذ نصر من الهيكل الذي في أورشليم وأتى بها إلى الهيكل الذي في بابل أخرجها كورش الملك من الهيكل الذي في بابل وأعطيت لواحد اسمه شيشبصر الذي جعله والياً... وقال له خذ هذه الآنية واذهب واحملها إلى الهيكل الذي في أورشليم وليبن بيت الله في مكانه**)) [سفر عزرا ـ الإصحاح الخامس] .

يلاحظ أن شيشبصر عين والياً في القدس وبذلك تكون الأرض المقدسة محافظة فارسية كما يذكر النص وأن هؤلاء السكان محبوبون من قبل الملك كورش الذي أمر ببناء بيت الله وأعاد أواني البيت الخاصة به.

كذلك فإنهم كانوا محبوبين من قبل الملك الفارسي التالي حيث كانت هناك عوائق لبناء البيت وأصدر الملك التالي أمراً بإتمام بناء البيت وهو الملك داريوس وجاء ذلك في النص التالي :

((**حينئذ أمر داريوس الملك....وقد صدر مني أمر أن كل إنسان يغير هذا الكلام تسحب خشبة من بيته ويعلق مصلوباً عليها... والله الذي اسكن اسمه هناك يهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو لهدم بيت الله هذا الذي في أورشليم... أنا داريوس قد أمرت فليفعل عاجلاً... وكمل هذا البيت في اليوم الثالث من شهر آذار في السنة السادسة من ملك داريوس الملك**)) [سفر عزرا ـ الإصحاح السادس] .

وقد تم إعادة من أراد العودة إلى الأرض المقدسة ممن سبي من أهلها بعد أن مات كافرهم ومتكبرهم وبعد أن محصهم الله ببعدهم فترة من الزمن فانفصل عديم الإيمان منهم قلبياً عن الأرض المقدسة وبقي في الخارج حيث ولد ونشأ واعتاد وأما من ملأ الإيمان قلبه فيظل قلبه معلقاً بالله والأرض المقدسة وسيعود بشوق مهما طال زمن بعده عنها ، وكان من ضمن من عاد على رأس وفد العزير نبي الله ، الذي كان من بين الأسرى ولقد ورد ذكر عودته وبتكليف رسمي من ملك فارس في الكتاب المقدس في النص التالي :

((**وبعد هذه الأمور في ملك ارتحشستا ملك فارس عزرا بن سرايا بن عزريا...هذا صعد من بابل وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب اله إسرائيل... وهذه صورة الرسالة التي أعطاها الملك ارتحشستا لعزرا الكاهن الكاتب. من ارتحشستا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة اله السماء الكامل إلى آخره. قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل وكهنة اللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع... أما أنت يا عزرا فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضع حكاماً وقضاة يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك والذين لا يعرفون فعلموهم**)) [سفر عزرا ـ الإصحاح السابع] .

إن فحوى الرسالة يدل على أن ملك فارس يصدق بعظمة اله بني إسرائيل رغم أنه لم يتبعه وربما يكون هذا عظة من تدمير آشور وتدمير بابل كعقوبة ربانية على من يعتدي على بيت الله وعلى شعب الله وأن فلسطين كانت تحكم بشرع الله. وأن لدى ملوك فارس إحساس بأن هذا شعب مبارك حيث عظم شانهم بين الأمم في تلك الفترة الزمنية حيث ورد هذا في النص التالي:

((**عندما رد الرب سبي صهيون صرنا مثل الحالمين. حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكاً وألسنتنا ترنماً. حينئذ قالوا بين الأمم أن الرب قد عظم العمل مع هؤلاء**)) [سفر مزامير ـ المزمور ١٢٦].
هذه هي البركة الإلهية التي أودعها الله في سلالة الأنبياء وهي متصلة مع الزمن ويلحظها كل من لديه حاسة إيمانية ويكن الاحترام لهذا الشعب الخير المبارك وأما الكفار فيحسدونهم على ذلك ويكرهونهم لذلك.

عودة بنا إلى كتاب التاريخ : ((**دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**)) وكيف يفسر ما اوردنا من الكتاب المقدس .

كوروش الأكبر (٥٥٩ ـ ٥٣٠ ق.م) :

عندما تولى الفرس كانوا خاضعين للميديين وكان في مملكة صغيرة تدعى أنشان حارب كوروش الميديين وانتصر عليهم فاختار العاصمة الميدية لتكون عاصمة له (ص٥٠٢).

في عام (٥٤٧ ق.م) اتجه غرباً حيث دار قتال مع ملك ليديا الذي اضطر إلى التحصن في عاصمته التي حاصرها كوروش ثم استولى عليها (ص٥٠٣) .

وتمكن كوروش بعد هزيمة ملك ليديا من مد نفوذه نحو سورية بدون تعب ومن الغريب أن ولي العهد البابلي لم يقم بأي مجهود لحماية المناطق الشمالية أثناء انشغال والده (نبونيد) في الصحراء العربية وبهذه الطريقة انسلخت سورية وفلسطين من الإمبراطورية البابلية دون قتال (ص٥٠٤) .

ولقد دخل كوروش بابل في (٥٣٩ ق.م) بدون قتال وعين عليها استرابا جديداً ومما هو جدير بالذكر أنه عندما دخل كوروش بابل كان بها جالية يهودية هي التي أسرها (نبوخذ نصر)، وليس من شك في أن هؤلاء اليهود قد أعانوا الفرس على فتح بابل ومن أجل ذلك كافأهم كوروش بإعادتهم مرة ثانية إلى فلسطين (ص٥٠٥) .

ومن كتاب ((**تاريخ فلسطين القديم**)) ما يلي : (فبعد أن انتصر الإمبراطور الإيراني قورش كان من أول أحكامه إعادة يهودا لليهود وبناء الهيكل ولكن قليلين من هؤلاء انتهزوا فرصة هذه الإجازة والدولة اليهودية التي قامت الآن كانت داخل حدود يهودا وكان كثير من اليهود السبايا قد أعجبتهم البلاد الجديدة ، ولكن قلة متشددة منهم هي التي عارضت الاندماج وبذلك نجت إسرائيل من الاندثار).

وقد ذكر جوز يفوس أن الراجعين من اليهود كان عددهم (٤٢,٠٠٠) ، ويعلق على ذلك (مارلوا): (لابد أن هذا العدد كان يمثل أقلية بالنسبة إلى العدد الحقيقي في بابل وأما هؤلاء العائدون هم الذين فشلوا في الحصول على موطئ قدم في تلك البلاد الجديدة (ص٦٤) .

وانتهز اليهود الفرصة بسبب تفشي الحروب الداخلية والثورات فطالبوا ببناء الهيكل (الثاني) وسمح لهم الإمبراطور بذلك فاكتمل في مارس سنة (٥١٥ ق.م) ، ولكن اليهود كانوا في هذه الأثناء قد أثاروا شك السلطات الإيرانية لذلك عارضت أي جهد لتحسين مركز اليهود ، وكان الذين يحكمون يهودا هم كبار الكهنة الذين صكوا بأسمائهم نقوداً (ص٦٧) .

عودة بنا الآن إلى كتاب ((**دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**)) : ترك كوروش على بابل ولده (قمبيز) وشملت ولاية بابل سورية وفينيقية وفلسطين كما عهد لابنه بتجهيز حملة على مصر. (ص٥٠٥) .

قمبيز (٥٣٠- ٥٢٢ ق.م) :

بعد تهدئة الأمور في الداخل خرج على رأس جيش متجهاً إلى مصر التي تمكن من دخولها.

دارا الأول (٥٢٢-٤٨٦ ق.م) :

قضى أول عامين من الحكم للقضاء على الاضطرابات ، وجاء بنفسه إلى مصر حيث قتل الوالي الفارسي وعين آخر مكانه وأدخل بعض الإصلاحات الإدارية في مصر(ص٥٠٧) .

كركسيس الأول (٤٨٥ ـ٤٦٤ ق.م) :

وفور توليه العرش عمل على إخماد ثورة المصريين ولقد استعمل في إخمادها الكثير من أساليب العنف والقسوة ونفس الشيء استخدمه في إخماد ثورة بابل. (ص٥٠٩) . وبعد ذلك عمل على الانتقام من اليونانيين فجهز حملة ضخمة ضدهم بقيادته واستسلمت بعض المدن اليونانية واستمر في تقدمه حتى استولى على أثينا.

ومن كتاب ((**تاريخ فلسطين القديم**)):

وبعد داريوس خلفه ابنه زيركسيس الذي استمر في حكمه انتعاش الاستيطان اليهودي ولكن المستوطنين كانوا يعتمدون حتى الآن إلى حد كبير على مساعدة يهود بابل. ونجوا من الذوبان على الأقل في مناسبتين في عهد زيركسيس بمجيء وفدين من يهود بابل وكان رئيس الوفد الأول هو (عزرا) الذي أصبح رئيس الكهنة بالهيكل وكان نحميا هو رئيس الوفد الثاني (ص٦٧) .

ارتاكسركسيس الأول (٤٦٤ ـ٤٢٤ ق.م) :

قام المصريون بالثورة ضد الحكم الفارسي فما كان منه إلا أن أرسل العديد من الحملات التي تمكنت من إخماد ثورة المصريين ولكن إلى حين . (ص٥١٠) .

دارا الثاني (٤٢٤ ـ٤٠٤ ق.م) :

خلف والده واستطاع أن يستعيد بعض المدن اليونانية ويفرض عليها قبول حاميات فارسية وقد ثار في عهده ميديا ومصر ولم يستطع أن يقوم بخطوة حاسمة حيث وافته المنية في بابل . (ص٥١١).

ارتا كسركسيس الثاني (٤٠٤ ـ ٣٥٨ ق.م) :

تمكن بما قدمه من رشاوى أن يخضع لسيطرته أيونيا وأثينا وأسبرطة وأن يضعف قوى جميع المدن اليونانية.

شاعت روح الثورة في الأقاليم الغربية فثارت قبرص وفينيقية وسورية وأعلنت استقلالها وتزعمت مصر الحركة فتحالفت مع الولاة الخارجين على الحكم الفارسي وكان ذلك في عهد الفرعون (جدحر) ثاني ملوك الأسرة الثلاثين.

يلاحظ بأن الكاتب يلقب ملك مصر بالفرعون من عنده .

وصلت الجيوش المصرية حتى الفرات ولكن للاضطرابات الداخلية في مصر اضطر على أثرها (جدحر) إلى العودة مما عرض الحلف إلى الانهيار .

يلاحظ كثرة ورود جملة اضطرابات داخلية وهي مخرج واسع للكاتب عندما لا يجد مخرجاً من مأزق يقع فيه والأجدر به أن يكتب الصواب في أي اتجاه كان هذا الصواب وهذه هي الأمانة التي حملها الإنسان .

ارتاكسر كسيس الثالث (٣٥٨ ـ ٣٣٨ ق.م) :

أخذ الولايات الثائرة بالشدة والعنف فاحرق صيدا وتمكن من الاستيلاء على مصر فهدم الأسوار ونهب المعابد وقد مات نتيجة دس السم له.

ومن كتاب ((**تاريخ فلسطين القديم**)) ما يلي :

وتعرضت بعض أجزاء فلسطين للتدمير سنة (٣٤٣ق.م) حين حاول (ارتاكسركسيس) الثالث غزو مصر وكان اليهود قد فقدوا عطف الفرس في عهده واحتل الجنرال الفارسي (باجوسيس) القدس ونجس

الهيكل (ص ٦٨) .

عودة إلى كتاب ((**دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**)) :

خلفه على العرش ابنه (أرسس) الذي لم يجلس على العرش سوى عامين حيث مات مقتولاً بواسطة السم أيضاً وخلفه على العرش ابنه (داريوس) وذلك في نفس العام الذي تقلد فيه الإسكندر المقدوني في اليونان فبدأ فتوحاته بنفس شابة في الوقت الذي كانت تذبل فيه الإمبراطورية الفارسية.
لم يصمد الفرس طويلاً أمام الإسكندر المقدوني الذي بدأ غزوه لفارس عام (٣٣١ ق.م) واقتضى إخضاعها ثلاث سنوات حيث سيطر عليها كلها وبذلك أصبحت ضمن أملاك السلوقيين (ص٥١٢) .

تعليق : يلاحظ أن فلسطين بسكانها من أهل الخير من بني إسرائيل لم يعرفوا الثورات في عهد الحكم الفارسي الذي حكم مصر كذلك، وما دام قد حكم مصر فهذا يعني أن فلسطين تحت الحكم أيضاً لأنها ممر في الطريق إلى مصر من فارس وكانت هادئة وادعة أي أن سكانها كما يقول المثل (حالهم لبالهم) لا يهتمون بمن يحكم ، إنهم أناس يعيشون لدينهم ولا يعنيهم من هذه الدنيا إلا ما يحافظ على استمرار حياتهم لدينهم فقط.

ولم يوجد في عهد الحكم الفارسي كله ما يعكر صفو فلسطين إلا احتلال الجنرال (باجوسيس) للقدس في عهد ارتاكسركسيس الثالث ولم يذكر سبباً لذلك رغم أن فلسطين بأكملها محافظة فارسية لذا فإن هذا الاحتلال ما هو إلا جيش يدخل المدينة لتأديب الناس ليذكرهم بقوة الحاكم وما لبثت مصادر إظهار العظمة هذه أن زالت، حيث جاء في كتاب ((**تاريخ فلسطين القديم**)) ما يلي :

(وبعد موت ارتاكسر كسيس خفف خليفته داريوس الثاني القيود عن اليهود وفي عهده غزا فلسطين الاسكندر المقدوني (عام ٣٣٢ أو٣٣٠ ق.م) ، وكانت فلسطين بالنسبة إليه ممراً إلى مصر وقد ترك اليهود بدون أن يمسهم في دينهم أو تقاليدهم مخافة أن يؤيدوا الإيرانيين وقد ظل رئيس دويلة اليهود هو الكاهن الأكبر) (ص ٦٨).

إن الكاتب يقول (ترك اليهود) ويكرر كلمة اليهود عشوائياً ولا يعرف ان هذه الكلمة لا تنطبق إلا على أهل الكفر فقط من بني إسرائيل وبالتحديد من بعد داود ﷺ أولئك الذين تم اقتلاعهم وتشتيتهم وفق قرار الله، وأما السكان الباقون فهم أهل الخير وورثة الكتاب بشهادة رب العالمين وهم الذين بعث منهم وفيهم أنبياء الله يونس، وإلياس، والعزيز، واليسع وزكريا ويحيى وباقي الأنبياء فهم أتباع أنبياء الله من بني إسرائيل، وكان يجب على الكاتب أن يقول المسلمين أو على الأقل بني إسرائيل، التي كانت تعني في ذلك الزمان والمكان أهل الخير من بني إسرائيل الذين يعيشون في فلسطين ، بعد أن طرد منها أهل الكفر اليهود الذين لعنوا على لسان داود كما ورد في الآية الكريمة ، وقد تكفل بهم عباد الله من الآشوريين والبابليين وطردوهم ونفوهم من الأرض المباركة، ، وكذلك فإن كلمة اليهود تشمل الذين سيخرجون عن الصراط المستقيم ممن بقي من أهل الخير ممن سينطبق عليهم قول الله: ﴿ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ [الروم:١٩]، فإنهم سيلعنون على لسان عيسى ابن مريم حيث سينحرفون بعد ذلك لتمحيص الله المستمر للمسلمين وليميز الخبيث من الطيب ، فإن هؤلاء الملعونين سيتكفل بهم الرومان وغيرهم كما سيتبين معنا لأن هذا قرار الله ألا مقام للكافر في الأرض المقدسة المباركة.

وما وجود المستعمر الروماني وقبله الآشوري أو البابلي أو اليوناني في فلسطين وما كان تعريضه سكان فلسطين للضغط أو التعذيب إلا بما يتناسب مع بعدهم عن دينهم، وأيضاً فإنهم في فترات قربهم من الله كانوا يعيشون فترات هدوء لا تنغيص لمعيشتهم فيها وهذا واضح مما مر معنا في دراسة تاريخ حياتهم في فلسطين وما مر بها من أحداث.

لنحاول الآن وضع خلاصة لحال أسباط الخير منذ عهد نبوخذ نصر وحتى نهاية الحكم الفارسي وهذه هي الفترة من (٦٠٠ ق.م) ولغاية (٣٣١ ق.م) .

لقد هاجم الملك البابلي نبوخذ نصر القدس ودمرها وأخرج منها طبقات معينة كاملة ودمر مسجد سليمان وعاد بمن أخرجهم إلى بابل منفيين دون التحقق من صلاحهم أو كفرهم.

انتهى الحكم البابلـي على يد كوروش الفارسـي الذي دخـل بابـل سنة (٥٣٩ ق.م) وكان أول ما استنه من قوانين هو السماح بعودة المنفيين من أسباط الخير إلى القدس.

استمر الحكم الفارسي على فلسطين حتى سنة (٣٣١ ق.م) وذلك بعد هزيمتهم أمام الإسكندر المقدوني الذي اتخذ فلسطين ممراً إلى مصر ولم يعتدِ على سكانها ولا على حريتهم في العبادة.

هذه الحرية لا يحدها إلا قرار الله تعالى بنفي أهل الكفر الذين أتيحت لهم الفرصة للعودة فلم يعودوا كما أسلفنا بيانه، وذلك في جملة عكسية تذكر أن من عادوا هم الذين لم يستطيعوا أن يجدوا لهم موطئ قدم في البلاد الجديدة، وهذا ما ذكره كاتب التاريخ الذي لم يأخذ قول الله في الاعتبار، ولو عاد إلى الله وعرف قراره لعرف أن من بقي في الخارج هم من حكم الله عليهم بالنفي وأن من عادوا هم عباد الله الصالحون حيث عادوا لتنفيذ أمر الله إلى الأرض التي كتب الله لهم ، وهؤلاء هم الذين أخرجتهم قوات نبوخذ نصر ظلماً وخطأً حيث يسر الله لهم من يسهل عودتهم مع أنه لا يعرف عن الدين شيئاً وهو الإمبراطور كوروش الذي سمح لهم ببناء مسجد سليمان وهذا القرار قبل فناء الجيل الأول الذي نفي ولقد أعيد بناء مسجد سليمان، حيث تم بناؤه كما ورد في عام (٥١٥ ق.م) في عهد دارا الأول أو كما يسمى في بعض الكتب داريوس .

وخلال هذه الفترة ذكر أن وفدين حضرا من بابل إلى القدس وذلك في عهد كسركسيس الأول (٤٨٥ ـ٤٦٤ ق.م)، كان يرأس أحدهما عزرا الذي أصبح رئيس الكهنة في الهيكل.

ومما نعرفه أن زعيم بني إسرائيل في فلسطين هو نبيهم حال وجود نبي أو أحد صحابته وهم خلفاؤه بعد وفاته، فهل العزير هو الذي ورد اسمه في كتاب الله، لقد جاء في كتاب الله العزيز: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٥٩].

لقد جاء في كتاب ((**الجامع لأحكام القرآن**)) للقرطبي (الجزء الثالث ـ ص٢٩٠) ما يلي: (وقال وهب بن منبه وقتادة والضحاك والربيع وعكرمة: القرية بيت المقدس لما خرج منها بختنصر البابلي ، وفي الحديث الطويل حين أحدثت بنو إسرائيل الأحداث وقف أرمياء أو عزير على القرية وهي كالتل العظيم وسط بيت المقدس لأن بختنصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل فلما رأى أرمياء البيوت وقد سقطت حيطانها على سقوفها قال: (أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) .

وفي ((**تفسير القرآن العظيم**)) (الجزء الأول ـ ص٤٦٤، لابن كثير) ما يلي :

(فروى بن أبي حاتم عن عصام بن رواد عن آدم بن أبي إياس، عن إسرائيل عن أبي اسحق عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب أنه قال: هو عزير.

وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها (وَهِىَ خَاوِيَةٌ) أي ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار. وقولة : (عَلَىٰ عُرُوشِهَا) أي ساقطة سقوفها وجدرانها، فوقف

متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: (أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها .

وفي ((التفسير الكبير)) للإمام الفخر الرازي (الجزء السابع ص ٣١) : ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية قال : إن بختنصر غزا بني إسرائيل فسبى منهم الكثيرين ، ومنهم عزير وكان من علمائهم فجاء بهم إلى بابل فدخل عزير يوماً تلك القرية ونزل تحت شجرة وهو على حمار فربط حماره وطاف في القرية فلم ير فيها أحداً فعجب من ذلك وقال : (أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ، لا على سبيل الشك والقدرة بل على سبيل الاستبعاد بحسب العادة.

يكمل الكتاب القصة إلى غاية: وبعد إحياء الحمار خر عزير ساجداً وقال: (أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ثم دخل بيت المقدس فقال القوم: حدثنا آباؤنا أن عزير بن شرخياء مات ببابل وقد كان بختنصر قتل ببيت المقدس أربعين ألفاً ممن قرأ التوراة، وكان فيهم عزير والقوم ماعرفوا أنه يقرأ التوراة، فلما أتاهم بعد مائة عام جدد لهم التوراة وأملاها عليهم عن ظهر قلب لم يخرم منها حرفاً، وكانت التوراة قد دفنت في موقع فأخرجت منه وعورض بما أملاه فما اختلف في حرف فعند ذلك قالوا : عزير بن الله وهذه الرواية مشهورة فيما بين الناس.

مما سبق نستنتج أن من ذكر في كتاب التاريخ هو العزير ويمكن سرد قصته في أنه كان من رجال الدين الشباب وكان يحفظ التوراة وأنه بينما كان بنو إسرائيل يجهزون للهجرة إلى بابل أسرى مر من شوارع القدس فرأى حجم الدمار فقال: (أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا).

وبالطبع ليس هذا شكاً في قدرة الله تعالى وإنما تعجباً لكثرة الدمار الذي حصل ، وإن مدينة مثل هذه فيها هذا الدمار ربما لا تعمر ولا تسكن بعد ذلك ، وكان العزير من بين الأسرى فأماته الله في بابل مائة عام بعيداً عن أعين الناس ثم بعثه الله وأراه كيف يجمع عظام حماره الذي مات وتلف وتحلل لحمه وتحول إلى تراب ولم يبق منه إلا العظام متناثرة أبعدتها الرياح عن بعضها على عكس الطعام فإنه لم يحمض وكذلك الماء لم يتسنه (أي لم يصبح آسناً).

وكان هذا من الأمور المعجزة، إذ أن من المفروض حسب النواميس الكونية أن الطعام يتلف خلال يوم واحد في حر الشمس إذا كان الوقت صيفاً ، وأن الماء يصبح آسناً في عدة أيام نتيجة الغبار وما يقع فيه من مواد تحملها الريح ، وأما الحمار فإنه يعيش لنهاية عمره ثم يموت ثم يتحلل ، في حين أن ما حصل هو العكس فإن الذي يتلف أولاً وثانياً لم يتلفا وبقيا كما هما صالحين للأكل والشرب، وفي هذا اختراق لنواميس الكون من خالق هذه النواميس وهو الله، وأيضاً فقد رأى كيف تجمع عظام الحمار ويعاد تكوينه بأمر الله، فلما رأى ذلك سجد لله شاكراً وقال: (أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، أي أنه يؤمن بذلك، والسجود لله شكراً لأنه علم من هذا الحدث أنه قريب من الله وأن الله تعالى راض عنه إذ يريه قدراته رأي العين وكذلك أوحى له بأنه أماته مئة عام وأنه سيجعله آية للناس وهذه معجزة نبوة وقوله: (أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تأكيد لإيمانه بذلك.

وبعد هذا عاد إلى القدس على رأس الوفد مع أن الناس يعلمون أنه قد مات، وقد يسر الله من يشهد له أنه العزير ممن ولدوا بعده ويعرفونه حق المعرفة ومن معرفته وحفظه للتوراة عن ظهر قلب.

ولو نظرنا إلى التواريخ المبينة وافتراض أنه عاد أول أيام حكم كسركسيس لوجدنا ان ذلك كان بعد مئة واثنتي عشرة سنة من تدمير القدس قضى منها مائة عام ميتاً واثني عشر عاماً بعضها في الأسر وبعضها ليقنع الناس أنه العزير ، وكذلك ليجد أن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا فالله تعالى خلال هذه الفترة الزمنية ضرب أعداء المؤمنين ويسر لهم مَلِكاً يأمر بعودتهم إلى الديار المقدسة ويحرص على إقامتهم لشعائر دينهم الإسلامي رغم أنه غير مسلم وهو وثني.

ولم يثبت إسلام ملوك فارس إلا من بعض نصوص الكتاب المقدس حيث أنهم يتعاطفون مع هذا الدين ويعترفون أن اله أورشليم هو اله السماء العظيم، لأنهم رأوا وسمعوا انتقام الله ممن دمر بيت الله الذي في أورشليم ولقد ورد عقاب رب العالمين للبابليين في النصوص التالية من الكتاب المقدس :

((**هأنذا أهيج عليهم الماديين الذين لا يعتدون بالفضة ولا يسرون بالذهب فتحطم القسي الفتيان ولا يرحمون ثمرة البطن. لا تشفق عيونهم على الأولاد وتصير بابل بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين كتقليب الله سدوم وعمورة. لا تعمر إلى الأبد ولا تسكن إلى دور فدور**)) [سفر أشعيا - الإصحاح الثالث عشر] .

وقد تم ما قيل وأما كيفية تمامه فقد ذكرت فيما يلي :

((**بسبب سخط الرب لا تسكن بل تصير خربة بالتمام. كل مار ببابل يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها . اصطفوا على بابل حواليها يا جميع الذين ينزعون في القوس. ارموا عليها لا توفروا السهام لأنها قد أخطأت إلى الرب. اهتفوا عليها حواليها لقد أعطت يدها. سقطت أسسها نفضت أسوارها لأنها نقمة الرب هي فانتقموا منها. كما فعلت افعلوا بها...هأنذا أعاقب بابل وأرضه كما عاقبت ملك آشور**)) [سفر ارميا - الإصحاح الخمسون] .

هذا النص يذكر صراحة بأن ما حصل هو عقوبة ربانية على خطايا بابل مع الله وكذلك ورد ذكر انتقام الله من بابل بالنص التالي :

((**اهربوا من وسط بابل وانجوا كل واحد بنفسه. لا تهلكوا بذنبها لأن هذا زمان انتقام الرب هو يؤدي لها جزائها...سقطت بابل بغتة وتحطمت... قد أيقظ الرب روح ملوك مادي لأن قصده على بابل أن يهلكها لأن نقمة الرب نقمة هيكله**)) [سفر ارميا - الإصحاح ٥١] .

عاد العزير ليترأس قومه في القدس وليحافظ على كتاب الله وعلى مسيرة الإسلام على أرض الأقصى.

ونعود إلى ما ذكرناه من قبل من الفصل بين أسباط يعقوب ﷺ (أحفاده)، حيث بدأ ذلك في زمن موسى ﷺ في الصحراء وذلك لتجنب شرور التحاسد فيما بينهم ولتجنب الاحتكاك الذي يؤدي إلى أذى وضرر ؛ توجهوا بعد موسى ﷺ بقيادة طالوت إلى فلسطين واستقر بعضهم في الجزيرة العربية جزء في المدينة المنورة وهم يهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، وجزء في خيبر، وهل كان هؤلاء من سبط واحد أم سبطين أم هم خليط من الأسباط العشرة؟ الذي يؤكده كتاب الله أنهم من أهل الكفر أي من الأسباط العشرة.

وكان ما أسلفنا من عدوان أهل الشر على أهل الخير بعد موت سليمان ﷺ مباشرة وصدور قرار الله بنفي أهل الكفر من الأرض المباركة، وبعد خروج أهل الكفر فإن الآية الكريمة تنطبق عليهم: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٨].

وكيف يتم تطبيق هذه الآية في الوقت الذي تطبق فيه الآية التي يقول الله تعالى فيها على لسان موسى لقومه : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟

خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٢١].

لقد بينا سابقاً أن المقصود بهذه الآية هم الذين استضعفوا في الأرض وصبروا وحافظوا على المسيرة الدينية منذ بزوغها أول مرة وهم سبط يوسف وأخيه الصغير وهذه الآية تحمل المعنى الدائم الثابت ولكي تنطبق الآيتان معاً فهذا يعني أنه مع نهاية العهد الفارسي على فلسطين وبداية عهد البطالمة كان فيها سبطا الخير .

وأما الأسباط العشرة فقد اقتلعوا منها وبعثروا في الأرض بأمر الله تعالى الذي نفذه عباده الذين سلطهم الله عليهم والذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [الإسراء:٥].

إن ذرية السبطين الذين هم في فلسطين هم أهل الخير، وهذا لا يعني أن كل فرد فيهم هو من أهل الجنة بل إن الله تعالى سيبتليهم ويمحصهم مع الزمن ويميز الخبيث من الطيب ، وإن الابتلاء الإلهي سيستمر مع الزمن ليشمل كل الأجيال من أهل الخير وذلك لعزل الذين يبيعون أنفسهم للشيطان بعرض من الدنيا عن المسلمين ويميز الله الذين يحتفظون بإيمانهم مع البلاء ليجزيهم أحسن ما كانوا يعملون.

قد يقول قائل ما الإثبات أن من بقي هناك في فلسطين هم بنو إسرائيل، وكذلك قد يقول ما هو الإثبات على أن بني إسرائيل الكفرة قد اخرجوا من فلسطين.

الدليل على السؤال الأول هو قول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۞ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [غافر:٥٣-٥٤] . فالله تعالى يقر هنا أنه أورث بني إسرائيل الكتاب الذي هو التوراة فيها هدى ونور للمتقين أورثها بني إسرائيل الذين هم في فلسطين الذين يتنزل فيهم ومنهم الأنبياء تباعاً للحفاظ على هذا الكتاب وتطبيقه في أهل الخير والذي حوفظ عليه إلى أن بعث عيسى عليه السلام بالإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة .

وقد بين الله تعالى بقوله: (**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم**) [الصف : ٦].

وأما إثبات أن الخيرية هي فيمن بقي من بني إسرائيل في فلسطين فدليله إرسال الله أنبياءَه تباعاً لتمحيصهم ولإبقاء الخيرين منهم على الصراط المستقيم وعلى طريق الإسلام الذي أراده الله لهم والذي حملوه منذ جدهم إبراهيم يتوارثونه برغم الصعاب التي تعرضوا لها وكانوا على قدر ثقة الله بهم في حملهم للمسؤولية لوراثة الكتاب ما داموا يتناسلون، فهم ورثة كتاب الله [التوراة، الزبور، الإنجيل، ثم القرآن] جيث أن الكتاب اسم جنس وهو ممتد إلى آخر كتاب.

إن سكان الأقصى وما حوله اتبعوا أنبياء الله تباعاً حتى جاء شرع الله تعالى الذي أنزله على رسول البشر محمد ﷺ فاتبعوه وأسلموا، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] .

هؤلاء القوم استناروا بالتوراة إلى أن بعث الله عيسى عليه السلام بالإنجيل مصدقاً لما بين يديه فآمنوا به واستناروا به إلى أن بعث الله محمداً ﷺ بالقرآن العظيم فآمنوا به واستناروا به منهاج حياة ومازالوا حملة كتاب الله أبا عن جد .

بعد هذا العرض وبعد هذه المقارنات فإننا سنتتبع الآن معيشة بني إسرائيل وسيرتهم الدينية وما طرأ عليها من مجريات على أرض الأقصى بشكل خاص ، ونترك الذين أخرجوا بقرار من الله إلى حديث مستقل لاحق

رغم أن أخبارهم لم تدون في كتاب، لكننا سنجد ما يخصهم في كتاب الله وهو خير شاهد ونعود الآن إلى سبطي الخير في فلسطين وما ذكر عنهم في التاريخ لنأخذ به إذا كان هناك ما يؤيده في كتاب الله.

جاء في كتاب ((**تاريخ مصر القديم**)) عن الإسكندر المقدوني ما يلي :

(منذ عام ٣٣٨ق.م ظهرت (مقدونيا) كقوة تسيطر على العالم فاندفع فيليب الثاني ليكون حليفاً مع اليونان ، وجاء من بعده ولده الإسكندر الذي ظهر في ذلك الوقت كمحرر لمصر وقد نشأ منذ حداثة سنة كابن روحي لزيوس آمون لأن والدته أو لمبياس كانت من عبدة الإله وقام بغزو الشرق وهزم الإسكندر دارا الثالث عام (٣٣٣ ق.م) ، وبعد هذا الانتصار صارت أبواب مصر مفتوحة أمامه باعتباره منقذها المرتقب من جبروت الفرس ـ اتجهت النية إلى أن يعترف به كابن لآمون ويتوج كفرعون شرعي لمصر.

استولى على صور وغزة ، وفي نهاية (٣٣٣ ق.م) سار نحو مصر التي سارع آخر موظفي الفرس بالرحيل عنها واستقبلته البلاد كمحرر لها واستسلم الحاكم الفارسي ـ باباسس) (ص٦٤٩).

وفي منف استقبل الاسكندر بحماس منقطع النظير من جموع المصريين ثم توج بعد ذلك فرعونا في معبد الإله بتاح.

في بداية عام (٣٣١ ق.م) ذهب إلى معبد آمون ، وهناك أخبروه أنه أنجب من زواج إلهي بين أولمبياس وآمون. ولكن الزمن لم يمتد بالإسكندر لتحقيق خططه ؛ إذ وافته المنية في بابل سنة (٣٢٣ ق.م) وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.

ومن كتاب ((**تاريخ فلسطين القديم**)): (وبعد رحيل الاسكندر حكم مصر أسرة جديدة هي أسرة البطالمة (نسبة إلى بطليموس) الذين استمر حكمهم حتى سنة (٢٠٠ ق.م) ثم انتقل الحكم إلى السلوقيين عقب معركة بين الإمبراطوريتين الشقيقتين عند الجليل. وضعفت الإدارة السلوقية في فلسطين بسبب المساحة الشاسعة من الأراضي التي كانت هذه الدولة تحكمها ولا يوجد دليل على أن السلوقيين قد ظلموا أهل البلاد) (ص٧٤).

ولكن رغم هذا وقعت ثورة اليهود الكبرى ، ثورة المكابيين في العصر السلوقي وكانت لهذه الانتفاضة أسبابها فمنها أن كبير وزراء السلوقيين (هيليودوروس) نهب كنوز الهيكل اليهودي عقب هزيمتهم أمام الرومان سنة (١٨٩ق.م) ومن هذه الأسباب أيضاً أن (أنطوخيوس) حاول صرف اليهود عن دينهم فعين كاهناً كبيراً اغريقياً وثنياً (ص٧٥).

فشاعت ثورة من اليهود بقيادة الكاهن (متى ثياس)، ولكن (أنطوخيوس) قهرها بعنف وحطم مرة أخرى أسوار القدس وبيوتها وبعد هذا ثارت اليهود وقاد الثائرين أحد أبناء (متى ثياس) وهو (جوداس مكابيوس) ، مات سنة (١٦١ق.م) (ص٧٧).

واستمرت المقاومة ثلاث سنوات ، واستطاعت في نهاية الأمر أن تطهر الهيكل سنة (١٦٥ق.م) (ص٧٧).

تمكن جوداس مكابيوس من الاحتفاظ بالسيطرة على زمام الأمور وأقام حكماً وراثياً لأسرته، وفي سنة (١٦٣ق.م) تمكن من الوصول إلى اتفاقية مع الوصي السلوقي حصل اليهود بمقتضاها على الحرية الدينية .

وتمتع اليهود ببعض الحرية في عهد المكابيين الذين حكموا ككبار كهنة حكماً دينياً وكان الحاكم يلقب بكبير الكهنة وموحد اليهود وسرعان ما سمى المكابيون أنفسهم بالملوك بالرغم من أنهم كانوا يدفعون الخراج للسلوقيين (ص ٧٨).

تسلم بعد جوداس أخوه جوناثان (١٦١ ـ١٤٣ ق.م).

بعد موت جونا ثان تولى سيمون (١٤٣ـ ١٣٥ق.م) الحكم واتفق اليهود على اعتبار سيمون ملكهم

وأن يتولى الحكم من بعده ورثته وذلك حتى ظهور نبي معتمد وكان عهد سيمون عهد الرخاء والسلام.

ثم تولى الحكم ابنه (جون هيركانوس) ومن أهم أحداث عصر هيركانوس أنه تخاصم مع رجال الدين اليهود - الفريسيين - وساعد الصادقيين أعداء الفريسيين (الذين حرفوا الدين الموسوي) (ص ٧٩،٨٠).

ثم جاء (الإسكندر جانيوس) (١٠٣ - ٧٦ ق.م) ، واشتهر بكثرة الحروب وشمل حكمه شرقي الأردن والإسكندر أيضاً مثل سيمون كان من أشد خصوم الفريسيين وحكمت من بعده أرملته (سالومي الكسندرا) (ص ٨٠).

كان بومبي العظيم يغزو أراضي السلوقيين ويعيد ترتيبها ولذلك جاء يعيد الخريطة السياسية لفلسطين أيضاً سنة ٦٣ق.م (ص ٨٣).

وقد نزع بومبي لقب الملك الذي انتحله حكام القدس في نهاية العهد السلوقي ثم نصب (هيركانوس الثاني) كبير الكهنة وقتل بومبي كثيراً من اليهود المشاغبين وحطم أسوار القدس وكان هذا نهاية الدولة اليهودية (ص ٨٤).

يلاحظ مما سردنا من كتب التاريخ ذكر كلمة اليهود ولا أدري إن كان المؤرخون قد أطلعوا على كتاب الله أم لا، وهل خطر ببالهم أنه خلال هذه الفترة كان هناك أنبياء مرسلون من الله ولهم معجزات وهذه المعجزات أكبر مما أنجز الملوك والأباطرة، ومع هذا لم يأت المؤرخون على ذكر أي منهم إلا ما ندر فإنهم يذكرونه في سطر واحد أو أقل رغم أن أثر أي ملك يزول بزواله في حين أن أثر الأنبياء لا يزول وهو باق ومتصل إلى يوم القيامة.

نلخص الآن حال سكان فلسطين من بني إسرائيل بعد عهد الإسكندر المقدوني الذي لم يمسهم في دينهم بل على العكس تم تتويجه في معبد آمون كابن للإله آمون في مصر وهذا هو الشخص الثالث في التاريخ الذي ينسب إلى أنه ابن الله ومن هنا نرى أن الإسكندر قد اتبع ديانة الإسلام بما طرأ عليها من تحريف لا نعرف عنه شيئاً لأن هذا كان بعد تسعمائة سنة من نزولها على موسى ﵇ ولا نعلم عن مدى سلامة هذه الديانة في مصر في تلك الأيام وما حجم التحريف الذي طرأ عليها.

وبعد موت (الإسكندر الكبير) قسمت دولته إلى ثلاث دول، وكانت دولة البطالمة هي التي تحكم مصر وفلسطين وقبرص وذلك نسبة إلى بطليموس واستمر حكمهم لسنة (٢٠٠ق.م)، وكانت فلسطين بسكانها هادئة وادعة لم يعكر صفوهم شيء، يعيشون لدينهم تحت الاستعمار اليوناني.

وقد شهد الكتاب المقدس بالحالة النفسية التي كان عليها سكان الأرض المقدسة في هذا الزمن حيث جاء:

((**لأني حينئذ أنزع من وسطك مبتهجي كبريائك ولن تعود بعد إلى التكبر في جبل قدسي ... وابقي في وسطك شعباً بائساً ومسكينا فيتوكلون على اسم الرب**)) [سفر صفنيا - الإصحاح الثالث] .

وفي سنة (٢٠٠ ق.م) سيطرت دولة السلوقيين على دولة البطالمة وهي الدولة الثانية من الثلاث التي قسمت إليها دولة الإسكندر وبذلك صارت دولة السلوقيين واسعة جداً وأعطت البلاد التي تسيطر عليها ما يشبه الاستقلال الذاتي ولكن هذه الدول تدفع الضريبة للدولة السلوقية.

اصطدمت دولة السلوقيين بالرومان وهزمت هزيمة محدودة احتاجت على أثرها إلى أموال فما كان من كبير الوزراء للدولة السلوقية إلا أن نهب كنوز المسجد الكبير في القدس لأنه وثني ولا إيمان عنده، فقامت ثورة على الحكومة السلوقية ولم تنتصر لكبر حجم العدو لكنها لم تهزم لكبر مسؤوليات الأعداء وهذه الثورة تسمى ثورة المكابيين. قاد الثورة أولا (متى ثياس) ولكن السلوقيين هزموه وحطموا أسوار القدس فقاد الثورة ابنه جوداس مكابيوس وتمكن من الحصول على استقلال داخلي وحصل قومه بموجبه على الحرية الدينية.

وعاد الحكم الداخلي لكبار رجال الدين ولأنبياء الله في ذلك العصر أو لخلفائهم والذين لم تشر كتب

التاريخ إليهم. صار المكابيون يسمون أنفسهم بالملوك رغم أنهم يدفعون الضريبة للسلوقيين وهذا يدل على أنهم يعيشون استقلالاً ذاتياً كبيراً واسع الصلاحيات.

استمرت المسيرة الدينية على صواب إلى أن وصل إلى الحكم سيمون حيث ظهر في عهده تحريف على الديانة الأصلية وانقسم السكان إلى طائفتين (مذهبين) أحدهما على صواب والآخر على ضلالة وكان الحاكم من أنصار أهل الضلالة.

وكذلك جاء من بعده (جون هيركانوس) ثم أخوه (الإسكندر جانيوس) (١٠٣- ٧٦ق.م) الذي انضم إلى أهل الضلالة وهذا يعني تمحيص المسلمين والتضييق عليهم ليظهر المؤمنون بالله حق إيمانهم وليميز الله الخبيث من الطيب.

استمر حكم الضلال حيث حكمت بعد الإسكندر جانيوس زوجته سالومي .

تعرضت مسيرة الإسلام للتحريف وانقسم السكان إلى مذهبين، وكانت هذه الفترة حوالي سبعين سنة، وكان هذا ابتلاءً كبيراً من الله لأهل الخير حيث أنهم يعيشون أصلاً في ظل دولة وثنية وهي السلوقية ومن قبلها البطالمة ومن قبلهم الفرس، والآن يصل إلى الحكم فيهم من ضل منهم وانحرف عن دين الله فحرفوا دين الله وصارت الكلمة فيهم لمن باع نفسه للشيطان.

لقد ذكر الله في كتابه العزيز هذا الوضع المتردي لعباده في هذه الفترة بقوله تعالى:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٦٨-١٧٠] .

إن الآيات تصف أحوال بني إسرائيل ذلك الجزء الخير منهم الذين ورثوا الكتاب وهم الصالحون ومن هم أقل صلاحاً، وظلت العناية الربانية تبتليهم أحياناً بالنعم وأحياناً بالشدة فقد عاشوا فترة استرخاء ونعيم وها هم يعيشون فترة شقاء وهذا ما سيشد المؤمنين إلى ربهم ويبعد الفاسدين عن الإيمان والابتلاء من الله هو رحمة منه لعباده الصالحين إذ يعيد تذكيرهم بوجوده وبرحمته وهذا يقيهم من الابتعاد عن منهجه.

ومن صفات هذا الخلف أنهم درسوا الكتاب حيث إنه بين أيديهم ويدرسونه ويحفظونه ولكنهم في هذه الفترة صار الكتاب لا يمس فيهم قلوباً مؤمنة بل بدا كأنه ثقافة لا ينعكس على سلوكهم في الحياة حيث ضعفت العقيدة في النفوس، فكلما رأوا عرضاً من الدنيا تهافتوا عليه ثم قالوا يمنون أنفسهم (سَيُغْفَرُ لَنَا) دون تجنب نواهيه من باب أنهم أهل دين، ولا يعلمون أن عصيان من يعرف الله سيكون حسابه أدق وأشد لأنه يرتكب الآثام عن علم لا عن جهالة.

لقد أخذ عليهم ميثاقهم سابقاً ألا يقولوا على الله إلا الحق وألا يحتالوا ويحرفوا نصوص الكتاب وهم يعرفونها جيداً ويعرفون معانيها حيث أنها هدى ونور للذين يتقون الله، فما بالهم يتهافتون على الدنيا ويمنون أنفسهم بالمغفرة ومع التحريف والتأويل لمعاني الكتاب يجدون لأنفسهم المخارج والفتاوى

الملتوية، وهذه الآفة تصدر عن الذين يتخذون الدين ثقافة لا عقيدة ولا يتقون الله ولا يرهبونه وهؤلاء لا يعلمون أن الدار الآخرة هي للذين يتقون الله، هذه الحاسة الإيمانية بالدار الآخرة لا يَصلُح قَلبٌ ولا تكون حياة إلا بها وهي من لب العقيدة، وهذا ما يحاول الأعداء أن يفعلوه بنا وهو صرف الفكر والقلوب عن الإيمان، وهذا كله مقدمة للوهن الذي إن أصاب النفوس أضعفها وجعلها سهلة الانقياد للهوى وللملذات وللمستعمر.

ويعود رب العزة فيذكر عن القلة القليلة التي حاولت جاهدة التمسك بالكتاب لتكون نبراساً لغيرها وتضيء لمن حولها ممن غلبهم الشيطان، هؤلاء الذين تمسكوا بالكتاب في تلك الفترة الحرجة من حياة بني إسرائيل وكان على رأسهم نبي الله زكريا عليه السلام وكانوا يعيشون جهاداً فكرياً وجسمياً كبيراً وذكر الله عملهم بقوله : (يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ) كأنهم يقبضون على الكتاب بجد وقوة وشدة يخافون عليه أن ينفلت منهم وأن ينخلع من القلوب، ولقد ذكر الله تعالى هذه الفترة العصيبة جداً بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم:٥٨-٦٠] .

إن الآيات تستعرض الأصل الذي أنجب هذه الذرية فهم من ذرية آدم ومن ثم فهم من نسل نوح ومن ثم فهم من ذرية إبراهيم ومن فرع إبراهيم إسرائيل، الذي هو يعقوب عليهم السلام وهؤلاء ليسوا كل ذرية يعقوب عليه السلام بل الجزء الخير الصالح منهم الذين هداهم الله واجتباهم أي من سبطي الخير، وهؤلاء من صفاتهم الأصلية أنهم يسجدون للرحمن بكياً خاشعين ، فجاء منهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وابتعدوا عن العقيدة ، ومن يبتعد عن العقيدة فسوف يلقى غياً وألغي هو الشرود والضلال اللذان يؤديان إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، ولكن يعود رب العزة الرحيم بعباده ليذكر أن باب التوبة مفتوح ولا يغلق أمام عباده المؤمنين فإن الله يغفر لمن يتوب منهم ويعمل صالحاً ويثوب لرشده ويعود لربه فهؤلاء يدخلون الجنة ولا ينقص من عملهم شيء، والعمل في هذه الفترة صعب ويتطلب الجهاد بالنفس والمال ومقاومة الشهوات فهل تنجح القلة المؤمنة في حملها المسؤولية في هذا الظرف الصعب الذي يمر به المؤمنون.

لقد ذكر الله أيضاً هذا البعد عن الدين بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى:١٤] .

يظهر الله تعالى أن أحفاد إبراهيم صاروا يشكون في صحة الكتاب وذلك بعدما درسوه وعرفوه ثقافة لا عقيدة فجف الإيمان في قلوبهم وبدأت تساورهم الشكوك فكان ما كان من تفرقهم شيعاً ، فابتعدت طائفة من أهل الخير عن طريق الصواب وتمسكت فئة قليلة بالصواب نصرها الله أخيراً وثبتها على طريق الصواب ، وما كان هذا التفرق إلا بغياً وحسداً لبعضهم أن يؤتي الله فضله لمن يشاء من عباده وأن يجعل النبوة في سبط واحد هو سبط يوسف عليه السلام حيث اجتباه الله كما ورد في الآيات ، وبذلك كثرت الضلالة بينهم حسداً مع بقاء باب الله مفتوحاً لمن يريد أن يتوب منهم.

وهل تمكن زكريا ﷺ ومن معه من الثبات وهم الأقلية الصالحة حسب منصوص الآيات بين أغلبية صارت كأنها تعيش علمانية متسلحة بعلوم دين تتكسب به ولا تعمل به، فصار الصالحون كمن يصرخ في الظلام من مكان بعيد لا يرى ويكاد لا يسمع صوته.

وأخيراً تمكن الرومان من احتلال فلسطين والسيطرة عليها كليا وعزلوا القيادة الدينية عن القدس وفلسطين وأسندوا الأمر إلى رجل من زبانيتهم ، مما زاد الأمر سوءاً؛ إذ كان الحكام على ضلالة ولكنهم من أصل بني إسرائيل ، وصار الحاكم غريباً ووثنياً فماذا سيكون حال أهل الصلاح في ظل حاكم وثني، إن الدين سينحسر في النفوس ولن يتمسك به إلا من رعاه الله رعاية خاصة.

لنحاول أن نرى ما الذي حدث بعد دخول الرومان إلى فلسطين مستعمرين جدداً لهم إمبراطورية صارت الدولة الأولى في ذلك العالم فتغلبت على السلوقيين واحتلت فلسطين عام (٦٣ ق.م) وعين هيرود (حاكما رومانيا على فلسطين) .

عودة بنا إلى كتاب ((تاريخ فلسطين القديم)):

سنة (٤٠ ق.م) هاجم الفرس البلاد وهرب (هيرود) إلى روما يستصرخ حلفاءه واستمر (أنتي جوتوس) يحكم القدس ثلاث سنوات بمساعدة الفرس إلا أن اليهود رحبوا به لانتمائه إلى المكابيين ويرفضون أسرة هيرود لأنها كانت غير يهودية (ص٨٥).

وفي روما أصدر مجلس الشيوخ قراراً بتعيين هيرود ملكاً على يهودية سنة (٤٠ ق.م) ورجع هيرود إلى فلسطين سنة (٣٩ ق.م)، وعقب ذلك بسنتين استطاعت القوات الرومانية التي أتت مع هيرود طرد الفرس وقتل هيرود عدداً لا يحصى من سكان القدس (ص ٨٦).

واستطاع هيرود استعادة كل الأراضي التي كان بومبي قد استولى عليها. وكان هيرود من أنصار الرومان الذين كان يدين لهم في ارتقائه عرش أورشليم وكان ضد القومية اليهودية وكان اليهود يكرهونه للسبب ذاته (ص ٨٧).

وبعد موت هيرود أقام الرومان حكماً مباشراً على البلاد وقرر أغسطس سنة (٣ ق.م)، توزيع البلاد على ثلاثة من أبناء هيرود فأعطى حكم يهودية وسامارية وأيدومية (فلسطين الوسطى) إلى (ارشيلاس) والجليل وشرقي الأردن إلى (انتيباس) وما شمال الجليل إلى فيليب.
أما ارشيلاس فمات سنة (٦م) وبعد موته نقل الرومان حكم فلسطين الوسطى إلى أيدٍ رومانية وكان من هؤلاء الحكام الرومانيين ببلاطوس (٦ ـ ٣٦م) الذي وقعت في عهده المحاولة اليهودية لصلب سيدنا المسيح ﷺ (ص ٨٧، ٨٨).

عند نهاية عهد ببلاطوس عاد الحكم ثانية إلى أسرة هيرود فاستلم زمام الحكم (هيرود) (اجريبا الأول) الذي كان يدفع الخراج للإمبراطور الروماني (جايوس)، وعند موت هيرود أجريبا الأول انتقل الحكم من جديد ونهائياً إلى الرومان الذين اعتبروا فلسطين إقليماً رسمياً لهم (ص ٨٨).

هذا السطر المبين هو كل ما كتب عن أنبياء الله الثلاثة الذين عاصروا هذا الإبتلاء الرباني للمسلمين في فلسطين وهم الذين جدد الله الإسلام بهم وبجهودهم وجهادهم وجهود صحابتهم من الحواريين في فلسطين، وكانت صحوة الإسلام الثانية على أيدي أنبياء الله وهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

كل ما جاء عنهم هو جملة: (الذي وقعت في عهده المحاولة اليهودية لصلب سيدنا المسيح ﷺ)، أما متى ولد وما ذكر الله له من أثر فليس مهما.

إن أولاد حاكم ظالم وهم على ضلال وتوزيع فلسطين عليهم أهم من نبي الله عيسى ﷺ الذي ينتمي إلى الديانة التي أتى بها ثلاثة مليارات من البشر في عصرنا، في حين لا يعرف هيرود وأولاده عدة ألوف، ولا يهتم بهيرود ولا لأثره أحد في هذه الأيام.

لست أدري أين الحس الإيماني وكيف يستطيع كاتب أن يمر بتاريخ (١م) ولا يأتي على ذكر نبي الله عيسى عليه السلام، ويذكر المسؤولين العسكريين في تلك الحقبة من الزمن الذي تجلى فيه رضا الله على عباده فبعث فيهم رسولاً منهم يصوب مسيرتهم، هل هناك حدث أكبر من هذا في حياة أي شعب؟

إن رضا الله على ما بذله ذلك الشعب أو تلك النخبة الخيرة من ذلك الشعب يتجلى باختيار نبي منهم يجدد لهم أمور دينهم ويصوب مسيرتهم، إنه لرضوان ورحمة من رب العزة لعباده المخلصين، إن المتفق عليه أن مولد عيسى عليه السلام كان بعد نبي الله يحيى عليه السلام.

وعندما ولد يحيى عليه السلام كان والده زكرياً عليه السلام كبيراً في السن ولقد ظهر هذا من قول الله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم:٢-٤].

إن زكريا عليه السلام وفي خفية عن أعين الناس يدعو ربه دعاءً مباشراً، دعوة العبد الصالح لربه الذي يرتبط به مباشرة ويشكو إليه وهن العظم، وهذا يعني أن الجسم كله قد وهن وضعف لأن العظم أصلب ما في الجسم فإذا وهن فمعناه أن الجسم يكاد يخلو من القوة إلا ما يكفي ليتحرك الإنسان، كذلك فإنه يشتكي إلى الله اشتعال الرأس شيباً وهذا يعني أنه لم يبق في الرأس شعرة سوداء وكلا الأمرين يعبر عن الشيخوخة التامة، ثم يذكر أن الله قد عوده أن يستجيب دعاءه فيما سبق وهو اليوم أحوج ما يكون في شيخوخته لأن يستجيب دعاءه.

ولو قدرنا أن زكريا عليه السلام كان في سن الثمانين في تلك الحالة فهذا يعني أنه حضر أيام (الإسكندر جانيوس) ، وإذا كان عمره قد جاوز المائة سنة فهذا يعني أنه يكون حضر أيام (جون هيركانوس) (١٠٣-٧٦ ق.م) وكلاهما وصل إلى الحكم وهو على ضلال ، وبدأ من انحرف من بني إسرائيل يشكلون طائفة جديدة وأخذوا يحرفون كلام الله ويتاجرون به ، ولقد وعد الله بني إسرائيل أن يواصل إرسال الأنبياء منهم ليصوبوا مسيرتهم فأرسل الله تعالى نبيه زكريا.

ولقد عاصر زكريا عليه السلام فترة الانحراف من أولها وكان واجبه الأول الحفاظ على التوراة الصحيحة من التحريف وتعليمها للناس وقيادة المسيرة، وكان الابتلاء الرباني لمسيرة المؤمنين هذه أن سيطر أهل الضلالة على مقاليد الأمور لأول مرة منذ حوالي أربعمائة سنة، فقد كان النبي أو خليفته خلال الفترة السابقة هو قائد الأمة في بني إسرائيل مع أنهم تحت استعمار ولكنهم يتمتعون بما يشبه الحكم الذاتي فكان النبي أو أحد صحابته القائد والملك رغم أنهم يدفعون الضريبة للمستعمر، ولأول مرة تنعكس الأمور ويصل إلى السلطة أهل الضلالة منهم وينحسر الإيمان وتضعف قوة المؤمنين وهذا ابتلاء من الله كبير، إذ أن السلطة العسكرية والقوة الضاربة في أيدي أراذلهم وأهل الضلالة منهم ومن يحكمهم هو مستعمر وثني ليس على دين، فوجبت مقاومة الكفر والضلالة معاً بكل ما أوتي المؤمن من قوة إيمانية ومالية وفكرية وجسدية.

وموجة الضلالة أخذت في الازدياد والشدة في حين أن عنصر الإيمان يضعف في النفوس وعدد المؤمنين في تناقص.

في تلك الفترة العصيبة كانت زوجة عمران تحمل في بطنها مولوداً أنذرته لله تعالى من نفس خالصة فتقبل الله منها، وعندما أنجبت رأت أن ما أنجبته هي أنثى وهي مريم الطاهرة، وكانت تتمنى أن يكون المولود ذكراً وذلك لمزيد من القدرة على خدمة دين الله والله يعلم ما وضعت وما كانت تحمل قبل الوضع، وهذه الحادثة تكشف القلوب التي يعمرها الإيمان مثل قلب أم مريم زوجة عمران وأنها تتوجه إلى الله

وتنذر لله فلذة كبدها، وهذا ما يجب على كل مسلمة هذه الأيام.

زوجة عمران تنذر فلذة كبدها قبل مولدها لله خالصة فيتقبلها الله، وهي تطلب من الله وتعيذها به وذريتها من الشيطان الرجيم وأن يحفظها وذريتها على الصراط المستقيم.

وجزاء هذا أن الله أنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا وهو نبي الله أي جعله أميناً عليها وراعياً لها وكان هو إمام المسجد الكبير وكبير الرهبان وهو من ذرية هارون أي أنه من ذرية عمران والد موسى وهارون.

نشأت مريم مباركة يعطيها الله من رزقه مباشرة عطاء وفق طلبها وأكثر من حاجتها حتى تعجب نبي الله زكريا عليه السلام فسألها قال: يا مريم أنى لك هذا قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. وهذه الإجابات والأسئلة البسيطة حركت في نفس زكريا الرغبة البشرية أن يهبه الله ذرية طيبة تكون صالحة لخدمة دين الله.

ويرى زكريا عليه السلام بعينه أفواج الضالين تتزايد وجماعات الإيمان في تناقص فخاف على الدين أن يختفي، فتوجه إلى الله داعياً ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٩].

إن زكريا عليه السلام يرى نفسه يتقدم في السن ولم يجد من يقوم مقامه إذا توفاه الله ولا يجد من يثق في قدرته الحفاظ على هذا الدين، فيطلب من الله أن ييسر له من هو قادر على أداء هذه المهمة الشاقة في هذا الزمن العصيب ولا ينسى أن الله هو الوارث وأن الدين لله ولكن عليه واجب الدعوة فدعا ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم:٤-١٣].

كما وردت تسمية يحيى عليه السلام في الكتاب المقدس بالنص التالي:

((**وسمّوه باسم أبيه زكريا. فأجابت أمه وقالت لا بل يسمى يوحنا. فقالوا لها ليس أحد في عشيرتك تسمّى بهذا الاسم. ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يسمّى فطلب لوحاً وكتب قائلاً اسمه يوحنا فتعجب الجميع**)) [إنجيل لوقا: الإصحاح الأول].

الأساس في دعوة زكريا عليه السلام أنه يريد أن يرزقه الله بمن يستطيع حمل أعباء الدين، هذه التركة المتوارثة وهذا التراث الصالح، إنها تركة تلك الذرية الخيرة من آل يعقوب التي اجتباها الله واختارها

لتحمل شعلة الهداية.

إنه يبين لله أن زوجته عاقر وأنه كبير في السن ويطلب أن يجعل هذا الولي رضياً والرضي هو الذي يرضى بما يعطيه الله وهو قادر على إرضاء الناس بعطائه مما أعطاه الله ويعجل الله العطاء ويبشره بغلام اختار الله اسمه ولم يكن هذا الاسم استخدم قبلاً لأحد وهو (يحيى) وهذا مكافأة له على حرصه على دين الله لأنه يريد الولي لا من أجله ولا ليعتني به بل ليحمل راية الدين وأن يحافظ عليها من بعده.

ولما سمع زكريا هذه البشرى كأنه لم يصدق ما سمع فاستفسر كيف سيكون ذلك وهو العجوز وزوجته عاقر ولم تلد في شبابها، هذا الاستفسار لمعرفة الكيف لا إنكاراً للقدرة الإلهية، وهو يشبه طلب سيدنا إبراهيم أن يريه الله كيف يحيي الموتى.

ويأتيه الجواب الصحيح ليذكره أنه خلقه من عدم ، والذي خلق البشر يستطيع أن يعيد منهم بعض ما هرم منهم أو تلف فيهم فيستطيع أن يصلح أجسامهم بعد أن صاروا لا يستطيعون الإنجاب والله قادر على إزالة العقم وتجديد قوة العجوز.

هنالك طلب زكريا آية للناس ليصدقوه فأنبأه الله بذلك وعمل كما أخبره الله وخرج على قومه من المحراب وطلب منهم أن يسبحوا الله بكرة وعشياً شكراً لله على هذه النعمة التي أنعمها على زكريا وهو أن يرزقه غلاماً رضياً.

وولد يحيى عليه السلام بصفات لم يربَّ عليها بل طبعها الله فيه وهي صفات ربانية فكان حنوناً وزكياً وبراً بوالديه ولم يكن عنده شيء من الجبروت أو العصيان.

ولم يقف عطاء الله عند هذه الصفات، بل إن الله تعالى علمه الكتاب وأتاه الحكم صبياً أي أنه جعله نبياً بعد سن الطفولة مباشرة ويعرف الكتاب ومعانيه ويفهمه ويحفظه، وهذا ما يطمئن زكريا عليه السلام الذي كان خائفاً على هذا الدين فأراد الله أن يطمئنه على الدين قبل موته فيأتي إعجاز الله ليبرهن له ولغيره أن قدرة الله وإرادته تتجلى في صبي وأن الله ينصر دينه حتى لو لم يبقَ له إلا الصبي.

ولقد ذكر عطاء الله تعالى يحيى عليه السلام لنبي الله زكريا في موقع آخر من كتاب الله تعالى، حيث قال : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٣٨-٤٠] .

إن خلق يحيى عليه السلام من العجائب والمعجزات وتبعها إعجاز آخر وهو خلق إنسان من أم بلا أب ليكون إعجازاً للبشر الذين توقف فكرهم عن التفكير بقدرة الله وأنه خلق آدم من غير أب ولا أم حيث خلقه من طين، وها هو يخلق إنساناً بلا أب ليعيد تذكير العقول بقدرة الخالق المطلقة على الخلق.

ولهذا الأمر فإن الله تعالى اختار مريم العذراء وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا نبي الله الذي رعاها وأحسن رعايتها ، ومن قبل فإن والدتها نذرتها خالصة لوجه الله من قلب مؤمن بالله ولقد بين الله تعالى أن مريم هي خير نساء العالمين وخير بنات حواء منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة ولقد وضح هذا من قول الله تعالى فيها : ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣] .

وأيضاً فإنها المرأة الوحيدة التي ذكرت بالاسم في كتاب الله كما ذكرها الحديث الشريف بأنها اول

نساء أربعة كملن بإذن الله.

كما أعلمت الملائكة مريم بإرادة الله لها لتكون أما لنبي ولتكون وابنها آية للعالمين ولقد بين الله ذلك بقوله : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٤٥-٤٧] .

وقد وردت عدة إشارات في الكتاب المقدس تبشر ببعث عيسى ﵇ ونورد منها ما يلي :

((**ويخرج قضيب من جذع يسّى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب. ولذته تكون في مخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه. بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف... ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسّى القائم راية للشعوب إياه تطلب الأمم ويكون محله مجداً**)) [سفر اشعيا ـ الإصحاح الحادي عشر].

يتضح من هذا النص بأن عيسى ﵇ ينسب إلى عائلة داود ﵇ نسبة لأمه وكذلك يتضح أن سكان فلسطين أيام ميلاد عيسى ﵇ هم أحفاد داود وسليمان عليهما السلام وهذه الشهادة يجب أن يعيها كل من يؤمن بالكتاب المقدس وبما أنه لم تكن هناك هجرات بعد ذلك من فلسطين فإن هذا يعني أن الشعب الفلسطيني الحالي هم أحفاد داود وسليمان ومن تلاهم من الأنبياء صلوات الله عليهم.

وقد ورد من بشائر بعث عيسى ما يلي :

((**كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه. فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة ... سلطانـه أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض**)) [سفر دانيال ـ الإصحاح السابع] .

ونحن نرى حالياً أن معظم الشعوب هم من اتباع عيسى ﵇ وبعد عودته مرة أخرى فإن كل الشعوب ستتبعه عند ذلك. كما ورد في بعث عيسى ما يلي :

((**وتسير أ مم كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب وإلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب**)) [سفر ميخا ـ الإصحاح الرابع] .

ومن المعروف أن عيسى يسمى (كلمة الله) .

وأما من جهة مولد عيسى ﵇ وهي مدينة بيت لحم فقد وردت فيما يلي: ((**أما أنت يا بيت لحم أفراتة وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل**)) [سفر ميخا ـ الإصحاح الخامس] .

وهذا يتوافق مع مـا جـاء في القرآن الكريم بأن سكان الأرض المقدسة في زمن عيسى ﵇ هم بنو إسرائيل عرقاً وهم لم يتبدلوا منذ ذلك التاريخ وهم الآن الشعب الفلسطيني.

كما ورد ذكر بعث عيسى ﵇ على لسانه شخصياً ، إذ أخبر في الإنجيل بأن موسى ﵇ بشر به وهذا ما جاء في النص التالي:

((**لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوني لأنه هو كتب عني . فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي**)) [إنجيل يوحنا ـ الإصحاح الخامس] .

كذلك فقد ورد ذكر بعث عيسى في النص التالي :
((**قال ألعل المسيح من الجليل يأتي . ألم يقل الكتاب أنه من نسل داود ومن بيت لحم القرية التي قال داود فيها يأتي المسيح**)) [إنجيل يوحنا ـ الإصحاح السابع] .

وهذا النص أيضاً يثبت كما قلنا بأن عيسى عليه السلام من نسل داود وأن داود ومن بعده من أنبياءهم أجداد الشعب الفلسطيني.

وقال الله تعالى في قصة خلق عيسى عليه السلام في سورة (مريم): ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ [مريم: ١٦-٢٢] .

وهناك في الكتاب المقدس ما يظهر هذا الأمر أيضاً حيث جاء:

((**وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله .... إلى عذراء ..... من بيت داود واسم العذراء مريم . فدخل إليها الملاك وقال سلام لك أيتها المنعم عليها .... فلمّا رأته اضطربت من كلامه ..... فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم ..... وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسميه يسوع. هذا يكون عظيماً .... ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية . فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا. فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله**)) [إنجيل لوقا ـ الإصحاح الأول].

هذا في بيان خلق عيسى عليه السلام ولقد ذكر الله في مواضع كثيرة من كتابه الكريم ما يخص وحدانيته المطلقة التي يؤمن بها كل مؤمن بالله .

نكتفي بهذا الآن ولنبين بعض الإعجاز الذي أرسل به عيسي عليه السلام حيث لابد لكل نبي من إعجاز فوق مستوى أداء البشر ومن صنف الموجود لدى البشر وأعلى مستوى من أن يأتي به بشر سواء في ذلك الزمان أو عبر الزمان إلى قيام الساعة ولقد كانت معجزات عيسى عليه السلام المادية كثيرة أهمها إحياء الموتى بقدرة الله، ولقد ظهر هذا الإعجاز من قول الله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٤٨-٤٩].

هذا إعجاز عام لكل البشر، وأما لصحابته وبشكل خاص فإنهم مثل أجدادهم الذين يسر الله لهم المن والسلوى فإنهم طلبوا أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء يأكلون منها ويشهدون بها على الناس، ولقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:١١٢-١١٥] .

وبالطبع فإن هؤلاء هم صحابة نبي الله عيسى عليه السلام ولم يكن طلبهم هذا ناتجاً عن قلة إيمان فقد شهد الله بإيمانهم ، ولكن لتطمئن قلوبهم وما هذا إلا كطلب جدهم إبراهيم عليه السلام بأن يرى كيف يحيي الله الموتى، ولقد أنزل الله المائدة لعباده المخلصين فاطمأنوا بها وإليها وحمدوا الله على نعمته وشهدوا بها لله ولرسوله الكريم عيسى عليه السلام وديانته السماوية السمحة التي هي من الله تعالى ومكملة للديانة التي جاء بها موسى ومصدقة لها.

ولقد شهد الكتاب المقدس بأن الإنجيل هو مكمل للتوراة التي سميت بالعهد القديم وسمي الإنجيل بالعهد الجديد بالتسميات الحالية وقد جاء هذا النص فيما يلي :

((**لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل**)) [إنجيل متى ـ الإصحاح الخامس] .

وكانت المائدة مصدر غضب ولعنة على من رآها بعينه تنزل من السماء ولم يؤمن بالله ، وهم الفئة التي خرجت عن المسار الصحيح والذين حاربوا نبي الله ودين الله ممن ضل من بني إسرائيل فانضموا إلى من لعنوا سابقاً بدلاً من أن تشملهم رحمة الله وهذا شرط إنزال المائدة عليهم.

وأما المهمة التي جاء بها عيسى عليه السلام فهي تصويب مسيرة الإسلام التي بدأ الانحراف على حامليها من أهل الخير حتى أنهم انقسموا على أنفسهم إلى قسمين: بدأ أحدهما يحرف كلام الله تعالى وبدأ الخلاف يشتد فيما بينهما وكل منهم يدعي الصواب لنفسه ، ومما قوى شوكة الباطل وصول من أضل الله إلى سدة الحكم فصارت السلطة في يد المنحرفين وقويت شوكتهم ، وضعفت قوة المؤمنين وأوذوا في سبيل الله وقل عددهم، وهؤلاء المنحرفون الذين ضلوا عن طريق الله القويم تنطبق عليهم أيضاً كلمة يهود لتحريفهم كلام الله كالذين سبقوهم من بني إسرائيل والذين تم طردهم من فلسطين حيث حرفوا كلام الله، ومن هنا نرى أن من ضل من بني إسرائيل وانحرف وثبت على انحرافه ولا رجعة له إلى صواب ولم يؤمن بعيسى عليه السلام فإنه تنطبق عليه كلمة يهودي وكذلك من اتبعهم من الأمم الأخرى.

ومن الأذى الذي لحق بالمؤمنين قتل سيدنا زكريا عليه السلام حيث تم شطره إلى نصفين من رأسه إلى قدميه، وكذلك قتل يحيى عليه السلام حيث قطع رأسه وكذلك الشهداء ممن دعا إلى الله مع نبي الله عيسى عليه السلام. وبعد أن بين الله إعجاز عيسى عليه السلام أظهر المهمة الرئيسية التي بعث بها ؛ وهي تصويب المسيرة الحقة التي هم عليها أصلاً حيث ظهر هذا من قول الله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ

رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران:٥٠-٥١].

كما ذكر الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف:٦٣-٦٤].

توضح الآيات أن عيسى عليه السلام بعثه الله مكملاً لرسالة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام والتي هي في التوراة التي يختلفون عليها وهم منقسمون، وسيوضح لهم ما يختلفون فيه ويبين لهم الحق والحكمة بعد بيان ما أعطاه الله من معجزات تجعلهم يصدقون نبوته، هذه المسيرة يمكن تلخيصها بأن الله خالق كل شيء لا رب سواه ولا خالق سواه ولا معبود إلا إياه.

وقد أورد الكتاب المقدس دعوة عيسى عليه السلام لعبادة الله كما وردت في القرآن ولكن بكلمات مختلفة وقد جاء النص كما يلي :

((**فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هي أول الكل . فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا هي إسمع يا إسرائيل . الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك**)) [إنجيل مرقس ـ الإصحاح الثاني عشر] .

ملاحظة : هل ينزل الله الانجيل مكملاً للتوراة بلغة مختلفة عن لغة التوراة مع انهما لنفس القوم (بني اسرائيل)؟ وقد يقول قائل إن اللغة تتغير مع الزمن، وردنا هو أن اللغة التي يحملها كتابٌ سماويّ لا تتغير مع الزمن ويثبت ذلك أن لغتنا العربية لم تتغير منذ أربعة عشر قرناً.

ولم تقف بشرى عيسى عليه السلام عند هذا الحد بل أعلمهم بالمسيرة القادمة واستمرارها، حيث بشرهم برسول الهدى محمد ﷺ وأنه النبي الخاتم فمن لحق به منهم فليتبعه والذي يأتي بالرسالة التامة من الله تعالى ولقد ظهر هذا جليا من قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف:٦] .

ولقد كان الأمر برمته بسبب ضعف المؤمنين وقلة حيلتهم وميلاد يحيى عليه السلام من أبوين عقيمين وميلاد عيسى عليه السلام بلا أب ، وكان الأمر تمحيصاً للقلة المؤمنة التي بدأت تشعر بالضعف، وما الأمر إلا كحادثة الإسراء عندما أسرى الله تعالى برسوله إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء، وعاد في نفس الليلة وكـان المسلمون في ضعفهم الشديد ليطلع عليهم رسول الله ﷺ بقصة الإسـراء، وما ذلك إلا لتمحيص المؤمنين، هذه الصفوة هي التي ستحمل على عاتقها رسالة الإيمان والتبشير بها والجهاد فـي سبيلهـا.

وهكذا كان الأمر مع بعث عيسى عليه السلام حين كان المؤمنون في ضعف وساد الضالون في أمتهم إضافة لوجود مستعمر وثني، وهذا ما سيضع المؤمنين موضع التمحيص الشديد والثبات في مثل هذا البلاء جهاد كبير وتضحية في سبيل الله فقتل من استشهد من المؤمنين وعلى رأسهم زكريا ويحيى.

عودة بنا الآن إلى لفظ بني إسرائيل والوارد في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ [الصف:٦] .

إن المقصود في الآية هو أن سكان هذه المنطقة في ذلك الزمان هم بنو إسرائيل حتماً والجزء الخير منهم.

ويجب على المطلع ألا ينسى عنصر التكاثر مع الزمن وامتلاء الأرض بالسكان الذين يعوضون ما خرج منها وتركها لأي سبب من الأسباب.

من الطبيعي أن يتم انتشار سبطي الخير على الأرض المقدسة كلها في مراحل طرد الأسباط العشرة منها، لأن طردهم استغرق مئات السنين وكان مؤكداً أن من له عقل ممن تقرر طردهم أن يعطي أرضه أو يبيعها لأبناء السبطين ثم يرحل وينجو بنفسه قبل أن يصله القتل، ولقد وردت إشارات في الكتاب المقدس لانتشار السبطين على كل الأرض المقدسة ولكنها ليست بالوضوح اللغوي التام بل تشير إلى هذا المعنى وكان ذلك في النص التالي : ((**وطهر يهوذا وأورشليم .. وقطع جميع تماثيل الشمس من كل أرض إسرائيل ثم رجع إلى أورشليم ... وأزال جميع الرجاسات من كل الأراضي التي لبني إسرائيل...**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح ٣٤] .

وجملة كل الأراضي التي لبني إسرائيل تعني الأرض المقدسة كلها وكذلك تعني كلمات (من كل أرض إسرائيل) الواردة في النص .

كما كانت هنـاك أيضـاً إشـارة إلـى ذلك فـي النص التالـي :

((**وأرسل حزقيا إلى جميع إسرائيل ويهوذا وكتب أيضاً رسائل لأفرايم ومنسى أن يأتوا إلى بيت الرب في أورشليم ليعملوا فصحاً للرب اله إسرائيل**)) [سفر أخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح الثلاثون] .

وإرسال حزقيا إلى جميع إسرائيل ويهوذا تعني كل سكان الأرض المقدسة في ذلك الوقت الذي جزؤها الشمالي كان يسمى إسرائيل وجزؤها الجنوبي كان يسمى يهوذا وحزقيا هو الذي حكم فترة تسعة وعشرين عاماً بعد طرد الأسباط العشرة كلياً ، فيمكن أن يكون أول ملك لكل الأرض المقدسة.

وذكر هذا النص أيضاً أفرايم ومنسى وهم سبطا يوسف عليه السلام ، وهذا يعني وجودهم في فلسطين في زمن حزقيا ، أي بعد طرد الأسباط العشرة كلياً . وهذا يؤكد أن سبط يسوف هم سكان القدس، وأن كلمة يهودا هي اسم منطقة القدس في ذلك الزمن. ومما يؤكد هذا الأمر أن العدالة الربانية التي تقضي بطرد أهل الشر من الأرض المقدسة وإبقاء أهل الخير والإيمان فيها.
ومما يؤكد انتشار السبطين في كل الأرض المقدسة؛ أن التكاثر كان يحصل مع مرور الزمن مع طرد أهل الكفر من بني إسرائيل وبقاء أهل الخير، فقد كانوا يتكاثرون ويملئون الأرض المقدسة.

نأتي الآن إلى نقطة خاصة وهي الرهبانية (الرهبنة) ، فقد ورد في كتب التاريخ أنه كان يحكم بني إسرائيل كبير الرهبان ، ولقد بين الله تعالى أنه فرض الرهبنة فـي حدود إرضاء الله وحفظ الدين وحفظ حق الإنســـان وعدم ظلمه فالله تعالى يذكر زكريا عليه السلام: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران:٣٧]، أي أن إقامة مريم كانت في المحراب أي في المسجد.

وكذلك أظهر الله تعالـى أن زكريـا عليه السلام كان يقيم في المسجـد وربما معظم الوقت ، حيث جـاء فـي

قول الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم:١١].

تظهر الآية الكريمة أن انطلاقة نبي الله للقاء قومه المسجد حيث تنص الآية (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ)، أي من داخل مكان قيادته أو خلافته أو إقامته معظم الوقت أو المكان الطبيعي للقائه بقومه.

تظهر الآيات التي أوردها الله تعالى أنه متزوج ويطلب من الله أن يرزقه الذرية الطيبة وهذا ما فرضه الله من عنده من رهبنة ، وهو أن تكون المنابر مراكز القيادة للبشرية ومكان العبادة والهداية ولكن البشر أضافوا من عندهم ما يتناقض وطبيعة خلق الله ، وهذا ما لا يقبله الله تعالى فقد بين ما حصل من أخطاء على ما فرض من الرهبنة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:٢٧] .

لم تكن بداية هذا الأمر منذ عهد زكريا ﷺ ، بل كان منذ استقرار دولة الإسلام في فلسطين فقد كان الأمر منذ صدر الإسلام في فلسطين مع سيدنا داود ﷺ إذا قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ [ص:٢١-٢٢].

تظهر الآيتان الكريمتان أن الخصمين صعدوا السور ودخلوا على داود إلى المحراب من فوقه ولم يدخلوا من الباب فظهر عليه الخوف (فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ) أي دخلوا عليه في مكان إقامته أو مكان قيادته وهو المسجد (المحراب يكون داخل المسجد) ، وهذا يؤكد إقامة نبي الله معظم وقته داخل المسجد كيف لا وهو القائد وتبين الآيات أيضاً أن داود متزوج وأنه أنجب سليمان ﷺ نبياً من بعده والذي وسع البناء وبنى المسجد الكبير أو الهيكل على حد تسمية اليهود .

نأتي الآن إلى الأسماء، فالله تعالى هو الذي سمى يحيى ﷺ بهذا الاسم والله تعالى هو الذي سمى كلمته المسيح عيسى بن مريم بهذا الاسم، وقد جاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران:٤٥] .

يتضح لنا أن نسبة الدين إلى المسيح ﷺ أمر لا يجوز، فلا يجوز أن تنسب الديانة لنبي كما لا يجوز لنا أن نقول عن مسلمي اليوم أنهم محمديون بل إنهم ومحمد الذي جاءهم بالإسلام من ربه مسلمون أي أسلموا أنفسهم إلى الله تعالى خالقهم .

فهل دعا عيسى ﷺ إلى مسيحية؟ حاشاه أن يفعل ذلك وهو نبي الله ، إنه دعاهم للإسلام إكمالاً للرسالة التي ورثها وتابعها، ولنر الآن الآيات التي تثبت أن عيسى ﷺ دعا للإسلام ولم يدع لغير ذلك

فقد جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١].

تظهر الآية الكريمة أن إسلام الحواريين كان بوحي من الله دعما لنبيه الكريم وهم صحابته وأشهدوا الله على أنفسهم بأنهم مسلمون وهذا يعني أيضاً أن الله تعالى كلف نبيه وأوحى إليه أن يدعو للإسلام إذ كيف يوحي الله بالإسلام لصحابة النبي ولا يوحي للنبي بذلك؟

ولقد جاء في قول الله تعالى أيضاً : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢] .

تظهر الآية الكريمة أن الحواريين يعلنون لعيسى عليه السلام وعلى مسمع من الملأ الذين هم كفار وأحس عيسى منهم الكفر أنهم آمنوا بالله وأنهم مسلمون ، فإلى ماذا كان يدعو عيسى ؟

وهناك آية يشهد بها الله تعالى على قوم من هؤلاء أنهم مسلمون، ولقد ورد ذلك في قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠].

هذه الآيات تظهر أن فئة من بني إسرائيل يزعمون أن عيسى عليه السلام قال لهم كونوا عباداً لي وأنه إله أو ابن الله، وسنأتي لهذا الموضوع في فقرة لاحقة، ولكن عيسى عليه السلام دعاهم لأن يفهموا منهج الله حق فهمه وأن يكونوا عباداً لله وحده وأن يتجهوا لله في عبادتهم ، فلا يمكن لنبي أن يدعي لنفسه الألوهية لأنه نبي ولأنه يعلم من الله أكثر من البشر، لذا فلا يمكن أن يصدر هذا عن نبي وأن الذي يمكن أن يصدر عنه أن يدعو الناس ليكونوا ربانيين عبيداً لله وحده ومسلمين لله وحده، ويذكر الله أن من يتصف بهذه الصفات كالحواريين ومن اتبعهم ومن سار على نهج عيسى عليه السلام هم مسلمون. هل هناك بعد هذا ما يدعو إلى الشك بأن عيسى عليه السلام لم يدع إلا للإسلام.

وقد بيّنا سابقاً كيف أن دعوة يوسف ودعوة موسى ودعوة سليمان عليهم السلام كانت للإسلام وهانحن الآن يتبين لنا أن دعوة عيسى عليه السلام هي للإسلام وها نحن نعيش معاً دعوة محمد ﷺ إلى الإسلام ولقد لخص الله تعالى هذه الرسالات معاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٩-٢٠].

إن الله واحد والإسلام له ولا يقبل من البشر غيره، والإسلام ليس مجرد دعوة أو كلمة تردد ولا شعائر أو شعارات وإنما هو طاعة واتباع وتحكيم كتاب الله في أمور العباد.

والذين أوتوا الكتاب هم ذرية إبراهيم الذين أتاهم الله الحكم والنبوة فبدأت المفاصلة بينهم منذ اختيار يوسف عليه السلام بغياً وحسداً حين حسد أهل الشر أهل الخير منهم والذين اصطفاهم الله واجتبى جدهم يوسف لحمل راية الإسلام.

وزاد هذا الخلاف وتعمق أيام بعثة موسى عليه السلام وتحول الحسد إلى أحقاد أدت إلى عدوان أهل الشر على أهل الخير بعد موت سليمان عليه السلام فطرد الله أهل الكفر خارج الأرض المقدسة وبقي أهل الخير.

ومع بعثة عيسى عليه السلام انقسم من بقي في فلسطين حيث خرج منهم عن طريق الصواب من في نفسه حسد لأهل الخير واستمرت مسيرة الإسلام مع الخيرة منهم.

وكان يشتد الحسد مع وجود العلم بأن هذا الأمر من الله وبدلاً من أن يصحح ما في النفوس من عوج كان للشيطان على أهل الكفر تأثير كبير فكانت الخلافات تشتد إلى حد القتال وقتل الأنبياء مع كل بزوغ فجر دعوة جديدة.

ولقد أحس نبي الله عيسى عليه السلام بهذا الأمر وبالانحرافات تشتد، وأيقن أن من هم على طريق الضلالة لن يعودوا إلى طريق الحق فطلب المفاصلة بين أنصار الله وأنصار الشيطان ولقد بين الله تعالى هذا الأمر بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ﴾ [الصف:١٤].

تظهر الآية أن نبي الله يريد بيان المسلمين من الكافرين ووضع الحد الفاصل بينهم، مع أن العلاقة كانت بين الفريقين علاقة دم وقرابة وهي منذ حينه صارت علاقة دين وروح وتبين الآية بتمام الوضوح أن الجميع هم بنو إسرائيل أي عائلة واحدة وقرابة . ويظهر هذا جليا من قول الله : ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ [الصف:١٤].

وأما الكفرة فإنهم ينضمون بهذا الكفر إلى من تنطبق عليه كلمة يهود اعتباراً من انحرافهم عن مسيرة الحق.

مع بعثة عيسى عليه السلام انحرف من بني إسرائيل عن الصراط المستقيم حوالي النصف واستمر على طريق الإيمان النصف الآخر، وهل هذا النصف سبط كامل وهو سبط يوسف أم نصف السبطين؟ الأرجح أنهم سبط واحد وذلك من قول الله تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩]، وقال: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ [الأعراف:١٦٠] .

ومن النظر إلى الآيتين معاً يستدل وضوح بقاء سبط واحد وهي أمة الخير وهم السبط الذي ينتمي إليه نبي الله موسى عليه السلام وهو سبط يوسف عليه السلام .

إن هؤلاء الذين انحرفوا عن مسيرة الصواب الكفار اليهود الجدد الذين كان عمر انفصالهم يقارب المئة عام رغم وجود أنبياء الله زكريا ويحيى يدعونهم للصواب قبل عيسى عليهم السلام، هؤلاء الكفار لن يتركوا المسلمين بحالهم بل سيعتدون عليهم بالقول والفعل، وسيكون نبي الله مركز الهجوم الرئيسي

وستكون الحياة صعبة جداً مع وجود الكافرين في السلطة في ظل مستعمر وثني هو الاستعمار الروماني.

ولقد بدأ هجومهم منذ استشهاد زكريا ويحيى عليهما السلام كما أوردنا، وامتد إلى عيسى عليه السلام عندما رأوا المعجزات فاتهموه بالسحر كما اتهموا باقي أنبياء الله، ولقد جاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة:١١٠].

إن كل هذا الإعجاز الذي في الآية فوق مستوى السحر وهم يعلمون ذلك ، ولكن حقدهم الناتج عن حسدهم أعماهم عن أن يفقهوا الحقيقة فزاغوا عن أمر الله فزادهم الله زيغاً.

ولم يقفوا عند هذا الحد بل نسبوا الفاحشة إلى مريم العذراء ولم يفطنوا إلى خلق آدم من طين وبكلمة من الله ، ونسوا أن عيسى عليه السلام كلمهم وهو رضيع يدافع عن والدته وبشرهم بأنه عبد الله ورسوله، هذا إضافة إلى مؤامرتهم على قتل عيسى عليه السلام. ولكن الله تعالى أفسد مؤامرتهم؛ فشبه أحد الكافرين به ورفع نبيه إليه وقتلوا صاحبهم ونجى الله نبيه بتدخله المباشر بأن رفعه إلى السماء، ولقد بين الله تعالى هذا الأمر بقوله: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء:١٥٦-١٥٧] .

تبين الآيات أنهم قالوا على مريم العذراء الفاحش من القول، وأن قولهم بهتانٌ وزورٌ وكذبٌ، وكذلك تظهر الآيات أن الكفار اليهود صلبوا شخصاً شبهه الله بعيسى بن مريم عليه السلام، أي جعله في صورته تماماً وأنهم يقيناً ما قتلوه، وأن الذي رأوه مصلوباً هو أحدهم وأما نبي الله فقد رفعه الله إليه في إحدى السماوات، ولقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٥٨] .

ولم يكتف رب العزة بذلك ، بل أعلن أنه سينصر جنده وسيؤيد الذين اتبعوا عيسى عليه السلام، وسيجعلهم وأبناءهم وأحفادهم أعلى شأناً في هذه الدنيا من اليهود الذين كفروا بعيسى، إضافة إلى حساب الله وعذابه للكافرين في الآخرة، ولقد بين الله تعالى هذا بقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران:٥٤-٥٥].

ظهر نوع جديد من الكفر من هؤلاء الكفار ، ففريق منهم لم يصدق بنبوته وقال إن عيسى عليه السلام ساحر وقالوا ما لا يقال عنه وعن والدته، والنوع الجديد من الكفر ظهر من أناس تظاهروا بالتصديق مع عدم فهم

ما أرسل به عيسى، فقد دعاهم عيسى عليه السلام أن يكونوا ربّانيين وأن يكونوا أنصار الله، فتظاهروا بالفهم الخاطئ وقالوا إن عيسى ابن الله وأنه واحد من ثلاثة يشكلون الآلهة، وكان هذا ونبي الله عيسى يعيش بينهم وهو بدوره قاوم هذه الدعوى وعارضها وبين لهم أن هذا الكلام شرك بالله ، وحاشا لله أن يكون له شريك في الملك ، ولقد ظهر هذا في قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢] .

تظهر هذه الآية أن هؤلاء الكفار هم من السكان الذين هم بنو إسرائيل حيث يوجه عيسى عليه السلام نداءه إليهم بقوله (يبني إسرائيل اعبدوا الله).

ولقد دافع الله تعالى عن رسوله الكريم بأنه لم يدع الألوهية، ولم يصدر عنه ولا يمكن أن يصدر مثل هذا الكلام عن أي إنسان لديه بعض إيمان ، فكيف يصدر عن نبي الله الذي اختاره الله، وهو أطهر رجال عصره وأتقاهم ، وأكثرهم إيماناً، ولقد ظهر هذا من قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦].

بهذه الآية القطعية المعنى يثبت أن عيسى عليه السلام لم يَدّعِ الألوهية، وأن كل ما يقال هو افتراء على نبي الله.

إن الله تعالى لن يترك هذا الأمر يمر كما هو، وقد جعل الله لمن قال ذلك لحظات ندم حيث لا ينفع الندم، فكل منهم وقبل الموت وعند لحظات الغرغرة سيرى المسيح عيسى بن مريم، ويعاتبه على معتقداته الخاطئة التي لم تصدر عن نبي، ولقد بين الله تعالى هذا الأمر بقوله: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٨-١٥٩] .

إن الطائفة من بني إسرائيل التي قتلت أنبياء الله زكريا ويحيى حاولت جهدها قتل نبي الله عيسى، وهم الذين انحرفوا عن التوراة وحرفوها قبل بعثة المسيح عليه السلام، وقد قاوموا دعوة الحق بكل الطرق، غضب الله عليهم ولعنهم على لسان نبيه عيسى ابن مريم، كما لعن من ضل وانفصل قبلهم على لسان نبي الله داود عليه السلام وشمل الله الضالين في آية واحدة، حيث قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨] .

لقد ثبتت الرسالة الجديدة بعد رفع عيسى عليه السلام وحملها الحواريون الذين قالوا إنا نصارى وهم ينصرون الله ودينه وسيحملون هذه الرسالة ويجاهدون في سبيل نشرها والحفاظ عليها وسيقاومون الذين لعنوا على لسان عيسى بن مريم وهم من بني جلدتهم.

لقد بينا سابقاً ما آل إليه الذين كفروا ولعنوا من بني إسرائيل على لسان داود وكيف صدر أمر الله

بطردهم من الأرض المقدسة وكيف اقتلعوا منها.

ولنحاول الآن العودة إلى التاريخ ولنتتبع رسالة عيسى ومسيرتها على أرض الأقصى وما هي مجريات الأمور التي تمر بها وبمن يحملها من بني إسرائيل أتباع عيسى، وماذا سيحل بالذين لعنوا من بني إسرائيل على لسان عيسى بن مريم ﷺ.

عودة إلى ((تاريخ فلسطين القديم)) فقد جاء فيه ما يلي:

حملة تيتوس: جاء فسباسيان الذي أصبح إمبراطوراً فيما بعد إلى فلسطين سنة (٦٧م) مع ابنه تيتوس في جيش بلغ مقداره ستين ألف رجل وغزا الجليل وبعد ثلاث حملات أخضع يهودية وكان مجيء تيتوس سنة (٧٠م) بسبب ثورة ضد روما ففتح أورشليم ودمر الهيكل على الرغم من أن الروايات تسجل أن تيتوس أمر بالمحافظة عليه ولم يكن هذا إلا بعد ثورة الأعوام الخمسة (٦٦-٧٠م) (ص ٨).

وفي سنة (٧٣م) كانت كل أنواع المقاومة قد انتهت. نتيجة لدعوة عيسى ﵇ إلى الدين الجديد وما رافق ذلك من إعجاز كبير من الله تعالى وبدأ التجديد في الظهور، اشتد انحراف المنحرفين الذين كانت بيدهم السلطة، وزاد تسلطهم على رؤوس العباد فزاد كره الناس لهم ورغبتهم في التخلص منهم، وفي المقابل رأى المؤمنون الأنبياء وتضحياتهم ومعجزاتهم فازدادوا إيماناً مع إيمانهم وانضم إليهم الناس الذين كانوا في انتظار الفرصة المواتية ، وبذلك صار الفريقان شبه متعادلين وربما انضم إليهم بعض جنود المستعمرين فصاروا قوة مكافئة أدت إلى قتال الطرفين وقتال الكافر كان تحدياً للمستعمر الروماني. كما يظهر ما يدل على أن ممثلي الاستعمار في فلسطين كانوا قد آمنوا بدعوة عيسى ﵇ مما نتج عنه أن أعداء الأنبياء وأعداء الله والذين لعنوا على لسان عيسى بن مريم قاموا بثورة ضد الدين والحكام ، فما كان من ممثل روما إلا أن يستنجد بروما فأرسلت الحملة المذكورة فاحتلت القدس ودمرت الهيكل، هذا بعدما جرت محاولات عديدة لاسترضائهم ومفاوضتهم للوصول إلى حلول بأن يرضى كل إنسان بما لديه من دين، ولكن أعداء الله لا يرضون إلا بالضلالة التامة ويشتد الحقد والحسد في قلوبهم ولا يرضون بغير فناء أعدائهم وينسون أن وعد الله حق والله ينصر دينه وجنده سواء بالانتصار المباشر أو بأن يرسل جنداً من عنده لنصرة دينه ، فجاء الرومان واحتلوا القدس ودمروا الهيكل؛ وألغوا بذلك الدين المنحرف وثبتوا الدين الجديد الذي جاء به عيسى ﵇ ليسود في فلسطين ولترتفع راية الإيمان ولو بجيش قيادته رومانية.

وبهذا ظهر الدين مرة أخرى وانحسر الكافرون وخاب ظنهم وساد الإيمان مجدداً في فلسطين برعاية أنصاره أنفسهم في ظل دولة رومانية، وهذه هي الصعوبة إذ أنهم سيظلون يقارعون إخواناً لهم في القربى كافرين وحكاماً لا يعرفون الدين إلا قليلاً وهذا ما سيجعل مهمتهم في تبليغ دين الله على درجة من الصعوبة ، وهذا ما سيزيد أجرهم عند الله إذا حملوا هذه الأمانة الكبيرة في زمن صعب وفي ظروف صعبة.

فهل حملوا هذه الأمانة؟ نعم إنهم حملوها ونجحوا في حملها إذ أن الله تعالى أخبرنا ذلك بكتابه العزيز إذ قال الله تعالى مطمئناً نبيه عيسى ﵇ قبل أن يرفعه إليه : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران:٥٥].

وفي هذه الآية بشرى لنبي الله عيسى بأن اتباعه سيحملون هذه الأمانة وسيكونون عند حسن ظن الله بهم وسيكونون أعلى شأناً من أعدائهم ؛ أعداء عيسى ﵇ من اليهود إلى يوم القيامة لأنهم جند الحق والله ينصر جنده دائماً.

استقام الأمر وهدأت الأمور وقهر أعداء الله ولكنهم بقوا صامتين هادئين إلى أن ثارت فيهم ثائرة الأحقاد والحسد فأشعلوا ثورة جديدة بعد خمسين عاماً تسمى ثورة (باركوخبا) التي جاء فيها في كتاب التاريخ ما يلي :

ثورة باركوخبا : (١٣٢-١٣٥م) : جاءت هذه الانتفاضة نسبة إلى قائد الحركة (باركوخبا)، أي

ابن النجم ولا يعرف أصل هذا الرجل الذي اسمه الحقيقي سيمون ، إلا أنه حصل على اعتراف بأنه المسيح من جانب أقوى حاخام في ذلك العصر أكيبا بن يوسف واجتمع تحت لوائه مائتا ألف يهودي هجموا على القدس واحتلوها (ص٩١).

ثم احتلوا حاميات ومراكز رومانية أخرى في مختلف أنحاء البلاد وحتى غير اليهود انضموا إلى القوات المتمردة ولكن مسيحيي فلسطين أحجموا عن الاشتراك في تلك الثورة، وفي النهاية قرر هارديان محق هذه القومية اليهودية العنيدة وأصدر مرسوماً يمنع بمقتضاه قراءة القانون ((التوراة)) ، واحترام السبت ، والحقيقة أن هارديان لم ينته إلى هذا الحل إلا بعد أن فعل ما في وسعه لاسترضاء اليهود (ص٩٠-٩١) .

وأرسل هارديان جيشاً كبيراً لمواجهة الطغيان اليهودي الذي احتل القدس ثانية فهرب اليهود إلى بيتار (بتير حاليا) وهزمهم الرومان وأعملوا فيهم سيف القتل ومنع هارديان اليهود من الظهور داخل المدينة وكان جزاء المخالفين القتل واستمر هذا الحظر مائتي سنة تالية (ص٩٢-٩٣).

ولم يبق من مظاهر الحياة اليهودية في فلسطين إلا المدارس التي تأسست في المدن الأخرى دون القدس ، وكانت أول هذه المدارس قد بدأت في الجليل منذ سنة (١٣٥م).

وفي هذه الفترة ألفت كتب دينية هامة كالتلمود وتوسفتا وخلال هذه الفترة وضعت أسس اليهودية وأخذت اليهودية شكلها الدائم (ص٩٤) .

إن ربك لبالمرصاد فقد أرسل الرومان جيشاً كبيراً أعمل في الكفار سيف القتل وحطمهم وكسر شوكتهم إلى الأبد، حيث تقوقعوا على أنفسهم وبدأوا العيش كأقلية مقهورة لا حول لها ولا قوة ويظهر ذلك من جملة ولم يبق من مظاهر الحياة اليهودية في فلسطين إلا المدارس التي تأسست في المدن الأخرى دون القدس.

وهذا يعني تحريمها عليهم وان من يدخلها يقتل وليس لهم دخول المدينة المقدسة لما هم عليه من باطل يسيء إلى دين الله ، وأنهم يسمح لهم بالحياة متقوقعين لا يظهرون من مظاهر دينهم شيئاً على الإطلاق وأصبح مظهر الحياة العامة في فلسطين أنها تعيش ديانة الله التي جاء بها عيسى عليه السلام.

عودة إلى كتاب ((تاريخ فلسطين القديم)) فقد جاء ما يلي :

لقد وقع تطور مثير في غير صالح اليهود حين اعتنق قسطنطين (٢٨٨-٣٢٧) المسيحية سنة (٣١١م) ، وبذلك ازداد الاضطهاد المسيحي لليهود لأن قسطنطين أعاد أحكام هارديان الخاصة بمنع اليهود من الإقامة في القدس والتي كان خففها (أوريليوس) وكان الحكام يتساهلون في تنفيذها قبل عهد قسطنطين . (ص ١٢٩) .
لقد امتد دين الله ليشمل رأس الإمبراطورية الرومانية وهذا يعني أنه غطى الإمبراطورية الرومانية على الأقل.

يذكر الكتاب أنه زاد اضطهاد المسيحيين لليهود لأن قسطنطين أعاد أحكام هارديان الخاصة بمنع اليهود من الإقامة في القدس.

إن هارديان لم ينفذ هذا الأمر إلا باستشارة رجال الدين الذين آمنوا أن هذا أمر الله بمنع إقامة أهل الكفر من أي ملة في القدس، رغم أن الكتاب لا يذكر أن هارديان كان يتبع ديانة عيسى ولكنه طبق تعليمات رب العالمين بألا يسكن أهل الكفر من أي ملة القدس ، وهذا واجب على كل مسلم أن يعمل على تنفيذه لأن هذا قرار الله بعدم إبقاء أهل الكفر في الأماكن المقدسة.

عودة إلى كتاب التاريخ حيث جاء:

ولكن الإمبراطور جوليان الذي جلس على العرش سنة (٣٦١م) ارتد عن المسيحية وألغى جميع الأحكام ضد اليهود وبعث برسالة يؤكد عزمه على إعادة بناء الهيكل ، وكان قصده من ذلك إبطال النبوة ، وهذا العمل تعطل في نفس الوقت الذي بدأ فيه وذلك بسبب ظاهرة غير عادية، وهي اشتعال النيران والانفجارات المدوية التي فسرت بسهولة في تلك الأيام كحكم سماوي (ص١٣٠) .

لم ترد في القرآن الكريم قصة ارتداد الإمبراطور (جوليان) عن الدين ومحاولة تصديه للدين بكل ما أوتي من قوة، كذلك لم ترد الأحداث المذكورة من اشتعال النيران والانفجارات المدوية التي حدثت في القدس لتعيق الحاق الأذى بالمؤمنين، وليس في كتاب الله ما يعارضها بل نجدها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ [الفجر:١٤].

ولقد علمنا ما فعل الله بأصحاب الفيل وما ذكره في كتابه العزيز عندما كان الهجوم مباشرة من قمة الكفر على بيت الله ، فأرسل الله طيراً أبابيل رمتهم بحجارة من سجيل فجعلت الكافرين كعصف مأكول.

وإننا لا نؤكد ولا ننفي حصول ما ذكر من اشتعال النيران والانفجارات وهذا ليس ببعيد على الله أن ينصر دينه بأي وسيلة من عنده تعالى ، وظهر انتقام الله تعالى بعد فترة وجيزة إذ انقسمت الدولة الرومانية إلى دولتين الدولة الشرقية وعاصمتها بيزنطة والدولة الغربية وعاصمتها روما وهي الأضعف وهذا هو انتقام الله تعالى أن جعل الذين يريدون أن يتطاولوا على دين الله دولة من الدرجة الثانية وكان حكم فلسطين للدولة الشرقية.

عودة بنا إلى كتاب ((تاريخ فلسطين القديم)):

وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية سنة (٣٩٥م) وقعت فلسطين في حصة الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة) ، وفي القرنين التاليين لم يكن للبلاد تاريخ خارجي فقد كانت سنوات السلام والأمن في فلسطين (ص١٣١).

إن هذه الفترة الهادئة لتدل على أن حكومة بيزنطة كان لها إيمان بالله ولو أنها دولة استعمارية من وجهة نظرنا فهي دولة روم لكنهم إذا اتبعوا عيسى حق اتباعه فإنهم مؤمنون وهذا ما لا نستطيع أن نحكم عليه الآن لأن التاريخ لم يدون لنا سوى حروبهم وتوسعاتهم الاقتصادية والاستعمارية ولم يتطرق إلى عمق الناحية الإيمانية وأثرها على تلك الدول.

تدل تلك الفترة أيضاً على أن أهل الكفر أمعنوا في التقوقع في ظل حكم يستتير بكتاب الله وهذا يتنافى مع طبيعتهم الشريرة فلا يطيقون العدل ولا الاستقامة لأنهم في طبيعتهم فاسدون مفسدون.
عودة إلى كتاب التاريخ إذ يذكر عن قبيلة اسمها السماريون يسكنون شمال فلسطين ما يلي :

وكان السماريون لا يزالون في عدد كبير في شمال فلسطين وقد ثار السماريون ثورة نهائية سنة(٥٢٩م) ، ولكن دولة الغساسنة العربية في حوران التي كانت تتبع البيزنطيين قهرتهم قهراً دموياً فخربت ديارهم وأجبرتهم على الدخول في المسيحية (ص ١٣١).

لم يبق في فلسطين من أهل الكفر إلا من بقي في شمالها وها هم يدلون على أنفسهم فأزلهم الشيطان ووقعوا بشر أعمالهم فقهروا قهراً دموياً كما يقول الكتاب وبذلك لم يبق لأهل الكفر في فلسطين إلا بقايا متناثرة ليس لها أثر.

مما سبق نرى أنه كان هناك ثلاث ضربات رئيسية حاسمة قاصمة لأهل الكفر الذين ضلوا، كما يلاحظ شدة الجمل المستعملة في الوصف لما جرى وإن دلت هذه الجمل على شيء فإنما تدل على قسوة الروم والغساسنة الذين وكلهم الله بضرب أهل الكفر الذين لعنوا على لسان عيسى بن مريم.

ولقد بشر عيسى عليه السلام في الكتاب المقدس بهلاك اليهود في فلسطين وهم من سبطي الخير لكنهم ضلوا عن الطريق ولعنوا على لسان عيسى بن مريم فأخبر في الكتاب المقدس بهلاكهم وذلك في النص التالي:

((**كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلمه إلى كرامين وسافر. ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرامون عبيده**

وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضا عبيداً آخرين أكثر من الأولين. ففعلوا بهم كذلك فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون إبني .. وأما الكرامون فلما رأوا الإبن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث. هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين. قالوا لـه أولئك الأردياء يهلكهـم هلاكـاً ردياً ويسلم الكرم إلى آخرين يعطونـه الأثمار في وقتها)) [إنجيل متى ـ الإصحاح ٢١] .

يتضح من النص أن صاحب الكرم هو الله وأن الكرامين هم البشر وأن عبيده هم الأنبياء وهؤلاء البشر قتلوا أنبياء وجلدوا آخرين وأخيراً أرسل الله "ابنه" وهو عيسى عليه السلام فحاولوا قتله والنتيجة أن الله يهلكهم هلاكاً ردياً.

وهذا ما حصل إذ تم قتل اليهود في فلسطين وبقسوة شديدة كما يتضح من كتب التاريخ حيث لا يوجد قرار رباني بطردهم لذلك كان قرار الله بهلاكهم على كفرهم.

أما جملة (**ويسلم الكرم إلى آخرين**) فإنها تعني نقل قيادة المنطقة إلى أتباع محمد ﷺ وقد كان.كما وردت هذه القصة في (إنجيل مرقس ـ الإصحاح الثاني عشر) ، ووردت أيضاً في (إنجيل لوقا ـ الإصحاح العشرون)

وأخيراً كان ما فعله الغساسنة ببقاياهم الموجودة في شمال فلسطين حيث كما تقول الجملة عنهم (قهرتهم قهراً دموياً فخربت ديارهم وأجبرتهم على الدخول في المسيحية)، أي أن هذه الحرب هي حرب إبادة لذلك النجس وبهذا لم يبق في فلسطين إلا بقايا او شوائب تعكر صفو النهار ولا تحجب ضياءه.

فهل تسكت هذه الشوائب والبقايا وتعمل صالحاً أم تعمل سوءاً ليخلص الله منها ديار الإسلام؟

عودة بنا إلى كتاب التاريخ وما حدث بعد هذا من أحداث فقد جاء ما يلي :

وفي سنة (٦١١م) تعرض أمن فلسطين للخطر مرة أخرى حين أغار (خسرو الثاني) على (فوكاس) الذي كان قد اغتصب الإمبراطورية من موريس الذي كان صديقاً لخسرو والذي كان قد زوج إحدى بناته للإمبراطور الإيراني. وبدا لليهود أن خسرو جاء لتخليصهم.

وناصرت بعض الفرق المسيحية ؛ كالنسطورية ، واليعاقبية ، الحاقدة على النظام في روما الفاتحين الجدد ، وتبعها اليهود المشتاقون للانتقام لمآسيهم وجميع يهود الجليل الذين كانوا قادرين على حمل السلاح انضموا مع القوات الغازية متلهفين للتنفيس عن عدائهم لروما وللمسيحية (ص١٣٢)

وهكذا انضم اليهود إلى الفرس فرحين وانتقموا هم والفرس انتقاماً دموياً من المسيحيين ولقد حطم الفرس كنيسة القيامة ونهبوا كنوزها وحطموا كنائس أخرى واشترك اليهود مع الفرس في قتل جميع مسيحيي القدس وتدمير أماكنهم الدينية .

وهكذا فقد البيزنطيون سوريـة بما فيها فلسطين لبعض السنين ولم يستردهـا إلا هرقل سنـة (٦٢٨م) ليفقدها نهائيا عما قريب (ص١٣٣).

أما اليهود في ظل الفرس فقد دب الخلاف فيما بينهم فقد كانوا يحلمون بأنهم سيسمح لهم بإنشاء جمهورية ولكن آمالهم لم تتحقق ، هذا بالإضافة إلى ضيقهم بالضرائب التي فرضها الفرس ولهذا مال اليهود ثانية إلى البيزنطيين ، حيث قدم إليهم هرقل وعداً بالتسامح سنة (٦٢٧م)، ثم وعداً آخر بالعفو سنة (٦٢٨م) الذي قبله اليهود .لأن عبدة النار لم يكونوا ألطف من البيزنطيين (ص١٣٣) .
ولكن هرقل لم يفِ بوعده تحت ضغط رجال الدين الذين قالوا له أنهم سيتحملون المسؤولية، وأن الاتفاقيات مع الكافر ليست واجبة التنفيذ ، وعندئذ وقعت مذبحة لليهود ولم يبق منهم إلا الذين فروا إلى مصر أو الذيـن اختفوا فـي يهوديـة (ص١٣٤) .

وهذه الحادثة لها مدلولان:

الأول: وهو أن أهل الكفر رغم قلتهم إلا أن محاولات الإفساد منهم ظلت مستمرة حيث رحبوا بالمحتل الفارسي الذي يعبد النار وفضلوه على الذين يعبدون الله.

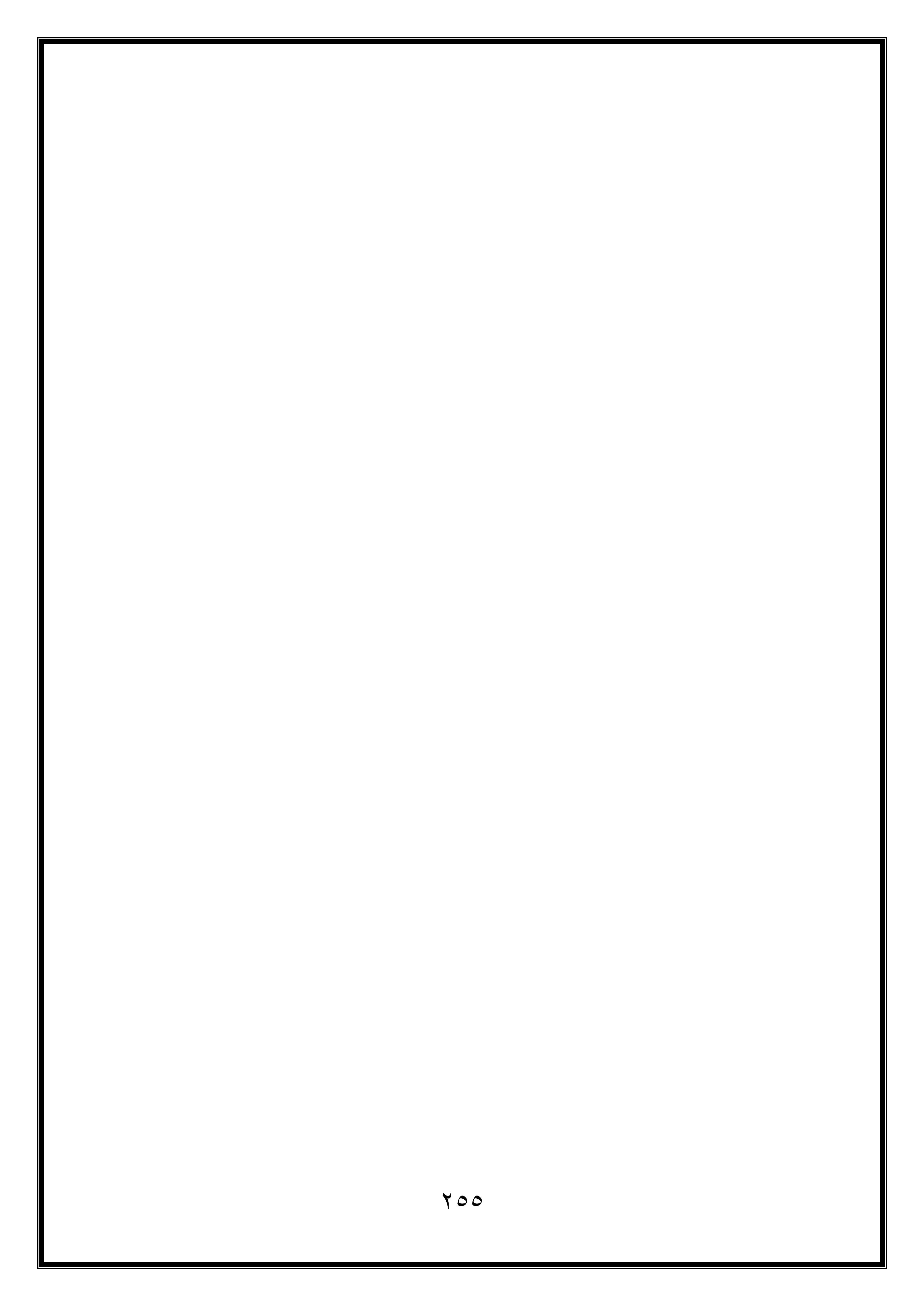
والمدلول الثاني أن بعض المؤمنين ممن هم على دين عيسى ضلوا عن دينه فأراد الله أن يؤدبهم وأن يبعث عليهم من لا يخافه فيهم ، فاحتل الفرس فلسطين وتعاون معهم أهل الكفر فيها ومنهم اليهود المعروفون بكفرهم ومنهم الطوائف التي تدعي أنها على دين عيسى وهي على ضلال، وبهذه الطريقة انضمت كافة فئات الضلال لتشكل فريقاً واحداً ضد أهل الإيمان فكان ما كان من قتال بينهم وتقتيل ، ولعل هذا كان تأديباً لهم على ما فرطوا في جنب الله ولكن الله سرعان ما ينصر دينه وعباده عند توبتهم وكان منهم ذلك ، فبعث الله هرقل لنصرتهم ، ومرة أخرى هُزم الشرك والكفر على أرض الإيمان وكان ما قالت عنه الجملة من فعل هرقل بعد أن أقنعه رجال الدين بأن لا عهد للكافر على مؤمن وهذا من صميم الإيمان.
ولقد قتلوا في فلسطين كما جاء في الكتاب المقدس على لسان عيسى ﵇ فيما أوردنا سابقاً حيث بشر عيسى بأنهم **(يهلكون هلاكاً ردياً)**.

لقد مر معنا عن قيام اليهود بثلاث ثورات ضد الروم ولا يدعو هذا يهود اليوم أن ينسبوا هذه الثورات شجاعة لهم لأن يهود اليوم من الأسباط العشرة الذين تخاذلوا وخذلوا نبي الله موسى ﵇

إن الذين قاموا بالثورات الثلاث ضد الروم في فلسطين هم من ضل عن الطريق القويم من سبطي الخير ولا يجوز ليهود اليوم أن يفخروا بهم لأنهم ليسوا منهم أصلاً ، وأمر آخر أيضاً فإنه مما يعنينا أنه خلال الفترة من (١م) وحتى بداية القرن السابع الميلادي فإن التاريخ لم يتحدث عن أي هجرات من وإلى فلسطين ، وكذلك فإن كتاب الله لم يتحدث عن هجرات وإنما تحدث عن ديانة عيسى ﵇.

وهذا يعني أن سكان فلسطين في صدر الإسلام الذين كانوا على دين عيسى وأسلموا هم من بني إسرائيل عرقاً والذين هم الآن سكان فلسطين وما حولها وهم أحفاد يوسف.

إن الذين لعنوا على لسان عيسى بن مريم فإنهم من ضل وانحرف من سبطي الخير وقد قتلوا في فلسطيننا ولم يطردوا منها وقد تكون حكمة الله تعالى من ذلك ألا يطردوا فيختلطوا بأحفاد أسباط الكفر فتختلط الأمور وتختلط الأنساب وأن الله تعالى يريد أن يبقي هناك حداً فاصلاً واضحاً بين صفوته من خلقه الذين اصطفى على العالمين، وبين أسوأ خلقه ، رغم أنهم جميعاً أحفاد إبراهيم ﵇ .. ولكن! ولكن الله يؤتي فضله من يشاء.



الفصل الثامن مع بعثة المصطفى

ويعود الهدوء إلى فلسطين بقيادة هرقل ويتم القضاء على أعوان الشر من اليهود ومن ضل ممن تبع ديانة الله التي جاء بها عيسى عليه السلام ويسمون باليعاقبة والنسطورية، وهؤلاء انضموا إلى الفرس أثناء عدوانهم على فلسطين، وبذلك فإن الله تعالى كشف ووحد ملة الكفر في فلسطين وأدّب بهم وبالفرس ملة الإيمان بما فرطت في جنب الله ولكن الله نصر دينه عندما جاء هرقل بقواته وحطم ملة الكفر كلها كما أسلفنا واستقرّ أهل الإيمان بإيمانهم يحملون وراثة كتاب الله على أرض الأقصى.

لقد حرص أكثر المؤرخين على إبراز القوة العسكرية والحكم والحكام والاستعمار ولم يتطرقوا بل لم يفطنوا إلى الناحية الدينية وأثرها في التعامل بين الشعوب وأثر الدين في السياسة وتوجيه الأمور الاقتصادية والعسكرية، ولكن من خلال بعض الجمل يمكن الاستدلال على مسيرة الحياة الدينية التي يستدل بها ولا يتم الحكم من خلالها بالجزم إلا ما ثبت بآية من كتاب الله تعالى.

ومن ضمن هذه الاستدلالات أن هارديان كان على درجة من التقوى وذلك من خلال قرار أصدره على اليهود بأن لا يدخلوا القدس وأن جزاء من يخالف ذلك هو القتل؛ وهذا قرار ديني.

كذلك فقد تحدث التاريخ عن اتباع الإمبراطور قسطنطين للمسيحية وأنه في عهده أعاد أحكام هارديان بمنع دخول اليهود إلى القدس بعد أن تهاون في تنفيذها من سبقه من الحكام.

كما ورد أن هرقل قدم لليهود وعداً بالتسامح سنة ٦٢٧م ووعداً آخر بالعفو سنة ٦٢٨م قبله اليهود ، ولكن هرقل لم يفِ بوعده تحت ضغط رجال الدين الذين قالوا له إنهم سيتحملون المسؤولية وإن الاتفاقيات مع الكافر ليست واجبة التنفيذ ، وعندئذ وقعت مذبحة اليهود ولم يبق منهم إلا الذين فروا إلى مصر أو الذين اختفوا في يهودية (ص١٣٣ ،١٣٤) .

من كتاب ((**تاريخ فلسطين القديم**)) إن هذه الجملة تدل على أن الدين هو الذي كان يوجه السياسة والحرب والتعامل بين الشعوب رغم أن ذلك لم يكن قصداً مباشراً لمن كتب التاريخ ، كما يُستدل أيضاً على سبيل الترجيح وليس على سبيل القطع بأن هرقل كان ممن اتبعوا دين عيسى حيث أن ممن حاربهم مع الفرس واليهود من كانوا يدعون أنهم أتباع عيسى من فرق تسمى النسطورية واليعاقبة، كانوا هم واليهود يشكلون من ضلّ واتبع الشيطان من أسباط الخير ممن يعيشون على أرض الأقصى.

وكان هذا الحدث من ضمن التمحيص الذي يمحص به رب العالمين عباده على مر الزمن ليميز الخبيث من الطيب ، وهكذا تم فصل الخبيث وقتله وبقي أهل الطيب وانتصروا بهرقل حيث نصرهم الله، وعما قريب سيتعرضون للتمحيص الأكبر وهو تغيير المسار الديني الذي هم عليه حيث سيبعث الله من يجدد هذا الدين وهو نبي الهدى ـ النبي الأمي ـ محمّد ﷺ.

كان أهل الخير من بني إسرائيل في هذه المرحلة خاضعين لاحتلال بيزنطة وهذا الوضع لا يمكنهم من حمل أعباء ديانة جديدة عامة لكل أمم الأرض.

لهذا ولحكمة من الله تعالى فقد شاء أن يحمل هذه الأمانة أحفاد نبي الله إسماعيل وهم أيضاً أحفاد سيدنا إبراهيم من ولده إسماعيل .

لقد آن الأوان لتلبية دعوة سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وبينما يرفعان القواعد من البيت الحرام دعوا الله تعالى ما بينه الله بقوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٨-١٢٩].

لقد مضى على بناء سيدنا إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام ما يقارب ألفين وسبعمائة وسبعين عاماً، عندما ولد صفوة الله من خلقه وخير ولد آدم رسول البشر محمّد ﷺ الذي بعثه الله بالديانة السمحة؛ ديانة الإسلام للبشرية كافة وجاءت الديانة شاملة الديانات التي بعث بها أنبياء الله موسى وداود وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم.

ولقد جاءت بعثة محمّد ﷺ استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام من ربه وبنفس الكلمات التي تم بها الطلب ولقد جاء هذا في قول الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢] .

لو نظرنا إلى الخارطة السياسية للمنطقة العربية في تلك الفترة من الزمن لوجدنا أن مصر وفلسطين والشام تحت الاستعمار البيزنطي (الرومي) وأهلها يتبعون الديانة التي جاء بها عيسى عليه السلام على مذاهب مختلفة، فمنهم من هو على أصل الديانة كما كانت في فلسطين.

وأما أرض العراق فقد كانت مستعمرة لفارس وفيها المناذرة وهم عرب كانوا يدفعون الخراج للفرس الذين كانوا من عبدة النار وهي الإمبراطورية المنافسة للروم من ناحية القوة.

وكانت في اليمن دولة منظمة لكنها كانت تدفع الخراج للفرس وبذلك فإنها كانت مستعمرة فارسية، وأما الديانة فيها فكانت هناك الديانة اليهودية وأتباع عيسى وعبادة الأوثان.

ثم كانت عُمان شرق الجزيرة العربية حيث كانت منظمة وفيها شبه دولة مستقلة وكانت مشغولة عن غيرها بنفسها وبالتجارة الخارجية وكانت الديانة فيها عبادة الأوثان كباقي الجزيرة العربية.

وأما باقي الجزيرة العربية فكانت تعيش النظام القبلي وتعتمد في معيشتها على تربية الإبل والمواشي وعلى التبادل التجاري مع الشام واليمن ، ولا يوجد ما يربط القبائل ببعضها إلا اللغة والشعر وبعض المصاهرة والأخذ بالثأر والغزوات ولم يكن هناك أي تنظيم يجمعها ولم تتبع هذه القبائل أي حكم خارجي كالفرس أو الروم لأنها منطقة صحراوية ولم يطمع فيها أحد من المستعمرين، ولم يحتلوها لعدم رغبتهم في احتلالها ولعدم جدوى احتلالها من الناحية الاقتصادية، والأهم من هذا أن الله تعالى صرف أذهان المستعمرين عن المسجد الحرام.

وأما الديانة السائدة فكانت عبادة الأصنام وكانت هناك القلة من أتباع عيسى في جيزان ونجران إضافة إلى الوثنية وكانت هناك بقايا من بني إسرائيل من الأسباط العشرة في المدينة المنورة وخيبر ممن استقر فيها منذ أيام تيه بني إسرائيل وهم يهود الديانة هذا بالإضافة إلى جيرانهم من القبائل العربية الذين يعبدون الأصنام.

مما سلف نرى أن القبائل العربية كانت الأنسب لزرع بذرة الإسلام وكان هذا بقضاء الله رب العالمين الذي جعل لهم حرماً آمناً حماه رب العزة ودافع عنه بجنده، وهذا ما جعل هذه القبائل العربية لا تعيش في ظل استعمار من أي نوع، كما أن ما تعيشه من دين هو عبادة الأوثان وهو الأبعد عن الفطرة الإنسانية فلذلك فإنهم يكونون أكثر تقبلاً لفكرة وجود خالق لهذا الكون، خاصة وأنهم من خلال تعاملهم مع من حولهم من يهود وأتباع عيسى على اختلاف مذاهبهم يعلمون أن إلهاً في السماء وأنه أرسل الرسل لهداية البشر وقد جاء دورهم ليرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، وكان هؤلاء العرب الذين يعيشون على الرعي يتنقلون وراء أسباب معيشتهم من عشب وماء لا يرتبطون بأرض لذا كانوا أكثر قدرة من غيرهم على حمل هذا

الدين وتعليمه للشعوب من خلال الدعوة التي كلفهم بها الله تعالى.

لقد مرَّ معنا سابقاً التسلسل التاريخي لأحفاد إبراهيم منذ جدهم يعقوب ورحيلهم للمعيشة في مصر في كنف سيدنا يوسف عليه السلام وبقائهم في مصر مدة تزيد عن سبعمائة وخمسين عاماً ثم خروجهم من مصر إلى صحراء التيه ثم دخولهم إلى الأرض المقدسة بقيادة طالوت ثم ما دب بينهم من خلاف وفساد، ثم قرار رب العالمين بطرد أهل السوء الأسباط العشرة ثم كيف محص الله سبطي الخير وبعث فيهم الأنبياء وتتبعنا الأمر لغاية سنة ٦٢٨م، حيث بعثة النبي محمّد ﷺ .

نأتي الآن إلى بعض ما جاء في كتاب الله وهو ذكر المناطق غير منكرين أن محور كتاب الله هو الدعوة إلى قول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وإلى شرع الله وهديه، ولكن ما جاء معه الكثير ونحن هنا معنيون ببعض ذلك الكثير ومن ضمن ما يعنينا في هذا المقال هو ذكر القوميات والأراضي .

أما الأراضي فإن الله تعالى ذكر نصاً في آيات الكتاب الكريم مكة ومصر كما ذكر سيناء والمسجد الأقصى وما حوله والمسجد الحرام والمدينة المنورة وسبأ التي هي اليمن كما ذكر موقع سيدنا إبراهيم قبل سفره إلى فلسطين والتي قال الله عنها الأرض التي باركنا فيها للعالمين، وبذلك إذا أخذنا المسميات الحالية فإن الله تعالى ذكر شبه الجزيرة العربية والعراق والشام وفلسطين ومصر التي تشمل السودان كما أن لبنان جزء من الشام .

وأما القوميات من بعد نوح فإن الله تعالى ذكر عاداً وثمود كأخلاف لسيدنا نوح عليه السلام ومن ثم قوم إبراهيم والذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [الإسراء:٥]، ثم أبناء إبراهيم وأحفاده وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل والأعراب الأميون والمصريون بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ ﴾ [يوسف:٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ [غافر:٢٨] ، كما ذكر سبأ للدلالة على اليمن.

ألا يتضح لنا أن هؤلاء السكان المذكورين هم سكان المناطق التي ذكرت سالفاً ، كما أننا نلاحظ أن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن منهم آدم وإدريس ونوح عليهم السلام كانوا مرسلين للبشرية جمعاء والذين في عهدهم كانت البشرية قليلة العدد، ثم أخذت بعد الطوفان تزداد من جديد وتتكاثر وتنتشر وكان أولاد نوح عليه السلام الذين أنجبوا المنطقة العربية، وأن الأنبياء الذين ذكروا بعد نوح هم هود وصالح وإبراهيم عليهم السلام ومن ذرية إبراهيم باقي الأنبياء وهم من الأمة العربية بغض النظر عن انتشار ديانة الله التي جاء بها عيسى عليه السلام مع ما طرأ عليها مع الزمن لتصل إلى أوروبا ومصر والجزيرة العربية والسودان والحبشة وبلاد أخرى لا نعلمها، كل ذلك كان قبل بعثة المصطفى ﷺ النبي الأمي والمرسل لكافة البشر على هذه الأرض والذي به ختمت النبوة وقرب قيام الساعة .

كذلك فإن الله تعالى أرسل يوسف عليه السلام إلى مصر ، وأيضاً فإن الله تعالى قال عن موسى عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٣-٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات:١٧-١٨] .

وإذا عدنا إلى قول الله تعالى: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) وأن هؤلاء النذر هم من الأمة العربية، فإن هذا يعني أن مصر هي أرض عربية أصيلة وأن المصريين هم من أحفاد نوح عليه السلام وهم من أصل عربي.

لقد ذكر الله تعالى عن ترابط هـذه الأمـة فـي سـورة المؤمنون، إذ قـال تعالـى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون:٢٣].

وتكمل الآيات دعوته لقومه وصنع السفينة بوحي من الله وغرق القوم الظالمين ثم تكمل الآيات استمرار النبوة بعد نوح بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون:٣١-٣٢].

وتكمل الآيات دعوته لقومه ودمار القوم الظالمين ، وتتابع الآيات الأجيال التالية بقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٤٤] .

ثم تكمل الآيات تتابع هذه الأمة إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٤٩-٥٢].

أيضاً فإن الله تعالى ذكر هذا الترابط بين الأنبياء وبين هذه الأمة وفروعها في سورة الأنبياء حيث أن الآيات من الآية (٣٤) حتى الآية (٩١) تستعرض الرسل وما أرسلوا به وما كانت عليه دعواهم بدءاً بالنبي الأمي محمّد ﷺ وهو المخاطب بالآية (٣٤)، ثم موسى وهارون بالآية (٤٨)، ثم سيدنا إبراهيم بالآية (٥١)، ثم لوط بالآية (٧٤)، ثم داود وسليمان بالآية (٧٨)، ثم أيوب بالآية (٨٣)، ثم إسماعيل وإدريس وذا الكفل بالآية (٨٥)، ثم ذا النون الذي هو سيدنا يونس بالآية (٨٧)، ثم زكريا بالآية (٨٩)، ثم يحيى بالآية (٩٠)، ثم مريم العذراء وابنها عيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام بالآية (٩١)، يلي ذلك الآية التي يقول الله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢].

إن معظم التفاسير تذكر عن المقصود بالأمة الواحدة في هذه الآية وكذلك عن الآية (٥٢) من سورة (المؤمنون) بأن هذه الأمة هي أمة التوحيد وعبادة الله وحده وليست أمة عرق ونسب.

نحن هنا نؤيد أنها أمة توحيد لأن الله تعالى لم يبعث أي رسول سواء في هذه الأمة أو في غيرها من الأمم إلا للتوحيد والإيمان بالله وحده وما أنزل آدم إلى الأرض إلا لإقامة التوحيد فيها وما جعل ذريته من مختلف الأمم في كافة أصقاع الأرض إلا للتوحيد ، ولقد ذكر الله تعالى لنا ذلك بقولـه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

إن محمداً ﷺ آخر الأنبياء وهذه الآية تعني أن كل الرسل صلوات الله عليهم دعوا إلى التوحيد وأن الله واحد لا شريك له في الملك منذ خلق الخلق إلى أن يرث الأرض وما عليها ، ولذا فإن كل الأمم التي بعثها الله وكل الرسل دعوا إلى التوحيد، ومن هنا فإنه لا حاجة أن يكون المعنى من كل الآيات أننا أمة توحيد لأن أساس العقائد كلها هو أن لا إله إلا الله، وما دام هذا هو أساس عقيدتنا فهذا يعني أننا أمة توحيد.
ولقد ذكر الله هذا في الكثير من الآيات ونذكر منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحشر:٢٢]، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ﴾ [الحشر:٢٣]، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

إذا كان فيما ذكرنا ما يكفي للدلالة على اننا أمة توحيد ، فإن ذكرت بعض الآيات أننا أمة واحدة فهذا يعني أن من ضمن ما تعنيه الآية أننا أمة عرق واحدة. وهذا ما نحن بحاجة إلى أن نعرفه من الآيات وهذا ما لا يتناقض مع كوننا أمة توحيد وذلك لأنه ربما لا يوجد مصدر آخر بحث في أعراق هذه الأمة لمعرفة أصولها العرقية والعقائدية.

لا نقول هذا لنعارض غيرنا ولكن لأنه يتماشى ويتفق مع ما يقوله غيرنا في فهم القصد من (أمة واحدة) التي يخبرنا بها الله تعالى.

نأتي الآن إلى الآيات التي تربط بين العروبة والقرآن ، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠].

إن الله تعالى يذكر لنا أنه أنزل إلينا كتاباً بلغتنا وهو القرآن فهو يشرفنا ويقوم حياتنا ويخلق منا أمة ذات سيادة من الله في الأرض وهذه الأمة يكون لها ذكر بين الناس كلما تلي هذا القرآن وإن هذه الأمة سترتفع بين أمم البشرية.
لقد كان في هذا القرآن ذكر للعرب حين حملوه شرقاً وغرباً وشمالاً ، ولم يكن لهم قبل هذا من ذكر بين بني البشر كما لم يكن لدى العرب قبل الإسلام ما يقدمونه للعالم من خير يذكرهم به، وقد استمر هذا الأمر لقرون طويلة هي مدة تمسكهم بكتاب الله وسعدت هذه الأمة عندما تمسكت بالقرآن ولم تَشْقَ إلا عندما تركت العمل به وصارت ذيلاً لقافلة البشرية فلا قيمة للعرب إلاّ بهذا القرآن الذي أورد اسمهم وحدد هويتهم وتاريخهم ومسيرتهم باتباع أنبياء الله.
ولكن فما الذي يفهم من الآية؟ الذي يفهم هو أن هذا القرآن جاء بذكركم وذكر أصولكم وفروعكم وذكر تقسيمكم إلى أمم متلاحقة على مر الزمن وذكر أنبياء هذه الأمة وهذا يعني أنه أظهر لكم تاريخكم وتسلسلكم التاريخي منذ عهد آدم حتى بعثة المصطفى ﷺ.
وبالطبع فإن المعنى المقصود من هذا الكلام أنه ينطبق على الأمة العربية حتى بعثة الإسلام لأنه

بعد ذلك تحرك العرب حاملين هذا الدين وفق التكليف الرباني شرقاً وغرباً واندمجوا مع غيرهم ، وكان لهذا الاندماج الأثر البالغ الذي بالتعامل والمصاهرة وجدت دول تتكلم اللغة العربية وتتبع دين الإسلام ونحن نفتخر بها وبدينها وبعروبتها الحالية وهي أعضاء في جامعة الدول العربية ، وهي الدول الأفريقية عدا مصر والسودان التي كانت عربية قبل البعثة الإسلامية.

كانت العلاقة بين مختلف المناطق العربية قبل بعثة المصطفى ﷺ على درجة من السوء وكانت مقسمة إلى ثلاث مناطق، العراق كان تحت الاستعمار الفارسي، وكانت الشام وفلسطين ومصر تحت الاستعمار البيزنطي، وكانت اليمن تحت الاستعمار الفارسي، وكان باقي شبه الجزيرة العربية طرفاً ثالثاً.

كانت الحروب مستمرة بين الفرس والروم لذا كانت المنطقة العربية مقسمة إلى ثلاث مناطق متباعدة في الحس القومي وأن العلاقة بين شعوبها فاترة لوجود المستعمر الذي مضى على وجوده في مصر والشام وفلسطين ما يقرب من ألف سنة، هذا إضافة إلى الفارق في العبادات، هذان الأمران أوجدا بعداً نفسياً بين عرب الشام ومصر وفلسطين من جهة وعرب الجزيرة العربية من جهة أخرى، وكان هذا البعد أكثر اتساعاً مع سكان مصر لدرجة أن التجارة مع مصر كانت ضئيلة جداً خاصة أيام الاستعمار الروماني. هذان الأمران: هما الاستعمار والبعد الديني؛ أديا إلى إيجاد شعور تباعد بين أطراف الشعب العربي الواحد وأصبح كأنه من أصول مختلفة رغم أنهم من أصل واحد وجدّ واحد هو سيدنا نوح عليه السلام.

هل أدى هذا البعد النفسي بين الأطراف الثلاثة للشعوب العربية في كل من العراق واليمن كطرف أول ، والشام وفلسطين ومصر كطرف ثان، وسكان الجزيرة العربية كطرف ثالث، هل أدى هذا إلى تشكيل لغات جديدة أم حافظت هذه الشعوب على لغتها العربية رغم قسوة الظروف التي عاشتها متباعدة لمئات السنين؟

لقد بحثنا في كتب التاريخ لنجد أي رأي أو إثبات فلم نجد لأن من كتب الأحداث حينئذ لم يدر في خلده أنه سيوجد في المستقبل من يزور تاريخ هذه الأمة لتتفرق إلى أشلاء لتسهل السيطرة عليها أو يمكن القضاء عليها.

كل ما ورد في كتب التاريخ عن الكتابة أنها كانت أولاً بالرسم ثم تطورت إلى أحرف يتم حفرها على حجارة وسميت بالكتابة المسمارية، ثم صارت الكتابة بالأحرف المتطورة غير المنقطة التي استمرت لمنتصف العهد الأموي الإسلامي، حيث كانت القراءة الصحيحة حكراً على ذوي البلاغة الكبيرة في فهم اللغة ولكي يتم تيسيرها للجميع سعى العلماء إلى تنقيط الأحرف وتشكيلها.

هذا النوع القديم من الكتابة كان حكراً على عدد قليل من الأمة، ولنذكر أنه في أول البعثة المحمدية كان عدد الذين يجيدون القراءة والكتابة من رجال مكة ومن حولها من القرى هم سبعة عشر من الرجال وخمس من النساء.

وبنزول القرآن على هذه الأمة صار لزاماً عليها أن تدون تاريخها وأن تتابع أمورها لأن هذا القرآن أمرنا بالعلم باسم الله: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:١]، وهذا تكليف بالعلم وبالتقدم العلمي وبانتهاء الأمية من هذه الأمة ومن باقي الأمم ليبدأ عصر العلم والمعرفة وأول المعرفة كتاب الله المعجزة الفكرية لهذه البشرية حتى قيام الساعة.

ولنبحث في كتاب الله عن أمرين وما أكثر ما حوى كتاب الله من أمور، ولكن ما يعنينا هنا الآن أمران أولهما اللغة التي كان يتحدث بها العرب بمختلف أصولهم وفروعهم على مر الزمن والترابط اللغوي فيما بينهم.

والأمر الآخر هو متابعة ضالتنا وهم بنو إسرائيل كعرق وانتشارهم وذكرهم في زمن نزول القرآن في صدر الإسلام، حيث صار لزاماً على الأمة بعد زوال أميتها أن تتابع تاريخها وأن تحرز التقدم المرجو

منها بحمل هذا الدين.

لنبحث في كتاب الله عما يوجهنا لضالتنا الأولى وهي اللغة وأول ما نسترشد به في هذا المجال ، هو أنه عندما كان ذو القرنين يدور في الأرض أتى على قوم بين منطقة السدين كان التفاهم معهم صعباً لأنه كان في لغتهم كلمات دخيلة على ما يعرف من لغة، ولقد جاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴾ [الكهف:٩٣] .

من هذه الآية نرى أن الله تعالى أخبرنا بصعوبة التفاهم ما وجد بين عبد من عباده الصالحين وبين من يتعامل معهم ، وبذلك فإنه إن كانت هناك صعوبة في التعامل بين نبي من أنبياء الله وبين من يتعامل معهم فإن الله تعالى سيذكرها لنا ، وما دام الله تعالى لم يذكر لنا أي صعوبة تعامل ؛ فهذا يعني أنه لا صعوبة وأن النبي يتفاهم مع القوم بلغة واحدة مشتركة بينهم ، ولقد ثبت هذا من قول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤] .

كان من نعم الله على البشر في كل رسالة ومع كل نبي أن يرسل بلغتهم من يبين لهم الحق ليفهموا ما يقول لهم نبيهم لإظهار الغاية من الرسالة ولإقامة الحجة على البشر. ولو أخذنا سيدنا إبراهيم عليه السلام كأول الأمثلة على الأنبياء الذين طافوا على هذه الأمة وتتبعنا حياته لوجدنا أنه كان في العراق وبعث نبياً فيه، وهناك عاداه قومه ورحل عن قومه إلى الأرض المباركة ورحل معه لوط عليه السلام وزوجته، ولنأخذ الآية التي تبين عطاء الله الأبناء لسيدنا إبراهيم: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم:٣٩].

وتقول كتب التفاسير أن الله تعالى وهبه الأبناء وكان عمره يقرب من مائة وعشرين عاماً، أي أنه مضى على وجوده في الأرض المباركة مدة طويلة يتعامل معهم ومع الناس في مصر حيث كان يدعو لعبادة الله وكذلك في الحجاز ، وخلال هذه المدة تزوج من أمنا هاجر التي أنجبت له سيدنا إسماعيل عليه السلام.

فهل كانت لغة العراق ومصر والشام والحجاز هي لغة سيدنا إبراهيم أم كان هناك مترجمون بينه وبين الناس ، فليفترض الإنسان أي فرضية يريدها ثم لينتقل منها إلى الأمام مع الزمن وليطبق فرضيته على الأحداث منذ عهد نوح عليه السلام حتى صدر الإسلام.

لقد خاطب الله تعالى هذه الأمة العربية من بعد نوح عليه السلام بقوله (عاد)، وهم قوم نبي الله هود عليه السلام، أي أنهم لا يزالون يتعايشون كقبيلة واحدة ، أي أن كامل المنطقة تقريباً كانت تحت حكم دولة واحدة وهي أيضاً قبيلة واحدة وفق خطاب الله تعالى لهذه الأمة.

ثم خاطب الله تعالى هذه الأمة بقوله (ثمود) وهم قوم نبي الله صالح عليه السلام وحدد الله تعالى موقع عاصمتهم التي ما تزال قائمة حتى اليوم، وستظل قائمة إلى قيام الساعة وهي مدينة البتراء حيث حددها الله تعالى بقوله: ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ﴾ [الحجر:٨٠]؟

وتحدد كتب التفاسير الحجر بجبال جنوبي الأردن، وكذلك فإن الأمر يتحدد من قول الله تعالى فيهم:

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء:١٤٩].

هذا مع إقرارنا بمدائن صالح الواردة في الحديث الشريف شمال الجزيرة العربية وأنها لثمود ، أما البتراء فكانت العاصمة .

إن الأمة العربية لا زالت تحت سلطان واحد أي حكم واحد، أي أن المنطقة كلها تتعامل معاً كأمة واحدة وبذلك فإن لغتها واحدة، ثم بدأ التفرق منذ زمن سيدنا إبراهيم حيث يظهر من سيرته ﷺ الهجرة وترك الأهل والمنطقة إلى غيرها ولكن بعد فترة صارت المنطقة الواحدة مناطق وصار هناك تباين فيما بينها ولكن هل تبع هذا التباين نشوء لغات جديدة أم بقوا جميعاً يتكلمون لغة واحدة هي اللغة الأم اللغة العربية.

وولد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب الذي رزق بيوسف عليهم السلام في الأرض المباركة التي كانت جزءاً من الدولة المصرية في ذلك الوقت وقد كانت لغة الأرض المباركة (فلسطين) هي لغة مصر نفسها حيث انتقل يوسف ﷺ وعاش في مصر، وكان يخاطب رفاق السجن والملك وغيره خطاباً مباشراً كما ورد في الآيات دون وسيط ودون مترجم وبذلك فإن لغتهم لغة واحدة.

قد يقول قائل إن يوسف ﷺ يمكن أن يكون قد تعلم اللغة المصرية ، فردنا عليه هو أنه كان غلاماً بنص الآيات (أي دون سن البلوغ) عندما تم إنقاذه من البئر وأخذه إلى مصر وبيعه فيها ولم يكن من السادة أول الأمر حتى يتعلم لغة ثانية إذ لا يطلب من الخدم أن يتكلموا لغتين وهذه كانت بداية حياته عندما أخبرنا الله تعالى بحواره المباشر مع من حوله وبذلك فإن لغته التي يتحدث بها في فلسطين هي نفس اللغة المصرية مهما كانت.

والتحق بيوسف أمه وأبوه وإخوانه وعائلاتهم كما ورد في الآيات وعاشوا في كنفه في مصر مئات السنين ، وسواءً كانت لغة فلسطين هي لغة مصر أم لا فإن بني إسرائيل ومع تعاقب الأجيال سيتحدثون اللغة المصرية حيث انقضى ثلاثون جيلاً منذ دخولهم مصر سنة (٢٠٠٠ق.م) حتى خروجهم مع موسى وهارون عليهما السلام عام (١٢٣٤ق.م) .

لقد ولد موسى ﷺ في مصر ونشأ في قصر فرعون مصر طفولته وشبابه ثم آتاه الله حكما وعلماً ثم وقعت المشاجرة التي أدت إلى هرب موسى ﷺ لينجو بنفسه حيث كان القوم يأتمرون به ليقتلوه.

وعندما وصل موسى ﷺ ماء مدين وجد امرأتين تذودان غنمهما فدار بينه وبينهما حوار حيث سألهما ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ [القصص:٢٣]، سؤالاً مباشراً ودون وسيط ودون مترجم، وردت عليه الفتاتان بقول:

﴿ لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص:٢٣].

وبعد أن سقى لهما وانصرفتا إلى البيت عادت إحداهما لتخبره وتتحدث إليه مباشرة ودون وسيط ودون مترجم قائلة له: ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص:٢٥]، وبعد ذهاب موسى ﷺ للشيخ الكبير وقص عليه قصته أجابه الشيخ الكبير قائلاً: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٢٥].

استمر الحوار المباشر دون وسيط ودون ترجمة، ومعنى (نجوت من القوم الظالمين)، أنك الآن في منطقة خارج حكم فرعون ولا سلطان لفرعون عليها وبذلك فإنك نجوت تعني في العرف الحالي أنك في دولة أخرى غير دولة الفرعون. وتكتمل القصة بزواج موسى من ابنة الشيخ الكبير، فهل هناك من يتزوج

فتاة لا تجمعه بها لغة مشتركة للتفاهم؟

هل كانت الدولتان تتكلمان لغة واحدة وما هي هذه اللغة؟ قد يقول قائل ما قالته النملة على مسمع من سليمان عليه السلام وما قاله الهدهد لسليمان عليه السلام.

ونرد عليه بالقول إن الله تعالى أعلمنا بأنه علم سليمان منطق الطير وبذلك فإن المقولة كانت بلغة الطير ولغة النمل وبالمعنى المذكور بالآيات وأيضاً فإن الرسائل يمكن أن يكتبها مترجم مثل رسالة سليمان عليه السلام لملكة سبأ والتي تقول: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل:٣٠-٣١].

أي أن سليمان عليه السلام كتب لها الرسالة ويمكن أن تكون الرسالة كتبت من قبل مترجم، ويمكن أن تكون باللغة المشتركة بينهم أو مترجمة، أما قول موسى عليه السلام للفتاتين والشيخ الكبير فكان خطاباً مباشراً دون وسيط ودون مترجم، لذلك فالقرآن يدلنا على أن لغة مشتركة كانت تجمع بينهم. هل كان هناك مترجم بين موسى عليه السلام وزوجته وأصهاره؟

ينطبق هذا على ما قيل لملكة سبأ حين حضرت للقدس وسألوها: ﴿ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ ﴾ وردت بالقول المباشر ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ ﴾ ، ثم قيل لها ﴿ ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ ﴾ [النمل:٤٤].

فهل كانت لغة فلسطين ومصر والشام وكانوا دولة واحدة في ذلك الزمان، هل كانت لغتهم ولغة اليمن لغة أم لغتان مختلفتان وما هي هذه اللغة أو اللغات؟

إن البسملة التي بدأ بها نبي الله سليمان رسالته لبلقيس من أعظم الأدلة على أن لغة المنطقة كلها هي اللغة العربية، فمن أين أتى بها إلا من الزبور الذي نزل على والده داود، وهذه البسملة هي التي استخدمها رب العزة في القران الكريم.
نسير مع الزمن إلى أن نصل إلى صدر الإسلام الذي بعث الله به محمّداً ﷺ حيث بادر منذ وصوله مهاجراً إلى المدينة المنورة إلى إرسال رسائل إلى كل من كسرى الفرس وهرقل الروم ورسالة إلى المقوقس عظيم القبط .

وبالطبع فإنه الرجل الأمي ومن أمة أمية قلّ فيها من يقرأ ويكتب العربية لذا فإن رسائله ستكون باللغة العربية وبالكتابة القديمة غير المنقطة وغير المشكلة وحمل رسالة رسول الله ﷺ إلى المقوقس الصحابي (حاطب بن أبي بلتعة)، وكان نص الرسالة كما جاء في كتاب ((**مكاتيب الرسول**)) للأحمدي (المجلد ١ـ الصفحة ٩٧) ما يلي:

((بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ .))

وجاء في الصفحات (٩٨، ٩٩) من نفس الكتاب ما يلي: (وكتب في ذلك اليوم ـ الذي كتب فيه إلى الملوك ـ إلى المقوقس ، عظيم القبط وكان نصرانياً، مع حاطب بن أبي بلتعة فجاء به حاطب حتى دخل مصر فلم يجده هناك، فذهب إلى الإسكندرية فأخبر أنه في مجلس مشرف على البحر فركب حاطب سفينة

وحاذى مجلسه ، وأشار بالكتاب إليه فلما رآه المقوقس أمر بإحضاره بين يديه ، فلما جيء به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه وقال لحاطب: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم فقال له حاطب: الست تشهد بأن عيسى بن مريم رسول الله فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه، أن لا يكون دعا عليهم، أن يهلكهم الله تعالى ، حتى رفعه الله إليه ، قال: أحسنت أنت حكيم من عند حكيم . ثم قال له حاطب : إنه كان من قبلك من يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك، إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم منه النصارى ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، بل نأمرك به.

فقال المقوقس: إني نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة، ثم دعا كاتبه الذي يكتب له بالعربية : بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أنَّ نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبثياب، وأهديت لك بغلة لتركبها، والسلام عليك) (ص ١٠٠).

<u>ملاحظة</u> : إحدى هاتين الجاريتين هي ماريا القبطية ، وقد تزوجها محمد ﷺ وأنجبت منه ولده إبراهيم ، فهل كان هناك مترجم بينهما ؟ أم كانا يتكلمان لغةً واحدةً وهو النبي العربي الأُميّ؟

هذا نقل حرفي من الكتاب وما يعنينا هنا هو ذلك الحوار المباشر الذي كان بين المقوقس وبين حاطب بن أبي بلتعة وكان دون وسيط وكان باللغة العربية وكذلك جاء أيضاً أن كاتبه الذي يكتب له بالعربية أي أن المقوقس استدعى كاتباً يكتب اللغة العربية ليكتب رسالة للنبي وبالطبع كان هو الذي أملى عليه نص الرسالة ، كما جاء أنه نظر إلى كتاب النبي وفضّه وقرأه .

إن المقوقس نفسه يتكلم اللغة العربية و هي لغته الأصلية ولو لم تكن لغته لتكلم لغته الأصلية و استخدم مترجما وذلك من باب إظهار حب العظمة أمام وفد النبي و من دلائل حب العظمة لديه أنه لم يسلم و بقي على دينه .

لم نكتف بهذا المصدر وبحثنا ووجدنا كتاباً بعنوان : «**عمرو بن العاص بين يدي التاريخ**» للكاتب عبد الخالق سيد أبو رابية، وقد أخذنا منه مقتطفات نورد منها: (وما سجله ابن عبد الحكم في فتوح مصر من أنه كان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له: أبو ميامين (بنيامين)، فلما بلغه قدوم عمرو إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو ، فيقول : إن القبط الذين كانوا بالفورما صاروا يومئذ لعمرو أعواناً، وكانت تلك الكلمات بمثابة نصيحة خالصة من أسقف لرعاياه الذين أذلهم الروم، حثهم فيها بأن يبادروا بتلقي العرب وعدم الانحياز إلى الروم الذين اغتصبوا بلادهم وانتهكوا حرمتهم في الأرض والدين) (ص١٣١) .

ونورد أيضاً: (أما الدكتور بطلر، إمام المخالفين لما جاء ذكره من أحداث الفتح الإسلامي في الكتب العربية فقد زعم أن عمراً رأى أنه لا يستطيع أن يفتح حصن بابليون أو أن يحاصره بمن بقي معه من الناس بعد الاستيلاء على أم دنين) (ص١٤١).

وكذلك نورد: (وفي رأينا أن الأمر قد التبس على الدكتور بطلر فظن أن المراد بعين شمس التي نزل عليها عمرو والزبير ، كما جاء في رواية الطبري والمقريزي هي مدينة (عين شمس) الأصلية التي عرفت فيما بعد بالمطرية والتي دارت فيها موقعة عين شمس أو هليوبوليس ، حسب رأي بطلر، وقد كان هذا خطأً جلياً وقع فيه هذا المؤرخ الكبير ، بالإضافة إلى أن ما ذكره من تفاصيل عن هذه المعركة كان

قائماً على الظن والتخمين مما لا يليق بمؤرخ متمرس مثله ، وذلك أن ما جاء في الروايات العربية عما وقع بين المسلمين والروم كان صريحاً ومنافياً لما ذكر في كتابه) (الصفحات ١٤٦-١٤٧) .

أوردت هذه الفقرات لسببين أولهما لنرى رأي الكاتب والمؤرخين العرب بالمؤرخ بطلر الذي يصفه المؤلف بأنه (مؤرخ متمرس) والمؤرخ القدير لا يحكم على الظن ولا يقع في أخطاء واضحة ولا تصدر عنه أخطاء كبيرة إلا إذا كان متعمداً أن يورد هذه الأخطاء لأسباب في نفسه هدفه منها الدس الرخيص على التاريخ العربي أو الإسلامي ، وهذا هو المتوقع ويجب ألا نتوقع من مؤرخ عدو إلا أن يكون كذلك وأن يعكس الأمور أو يبقيها بما يخدم مصلحة الأعداء والمستعمرين وعملائهم من هذه الأمة ، لقد وصل بهم الأمر أن يزوروا أمور الدين؛ ولقد زوروا دينهم فهل يسلم منهم تاريخنا إذا تمكنوا من العبث فيه، فكيف نأخذ عنهم تاريخنا؟

ينطبق على بطلر ما ينطبق على غيره ممن درسوا التاريخ القديم ومنهم شامبليون وبرستد وغيرهم الذين يدعون أنهم فكوا رموز اللغة الهيروغليفية، وبذلك أقنعوا بعض الناس أنه كانت هناك لغة هيروغليفية.

هذا الأمر كان فرصة سانحة لمن درسوا التاريخ العربي المصري وأرادوا أن يغيروا عليه لهدف سيء في أنفسهم فقالوا عن الكتابة أنها لغة وأطلقوا عليها كلمة من عندهم ليس لها معنى، ولكنها تصلح لحناً لمن يريد أن يغني بها بالباطل فسموها اللغة الهيروغليفية، وهي كلمة ليس لها معنى وليس لها وجود إلا في فكر من اخترعها ليخرج من يشاء من الحظيرة العربية.

إن من درسوا التاريخ العربي والذين ما يزالون يدرسون الآثار ويتفحصونها هم علماء الآثار الأجانب، وأما طلبة التاريخ من هذه الأمة فإنهم يدرسون ما يملي عليهم من درسوا تاريخنا من الأجانب، وبذلك فإنهم يأكلون ما يقدم لهم ولو كان مسمماً، وهم بدورهم يؤلفون ويكتبون دونما تمحيص.

لو يفطن الذين يدرسون التاريخ أن هناك كتاباً من عند الله من مظاهر إعجازه الصدق المطلق لأنه من ربّ العالمين الذي دون للأمة تاريخها بالاختصار اللازم والشمولية الكافية لكشف أي تلاعب قد يؤدي إلى خلل.

السبب الآخر الذي من أجله أوردنا هذه المقتطفات لنرى موقف المصري الصحيح وهو الأسقف بنيامين حيث كتب لرعيته يحثهم فيها على التعاون مع جيش عمرو بن العاص ضد الروم.

ومن خلال دراسة التاريخ يلاحظ أن المصريين ما قاتلوا أبداً الجيوش العربية، بل إن المعارك كانت بين الجيوش المستعمرة الرومية وجيش المسلمين وأما المصريون فإنهم إما وقفوا محايدين أو انضموا إلى الجيوش الإسلامية العربية.

وكما ورد في نفس الكتاب: عندما حاصرت جيوش المسلمين حصن بابليون وكان بداخله المقوقس الذي أرسل برسل إلى عمرو بن العاص دون علم الروم ومكثوا عندهم يومين خاف عليهم من أن يكون جند المسلمين قد قتلوهم، وكان عمرو بن العاص قد أبقاهم في المعسكر ليطلعوا على أحوال المسلمين أي أنه عامل رسل المقوقس كأنهم أهل وعشيرة ، فأرسل عمرو بن العاص عشرة رجال على رأسهم عبادة بن الصامت ، وكان عبادة هذا شديد السواد وأمره أن يكون متكلم القوم ولا يجيب الروم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث ، فلما دخلت رسل المسلمين إلى المقوقس وعلى رأسهم عبادة هابه المقوقس لسواده وفرط طوله وقال : نحوا عني ذلك الأسود وقدّموا غيره يكلمني (ص١٥٨) .

فقال العرب: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وإنما نرجع إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا لما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ..الخ (ص ١٥٩).

فلم ير المقوقس بُداً من محادثة عبادة ومفاوضته فأومأ إليه أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه .

فقال عبادة: إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً مني وإني ما أهاب مائة

رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً.. الخ (ص ١٥٩).

فوقع هذا القول في نفس المقوقس وقعاً شديداً وقال لأصحابه : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ، إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض (ص١٥٩) .

ثم أقبل على عبادة وأراد أن يسلك معه طريق الإرهاب المغلف في قالب من النصح فقال له : أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ولعمري ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإننا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به (ص ١٥٩).

فنظر إليه عبادة بن الصامت شامخاً وخاطبه بصوت كله ثقة وإيمان قائلاً : يا هذا لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما كان هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن قتلنا عن أخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك.. الخ (ص١٦٠).

لقد أوردنا ما أوردنا من مجادلة مع المقوقس لنري من يريد الاطلاع على أنه يجيد العربية وأنه تحدث دون وسيط ودون مترجم ووجه كلامه لأصحابه أولاً باللغة العربية وهذا يعني انهم يتكلمونها، وإن المفكر بالكلمات التي استعملها ليرى أن اللغة العربية إنما هي لغته الأصلية وليست لغة تعلمها وأنها لغة أهله أباً عن جد لأنه يتقنها بالقوة التي لا يجيدها إلا أعرابي أصيل ، ولا يمكن أن يجيدها هكذا من لم يتكلمها أصلاً، وكذلك فانه لو لم تكن اللغة العربية هي لغة المقوقس الأصلية كما أسلفنا لاستخدم مترجما لخطاب من دونه منصبا وذلك لحب العظمة واعتدادا بلغته القومية، وأنه إن كانت هناك لغة ثانية أخرى يتم استخدامها فهي اللغة الرومية أي الأجنبية وتستخدم للتعامل مع المستعمر فقط وهذا لا يعني أنها اللغة الأصلية ولا ينفي وجود لغة أصلية وهي العربية التي خاطب بها المقوقس أصحابه .

ومما يشير إلى أن لغة مصر كانت اللغة العربية في صدر الإسلام هو أن الفتوحات الإسلامية عندما وصلت إلى العراق قيل: العراق أو ما بين النهرين، وعندما اتجهت القوات إلى شرق العراق قالوا اتجهت إلى بلاد فارس أي نسبة إلى اللغة الفارسية، وكذلك الأمر عند وصول الفتوحات إلى شمالي بلاد الشام قالوا وصلت إلى بلاد الروم، وذلك نسبة إلى اللغة الرومية. (كلمة رومية تعني أوروبية)، وعندما يذكر التاريخ أن الجيوش العربية في مصر فإنه يذكر كلمة مصر، ولكن عندما وصلت غرب مصر قيل أنها وصلت بلاد البربر أي نسبة إلى البربرية. فماذا يعني ذلك

إن هذا يعني أن مصر كانت بلداً عربياً في ذلك الزمان، كما أن الشام والعراق كانا عربيين رغم وجود قوات رومية في فلسطين والشام ومصر، وقوات فارسية في العراق.

هناك أمر ثان هو أن مصر وفلسطين كانتا دولة واحدة عضوية منذ حوالي (٢٦٠٠ق.م)، واستمر هذا الأمر إلى صدر الإسلام سواءً أكان الحاكم مصرياً أم نبيا الله داود وسليمان من بعدهما ممن حكم مصر، ثم الآشوري ثم الفارسي ثم اليوناني ثم الروماني ثم البيزنطي، فإنهما بقيتا في دولة واحدة عضوية فلماذا كانت لغة فلسطين هي اللغة الآرامية المندثرة، وكانت لغة مصر هي اللغة الهيروغليفية المندثرة ، وكيف تكون لغة بني إسرائيل العبرية، ومن أي جاءت هذه اللغة مع ان إسرائيل (يعقوب) ووالده اسحاق عليهما السلام وذريتهما ولدوا وعاشوا في هذه الدولة، وإذا كان إبراهيم عليه السلام يتكلم السريانية وأحضرها من العراق فكيف اندثرت هذه اللغة من العراق فجأةً . ومن أين جاءت تسمية لغة العبرية.

ملاحظة: أخبرنا الله تعالى في القرآن بالمسمّيات في زمن تسميتها ومنها قوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف:٩٩]، أي أن إسمها مصر في زمن يوسف ، وهو (٢٠٠٠ ق.م) ، وكذلك قال فرعون ما جاء في قول الله تعالى: (**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ**) [الزخرف:٥١]، وكان هذا حوالي (١٢٥٠ق.م)، وكذلك وردت تسميتها (مصر) في مواقع زمنية متلاحقة في الكتاب المقدس، وهذا يعني أن اسمها مصر بشكل دائم، وأنه لم يتغير، وبذلك فان ابنها مصري وأبناؤها مصريّون، فمن أين جاءت كلمات قبطي وأقباط إلا ممن زوّروا التاريخ المصري.

هناك أمر ثالث تجب الإشارة إليه هو أن مصر بلد حضارة كبيرة لا زالت بارزة للعيان حتى الآن، كما كانت فارس بلاد حضارة كبيرة لا زالت بارزة حتى الآن، وكذلك الأمر فقد كانت تركيا ذات حضارة كبيرة قبل الإسلام وبعده، وأما بلاد البربر فلم تكن ذات حضارة مميزة، وكذلك الأمر في كردستان التي لم تكن ذات حضارة مميزة.

لقد غطى الإسلام كافة هذه المناطق ، أسلم أهل فارس، وكذلك الحال في بلاد البربر وكذلك في كردستان، وأما في مصر فإن نسبة من أسلم تقرب من ٩٠٪ من عدد السكان.

إن الذين لم يتبعوا الإسلام تعصبوا ضده ولولا ذلك لاتبعوه وعزّ عليهم أن يعلن إخوانٌ لهم في دينهم إسلامهم ، وكان الأحرى بمن لم يتبعوا الإسلام أن يحتفظوا بلغتهم خاصة إن كانت لغة حضارة كبيرة، ومما يؤكد رأينا أن اللغة الكردية واللغة البربرية لا تزال موجودة ويتحدثها ملايين من المسلمين برغم أنه لا يوجد من هذه القوميات من هو غير مسلم ورغم أنها لم تكن لغة حضارة كبيرة، فكان الأولى أن تندثر اللغة الكردية والبربرية بقدوم الإسلام لا أن تندثر اللغة الهيروغليفية.

هناك أمر رابع لمن يصدق ما جاء في كتاب الله عن تاريخ هذه الأمة وهو أن من عمر الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر هم سلالة نبي الله نوح عليه السلام وأنهم أمة واحدة تفرعت لتملأ هذه الأرض ، فمن يصدق ذلك فانه يصدق أن هذه الأمة كانت تتحدث لغة واحدة فقط لأنها من أصل واحد.

إن هذه اللغة تفرعت الآن إلى أكثر من عشر لهجات لكنها كلها لغة عربية، فإذا كانت الفروع كلها لغات عربية فماذا تكون اللغة الأصل غير اللغة العربية ؟ انه لثابت أن لغة الجميع قبل بعثة المصطفى ﷺ كانت اللغة العربية ما عدا تلك اللغة المزعومة في مصر والتي لا إثبات على وجودها إلا كذب مؤرخ أجنبي، وكذلك اللغة المزعومة في فلسطين وهي الآرامية مع أن سكان فلسطين هم بنو إسرائيل وما عدا ذلك فان كل الأمور تشير إلى أن لغة المنطقة هي اللغة العربية وأنه ليست هناك لغة هيروغليفية اندثرت فجأة ودون أي مسبب للاندثار ودون أن يكون هناك أي أثر لها يدل عليها، كما لم يكن هناك لغة آرامية اندثرت فجأة دون أن يكون هناك أي أثر لها يدل عليها.

كما كان هناك حملة من نوع آخر ومن قبل شامبليون نفسه حيث تمكن إقناع المصريين أنهم ليسوا عرباً وأن الفراعنة هي عرق وسلالة، ولم يفطن المعنيون بالدين أن فرعون هو لقب ذم للقائد المتغطرس وأن الله تعالى شهد بالرجل الأول في زمن يوسف أنه الملك، وأن الرجل الأول في زمن موسى أنه فرعون، وكذلك شهد الكتاب المقدس في مواقع متعددة بوجود الملوك في مصر.

إن الهدف الأول الذي كان من الزعم بوجود اللغة الهيروغليفية وأن أصل المصريين فراعنة هو إضعاف الأمة العربية وتقسيمها إلى دويلات وهي الزعيم الروحي للأمة الإسلامية في العالم كله، فإن ضعف الجزء العربي من الأمة الإسلامية فإن الأمة الإسلامية كلها تكون ضعيفة وسهلة المنال، وهذا ما نراه حالياً، ويتبع ذلك تخلص شعوب أوروبا وأمريكا من اليهود، وجمعهم في فلسطين أرض

الميعاد كما يزعمون ناسين أن الله كتبها للخيرين من بني إسرائيل ولمن اجتباهم الله من بني إسرائيل لا لقتلة الأنبياء، لقد كتبها الله للذين سكنوها منذ دخولهم إياها ولا يزالون فيها وهم سكان الأقصى وما حوله منذ ذلك الزمان إلى قيام الساعة.

كان هذا الأمر لإضعاف هذه الأمة من داخلها وذلك بتحييد أكبر قوة منها وهي مصر الأكثر عدداً والأكثر علماً إضافة لما تتمتع به من موقع متوسط بين الدول العربية وهي وسيلة الاتصال البري بين آسيا وأفريقيا ، وهذا ما يجعلها في موقع القلب من الدول العربية، ولذا فإنها إن انفصلت فكرياً وروحياً عن الأمة العربية فإن الأمة العربية تنقسم على الأقل إلى ثلاثة أجزاء هي أفريقية العربية ومصر يتبعها السودان ثم آسيا العربية.

وكانت هناك هجمة أخرى من نوع آخر قامت بها بريطانيا حيث احتلت غرب نهر الأردن بقوات قدمت من مصر واحتلت شرق نهر الأردن بقوات بريطانية قدمت من الجزيرة العربية، ووضعت على نهر الأردن نقاط تفتيش صوري لسؤال المارين في أي اتجاه كانوا، وهذا سيشعر كل من يمر منهم في أي اتجاه أنه دخل منطقة مختلفة، إضافة لما كان يبثه الإنجليز من أكاذيب بين الطرفين ونجحوا وقسموا الشعب الواحد إلى شعبين سمي أحدهما الشعب الفلسطيني ويسمى الآخر الشعب الأردني، وهذا ما ساهم كثيراً في زرع اليهود في الأرض المقدسة وإقامة دولة إسرائيل الحالية.

كان هذا الأمر بداية الهجمة الاستعمارية الجديدة الأوروبية ثم الأمريكية على الوطن العربي، وكانت تحركها أصابع الصهيونية، لقد غزوا بعض الحكومات والشعوب العربية من خلال الماسونية وتزوير التاريخ قبل أن يغزوا فلسطين لزرع اليهود فيها، ليخلق مشكلة جديدة هي وجود إسرائيل.

وهذا الإشكال الكبير ـ وجود إسرائيل ـ سيكون الأول والأكبر وصاحب الأولوية في السعي إلى حله، ولن ينتقل العرب المسلمون إلى حل غيره من المشكلات اقتصادية كانت أم علمية إلا بعد أن ينتهوا منه، وستكون هناك ممانعات من الداخل والخارج وستكون هناك المناورات والأكاذيب بما يبقي هذا الإشكال موجوداً وثابتاً وعائقاً لأي تحرر من الاستعمار ؛ اللهم إلا بمعجزة من عند الله وهذا ما سيكون بإذن الله وحسب ما ذكر الله في كتابه العزيز.

لقد عرف الناس الاستعمار المباشر وكرهوه وما من فرد في العالم إلا ويكره أن يرى المستعمر يحتل أرضه ووطنه وصار المستعمرون يفكرون بتطوير أسلوب الاستعمار وذلك بدلاً من الاحتلال العسكري المرفوض، وصار الأمر يحتم استبدال الجندي المستعمر ببديل له من داخل الدول الضعيفة وهو إضعافها وتفكيكها واستعمارها فكريا، وذلك بإقناع فئات منها بضرورة تعاملهم مع الدول المستعمرة وحاجتهم إليها، وهكذا يبقى الاستعمار وبطلب من الشعوب الضعيفة نفسها هذه المرة، وهي لن تحس بهذا السرطان الذي يسري في جسمها وعلى أيدي أبنائها وعلاجه لن يكون سهلاً ويحتاج إلى كثير من الوعي والكثير من التضحيات.

وهوجمت الأمة العربية بأفكار غريبة تؤدي إلى الكراهية والفرقة بين أجزائها حيث تم ربط العرب والعروبة بالصحراء وقلة الثقافة ، بل وبالتنقل والبداوة . ولكي تنجح المؤامرة كان ربط مصر والمصريين بثقافتهم العريقة التي لا تزال آثار عراقتها ظاهرة للعيان مما يرى من أهرامات وغيرها عُدَّت من عجائب الدنيا السبع، ولكن ما تم نسيانه من قبل جميع العرب أن هذه العراقة كانت في الأمة العربية بالتوازي في كل من العراق واليمن وعمان والشام والأردن ، وأما الصحراء فهي صحراء وعمّرها الدين بعد أن عجزت الحضارات عن عمارتها.

وأيضاً فقد تم ربط مصر من الناحية العرقية بصفة وردت في القرآن الكريم وهي صفة ضلالة لأحد ملوك مصر السابقين وهو رمسيس الثاني الذي لم يكتف بإنكار وجود الله بل ادعى لنفسه الألوهية ولهذا

الكفر البواح لقب نفسه فرعوناً أي المتجبر وخاطبه الله في القرآن الكريم ،بهذا اللقب في حين لم يعط هذا اللقب للملك الذي عاصر سيدنا يوسف ﷺ وقال الله عنه أنه ملك ولم يلقبه بالفرعون.

كذلك فقد ورد ذكر لقب ملك مصر بفرعون في الكتاب المقدس عدة مرات وهذا يؤيد وجهة نظرنا بأن من كان يحكم مصر هم ملوك. وأما رمسيس الثاني بالذات فقد كان يلقب بفرعون إضافة إلى كونه ملكاً، ومن هذه النصوص النص القائل:

((**ثم كلّم الرب موسى قائلاً: ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بني إسرائيل من أرضه .... فكلم الرب موسى وهارون وأوصى معهما إلى بني إسرائيل وإلى فرعون ملك مصر في إخراج بني إسرائيل من أرض مصر .... هذان هما موسى وهارون ... هما اللذان كلما فرعون ملك مصر في إخراج بني إسرائيل من مصر .... وكان يوم كلّم الرب موسى .... قائلاً: أنا الرب. كلّم فرعون ملك مصر بكل ما أنا أكلمك به**)) [سفر الخروج ـ الإصحاح السادس].

يلاحظ تكرار جملة (فرعون ملك مصر) وهذا يعني أنه ملك وأطلق على نفسه كلمة فرعون أي المتجبر. وتم استغلال هذه الكلمة لورودها في القرآن من قبل مؤرخين أجانب لهدف سيء في أنفسهم. وتم تداول كلمة الفراعنة على أنها أصل وعرق ومن كثرة تداولها وجدت قناعة امتدت إلى مختلف الطبقات الثقافية على أن هذه التسمية هي عرق وصار هذا المسمى (الفراعنة) واللغة (الهيروغليفية) يرمزان إلى أمة عريقة.

هذا الربط لأهل مصر بالحضارة مع ربط باقي الأمة العربية بالصحراء وبالبداوة ومظاهر التخلف صار حجة للتفاخر بهذا الأصل الفريد والحضارة الفريدة، وهذا ما رسخ الإحساس بالفرقة والانفصال عن الأصل وصار هناك إحساس لدى البعض بأنهم ليسوا من هذه الأمة ، وبذلك انقسمت هذه الأمة لثلاثة أقسام علاوة على ما سيدور داخل كل قسم من جدل بما تم بثه فيها من مختلف الأفكار الحزبية ذات الشعارات البراقة التي مهما قيل فيها فإنها ستؤدي إلى تقسيم كل دولة من الداخل إلى قوى يضعف بعضها بعضاً.

كان الهدف الأول من هذه الهجمة إضعاف الأمة العربية سياسياً وعسكرياً لاستعمارها وإبقائها سوقاً للعالم الغربي ومصدراً للمواد الخام النفطية ولتسويق منتجات الصناعات الغربية إليها ومن خلالها كحد أدنى.

والهدف الثاني ليتمكن أعداء الله من إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وسهّل ذلك الأوضاع التي ذكرناها، وهذان الهدفان يدعم ويثبت كل منهما الآخر.

وكان ذلك نتيجة تضليل اليهود للمستعمرين وتوجيههم لخدمتهم للوصول لغاياتهم وذلك من خلال ادعائهم لأنفسهم حق غيرهم في أنهم شعب الله المختار ولم يجدوا من يكشف كذبهم لبعد الآخرين عن فهم آيات الله .

إلى أي مدى نجح أعداء هذه الأمة في تقسيمها وتوجيهها من جراء بعدها عن الله وكيف السبيل إلى عودة هذه الأمة إلى الله أولاً قبل عودتها دولة واحدة أو تحت قيادة واحدة.

أي حساب من الله ينتظر من قصر في جنب الله وأسهم في تقسيم هذه الأمة؟ أي حساب لمن أسهم في ضعف هذه الأمة واحتلال أسوأ خلق الله مقدّساتهــا، واتخاذ هذه الأمة سوقاً للغرب.

قلنا إن الهدف الأول من الهجوم على هذه الآمة هو تقسيم الأمة العربية لتيسير احتلال فلسطين وليكون هذا الأمر سرطاناً في جسم الأمّة العربية لا علاج له إلا بالاجتثاث وليس هذا بالأمر الذي يسمح به العالم المستعمر وعملاؤه في داخل هذه الأمة ولا بد أن يكون ذلك بقوة أقوى منهم مجتمعين.

إن هناك هدفاً آخر من ذلك هو الإمعان في تضليل الشعوب الأوروبية والأمريكية عن أمور دينها الصحيحة وذلك لأنه لو ثبت أن لغة مصر كانت هي اللغة العربية منذ قديم الزمان فهذا يعني أن لغة بني إسرائيل الأصلية ولغة المنطقة كلها هي اللغة العربية.

إن أول ما يعني ثبوت ذلك الأمر هو أن التوراة والإنجيل نزلتا باللغة العربية ، مع الإقرار بوجود لغة أخرى موازية هي لغة الأقلية والجيوش المستعمرة والتي لم تكن موجودة في عهد موسى ﵇ ووجدت بعد ذلك بقرون، وأول استعمار وجد في المنطقة هو عام (٥٣٩ق.م) أي بعد التوراة بسبعة قرون وهذا يعني أن التوراة نزلت باللغة العربية يقيناً.

وخلال عهود الاستعمار فلم تُسَجَّل آثار وحضارة للمستعمر وإنما كانت الحضارة المسجلة قبل قدوم المستعمرين الذين لا همّ لهم إلا امتصاص خيرات هذه الأرض وهي أرض الكنانة المعطاء، ثم أرض فلسطين والشام المباركة.

ولو نظرنا الآن إلى ما يقال في الإنجيل من أنه نزل باللغة الآرامية لوجدنا ان هذا من ضروب التمويه.

كيف ينزل الله الانجيل مصدقاً ومكملاً للتوراة وكل منهما بلغة مختلفة مع انهما لنفس السلالة من بني اسرائيل ؟ هل يصدق ذلك ؟

كيف غير بنو إسرائيل لغتهم العبرية إلى آرامية مع أنها لغة التوراة المدعاة، في حين أن اللغة الآرامية ليس لها وجود .

متى اندثرت اللغة الآرامية وكيف اندثرت، وكيف تختلف لغة فلسطين عن لغة مصر مع أنهما في وحدة اندماجية تامة منذ اكثر من ألفي عام قبل اندثار هاتين اللغتين الفجائي. أليس الأكثر صواباً أن تكونا لهجة للغة واحدة هي اللغة العربية، وأن هناك من يعمل على طمس هذه الحقيقة.

وأما إن كان الرهبان من بعد عيسى ﵇ كتبوا الإنجيل باللغة اللاتينية وهي لغة أوروبا المستعمرة في حينه وذلك لينشروه بسهولة في ربوع أوروبا فهذا ممكن وفي هذه الحالة يسمى ذلك ترجمة الإنجيل كما يوجد الآن ترجمات للقرآن .

كذلك يقال إن التوراة نزلت باللغة العبرية وقد مرّ بنا أنها لغة الأقلية في مصر وفي المنطقة كلها إن كانت هناك لغة أصلاً اسمها عبرية، وأما إن كانت انحرافاً عن العربية فهذا جائز. فلو كانت اللغة العبرية لهجة انحراف مع الزمن عن اللغة العربية فهذا يعني أن هناك كلمات مشتركة بين اللغتين وأن كتابتها ستكون من جهة اليمين إلى جهة اليسار كاللغة العربية.
فهل هذه الشروط متوفرة في اللغة العبرية؟ نعم ، فالكثير جداً من كلماتها هي لغة عربية، وكذلك فإنها تكتب من اليمين إلى اليسار، وإن الانحراف الذي حصل هو بسبب طرد هؤلاء الكفرة إلى مختلف أصقاع الأرض بناء على قرار الله تعالى بطردهم.

وإن ما حافظ على هذه اللغة من أن تندثر حتى اليوم أمران : أحدهما شدة سوء المتحدثين بها، والأمر الآخر هو أنها لغة الدين حيث أنهم يكتبون التوراة التي لديهم بهذه اللغة ولولا ذلك لاندثرت منذ مدة طويلة وذلك لبعدها عن الأصل لآلاف السنين ، وإن صحّ ذلك فإن الأحرف العبرية تكون هي الأحرف العربية الأصلية المنفصلة قبل وصلها لتشكل الكتابة العربية غير المنقوطة. ومما يؤيد تلك الفرضية أن اللغة العبرية عادت بكلمات عربية كثيرة من مناطق مختلفة تتحدث بلغات مختلفة لم تصلها فتوحات إسلامية عربية .

نكتفي بهذا العرض عن اللغة الدارجة أو اللغات التي كان يتداولها سكان المنطقة العربية قبل الإسلام، ونعود إلى نقطة أخرى من بحثنا وهي أصل المسميات التي نسمعها والتي خاطبنا الله بها في كتابه العزيز.

إن الله تعالى خاطب الناس بما كانوا يعرفونه من ألفاظ اللغة في صدر الإسلام. ولنقف مع بعض الأسماء التي وردت في القرآن الكريم وأقدمها لفظة يهود، التي ورد فعل دال عليها في قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٦].

يظهر من الآيات أن موسى عليه السلام يكلم الله تعالى بقوله : (إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ) أي نحن قادمون إليك لنضع أنفسنا بين يديك ونحن عبيدك وضيوفك. من الفعل هدنا اشتقت كلمة اليهود وهذه هي التسمية التي أطلقها على أنفسهم أسوأ خلق الله .

ونحن نعلم أن رسالة موسى عليه السلام ورسالة غيره من الرسل هي الإسلام ولكنهم لكفرهم نسوا ذلك وسموا أنفسهم باليهود، ونسوا تسمية الله لهم بالمسلمين، وإن الله تعالى يستخدم تسمية اليهود في القرآن للدلالة على كفرهم، ونحمد الله على أنهم نسوا أصل التسمية لأنهم لو استخدموا التسمية الإلهية وهي الإسلام لوقع هناك إرباك في التفريق بين المسلم الحقيقي والمسلم المزوّر عبر التاريخ.

وأما كلمة المسيحية وهي الانتساب للمسيح عليه السلام ، وهي كلمة عامية تستخدم حالياً ولم تكن تستخدم في صدر الإسلام أو قبل ذلك لأنها لم تستخدم في كتاب الله وقلنا إنه لا يجوز أن ينسب الإنسان أو الدين إلى نبي بل ينسب النبي ومن اتبعه من البشر إلى الديانة الإلهية وهي الإسلام.

وأما كلمة نصارى؛ فهي اسم من الفعل نَصـَر، أي هم الذين نصـروا المسيح ، ولقد ورد ذكرهم في قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف:١٤].

والذين اتبعوا عيسى عليه السلام حق اتباعه هم مؤمنون ولقبهم نصارى لأنهم نصروا عيسى عليه السلام واستمر استعمال هذا اللقب حتى الآن، لذا فإن أصل الكلمة حسن ومدلولها حسن ومن كان يتبع عيسى حق اتباعه يجب عليه أن يستمر على دين الله وأن يؤمن برسالة محمّد ﷺ ومن لم يؤمن برسالة النبي الأمي ﷺ بقي يحمل هذا اللقب.

مما سبق فإن دلالة كلمة نصارى ترتبط بالزمن الذي تتحدث عنه الآية، فإذا كان قبل الإسلام ؛ فهي كلمة مدح تدل على مؤمنين ، وإن كان الزمن بعد رسالة المصطفى ﷺ ، فان لكل آية معنىً مختلفاً وذلك حسب موضوع الآية ، وقد خاطبهم الله تعالى أيضاً بما لقبوا به أنفسهم ونحمد الله تعالى أيضاً على أنهم لم يستعملوا كلمة مسلمين حتى لا نقع في حيرة لا ندرك فيها المسلم الحقيقي والمسلم المدعي.

ولقد ذكر الله تعالى الذين هادوا والنصارى يمتدح إيمانهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ

هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة:٦٢].

إن الآية الكريمة تبين لنا أن الله تعالى يمتدح إيمان الذين هادوا ، وكذلك النصارى الذين آمنوا بالله واليوم الآخر حق الإيمان وعملوا الصالحات فهؤلاء لهم الأجر والثواب عند الله وحسن جزاء الآخرة وهؤلاء الموصوفون كما كانوا في أيام وصفهم وقيامهم بواجباتهم تجاه ربهم.

وأما الديانة الإسلامية الخاتمة التي بَعث الله بها محمّداً ﷺ ، فقد ورد فيها ذكر مهاجرين وأنصار وهذه تسميات لمن هاجروا من مكة ومن نصروا رسول الله ﷺ من المدينة المنورة من الأوس والخزرج.

وكلمة الأنصار تعني الجيل الأول فقط ، ولم يتناقلها الأبناء لأنهم هم والأحفاد مسلمو الديانة، ولا يوجد الآن من يسمون أنفسهم بالأنصار لأن الجميع مسلمون، ولقد ذكر الله تعالى المهاجرين والأنصار في عدة مواقع من الكتاب الكريم ، نذكر منها قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠].

نكتفي بهذا العرض لبعض الأسماء في القرآن الكريم ونعود إلى ضالتنا الأولى وهم أحفاد إبراهيم كعرق وبنو إسرائيل منهم خاصة وما ذكر عنهم في كتاب الله وفي صدر الإسلام.
لقد ثبت لنا فيما سبق ذكر بني إسرائيل كعرق على أرض الإسراء في زمن عيسى عليه السلام واستمرارهم فيما بعده كحواريين وصحابة لعيسى عليه السلام ، وكذلك تبين لنا ما ذكره الله تعالى عمن يوجد من أهل السوء منهم في الجزيرة العربية وهم يهود خيبر ويهود المدينة المنورة ومن ضمن ما قاله الله تعالى فيهم : ﴿ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:١٩٧] .

إن هذه الآية حجة على أهل قريش تقول لهم إن بني إسرائيل الذين تعرفونهم والعلماء منهم شهدوا أن هذا القرآن من عند الله ، ولقد شهد به الصحابي عبد الله بن سلام الذي أسلم وكان من علمائهم، وهذه الآية تظهر لنا شهادة الله تعالى بأن هؤلاء اليهود هم من بني إسرائيل عرقاً.
نعود الآن إلى موضوعنا وهم يهود الجزيرة العربية وما ذكره الله فيهم وفي أصلهم وصفاتهم لنورد قول الله فيهم : ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٣].

إن أهم ما تبينه هذه الآية أن هؤلاء اليهود؛ وهم يهود الجزيرة العربية هم من أحفاد تلك الأسباط الذين نقضوا عهدهم مع الله وكان ذلك أيام التيه مع نبي الله موسى عليه السلام .

وقال الله تعالى فيهم : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ

عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف:١٠].

تبين هذه الآية لأهل قريش أن هناك من يهود المدينة من شهدوا أن هذا القرآن من عند الله وأنهم آمنوا ونحن هنا نذكر هذه الآية لنظهر شهادة الله تعالى في هؤلاء اليهود أنهم من بني إسرائيل عرقاً.

إن هذه السلالة من الأسباط العشرة الذين بقوا في جزيرة العرب منذ التيه ولم يتبعوا الإنجيل وبقوا على غيهم وضلالهم وسيبقون على ذلك إلى قيام الساعة.

وكذلك فإن الله تعالى قال في خروج بني قريظة: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢٦-٢٧].

هذه الآية نزلت في حق بني قريظة الذين اتفقوا مع كفار قريش أن يفتحوا لهم حصونهم في معركة الأحزاب التي كفى الله المؤمنين فيها القتال فبعث على الكافرين ريحاً اقتلعت خيامهم وأجبرتهم على الانسحاب فتوجه المسلمون إلى بني قريظة وحاصروهم إلى أن نزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم بقتل المقاتلين وسبي ذريتهم وأموالهم لأن في خيانتهم لو نجحت فناء المسلمين وسُرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم وباركه لأنه يطابق حكم الله فيهم.

إن الله تعالى يبين لنا في هذه الآيات والتي قبلها مما ذكرنا أن يهود المدينة المنورة هم من بني إسرائيل عرقاً وممن لعنوا على لسان داود أي من الأسباط العشرة وأنهم من أصل سكانها وذلك من قول الله تعالى ديارهم وحصونهم وبيوتهم وصياصيهم وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، هذه المخاطبات تدل على أنهم أصحاب هذه الممتلكات منذ أنشئت وأنهم لم يكونوا غزاة لهذه المناطق ولكن طبيعتهم الفاسدة المفسدة أبقتهم على كفرهم فلم يسلموا ليبقوا.

هذا عن يهود المدينة المنورة ومنطقتها وخيبر والقرى المحيطة بها والذين هم من بني إسرائيل عرقاً ، ولكن ماذا عن بني إسرائيل عامة فماذا ذكر الله فيهم؟

لقد خاطب الله تعالى أهل السوء من بني إسرائيل لتقوم عليهم الحجة يوم القيامة في مختلف أماكن وجودهم سواءً أكانوا في داخل الجزيرة العربية، أو الذين هم خارج الجزيرة العربية والذين تم طردهم من الأرض المباركة بقرار الله تعالى، ومنذ ما يزيد عن ألف سنة قبل نزول الآيات، ولقد خاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٤٧-٥١].

وتتابع الآيـات كلام الله تعالى لهذه الفئة الضالة من بني إسرائيـل بقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٥].

إن الله تعالى يخاطب الأسباط العشرة من بني إسرائيل في هذه الآيات في مختلف أماكن تواجدهم وليكون هذا الخطاب حجة عليهم حيث يدعوهم إلى الإيمان، ويذكرهم بفضله عليهم، وأنه تعالى فضلهم على العالمين، والتفضيل هو في الصفات الجسمية خاصة من ناحية الذكاء (العلم) الذي ورثه كل بني إسرائيل عن جدهم إسحاق الذي وصفه الله تعالى بأنه (**غلام عليم**).

وها هم أحفاده على مر الدهر يسيطرون على التجارة العالمية سواء كان هذا في زمن فرعون أو في الزمن الحاضر.

وكذلك فإن نسبة مرتفعة من علماء العالم هي منهم، وهذا من فضل الله عليهم، وهذا لا يعني وراثة الدين، لأن أمر الدين هو في العهد مع الله، والذي ذكره الله لأهل الخير فقط من بني إسرائيل.

هذه الآيات هي لتذكير الأسباط العشرة بما كان من فضل الله عليهم وما كان يجب عليهم من الشكر لا الكفر، ويذكرهم بما كان منهم من كفر حين قالوا لنبيه موسى عليه السلام (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً).

كذلك فإن الله تعالى يذكرهم بما كان من سوء عملهم حيث عبدوا العجل في غياب موسى عليه السلام للقاء ربه.

وتستمر آيات الكتاب في ذكر تصرفاتهم المشينة، ويخبر الله تعالى عنهم أن لا فائدة فيهم، وأنهم لن يؤمنوا بالله، لأنهم أشربوا في قلوبهم العجل، وقول الله تعالى في إحدى الآيات موجه إلى رسوله الكريم ويحمل المعنى الدائم، وهذا يعني أنه موجه إلى كل مسلم مع الزمن، وأن أسباط الكفر لن يؤمنوا على مر الدهر. قال تعالى: (**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) [البقرة: ٧٥].

فهؤلاء الفاسدون المفسدون مع الزمن إلى قيام الساعة وقد ذكرهم الله تعالى في آيات كثيرة مبيناً سوء صفاتهم وضلالهم ونقضهم عهودهم مع الله ومع الناس، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وهم الذين ملئوا الكرة الأرضية فساداً في العصر الحديث لإقامة دولة إسرائيل الثانية والقائمة حالياً، وسنأتي على ذكر ذلك بالتفصيل لاحقاً.

نأتي الآن إلى ضالتنا في هذا المقام ، فهل ذكر الله تعالى بني إسرائيل ذلك العرق الخير ذكراً صريحاً مباشراً كما ذكر أهل السوء منهم؟

نعم إن الله تعالى خاطب تلك النخبة من بني إسرائيل مباشرة في سورة البقرة يدعوهم إلى رضوان الله استمراراً لرضوانه عليهم بقوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة:٤٠-٤١].

إن الله تعالى في هذه الآيات يخاطب اتباع عيسى من بني إسرائيل ويدعوهم إلى الإسلام وإلى القرآن الذي أنزل على محمّد ﷺ والذي هو مصدق لما معهم من كتاب الله وهو (التوراة والإنجيل معاً).

وبذلك فإن المعنى من قول الله تعالى : (وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ) الواردة في الآية (البقرة ـ٤١) أي آمنوا بالقرآن الذي نزل مصدقاً للإنجيل و التوراة التي معكم يا بني إسرائيل، ومن هذا يكون المعنى أن بني إسرائيل الوارد نداؤهم في الآية (البقرة ـ٤٠)هم الذين يتبعون ويحملون كتاب الله التوراة و الإنجيل وهذا يعني أنهم سكان المسجد الأقصى وما حوله، وبما أن زمن المخاطبة هو زمن نزول الآيات فإن هذا يعني أن سكان الأقصى وما حوله في صدر الإسلام هم بنو إسرائيل عرقاً بنص آيات الله تعالى الواردة والتي تدعوهم إلى رضوان الله تعالى وتطلب منهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وألا يلبسوا الحق بالباطل وألا يكتموا الحق وهم يعرفونه ، كذلك فإن الله تعالى يطلب منهم إيتاء البر كما أنه مطلوب منهم أن يستعينوا على اجتياز هذه المرحلة بالصبر والصلاة لأنها مرحلة تغيير مسار لحياتهم من ترك صواب إلى صواب أكبر، كما أن الله يذكرهم بامتداد عهده معهم و يطلب منهم الاستمرار على العهد بقوله تعالى : (وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ)، واستمرار العهد لا يكون إلا مع المؤمنين والمقصود بهذا النداء المؤمنون من بني إسرائيل في زمن نزول القرآن أي انهم امتداد للذين آمنوا بعيسى ﵇ ، وامتداد العهد مع الله هو إيمانهم بهذا القرآن وهو امتداد للصراط المستقيم الذي هم عليه.

ولقد لخص الله رعايته واختياره لهذه الفئة المؤمنة بقوله تعالى: (**وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ*مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ*وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**) [الدخان:٣٠- ٣٢]. هذه الآيات فيها إخبار للبشرية أن عهد الله مع نسل إبراهيم في أن يتبعوا أنبيائه جميعاً (**يكونون عباداً لي وأكون إلههم**)، وأن هؤلاء هم شعب الله المختار: (**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**) [الملك:١٤].

نأتي الآن إلى الذين آتاهم الله الكتاب وامتدحهم الله تعالى في عدة مواقع من كتابه الكريم لنعرف من هم هؤلاء الذين آتاهم الله الكتاب.

عرّف لنا القرآن الذين آتاهم الله الكتاب في سورة الأنعام ، حيث قال الله تعالى يبين لنا أصلهم ومن أي سلالة ينحدرون ، ولقد جاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠].

لقد بحثنا في عدة تفاسير عن معنى هذه الآيات لأنها هي التي تبين الذين آتاهم الله الكتاب و الحكم والنبوة المذكورين في عدة مواقع من كتاب الله.

وكان تفسير هذه الآيات في كتاب « **تفسير القرآن العظيم** » للحافظ ابن كثير، (الجزء الثالث ، الصفحات ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣) فقد ورد فيها ما يلي :

وقوله في الآية الكريمة : (وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ) أي وهدينا من ذريته (دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ..) وفي ذكر عيسى عليه السلام دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام.

وقوله : (وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ) ذكر أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم ولهذا قال : (وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ).

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ (أُوْلَٰٓئِكَ) يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الأبناء والذرية والإخوان وهم الأشباه (ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ) أي هم أهل الهداية لا غيرهم (فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۗ) ، أي اقتد واتبع وإذا كان هذا الأمر للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به.

كما ورد في تفسير هذه الآيات في كتاب « **الجامع لأحكام القرآن** » (للقرطبي، الجزء السابع ، الصفحات ٣٤، ٣٥، ٣٦) :

قوله تعالى : (وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ) ، (من) للتبعيض أي هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم.
(وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ) قال مجاهد: خلصناهم وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم.

قوله تعالى : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ) ابتداء وخبر (وَٱلۡحُكۡمَ) العلم والفقه (فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا) أي بآياتنا . (هَٰٓؤُلَآءِ) أي كفار عصرك يا محمّد (فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا) جواب الشرط ، أي وكلنا بالإيمان بها (قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ) يريد الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة. وقال قتادة يعني النبيين الذين قصَّ الله عز وجل .
قال النحاس : وهذا القول أشبه بالمعنى ، لأنه قال بعد : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۗ) .

قوله تعالى : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۗ) فيه مسألتان :

الأولي قوله تعالى : (فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ) : الاقتداء طلب موافقة الغير في فعله. فقيل المعنى اصبر كما صبروا وقيل : معنى (فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ) التوحيد والشرائع مختلفة وقد احتج بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء، فيما عدم فيه النص كما في ((صحيح مسلم)) .

الثانية: (فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ) لوقوع الهداية بهم وقال: (ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ) لأنه الخالق للهداية.

ولنحاول الآن أخذ رأي نهائي للمعنى المطلوب من هذه الآيات:

تبين التفاسير قوله تعالى: (وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ) بأن (من) للتبعيض وتعني بعض آبائهم وإخوانهم وذرياتهم وهذا ما نؤيده لأنه لا يوجد مجتمع نقي نقاءً تاماً.

إن الأنبياء صلوات الله عليهم المذكورين في الآيات هم من ذرية إبراهيم عليه السلام ما عدا نوح ولوط عليهما السلام. أما نبي الله نوح فقد خصته الآية بقول : (وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ) كبيان لأصل السلالة المعنية وهي سلالة إبراهيم عليه السلام.

أما نبي الله لوط فمن المعروف أنه أنجب بنات مهديات ولم ينجب أولاداً ، واستثنى الله زوجته من الهداية بقوله تعالى : (**إلاّ عَجُوزاً في الغَابرينَ**) . وأما سلالة إسماعيل فقد استثناها الله بقوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ [سبأ:٤٤].

يتبين أن المقصودين بالآيات هم من سلالة نبي الله ابراهيم وسلالة الأنبياء المعدودين الذين هم من سلالة ولده إسحاق عليهم السلام .

وبذلك فانه يتبين لنا أن المقصودين بقوله تعالى : (ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ) قبل بعثة المصطفى ﷺ هم أحفاد إبراهيم من ولده اسحق إلا ما استثنى الله منهم بآيات وهم الذين لعنهم من هذه السلالة .

ولقد استثنى الله تعالى الذين لعنهم وهم المذكورون بقوله تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨].

والذين لعنوا على لسان داود هم الأسباط العشرة الذين طردوا من فلسطين وسموا أنفسهم باليهود ، والذين لعنوا على لسان عيسى بن مريم عليه السلام هم حوالي نصف السبطين الخيرين وقد قتلوا في فلسطين ولم يعد لهم وجود ، وبذلك بقي الذين قالوا انا نصارى، والذين كانوا في أول البعثة الإسلامية يتبعون عيسى حق اتباعه في فلسطين وهؤلاء هم الذين بشر الله موسى عليه السلام بإسلامهم بقوله تعالى فيهم لموسى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] .

وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

[الأعراف:١٥٩].

وهم الذين اجتباهم الله تعالى منذ اجتبى جدهم يوسف عليه السلام من بني إسرائيل لحمل رسالة الهدى وهذه الذرية هي حملة كتاب الله تعالى منذ وجدوا، وبالطبع فإن هذه الفئة تطرد منها من ينحرف عن الصراط المستقيم وهي ببشرى الله تعالى مستمرة على صراط مستقيم إلى يوم القيامة.

تقول بعض التفاسير إن الذين (ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ) هم الأنبياء المعدودون في الآيات فقط ونعود لنؤكد على تفسير ابن كثير من أن الذين (ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ) هم الأنبياء المعدودون ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم أي من أحفاد يوسف عليه السلام ، ومما يؤكد ذلك أن الله تعالى ذكرهم في عدة مواضع من القرآن الكريم مبيناً وجودهم في صدر الإسلام وأنهم سيتبعون الإسلام كما سنضيف لاحقاً ومن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد:٣٦].

ولو كان المقصود هم الأنبياء فقط لما ذكر الله وجودهم في صدر الإسلام وأنهم سيتبعون الإسلام ويحسن إسلامهم لأنهم يفرحون بما أنزل على محمد ﷺ وفرحهم هذا يثبت وجودهم وحسن إسلامهم في زمن نزول القرآن. هذه الفئة هي التي حملت شعلة الإيمان ووكلها الله بقيادة البشرية قبل البعثة الإسلامية وتقتضي حكمة الله تعالى أن يحمل نور الهداية الجديد أبناء عمومتهم من ولد إسماعيل عليه السلام الذين سماهم الله تعالى بالأميين.

وقول الله تعالى : (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ)، فقد تبين من أقوال المفسرين الذين أوردنا أنهم الذين ذكروا من أنبياء الله وذويهم من إخوان وآباء وذرياتهم. أي الذين اتبعوا هؤلاء الأنبياء بالتسلسل التاريخي وكان أخرهم نبي الله عيسى عليه السلام وبذلك فإن الآيات تشير إلى سكان الأقصى ومن حوله من هذه السلالة الخيرة.

(وَٱجْتَبَيْنَـٰهُم): أي اخترناهم واصطفيناهم وأرشدناهم إلى الإيمان وكسب رضى الله تعالى.

وقوله: (ٱلْكِتَـٰبَ) أي الكتب السماوية التي هي امتداد للقافلة الإيمانية بدءاً بالتوراة ثم الزبور ثم الإنجيل وقبلها صحف إبراهيم وهذه الفئة (سبط يوسف) هم الذين حملوا الكتب السماوية المتتابعة واتبعوها وحافظوا عليها وهم الذين بشر الله تعالى موسى عليه السلام بأنهم سيتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

وقوله تعالى : (هَـٰٓؤُلَآءِ) فقد بين المفسرون أنهم قريش أو كفار قريش أو كل كفار ذلك العصر.

نحن نؤيد قول جميع كفار ذلك العصر وما ينجبون مع الزمن ولكن ليس من كل البشر وإنما من الذين يكلفهم الله تعالى بحمل هذه الرسالة وإبلاغها للبشرية وهم أحفاد إسماعيل وقد سماهم رب العالمين بالأميين، ولقد جاء هذا في قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:٢] ، أي أن الله تعالى يؤتيهم الكتاب والحكمة منذ بعثة المصطفى ﷺ ، فهؤلاء هم المكلفون بحمل هذه الرسالة الأخيرة وإبلاغها للبشرية مع غيرهم من الذين حملوا الكتاب من قبلهم وعندهم القابلية أن يحملوا هذا الكتاب .

ولقد أظهر الله تعالى هذه القابلية مباشرة بعد بلاغه عن الأميين بقولــه تعالــى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الجمعة:٣-٤].

ويبين الله تعالى في هذه الآيات أن هذه الفئة إذا رأت الحق اتبعته وهذه طبيعتهم وفطرتهم الموروثة ويبين الله تعالى أن ذريتهم سيلحقون بهم وأن هذه الخاصية الإيمانية والحس الإيماني هي من فضل الله عليهم خصهم بها ربهم وهي أن يؤمنوا بالكتاب ويحملوه كما حملوه من قبل.

وقولـه تعالى : (وَكَّلۡنَا بِهَا) أي بالنبوة وحمل الرسالة (قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ) والله تعالى يؤكد إيمانهم بالرسالة والنبوة قبل أن يبلغوا هذه الرسالة وذلك لأنها مكتوبة عندهم في الإنجيل وهم يعرفونها وينتظرونها لأنها امتداد لما معهم من إنجيل يأمرهم باتباع هذه الرسالة الجديدة وحملها وطاعة هذا النبي الأمي الخاتم ومبايعته.

نأتي الآن إلى قول الله تعالى : (قَوۡمٗا) والذي يقول معظم المفسرين على أن المقصود بذلك هم المهاجرين والأنصار ما عدا الحسن بن أبي الحسن وقتادة اللذان يقولان بأن هؤلاء القوم هم الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة.

نحن مما أظهرنا نؤكد على هذا الرأي ونضيف إلى ما بينا أن ما يؤكد هذا الرأي هو قول الله تعالى : (فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ) أي لو كان معنى (قَوۡمٗا) يراد به أهل المدينة أو المهاجرين والأنصار فإن رسول الله ﷺ لا يقتدي بهؤلاء بل هم الذين يجب أن يقتدوا به كما أن للاقتداء شرطين هما :

الشرط الأول : وهي الطريقة والمنهج وهنا فإن المنهج هو الإسلام الذي نزل على الرسول ﷺ والمهاجرون والأنصار هم الذين يأخذون عن الرسول الكريم ولم يكن هو الذي يأخذ عنهم فلا يقتدي بهم بل يقتدوا به.

الشرط الثاني : وهو الزمن فإن المقتدى به يجب أن يسبق المقتدي في أداء الفعل الذي سيكون الاقتداء فيه للإبقاء عليه وأن أولئك الرسل ومن اجتباهم الله هم الذين سبقوا الإسلام، لذا فإنهم هم القوم الذين يتوجب الاقتداء بهم من قبل حملة الإسلام جميعاً.

وقول الله تعالى: (فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ) موجه إلى رسول الله ﷺ وبالتالي هو موجه إلى كل مسلم، ومع الزمن فإن كل من يحمل كتاب الله ؛ وهو القرآن، سواء أكان من أحفاد إسماعيل أم من أحفاد يوسف عليهما السلام ، فإنهم جميعاً ينطبق عليهم قول الله تعالى: (ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ) ، ويتوجب على كل مسلم ممن يليهم الاقتداء بهم، وهكذا يستمر الأمر إلى يوم القيامة في اتباع السلف الصالح . ومما يؤيد هذا الرأي قوله سبحانه تعالى : ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٥٤].

تثبت الآية أن في ذرية إبراهيم الكتاب والنبوة ، وكانت النبوة في أبناءه من اسحق ثم انتقلت إلى ولد إسماعيل محمد ﷺ ، وأما عظمة الملك فقد كانوا أقوى قوة في الأرض حيثما ملكوا وحكموا بشرع

الله ابتداءً من دولة الإسلام الأولى في مصر بقيادة يوسف ﷺ وأخلافه من بعده ،ثم دولة الإسلام الثانية بقيادة داود وسليمان ، ثم أعقبها دولة الإسلام الثالثة بقيادة الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين (أحفاد إسماعيل ﷺ). وبهذا الجمع من حملة كتاب الله (القرآن) وبمن يتبع منهاج الله حق اتباعه، قال الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨١]. وفي هذه الآية بشرى بأن أحفاد إسماعيل الأميين وإخوانهم من أحفاد يوسف عليهما السلام سيكونون على قدر المسؤولية الملقاة عليهم وسيرتقون بالإسلام الذي سيزيل أمية الأميين إلى المستوى الذي سبق وارتقى إليه أحفاد يوسف من قبل وبنفس الدين وامتداده وبذلك فإنهم معاً يهدون بالحق وبه يعدلون.

عودة بنا إلى سبط الخير وإجماع المفسرين على أن هذا السبط هم المقصودون بقول الله تعالى : (ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ) قبل الإسلام ولنبحث في كتاب الله تعالى عما وجه إليهم ربهم من حديث في مواقع أخرى من كتابه الكريم إضافة إلى ما بينا سابقاً .

نعم لقد ذكرهم الله تعالى يدعوهم إلى اتّباع رضوانه والإسلام كما اتبعوه من قبل وذلك بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:١٢١-١٢٣].

إن الله تعالى يخاطب الذين آتاهم الكتاب من بني إسرائيل وهم العرق الخّير فيدعوهم إلى الإيمان ويذكرهم بنعمته الدائمة عليهم وأنه فضلهم على العالمين ، والأفضلية هي في صفات الذكاء التي ورثوها عن جدهم إسحاق (**غلام عليم**)، إضافة إلى ما لديهم من عهد مع الله بالإيمان. والله تعالى يذكرهم بالأفضلية ليبقوا على الإيمان، وأن الله تعالى ينبئ سلفاً أن هذه النخبة الخيرة يتلون كتاب الله وأنهم يؤمنون به ، وقد كانوا ينتظرونه، وهو وارد في الإنجيل لديهم وهم مؤمنون أصلاً وهم الذين آتاهم الله الكتاب، فالكتاب اسم جنس وهو امتداد مع الزمن للأمام في طاعة الله وأن من يطيع الله حق طاعته لا يعادي أحداً من المؤمنين.

ويذكر الله تعالى هذا التفضيل هناك لئلا يظن أهل الشر من بني إسرائيل أن التفضيل كان لهم فقط حيث خاطبهم الله به بالآية (البقرة -٤٧) وما بعدها من آيات، ليذكرهم بالأفضلية وبما كان من كرم الله عليهم، وبالطبع فإن الله تعالى يطلب منهم اتباع رضوانه، ويلومهم على عبادة العجل وخيانة العهود والإفساد في الأرض، وأيضاً فإن الله تعالى يذكر أهل الخير من بني إسرائيل باتباع الكتاب الجديد وهو القرآن للإبقاء على هذه الخيرية التي هي فيهم أصلاً منذ أبيهم إبراهيم ﷺ ويحذرهم الله من يوم الحساب.

كما أن الله تعالى ذكر سبط الخير في موقع آخر في سورة القصص بآيات تعرفهم بأنهم الذين آتاهم الله الكتاب وتعرف بأن ما معهم من الإنجيل هو الامتداد السابق للقرآن وبينهما اتصال نوراني رباني حيث قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

[القصص:٥١-٥٤].

إن الله تعالى يبين في الآية الأولى من هذه الآيات أن هذا القرآن هو اتصال لقول الله تعالى وشرع الله بما كان قبله وأن الكتاب هو امتداد والشريعة الإلهية هي امتداد لما قبلها من شرائع إلهية حقة، لذا فإن من يسير على الطريق الصحيح سيستمر في مسيرته وسيتبع القرآن كما بين الله تعالى ذلك في الآية الثانية ويعتبر أن الذين آتاهم الله الكتاب من قبله سيؤمنون به وهذه بديهية كما بينها الله تعالى وأنه بمجرد أن يتلى عليهم فإنهم سيعرفونه لأنه من نفس المصدر الذي جاء منه الإنجيل وأنه لا مناص من إيمانهم لذا فإن الله تعالى يخبر عنهم بأنهم (أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ) لأن إيمانهم بالله واتباع هذا الدين حتمي.

وقد ورد في تفسير هذه الآيات في «**الجامع لأحكام القرآن**» (للقرطبي، الجزء١٣، الصفحة ٢٩٦):

قولـه تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ) أخبر أن قوماً ممن أوتوا الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن.

نأت الآن إلى ذكر أهم صفاتهم الشخصية فقد بينا ما أظهرته آيات الله من طبيعتهم الإيمانية وسيرهم على الصراط المستقيم ، ولكن الله تعالى يحب أن يظهر خير عباده وخير ما يتصفون به من صفات شخصية تجلت في قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ [الرعد:٣٦].

إن هذه الآية تظهر الروح السمحة التي لدى هذه الفئة والروح الإيمانية الصافية السامية والخالية من أي حسد لغيرها ، فإنها تفرح أن يؤتي الله فضله غيرها لأنها تحمل من صنف هذا الفضل وهي بهذه الروح الإيمانية التي تخلو من الحسد وترتبط بالله لتفرح بما يأتي من الله كائناً من كان الذي تشرف بتلقي هذا القرآن فإنهم سيفرحون به وبتطبيقه شرعاً ومنهاجاً في حياتهم وإن نزوله على شخص يشرف ذلك الشخص والعمل به من قبل أي أمة يشرف تلك الأمة.

بمثل هذه الروح الإيمانية يفرحون بالقرآن وهذه الفئة الخيرة هي التي ذكرها رسول الله ﷺ بالحديث الشريف الوارد في « مسند أحمد » برقم (٢١٢٨٦) وجاء فيه:

قال رسول الله ﷺ :

«**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لاواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك . قالوا يا رسول الله وأين هم ؟ قال : ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس** » .

ألا يفسر هذا الحديث آيات الله التي تبين تلك الفئة الخيرة منذ خلقت إلى يوم القيامة (حتى يأتي أمر الله) .

أرجو الملاحظة أنه تم فتح فلسطين أيام خلافة عمر بن الخطاب ؓ وأن الحديث يعدهم من أمة محمّد في حياة محمّد ﷺ ولم تكن فتوحات الإسلام قد وصلتهم وهذا يطابق فيهم قول الله تعالى بأنهم مسلمون من قبل الإسلام والوارد بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٣].

وأيضاً فإن الله تعالى ذكر الذين آتاهم الكتاب وهم أحفاد الخير بقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾[الأنعام:١١٤].

إن هذه الآية موجهة إلى رسول الله ﷺ وإلى كل مسلم بعد ذلك إلى قيام الساعة: (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ) قبل البعثة الإسلامية تعني أحفاد الخير..

وهذه الآية تعني أن هؤلاء إن شهدوا على صحة هذا القرآن فإن الله تعالى يقول للنبي وللمسلمين أول البعثة الإسلامية أنه يقبل شهادتهم على صحة الكتاب وهو القرآن. وأنه منزل من الله ، ويدعو المسلمين إلى اعتماد شهادتهم على صحة قول الله ،

وهذا تكبير وشرف وتعظيم لهذه الفئة الخيرة عند الله تعالى ، وذلك باعتماد شهادتهم على صحة قوله تعالى.

ورد هذا التشريف لهذه الأمة في قوله تعالى:

(فَإِن كُنتَ فِي شَكّ مّمّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقّ مِن رّبّكَ فَلاَ تَكُونَنّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) [يونس: ٩٤].

إننا لا ننزه هذه الأمة عن الأخطاء فهم وإن كان منهم أفضل خلق الله على هذه الأرض فإنهم أيضاً يفرزون أهل السوء منهم مع الزمن.

وقد بين الله ذلك بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٦].

إن هذه الفئة المكلفة بحمل كتاب الله تعالى وإبلاغه للبشرية تلفظ الخبث منها مع الزمن وهؤلاء الخبث رغم أنهم يعلمون الحق ولكنهم يتبعون الشيطان ويتباهون بالباطل.

ومن الخبث المنافقون الذين يدعون الإسلام ويحملون الشهادات الإسلامية الدينية العليا وينافقون ويكذبون طمعاً في دنيا يكسبونها وينسون الآخرة وحساب الله رغم أنهم أعلم من الكثيرين بالدين وبما يطلبه الله تعالى منهم ومن كل مسلم وهو قولة الحق.

لنضع خلاصة للذين آتاهم الله الكتاب، فإنهم غطوا فترتين من الزمن؛ الفترة الأولى وقصد بها أحفاد يوسف عليه السلام وتمتد إلى يوم القيامة، والفترة الثانية تبدأ مع بداية البعثة المحمدية، فإنه ينضم إلى أحفاد يوسف أحفاد إسماعيل ما تمسكوا بكتاب الله، وإذا تركوا كتاب الله فإنهم يصبحون كغيرهم من الناس كما هي حالهم حالياً.

أما أحفاد يوسف فإنهم يبقون على وضعهم، لأن الله تعالى طبعهم على حمل كتابه وراثياً في أجيالهم، حيث قال فيهم: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِىٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَـٰبَ ﴾ [غافر:٥٣].

نعود إلى ضالتنا في هذا المقام ؛ وهو لتعريف الناس بمعنى قول الله تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ

ﭐلۡكِتَٰبَ) ومن المقصود بذلك قبل البعثة الإسلامية ومع أن الله تعالى ذكر الأنبياء، فقد قال بعد ذلك: ﴿ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الأنعام:٨٧]، ثم يعقب الله تعالى بقولـه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الأنعام:٨٩].

رغم أن الآيات جاءت بالوضوح التام الذي لا لبس فيه ومع أن كتب التفسير أجمعت على معنى واحد لهذه الآيات ، وأن من المعروف للجميع أين كان يسكن أنبياء الله عيسى وزكريا ويحيى وعزير واليسع وداود وسليمان وغيرهم وأن ذريتهم لم يرحلوا ولم تكن هناك هجرات بعدهم،ومع كل هذا الوضوح لهذه الآيات ، نلاحظ أنها لا تؤخذ بعين الاعتبار عند اتخاذ قرار معين من أي نوع سواء أكان قراراً فردياً أم قراراً رسمياً اللهم إلا إذا كان هذا القرار في الاتجاه المعاكس.

سيقول قائل إن الله تعالى دعانا للتوحيد وأن نكون أمة توحيد ولا نقع في فخ العصبية ونقول له نعم وبالتأكيد، ولكن الله تعالى ذكر في كتابه العزيز من وقائع التاريخ وحقائقه ما يدافع به عن الذين آمنوا، فقد علم أنه سيكون هناك تزوير في المعالم التاريخية والمادية تؤدي إلى إلحاق الظلم بالمؤمنين من هذه الفئة الخيرة فدافع عنهم بآياته وهو القائل يصف نفسه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [الحج:٣٨].

إن الله تعالى علم أنه سيقع تزوير على أمة الخير في تاريخها وعرقها وصفاتها فأوضح في كتابه العزيز هذه الأمور دفاعاً عن أمة الإيمان والمؤمنين كافة من أنبياء وغيرهم.

لقد ذكر الله ما ذكر دفاعاً عن الأمة التي حملت شعلة الإيمان منذ ولادة جدها يوسف سليل الأنبياء يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

إن ما يقال الآن عن هذه الأمة هي أنها من أصل أوروبي ومن جزيرة كريت والذي لديه بعض النقص من عروبته لأن العروبة في تقهقر هذه الأيام يتغنى بهذا الكلام المزيف ولا يهمه ماذا يكون أصله ولا يعلم أن أصله ممن اجتبى الله وأنه من خير الأمم أباً عن جد.

إن وسائل الإعلام تتغنى بالتزييف وتهدف إلى خدمة الأعداء وذلك بأن يكتب عن سكان الأقصى وما حوله من أنهم من جزيرة كريت وأن اليهود أحفاد إبراهيم ؛ وهم سكان فلسطين ، وما هذا إلا خدمة سياسية لأعداء الله وأعداء البشرية كلها لأنهم الفاسدون المفسدون .

هؤلاء اليهود هم الظالمون من ذرية إبراهيم وأما الفريق المقابل منهم فهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله فيهم : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ)، إن لهم أن يفتخروا بذلك دون كبر وتعاظم ، بل يجب أن يكونوا متواضعين طائعين شاكرين عابدين صابرين.

لقد أوردنا هذا الكلام الذي أظهره الله تعالى دفاعاً عن الحق للذين لا يفهمون كتاب الله والذين كلما قرأوا اسم نبي من أنبياء الله من قبل سيدنا محمّد ﷺ فإنهم يربطونه باليهود ، هذا الربط غير صحيح فهم أنبياء بني إسرائيل ومن بني إسرائيل وهم أحفاد يعقوب ولكنهم لا يمتون بصلة لليهود إلا أنهم من جذر واحد وما كل هؤلاء الأنبياء إلا أجداد ذلك الشعب الخير الذي يسكن الأقصى وما حوله منذ أن دخل إلى

فلسطين تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة:٢١]، فهم فيها منذ ذلك الزمان كما بين الله.

إن بعض من يقرءون كتاب الله إذا ورد ذكر موسى وداود وسليمان عليهم السلام فإن هذه الأسماء يربطونها باليهود في حين أن اليهود هم الذين لم يؤمنوا ولم يتبعوا هؤلاء الأنبياء وهم الذين لعنهم الله على لسان داود .

إن هؤلاء اليهود يلتقون مع موسى عليه السلام في جد واحد قبل عهد موسى عليه السلام بثمانية قرون، وأنهم يلتقون مع داود وسليمان عليهما السلام في جد واحد قبل أحد عشر قرناً وأن هؤلاء الأنبياء هم وباقي أنبياء بني إسرائيل هم أجداد الشعب الذي يسكن الأقصى وما حوله والذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [غافر:٥٣].

إن هؤلاء هم حملة كتاب الله ما داموا يتناسلون إلى قيام الساعة، والكتاب اسم جنس بدءاً بالكتاب الذي أنزل على موسى (التوراة)، يتبعه (الزبور)، وما أنزل على الأسباط، ثم الإنجيل ثم القرآن، فهم حملة كتاب الله وفق عهدهم مع الله حين خاطب جدهم إبراهيم قائلاً: **(وهذا عهد بيني وبين نسلك إلى الأبد)**.

نورد هذا الكلام لوسائل الإعلام المختلفة التي أخذت على عاتقها أن تكبر وتضخم أي خطأ يصدر عن أي فرد من هذه السلالة ، وذلك تحريضاً للشعوب العربية المسلمة لكي تكره هذا الشعب في حين أنه إن صدر صواب صغروه وكتموه حتى يتلاشى أو ينسب لغيرهم.

وسائل الإعلام والقائمون عليها الذين ينفذون هذا السوء حسداً من عند أنفسهم لهذا الشعب أو نفاقاً للمسؤولين يعلمون أنهم بذلك إنما يخدمون اليهود الذين ما تجاسروا على أن يعتدوا على فلسطين إلا بعد أن ضمنوا عداء اخوان لهم من العرب لهذه السلالة بل تعاونوا معاً لضرب هذه السلالة الخيرة من أحفاد يوسف عليه السلام.

نورد هنا الكلام عاتبين على الجهات المنفذة التي تنفذ أحقاد الحاسدين لهذا الشعب دونما تمييز للحقائق ولنقول لهم ويل لكم من يوم الحساب ، هؤلاء المنفذون يظنون أن المسؤولية على المسؤول دائماً ناسين أن الذنب على من اقترفه إن كان بالغاً وليس على من أصدر الأمر وحده.

الذين ينفذون أوامر المسؤولين الخاطئة والذين هم مكلفون بقمع أهل الصواب في أي مكان نذكرهم بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص:٨] ، إنكم أيها المنفذون في قمع الصواب إنما عليكم نفس الإثم الذي على الفراعنة الذين تخدمونهم وويل لكم من عقاب الله الذي سيلاحقكم في أي إساءة تلحقونها بأي شخص كان على صواب وعلى حق.

نورد هذا الكلام رداً على اليهود الذين يدعون أنهم شعب الله المختار مع أنهم أسوأ خلق الله ولنقول لهم ولكل رجل علم لا يعرف أولا يريد أن يرد عليهم الرد الديني الصحيح. إنهم يدّعون أن كونهم شعب الله المختار ورد في التوراة، فإن هذا إن ورد في التوراة كما ورد في القرآن فإن قولهم صحيح مع عدم فهمهم لكلام الله لما يلي :

إن بني إسرائيل هم إثنا عشر ؛ إثنان منهم كانوا في اتجاه إيماني وعشرة كانوا في اتجاه مضاد للإيمان، ولم يخاطب الله الأبناء بل خاطب الأحفاد وهم الأسباط أي الأحفاد . وأحفاد كلا الطرفين أكثر من ثلاثة منذ جذورهم أي جمع.والله تعالى خاطب مجموعهم ببني إسرائيل لأنهم كذلك ومدح بعضهم وذم معظمهم عندما كانوا مجتمعاً واحداً لأن نسبة الصلاح فيهم هي السدس تقريباً. وأما عندما تفرقوا فإن الله

تعالى خاطب أهل الخير منهم إما بالمدح أو مدح بعضهم وذم آخرين، وناداهم ببني إسرائيل لأنهم كذلك.

كذلك فقد خاطب الله تعالى أهل الكفر منهم وكان الخطاب بالذم واللعنة وناداهم ببني إسرائيل لأنهم كذلك.

هناك خلط في الأمور وعدم فهم المقصود من المناداة وهذا ما يخلق الإرباك الفكري وخلط الأمور على من لا يربط النداء بالإيمان و بالزمن وبالمقصود من النداء.

ولكن اليهود أخذوا من كلام الله ما يحلو لهم وتركوا ما يناسب طبيعتهم وبذلك يدعون أنهم شعب الله المختار ولكن من يعرف تقسيماتهم التاريخية ويعرف الدين سيفهم كلام الله وهو أن اليهود ملعونون إلى قيام الساعة ، وأن شعب الله المختار مقصور على سبط واحد، وهم الآن سكان الأقصى وما حوله ، ويوافق هذا ما ورد في التوراة ولا يختلف عن ذلك لأن التوراة الصحيحة والإنجيل والقرآن هي من مصدر واحد وامتداد واحد لكتاب الله ، وبذلك فإن اليهود لم يكونوا يوماً شعب الله المختار ولا يمتوا إليهم بصلة إلا أن يلتقوا في جد واحد هو يعقوب عليه السلام .

ولقد بين الله لنا في كتابه العزيز شعبه المختار ، إذ قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

إن هذه الآيات توضح أن الله تعالى اختار آدم من دون مخلوقاته واختار نوحاً من أبناء آدم ثم اختار إبراهيم من أبناء نوح عليهم السلام ثم اختار عائلة إبراهيم من عائلات زمانه ثم اختار عائلة عمران من العائلات التي أنجبها إبراهيم عليه السلام . وعمران هذا هو والد موسى وهارون عليهما السلام اللذان هما جدا ذلك الشعب الخير.

تقول بعض التفاسير أن عمران هو والد مريم عليها السلام ويقول بعضها أنه والد موسى وهذا ما نميل إليه لأن الآية تحمل المعنى الدائم أي استمرار الأمر وديمومته مع الزمن، ولو كان عمران والد مريم لانتهت الذرية عند عيسى عليهما السلام ، وكان الأمر حدثاً في حين أن الله تعالى أوضح استمرارية هذه النخبة بقوله تعالى : ﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩].

هذه الآية دائمة المعنى ثابتة المعنى ونزلت في صدر الإسلام مع باقي آيات الله وهذا يعني أن هذه الأمة موجودة في ذلك الزمان والآية تحمل المعنى الدائم أي أن هذه الأمة دائمة الوجود ما دامت آيات الله أي إلى قيام الساعة، ولو كان عمران والد مريم لكانت الآية تتحدث عن حدث سابق مضى ولا تتحدث عن استمرارية وجود.

كذلك فإن الله تعالى أورد ما ينسب مريم عليها السلام إلى عمران والد هارون وموسى حيث كان والدها إنساناً عادياً كغيره من الرجال ، ولكن عمران والد هارون وموسى كان على درجة من التقوى الشديدة ، وهو والد الأنبياء هارون وموسى وجد من تلاهم من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

لقد جاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾ [مريم:٢٨] ، أي أنهم ينسبون مريم بأخلاقها التي عرفت بها وبالتربية الحسنة التي كانت عليها حيث قام على تربيتها نبي الله زكريا عليه السلام ، وأنها من الخلق ما جعلها تعد ابنة عمران والد هارون فتخاطب (يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ) ، أي ابنة العمران الكبير الذي ينجب الأنبياء.

إن مريم نسبت بأخلاقها لأن تكون ابنة الجد الذي أنجب نبيين فكأنه أنجبها وهذا ما يدل على أن

عمران والد موسى وهارون عليهما السلام هو المقصود بالآية الكريمة (وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ).

كذلك فإن الله تعالى عرفهم بقولـه تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الأنعام:٨٩] ، أي أنهم موجودون في صدر الإسلام ويستمر وجودهم باستمرارية الآية.

فأين حقوق أحفاد يوسف يا خير أمة أخرجت للناس ؟ وهل يحق لليهود أن يتفاخروا باطلاً أنهم شعب الله المختار ولا يحق ذلك لأصحاب هذا الحق الشرعيين ؟ وهل يحق لمن أمر الله بطردهم خارج المقدسات أن يعيشوا فيها بحجة السلام والمقدسات والنظام العالمي الجديد ، وننسى نظام الله الدائم ؟ .

هل يحق لأحد أن يتنازل عن مسجد وينسى قول الله : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨]. فماذا يتوقع الذين يتنازلون عن الأرض المباركة المقدسة وفيها المسجد الأقصى أن يلاقوا في دنياهم وآخرتهم؟

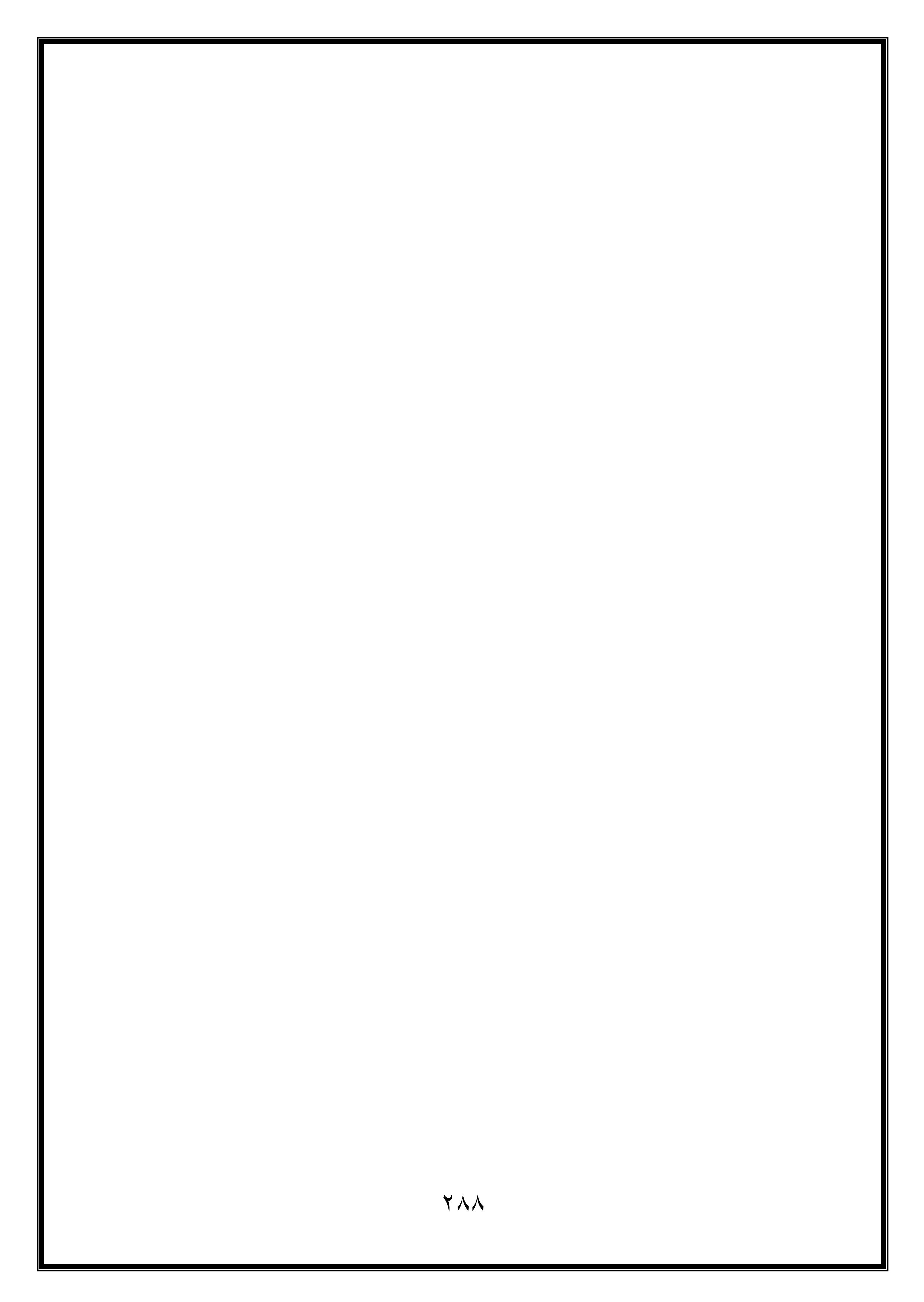
إن ما أوردنا ليدل على ما أودع الله في هذا الفرع الخير من أحفاد يوسف من ثقة ربانية وخيرية والتي تلزم هذه الأمة أن تثبت أنها محل هذه الثقة بما تظهره من ثبات على الإيمان وثبات على الحق مع قسوة ما تتعرض له من ظروف.

هذه الثقة الربانية التي كانت قبل الإسلام لفرع من فروع إبراهيم ثم أصبحت بالإسلام لكل مسلم وهم جميعاً الذين أورثهم الله كتابه ووكلوا بحمله وتطبيقه وقيادة البشرية.

نكتفي بما أوردنا وهناك الكثير في كتاب الله ولعل فيما أوردنا ما يضع خطاً فاصلاً بين خير خلق الله أحفاد يوسف وبين الأسباط العشرة الملعونين.

ولعل فيما أوردنا ما يبين مواقع كل منهم من النبوة والإيمان والاصطفاء الرباني وحق العيش في الأرض المباركة والجزيرة العربية ، ولعل ما أوردنا بشكل عام يفسر قول الله تعالى لفرعي بني إسرائيل ما قاله الله فيهم : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل:٧٦].

فهل وضح معنى هذه الآية وهل عرفت الحقائق التي أظهرها الله تعالى؟ وهل تقرون يا أخوة الإسلام بالحقوق وتعملون على ذلك كما أراد الله؟



الفصل التاسع وعد الآخرة

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾

إن وعد الله حق وإن قوله حق ولا رادَّ لقوله ولا لإرادته سبحانه وتعالى وإنه إن أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون وإذا قدَّر لحدث زمنا فإن ذلك الحدث كائن في ذلك الزمن المقدر، فقدره حق وهو كائن كما قدر وإخباره حق وهو كائن كما أخبر.

ولقد قدَّر الله على بني إسرائيل ما قدر قبل الإسلام وقدر ما هو كائن أو سيكون من أحداث تمر بها هذه الأمة وأخبر عنها كائنة في المستقبل ، لتكون هذه الأحداث شاهداً على صدق كتاب الله وشاهداً لرسول الله أنه أنزل عليه هذا القرآن من ربه وأنه لم يتقوله.

من ضمن أحداث الماضي التي يصدقها كل من سمعها عبور بني إسرائيل البحر وغرق آل فرعون وكذلك تلكؤ بني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة وخذلانهم نبي الله موسى ﷺ وحكم الله عليهم بالتيه أربعين سنة، ثم دخولهم فلسطين في أول معركة بقيادة طالوت حين هزموا جالوت وجنوده بإذن الله ، وكانت هذه الأحداث حيث كان بنو إسرائيل يعيشون تجمعاً واحداً في منطقة واحدة ودخلوا الأرض المقدسة متتابعين. الطائعون أولاً حيث دخلوها مجاهدين ثم العاصون حيث دخلوها بعصيانهم وخذلانهم لنبيهم حين بدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزل الله عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون. لكن هناك من الأحداث والوعود وعد بها الله وكتبها على بني إسرائيل يقرأها المرء دون تفكير في عمق هذه الأحداث ومدى مضائها وكيف تم تنفيذها.

فيما يلي خلاصة عما أوردنا من أحداث مرت ببني إسرائيل في الأرض المقدسة والجزيرة العربية :

إن من هذه الأحداث التي ذكر الله في أهل الخير مـن بني إسرائيل قول الله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة:٢١].

هذه الآية هي قول موسى ﷺ لقومه ، وقصد موسى كل أمته كما أسلفنا ولكنها تحمل معنى أهل الخير فقط من هذه الأمة ، لأن الله تعالى بين ذلك بآيات أخرى.

لقد دخل بنو إسرائيل فلسطين في زمن النبي الذي تلا موسى ﷺ وبقيادة طالوت وقاتل معه أهل الخير فقط وأما أسباط الكفر فقد دخلوها دون عناء فكان عقاب الله لهم أن سلّط عليهم عذاباً مـن السماء ، وهذا يؤكد أنهم لم يكونوا مقصودين بملكية الأرض المقدسـة حيث لم يجاهدوا في دخولها ، كما أن الله تعالى بين لنبيه داود ﷺ أن هذه الأرض هي للمسلمين فقط من بني إسرائيل وعليه أن يطرد الكافرين منها كما أوردنا سابقاً.

ووفق ما جاء في كتب التاريخ فإن حكم طالوت دام (١٥) سنة وأما حكم داود وسليمان عليهما السلام فقد دام حوالي (٧٥) سنة وبذلك فإن كافة الأسباط عاشت في فلسطين وما حولها تحت قيادة واحدة حوالي تسعين عاماً.

تظهر الآيات أن أول معركة قامت بين سبطي الخير وقوات جالوت كانت سهلة وسريعة وما أشبهها بمعركة بدر.

وتظهر الآيات أن قوات جالوت أكثر بكثير من قوات طالوت وبذلك فإن طالوت ومن معه من جند كانوا رأس جسر لدخول أقوامهم ومن ثم الانطلاق إلى معارك أخرى يحتلون بموجبها كامل الأرض

المقدسة.

كذلك تبين كتب التاريخ أن طالوت اتخذ مدينة أريحا مركزاً له لمدة سبع سنوات ثم انتقل بعدها إلى مدينة القدس ، وهذا يشير إلى استمرار المعارك لتحرير كامل أرض فلسطين.

لم تتحدث كتب التاريخ للمؤلفين العرب عن أي معارك أخرى غير معركة الدخول كما بالغت كتب التاريخ التي ألفها يهود فيما حصل وجنحت إلى الخيال. المهم أن حكم داود ﷺ امتد ليصل شرقاً وغرباً من الأرض المباركة كما تنص الآيات ، أي فلسطين ومسافات إلى الشرق منها ثم مسافات إلى الغرب منها ومن ثم يقول الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦] .

نأتي الآن إلى تساؤل هو : هل قام طالوت ومن بعده داود بطرد المحتلين الاوربيين من فلسطين إلى خارجها واحتلال هذه الأرض كلياً خلال خمسين عاماً من حكمهم؟

هذا ما تؤكد عليه كتب اليهود مع ذكر الخيال الذي يجعل من يطلع عليه لا يصدق هذه الخيالات. وهل جملة رب العالمين: (الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)، تم تحقيقها لهم خلال تلك المدة ولم يشاركهم فيها أحد لأن الله تعالى كتبها لهم؟

إن الله تعالى يعلم من أول لحظة أن الأسباط العشرة لن يطيعوا وأنه لا إيمان لهم ولا صلاح فيهم ولكن ليقيم عليهم الحجة أبقاهم ، ودخلوا فلسطين بلعنة من الله ولعنة من نبي الله داود ﷺ ، الذي كشف الله له كفرهم.

أنزل الله تعالى في الزبور على داود ﷺ ، قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وهكذا علم داود وكذلك سليمان عليهما السلام أن لا مقام للأسباط العشرة في الأرض المقدسة ولكن ليقيموا الحجة عليهم دعوهم للإسلام فتظاهروا بالإسلام نفاقاً فبقوا فيها طوال فترة حكم داود وسليمان عليهما السلام إلا من أعلن كفره فقد تم طرده منها تنفيذاً لأمر الله.

لا يستطيع أنبياء الله طرد المنافقين حين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ورغم أن أنبياء الله يعلمون ذلك لكنهم لا يستطيعون أن يحاكموا أحداً على ما يبطن والله تعالى هو الذي يعلم السر وأخفى، وما يعلمه النبي هو ما يكشف الله له أو يوحيه إليه كما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يعلم المنافقين ولكنه لم يحاكم أحداً منهم على نفاقه لأن الدين لا يحاكم إلا على ما ظهر من قول أو عمل يخالف شرع الله، أما ما بطن فلا حكم عليه إلا لله تعالى.

وهذا ما كان من أنبياء الله داود وسليمان عليهما السلام تجاه الأسباط العشرة، ويكفيهم عذاباً أن يعيشوا وهم يظهرون خلاف ما يبطنون وهذا يتنافى مع فطرة الإنسان الذي يحب أن يفخر بمعتقداته، لقد كانوا يعيشون في عذاب نفسي شديد أدى إلى امتلاء قلوبهم غلاً وحسداً لأهل الخير من سبطي الخير ومنذ موت سليمان ﷺ انقضوا على سبطي الخير في حرب ضروس حسداً من عند أنفسهم وهذا كان الفساد الأول.

إن الله تعالى يعلم ما سيحدث، لذا فإنه مع هذا الفساد كتب عليهم الطرد من الأرض المقدسة ، وهذا ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء:١٠٤].

ولم تكن هناك حكومة إسلامية إلا تلك التي استضعفوها في القدس ،فتعاونوا عليها هم والحاكم المصري الجديد المرتد عن دين الله شاشنق الأول وهذا الذي حصل يشبه الردة التي حصلت في صدر الإسلام ونستطيع القول إنه انقلاب شيوعي و سلط الله الآشوريين على الأسباط العشرة لطردهم من فلسطين.

جاء في كتب التاريخ ذكر أربع معارك رئيسية كما مر بنا إضافة إلى سلسلة من المعارك الانتقامية المتلاحقة الصغيرة ، وكانت الأولى هي مهاجمة الشام وأخذ من فيها من الأسباط العشرة وطردهم خارج الدولة الآشورية وكان ذلك عام (٧٣٢ ق.م) ، ثم المعركة الثانية الرئيسية حيث حوصرت نابلس وأسر من فيها من سكان ، وتم طردهم خارج الدولة الآشورية ، وكان ذلك عام (٧٢٢ ق.م) .

تلا ذلك مهاجمة من فسد من سبطي الخير في القدس عام (٥٩٧ ق.م) وسبى نبوخذ نصر البابلي منها من سبى وسمي هذا بالسبي الصغير . ثم تلا ذلك مهاجمة من فسد من سبطي الخير في القدس عام (٥٨٦ ق.م)، ودمر نبوخذ نصر مسجد سليمان وسبى منها من سبى وسمي هذا بالسبي الكبير ثم تلا ذلك العفو عمن سبي إلى بابل، وأمر قورش الفارسي بإعادة من يرغب في العودة إلى فلسطين ممن سبي إلى بابل من أسباط الخير ، وعاد ربعهم المؤمن ومن ضمنهم نبي الله العزير عليه السلام .

ولقد سجلت كتب التاريخ أن غارات الآشوريين على دولة إسرائيل الأولى كانت غارات انتقامية متتابعة ، وبما أن دولة الآشوريين كانت الأقوى فهذا يدل على أنها متتابعة فعلاً وكان يمارس فيها التقتيل والتدمير والسبي ومن ثم طرد من تم سبيهم خارج الدولة لأن هذه الغارات توسطت معارك حصل فيها السبي والطرد خارج الدولة.

كان هذا الأمر عقوبة من رب العزة لما وصفه بالفساد الأول الذي فعله بنو إسرائيل وهم بنو إسرائيل عرقاً وبنو دولة إسرائيل الأولى حيث سموا دولتهم بعد موت سليمان عليه السلام مباشرة بدولة إسرائيل، ومن أحفادهم بعض بني دولة إسرائيل المزعومة حالياً القائمة على أرض فلسطين وهذا أيضاً عدوان منهم على سبط الخير كما كان عدوانهم الأول.

لقد وصف الله تعالى غارات الآشوريين المتتابعة بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء:٥].

ولنعلم معنى كلمة جاسوا فإنها تعني التدمير والتقتيل وإزالة الوجود والبعثرة من على الأرض وتدمير المعالم والمظهر العام، وهذه المعاني تنضوي تحت جملة (جاسوا خلال الديار) التي يسكنها بنو إسرائيل أي النصف الشمالي من فلسطين. استمرت المعارك المتتابعة فترة من الزمن أولها مع قيام دولة إسرائيل الأولى عام (٩٢٩ ق.م) ، وانتهت بحصار نابلس وسبي من بقي فيها ، وكان ذلك عام (٧٢٢ق.م) .

فهل كانت هذه المدة كافية لأن ينتهي وجود الأسباط العشرة من على أرض فلسطين وأن يحل محلهم أنجال سبطي الخير؟

لقد تم إحلال أهل الخير محلهم تدريجياً، وان من يرى هذا الأمر ويدركه قبل حصوله من الأسباط العشرة سيأخذ أهله ويهاجر منها بمحض إرادته هرباً بنفسه وبأولاده وبماله وهذا الأمر سيساعد على سرعة تفريغها من الأسباط العشرة .

وهل كانت هذه المدة المبينة وبالآشوريين أولي البأس الشديد كافية لطرد الأسباط العشرة وتنفيذ قول الله تعالى الذي كتب بموجبه أن الأرض لسبطي الخير؟ هل تم تنفيذ ما كتبه الله؟

وهل كانت هذه المدة كافية لانتشار سبطي الخير ليملأوا كامل الأرض المقدسة؟

نعم، إنها كانت كافية حيث كان الأسباط العشرة يحسون بأنهم مطرودون حتماً أو ميتون، وهذا ما سيدفع أياً منهم أن يبيع أملاكه بأي ثمن لسكان القدس وأن ينجو بنفسه وبأولاده ويهاجر، والنصوص التالية تدل على انتشار السبطين في كل الأرض المقدسة: **(وقطع تماثيل الشمس من كل أرض إسرائيل ثم رجع إلى أورشليم... وأزال يوشيا جميع الرجاسات من كل الأراضي التي لبني إسرائيل ... وجعل جميع الموجودين في أورشليم يعبدون الرب إلههم كل أيامه ولم يحيدوا من وراء الرب اله آبائهم)**[سفر أخبار الأيام الثاني - الإصحاح ٣٤] .

((**وأرسل حزقيا إلى جميع إسرائيل ويهوذا وكتب أيضاً رسائل إلى افرايم ومنسّى أن يأتوا إلى بيت الرب في أورشليم ليعملوا فصحاً للرب اله إسرائيل... وعمل بنو إسرائيل الموجودون في أورشليم عيد الفطير سبعة أيام بفرح عظيم**)) [سفر أخبار الأيام الثاني - الإصحاح الثلاثون] .

والنص الأخير يدل أن سكان يهوذا هم سبطا الخير قد تم لهم الانتشار في كل الأرض المقدسة، وبذلك عملوا ذلك الاحتفال المنصوص عليه والذي شارك فيه سبط يوسف (افرايم ومنسى) وسكان القدس .

بالطبع فإنها كافية لأن هذا ما كتبه الله وهو أن يعيش أهل الخير في الأرض المباركة كلها وليس في جزء منها ويظهر هذا جلياً من مخاطبة عيسى عليه السلام بعد ذلك بسبعة قرون لسكان المنطقة وفي عدة مواقع من كتاب الله بنداء (يا بني إسرائيل).

ونورد من هذه النداءات قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف:٦]. ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ ﴾ [المائدة:٧٢].

هل كان نبي الله عيسى عليه السلام يخاطب الأقلية من سكان المنطقة المباركة أم يخاطب كل سكانها ؟

إنه بالطبع يخاطب كل الأمة ليدعوها إلى الله وهم سكان الأرض المباركة وما حولها.

هل نفذ أمر الله وما كتبه لسبطي الخير أن يملأوا الأرض المباركة؟ بالطبع نعم ، فمن الذي يمنع ما كتب الله؟

وهل باتباعهم الدين الذي جاء به عيسى انخلعوا من عرقهم ، لا والله فإن هذا العرق شهد له كتاب الله وميزه عن غيره من الأعراق، إنه العرق الأكثر وضوحاً وارتباطاً بأصوله الخيرة المؤمنة وإنه العرق الدائم الاتصال بربه منذ اجتباه الله تعالى باجتبائه جده يوسف عليه السلام.

ولقد أكد ((الكتاب المقدس)) هذا بما أورده من نصوص ونذكر منها للتذكير النص التالي :

((**وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم. وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم**)) [سفر التكوين - الإصحاح السابع عشر] .

إن وعد الله أن تكون ملكاً أبدياً يعني أنهم من تاريخ دخولها وإلى قيام الساعة يكونون فيها وقد كان وسيستمر هذا إلى قيام الساعة بأمر الله.

وكذلك فإن معنى وأكون إلههم ومعنى في أجيالهم تعني أنهم حملة إيمان مستمر بالوراثة إلى قيام الساعة وهذا ما شهد به القرآن الكريم أيضاً، أي أنهم ليسوا اليهود حيث لم يتبعوا أحداً بعد سليمان حسب اعترافهم.

وكذلك فقد ورد النص التالي الذي ينص على أن سكان فلسطين الحاليين هم أحفاد يعقوب حيث جاء :

((**لأن الرب سيرحم يعقوب ويختار أيضاً إسرائيل ويريحهم في أرضهم فتقترن بهم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب**)) [سفر اشعيا ـ الإصحاح الثامن عشر].
هذا النص يتحدث عن عودة بعض أسباط الشر مع غرباء اتبعوا ديانتهم (روس وفلاشا ويمنيون و غيرهم) إلى فلسطين وينص على أنهم ينضمون إلى بيت يعقوب، أي أن السكان الموجودين هم أحفاد يعقوب أيضاً.

هل هناك دليل أكثر وضوحاً من هذا يثبت أن الشعب الفلسطيني هم أحفاد إبراهيم الموعودون بهذه الأرض المقدسة وأنهم المؤمنون المختارون.

ولقد شـهد الكتاب المقدس بما أوردنا سابقاً بأنه تم طرد المحتلين الأوروبيين الذين يطلق عليهم اسـم فلسطينيين، وكذلك يشـهد الكتاب المقدس بأنه تم طرد الأسباط العشرة إلى يومنا هذا.

نأتي الآن إلى ما قاله الله تعالى في بعض الأسباط العشرة الذين يعيشون في الجزيرة العربية وهم يهود المدينة المنورة وخيبر وما جاورها من قرى في صدر الإسلام.

لقد حدثنا التاريخ عن المعارك التي وقعت بين المسلمين واليهود، وعن أسبابها؛ كمعركة طرد يهود بني النضير بعد أن دبروا مكيدة لقتل رسول الله ﷺ ، وأيضاً فقد تعاون بنو قريظة مع كفار قريش وكما أسلفنا ولكن باقي المواقع لم تقم بأي عدوان على المسلمين مع وجود فسادهم وكانوا يخيرون بين الإسلام أو الرحيل عن الجزيرة العربية قال الله تعالى فيها : ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ [الحشر:٣].

إن هذه الآية تتحدث عن الذين كفروا من أهل الكتاب أي لم يسلموا والذين ورد ذكرهم في الآية السابقة لهذه الآية ومن هاتين الآيتين يفهم أن الله تعالى كتب على الذين كفروا من أهل الكتاب الخروج من الجزيرة العربية وهم اليهود.

لهذا قال رسول الله ﷺ : ((**لا يجتمع في جزيرة العرب دينان**)) .

ومن هذا المنطلق فقدحرص الخلفاء الراشدون على تنفيذ قول الله ورسوله ، ولقد تمكن الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ من أن يطهر الجزيرة العربية من آخر غير مسلم. بذلك يتبين لنا أن أمر تطهير الجزيرة العربية من الذين كفروا من أهل الكتاب استغرق حوالي العشرين عاماً، وبذلك تم تنفيذ قول الله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ ﴾ [الحشر:٣] ، أي تم تنفيذ ما كتبه الله على أيدي رسوله وخلفائه الراشدين ، وكل ما حصل من معارك رئيسية وفرعية وأحداث صغيرة أو كبيرة حول هذا الأمر مدون وبأدق التفاصيل.

نأتي الآن إلى نقطة أخرى وهي انتشار اليهودية في غير بني إسرائيل:

إن كتاب الله يخبرنا عن هذه الأمة العربية بشكل خاص وما حصل معها من تطورات دينية وأحداث جسام مع الزمن.

وكان من ضمن ما ذكره الله تعالى وما بيناه سابقاً أن أنبياء الله دعوا للإسلام ولم يدعوا لأي ديانة أخرى وقد بينا بالآيات كيف أن دعوة موسى ودعوة سليمان عليهما السلام كانت للإسلام وهذا ينطبق على باقي الأنبياء. وأن من ضمن ما ذكره كتاب الله عن قصة سبأ واتباعهم للإسلام الذي دعاهم إليه نبي الله سليمان ﵇. ولقد أوردنا سابقاً من الآيات واستشهدنا بها على أن سليمان ﵇ دعاهم للإسلام، ومن ضمنه ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٣١].

ولقد ورد في سورة النمل الحوار الذي جرى بين ملكة سبأ وبين كبار مستشاريها ، ومن ثم ذهابها إلى سليمان ودخولها الصرح الممرد إلى آخر القصة ، التي تثبت إسلام ملكة سبأ والذي ورد بقول الله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤].

وهكذا انتشر الإسلام في ربوع اليمن وعم الخير والبركة تلك البلاد حيث كان هناك فيها جنتان إحداهما عن يمين الوادي خلف السد والأخرى عن شماله والبركة من رب العالمين جزاء الإيمان ، ولقد جاء هذا في قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ:١٥].

والجنتان تظهران الخصب والخير الوفير من الجهتين اللتين تحيطان بالوادي بعد السد وهذه الآية تذكر من يعيش في هذه الجنان بالله الذي أنعم عليه بها ليشكر الله، والله تعالى يغفر له من ذنبه بالشكر وطلب المغفرة.

لكنهم لم يشكروا فأعرضوا عن شكر الله وعن العمل الصالح وبطروا النعمة ونسوا أن الذي منحهم هذه الخيرات يستطيع سلبها منهم، فأرسل الله عليهم سيلاً يجرف الحجارة الكبيرة في طريقه لشدة تدفقه؛ فحطَّم السد وتدفقت مياهه فأغرقت الجنتين واقتلعت أشجارها ، وهكذا ذهبت الجنتان وحلت محلها النباتات الصحراوية الخشنة، وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٦-١٧].

ما هذا الكفر الذي أكده الله بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ:٢٠]. لم تبين كتب التفسير نوع هذا الكفر وبالطبع فقد كان بعد موت نبي الله سليمان ﵇.

لا توجد موجات كفر بين زمني سليمان وعيسى عليهما السلام إلا فساد بني إسرائيل الذي حدث في الأرض المباركة، وأغلب الظن أن أهل سبأ انضموا للأسباط العشرة في معتقداتهم الدينية التي اتبعوا فيها الشياطين ، ولا يقصد من هذا أنهم انضموا إليهم في حرب سبطي الخير فالمسافة بعيدة إضافة لعدم الحاجة إليهم لذلك لأن قوة الأسباط العشرة ومصر معاً أكبر بكثير مما يحتاجه العدوان على سبطي الخير.
ولكن لو نظرنا إلى انقسام هذه الأمة إلى فئتين دينيتين إحداهما فئة إيمان والأخرى فئة كفر فإن هذا يعني أنهم انضموا إلى فئة الكفر والله تعالى يبين ذلك حيث يقول: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ ﴾ ، أي تركوا الصواب وانحرفوا

نحو الخطأ : ﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وبذلك انقسموا إلى فصيلين مختلفين في الآراء وتزداد الشقة بينهم مع الزمن إلى أن بعث الله نبيه عيسى عليه السلام فلم يؤمن به من انحرف عن الدين وآمن به فريق من المؤمنين الذين استجابوا للتوراة التي تأمرهم باتباع عيسى عليه السلام عند بعثه، وأما الأغلبية فقد انحرفوا ولم يتبعوه، بل على العكس من ذلك فإنهم حاربوه واعتدوا على الذين اتبعوه وهذا ما أظهره الله تعالى بقوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج:٤-٨].

إن الآيات تبين غضب الله على هذه الفعلة الشنيعة وعلى فاعليها كما تدل على بشاعة هذا الفعل المرتكب الذي أثار غضب رب العالمين ووعيده بالقتل لمن فعله إذ يقول الله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾، أي أن الله سيقتل من فعلوا ذلك الأخدود الذي ملئ بالنار، وأخذ أصحابه يلقون بالمؤمنين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام وهم ينظرون ويستمتعون بمراقبة الأجسام البشرية وهي تحترق وتنصهر، هذا المشهد الذي يعبر عما في قلوبهم من غلظة وعدم إنسانية، وما كان سبباً لهذه النقمة منهم إلا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد وفق ما أمرت به التوراة التي يحملونها وبهذا ظلوا في القافلة الإيمانية التي ارتضاها الله لهم فغضب الكفار لذلك وعاقبوهم على إيمانهم بالحرق .

إن فساد بني إسرائيل في الأرض المباركة يشبه فساد أهل سبأ فإن كلا منهم اعتدى على أهل الخير من بني قومه للسبب نفسه وهو الإيمان بالله ولكن الفرق هو في التوقيت.

إن هؤلاء الذين اتبعوا سليمان عليه السلام من قوم سبأ ثم انحرفوا عن الدين تنطبق عليهم كلمة يهود

أخبرنا الله تعالى بهذه القصة لنعلم أن هناك من اليهود العرب من ليسوا من بني إسرائيل من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الله تعالى أراد أن يخبرنا أن اتباع هذه الطائفة المنحرفة هم على طبيعة ضلال واحدة وإن اختلفت أعراقهم ، فهم جميعاً قاسية قلوبهم ولا يعرفون الإنسانية ويستمتعون بأذى الآخرين ولا يحبون الخير، لأن الخيرية منقطعة منهم بما باعوا أنفسهم للشيطان مهما اختلفت أعراقهم.

هذه القصة في أصحاب الأخدود وردت في كتاب التفسير لابن الجوزي كما يلي: (في مطلع القرن السادس الميلادي وقبل ظهور الإسلام كان في اليمن ملك يدعى (ذو نواس) الحميري اعتنق الديانة اليهودية بتأثير من السكان اليهود الذين يعيشون في وطنه وبضغط منهم قاد الملك يهود اليمن ليغزو نصارى نجران ولعل اليهود هم الذين قادوا ذو النواس لهذا الغزو. انهزم النصارى في تلك الحرب شر هزيمة وجمع اليهود ما تبقى من المسيحيين الأحياء بعد أن حفروا خندقاً وتروي لنا كتب السيرة أن من احترق أكثر من عشرين ألفاً ولقد ذكر الله تعالى هذه الحادثة في سورة البروج).

إن الله تعالى أورد لنا في كتابه العزيز قصة اتباع سبأ وهم عرق عربي للإسلام الذي جاء به سليمان عليه السلام ثم انحراف أغلبهم عن الديانة الحقة واتباعهم الشيطان وما كان منهم من سوء فعل مع الزمن ، وسجل الله تعالى هذه الأفعال في كتابه العزيز لتكون تقويماً لأي انحراف يسجله التاريخ عن تاريخ هذه الملة.

هذا الانحراف الفكري الذي إذا أصاب أي فرد من أي عرق كان أوروبياً أو إفريقياً أو آسيوياً فإنه يؤدي إلى نفس النتائج السلبية وهذا ما نلحظه فعلاً ممن يتبعون هذا الفكر الذي أطلقوا عليه الديانة اليهودية إذ أنهم على طبيعة واحدة من كل الأعراق في الصفات السلبية.

إن الله تعالى كشف أكاذيبهم وكشف أكاذيب من يروجون لهم ممن يدعون أنهم كتاب وأدباء أو رجال صحافة ممن يحسنون قول الزور فيدخلون ساحة الكذب من القول خدمة لليهود وهؤلاء الكذابون يدعون أن هناك فرقاً بين اليهودية والصهيونية وإذا لم يكونوا كذابين فإنهم منافقون ، وبذلك يكونون أسوأ من الكذابين لأن المنافقين جبناء ولا يجرؤون على كشف شعورهم فيظهرون ما لا يبطنون طمعاً في دنيا أو خوفاً من مسؤول.

إن بني إسرائيل اليهود هم قادة الحركة الصهيونية وهم مفكروها ولكن اليهود من مختلف الأجناس هم الأيدي والأرجل التي تمشي بها الصهيونية العالمية، هم ومن يدورون في فلكهم من أعضاء الماسونية العالمية من الشعوب والديانات الأخرى الذين يخدمون الصهيونية كالعبيد أو أحط من العبيد.

إن اليهود من بني إسرائيل هم قتلة الأنبياء بغير حق كما ذكر الله تعالى وهم الذين نقضوا عهودهم مع الله وكذلك فإن من اتبعهم من اليهود من أصول أخرى واتبع هذه العقائد تطبع بطباعهم ولولا ما يتمتع به هؤلاء التابعون من صفات شيطانية مشابهة لما اقتنعوا بما هم مقتنعون به من فكر صهيوني عنصري يكره الحق ويكره الإيمان والمؤمنين.

إن اليهود من غير بني إسرائيل لم يقتلوا أنبياء لعدم وجود أنبياء بينهم لكنهم بالتأكيد يتمتعون بأذى كل مؤمن وقتله كما حصل من أصحاب الأخدود وكما يحصل في مختلف الدول التي يسكنونها حيث يتمتعون بقتل الأطفال النصارى وغيرهم ولقد سجل التاريخ الحديث الكثير من هذه الأعمال الخسيسة، ونحن نرى الممارسات التي تمارس على أحفاد يوسف على أرض الأقصى والتي مورست في جنوب لبنان.

لقد ذكر الله بني إسرائيل في عدة مواقع من كتابه العزيز كما ذكر اليهود عامة في عدة مواقع نذكرها جميعاً ولنبدأ بقول الله تعالى فيهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة:١١٣].

إن اليهود والمتصهينون يتقاذفون الاتهامات وكل فريق يقول عن الفريق الآخر إنه ليس على شيء من الصواب وذلك بما يتمسك به من خلافات وشرك بالله ، وقال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، أي أن كلاً من اليهود والمتصهينون ليس على شيء والله يبين ذلك لأن الذين لا يعلمون شيئاً صاروا يتقاذفون معهم الاتهامات الإيمانية الباطلة وبذلك فإن اليهود والمتصهنيون الذين خرجوا عن ديانة عيسى عليه السلام نزلوا إلى مستوى الذين لا يعلمون شيئاً وبذلك فإنهم لا يعلمون شيئاً.

نحن هنا معنيون باليهود: فهل يمدح الله تعالى اليهود في هذه الآية أم يذمهم ؟

ننتقل الآن إلى قول الله تعالى في اليهود: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٢٠].

إنها معركة العقيدة الدائمة وليست معركة القوة العسكرية أو الاقتصادية وإن خوفهم من غلبة العقيدة الإسلامية على النفوس هو الذي جعلهم ينحون جانباً أعلام العقيدة ويرفعون أعلام الحرب باسم الاقتصاد وباسم المياه الإقليمية وما إلى ذلك من مسميات جديدة لئلا يثيروا فينا الحس الإيماني الذي إذا نهض فإنه يدمرهم، لذا فإن الله تعالى يظهر لنا ما في أنفسهم من أسرار ضدنا وهو إحساس الكراهية الذي لن يزول إلا إذا تركنا جانباً عقيدتنا واتبعنا ما معهم من أفكار وهذا واضح لا لبس فيه مهما كذبوا من أكاذيب.

ونعود إلى السؤال مرة أخرى: هل يمدح الله تعالى اليهود في هذه الآية أم يذمهم؟

ننتقل الآن إلى قول الله تعالى فيهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة:١٨].

لم تحدد الآية الكريمة متى قالوا هذا، ولكنهم قالوه، وهذا ما يدل على أن هذا الأمر عنصر شر متوارث فيهم .
والكتاب المقدس شهد بهذه النفسية وأخبر عنها فيما يلي :

((**أصغيت إلى الذين لم يسألوا. وجدت من الذين لم يطلبوني . قلت هأنذا لأمة لم تُسم باسمي. بسطت يدي طول النهار إلى شعب متمرد سائر في طريق غير صالح وراء أفكاره ... يأكل لحم الخنزير وفي آنيته مرق لحوم نجسة. يقول قف عندك. لا تدنُ مني لأني أقدس منك... ها قد كتبت أمامي لا أسكت بل أجازي في حضنهم آثامكم وآثام آبائكم معاً قال الرب الذين بخروا على الجبال ... هكذا قال الرب كما أن السلاف يوجد في العنقود**)) [سفر أشعيا ـ الإصحاح ٦٥].

إنهم يدعون أنهم أقدس من غيرهم نصاً رغم شهادة الله بأنهم يتوارثون السوء حيث جاء (كما أن السلاف يوجد في العنقود) أي أن سوءَهم متوارث.
هذا إضافة إلى باقي الصفات السيئة وعقاب الله الدائم لهم ورغم هذا فإنهم يدعون أنهم أقدس من غيرهم وأقرب إلى الله من الآخرين، وأنهم أبناء الله وأحباؤه وتبعا لذلك فإنه لن يعذبهم إلا أياماً معدودات ، ومعنى هذا أن عدل الله غير موجود وأنه تعالى يفضل فريقاً على آخر من عباده بغير التقوى فيدعهم يفسدون في الأرض كما يشاءون ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين وهنا يأتي قول الله حاسماً لهم: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [المائدة:١٨].

ولم يكتفوا بهذا القول ، بل احتكروا الجنة لأنفسهم حيث قالوا ما أظهره الله تعالى بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟

لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١].

ومرة أخرى يقولون أن الجنة حكرٌ عليهم وعلى أمثالهم ولا تحدد الآية زمن هذا القول لأنه متوارث ولقد جاء في الكتاب المقدس مثل هذا الإدعاء حيث جاء :

((**ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير. هوذا عينا السيد الرب على المملكة الخاطئة وأبيدها عن وجه الأرض غير أني لا أبيد بيت يعقوب تماماً يقول الرب... لأنه هأنذا آمر فأغربل بيت إسرائيل بين جميع الأمم كما يغربل في الغربال وحبة لا تقع على الأرض.. بالسيف يموت كل خاطئ شعبي القائلين لا يقرب الشر ولا يأتي بيننا**)) [سفر عاموس ـ الإصحاح التاسع] .

يذكر النص أنه لا يبيد بيت يعقوب تماماً لذلك فإنه يترك المختارين الذين اجتباهم في الأرض المقدسة ويبعثر غيرهم في أرجاء العالم ، وبذلك يصير المعنى يطابق ما جاء في قول الله تعالى في القرآن : ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًاۚ ﴾ [الأعراف:١٦٠]. رغم هذه البعثرة والغضب الإلهي ما زالوا يقولون (لا يقرب الشر ولا يأتي بيننا) وذلك لأنهم حسب ادعائهم أبناء الله وأحب إليه من غيرهم.

هذه المقولة كانت تصدر من اليهود لأهل المدينة المنورة، لكن الله تعالى يعلم رسوله وكل مسلم أن يرد عليهم الرد الحاسم: ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١]، ويقرر قاعدة العدل الإلهية الثابتة التي وردت في الآية: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢] .

إنها قاعدة الإسلام والاستسلام لرب العالمين، إنها القاعدة الإيمانية الصحيحة التي تنطبق على كل من خلق من بشر ، إنها العدالة الربانية.

ونكرر سؤالنا: هل يمدح الله تعالى اليهود أم يذمهم ؟

نأتي الآن إلى قول الله تعالى في اليهود: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [المائدة:٦٤].

إن فحش قولهم في الله الخالق الكريم لأبشع ما يصدر عن إنسان في حق خالقه الجبار الكريم ويقولون عنه (يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ)، ويرد عليهم دون فاصل (غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ) وهذا أمر من الله ورد فهم بخيلون شحيحون حتى على أنفسهم وهذه الصفة تعرفها كل الشعوب، فكل من يعرف يهودياً يعرف أنه بخيل حتى على نفسه وإن شعوب العالم تتناقل عنهم النكات الفكاهية التي تقال في البخلاء.

لم يكتف رب العزة بذلك بل أضاف (وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ)، وهذه اللعنة لا تفارقهم في الدنيا فهم يعيشون حياة نكدة في أي مجتمع كانوا إضافة لسمة البخل التي تجعل الناس تنفر منهم.

ويذكر الله تعالى لرسوله الكريم أن كونه من ولد إسماعيل سيزيدهم غيظاً وحقداً على هذه الرسالة الإلهية وكل من اتبعها، إضافة إلى أن هذه الرسالة فضحت مكنون نفوسهم السيئة وعقاباً على هذا الشعور ألقى الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء لتكون من ضمن العقوبات الربانية الدنيوية لليهود إضافة لعذاب الله لهم في الآخرة.

ويصف الله تعالى في نهاية الآية فسادهم في الأرض ، هذا الفساد الذي سيبعث الله تعالى من يوقفه ويحطمه لأن الله تعالى لا يحب الفساد في الأرض لأنه أنزل آدم لعمارة الأرض لا للفساد فيها.

ونطرح الآن نفس السؤال السابق : هل أن الله تعالى يمدح اليهود أم يذمهم وأشد الذم وبلا استثناء لأي يهودي على وجه الأرض؟

نأتي الآن إلى قول الله تعالى في اليهود ما أظهره الله بقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:٣٠]. بهذه الآية أصدر الله تعالى حكمه الصريح على من يقولون عزير ابن الله .

إن الكفر والإيمان لا يجتمعان في عقيدة ولا في قلب واحد ، وهما أمران مختلفان ، وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة:٣٠] .

فالله تعالى يثبت أنهم قالوا هذا القول وأنه ليس افتراءً عليهم بل صدر عنهم ، ثم يبين الله تعالى أن هذه المقولة هي مقولة الذين كفروا من قبل وبذلك فإن مقولتهم هي مقولة كفر.

نقول هذا للذين يقولون عن أمثال هؤلاء إنهم أصحاب ديانات سماوية، وأي ديانات تلك التي ينكرها الله تعالى رب السماوات ويقول أنها ـ كفر ـ ثم نطرح الآن تساؤلنا بشأنهم الذين هم محور كلامنا: هل أن الله تعالى يمتدحهم في هذه الآية أم يذمهم أجمعين ؟

نأتي الآن لقول الله تعالى فيهم : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة:٨٢].

نحن في هذا المجال بصدد الجزء الأول من هذه الآية التي تتحدث عن اليهود والذين أشركوا وأما الذين قالوا إنا نصارى وصادق الله على قولهم فقد تحدثنا عنهم في موضع سابق.

إن نص الآية الكريمة يقدم اليهود على الذين أشركوا بأنهم أكثر عداءً للمؤمنين وهذه حقيقة تامة لكونها قول الله تعالى، ولو راجعنا أحداث التاريخ في عدوان اليهود والمشركين على المسلمين في صدر الإسلام أو أيام الحروب الصليبية أو في هذه الأيام لوجدنا أن اليهود يؤلبون المشركين على ضرب الإسلام

والمسلمين، وبذلك فإن العداء يبدأ منهم وهم يحيكون المؤامرات والدسائس ويشاركون ما استطاعوا في العدوان أو يقطفون ثمار العدوان جاهزة دون بذل جهد منهم لجبنهم وتقاعسهم عن أن يواجهوا المسلمين.

وأخيراً نطرح نفس السؤال الذي طرحناه سابقاً وهو: هل الله تعالى يمتدح اليهود بهذه الآية أم يذمهم ؟

ونأتي إلى ذكرهم للمرة الأخيرة في كتاب الله تعالى في آية حدد الله فيها للمؤمنين نوع العلاقة التي يجب أن يتجنبوا إقامتها مع اليهود وعقاب الله تعالى لمن يقيمها، وجاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب تختلف عن اتخاذهم أولياء وهذان أمران يختلطان على بعض المسلمين، فكون اليهودي أو النصراني يعيش في مجتمع مسلم يحافظ على حقوقه شيء واجب وضمن شروط الشريعة الإسلامية ولكن التحالف والتناصر مع أهل الكتاب كدول مستقلة هو الذي ينهى الله تعالى عنه.

والولاية التي وردت في الآية لا تعني اتباع الدين وإنما تعني عقد صفقات التحالف والتناصر معهم وهذا ما تنهى عنه الآية، ولقد تبين للمسلمين عملياً طبيعة اليهود والتعامل معهم في المدينة المنورة فلا تحالف معهم ولا تناصر وكذلك لا خضوع لحكمهم.

هذه الآية وما أوردنا من آيات تبين قول الله تعالى في اليهود الذين لعنهم الله بالإجماع ودون أي استثناء لأي فرد منهم ، وهذه هي ملتهم وديانتهم التي أظهرناها من خلال آيات الله.

إن اليهود كانوا في المدينة المنورة ضعافاً وكانوا عائلات بينهم عداوة، وكانت القبائل العربية ايضاً عائلات، ولم يكن ممكناً أن تحصل الموالاة في صدر الإسلام، وفاصل الله تعالى مع ذلك بين المسلمين وبين اليهود في هذه الآيات فلم تحصل الموالاة.

إن الآية أيضاً تنهى عن موالاة النصارى، وقد كانوا دولاً كبرى منذ صدر الإسلام ولغاية يومنا هذا، لذا فإن موالاة النصارى كانت ممكنة خلال الفترة المنصرمة من التاريخ الإسلامي كله، لأنه كان للنصارى قوى متعددة متمثلة في الدول التي تتبع النصرانية. ولكن هل كانت هناك أي دولة تتبع الديانة اليهودية منذ صدر الإسلام ولغاية الآن غير ما يسمى حالياً بدولة إسرائيل.

إنه لم يكن هناك أي دولة تمثلهم ولا أي دولة تعتنق هذه الديانة، ولا أي قوة تدين بدينهم منذ صدر الإسلام غير ما يسمى الآن بدولة إسرائيل.

فهل إن الآية كانت تخبر بالمستقبل وبما نحن فيه الآن خاصة وأن هذه قائمة اليهود الثانية والأخيرة.

وهنا فإننا نأتي إلى تساؤل آخر هو: هل ينزل الله تعالى ديانة ثم يذمها؟

لا وعزته، إنه لم ينزل ما يدعونه ديانتهم وقد أنزل دين الإسلام الذي ورد في التوراة الحقة.

يستمر السياق القرآني في تحذير المؤمنين من مولاة اليهود والنصارى، ويخبر بأن ضعاف الإيمان سيسارعون في موالاتهم ظناً منهم أن في هذا نصرة لهم، وأنهم سيندمون على موالاة اليهود والنصارى لأن الله سيبعث من عنده من يحقق النصر على أعداء الله ويندم الذين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء. وقد جاء هذا في قوله تعالى: قال تعالى: **(فَتَرَى الّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىَ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَىَ مَآ أَسَرّواْ فِيَ أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)** [المائدة:٥٢].

ننتقل الآن إلى موضوع مستقل حدد لنا فيه رب العزة كيفية التصرف فيه كما حدد لنا منهاج حياتنا، هذا الموضوع من ضمن المواضيع الرئيسية التي يجب أخذها بعين الاعتبار في معيشتنا على هذه الأرض وعلى الفئة المؤمنة أن تقوم به لتصون نفسها في الدنيا ولتكسب ثواب الله في الآخرة.

هناك من يعتقد أن علاقة الدولة المسلمة برعاياها من أهل الكتاب هي نفسها العلاقة بين الدولة المسلمة والدول الأخرى التي تدين بالنصرانية أو اليهودية ، وهذا خلط يقع فيه الكثيرون. ولقد أوضح لنا الله تعالى ما يجب أن تكون عليه طبيعة العلاقة مع هذه الدول.

إن أي أرض يعمرها الإسلام تصبح أرضاً إسلامية إلى الأبد، وكذلك فإن أي أرض يظهر عليها الإسلام لسبب شرعي فإنها جزء من الدولة الإسلامية وإن الاعتداء على الأرض أو على المسلمين هو عدوان على حياض الإسلام، وهذا ما يوجب الجهاد لاسترداد أرض الإسلام والدفاع عن المسلمين .

وقيادة البشرية والتعامل معها تتطلب وجود علاقة بين دولة الإسلام وباقي الدول، وقد لخص الله تعالى هذه العلاقة كما يلي : إن جميع الدول كتابية كانت أم مشركة يجب أن تخضع للدولة الإسلامية في قيادتها للبشرية القيادة العادلة.

وقد يظن البعض أن في هذا بعض الظلم وهذا جهل من الذين ينسون أن الله تعالى هو الذي أقر ذلك وهو الذي يعلم ما في النفوس ويعلم السر وأخفى.

بهذه الطريقة تنصاع الشعوب غير المسلمة للحق الذي تقود بموجبه الدولة المسلمة بقية البشر ولو تهاونت الدولة الإسلامية في ذلك لتطاولوا على الحق، ولو انعكست الموازين وصاروا هم الأقوى كما نرى هذه الأيام فإنهم سيقودون البشرية بظلم كبير ولا يعرفون إلى العدالة سبيلاً.

والذي لديه ضعف في إيمانه لا يتصور صحة هذه العلاقة لأنها تعبر عن مكنون النفس وقد أقرها الله الذي يعرف مكنون النفس البشرية وعلاقتها بالإيمان ، كيف لا وهو خالق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه.

نأتي الآن إلى العلاقات التجارية والسياسية فقد أقر الله تعالى أن تقوم هناك علاقة ودّ وبر بين دولة الإسلام وأي دولة غير مسلمة بشرط ألا تكون تلك الدولة قد قامت باعتداء من أي نوع على المسلمين، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة:٨].

وأما الذين عادوا المسلمين في دينهم أو أخرجوهم من ديارهم كما حصل من اليهود تجاه الفلسطينيين أو ظاهروا ، أي ساعدوا على إخراجهم كما حصل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وغيرها من الدول فإن الله تعالى ينهانا عن أن نقيم معهم علاقات ودية من أي نوع إلا بعد أن يزيلوا الضرر الذي أحدثوه ، ومن يخالف قول الله فإنه ظالم لنفسه ومخالف لشرع الله.

وقد بين الله تعالى ذلك بقوله:

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة:٩].

هل هناك وضوح أكثر من هذا الوضوح في هذه الآية التي تحدد لنا أسس إقامة العلاقات مع الدول غير الإسلامية وكيف يجب أن تكون هذه العلاقات والسبب الذي يعزى إليه إقامة أي علاقة أو قطعها مع

أي دولة. من هذه الآيات نرى أن الله تعالى نهانا أن نقيم أي علاقة أو أي بر مع أي دولة ساعدت اليهود على أن تتواجد في فلسطين ولم تحدد الآية حجم هذه المساعدة ، لذا فإنها تعني أي مساعدة قلت أو كثرت.

بين الله تعالى طبيعة التعامل مع من هم أقل عدوانية من عدوانية اليهود على فلسطين ، وما ينطبق على اليهود الآن أشد مما هو مطلوب تطبيقه على من يخلف عهداً مع المسلمين وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال:٥٥-٦١]. إن هذه الآيات تبين قواعد التعامل بين الدولة الإسلامية وباقي دول العالم المرتبطة بعهود معها.

ومن قواعد التعامل هذه أن الذين ينقضون عهدهم مع الدولة المسلمة هم دواب لا يفقهون شيئاً لأنهم يبتعدون عن العدالة ويكسبون عداء المسلمين وعداء الله ، ومن ثم فإنه يتوجب على الدولة المسلمة أن تؤدب هؤلاء الدواب ما لم يرجعواعن نقض عهدهم بمحادثات خاصة لئلا يؤدي ذلك إلى مزيد من المعاصي والتطاول على المسلمين.

يجب أن يكون التأديب شديداً بحيث تلحظه الدول الأخرى فلا تتجرأ أن تسلك نفس السلوك ولا تحاول نجدة من يتم تأديبه فقد أخبرنا الله أن ننبذ إليها على سواء أي أن نبادر إلى مهاجمتها دون تردد لأنه قد يكون في هذا التردد فوات الأوان.

وبعد كل هذه الإجراءات من قتل الأعداء المعتدين وإرهاب من يفكر بمساعدتهم ومهاجمة من يعد لنجدتهم ثم إعادة تنظيم القوات لتكون جاهزة لأي مهمة جديدة ولتكون القوة الأعلى والجاهزة دائماً.

ماذا يجب أن نفعل بمن احتل المقدسات وشرد سكانها ودنس مساجدها وقتل الساجدين من أهلها ولعشرات السنين، أنرضى بأقل من قتل المقاتلين؟

قد يقول البعض ممن لم يطلعوا على كتاب الله ولم يعرفوا علاقة المؤمنين بربهم أن في هذا الكلام توريطاً للدول العربية لتدخل حرباً أكبر من قدراتها ونحن نقول لهم أن شرع الله كامل ولم يترك ثغرة واحدة لم يبحث فيها وأنه في مثل حالنا من الضعف الذي نحن فيه فإن الله تعالى سمح لنا أن نؤجل المعركة ريثما نعد لها الإعداد الذي يتناسب مع الإمكانيات المتوافرة لدينا وذلك وفق قول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾. فإذا صارت قوتنا تعادل نصف قوة العدو أو تزيد عن ذلك فإن الله تعالى يطلب منا أن نقاتل الأعداء ، وإن كانت قوتنا أقل من نصف قوة العدو يمكننا تأجيل المعركة حتى تزيد ما لدينا من قوة حتى تصل نصف قوة العدو أو تزيد قليلاً ثم ندخل المعركة على أساس أن الفارق في التسليح يزول بتأثير ما لدينا من حس إيماني يولد في النفس الشجاعة ، إضافة لما يمد به رب العالمين

عباده المؤمنين من مساعدة من جنده مما نعلم ومما لا نعلم وهذا ما لن يتوفر لدى الأعداء، ولقد أوضح الله لنا قاعدة القتال هذه بقوله تعالى : ﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٦٦].

وإذا ازداد لدينا الحس الإيماني أمكننا القتال قبل هذا الإعداد: ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ ﴾.

ولقد أعلمنا التاريخ عن معارك بلغت فيها قـوة العدو المادية عشـــــــرة أضعاف،

قوة المسلمين وكان النصر حليف المسلمين وهذا ما كان في معركة القادسية ومعركة اليرموك ومعركة حطين وغيرها.

لكن الانتظار لحين بلوغ قوتنا نصف قوة العدو يقبله الله، وأما إذا انتظرنا أكثر من ذلك فإن هذا يعد تقاعساً وتقصيراً في جنب الله، وذلك لأن الله تعالى تعهد بنصر الفئة المؤمنة فلم الانتظار، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

أما إذا قام الأعداء بالعدوان ولم يمهلوا المؤمنين حتى يعدوا فإنه يتوجب على المؤمنين القتال بروح إيمانية ومتوكلين على الله وطالبين نصره وهو القائل في كتابه العزيز : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:١٠٣]. وقال تعالى : ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١]، ومن أصدق من الله قيلا؟

إن الله تعالى سمح لنا أن نؤجل المعركة لحين إعداد القوة اللازمة ضمن الإمكانيات المتوفرة ولكن لا ينبغي التنازل عن الحقوق الإسلامية باسم الشرعية الدولية أو النظام العالمي خلال فترة الإعداد.

آية الأنفال (٦١) التي ذكرنا: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الأنفال:٦١].

هذه الآية تبدأ بحرف عطف، وما بها من أحداث وتشريع وتكليف معطوف على ما في الآيات التي تسبقها، وهذا الحدث وهو الجنوح للسلم يأتي ظرفياً وتوقيتاً بعد تقتيل الأعداء واسترداد الحقوق منهم وإعادة تنظيم قوتنا، فإذا أذعن الأعداء وجنحوا للسلم بعد ذلك وهم صاغرون فلا مانع أن نجنح للسلم.

ولكن أن يؤخذ بمعنى هذه الآية مستقلاً عن باقي الآيات وأن يؤخذ بهذا الحدث (الجنوح للسلم) دون اعتبار لما هو معطوف عليه من الأحداث فهذا خطأ ونفاق وتحريف لشرع الله لا يصدر إلا عن منافق.

وأما الجنوح للسلم بمعناه المطلق فقد أورده الله تعالى بقوله: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾ [محمد: ٣٥].

هذه الآية تحمل المعنى الدائم الذي لا جنوح فيه إلى السلم لأننا الأعلى والله معنا، فكيف نجنح للسلم ولنا حقوق مغتصبة ومقدسات بأيدي الأعداء.

لقد أوضح الله تعالى حرمة المسجد الحرام وأوجب علينا ألا نسمح لغير مسلم أن يدخله كما أوضح الله تعالى حكمه على اليهود بالطرد من المسجد الأقصى ومن المدينة المنورة كما أوردنا، ولكن هناك من يتظاهر بعدم معرفة هذه الأحكام ونحن أوردناها لنوضح لكل من لا يعرف حكم الله.

كذلك أظهرنا حكم هارديان الروماني وتلاه حكم قسطنطين بمنع دخول اليهود القدس وعقاب من يخالف ذلك هو القتل، وهذه الأحكام على سكانها الأصليين ممن انحرف من سبطي الخير الذين قتلوا فيها. فماذا ينطبق من أحكام على من قدم إليها غازياً من اليهود.

لست أدري من أين جاء هؤلاء الرومان بهذه الأحكام التي توافق شرع الله.

والإجابة أنه لا يوجد أي مصدر ديني في ذلك الزمان إلا الإنجيل الحق الذي أنزله الله تعالى على رسوله عيسى بن مريم عليه السلام، هذا الحكم مطابق لما جاء في العهدة العمرية والتي عقدها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مع صفرونيوس حاكم القدس قبل الإسلام فقد جاء في تلك العهدة العمرية ما يلي :

((**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يرهبون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ..الخ**)) .

هل هناك وضوح أكثر من هذا ؟

إيلياء كان اسم القدس في صدر الإسلام وهي المرتفع من الأرض لأنها فوق الجبال.

(ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود)، أي يمنع أي يهودي ولو من أهل البلاد أن يسكن القدس ، فكيف يقبل أحد من المسلمين لليهود المعتدين أن يعيشوا فيها ويعترف بهم كياناً في فلسطين وقد حكم الله بطردهم منها.

كيف يعاكسون أمر الله الذي صدر بحق اليهود ؟

وهنا نريد أن نبين أن مجيئهم مرة أخرى هو بقضاء الله ولكن هذا لا يدعونا إلى أن نعترف بهم بل إن الله تعالى أحضرهم لفيفاً لنقضي عليهم لا أن نعترف بهم.

نأتي الآن إلى التذكير في موضوع يلحظه كل من يطلع على ما أسلفنا من آيات الله تعالى التي تتحدث عن أهل الكفر من بني إسرائيل، وكذلك الآيات التي تتحدث عن اليهود سواء أكانوا من بني إسرائيل عرقاً أو من أي أعراق أخرى ، فإنهم جميعاً أهل سوء ويتساوون في الباطل ، وقد قال الله تعالى فيهم الكثير ليحذر البشرية منهم وأنهم أسوأ ما على هذه الأرض من مخلوقات، فقد بين الله تعالى في إحدى الآيات التي أسلفنا أنهم أشد عداءً للمؤمنين من المشركين وبذلك فإنهم أسوأ من المشركين.

وكذلك فقد أظهرنا أن فرعون آمن بعد عشر آيات في حين أن أهل الكفر من بني إسرائيل (يهود) لم يؤمنوا وبعد عبورهم البحر طلبوا من نبي الله أن يعمل لهم صنماً ليعبدوه كما طلبوا أن يروا الله جهرة ورفع الله فوقهم الطور ليؤمنوا ورزقهم المن والسلوى في جو الصحراء وفجر لهم اثنتي عشرة عين ماء ليشربوا وكلها آيات كبيرة ولم يؤمنوا. أليسوا أسوأ من فرعون؟

وأما إذا قارناهم بإبليس (الشيطان) فإن إبليس عصى أمر ربه في أن يسجد لآدم ولكن إيمانه بالله ثابت وإن ما حصل منه هو حسد لآدم لأن آدم من طين في حين أن الله خلقه من نار وظن أن النار خير من الطين ، وبعد عن فكره أن الأفضلية للتقوى لا للمادة التي خلق منها المخلوق.

ولكنه يظهر تبجيله لرب العالمين بما أظهره الله تعالى بقولـه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢]. فها هو يقسم لله تعالى بعزته أي أنه يعرف ويشهد أن العزة لله جميعاً وأنه يقسم بهذه العزة ، كما ورد عن معرفته بقدرة الله وعظيم خلقه في قول الله تعالـى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦].

وهذه الآية تظهر إيمانه بالله بقوله (رب) وباقي الآية تظهر إيمانه بقدرة الله المطلقة وبيوم البعث وبأن حياته وبقاءه بيد الله تعالى في حين أن اليهود تطاولوا على الله وبين الله تطاولهم بقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة:٦٤] و ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران:١٨١].

فمن هو الأسوأ؟ إن اليهود أسوأ من إبليس، بل هم أسوأ خلق الله.

نورد هذا لمن يؤمن بالله ليطلع ويصدق، وللذين لا يعرفون الدين ولضعاف الإيمان نورد بعضاً من صفاتهم التي ترى بالعين المجردة ويستطيع من يراهم ويعرفهم أن يشكل رأياً فيهم مطابقاً لقول الله تعالى في أنهم أسوأ خلقه ، ومن هذه الصفات: الشح أي البخل الشديد ومعروف عنهم في كل مكان يقيمون فيه أنهم بخيلون جداً حتى على أنفسهم ويتقول الناس في مجتمعهم النكات في بخلهم .

ومعروف عنهم أنهم يستغلون كل ذي حاجة وهذا أسوأ من السرقة.

كذلك فإن لديهم شهوة قتل الأطفال من غير اليهود وهذا مسجل عليهم في قضايا ثابتة وهذه الجرائم مدونة في كتب ومؤلفات مأخوذة من قضايا ثابتة ، هذا غير القضايا التي لم تسجل عليهم والتي أحكموا ارتكاب الجرم فيها ولا أظن أن هناك غيرهم يستمتع بقتل أطفال يعيشون في مجتمعهم بدلاً من أن يحبوهم ويحرصوا عليهم .

ومن صفاتهم أنهم معقدون يعيشون في مجتمعات مغلقة في كافة دول العالم التي يوجدون فيها، وهذه الظاهرة لا تعرف إلا عنهم، وهم في كل مدينة يكونون فيها يكون لهم حي مغلق يسمى حي اليهود، ولهذا الأمر الكثير من المعاني السيئة، فإنهم لا يثقون في غيرهم لأنهم يعادون غيرهم فيتصورون أن الكل يعاديهم، و ينتج عن هذا شعورهم بالعداء تجاه الآخرين.

والنص التالي يوضح عدائهم لكل الأمم: **(وجمعي إياهم من أراضي أعدائهم)** [سفر حزقيال/الاصحاح٣٩]. وهذا يدل على أنهم يعادون أمم الأرض التي ينتشرون فيها رغم ادعائهم المسكنة وحب الخير والسلام وهذه من أكاذيبهم وضعفهم وذلتهم.

وكذلك فإنهم يستمتعون بالفساد بين الناس وأنهم من ضمن مبادئهم أن يتجسسوا على الناس ليعرفوا أسوأ أسرارهم ليقودوهم من خلال ما ارتكبوا من أعمال مخزية وإذا وجدوا من لم يقم بأعمال مخزية

فإنهم يسلطون عليه بناتهم ليوقعوه في الخطأ وليأخذوا عليه مخازي يقودونه من خلالها وإنهم من خلال هذه المفاسد سواءاً كانت جنسية أم قمار أو رشاوى مالية أو سرقات فإنهم يسيرون الدول التي يعيشون فيها والدول التي أوقعوا زعماءها في مفاسد يخشون أن يكشفوهم فينفذوا أوامرهم حفاظاً على سمعتهم الشخصية وعلى مناصبهم، وهؤلاء الحكام يسيرون دولهم وشعوبهم لصالح اليهود لئلا يكشفوا مخازيهم كما يرى ما يجري مع حكومة الولايات المتحدة وبشكل علني ومكشوف، ومنذ أن قتلوا الرئيس الأمريكي جون كنيدي لم يتجرأ أي رئيس أمريكي بعده أن يتمم هيئة التحقيق في مقتله لأن اليهود هم الذين أوصلوا الرؤساء بعد كنيدي للحكم وأخذوا عليهم من الإثباتات والمخازي ما يجعلهم أسرى لليهود.

لو يفطن الذين يدعون أنهم يؤمنون ((بالكتـاب المقدس)) أن يقرؤوه ويفهموه، ولو يفطن الذين يظنون أنهم اتباع عيسى أن يفهموا ((الكتاب المقدس)) الذي شرح لهم كل ما سيكون ، وما هي أسس كل شيء من خير أو شر ليعرفوا ماذا يجب أن يكون تصرفهم لإرضاء ربهم ، الذين يظنون أنهم يؤمنون به .

لقد شهد الكتاب المقدس بما يجري حالياً من سيطرة اليهود بواسطة الفساد وعلى أعتى أمم الأرض حيث ذكر ما يلي :

((**هوذا عبدي يعقل يتعالى ويرتقي ويتسامى جداً. كما اندهش منك كثيرون. وكان منظره كذا مفسداً أكثر من الرجال وصورته أكثر من بني آدم. وهكذا ينضحُ أمما كثيرين. من أجله تَسدُّ ملوك أفواههم لأنهم قد أبصروا ما لم يخبروا به وما لم يسمعوه فهموه**)) [سفر اشعيا ـ الإصحاح ٥٢].

إن النص يذكر عن مدى الارتفاع الحالي لليهود (يتعالى ويرتقي ويتسامى جداً). إضافة إلى أن وراء هذا العلو وسببه هو الفساد الذي ينشرونه ويرتكبه الآخرون ويأخذون عليهم ما يثبت ارتكابهم لأعمال فاسدة مخزيـة وخاصـة ذوي المناصب العالية وأولهم الملوك والرؤساء الذين يخدمونهم كالعبيد بما أخذوا عليهم مـن مخازٍ، وهذا يوافق قول الله: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٤] ، ونتيجة لذلك ولأنهم يقودون أقوى الأمم وهي الولايات المتحدة وغيرها لما يشاؤون فإن هناك ملوكاً تهابهم ولا يجرؤ أحدهم على أن يوجه لهم كلمة احتجاج على سوء لأنهم ابصروا بأعينهم نتيجة من عارض اليهود (يسد ملوك أفواههم لأنهم قد أبصروا ما لم يخبروا) أي أدركوا التهديد والوعيد دون أن يبلغوه فقد رأوه بأعينهم ينفذ على غيرهم.

وما نقوله حالياً عن مثل هؤلاء أن الولايات المتحدة صادرت قرارهم وهذا مغاير للصواب فالحقيقة أن اليهود هم الذين صادروا قرارهم من خلال الولايات المتحدة التي يحكمها اليهود.

هذا الأمر غير مكشوف حالياً لأنه لو تم كشفه فإن الشعب الأمريكي الحر لا يقبل أن يقاد من الخارج وسيقلب حكومته وستنعكس الأوضاع رأساً على عقب لأن الشعب الأمريكي يحب الحرية ويعمل لها ولا يقبل أن يكون مستعبداً وهو الوحيد القادر على وقف الحكومة الأمريكية عندما يكتشف عبوديتها لليهود وهذا ما سيكون قريباً.

قد يرى البعض في هذا الكلام بعض المبالغة ولكن ليلاحظ من يلاحظ أنه ما أن بادر الرئيس الإيراني طلب حوار مع الولايات المتحدة حتى وافق الرئيس الأمريكي كلينتون على ذلك بشروط وهذه الشروط هي اعتراف إيران بمحادثات السلام الشرق أوسطية أي الاعتراف بإسرائيل، وشرط آخر هو عدم تأييد حزب الله في جنوب لبنان حفاظاً على سلامة إسرائيل ومن ثم عدم سعي إيران وراء امتلاك قدرات نووية حفاظاً على إسرائيل.

إنه من الطبيعي أن يضع الرئيس الأمريكي شروطاً تخدم الولايات المتحدة، ولكن أن يضع الرئيس الأمريكي شروطاً تخدم إسرائيل فإنه ليس لهذا الأمر إلا معنى واحد وهو أنه أحد الأسرى لدولة إسرائيل بما ارتكبه من المخازي التي كشف بعضها.

وأما الشعب الأمريكي فإن فيه رجالاً يعرفون الحق ويحرصون عليه والشعب الأمريكي يعشق الحرية ويعمل لها ويعشق الصواب وإعطاء الحق لصاحبه ولكن ما هو واقع فيه هو أنه يمنح الثقة لمسئوليه ولا يراقب سلوكهم ولصالح من يتجه، ومن سوء الحظ أن كانت مصلحة إسرائيل ومصلحة الولايات المتحدة تصبان في اتجاه واحد، لذا فإن الأمريكي لم يلاحظ أين تصب، أما فيما هو قادم فستصب السياسة الأمريكية في صالح إسرائيل وحدها، وهذا ما سيلحظه الرجل الأمريكي الحر ولن يسكت عليه.

لقد شهد القرآن بعدائهم للمؤمنين وهذا يدل على أنهم أعداء لكافة البشر لأن الذي يعادي المؤمنين يعادي ما دون ذلك. كما شهد الكتاب المقدس بعدائهم لكل أمم الأرض حيث ينتشرون وجاء ذلك في النص التالي :

((**لذلك هكذا قال السيد الرب الآن أرد سبي يعقوب وارحم كل بيت إسرائيل وأغار على اسمي القدوس. فيحملون خزيهم وكل خيانتهم التي خانوني إياها عند سكنهم في أرضهم مطمئنين ولا مخيف. عند إرجاعي إياهم من الشعوب وجمعي إياهم من أراضي أعدائهم وتقديسي فيهم أمام عيون أمم كثيرين يعلمون أني أنا الرب إلههم بإجلائي إياهم إلى الأمم ثم جمعهم إلى أرضهم**)) [سفر حزقيال ـ الإصحاح ٣٩].

يذكر النص أن سبب عودتهم هي غيرة الله على اسمه ولإثبات وجود الله فقط وأنها إرادته وليس رضاه عنهم.

كذلك بين الكتاب المقدس في نص آخر أن سبب عودتهم هو تعريف العباد بأن وعد الله حق وقدره حق وأنه كائن كما يريد بغض النظر متى سيقع هذا القدر وأن عودتهم ليست لأجلهم لأنهم أهل نجاسة وضلال وأن عودتهم ما هي إلا تنفيذ لأمر الله وتقديس لاسم الرب وقد جاء ذلك في النص التالي :

((**وكان لي كلام الرب قائلاً يا ابن آدم ان بيت إسرائيل لما سكنوا أرضهم نجسوها بطريقهم وأفعالهم...فبددتهم في الأمم فتذروا في الأراضي. كطريقهم وأفعالهم دنتهم...لذلك فقل لبيت إسرائيل هكذا قال السيد الرب. ليس لأجلكم أنا صانع يا بيت إسرائيل بل لأجل اسمي القدوس الذي نجستموه في الأمم حيث جئتم ..أتقدس فيكم أمام أعينهم وآخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي لآتي بكم إلى أرضكم ..)** [سفر حزقيال ـ الإصحاح ٣٦] .

ان من المعاني الواردة في هذا النص أنهم أفسدوا بين الأمم حيث نجسوا اسم الله أي أن كافة الأمم صارت تكره اليهود لما يصدر عنهم من تصرفات مشينة نتيجة العقد التي في نفوسهم. أسأل الله أن يزيد عذابهم في الدنيا وأن يزيد تعقيدهم وأن يجعل يوم الفتح قريباً إنه سميع مجيب .

ومن صفات السوء فيهم إضافة لتعديهم بالقول على الذات الإلهية أنهم ما تركوا نبياً إلا قتلوه أو كذبوه، هل هناك فحش أكبر من هذا والله شهيد على هذا في كتبه المنزلة. كذلك فإن من أهم صفاتهم في التعامل مع الآخرين هو نقض العهود حيث نقضوا عهودهم مع الله فكيف بهم مع البشر، ولقد أظهر الله تعالى هذه الصفة فيهم بقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٠].

ومن أهم صفات التعامل مع الغير فيهم الجبن والخسة وهذا يعرفه عنهم كل من تعامل معهم فهم لا يواجهون عدواً إلا بالحصول على التفوق المطلق، ولقد بين الله ذلك في كتابه العزيز ويعلمه المسلمون وغير المسلمين.

نأتي الآن إلى موضوع تجمعهم الذي عمل له كل يهودي ومن قبيل ما يحس به من عقد نفسية، هذا التجمع ما كان لينجح قبل مئات السنين وذلك لعدم وجود وسائل الاتصال التي يتطلبها هذا الأمر سواء

كانت وسائط نقل كالطائرات أو السفن، وينطبق هذا على وسائل الإعلام كالجرائد التي لها ارتباط بوسائط النقل ووسائل الاتصال، التلفون أو الراديو أو التلفزيون، وكلها وسائط حديثة وهي التي أسهمت في ترابط عقد اليهود في مختلف دول العالم حيث إن هذه العقد موجودة في كل تجمع لهم وهي تؤدي إلى ترابط اليهود أينما وجدوا.

إن كراهية اليهود للآخرين وغيرها من صفات السوء كانت وراء تجمعهم في أحياء يقطنونها أينما وجدوا وكذلك كانت وراء الترابط الظاهري فيما بينهم ولم يكونوا يفصحون عن كراهيتهم للآخرين، ولولا أن الله تعالى أظهر لنا ذلك لما استطاع معظم الناس تمييز هذه الصفة لديهم.

ولقد بحث الكثيرون في صفات اليهود وعلاقة هذه الصفات بالتصرفات والسلوكيات التي ظهرت منهم ونتائج هذه السلوكيات من إنتاج أدبي أو قومي في المجتمعات التي عاشوا فيها، وقد يتوهم البعض أنهم كانوا على درجة من النشاط في الإنتاج الفكري مع زيادة الضغوط التي يتعرضون لها في المجتمعات التي يعيشون فيها، ولكن هذا عكس الحقيقة تماماً بل خطأ كبير وقع فيه الكثيرون ممن حاولوا بالبحث العلمي معرفة العوامل المؤثرة في نمو الحركة الصهيونية العالمية وتصاعد نشاطاتها، فإن المخطئ من يظن أن هذه الحركة بمضمونها السياسي الذي يعني العودة إلى فلسطين مرتبط تصاعدياً بالاضطهاد الذي يتعرض له اليهود ومقاومتهم ومطاردتهم في مختلف الدول التي عاشوا فيها.

إن الواقع الحقيقي الذي يتوصل إليه من يدرس أثر اليهود التاريخي في مختلف الدول التي عاشوا فيها خاصة الجوانب الأدبية يصل إلى عكس ما أسلفنا وهو أنهم ارتقوا بإنتاجهم كلما منحوا درجة من حرية الحركة والتعبير وما كان هذا إلا في ظل حكومات إسلامية ضمنت كرامة الجميع ، أو حكومات ديموقراطية ظهرت أخيراً وذلك لينفذ من خلالها قرار الله تعالى بعودة اليهود إلى فلسطين ليلاقوا الجزاء الموعود الذي كتبه الله عليهم.

أي أن الظروف التي ساعدت على مولد الحركة الصهيونية لم تكن عوامل الاضطهاد الأوروبي لليهود، بل إن المصادر المؤثرة في توجيه الحركة الصهيونية الحديثة هي فترات الديمقراطية وعدم الاضطهاد وانفتاحهم على الحياة العامة وتمكنهم من ممارسة حياتهم بتوجيه من إرادتهم وفكرهم وحريتهم ثم أعقب هذا مراحل انطلاقهم في هذه الدول وانطلاق أفكارهم في خدمة معتقداتهم وأمانيهم الدينية.

ويتبين لنا هذا بوضوح تام إذا اطلعنا على الإنتاج الفكري لليهود خلال عدة مراحل من تاريخ وجودهم في الدول التي يعيشون فيها لنرى من خلال هذا الاطلاع أن مولد الفكر السياسي الحديث المرتبط بالأطماع والأماني في استيطان فلسطين تم في مراحل الحرية التامة التي منحوها وتمكنوا خلالها من التعبير عن فكرهم ومعتقداتهم.

ومن الفترات التي عاشها اليهود بحرية تامة هي تلك التي عاشوها في الأندلس في ظل الدولة الإسلامية ومن يطلع على كتب التاريخ سيجد أن اليهودي (يهودا بن ليفي) الطليطلي (٤٧٧هـ - ٥٣٧هـ)، الذي يلقبه العرب بأبي الحسن قد أنتج من القصائد الدينية اليهودية ما يعتبره اليهود من أعظم إنتاجهم الأدبي في التاريخ اليهودي.

وقد يعجب بعضنا إذا عرف أن هذا هو الذي كتب حلقة من سلسلة الفكر القومي والديني لليهود، هذا الفكر الذي بلور في النهاية الأرضية التي يتجمع عليها الحس التعصبي عند اليهود ليتعلقوا ويتشبثوا بأطماعهم وأوهامهم جيلاً بعد جيل من أجل تنظيم حركي يقودهم إلى تجديد تعلقهم بالدولة المدعاة توراتياً في فلسطين. هذه الحلقة

التي كتبها (يهودا) هي الرسالة المسماة (الحجة الدليل في نصر الدين الذليل) ، وقد كتبها باللغة العربية .

ويلاحظ أن العنوان يتوافق مع قول الله تعالى فيهم: ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ ﴾ [البقرة:٦١]

، وأيضاً فإنه قبل هذا كانت الأوهام موجودة في العقول والوجدان ، ولكنها لم تترجم إلى أعمال أدبية أو كتب يتم تداولها والاطلاع عليها، وربما كان لهذه الرسالة الأثر الكبير في توجيه فكر من لم يكن فكره موجهاً نحو إقامة الدولة المزعومة والكيان الخاص بهم وهم لا يعلمون أن هذا الكيان هو تحقيق لقول الله تعالى فيهم: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ [الإسراء:١٠٤].

وعندما امتدت الدولة الإسلامية إلى الشرق في القرن السابع الميلادي ومنح اليهود الذين عاشوا في تلك المنطقة الحقوق التي يعطيها الإسلام للذميين من الديانات الأخرى حقق هؤلاء اليهود دراسات دينية وشعرية مرموقة وفي الوقت نفسه عانى يهود أوروبا الغربية من الاضطهاد الذي امتد إلى العصور الوسطى والحديثة، وكان نتيجة ذلك أن يهود أوروبا لم ينتجوا شيئاً في تلك الفترة من الزمن .

ويلاحظ أيضاً أن من النادر أن ترى إنتاجاً يهودياً بارزاً كان وليداً لاضطهاد ، وأن ما ينتج عن اضطهادهم هو ذلهم فقط وتبعيتهم لأي نظام ظالم تصل إلى درجة العبودية ، ولا يعملون للحرية إلا بعد أن يمنحوها فيطلبون مضاعفة ما يمنحون ولا يدافعون عن أنفسهم ضد الظلم ، بل يستسلمون للظلم، فسبحان الذي كتب عليهم الذلة والمسكنة التي يجب ألا ترفع عنهم إلى يوم القيامة .

وفي أواخر القرن الخامس عشر كانت القسطنطينية من أكثر الأماكن في العالم انفتاحاً واستقبالاً لليهود في أن يفدوا إليها ويحيوا حياتهم الطبيعية ويمارسوا حريتهم التامة في ظل الإسلام الذي يكفل الحريات ضمن إطار الدين الإسلامي .

وفي القرن الثامن عشر، وبعد أن بدأت الحريات والديمقراطية تمارس في أوروبا وتعم الشعوب تدريجياً، وذلك بعد أن تعرفوا عليها من النظام الإسلامي الذي نقل للعالم كيف يجب أن تكون حرية الفرد وكرامته، بدأت شعوب أوروبا بممارسة الحريات، ونتيجة لذلك تمتع اليهود الألمان بكثير من الحرية الفردية ضمن القانون، هذه الحرية هيأت لهم إنتاجاً فكرياً دينياً كان كله لخدمة الحركة السياسية التي ربطت اليهود بفكرة الأرض والمملكة المدعاة توراتياً .

إن العالم الأوروبي بالذات، ومعظم شعوب العالم ، أخذت أسس الديمقراطية وحرية الفرد من النظام الإسلامي ، في حين أن من يفقد هذه الحرية الآن هم أفراد هذا المجتمع المسلم .

كانت في أوروبا دعوات خافتة لذوبان اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، إلا أن هذه الدعوات كانت تجد تيارات فكرية معارضة شديدة من أغلبية اليهود الذين أعماهم حقدهم عن أن يروا نتيجة ما يخططون له رغم وضوحه في كتب الدين .

ومن هذه الدعوات ما صدر عن اليهودي الألماني (موسى مندلسون ، ١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) وكان ترجم التوراة للألمانية، وكان يقصد بذلك دعوة اليهود الألمان إلى الذوبان في المجتمع الألماني، ولكنه جوبه بحملة نقد كبيرة وعده اليهود خارجاً عن الملّة اليهودية .

وتبع ذلك بعض الحرية لليهود في فرنسا من جراء انتشار الديمقراطية، وكان من جراء ذلك أن منح المجلس الوطني الفرنسي عام (١٧٩١م) الحقوق المشروعة

للمواطنين اليهود في فرنسا، وكان هذا الأمر الذي استغله اليهود كثيراً في المطالبة به والدعوة إليه في باقي دول أوروبا الغربية والوسطى، ورغم هذه الديمقراطية فإن يهود فرنسا لم يقبلوا الاندماج في المجتمع الفرنسي بشكل يخدم المجتمع الفرنسي الذي يعيشون فيه .

وكان منح اليهود حقوق المواطنين في فرنسا عام ١٧٩١م، فاتحة منحهم حقوق المواطنين في باقي دول أوروبا، وهذا يدل على أنهم كانوا محتقرين ويعاملون على أنهم أناس من الدرجة الثانية في كافة المجتمعات التي عاشوا فيها، وأنهم قبل ذلك التاريخ لم يمنحوا الحرية الصحيحة كمواطنين إلا في ظل الحكومات الإسلامية التي عاشوا فيها .

وقد كانت أوروبا قبل ذلك التاريخ تعيش عصور الظلم والاضطهاد حتى على شعوبها ومن قبل حكوماتها، لأنها كانت مقسمة إلى طبقتين، طبقة الأغنياء الإقطاعيين، وطبقة العمال الفلاحين المضطهدين ، فكان الظلم يصيب المواطن الأصلي، وكان لابد أن يصيب كل وافد عليه من يهود أو غيرهم .

وأما الصهيونية الحديثة فالذي دعا إليها وبشر بها وأرسى قواعدها (ثيودور هرتزل)، وقد ظهرت على صورة حركة عالمية منظمة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وبالتحديد في ١٨٩٧م ، وأما قبل هذا فإن الجهود اليهودية كانت فكراً وأماني وتنظيمات دينية تعصبية محلية لم ترقَ إلى درجات اللقاء والارتباط فيما بينها، ولكنها كانت سابقاً رغم عدم ترابطها كانت تعمل على تعميق الوعي القومي وانتشاره، ولم تعرف الجهود اليهودية في المجال الدولي كسياسة عامة لها أهداف محددة إلا في المراحل الأخيرة، وعلى الأخص منذ مؤتمر (بازل) بسويسرا .

ومن مراجعتنا للتاريخ تبين لنا وجود حركات يهودية قبل ذلك، لكنها باءت بالفشل منذ قيامها، ومنها ما ذكرنا سابقاً وعلى أرض فلسطين ، مثل ثورة المكابيين ، وكذلك حركة (باركوخبا)، قام بهما من فسد من سبطي الخير وتم القضاء عليها على أرض فلسطين حيث ولدتا . ثم كانت هناك حركة تسمى بحركة موسى الكريتي، ولم يكتب لها النجاح .

ثم حركة (دافيد روبين ، ١٥٠١-١٥٣٢م) ، وانتهت بالسرعة التي ظهرت بها .

ثم كانت هناك حركة (منشة بن إسرائيل، ١٦٠٢-١٦٠٧م) ، وكانت سياسية بحتة، وكانت تدعو إلى اتخاذ بريطانيا وطنا قومياً لليهود .

ثم كان هناك كتاب ذو أثر بالغ وهو نداء إلى اليهود يطالب بإنشاء دولة لهم تجمع شتاتهم وأفرادهم في ظل قومية موحدة ، هذا الكتاب للمؤلف السير(هنري فيتش ـ ١٦١٦م) ، ولم يحدد الكتاب تفاصيل القومية اليهودية كما لم يحدد الأرض التي ستحتلها هذه الدولة اليهودية.

وجاء بعده الكاتب اليهودي (موسى هيس) الذي كتب ونادى بإنشاء وطن قومي لليهود لم يحدد أول الأمر وجوده في فلسطين، ثم تلا هذه الأمور مراحل تفكير حديثه أخذت ضجة كبيرة حين ناشد يهودي فرنسي في بدء الحملة الفرنسية التي وجهها نابليون ١٧٩٨م إلى أبناء جنسه ودينه أن يعملوا على تكوين مجلس يضم كل الطوائف اليهودية، وأن يكون مقر هذا المجلس هو باريس، وأن يقوم هذا المجلس بتوجيه النداء إلى الحكومة الفرنسية ، من أجل المساعدة في إنشاء وطن قومي يجمع شمل اليهود وينظم حياتهم .

وقد كتب أن هذا الوطن يشمل مصر السفلى (الدلتا) ويمتد شرقاً لينتهي بخط من بلدة عكا إلى بحيرة طبريا في فلسطين . وموقع هذا الوطن من أنفع المواقع في العالم من حيث السيطرة على الملاحة العالمية، إضافة لخصوبة الأرض.

هذه الدعوة وجدت حماسة عند نابليون، فكتب يرد على هذه النداءات اليهودية التي صدرت عن اليهودي الفرنسي المتعصب ونشر في الصحيفة الصادرة في ٢٠

نيسان/١٧٩٩م نداءً إلى جميع يهود آسيا وأفريقيا يدعوهم ويستحثهم لكي يتهيئوا للعمل من أجل مجدهم السابق، ولكن نهاية نابليون أمام أسوار عكا جعلت هذه المرحلة من العمل اليهودي لا تتعدى كونها حلقة في سلسلة العمل الطويل من أهداف الطامعين اليهود التي لم تحقق أهدافهم .

ثم بدأت الجماعات اليهودية في تطوير فكرها وأسلوب عملها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد أن تأكد لها من أنها يجب أن تركب وتواكب الحركات الاستعمارية في كل من بريطانيا وفرنسا، وقد كانت البداية العملية والمنظمة منذ المؤتمر الشهير الذي دعا إليه وترأسه اليهودي النمساوي (تيودور هرتزل) وهو مؤتمر(بازل) بسويسرا عام ١٨٩٧م.

فمنذ ذلك المؤتمر ومع توفر وسائل الإعلام الحديثة من صحف ووسائط نقل واتصال أسرع بكثير مما كان عليه العالم قبل ذلك، انطلق العمل اليهودي الصهيوني بخطة عالمية تعبر عن الأماني والأطماع اليهودية وقد اتخذ هذا المؤتمر اليهودي المضمون السياسي، وقد حضر المؤتمر (٢٠٤) من كبار اليهود في العالم ، وكان من أهم إنجازات هذا المؤتمر وضع البرنامج الصهيوني المعروف، والذي عرف (ببرنامج بازل)، وإقامة المنظمة الصهيونية العالمية لتنفيذ البرنامج الموضوع .

وكان من أهم قرارات المؤتمر القرار الرئيسي الذي جاء على النحو التالي:

إن هدف الصهيونية هو إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام، ومن أجل تحقيق ذلك فإن المؤتمر وضع أربع خطوات لا بد من تنفيذها لتحقيق الهدف، وهي ما يلي :

١. تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وخاصة العمال الزراعيين والصناعيين ، ووفقاً لخطة مناسبة.

٢. تنظيم اليهود وربطهم جميعاً عبر مؤسسات مناسبة على الصعيدين المحلي والعالمي كل حسب قوانين البلد الذي يوجدون فيه .

٣. تقوية الحس والوعي القومي اليهودي وتعزيزهما باستمرار .

٤. اتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الدول، حيث يكون ذلك ضرورياً لتحقيق هدف الصهيونية.

وعلى الأثر تم تشكيل مكتب للمؤتمر، ثم سارت بعد ذلك الصهيونية العالمية في تصاعد وتوسع وانتشار بكل نشاط وتنظيم .

ويلاحظ من خلال هذه القرارات مدى العنصرية التي تبنى عليها الصهيونية العالمية من أنها تريد ربط يهود العالم ببعض في قومية واحدة واعتبار اليهودية قومية، إضافة إلى أنها دين، وهذا يدل على شدة العنصرية التي تحويها هذه النوعية من البشر، وهذا يوافق قول الله فيهم بنفي الخير عن أي يهودي إلا أن يترك دينه ويعلن إسلامه، وما عدا ذلك فلا خير فيه ولا خير منه . كما يلاحظ الذلة والمسكنة من خلال خضوعهم للدول التي يعيشون فيها، وأنهم سيتمسكنون لهذه الدول ما استطاعوا خدمة لأهدافهم .

ثم كان المؤتمر الثاني الذي عقد عام ١٨٩٨م ، حيث بلغ عدد الأعضاء المشاركين في المؤتمر (٤٠٠).

إضافة إلى هذا النمو العددي فإن المنظمة الصهيونية شهدت تطوراً إدارياً كبيراً، وهو إن من حضر المؤتمر الثاني كانوا ممثلين شرعيين منتخبين من اليهود الذين يمثلونهم في أماكن وجودهم، وهذا الأمر أكسب الإدارة التشريعية الصهيونية صفة الدوام والانتظام لأن من حضر المؤتمر ووافق على هذه الإدارة ممثلون منتخبون.

ثم كان المؤتمر الثالث عام ١٨٩٩م الذي شهد نمواً جديداً في الأعضاء المشاركين في أعماله، وكان هذا نتيجة لازدياد حجم المنظمة بنسبة الثلث في روسيا ، ونسبة الربع تقريباً في البلدان الأخرى . وأهم

نقطة برزت في المؤتمر الثالث هو تبنيه لأجهزة المنظمة الدائمة والتي حلّت محل الأجهزة المؤقتة.

وفي المؤتمر الرابع ١٩٠٠م، أعلن أن عدد المنظمات الصهيونية في بريطانيا ازداد من (١٦) إلى (٣٩)، وفي الولايات المتحدة الأمريكية من (١٠٣) إلى (١٣٥) ، وفي روسيا القيصرية من (٩٠٠) إلى (١١٤٦) ، وشهدت باقي الدول نمواً مشابهاً.

أما مؤتمر الصهيونية الخامس فقد شهد ظهور الحزب الصهيوني الأول، وفي المؤتمر نفسه أُنشئ الصندوق القومي اليهودي بهدف استملاك الأراضي في فلسطين، وكذلك تشكيل محكمة لفض الخلافات بين الأجهزة الصهيونية . وقرر المؤتمر أن يمدد دورته من عام إلى عامين، ولم يكد يأتي موعد المؤتمر السادس ١٩٠٣م إلا وقد أصبح عدد الجمعيات الصهيونية (١٥٧٢) جمعية. ومنذ هذا المؤتمر الذي عقد في فينا، أدركت حركة الاستعمار العالمي بقيادة بريطانيا ما يمكن أن تقدمه القوى الصهيونية الوليدة كقوة تضاف إلى حركة أطماع الاستعمار، ونتيجة لضعف رجال الدين في فهم أمور الدين فقد اقتنعوا وأقنعوا غيرهم من العوام بأن اليهود هم شعب الله المختار، وكنتيجة لعدم معرفة من هم المقصودون بلفظ الفلسطينيين الذين يجب طردهم من الأرض المقدسة، فقد صار هناك تحريض للشعوب البعيدة عن الدين فأيدت الصهيونية ضد أصحاب الحق الشرعيين.

وبالفعل، فإن التجربة التي مارستها القوى الاستعمارية مع القوى الصهيونية - وبتأييد من الشعوب المضللة - قد أكدت لكل منهما مدى ما يمكن أن تكون عليه العلاقات من تعاون بين كل منهما، ففي منتصف الحرب العالمية الأولى لم تكن الكفة راجحة في صالح بريطانيا، إلا أنه بوعد وأمانٍ من حركة الاستعمار العالمي في بريطانيا لأهداف ومخططات الصهيونية العالمية تحولت الصهيونية بضغوط رجالها والممولين لمرافق الحياة العامة في الولايات المتحدة، وضغطت عليها كي تدخل الحرب التي لا مصلحة لها فيها بتاتاً، ولكي تغير مجراها فتصبح في صالح بريطانيا، وبالفعل فقد سافر (هربرت صموئيل) البريطاني الصهيوني واتصل بالقاضي (براندس)، والقاضي (فرانكفورتر)، واستطاع الثلاثة بضغوطهم وتعبئتهم للقوى اليهودية الأمريكية أن يقحموا الولايات المتحدة في الحرب سنداً لبريطانيا .

ومنذ هذا التاريخ تأكدت إمكانية العمل المثمر لكل من الصهيونية والاستعمار البريطاني بقيام تعاون مشترك بينهما تحقيقاً لأماني كل منهما، وقد كان هذا الفكر التعاوني منذ بدأ الاستعمار البريطاني يخطط لأطماعه في العالم للسيطرة على مقدرات العالم، وذلك بممارسة الأساليب التي تؤدي إلى أن يكون العالم سوقاً للتصدير، وحقلاً للخام في خدمة المخطط البريطاني الذي وضع أسسه البريطاني (كامبل بترمان) .

وكان الموقع الجغرافي الذي تحتله الدول العربية التي تتصدر مدخل قارتين كبيرتين، هذا الموقع كان موضع اهتمام كبير ومدروس من القوى الاستعمارية التي أدركت أن أهل هذه المنطقة لو أتيح لهم أن يستغلوا كنوز هذه الأرض وثرواتها وخيراتها، فإنها ستكون أغنى الدول، لذا يجب أن تكون هذه المنطقة سوقاً للتصدير وحقلاً للمواد الخام .

وانضم إلى بريطانيا في تآمرها على الأمة العربية كل من فرنسا وروسيا، وتبعهم في وقت لاحق الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم الدول الأوروبية، وبذلك اكتملت المؤامرة على الدول العربية والتي لا تزال تمارس لغاية الآن.

عملت القوى الاستعمارية على تجزئة المنطقة وتفتيت عناصرها ومنعها من أن تتجمع تحت أي ذريعة، وقتل قوى التقدم التي يمكن أن تطرأ عليها اقتصادياً أو علمياً أو ثقافياً ثم محاربة كل أشكال الوحدة التي يمكن أن يفكر فيها أصحاب هذه الأرض، مع ضرورة العمل المنظم لخلق كيان بشري غريب

يكون قوياً وقادراً على أن يمتص كل المصادر الاقتصادية الزائدة في تهديده المباشر بحكم سيطرته ووجوده داخل حدود الوطن العربي ليحول دون تحقيق أماني التقدم لشعوب هذه المنطقة ، ولتعمل شعوب المنطقة على إنفاق الفائض المالي لديها على التسليح الذي بموجبه يعيدون ما عندهم من أموال إلى حلفاء هذا الكيان من الدول الاستعمارية المتعاونة معه، وبذلك التقت المصالح وتطابقت تماماً لكل من الاستعمار والصهيونية العالمية في ضرورة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، الموقع الجغرافي المتوسط بين الدول العربية الذي يقسمها نصفين، إضافة إلى ان هذا الموقع يحقق أحلام صهيون إلى أرض الأحلام ، التي لا يعلمون أنها المقبرة التي يتحركون إليها ووفق قضاء الله عليهم .

وأصبح المجال الدولي مهيئاً لتحقيق الأهداف، وذلك حين بدأت الحرب العالمية الأولى التي صنعت بمقدماتها ونتائجها الميدان الذي تعاونت فيه القوى الصهيونية مع القوى الاستعمارية الرأسمالية، وبذلك أصبحت الأماني الصهيونية في خدمة الاستعمار، وأصبح الاستعمار في خدمة الصهيونية، وكان من جراء ذلك وعد بلفور الذي صدر عام ١٩١٧م ولا يعلمون أن الله تعالى قال في كتابه العزيز لينفذ وعد الحق فيهم: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ [الإسراء:١٠٤].

إنهم لا يعلمون أن أمر الله صدر للأسباط العشرة بأن يتشتتوا في أصقاع الأرض لحين قدوم موعد عودتهم الثانية والأخيرة إلى فلسطين ليقتلهم فيها عباد الله.
إنهم لا يعلمون أنهم إنما يخططون لعودتهم لفيفا بموجب زمر كلما تجمعت زمرة تحركت لها وسيلة نقل من سفن أو طائرات ، وقد نفذوا وعد الله تماماً وكما ذكر الله .

أدرك الاستعمار البريطاني المتصهين طبيعة الوضع الذي صار إليه أمر السيادة العثمانية (الحكم الإسلامي) على الدول العربية وما حاق بهذه الدول من تخلف علمي واقتصادي نتيجة إهمال هذا الحكم لهذه المنطقة في أواخر أيام الحكم ، كما لعبت بريطانيا دوراً كبيراً في تعميق الهوة بين العثمانيين والعرب والتي أوجدها فساد الحكم العثماني الأخير على الأرض العربية ، كما أسهم في تعميق هذه الهوة الضباط العثمانيون الذين هم من أصل يهودي، والذين اندسوا بعد ادعاء الإسلام في صفوف الجيش العثماني ، ووصلوا إلى أعلى المناصب، وأخذوا يعيثون في المنطقة العربية فساداً وظلماً وقهراً تحت ستار السلطة والإسلام الذي يتظاهرون باعتناقه، وأخذوا بتصرفاتهم يجعلون كل عربي يكره التركي لظلمه الذي لحقه منه، وأخذ العربي يتطلع إلى آمال مغايرة للإسلام وهي آمال بعث القومية العربية التي يأمل من خلالها الإنسان العربي أن يحفظ كرامته .

راحت بريطانيا الاستعمارية تحتضن آمال الأمة العربية وتتبناها، وذلك لتتمكن من احتضان فريستها ثم تسميمها ثم ابتلاعها ، وساندت الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثماني، وبذلك أعلنت حرباً إسلامية ضد الإسلام. وهذه الحرب بهذه الصفة ساعدت الإنكليز على تحقيق وجودهم في الأرض العربية بشكل شرعي ترضاه الشعوب، حيث أصبحت الأمة الإسلامية مصطدمة مع نفسها، والشعوب العربية تتوق لأي مخرج من أي نوع .

وكانت الدسائس تحاك للأمة العربية الإسلامية، لتحقيق أهداف الاستعمار والصهيونية العالمية.

ومع وصول الجيش البريطاني المتصهين إلى فلسطين واحتلالها، بدأت موجات الهجرة اليهودية المنظمة إلى فلسطين، ولم ينتظر فترة تريث أو ترتيب، فالأمور جاهزة لاستقبالهم، والجيش البريطاني يهيئ لهم المستوطنات ويسلمهم السلاح ويدربهم على استخدامه، في حين أن الفلسطيني الذي يمتلك سلاحاً يتعرض لعقوبة الإعدام.

قامت الثورات الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى لمقاومة هذا الاحتلال، وقدم الفلسطينيون قوافل الشهداء في حرب الإنكليز واليهود ، هذه الحرب غير المتكافئة، جيش بريطانيا العظمى مقابل ما يوجد من ضعف فلسطيني، هذا الضعف الفلسطيني

الذي أحدثه قائد الجيش التركي كمال أتاتورك وضباط الجيش التركي اليهود المندسون في الجيش التركي الذين كان لهم الأثر البالغ الكبير في تقديم فلسطين والأردن وسوريا ولبنان على طبق من ذهب لكل من بريطانيا وفرنسا اللتين قسمتا المنطقة فيما بينهما في اتفاقية (سايكس - بيكو) التي عقدت فيما بينهما. وكانت هناك اجتماعات فيما بينهم وبين قادة الجيش التركي (من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام لدخول الجيش التركي ووصلوا إلى أعلى المراتب في الجيش التركي) الذي وجهوه لحرب المسلمين ولتسليم المنطقة العربية لكل من بريطانيا وفرنسا، وكان من أهم الأعمال المشينة المرتكبة باسم الإسلام هو ما يسمى (سفر برلك)، الذي تم بموجبه تجنيد الرجال من سن ١٨سنة حتى سن ٥٠ سنة في كل من فلسطين والأردن وسوريا ولبنان وأخذهم إلى معسكر التدريب والإمداد المسمّى (برلك) في تركيا، ولم يكونوا يتلقون فيه من التدريب شيئاً يؤهلهم لدخول أي معركة. ومن هناك قذفوا لمواجهة القوات المعادية في أوروبا في معركة البلقان في الحرب العالمية الأولى وماتوا هناك ولم يعد منهم إلا واحد من كل ألف، أو أقل من ذلك .

بهذا العمل وبحجة قتال الكفار من قبل المسلمين فرغ ضباط الجيش التركي اليهود منطقة بلاد الشام وفلسطين من الرجال وتركوا فيها الأطفال و الشيوخ والنساء أمام القوات البريطانية والفرنسية تسهيلاً لهم لاحتلالها، وهذا الأمر معروف من كل فرد في هذه البلاد . ولكننا نذكره لأننا نعتقد ان أطفال اليوم يجهلونه، ويجب أن يعرفوه من أولياء أمورهم ومن وسائل الإعلام ليعرفوا أعداءهم، وليعرفوا أن بريطانيا لم تحتل فلسطين من الفلسطينيين، بل دخلتها مفرغة من رجالها الذين كانوا عزلاً من السلاح قبل مجيء بريطانيا.

نريد أن نعرف أطفالنا أن الشعب الذي قهر جالوت وجنوده، والذي قهر نابليون بونابرت ما زال قائماً، ولقد شوهدت بعض مواقعه وأعماله في معركة الكرامة، وفي بيروت الغربية، وفي العمليات الإستشهادية التي لم تصدر عن أي شعب من شعوب الأرض مثلما تصدر عن أحفاد يوسف ، هذه التضحية التي ورثوها عن جدهم إبراهيم الذي ضحى بابنه إسماعيل عليه السلام إرضاءً لربه . وهاهم أحفاده يتسابقون إلى تنفيذ العمليات الإستشهادية في كل موقع يتمكنون فيه من ذلك .

استمرت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بالآلاف وبشكل منظم وبإشراف وتنظيم ومساعدة من كل الدول الأوروبية، ويصل المهاجرون إلى الجيش البريطاني المتصهين الذي يحتل فلسطين ويطبق فيها أقسى درجات القسوة في المعاملة الاقتصادية والعسكرية، وذلك لإجبار الفلسطيني على أن يهجر أرضه ، لأن ما تنتجه الأرض لا يساوي ربع ما ينفق عليها، ومن الأرقام التي في ذاكرتي أن سعر كيلو جرام القمح في وقت الحصاد يصل إلى نصف قرش، وفي وقت الزراعة يصل سعر الكيلوجرام إلى اثني عشر قرشاً، هذا بالإضافة إلى تكاليف تجهيز الأرض من حراثة وغيرها، إضافة إلى ما يفرضه المستعمر من قوانين اقتصادية وضريبية لا يوجد أسوأ منها أو يساويها حالياً إلا السرطان المسمى البنك الدولي الذي يستعمرنا بإرادتنا.

كان هذا تخطيط القوات البريطانية لتجبر الفلسطيني على أن يهمل أرضه أو يبيعها، ورغم هذا فإن ما تم بيعه وبكل الضغوط وبكل الإغراءات المادية لا يساوي ٢٪ من الأراضي التي يسيطر عليها اليهود وهذا تم قبل قيام إسرائيل أي بيع لفلسطينيين يدينون باليهودية، وما تبقى تم الاستيلاء عليه بقوانين سنتها

بريطانيا.

نقول هذا لنذكر أبناء هذا الجيل أنه عندما يحين وقت الحساب ، فإن أولى الأعداء بالمحاسبة هم أقطاب الاستعمار ومن تعاون معهم ؛ والذين منعوا الشعب الفلسطيني من أن يدافع عن احتلال فلسطين، وحالوا بينه وبين اليهود إلى أن أنشئوا دولة إسرائيل بموجب قرار التقسيم الذي صدر عن الأمم المتحدة، وبموجبه تم تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما ما يسمى دولة إسرائيل، والأخرى للفلسطينيين.

هذا القرار الجائر لم يقبله الفلسطينيون وكان هذا عين الصواب، فإن معنى قبوله هو التنازل عن أرض فلسطين المغتصبة لليهود، وهذا ما لا يجوز أن يتم.

نقول هذا الكلام لنقول للجيل الحالي بأن ما يجري من تنازلات هو حبرٌ على ورق كتبه من جرفهم تيار الكفر، أو من أكرهتهم الظروف. ولا يهمكم تيار الكفر، لأن مواجهة الكفر من رجال الإيمان قادمة لا محالة وليس هذا ببعيد .

نقول هذا الكلام لنذكر الجيل الحالي، وكذلك لنري أعداء الله أنه بذلك تم وعد الله الذي وعد اليهود بأن يعودوا لفلسطين حين احتلتها بريطانيا التي أحضرت اليهود وجهزت لهم معسكرات السكن والتدريب والإعداد اللازم ، أي احتضنوهم وأسكنوهم فيها .

إن جمع اليهود من معظم دول الأرض يدل على أن هذه الدول أسهمت بهذا التجمع الشرير ونتيجة لفساد اليهود وسيطرتهم على الحكام بما عليهم من مخازٍ فقد نفذوا المطلوب وهم صاغرون خانعون ولقد وصف الكتاب المقدس حال اليهود كما وصف حال الملوك بما يلي : ((**لا تخف فإني معك. من المشرق آتي بنسلك ومن المغرب أجمعك. أقول للشمال أعطِ وللجنوب لا تمنع. إيت ببني من بعيد وببناتي من أقصى الأرض. بكل من دعي باسمي ولمجدي خلقته وجبلته وصنعته . أخرج الشعب الأعمى وله عيون والأصم وله آذان**)) [سفر اشعيا ـ الإصحاح ٣] .

إن النص يذكر (دُعي باسمي) أي يدعون الانتساب إلى الله وكذلك فإن النص يذكران هذا الشعب أعمى وله عيون أي أعمى البصيرة فلا يرى الإيمان ولا يرى نور الله، والأصم وله آذان فلا يستمع لقول الحق مهما كان مصدره.

وأما حال الملوك الذين يخدمون اليهود كالعبيد فقد وصفهم النص بما يلي :
((**هكذا قال السيد الرب ها إني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي. فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن... ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك، بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخزى منتظره**)) [سفر اشعيا ـ الإصحاح ٤٩] .

يا خدم اليهود وعبيدهم وأمام شعوبكم تبدون ملوكٌ ورؤساء! هل هناك مذلة لحقت بإنسان في التاريخ أكثر مما لحق بكم؟ وها هو الكتاب المقدس يشهد بكم هذه الشهادة وأنكم أحط من العبيد أمام اليهود بما ارتكبتم من مخازٍ ويحكمونكم من خلالها.

لقد بيّن الله تعالى عباده أولي البأس الشديد عندما نظفوا وطهروا فلسطين من الأسباط العشرة أنهم جاسوا خلال الديار، أي أنهم دمروا وقتلوا وهجروا وطردوا، وكانوا ذوي قسوة في حربهم ، ولكن الله تعالى قدر عودة هؤلاء النجس إلى فلسطين بسهولة، ولقد وصف الله ذلك بقوله كما ورد في الآية الكريمة (ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ)، وذلك بجعل الأعداء أكثر نفيراً، أي أكثر قوة عسكرية، إضافة إلى مقدمتهم وهو الجيش البريطاني، إضافة إلى تفريغ فلسطين من الرجال فيما ذكرناه أنه (سفر برلك) .

ووفق هذه الترتيبات كان احتلال فلسطين سهلاً وميسوراً.

وقبل قرار التقسيم بسنوات قامت الحرب العالمية الثانية، وكان من نتائجها أن صارت بريطانيا دولة

من الدرجة الثانية، وخرجت منها أمريكا أقوى قوة على الأرض، وستحكم فلسطين وفق قرار الله تعالى أن يحكم فلسطين أقوى قوة في الأرض على مر التاريـخ. ولكن أمريكـا لا تريد أن تحتل فلسطين لنفسها، وأعلنت بريطانيـا إنهاء الانتداب عن فلسطين وخروجها منها، وفي هذا الزمن صدر قرار تقسيم فلسطين، وتم تقسيم القدس، واستمر الأمر حتى ١٩٦٧م وفلسطين في الوضع الشاذ الذي لم يحصل لها على مر التاريخ.

إن في هذا الوضع الشاذ إتاحة الفرصة لكل من العرب المسلمين واليهود ليسيطروا على الولايات المتحدة، والذي يسبق سيصبح من خلال الولايات المتحدة أقوى قوة في الأرض ويسيطر على فلسطين كاملة.

ولقد تمكن اليهود من السيطرة على الولايات المتحدة بعدوانهم على الرئيس الأمريكي جون كنيدي ، ولم يتمكن أي رئيس بعده من أن يكمل هيئة التحقيق في مقتل كنيدي ، لأن كافة الرؤساء بعده هم الذين أوصلوهم إلى كرسي الرئاسة بأموالهم وتوجيهاتهم، وأخذوا على الرؤساء من المخازي ما يجعلهم أسرى لليهود يطيعون الأمر ولا يخالفونه، وبذلك تحقق لهم تنفيذ أمر الله بأن من يحكم القدس هو أقوى قوة في الأرض . واحتلوا باقي فلسطين في ١٩٦٧/٦/٥م، وصارت لهم السيطرة الكلية على فلسطين والقدس ، لأنهم أقوى قوة على الأرض اعتباراً من ذلك العام، حيث يوجهون الولايات المتحدة بدءاً من رئيسها ليندون جونسن الذي أعتقد أنه جزء من مؤامرة قتل كنيدي، وكان بتآمره أسيراً لهم لا يغالطهم بل يطيعهم .

أقول هذا الكلام من خلال الحس الإيماني وليس من الإثباتات المادية التي ستكشف يوما.

وإن كنا ننسى ولا ننسى الصهيونية الفرنسية التي احتضنت دولة السوء إسرائيل منذ قيامها، وشاركت بريطانيا في تربية مولود الفساد المسمى إسرائيل.

أما هجرة اليهود والإشراف عليها وتنظيمها فقد شارك في ذلك معظم دول أوروبا ابتداءً من روسياً، ولم يقصر أحد في ذلك العدوان المنظم على احتلال فلسطين. ورغم ذلك فإنهم يزعمون أنهم أصدقاء لنا، وأنهم حريصون على مصلحتنا. ورغم ما رأينا منهم ونسمع فإن وسائل إعلامنا تجاملهم في أقوال الزيف التي أخشى إن تكررت أن تولد قناعة لدى الجيل الحالي أن هذه الدول هي دول صديقة .

إنني أخشى على جيل ظلم وقهر أن يتم إفساده وإبعاده عن الله، وأن يخسر الدنيا والآخرة إذا هو صدّق ما يسمع ويرى من وسائل الإعلام العربية والعالمية، وأخشى على هذا الجيل أن يفقد التمييز بين الحق والباطل، وذلك بعد أن تمت تربية منافقين يقولون الباطل وهم مفوضون وفق شهاداتهم ومواقعهم في حياتنا على أن يقولوا الصواب وتوجيه الحياة الدينية، وآخرون مفوضون أن يصدقوا في توجيه الحياة السياسية .

إنني أخشى على هذا الجيل أن تطول غيبته عن الواقع ، وأخشى على أعوان الشر من عالمنا من صحوة هذا الجيل حين يصحو، لأن انتقامه سيكون شديداً .

وقد قامت ثورات فلسطينية قبل قيام دولة إسرائيل، قام بها من شبوا من ذرية من أرسلوا إلى (سفر برلك)، ومن كانت لديهم بنادق شخصية اشتروها دون ترخيص، بما لديهم من ذخيرة محدودة، وقاموا بتنظيم أنفسهم، وعبثاً حاولوا طلب السلاح من الدول العربية مساعدة أو بيعاً فلم يقبل أحد تزويدهم بالسلاح لأنها كانت خاضعة للاستعمار البريطاني ولم يستطع الفلسطينيون الحصول على السلاح من مصاره الصناعية لأن هذه المصادر يحكمها اليهود من خلال التنظيمات الصهيونية. وانطفأت هذه الثورات دون أن تحرز انتصارات قومية، وإنما كانت شاهداً أمام الله على أن هذا الشعب أشعل الثورات إرضاءً لربه ومحافظة على وطنه.

واستمرت الثورات متتابعة دون انقطاع بسلاح أو بغير سلاح ، وأخيراً واجه الشعب الفلسطيني الأعزل تماماً (وهو تحت الاحتلال) عدوه الذي يحتل أرضه ويجثم فوقه بقدرات نووية، ولم يتردد هذا الشعب في المقاومة، وقامت ثورة الحجارة (أدنى الإمكانيات) لتثبت للعالم أن القوة هي قوة الحق، وأن هذا الشعب وإن كان أعزلاً فإنه لن يتردد في مواجهة عدوه، ولتكون الانتفاضة ثورة شعبية، وإن الشعب الفلسطيني لو واجه عدوه يوماً بنصف سلاحه لانتصر عليه.

ومما يؤكد هذا ما أبداه الشعب الفلسطيني من مقاومة باسلة فريدة للاحتلال الاسرائيلي في انتفاضته الثانية في عدة مواقع؛ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما كان من مقاومة أبداها الفلسطينيون في مخيم جنين شهد لها العالم أجمع، وأرعبت الأعداء، وأحرجت الكثيرين، وسيظل الفلسطينيون يقاومون أعدائهم دفاعاً عن أرضهم، لأنهم الذين أورثهم الله الأرض المباركة وحافظوا عليها وعمّروها منذ دخلوها بقيادة طالوت وداود عليه السلام الذي قتل جالوت بحجر وقد قاتل أحفاده الفلسطينيون أعداءهم من الأسباط العشرة بالحجارة عندما لم يتوفر غيرها .

هل يصدق أن الكل ينادي ويقول الأرض مقابل السلام؟

إن التعامل في بيع الأراضي وفي كل أديان العالم وفي كل دول العالم إنه لا يمكن لأحد أن يتنازل عن أرض لا يملكها إلا بتوكيل رسمي من صاحب الأرض، ويكون التوكيل مصدقاً من المحكمة وعليه شاهدان على الأقل يشهدان على صحته.

فيا من تتنازلون عن أرض فلسطين ! هل لدى أي منكم توكيل من أي فلسطيني يخولكم فيه التنازل عن أرضه؟

ويا يهود ! هل تثقون بتوقيع من لا يملك أن يتنازل لكم عما لم يوكل به؟

يا من تخدمون الأعداء! إن ما يعزينا أو يخفف مصيبتنا أن الله تعالى ذكر في كتابه العزيز عن قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين، كذلك ذكر الله عن إزالة دولة إسرائيل، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى سيسامح أي مقصر أو عميل على تقصيرهم أو تعاملهم مع الأعداء، فقانون الله ثابت وسنة الله ثابتة لا تتغير ولا تتبدل .

وهذا ما يطمئن القلوب المؤمنة التي يتوفاها الموت قبل رؤية تحقيق قول الله ليموت المؤمن بربه مطمئناً لتحرير فلسطين.

وعندما يثوب المسلمون لأمر الله ويعودون إلى الله ، فإن الله سيعاقب أعداءه بهم في الدنيا إضافة لما ينتظرهم يوم الحساب، وهذا ما أخبر الله به بقوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٤-٨]. كما قال تعالى يصف طرد أعدائه من فلسطين وأسلوب عودتهم: ﴿

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾[الإسراء:١٠٤].

كما ذكر الله تعالى قرار وراثة أرض الأقصى في الزبور الذي أنزل على داود عليه السلام ، وأن أرض الأقصى هي لسبطي الخير، وأنه حكم على الآخرين بالطرد ، لأنهم غير صالحين . ولقد جاء هذا في قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

كما ورد هذا في الكتاب المقدس ونورده للتذكير وليس للتكرار حيث جاء :
((**لان الرب يحب الحق ولا يتخلى عن أتقيائه إلى الأبد يحفظون، أما نسل الأشرار فينقطع الصديقون يرثون الأرض ويسكنوها إلى الأبد**)) [سفر مزامير - المزمور ٣٧].

وسنعرض ما ورد من تفسير لهذه الآيات قبل عرض فهمنا لها ومطابقتها على الواقع العملي الذي نعيشه هذه الأيام، كما سنناقش آراء المفسرين أولاً بأول .
جاء في ((**تفسير القرآن العظيم**)) للحافظ ابن كثير ، الجزء الثالث ، الصفحات ٢٩، ٣٠، ما يلي :

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزل عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس .

وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ ، أي أولى الإفسادين : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد ، أي قوة وعدّة وسلطنة شديدة: ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ ، أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم، من هم؟ وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده ، وعنه أيضاً عن غيره أنه بختنصر ملك بابل .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ ، أي فعليها ، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت:٤٦] .

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي الكرّة الآخرة، أي إذا فسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم: ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾، أي يهينوكم ويقهروكم، ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ ، أي بيت المقدس، ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أي يدمروا ويخربوا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تَتْبِيرًا ﴾.

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أي يصرفهم عنكم ، ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ ، أي متى عدتم إلى الإفساد، ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ ، أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه .

قال ابن عباس: حصيراً أي سجناً، وقال مجاهد : يحصرون فيها، وكذا قال غيره .

وقال الحسن: فراشاً ومهاداً . وقال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

النقاش: إن هذا التفسير يبين ما جاء في الآيات ، وأن لبني إسرائيل إفسادين وعلوين كبيرين . ويبين الأول ولا يتطرق إلى الإفساد الثاني والعلو الثاني والذي نحن بصدده . كما أن هذا التفسير لا يهتم بعناصر الإفساد أو تاريخه أو القائمين عليه، لأنه معني بالآيات وغير معني بالحدث كواقع سياسي يمر بالأمة، ومعه حق في أن لا يعطي أهمية للحدث ، لأنه لم يمر في زمانه .

إن تحفظنا على هذا التفسير هو أنه يذكر عن إفسادين وعودة إلى الإفساد في صدر الإسلام، حيث يقول التفسير :

(وقد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) .

هذا يتعارض مع آيات الله تعالى، والتي يصف فيها اليهود عامة والأسباط العشرة بأنهم مصدر فساد دائم لا ينقطع عنهم، وهذه طبيعتهم الدائمة التي لا تتركهم .

وأما عودتهم فهي عودتهم إلى العلو وليس للإفساد ، لأن وجودهم في الفساد دائم ولا يتركونه ولا يتركهم حيثما وجدوا، ولكنه لا يتصل ليرتفعوا به إلا مرتين .

وأما قولـه تعالى : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ ، أي أن إفسادكم سيعم في هاتين المرتين، وأما فسادكم العام فهو في أماكن تواجدكم ومعيشتكم وبين من تعيشون بينهم، فهذا وضع دائم لا تغيير عليه، ولكن فسادكم لن يعم، أي يتصل ببعضه ليكون تحت قيادة واحدة وتوجيه مركزي كما هي الحركة الصهيونية إلا مرتين ، وما عدا ذلك فهو موجود في أماكن تواجدهم .

ولقد بيّن الله تعالى طبيعتهم المفسدة في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة:٦٤].

إن هذه الآية تذكر اليهود سواءً أكانوا من بني إسرائيل عرقاً أم من غيرهم، وأن الآية ثابتة المعنى دائمة المعنى ، وتبين إحدى صفاتهم السيئة الثابتة الدائمة، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ [المائدة:٦٤] ، فهذه طبيعتهم . لذا فإنـه من الخطأ أن نقول عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد ، لأنهم لا يقلعون عن الإفساد ، وإنما نقول عاد إفسادهم في مختلف أماكن تواجدهم إلى الاتصال ببعضه، وليكون موجهاً من قبل قيادة إفساد واحـدة.

وفيما نعرض من تفاسير فإن بعضها يقول عن ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ ، أي في بيت المقدس،

وستكون فلسطين هي مركز فسادهم، وهذا ما نؤيده ونضيف إليه بأن هذا الفساد سيعم سكان المعمورة أو معظمها.

كذلك فإن هناك شرطاً آخر وهو أن يعلوا علواً كبيراً مصاحباً للإفسادين ، وهذا ما لم يكن في صدر الإسلام ، لأنهم كانوا ضعفاء مستضعفين ذميين يعيشون في ظل غيرهم وليس لهم حكم حتى على أنفسهم لذلك ليس في هذا علوّ أبداً مع بقاء وجود طبيعتهم الفاسدة .

كما جاء في تفسير ((**الجامع لأحكام القرآن**)) (للقرطبي، الجزء العاشر ، الصفحات ٢١٤ ـ٢١٥) ما يلي :

ومعنى ﴿ وَقَضَيْنَآ ﴾ أعلمنا وأخبرنا، قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا، وقيل: قضينا أوحينا، ولذلك قال ﴿ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ .

وعلى قول قتادة يكون (إلى) بمعنى (على) ، أي قضينا عليهم وحكمنا، وقاله ابن عباس أيضاً. ﴿ لَتُفۡسِدُنَّ ﴾ : المراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة ، ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يراد أرض الشام وبيت المقدس وما والاهما، ﴿ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ ﴾ اللام في لتفسدن ولتعلن لام قسم مضمر : ﴿ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ أراد التكبر والبغي والطغيان والاستطالة والغلبة والعدوان .

قولـه تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا ﴾، أي أولى المرتين من فسادهم ﴿ بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ هم أهل بابل ، وكان عليهم بختنصر في المرة الأولى حين كذبوا على أرمياء وجرحوه وحبسوه، قاله ابن عباس وغيره .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ، أي الدولة الرجعة ، وذلك لما تبتم وأطعتم ، ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره، على الخلاف فيمن قتلهم .

﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ ﴾ ثم عاد أمركم كما كان ، ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾ أي أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم .

قوله تعالى: ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ ﴾، أي نفع إحسانكم عائد لكم ، ﴿ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ ﴾ ، أي فعليها. خطابٌ لبني إسرائيل في أول الأمر، أي أسأتم فحل بكم القتل والسبي والتخريب، ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعلو وانتظام الحال ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ من إفسادكم، وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام ، قتله ملك من بني إسرائيل .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة، فقيل بختنصر، قاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره، وقيل الاسكندر، وبين الاسكندر وعيسى نحو من ثلاثمائة سنة، ولكنه أريد بالمرة الآخرة حين قتلوا شعيا، فقد كان بختنصر إذ ذاك حياً، فهو الذي قتلهم وخرّب بيت المقدس واتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها .

قولـه تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ، أي من المرتين، وجواب (إذا) محذوف تقديره بعثناهم أول مرة (بعثنا) الأول ﴿ لِيَسُـٔٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ ، أي بالسبي والقتل، فيظهر أثر الحزن على وجوهكم ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ أي ليدمروا ويهلكوا .

قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ ﴾ وهذا مما أخبروا به في كتابهم (وعسى) وعد من الله أن يكشف عنهم . (أن يرحمكم) بعد انتقامه منكم، وكذلك كان فكثر عددهم وجعل منهم الملوك . ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ ﴾ قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمداً ﷺ ، فهم يعطون الجزية بالصغار.

وروي عن ابن عباس . وهذا خلاف لما تقدم في الحديث وغيره ، وقال القشيري : وقد حل العقاب ببني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرة على يد المسلمين .

<u>النقاش</u> : لقد جاء في التفسير ما يعارض كلام الله في آيات أخرى، وهذه الجمل المخطوءة هي: (وذلك لما تبتم وأطعتم) وكذلك جملة (وكذلك كان فكثر عددهم وجعل منهم الملوك)

وكذلك فإن التفسير يعارض نفسه أن يضع أن ضرب بني إسرائيل في المرتين هو بواسطة القائد بختنصر، وكذلك فإن هناك جملة بأن الله رد لهم الكرّة وذلك بقتل جالوت، وبذلك فإن المرة الثانية تكون قبل المرّة الأولى ، لأن داود عليه السلام كان في زمن قبل بختنصر بحوالي خمسة قرون، وكان قبل الاسكندر بسبعة قرون .

كما أن هناك خطأً آخر، وهو يعزو المرة الثانية لقتلهم يحيى عليه السلام والذي كان في زمن عيسى عليه السلام، وأن الانتقام كان بواسطة بختنصر أو الاسكندر . وإذا أخذنا بختنصر فإنه يكون هو الذي ضربهم في المرتين، وهذا خطأ، كما أن بختنصر كان قبل مولد يحيى عليه السلام بخمسة قرون .

وأما إذا أخذنا الاسكندر المقدوني فإنه لم يؤذ بني إسرائيل، كما أنه كان قبل مولد يحيى عليه السلام بثلاثة قرون، فكيف ينتقم منهم لما سيكون منهم أو ما سيرتكبونه بعد ثلاثة قرون؟

نأتي الآن إلى ما ورد فـي تفسير هذه الآيات في كتاب ((**في ظلال القرآن**)) لسيد قطب: (المجلد /٥: الصفحات ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨) فقد جاء ما يلي :

ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون، وكلما ارتفعوا اتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط الله عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميراً .

فهذه هي الأولى : يعلون في الأرض المقدسة ويصبح لهم فيها قوة وسلطان فيفسدون فيها، فيبعث الله عليهم من عباده أولي بأس شديد يستبيحون الديار ويطأون ما فيها ومن فيها، وكان وعداً مفعولاً .

حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل، فرجعوا إلى ربهم وأصلحوا أحوالهم وأفادوا من البلاء المسلط عليهم، وحتى إذا استعلى الفاتحون أدال الله للمغلوبين من الغالبين، ومكّن للمستضعفين من المستكبرين ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ، ثم تتكرر القصة من جديد .

ويحذف السياق ما يقع من بني إسرائيل بعد الكرّة من إفساد في الأرض، اكتفاءً بذكره من قبل ﴿

لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ ﴾ ، ويثبت ما يسلطه عليهم في المرة الآخرة بما يرتكبون من نكال يملأ النفوس حتى تفيض على الوجوه ويستبيحون المقدسات ويستهينون بها ، ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ ويدمرون ما يغلبون عليه من مال وديار ، ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾ ، وهي صورة للدمار الشامل الذي يغطي كل شيء .

ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد، فسلط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض، ودمر ممتلكاتهم فيها تدميراً .

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض، فالجزاء حاضر والسنة باقية: ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا ﴾ ، ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين، فأخرجوهم من الجزيرة كلها.

ثم عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم عباداً آخرين حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم (هتلر) ، ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة (إسرائيل) التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات، وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع .

النقاش : يقرر التفسير أن علو بني إسرائيل في المرتين سيكون على أرض الأقصى، وإنهم سيستغلون هذا العلو للإفساد، وهذا ما نقر به وواضح من الآيات .

لا يصيب التفسير بقوله : (فرجعوا إلى ربهم فأصلحوا أحوالهم) وهذا يتعارض مع آيات الله التي تقول بأنهم فاسدون مفسدون وأنه لا صلاح منهم .

لا يهتم التفسير بمن هم الذين سلطهم الله على بني إسرائيل ، لأنه يهتم بالحكمة من الآيات، ومعه الحق في ذلك الأمر ، لعدم جدوى معرفة من هم، إلا إذا كان الأمر بحثاً تاريخياً وسياسياً كالذي نحن بصدده الآن .

لا يذكر التفسير شيئاً عن المرة الثانية، ولكنه يشير إلى أن الإفسادين كانا قبل الإسلام .

نأتي الآن إلى تفسير الآية التالية في المصادر السابقة نفسها : ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

لقد جاء في تفسير هذه الآية في : ((**تفسير القرآن العظيم**)) للحافظ ابن كثير (المجلد٥، الصفحة ٣٧٩) ما يلي :

يقول الله تعالى عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة . وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، فهو كائن لا محالة .

وقال ابن عباس، والشعبي، والحسن، وقتادة ، وغير واحد : الزبور الذي أنزل على داود، والذكر التوراة . وعن ابن عباس الزبور القرآن .وقال سعيد بن جبير : الذكر الذي في السماء .

كما جاء في تفسير هذه الآية في : ((**الجامع لأحكام القرآن**)) للقرطبي (الجزء١١، الصفحة ٣٤٩) ما يلي :

قولـه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ ﴾ ، قال سعيد بن جبير : (الزبور) التوراة والإنجيل والقرآن .

وقال ابن عباس : (الزبور) الكتب التي أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه، (والذكر) التوراة المنزلة على موسى .

﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ ، أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة، كما قال سعيد بن جبير ، لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدسة، وعنه أيضاً : أنها أرض الأمم الأخرى .

كما جاء في تفسير هذه الآية في ((**ظلال القرآن**)) لسيد قطب (المجلد الخامس، الصفحات ٥٦٦، ٥٦٧ ـ الطبعة القديمة) : والزبور إما أن يكون كتاباً بعينه هو الذي أوتيه داود عليه السلام . ويكون الذكر إذن هو التوراة التي سبقت الزبور . وإما أن يكون وصفاً لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب الأصيل الذي هو الذكر وهو اللوح المحفوظ الذي يمثل المنهج الكلي والمرجع الكامل لكل نواميس الله في الوجود وعلى أية حال فالمقصود بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ هو بيان سنة الله المقررة في وراثة الأرض : ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ .

رأينا: نأتي الآن إلى ما توضحه الآيات من معنى شامل واضح ، وذلك ما نراه حالياً وينطبق على واقعنا السياسي ، وإننا لا نفصل التفسير على الواقع السياسي الذي نعيش ، بل إن واقعنا هو الذي أوضح لنا معنى الآيات وأزال من النفوس أي غموض في مفهوم الآيات، وزالت معه كل التساؤلات التي كانت ذات غموض وتدل على عدم وضوح المعنى .

ولنأخذ قول الله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٤].

إن الله تعالى بعلمه الأزلي قضى وكتب على الأسباط العشرة وهم بنو إسرائيل في هذه الآية أن يعلوا مرتين على هذه الأرض، وأن يرافق هذا العلو فساد يعم ، وهذا الفساد صادر عنهم ، لأن الله تعالى يقول: (لَتُفْسِدُنَّ) بضم التاء، أي تفسدون غيركم ولا يكون الفساد منهم إلا إذا كانوا فاسدين أصلاً، وهذا ما بيّنه الله تعالى بقوله فيهم : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة:٦٤].

ومن ضمن ما تبينه هذه الآية أن الله لا يحبهم ، أعجب لمن يحب أياً منهم وقد لعنهم الله.

والله تعالى وبعلمه الأزلي علم أنه سيكون فساد من الأسباط العشرة، وأنهم سيخذلون نبيه موسى عليه السلام ، وأنهم سيدخلونها دون قتال بعد أن يجاهد في استردادها سبطا الخير، لذلك فإن الله تعالى أوضح في كتابه الزبور الذي أنزل على داود أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، وأن لا مقام لأهل الفساد والفاسدين في الأرض المقدسة .

وإن قول الله تعالى : ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ هو تكليف لنبي الله داؤد

بطرد الكفار من فلسطين حيث لا يسكن الأرض المقدسة إلا المسلمون بعد ان غطاها الإسلام ، فدخلها الأسباط العشرة منافقون وطرد نبي الله كل من يعلن كفره .

مما سبق نرى أن من عاش من الأسباط العشرة في ظل دولة داود وسليمان الإسلامية، فإنه عاش منافقاً كما أسلفنا ، يبطن ما لا يظهر، ويظهر ما يكره، وهذا يتناقض مع الفطرة، لذلك فإن هؤلاء المنافقين كانوا يحقدون ويكتمون أحقادهم إلى أن توفي نبي الله سليمان ﷺ، وانطلقت الجن من حكم الصواب لتصاحب الباطل وأهله، فانقض هؤلاء المنافقون على أسباط الخير وهاجموهم هم ومن فسد في مصر، حيث سيطر الفساد على الحكم هناك بقيادة (ششنق) ، فهاجموا أهل الصلاح فيما يشبه ثورة شيوعية، وكان هذا فسادهم الذي كان عدواناً على أسباط الخير في القدس .

وكان جزاء هذا الفساد أن سلط الله عليهم الدولة الآشورية كما أسلفنا ، فاقتلعت الأسباط العشرة من الشام أولاً، ثم من مملكة إسرائيل، وكان هذا تنفيذاً لقرار الله تعالى الذي أظهره بقوله : ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء:١٠٤].

وفي الآشوريين قال الله تعالى يصف ما فعلوه ببني إسرائيل على فسادهم الأول: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء:٥].

وبذلك أوضح لنا الله تعالى أن الإفساد الأول الذي صحبه العلو الأول قد عالجه الله بأن أرسل عباداً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار التي سكنها بنو إسرائيل ودمروهم، وأن هذه المرة حصلت كما تعلمونها مما هو مدون في كتب التاريخ، والله تعالى بين ذلك بقوله : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ .

وبقيت هناك مملكة القدس المسلمة وتحت الحكم الآشوري، وأزال الله الفساد كما ذهب العلو في الأرض وعاشوا صالحين محكومين بغيرهم.

إن بعض التفاسير تقول عن (مفعولاً) أي مقضياً ولا رجعة فيه . وهذا المعنى محتمل، ولكنه غير مقصود هنا ، لأن وعد الله حق أينما كان وكيفما كان دون أن يصفه الله بكلمة مفعولاً . وأن كلمة (مفعولاً) هنا تعني أنه حصل قبل نزول هذه الآيات ، لأن الله يتحدث عن المرة الثانية وانها في المستقبل حيث يقول : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

إن الله تعالى لم يذكر في كتابه العزيز ذكراً صريحاً إلا المنطقة العربية وسكانها، وأما اليهود الذين طردهم الآشوريون إلى خارج دولتهم الواسعة، أي إلى أواسط آسيا وأوروبا، فإن كتاب الله ذكرهم جملة هم وباقي من انحرف من بني إسرائيل ، وكل من اتبع ما معهم من فكر منحرف إذ سموا أنفسهم باليهود وقال الله فيهم عموماً : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة:٦٤].

وبذلك فإنهم في مختلف أماكن وجودهم أهل فساد لا يعيشون إلا بالفساد.

لم يدون التاريخ قيام أي دولة يهودية في أي بقعة من الأرض بعد تدمير دولة إسرائيل الأولى إلا دولة الفساد الثانية التي نراها الآن تحت مسمى إسرائيل أيضاً.
لو اطلع اليهود على التاريخ لما وجدوا لأنفسهم أثراً حسناً ولو اطلعوا على كتابهم كما يقولون لعرفوا في أي مرحلة من مراحل التاريخ هم وماذا ينتظرهم وماذا سيحل بهم في مستقبلهم القريب.

إن الله وعد بجمعهم في كتبه السماوية كلها ووضع لذلك شروطاً للبقاء في الأرض المقدسة، وعملوا للعودة ولم يعملوا بهذه الشروط التي اشترطها الله عليهم والتي ورد بعضها في النص التالي من الكتاب المقدس :

((**وكان لي كلام الرب قائلاً وأنت يا ابن آدم خذ لنفسك عصا واحدة واكتب عليها ليهوذا ولبني إسرائيل رفقائه. وخذ عصا أخرى واكتب عليها ليوسف عصا أفرايم وكل بيت إسرائيل رفقائه واقرنهما الواحدة بالأخرى كعصا واحدة فتصير واحدة في يدك وقل لهم هكذا قال الرب ، هأنذا أخذ بني إسرائيل من بين الأمم التي ذهبوا إليها واجمعهم من كل ناحية وآتي بهم إلى أرضهم ، وأصيرهم أمة واحدة في الأرض على جبال إسرائيل وملك واحد يكون عليهم كلهم ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين ... وداود عبدي يكون ملكا عليهم . ويحفظون فرائضي ويعملون بها ... ويسكنون فيها هم وبنوهم إلى الأبد . وعبدي داود رئيس عليهم إلى الأبد وأكون لهم إلها ويكونون لي شعباً**)) [سفر حزقيال ـ الإصحاح ٣٧] .

لقد حوى هذا النص الكثير ومن أهم ما حوى أن سكان فلسطين (الشعب الفلسطيني) هم أحفاد يوسف وخاصة فرع أفرايم ابن يوسف وأن من طردوا من فلسطين هم الأسباط العشرة وأحدهم سبط يهوذا وهذا يعني أن تسمية القدس بيهوذا هي تسمية لمنطقة وليست للسبط الذي يسكن هذه المنطقة .

ومما حوى هذا النص أن الله سيجمعهم في الأرض المقدسة وقد نفذ الله وعده وبالكيفية التي وصف. وحوى النص شروطاً أهمها أن يصير الطرفان أمة واحدة أي يتبعون دينا واحداً وبذلك فإنه يجب عليهم اتباع الإسلام.

كما حوى شرطاً آخر قابلاً للتنفيذ وهو أن يكونوا دولة واحدة (لا ينقسمون بعد إلى مملكتين) كما انقسموا بعد موت سليمان عليه السلام وهناك شرط آخر هو أن يكون الرئيس عليهم من أحفاد داود أي أنه فلسطيني. لو التزم بنو إسرائيل العائدون بهذه الشروط فإنهم سيعيشون للأبد وإلا فمنهم التصرف وعليهم النتائج.

هناك مشروع للأمم المتحدة تم عرضه ليكون حلاً للمشكلة الفلسطينية عام ١٩٣٦، وكان أهم ما فيه قيام دولة فلسطينية علمانية في فلسطين ينضوي تحتها اليهود والنصارى والمسلمون وهم الأغلبية والرئيس منهم وقد رفض اليهود هذا المشروع.

عودة بنا الآن إلى آيات الله تعالى، والآية التي تقول : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾[الإسراء:٦].

إن هذه الآية تخبر بأن الله تعالى سينصر بني إسرائيل الذين هم عنوان هذه المخاطبة وهم الأسباط العشرة على الذين هزموهم أول مرة وجاسوا ديار بني إسرائيل . هذه الآية تؤخذ مع الآية التي قال الله فيها لبني إسرائيل : ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء:١٠٤].

وكلتا الآيتين موجهتان لمن فسد من بني إسرائيل وهم الأسباط العشرة .

وأخيراً، ولانتشار وسائل الاتصال بين مختلف دول العالم، فإن تنظيماتهم اتصلت ببعضها فوجدت المنظمة الصهيونية العالمية التي شكلت من جمعيات يهودية منتشرة في مختلف دول العالم، واستطاعت إقناع اليهود بالهجرة إلى فلسطين، وكانت الهجرة منظمة وفق سجلات. وكلما اجتمع هناك عدد يملأ حافلة يعمل مركز لتجمعهم وتهجيرهم، وبذلك كانت هجرتهم إلى فلسطين في دفعات منظمة، أي زمراً، أي لفيفاً كما ذكر الله تماماً.

وأما الفساد فإنه يظهر عياناً أن اليهود هم أول من أسس نوادي القمار والخمرة والسينما والبنوك الربوية، وهم أساس الفساد الجنسي المنتشر في دول العالم، وقد سجلوا مفاسد على زعماء الدول التي يتعاملون معها واستطاعوا أن يسيروا أعتى الدول لصالحهم، وبذلك علوا في الأرض، وعم فسادهم سكان المعمورة إلا مواقع محددة هي شوكة في حلوقهم، لأن الله تعالى لا يمكن لأهل الكفر من كل شيء، ولا يلبي كل احتياجاتهم، لئلا يشعروا بالسعادة، بل إن الله تعالى يوجد نقاط تنغيص عليهم لكي يعيشوا في ضنك وتكون هذه النقاط مواطن ضعف عكسري واقتصادي لا تطيعهم ولا تنضوي تحت لوائهم، وتكون منها المقاومة لكي تنغص عليهم معيشتهم، وكما نرى هذه الأيام فإنه لا يعاكس اليهود إلا أضعف الدول والشعوب عسكرياً واقتصادياً، في حين ينضوي تحت لوائهم رؤساء أقوى دول العالم .

هذه هي المرة الثانية التي يعم فيها فسادهم ، ويرافق هذا الفساد العلو في الأرض، ولكن الفساد في هذه المرة سبق العلو، وهو سبب هذا العلو، لذلك فإنه علو مؤقت وعلو جيل لا أكثر .

إن الآيات تتحدث عن فساد بني إسرائيل في الأرض وعلوهم، وتقول الآية: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الإسراء:٦] ، أي أنكم ستنتصرون . فهل الانتصار هو احتلال فلسطين مرة أخرى مثلما نرى الآن، فإن كان كذلك فإنه سيكون سهلاً، ولقد كان كذلك كما سجلت وقائع احتلال فلسطين .

وكذلك فإن احتلال فلسطين ينضوي تحت قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء:١٠٤] ، أي أحضرناكم زمراً إلى فلسطين، ولقد حصل الأمر كما ورد ذكره في الآية، وكما وصفه الله تماماً، أي أنهم لم يحتلوا فلسطين، بل أحضرهم إليها الإنكليز ومن تعاون معهم .

نأتي الآن إلى احتمال آخر لمعنى قول الله تعالى في الآية : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الإسراء:٦] ، وحيث أن الضمير في عليهم يرجع إلى (عباداً لنا) فإن معنى الآية : أنكم ستنتصرون وبسهولة على من قهروكم أول مرة، وهم الآشوريون والبابليون الذين هم الآن يشكلون معاً دولة العراق الشقيق، ولقد حصل هذا الانتصار من خلال ما يسمى حرب الخليج الثانية وحرب الخليج الثالثة.

هل قامت حرب الخليج الثانية وحرب الخليج الثالثة لصالح اليهود؟

نحن نعلم أنهم يدبرون المفاسد ليوقعوا بها رؤساء الدول ليقودوهم من خلالها فهل وجهوا الكبير من تلك الدول لحرب العراق نيابة عن اليهود، ولقد كـان انتصــاراً سهلاً ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الإسراء:٦] .

ولقد بحثنا في الكتاب المقدس عما يؤيد هذا الاحتمال فوجدنا النص التالي :

((**قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب اشرق عليك ، لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض**

والظلام الدامس الأمم. أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك .. جاؤوا إليك . يأتوا بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدي. حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم ... وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك . لأني بغضبي ضربتك وبرضاي رحمتك. وتفتح أبوابك دائما. نهاراً وليلاً لا تغلق. ليؤتى بغنى الأمم وتقاد ملوكهم. لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب الأمم. مجد لبنان إليك يأتي... وبنو الذين قهروك يسيرون إليك خاضعين ›› [سفر اشعيا ـ الإصحاح الستون] .

ويتضح من هذا النص أمور عديدة أهمها أن الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس يغطي الأمم لأنهم لا يعلمون أنهم يسيرون في الاتجاه الخاطئ وبعكس إرادة رب العالمين لأنهم يظنون أن الرب يطلب منهم أن يساعدوا ظلم إسرائيل لان الله كتب عودتهم ناسين باقي الأمور مثلهم مثل الذي قرأ (لا تقربوا الصلاة) ونسي أن يتم الآية حيث تقول (وأنتم سكارى) ، والأمم حاليا نسيت شروط عودتهم وحالهم وما يجب أن يكون عليه تصرفهم وسلوكهم. كما يتضح من هذا النص بأن ملوك الأرض ستخدمهم في عودتهم وفي حمايتهم إذ جاء نصا (وبنو الغريب يبنون أسوارك) أي أن حماية إسرائيل عليهم ونحن نرى التزام أمريكا وغيرها بنصرة إسرائيل.

وكذلك يظهر النص مدى سيطرة اليهود على ثروات الأمم وها هو العالم يعيش في حصار نفسي مما يسمونه الإرهاب وكل هذا حماية لليهود وأعوانهم وهم وحدهم المستريحون من هذا العناء (العالم يحارب الإرهاب نيابة عنهم والإرهاب هو فقط ما يزعجهم ، والإرهاب الحقيقي يصدر عنهم وعمن يناصرهم)، والدول التي لا تعترف بإسرائيل تبيد وقد ضربت دول عديدة لعدم اعترافها بالكيان الصهيوني، وخص النص بالذكر الذين قهروا إسرائيل أول مرة وهم الآشوريون والبابليون والذين يشكلون الآن العراق حيث ورد (بنو الذين قهروك يسيرون إليك خاضعين) فها هو العراق يخضع للأمم المتحدة التي تعمل نيابة عن إسرائيل في قهر العراق والتضييق عليه.

وهل يعني النص **(لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد)** أنه سيتم تدمير إيران كما دمر العراق؟

لقد ذكرنا هذا على سبيل الاحتمال، ولكن إن صح هذا الاحتمال فإنه لا يعيب العراق أن يهزم تلك الهزيمة التي رأينا و هو لا يزال يرفض الانضواء تحت لواء الصهيونية رغم ما لحقه من أذى، وسينصره الله في النهاية ، وسيشفي غليله ، وكما أخبر الله في الآيات وسيدمر اليهود مع من يشارك في هذا النصر الإيماني الذي سيسحق دولة الفساد الثانية، وكما أخبر الله .

كما لا ننسى أن نذكر أن هناك احتمالاً أن يكون نصر اليهود هو ما حصل من انتصارات على دول الصمود والتصدي بما قام من معارك أعوام (١٩٥٦م، ١٩٦٧م،١٩٧٣م) .

فهذا الاحتمال وارد إلا إذا اعتبرنا أن إتمام احتلال اليهود لفلسطين قد تم بموجب معارك (١٩٥٦، ١٩٦٧) وأنها تندرج تحت قول الله ﴿ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ ، وأن نتائج معركة ١٩٧٣ هي لتثبيت وجودهم في فلسطين، حيث أن من أهم نتائجها الاعتراف بكيان العدو .

يقول البعض إن إفساد اليهود الذين لعنهم الله على لسان عيسى بن مريم في فلسطين في الفترة (٦٧-

٧١م) هو الإفساد الثاني ، وردنا على ذلك بما يلي :

أولاً : إن هؤلاء لم يعلوا في الأرض، بل كانوا الأضعف قياساً بمن اتبع عيسى عليه السلام، إضافة إلى أن كلا الفريقين كانوا مستعمرين للرومان ولم يكونوا عالين كما تنص الآيات.

ثانياً : إن هؤلاء الذين لعن الله على لسان عيسى بن مريم لم يكونوا في الخارج ليعودوا إلى فلسطين من الشتات كما تنص الآيات، بل إنهم مولودون في فلسطين أباً عن جد، ولو قلنا أنهم أحفاد من عادوا مع العزير عليه السلام، فإن من عاد مع العزير هم من سبطي الخير وليسوا من الأسباط العشرة .

ينطبق هذا الكلام على من فسد من سبطي الخير (يهود فلسطين) عام ١٣٢م، وما تلاها من حركات فساد والتي قضى على أولها الرومان، وقضى على الثانية الغساسنة، وقضى على آخرها هرقل بيزنطة، وهؤلاء هم امتداد لفساد يهود ممن ضل من سبطي الخير، ولم يكونوا عائدين من الشتات .

ويقول البعض : إن فساد اليهود في المدينة المنورة وما حولها هو الإفساد الثاني. وردنا على ذلك ما يلي :

أولاً : إن يهود الجزيرة العربية هم بقايا التيه، وهم كغيرهم من اليهود فاسدون مفسدون، وقام الإسلام بعقابهم على فسادهم، ولكنهم لم يعلوا في الأرض، بل كانوا رعايا ذميين تحت الحكم الإسلامي، ولم يصلوا إلى سدة حكم، إضافة إلى أن الله تعالى لم يرد لهم الكرة على أحد إطلاقاً .

ثانياً : إن الآيات تتحدث عن علو وفساد في الأرض المباركة فلسطين، ولا تتحدث عن الجزيرة العربية، وفسادهم هذا لم يمتد إلى فلسطين .

كذلك فإن فسادهم في دول آسيا وأوروبا منذ طردوا من فلسطين حتى أيامنا هذه، ليس المقصود بالآيات، لأنهم كانوا يعيشون في ظل غيرهم، أي لا علو لهم وهم ذميون، كما أن الله لم يرد لهم الكرة على أحد في هذه البلاد ، كما أن المقصود بالآيات هو العلو على أرض الأقصى وليس في آسيا أو أوروبا أو غيرها .

نصل مما أوردنا إلى نتيجة أنه لم يحصل لليهود بقيادة بني إسرائيل أن علوا في الأرض، وصاحب هذا العلو فساد على أرض فلسطين منذ طردوا منها إلا هذه المرة، وهذا هو الإفساد الثاني الذي أدى إلى العلو الثاني .

وهناك دليل آخر يشمل كافة ما أوردنا من نقاش، وهو قول الله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء:٤] ، أي مرتين فقط، فإن كانت المرتان قد انقضتا فما هي هذه المرة؟

يقول البعض إن هذه المرة تندرج تحت قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ ، وهذا غير صحيح ، لأن الله تعالى قال مرتين، وقال عن المرة الأولى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ﴾، أي المرة الأولى . ثم تحدث الله عن المرة الثانية وسمّاها : ﴿ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ ﴾، أي هي الثانية وهي الأخيرة ، لذا فلا توجد مرة ثالثة على الإطلاق . أي لا علو ثالث مع بقاء الفساد مستمراً كما ورد في الآيات إلى يوم القيامة، ولكن هذا الفساد إن عاد واتصل من مختلف مواقعه نتيجة لوسائل الاتصال السهلة والسريعة بين دول العالم فإنه سيحاول العلو، ولكنه لن ينجح في العلو مرة ثالثة، وهذا ما سيحصل فعلاً أيام ظهور الدجال، حيث إن اليهود سيتبعونه ويحاولون العلو، ولكن ربك بالمرصاد، فإن عيسى عليه السلام سيقتل الدجال ويهزم أتباعه دون الوصول إلى أي عُلوّ.

نأتي الآن إلى قولـه تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء:٧].

إن الله تعالى يخاطب بني إسرائيل خطاباً مباشراً في الآيات فيقول لهم : لتفسدن، ولتعلن ، عليكم ، رددنا لكم ، وأمددناكم ، وجعلناكم ، وفي هذه الآية يتم الله خطابه المباشر فيقول لهم : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ، أي إذا صدر منكم أي إحسان وعمل طيب فإن فائدته تكون لكم وأنتم المستفيدون منه أكثر من غيركم.

إن القرآن الكريم مختصر جداً ومعانيه كبيرة جداً ومعنى كلمة أحسنتم تشمل الابتسامة وتنتهي بمشاركة المحتاج في جميع نواحي الحياة الحلال وفق ما شرعه الله.

وقد وردت بعض تفاصيل هذا الإحسان في الكتاب المقدس كشروط للعودة إلى الأرض المقدسة ، نورد بعضها في النص التالي:

((**أليس أن تكسر للجائع خبزك وان تدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عرياناً أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك... حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبت صحتك سريعا ويسير بُرك أمامك ومجداً لرب يجمع ساقتك ..... فإنك حينئذ تتلذذ بالرب وأركبك على مرتفعات الأرض وأطعمك ميراث يعقوب أبيك ... لأن فم الرب تكلم**)) [سفر أشعيا ـ الإصحاح ٥٨].

هذا جزء من الإحسان المطلوب تنفيذه مع عطاء الله لهم بأن ثروة الأرض ستجبى إليهم ، وتضاف باقي الشروط الواردة في نصوص أخرى ، ومنها اتباع شرع الله الذي يؤدي إلى عدم الزنى والذي ذكره النص (وأن لا تتغاضى عن لحمك) فهل يتقيد اليهود بذلك ثم يتبع الله قوله : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعلى أنفسكم وسوؤكم سيرتد عليكم فهل سيحسنون أم سيصدر عنهم كل سوء من تجبر وظلم وقهر للعباد وصلف وغرور؟

هل سيصدر إحسان عمن وصفهم الله بقوله: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة:٦٤]؟

لقد أظهر الله تعالى سوء اليهود في مواقع عديدة من القرآن ولكن الله يضع الحجة على الناس ليحاسبهم على فسادهم ومرة أخرى يضع الحجة عليهم ليحسنوا ولن يحسنوا ولقد ورد ذكر هذه الفرصة لدولة إسرائيل في الكتاب المقدس أيضاً لتكون حجة عليهم في النص التالي :

((**لذلك مثل هكذا قال السيد الرب إني أجمعكم من بين الشعوب وأحشركم من الأراضي التي تبددتم فيها وأعطيكم أرض إسرائيل. فيأتون إلى هناك ويزيلون جميع مكرهاتهم وجميع رجاساتهم فيها... أما الذين قلبهم ذاهب وراء قلب مكرهاتهم ورجاساتهم فأني أجلب طريقهم على رؤوسهم يقول السيد الرب**)) [سفر حزقيال ـ الإصحاح ١١] .

ويتضح من هذا النص الشروط الإيمانية والإقلاع عن المعاصي وإلا فإن ربك بالمرصاد : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ .

هذا من فضل الله عليهم رغم أن الله يعلمهم وقد أخبر عنهم في كتبه السماوية بلسان أنبيائه وقد ورد

ذلك في النصوص التالية :

((**ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم . إذاً تشهدون وترضون بأعمال آبائكم لأنهم هم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم . لذلك أيضاً قالت حكمة الله أني أرسل إليهم أنبياء ورسلاً فيقتلون منهم ويطردون. لكي يطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ إنشاء العالم. من دم هابيل إلى دم زكريا الذي أهلك بين المذبح والبيت. نعم أقول لكم أنه يطلب من هذا الجيل**)) [إنجيل لوقا ـ الإصحاح الحادي عشر].

كما ورد هذا النص في [إنجيل متى ـ الإصحاح الثامن والعشرون] .

كما وصفهم الكتاب المقدس بوصف يحمل المعنى الدائم الثابت وهو:

((**حنجرتهم قبر مفتوح بألسنتهم قد مكروا سُمَّ الأصلال تحت شفاههم وفمهم مملوء لعنة ومرارة. أرجلهم سريعة إلى سفك الدم في طرقهم اغتصاب وسحق. وطريق السلام لم يعرفوه**)) [رسالة بولس الرسول إلى هل رومية ـ الإصحاح الثالث] .

هل من يحمل هذه الصفات يمكن أن يصدر عنه إحسان ، يا من تظنون أنكم أتباع عيسى عليه السلام اقرأوا كتابكم وافهموه.

إن هذا الخطاب سيكون حجة عليهم يوم القيامة ، وإن الله تعالى أعطاهم الفرصة الأخيرة ليحسنوا وليستمروا، ولكن هذا لن يكون لأن الله تعالى بعلمه الأزلي علم ذلك ، فأكمل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـࣳـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ أي إذا جاء موعد أجلكم النهائي فإن هؤلاء الذين رددنا لكم الكرة عليهم سيهزمونكم بما يظهر الأسى والقهر على وجوهكم ، ثم أعقب الله تعالى: ﴿ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ [الإسراء:٧]. فماذا فعلوا أول مرة ؟

إنهم جاسوا خلال الديار، أي أنهم سيجوسون خلال الديار مرة أخرى، ولن يقف الأمر عند هذا الحد، فهم معبأة قلوبهم غلاً وحقداً لما صدر عن بني إسرائيل بحقهم من صلف وظلم وقهر. بل أضاف الله تعالى: ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾ أي أنهم سيسحقون ما علوا، أي ما ظهروا عليه أو ما حرروه منكم سحقاً . وفي قول آخر تعني ما بنوه بأيديهم، أي سيسحقون كل ما هو قائم ومبني في فلسطين . إنه الدمار الشامل .

هذا الدمار الشامل الذي سيلحق بهم سيكون من شدة الغل الذي يملأ قلوب الذين سيهزمونهم ، فمن أين تولد كل هذا الغل؟ هل من إحسان بني إسرائيل أم من إساءتهم؟

بالطبع إنهم سيعملون كل ما هو سيئ ولقد أخبرنا الله بذلك في القرآن الكريم كما أن الكتاب المقدس تحدث بهذا الأمر وبالنتائج أيضاً فقد ورد في إساءة اليهود ما يلي:

((**ها أن يد الرب لم تقصر عن أن تخلص ولم تثقل أذنه عن أن يسمع. بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع. لأن أيديكم قد تنجست بالدم وأصابعكم بالإثم. شفاهكم تكلمت بالكذب ولسانكم يلهج بالشر... في طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسالكهم عدل..فرأى للرب وساء في عينيه أنه ليس عدل... ولبس ثياب الانتقام كلباس واكتسى بالغيرة كرداء.. حسب الأعمال هكذا يجازي مبغضيه سخطاً وأعداءه عقاباً... عندما يأتي العدو كنهر فنفخة الرب تدفعه**)) [سفر اشعياء ـ الإصحاح ٥٩].

هذا هو تصرف اليهود الذين نسوا شروط الله عليهم لإعادتهم إلى الأرض المقدسة ونتيجة ذلك

ستكون حرباً مدمرة لخصها القرآن بقول الله : ﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ ، أي أنهم يسحقون سحقاً كل ما هو مبني. وهذا يوافق وصف الكتاب المقدس لقوات تحرير فلسطين بأنها كالنهر لتدفقها وكثرتها وان الله تعالى يساندها حيث جاء: ((**عندما يأتي العدو كنهر فنفخة الرب تدفعه**)).

كما أورد الكتاب المقدس وصف هذه الملحمة فيا يلي : ((**ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل فتقدم تلاميذه لكي يروه أبنية الهيكل. فقال لهم يسوع أما تنظرون جميع هذه الحق أقول لكم أنه لا يترك ها هنا حجر على حجر لا ينقض وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب**)) . [إنجيل متى ـ الإصحاح ٢٤] .

وأما الشعب الفلسطيني وما سيفعله وما هي حالهم وهم أحفاد يعقوب فقد وردت في النص التالي : ((**ويأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب يقول الرب . أما أنا فهذا عهدي معهم قال الرب روحي الذي عليك وكلامي الذي وضعته في فمك لا يزول من فمك ولا من فم نسلك ولا من فم نسل نسلك قال الرب... من الآن وإلى الأبد**)) [سفر اشعيا ـ الإصحاح ٥٩] .

هل المقصود بالفادي أنهم من يفدون الأرض المقدسة بأرواحهم سواء كانوا من جيوش تحريرها أو من الذين ينفذون العمليات الإستشهادية وهؤلاء الذين يبقى كلام الله في فمهم جيلاً بعد جيل إلى الأبد. أي أنهم ماضون على عهدهم مع الله ، وهل هذا يقابل الحديث الشريف فيهم القائل : ((**ما تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين... إلى أن يظهر أمر الله وهم على ذلك)) قيل يا رسول الله وأين يكون هؤلاء يومئذ قال : ((هم في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس**)).

وبعد هذه الحروب ونتائجها المدمرة فإن الله تعالى يكون قد نفذ أمره بحق أهل الكفر اليهود.

ثم يعقب الله تعالى بقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٨].

وعسى تعني سوف في معظم حالاتها إلا ما ندر، فإنها تعني ربما وفي هذه الآية تعني ربما، وبذلك فإن النتائج تعتمد على عمل ابن آدم والتي بينها الله تعالى بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٨] ، سواء كان الكافرون من بني إسرائيل أم من غيرهم.

وهنا يحتم الله تعالى النتائج ، لأن الله لن يرحمهم لأنهم لن يحسنوا، ولن يتوبوا، وهذا ما أكده الله تعالى في مواقع أخرى من القرآن، وكما أسلفنا .

كما أن الله تعالى ينذرهم في هذه الآية بقوله : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ ، أي إن عدتم إلى الإفساد عدنا لتدميركم أولاً بأول، ولن تقوم لكم قائمة ثالثة على الإطلاق، وهذا الإنذار لهم لكي لا يحاولوا، لأن في كل محاولة منهم دمار لهم، وهذا ما سيكون، حيث أخبرتنا به الأحاديث الشريفة حول التفاف اليهود حول المسيح الدجال، وسيقتلون معه دون تحقيق أي قائمة ثالثة، وبذلك نرى أن الله تعالى يأخذ عليهم الحجة، ولتكون جهنم في انتظارهم وساءت مصيراً .

ولقد أورد الكتاب المقدس تحذير عيسى عليه السلام صحابته وأحفادهم من بعدهم وهم الشعب الفلسطيني الحالي كما حذرهم رسول الله ﷺ من الدجال وقد جاء تحذير عيسى عليه السلام في النص التالي:

((**لأنه يكون ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون ولو لم تقصر تلك الأيام لم يخلص جسد. ولكن لأجل المختارين تقصر تلك الأيام. حينئذ إذا قال لكم أحد هوذا المسيح هنا أو**

هناك فلا تصدقوا . لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم .. وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلم يعلم بها أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده)) [إنجيل متى - الإصحاح ٢٤].
هناك سؤال أوجهه إلى كل من يظن أنه يؤمن بعيسى عليه السلام وهو أن عيسى عليه السلام في هذا النص يقول (ولكن لأجل المختارين تقصر تلك الأيام).

هل المختارون هم الذين اتبعوا عيسى في ذلك الوقت أم الذين طلبوا صلبه وقتله؟ فإذا كانت إجابتكم هم الذين اتبعوه فهذا يعني أنهم الآن الشعب الفلسطيني وليسوا اليهود وإذا كانت إجابتكم بالعكس فهذا يعني أنكم تتباهون بالضلال وتصرون على الضلال. اللهم لا تهد ضالاً سبيلاً.

وإن هذه الآيات لتخبر بني إسرائيل كذلك أن مجيئكم هو قضاء رباني، حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، أي ليست براعة منكم لتغتروا بذلك وتطغوا ، فليس لكم فضل في ذلك وكل ما بذلتموه هو الفساد .

يقول البعض إن هجرة اليهود إلى فلسطين لم تنته، وأنه يجب أن يحضر إليها كل يهود العالم ويقدرون بستة عشر مليوناً، ومن ثم يبدأون بالعلو، وبعد ذلك يحدث ما يحدث.

نرد على هؤلاء بما يلي:

أولاً : إن الله تعالى حدد الذين سيحضرهم بقوله : (بني اسرئيل) ، أي هم من بني إسرائيل عرقاً، وهناك احتمال أن يكون هناك من اتبع اليهودية من هو من أصل آسيوي أو أوروبي أو أمريكي، وهؤلاء ليسوا من العرق المطلوب . والآية الكريمة لا تعنيهم بالهجرة، كما أن هجرة من يهاجر من هؤلاء إلى فلسطين لا تتعارض مع الآية كما هو الحال مع يهود الفلاشا واليهود اليمنيين، ولكن هجرة هؤلاء ليست شرطاً لاكتمال الحدث، وبذلك لن يتجمع كل يهود العالم في فلسطين .

ثانياً : كانت الهجرة مفتوحة ومسموحة ومنظمة لكل يهود العالم حتى ١٩٩٠م، ما عدا يهود الفلاشا ويهود الاتحاد السوفيتي، فقد كانوا ممنوعين من الهجرة، ولقد سمح لهم بذلك عام ١٩٩٠م.

إن الله تعالى حدد أسلوب الهجرة بقوله : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ ، أي زمراً ومجموعات، وبهجرة من هاجر بتنظيم من الاتحاد السوفيتي، فقد اكتملت الهجرة، والآن الأمور مفتوحة لكل دول العالم التي تعترف بإسرائيل ، ومن يهاجر فهو حر سواء من فلسطين أو إليها، لذلك فهي هجرة فردية غير جماعية وهي مزاجية ولا تتبع أي تنظيم ولم تتطرق إليها الآيات، وأما الهجرة المنظمة التي حددها الله وفق الزمر لفيفاً فقد انتهت ولم يعد لها وجود.

ثالثاً : إن الله يتحدث إلى من يتبقى منهم بعد القضاء على تجمع الفساد الحالي لتقوم عليهم حجة يوم القيامة، فالله يهددهم بقوله : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾، والخطاب موجه إلى بني إسرائيل، أي سيبقى من بني إسرائيل من لم يحضروا وهذا التهديد موجه لهم ، أي أن الآية لا تعني أن يأتي كل بني إسرائيل ولا كل يهود العالم.

عودة بنا إلى الآيات وما تحمله من معانٍ: فإن مما تقوله لمن هم من غير بني إسرائيل وللعرب بشكل خاص وللمسلمين بشكل عام إن هذا الحدث هو قضاء رباني وليس قصوراً من الشعب الفلسطيني، إذ أن واجب الشعب الفلسطيني أن يقاوم الاحتلال وأن يشعل الثورات ؛ وقد فعل ، ولكن القضاء سيكون، واحتل فلسطين جيش إنكليزي كبير العدد والعدة بعد أن فرغها (كمال أتاتورك) من الرجال بإرسالهم إلى معسكر (برلك) وقام الإنجليز بتجهيز معسكرات السكن والتدريب لليهود وسلموهم إياها جاهزة دون

عناء منهم.

كما قام آخرون بتشكيل حاجز بين الشعب الفلسطيني واليهود وهؤلاء الذين سيحاسبهم الله أشد الحساب وسيلحقهم بأشد العذاب هم وكل من قصر ليصل باليهود إلى ما وصلوا إليه وهؤلاء الذين ندعوا الله ألا يسامحهم وألا يهديهم سبيلاً إلا سبيل جهنم مع إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب وساءت مصيراً.

نأتي الآن إلى معنى آخر تحمله الآيات وهو احتمال السلام الذي يحاولونه الآن والذي ينضوي تحت قول الله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء:٧] .

إن الله تعالى ذكر بيننا وبينهم أربع لقاءات هي :

اللقاء الأول : في هزيمتهم أول مرة إذ قال الله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ﴾ ، فإن الله تعالى ذكرنا وذكرهم معاً في خطاب واحد وذكرنا بضمير الغائب وهم المخاطب المباشر.

اللقاء الثاني : بعد عودتهم إلى فلسطين حيث قال الله : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ وبذلك فإن الله تعالى ذكرنا وذكرهم.

اللقاء الرابع والأخير : حيث قال الله تعالى : ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [الإسراء:٧]، وبذلك فإن الله ذكرنا وذكرهم.

اللقاء الثالث : وهو احتمالات السلام فإن الله تعالى ذكر بني إسرائيل ولم يذكرنا ، وبذلك فإنه لا قيمة لنا في هذه المحادثات ولا وزن لنا فلم تذكرنا الآية، كما أن الله تعالى لا يعترف بمن يتحدث معهم أو يفاوضهم إلا أن يكون منهم : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] ، لذا فلا داعي أن تذكرنا الآية كما أنه لا أثر لنا في مسيرة السلام الحالية إذ إنهم يتمسكون ونحن نقدم التنازل تلو التنازل ثم يزدادون صلفاً ونقدم المزيد إلى أن لا يبقى ما نقدم ثم يطلبون المزيد لما يحصلون عليه وبذلك فإنهم لن يحسنوا بل ستصدر عنهم كل إساءة إلى أن تمتلئ قلوبنا غلاً ونعود إلى الله وننقض عليهم وتكون المعركة الأخيرة الفاصلة التي سنسحق فيها كل ما هو قائم في فلسطين على رؤوسهم ورؤوس إخوانهم المنافقين وهذا **وعد الآخرة**.

ولقد ورد وصف هذه النهاية في الكتاب المقدس في عدة مواضع نذكر منها إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً:

((**وفيما هو خارج من الهيكل قال له واحد من تلاميذه يا معلم انظر ما هذه الحجارة وهذه الأبنية. فأجاب يسوع وقال له أتنظر هذه الأبنية العظيمة. لا يترك حجر على حجر لا ينقض...**)) . [إنجيل مرقس ـ الإصحاح الثالث عشر] .

وكذلك فقد ورد نص آخر يقول عن القدس :

((**وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك. ولكن الآن قد أخفي عن عينيك . فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة. ويهدمونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر لأنك لم تعرفي زمان افتقادك**)) [إنجيل لوقا ـ الإصحاح التاسع عشر].

ولو عدنا إلى التاريخ فإنه بتاريخ (٧٢م)، تم هدم مسجد سليمان من قبل الرومان ولم تهدم المدينة وعندما طهرها المسلمون من البيزنطيين دخلوها سلماً دون حرب وعندما دخلها الصليبيون قتل أبناؤها داخلها ولم تُهدم وعندما حررها صلاح الدين لم يهدم منها شيئاً ولم يقتل داخلها أحداً. ولم تهدم كذلك بعد

احتلالها عام ١٩٦٧، لذلك لم يبق إلا الاحتمال القادم وهو عند تحريرها مستقبلاً من رجس اليهود فسيتم هدمها على رؤوس من فيها ويؤكد هذا الجزء الأخير من النص حيث يقول (زمن افتقادك) أي لا يكون لها وجود لأنها ستمسح عن الأرض. كذلك فقد ورد النص التالي :

((**وإذا كان قوم يقولون عن الهيكل أنه مزين بحجارة حسنة وتحف قال هذه التي ترونها سيأتي أيام لا يترك فيها حجر على حجر لا ينقض... وقبل هذا كله يلقون أيديهم عليكم ويطردونكم إلى مجامع وسجون وتساقون أمام ملوك وولاة لأجل اسمي وسوف تسلمون من الوالدين والإخوة والأقرباء والأصدقاء. ويقتلون منكم وتكونون مبغضين من الجميع من أ جل اسمي ولكن شعرة من رؤوسكم لا تهلك. بصبركم اقتنوا أنفسكم ومتى رأيتها محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا قد اقترب خرابها حينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال . والذين في وسطها فليفروا خارجاً. والذين في الكور فلا يدخلوها**)) [إنجيل لوقا ـ الإصحاح الحادي والعشرون].

ان عيسى عليه السلام يخاطب المؤمنين به مباشرة وهم المخاطبون مباشرة والذين سيطردون وهذا يؤكد أنهم الآن الشعب الفلسطيني ، فهم الذين طردوا من فلسطين ويساقون إلى السجون خدمة لليهود وهم الآن بما يوجد من أعوان الأعداء المضللين فإنهم يسلمون من الأقرباء والأصدقاء ، وهذه حالتهم قبل تحرير فلسطين ، ويطلب نبي الله منهم الصبر، والنصر قادم بإذن الله ، ولن يكون نصر قبل تدمير القدس على من فيها من الأعداء وعملائهم. وهذا الأمر يوافق ما جاء في النصوص السابقة.

كما أن تدمير فلسطين سيشمل تدمير ما حولها من مناطق تحدها وذلك عقوبة ربانية لسكانها على ما تركوا العدو حتى ساد وماد، وقد ورد هذا بالنص الصريح في الكتاب المقدس فيما يلي:

((**هكذا قال الرب على جميع جيراني الأشرار الذين يلمسون الميراث الذي أورثته لشعبي إسرائيل ها أنذا اقتلعهم عن أرضهم وأقتلع بيت يهودا من وسطهم**)) [سفر أرميا ـ الإصحاح الثاني عشر].

يظهر النص بوضوح زوال دولة إسرائيل بقوله: ((**وأقتلع بيت يهودا**)).

ثم بعد ذلك تكون الكلمة في الأرض لعيسى عليه السلام الذي ينزل بعد ذلك وقد ورد ذلك في النص التالي :

((**وأيضاً يقول اشعياء سيكون أصل يسى والقائم ليسود على الأمم عليه سيكون رجاء الأمم**)) [رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ـ الإصحاح ١٥] .

وقد جاء في عودة عيسى وحكمه العادل للأرض ما يلي :

((**ها أيام تأتي يقول الرب وأقيم لداود غصن بر فيملك ملك وينجح ويجري حقاً وعدلاً في الأرض. وفي أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمنا وهذا هو اسمه الذي يدعونه به الرب برّنا**)) [سفر ارميا ـ الإصحاح الثالث والعشرون] .

وكذلك فقد ورد في عودة عيسى عليه السلام النص التالي :

((**أن تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى ظهور ربنا يسوع المسيح الذي سيبينه في أوقاته المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب الذي وحده له عدم الموت**)) [رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ـ الإصحاح السادس] .

نأتي الآن إلى استنباط آخر مما تحمله الآيات من معنى ، وهو بالنظر إلى قول الله تعالى : ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ ، أي خلال الديار التي تسكنونها وهي فلسطين ثم يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُاْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ [الإسراء:٧] ، وتوضح الآيات أنهم أول مرة جاسوا خلال الديار ، أي دخلوا الديار وهذه المقارنة تحتمل معنيين :

أولهما : أن الإفساد الأول كان قبل بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث دخلوا الديار وأن الإفساد الثاني سيكون في عهد إسلام حيث (ليدخلوا المسجد) وهانحن في الإفساد الثاني.

ثانيهما : المعنى الثاني الذي تحمله الآيات هو أن الديار مسجد أي أن فلسطين كلها أقصى وكلها مسجد ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة:٢١] ، أي أن الأرض كلها مقدسة.

وكذلك مما يؤيد أن فلسطين كلها أقصى قول الله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] . ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ ﴾ [البقرة:٢٤٩].

تظهر الآيات أن الباب والمدخل هو نهر الأردن حيث جاوزه طالوت ومن معه والباب هو المدخل أي أن مدخل الأقصى وبابه هو نهر الأردن وبذلك فإن فلسطين كلها أقصى وكلها مسجد.

نأتي الآن إلى الآية الأولى من سورة الإسراء وما تحمله من معنى حيث يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١] .

وإذا أخذنا أن الأقصى هو فلسطين كاملة وأن البركة فيه وفيما حوله وهو المنطقة الزراعية من الأردن وهذا هو ما حوله ويتأثر بهواه وفيها البركة من الله لأنها تحيط بالأقصى.

كذلك فإننا نقصد فيما قلنا وأسلفنا عن سكان الأقصى وما حوله أنهم سكان فلسطين وما يقع شرقها من أرض شرقي الأردن وأنهم من أحفاد يوسف.

إن قول الله تعالى: ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ ، يعني اليوم مجتمعاً إسلامياً وهذا يعني أن القاعدة إسلامية وأن القيادة إسلامية بغض النظر عن توزيعة هذه القاعدة ومدى مساهمة كل دولة من الدول الموجودة حالياً والتي ستكون محافظات في دولة الحق.

وأما عن الشهداء الذين سيبذلون أرواحهم فإنهم كثيرون وطوبى لهم وسعداً لهم بلقاء ربهم سواء أكانوا من المقاتلين أو ممن سيحصدهم لهيب المعركة التي وصفها الله بقوله: ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء:٧]، أي أنه سيكون هناك الدمار الشامل في فلسطين بحيث يسحق ما هو مبني فيها سحقاً. فماذا سيكون رد الأعداء الذين أغفلناهم إلى أن امتلكوا أسلحة نووية وماذا ستكون خسائرنا؟

أليست هذه الخسائر تأديباً ربانيًا لنا على أننا ربطنا مصلحة أفراد منا بمصلحة العدو واتبعنا المتطلبات الأمنية إلى أن فقدنا الأوطان والأمن ، وفرطنا كثيراً في جنب الله وسكتنا عن العدو حتى صار

له أنياب وسكتنا عن المنافق حتى ساد وماد وسكتنا عن قوانين الباطل فأغرقتنا في الباطل ، وها هي النتائج والحسرة على ذوي القتلى وهم أذناب المنافقين الحاليين ونقول لهم الآن : لقد استمتعتم بنفاقكم فردوا عن أنفسكم كيد الأعداء إن استطعتم .

قد يقول قائل إن في هذا الكلام بعض التحامل أو القسوة ولكنني أرى عكس ذلك إذ أن هذا لا يساوي شيئاً مما أعطاه الله من حق لكل من ظلم وهو إظهار السوء من القول في حق من ظلمه ، وهل هناك أكثر من فقدان وطن وتشرد شعب نتيجة لنزوة ارتكبها منافق أو عميل .

لقد ورد هذا الحق في قول الله تعالى : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٨] .

إن من يفكر في هذه الآية الكريمة سيعرف حقوق الشعب المظلوم من القول، والذي لا يزال لم يجهر بالسوء من القول حفاظاً على الديموقراطية الحديثة التي تسمح بالجهر بالسوء من القول لكل من هو ظالم وكل معتد على حقوق الآخرين من اليهود أو سباياهم المنافقين وتحرم كل شيء على أصحاب الحقوق.

إن الشعب الفلسطيني لم يجهر بسوء من القول بعد رغم أن الله أعطاه هذا الحق لأن سبايا اليهود من المنافقين صادروا هذا الحق وألجموا ألسنتهم.

ومع أن هذا الشعب ظلم وحوصر وهو الآن بلا وطن نتيجة أخطاء الآخرين ونزواتهم فإن هذا الشعب يلمح ولا يصرح ولعل الله تعالى أن يعوض صبره خيراً بعودته إلى وطنه ظافراً.

نسأل الله تعالى أن يرينا رياح التغيير التي ستودي إلى تحرير الأقصى، هذه الرياح وهذه الأحداث هي المذكورة في كتاب الله وسنة رسوله ومن لديه حس إيماني يستطيع أن يستنبط هذه الأحداث وأن يرتبها بالتسلسل الذي ستحدث فيه لأنها مذكورة بالتفصيل الواضح الذي لو تمت مطابقته على الواقع العملي فإن المؤمن يستنبط الأحداث وأسماء المحدثين والمسببين لمختلف الأحداث الإيجابية منها والسلبية .

وأما المنافقون الذين لا يزدادون من الله إلا بعداً فنسأل الله أن يزيدهم نفاقاً وأن يبعدهم عن فهم دينه وأن يكون القرآن عليهم عمىً ليبقوا على غيهم هم ومن ينافقونهم ويتخذونهم أرباباً، وندعوا الله ألا يفهموا آيات الله حرصاً على أحباب الله من أن يكشفوا لأعداء الله قبل حينه.

سينصر الله أحبابه ، وقد تعهد بذلك إذ قال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

هذه الأرض المقدسة ما هي إلا لسبط يوسف وأحفاده والذين يسمون الآن بالشعب الفلسطيني ، فأصحابها هم أصحابها وإن اختلفت التسميات مع الزمن.

لقد أورد الكتاب المقدس هذا الفارق في التسميات حيث كانوا يسمون إسرائيل وسماهم الكتاب المقدس أحفاد يعقوب وسماهم سبط يوسف والمختارين وسماهم القرآن بني إسرائيل وها هم يسمون الآن الشعب الفلسطيني كما أن فلسطين الحالية كانت تسمى أرض كنعان ثم سميت فلسطين وسماها الحديث الشريف بيت المقدس وسماها رب العالمين الأرض المقدسة وسميت الأرض المباركة وها هي الآن تسمى فلسطين .وقد أورد الكتاب المقدس تغيير التسميات في النص التالي :

((**هكذا أعمل لأجل عبيدي حتى لا اهلك الكل. بل أخرج من يعقوب نسلاً ومن يهوذا وارثاً لجبالي فيرثها مختاري وتسكن عبيدي هناك... أما أنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسي...فإني أعينكم للسيف وتجثون كلكم للريح لأني دعوت فلم تجيبوا تكلمت فلم تسمعوا بل عملتم الشر في عيني واخترتم ما لم أسَرَّ به. لذلك هكذا قال السيد الرب...وتخلفون أسمكم لعنة لمختاري فيميتك السيد الرب ويسمى عبيده اسماً آخر. فالذي يتبرك في الأرض يتبرك باله الحق**)) [سفر أشعياء ـ الإصحاح ٦٥] .

هل تسمية الله عبيده اسماً آخر كما ورد في النص سواء كان الاسم الجديد المختارين أو الفلسطينيين

، هل هذا يلغي أصلهم ؟ وهل اختلاف التسميات يفقدهم حقوقهم ؟

وقرار الله نافذ لا محالة ولو اجتمع عليه كل كفار الأرض فلن يتغير، وإرادة الله نافذة في جلب اليهود الذين يحاربون الله ورسوله من أصقاع الأرض والذين كتب الله عليهم القتل فيها لتكون نهايتهم على الأرض المقدسة وبأيدي عباد الله .

إن ما يجري في عالمنا اليوم هو معاداة لله تعالى الذي أقر الحقوق وذكرها في كتابه العزيز لعلمه الأزلي بما سيجري على هذه الحقوق من تزوير وما سيجري على هذه الحقوق من محاولات تغيير وتحريف وإقرار للباطل بدلاً من إقرار الحق باسم النظام العالمي الجديد وديموقراطيته.

إن ما يجري هو محاولة تذويب للشعب الفلسطيني وتحويله إلى شعب من الدرجة الثانية من الأداء في الحياة ، وهؤلاء اليهود وسباياهم الذين يحاولون ذلك ينسون أن الله تعالى اجتبى هذه السلالة منذ اجتبى جدها يوسف عليه السلام وأن هذه السلالة كالذهب يزداد بريقه كلما زاد الطرق عليه، هذه السلالة يزداد عطاؤها كلما زاد حصارها، هذه السلالة التي يزداد قربها من الله وتمسكها بدينها كلما حوصرت من أعداء الله ، أي تلجأ إلى الله دائماً ، هذه السلالة التي ستثير وستثور لها الأمة الإسلامية من أحفاد إسماعيل وغيرهم الذين حملوا لواء الإسلام من قبل والذين عاد فيهم الإسلام غريباً ولكنهم سيثوبون إلى رشدهم ويعودون لربهم فيحدثون الطوفان الذي سيقلب كيان الدنيا ويؤدي إلى إزالة السوء وكل أركان السوء التي أدت إلى عكس حقوق ذكرها الله لفترة زمنية قدرها الله .

هل يذوب شعب اجتباه الله وعرفته آيات الله ؟ لا، بل إنه ثابت بثبات آيات الله.

رجال الحق هؤلاء وأمثالهم من أحفاد إسماعيل عليه السلام هم الذين يخيفون المنافقين لأنهم اجتباهم الله وحملهم أمانة حمل كتاب الله إلى يوم القيامة بكل متطلبات ذلك من أمانة الحرص على هذه الأمة ومقدراتها.

هؤلاء الرجال ومع كل مغريات هذا العصر لا يتقنون الحديث إلا في الحقوق وإقرارها لأصحابها ولا يتحدثون إلا في العدالة وتطبيقها وهذا ما يحاسبون عليه الآن بحجة أن هذا الأمر سياسة ويمنع الحديث في السياسة وفق الديموقراطية الحديثة.

هذه النوعية من الرجال التي ما فتئت كل وسائل الإعلام التي زادت فساداً وإفساداً تحاول ضربهم بكل مقومات ثباتهم من أمور الدين.

وسائل الإعلام هذه التي أدخلت كل ما هو حرام بمعية الثقافة والتثقيف إلى كل بيت لتدمر أبناء هذه الأمة ولتهاجم هؤلاء الأبناء من خلال ما أودع الله فيهم من غرائز ولينطلقوا بقيادة غرائزهم ليعيشوا كالبهائم والأنعام بل أضل، لا يهمهم في هذه الحياة الدنيا إلا ملء البطون وإشباع الغرائز وفق ما يسمح به ويحض عليه النظام العالمي الجديد .

إن أحفاد إسماعيل عليه السلام وهم قبيلة قريش التي تركت الأرض في مكة وانتشرت في بقاع الأرض العربية تحمل الإسلام وفق تكليف ربها؛ الأمويون في الشام والعباسيون أحفاد العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ في العراق إلى جانب أقربائهم ، أعمام جدهم إسماعيل عليه السلام ومن حيث قدم أبوه إبراهيم الخليل عليه السلام، وكذلك انتشرت بعض هذه الذرية الصالحة في الجزيرة العربية وفي معظم الدول الإسلامية تنشر الإسلام .

إن هذه السلالة الطيبة ستصحو في كل مكان هي فيه لتراجع نفسها ولتعود لحمل الأمانة التي كلفها

بها رب العالمين وتقوم بالواجب المقدس وهو نصرة أبناء عمومتها من أحفاد يوسف عليه السلام، وسيحصل هذا وفق ما بين الله تعالى وكما وصف في كتابه العزيز.

إننا الآن وبسبب اختلاط الأنساب يستطيع أي إنسان من سكان فلسطين وشرق الأردن أن يدعي أنه من أحفاد يوسف، ولكن الإنسان بفعله لا بقوله. وكذلك فإن أي إنسان عربي من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي يستطيع أن يدعي أنه من أحفاد إسماعيل ولكن الإنسان بفعله لا بقوله وعلى كل منهم أن يثبت مقولته فعلاً لا قولاً.

شاهدت فيما شاهدت شريطاً مسجلاً للدكتور بسام جرار يشرح فيه من خلال فهمه لكتاب الله تعالى وباستخدام الحسابات والأرقام المختلفة التاريخية وربطها بآيات الله، أن نهاية دولة الفساد القائمة سيكون بعد ٧٦ عاماً من تاريخ إنشائها الذي كان في ١٩٤٨/٦/١٠م.

أنا لست بالمستوى العالي من فهم الدين الذي فيه الدكتور جرار ولا اعتراض لي على ما جاء في بحثه ولكنني مع ذلك لا أؤيد تحديد عام محدد تكون فيه نهاية أعداء لله ، رغم أنني أتمنى على الله أن يكون ما قاله الدكتور جرار صحيحاً.

كما أنني أتفق معه في أن عمر دولة الفساد هو حياة جيل واحد فقط وهذه سنة الله التي ليس لها تبديل ولا تحويل وهي أن دول الفساد لا تستقيم ولا ترتقي على هذه الأرض إلا جيلاً واحداً ثم تنهار ، سواء أكان هذا الانهيار على أيدي فساد مماثل أو بواسطة تقوى الله كما سيكون إنهاء دولة الفساد الثانية والأخيرة لليهود التي أقامها أعداء الله على الأرض المقدسة وبحجج واهية من جذور التاريخ يستندون إليها، هذه الحجج التي لو نوقشت في أي مجتمع فلن يقرها قانون ولا يقبلها عقل بشري ولا تقبلها عاطفة ولا يقبلها حس إيماني ولا دين لأنها تعاكس ما جاء في الدين فيما يقال فيها من حقوق.

كيف يدعي أناس أن لهم حقاً في فلسطين بحجة أن أجدادهم سكنوها قبل ثلاث آلاف سنة لمدة ثمانين عاماً وكانوا منافقين ، وأتاح الله لهم فرصة أن يسلموا ولم يسلموا فكتب الله عليهم الطرد منها لأن أمثالهم يجب ألا يعيش فيها.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يحق لهم أيضاً أن يطالبوا بالمدينة المنورة وخيبر وتيماء وقد سكنوها مدة تسعة عشر قرناً وعاشوا فيها فاسدين مفسدين وأتاح الله لهم فرصة أن يسلموا ويبقوا فلم يسلموا فكتب عليهم الطرد منها لأن أمثالهم يجب ألا يعيش فيها بعد أن غطاها الإسلام.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يحق للشعب الأمريكي أن يطالب بأوروبا وأن يطرد سكانها لأن أجداده قدموا من أوروبا وهذا ما لا ينكره فرد ولا تاريخ.

أما إذا كان الأمر فرض قوة القوي على من هو أضعف منه فيجب على هذا القوي ما دام لديه الرؤوس النووية أن يتصف بالرجولة وبالمصداقية التي تنبع من الرجولة ، ويجب على كافة دول العالم أن تعلنها بصراحة أنهم إنما يؤيدون اليهود ضد الإسلام وأنهم بعضهم أولياء بعض.

يجب عليهم أن يتحلوا بالرجولة التي يدعونها وأن يكونوا صادقين وأن يقولوا بألسنتهم ما تخفي صدورهم إن لم يكونوا جبناء.

يجب على الدول التي تؤيد الأعداء أن تكف عن الأكاذيب التي تستند إليها هي والمنافقون من العرب ليزدادوا خداعاً لشعوبهم وليؤيدوا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب على أحفاد يوسف لا لسبب إلا حسداً من عند أنفسهم لأن الله اجتباهم عندما اجتبى جدهم يوسف عليه السلام وأن الله اصطفاهم على العالمين وضم لهذا الاصطفاء أحفاد إسماعيل ليشاركوهم الإصطفاء وحمل أمانة رب العالمين ونشرها للبشرية ليكونوا مشعل حق بإذن ربهم.

يجب على الأعداء أن يكفوا عن الكذب كما يجب على من يحملون الإسلام أن يميزوا الحق من

الباطل بالرجوع لكلام الله تعالى وألا يجاملوا عدواً في أي أمر من أمور الله.

يجب على المسلمين أن يميزوا عدوهم ومن يسانده وأن يفاصلوا بين الحق والباطل وألا يجاملوا الباطل على حساب إغضاب الله.

فليغضب الأعداء وأعوانهم وسباياهم المنافقون في سبيل إرضاء رب العالمين.

نقول للذين كفروا من أهل الكتاب وسباياهم المنافقين لتكون حجة عليهم إنكم تعاكسون قرار الله تعالى الذي منح فلسطين لأحفاد يوسف وهم الفلسطينيون بالعرف الحالي وأعطى الحجاز لأحفاد إسماعيل وهذه المناطق لا يدخلها اليهود وهذا قرار الله تعالى.

إن فلسطين ترحب بأي ضيف مؤمن ولا دخول إليها إلا للمؤمنين وهاأنتم يا أعداء الله تنفذون وعد الله بجمع من كتب عليه القتل من بني إسرائيل واليهود من ملل أخرى لقتلهم على أرض الأقصى.

وإنكم تنفذون قول الله تعالى فيهم وقضاءه عليهم بإحضارهم لفيفاً ليلاقوا حتفهم وبالتعاون مع المنافقين الذين يظنون أنهم يخدمونهم والذين سيشهدون نهاية اليهود ثم نهاية أنفسهم بإذن الله.

نقول لأعداء الله ولسباياهم المنافقين، إن الذي يهرب الآن قد ينجو بنفسه وإلا فلا يلومن إلا نفسه. كما نقول لهم توقفوا عن الحجج الواهية بأن أجدادكم سكنوا فلسطين فإنها أعذار غير مقبولة حتى من أنفسكم فيما لو انعكس الوضع وصار ضدكم وإنكم تعلمون أنكم تعاكسون منطق الحق وتعادون إقرار الحق وتدعون إلى الباطل.

نقول لأعداء الله ولسباياهم المنافقين أن أعلنوا نواياكم وأنكم تستندون إلى باطل لا يقبله إلا من هو على باطل.

نقول لليهود ولسباياهم المنافقين ، كفاكم ادعاء الارتباط بأنبياء الله موسى وهارون وسليمان وداود عليهم السلام وأنهم أنبياء بني إسرائيل . نقول لكم يا يهود إنهم أنبياء الله ديناً ، وإنهم أجداد الشعب الفلسطيني سليل الأنبياء وأنكم يا أعداء الله لا تمتون إليهم بصلة قرابة إلا قبل زمانهم بأحد عشر قرناً من الزمن ، وتخلل هذا الزمن بينكم العداء والكراهية والحسد وقتل الأنبياء من أحفاد يوسف ثم العداء إلى يوم القيامة.

نقول لأعداء الله وأعداء البشرية، كفاكم احتجاجاً بما تسمونه هيكل سليمان وما هو إلا مسجد سليمان وإنكم لا تعلمون من الذي بناه ، وكما أخبرنا الله تعالى فإن داود ﷺ هو الذي بناه وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ [ص:٢١-٢٢] .

إنهم صعدوا سور المسجد الذي يطل على المحراب ودخلوا على داود الذي كان في المحراب ؛ والمحراب جزء من المسجد ، ولا يمكن لنبي الله سليمان ﷺ أن يزيل مسجداً أقامه نبي الله ووالده داود ﷺ ، ومن الممكن أن يكون قام بتوسيع المسجد أو تزيينه بالإمكانيات التي أعطاه الله إياها.

نقول لأعداء الله إنه عندما نزلت الآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها:﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ

ءَايَـٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١].

إن الله تعالى سماه المسجد الأقصى وقد كان مهدوماً في صدر الإسلام ولم يكن ما نراه الآن من بناء قائم وصلى فيه رسول الله ﷺ بالأنبياء في ليلة الإسراء وهذا تأكيد من الله ورسوله أن هذا المسجد هو مسجد إسلامي بناه من قبل أنبياء مسلمون ويجب أن تقام فيه صلوات المسلمين.

نقول لأعداء الله بأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حين حرر المسلمون فلسطين من الاستعمار البيزنطي سأل خليفة المسلمين عن مكان المسجد الأقصى كما ورد في كتاب تاريخ فلسطين القديم.

(ثم سأل عمر البطريرك صفرونيوس عن موضع المسجد الأقصى فدله على عمود داود وكرسي سليمان (حيث كان المسجد الأقصى) فوجده مغموراً بالقمامة ففرش عمر عباءته وأخذ ينزح فيها القمامة من مكان المسجد الأقصى ويلقيها في الأودية واقتدى به قادة المسلمين ورؤساء الجند حتى طهروه تطهيراً، ثم بنى عليه مسجداً) .

هذا هو تقدير المسلمين لمسجد سليمان وداود عليهما السلام أن طهروه ونظفوه، ولقد أعاد بناءه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بعد ذلك بعشرات السنين. أي أن ما نراه الآن هو إعادة بناء فوق مكان المسجد الأقصى ألديكم شك في تسمية الله له بهذا الاسم؟

فمن أين وردت تسمية هيكل سليمان وقد سماه الله ـ المسجد ـ ومن أين لكم بسليمان وهو أحد أجداد الشعب الفلسطيني الذي بارك الله فيه وبارك له في الأرض المباركة التي تضم الأقصى والتي كلها مسجد أقصى.

أقول لليهود : إنني أعتقد جازماً أنكم تعلمون بأن سليمان عليه السلام هو من أحفاد يوسف وتعلمون أنكم الأسباط العشرة المطرودون وأن أنبياء الله كلهم من سبط يوسف عليه السلام وتعلمون أنهم أجداد الشعب الفلسطيني لأنكم تدونون تسلسلكم ومن باب الأحقاد وعدم الانصهار في بوتقة إسلامية، وأسأل الله أن تكونوا جميعاً متأكدين من هذه المعلومة لتزدادوا حقداً وحسداً لأحفاد يوسف لأنكم بذلك إنما تزداد حياتكم ضنكاً أنتم وسباياكم المنافقون.

كما أقول لأحفاد يوسف وأحفاد إسماعيل عليهما السلام أن يتيقنوا من قضاء الله ورحمته وقرب نصره، فإن الله تعالى الذي أخبر عن احتلال فلسطين قد أخبر عن تحريرها في السورة نفسها وبآية تالية وبمعركة شديدة عارمة كما أقول لكم لا تسكتوا عن قولة حق مهما كانت النتائج لأن هذه هي إرهاصات ومقدمات نصر الله.

نأتي الآن إلى ما نراه من حال أمتنا: إن شعبنا العربي وفي مختلف مواقعه قسمان غير متساويين، أحدهما وهو القسم الأقل وتقدر نسبته بأربعة من كل مائة هؤلاء لديهم ما أعطاهم الله من المرونة الفكرية ومقومات القيادة وهؤلاء صنفان أحدهما في جانب الإيمان ويعرف الله ويقود الأمة إلى الصلاح فيما لو تولى المسؤولية، وأما الصنف الآخر فهو على ضلال ويقود الأمة إلى الضلال لو تولى مسئوليتها لما في هذا الصنف من أنانية وحب الذات فإنه يوجه الأمة لخدمة مصالحه الشخصية .

وأما باقي الأمة فإنهم العوام ويحتاجون إلى من يفكر لهم ويقود مسيرتهم في حياتهم ولديهم من الطاعة للمسؤولين والثقة العمياء فيهم ما يجعلهم يطيعون كل القوانين لكونها قوانين ودون تفكير.

كما وليس لديهم المقدرة الفكرية ولا الاستعداد الفطري لتصويب قانون خاطئ أو انتقاده، ناسين أن الله تعالى أجاز للمسؤولين التشريع فيما لا يعارض شرعه، وأن ما عارض الشرع فإن طاعته غير ملزمة ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

إن حال الأمة بالاتجاه للصواب أو الاتجاه للخطأ والتدهور تعتمد على أي صنف من القياديين يمسك بزمام الأمور ، ولنتذكر على سبيل المثال حال مصر حين كانت بقيادة (شاور) رئيس وزرائها وكانت غارقة في التعامل مع الأعداء خدمة (لشاور) ثم تبعه في قيادة مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قاد مصر نحو الصلاح، وحررت مصر فلسطين من الصليبيين والمسافة الزمنية بين قمة السوء في عهد شاور وقمة الخير في عهد صلاح الدين هي عشر سنوات ، أي أن الجيل لم يتغير ولم يتبدل، والجيل الذي كان غارقاً في الأخطاء هو نفس الجيل الذي صنع المعجزات، وهذا ما يخيف أعداءنا منا.

وأقول لأحفاد يوسف وأحفاد إسماعيل عليهما السلام بأن الله تعالى الذي أخبرنا عن تحرير فلسطين أخبرنا كذلك ببعض التفاصيل والمقدمات لهذا الحدث، ومن هذه المقدمات التي بينها رسول الله ﷺ أن الشعب العربي المسلم سينقسم إلى فسطاطين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه وهذا ما ورد في الحديث الشريف وهو أن هذا كائن مع الفتن التي ستعصف بهذه الأمة.

وإن مما يعنيه هذا الانقسام الشامل أنه سيكون هناك جدل بين أهل الحق وأهل الباطل ، ومن أسباب هذا الجدل أن الباطل سيدهم الناس في البيوت وسيؤدي إلى قسمة الناس إلى فسطاطين أي فريقين.

نعود الآن إلى ما أوردنا من شروح تاريخية في بحثنا هذا مرت في مختلف مراحل حياة بني إسرائيل بشقيهم المؤمن منهم (وهم سبط يوسف حالياً) أو الكافر منهم وهم الذين لعنهم الله وهم الأسباط العشرة وكل من اتبع ما معهم من اليهود .

إن في هذه الشروح ما يؤكد صحة ما نقول أحياناً، وهناك ما يشير إلى صحة ما نقول ولا يؤكده، ولكن لا يوجد في جميع الحالات ما يشير إلى عكس ما نقول.

وإن هذا الأسلوب الذي اتبعته في بيان الأمر وإثبات صحته سيقود من لديه حاسة إيمانية إلى صحة ما نقول وسينحاز إلى فسطاط الإيمان، وأما من كان ممن يحب الجدل لذات الجدل فإنه سيخترع تساؤلات بدافع من قرينه المقيد له وهو شيطانه الذي يسير حياته وستكون هذه التساؤلات بلا إجابة لكي تؤول الأمور إلى جدل غير هادف ثم إلى ضياع لإفقاد الموضوع أهميته، ومثل هؤلاء سينحازون إلى فسطاط النفاق ولا نريدهم أن يفسدوا فسطاط الإيمان ونسأل الله ألا يقتربوا من فسطاط الإيمان. فمن كان لديه حس إيماني بهذا المعنى فليصدق ومن لا يوجد لديه مثل هذا الحس بمثل هذه المعاني فلينحز إلى فسطاط النفاق.

إن المشكلات التي ستدهم الناس في بيوتهم وفي حياتهم ستدفع من لم يكن يفكر إلى التفكير بعد أن كان يستسلم لمن يقوده، وسيبدا بتمييز الصواب من الخطأ وينحاز إلى ما يراه الحق من الفسطاطين.

وستزول فئة اللامفكرين التي كانت تركن إلى فكر قيادتها وسيعقب ذلك طوفان ينتج عن تصادم الفسطاطين، فسطاط الإيمان الذي أسأل الله أن يكون الأغلبية من هذه الأمة مع فسطاط النفاق وسبايا اليهود ومن ثم ستكون الملحمة النهائية التي من أهم نتائجها بعد أن تسحق سبايا اليهود أن تقتلع من فلسطين رجس اليهود.

أسأل الله أن يكون في كلامي هذا ما يسهم في تمحيص الناس وفرزهم إلى فسطاطين وأن يكون فهم الآيات والانجذاب إليها للعمل بها عامل جذب لفئة الإيمان وأما الذين لا يؤمنون بها لكبر في أنفسهم فهم فسطاط النفاق وأعوان الشيطان.

وأبشر أحفاد يوسف بنصر الله الأكيد، أولئك الذين حوربوا وهجروا لا لسبب إلى لقربهم من ربهم، وما عودوا إلا حسداً ممن يحسدونهم وأذكرهم بقول الله تعالى في أبناء عمومتهم أحفاد إسماعيل ما ينطبق على حالهم : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ

مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٣٩-٤٠].

الهدى والمراجع

١. **القرآن الكريم**: تنزيل من رب العالمين.
٢. **الكتاب المقدس**: العهد القديم والعهد الجديد.
٣. **جامع البيان في تفسير القرآن**: الإمام الطبري.
٤. **مختصر تفسير الطبري**: الإمام الطبري.
٥. **الجامع لأحكام القرآن**: الإمام القرطبي.
٦. **تفسير القرآن العظيم**: الإمام الحافظ ابن كثير.
٧. **روح المعاني**: الإمام الألوسي.
٨. **في ظلال القرآن**: السيد قطب.
٩. **مكاتيب الرسول**: الأحمدي.
١٠. **تاريخ فلسطين القديم**: ظفر الإسلام خان.
١١. **عمر بن العاص بين يدي التاريخ**: عبد الخالق سيد أبو رابية.
١٢. **مصر القديمة**: الدكتور سليم حسن.
١٣. **معالم تاريخ مصر القديم**: الدكتور رمضان عبده.
١٤. **العرب واليهود في التاريخ**: الدكتور أحمد سوسة.
١٥. **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**: الدكتور أحمد أمين سليم.
١٦. **التاريخ اليهودي العام**: الدكتور صابر طعمه.

فهرس الموضوعات